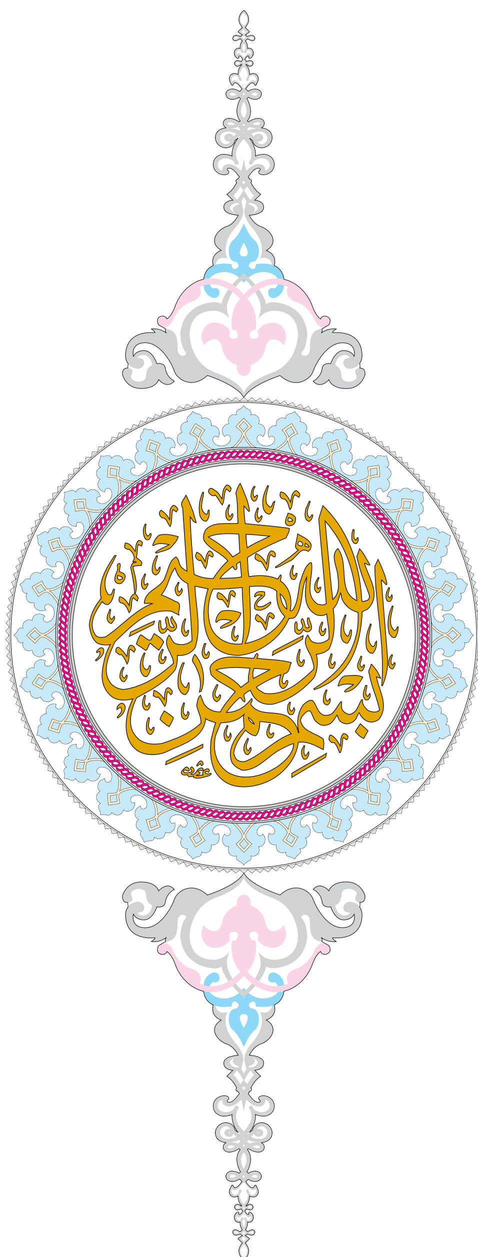
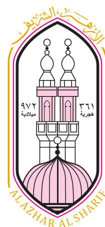




٥٦


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

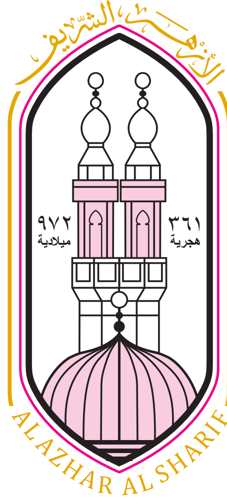
٥٦

المجلد الخمسون ـ القسم الثاني

السنة ١٣٩٨هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25899823 / 25907497

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

www. azhar. eg

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية

SAQIFAT AL-SAFA TRUST

لبوان ـ ماليزيا

www.saqifat-alsafa.org

E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مدير التحرير
والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء الخامس - السنة الخمسون - رمضان ١٣٩٨ هـ - أغسطس ١٩٧٨ م





الأحزاب الدينية

لفضيلة الامام الاكبر شيخ الازهر
الدكتور عبد الحليم محمود

فى عصر الإسلام الأول كان كل شىء مصطبغا بالصبغة الدينية ، وينبثق عن جو مصطبغ بالصبغة العامة للدولة : صبغة الدين . ولاغرابة فى هذا ، فإن الإسلام ليس عقيدة قلبية فحسب ، ولكنه نظام يتضمن جميع قوانين المجتمع .

إنه عقيدة وأخلاق ، كما أنه تشريع ونظام للمجتمع ، ومبادئ عن الاتجاه العام للدولة ، بحيث تكون فى إطار الوحى ، أمة تسلم نفسها لله سبحانه ، محكِّمة كتابه ، وسنة نبيه .

من أجل ذلك قلنا : « الأحزاب

الدينية » ولم نقل « الأحزاب السياسية » .

وما كان لكلمة السياسة وجود بمعناه الحالى فى ذلك العصر . هذه الأحزاب نشأت نشأة مبسرة تشه أن تكون طبيعية .

لقد نشأ عقب انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى سؤال عادى ينشأ فى كل مجتمع :

من الذى يتولى الأمر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

إن الإسلام لايعترف بطبقية أساسها النسب فقط ، والشرف فى الإسلام والفضيلة : إنما يتبعان التقوى .

وفى الإسلام مبادئ — أشرف ما تكون المبادئ — بالنسبة لذلك :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) .

« إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم» ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

« فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »(٢) .

« رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » رواه أحمد ومسلم والحاكم وغيرهم .

وإن الجو الإسلامى كله يوحى بأن فضل الشخص لايرجع إلى مال ولا إلى جاه ولا إلى منصب ولا إلى نسب . . . وإنما إلى صلته بالله :

ومن أجل ذلك لم تتجه الجمهرة العظمى من المسلمين إلى أسرة بذاتها لتولى الحكم .

إن الحكم فى الإسلام خلافة .

والخلافة اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

إنها خلافة له ، ومن أجل ذلك كان الخليفة يتحرى ما كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويسير على نسقه .

والأمر شورى :

« وشاورهم فى الأمر »(٣) .

« وأمرهم شورى بينهم »(٤)

وقد غرس رسول الله صلى الله عليه وسلم مبادئ الشورى بسلوكه فى غزوة بدر حينما استشار المسلمين فى حرب المشركين ، وكانت نتيجة الشورى ترجيح فكرة الحرب .

وأشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موضع نزوله فى هذه الغزوة ، وأخذ بالمشورة واستشار المسلمين فى موضوع الأسرى .

(١) من الآية ١٣ من الحجرات ٤٩

(٢) من الآية ١٠١ من المؤمنون ٢٣

(٣) آل عمران : من آية ١٥٩ .

(٤) الشورى : من آية ٣٨ .

واستشار المسلمين فى غزوة الأحزاب وانتهت المشورة بحفر الخندق ، واستشار المسلمين فى أمور أخرى كثيرة .

ولما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى اجتمع الصحابة فى سقيفة بنى ساعدة ، وتشاوروا فى الشخصية المثلى لتولى الخلافة ، وانتهى بهم الرأى إلى أبى بكر رضى الله عنه .

ولقد كان أبو بكر رضوان الله عليه — جديراً بها .

ولقد قام رضوان الله عليه بها خير قيام .

ورأى أبو بكر — رضى الله عنه — أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختارته الأمة لمصلحتها الدينية والدنيوية ، وهذا معناه التفويض فى اختيار من يخلفه ، وتلك وجهة نظر لاغبار عليها .

إن المسلمين اختاروه خليفة : أى ألقوا إليه قيادهم ، واثقين به فى أمور مصالحهم ، فاختار لهم — وقد أسلموا إليه الأمر — من يخلفه .

وتحرى هو الأمر ، واستشار واستخار ولم يأل جهداً فى النصيحة ، واختار فى نهاية حياته وهو مقبل على ربه ، اختار عمر رضى الله عنهم .

ولكن بعضا من الصحابة لم يأخذوا بوجهة النظر هذه ، وأخذ منطقهم وضعاً آخر .

إن الأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بحمل الرسالة إذا كان يصلح لها ، فإذا لم يكن فى الأقربين من يصلح فيكون الخليفة فى من يليهم ، وهكذا .

إنها القربى والصلاحية ، ولا يخرج الأمر عن ذلك إلا إذا انعدمت الصلاحية الحقة تماماً .

وكان هذا الفريق يتخذ من سيدنا على — كرم الله وجهه — مثلا كريماً لتولى الخلافة .

ولقد كان سيدنا على مثلا كريماً للخلافة ، ومن الذى يعارض فى ذلك ؟

لقد كان مثلا أعلى فى الصلاح والتقوى ، وفى الشهامة والبطولة ، وفى العلم . . ولكن الأمور سارت على غير ما يحب هؤلاء :

إنها سارت على غير ما يأملون حينما اختير سيدنا عمر ، وسارت على غير ما يحبون حينما اختير سيدنا عثمان .

وكان هذا الفريق يقوى على مر الزمن ويكثر عدده خصوصاً فى أواخر عهد عثمان رضى الله عنه .

وعثمان — رضى الله عنه — هو : « ذو

النورين »، وهو الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » رواه ابن هشام .

وقال عنه صلى الله عليه وسلم عندما وضع فى حجر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مبلغا من المال هو من الكثرة بحيث أفاد المسلمون منه فائدة كبرى فى حربهم ، قال عنه :

« ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » رواه أحمد والترمذى .

ثم هو من العشرة المبشرين بالجنة .

وانتهت حياة عثمان بهذه المأساة التى لا نحب الخوض فيها مراعاة لحرمة الصحابة ، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده هو أن سيدنا على براء من دم عثمان ، وكذلك كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتولى سيدنا على الخلافة ، تولاها عن طريق الشورى ، وكانت خلافته صحيحة .

ولكن حدث ما حدث من المأساة الكبرى ، والحرب التى سقط فيها تسعون ألفا من فرسان الصدر الأول للإسلام .

وتولى معاوية الحكم ، وتغيرت صورة الحكم ، فبعد أن كان خلافة أصبح ملكا عضودا .

وبعد أن كان تـَرَسـُّماً دقيقاً لخطوات رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبحت شخصية الحاكم لها دخلها فى الأمر .

ومنذ أن حدثت هذه الأحداث وجد فى الأمة أحزاب :

حزب العلويين أو الشيعة .

حزب الخوارج .

حزب الأمويين .

حزب المرجئة .

وأصبح النزاع نزاعا يدور حول أشخاص ، ومن أجل أشخاص ، وأصبح فى الأمة أحزاب تدين بالولاء لأشخاص .

والإسلام لا يعترف بأشخاص ، وإنما يعترف بمبادئ وأخلاق وصفات عليا ، وشعاره :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

إن الإسلام يعترف بأنبياء ورسل ، ومن بينهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما غيره من المسلمين فإنه لاعصمة لهم فى نظر الإسلام .

إن الإسلام يهتم بالمبادئ والمثل العليا والقيم الكريمة ، ومكارم الأخلاق .

أما الأشخاص فلا يتأتى أن تكون سبباً فى التفرقة بين الأمة . ويجب على المسلمين جميعاً أن يعلموا ــ حق العلم ــ أن الإسلام ليس من عقائده ما يتصل بالشخصيات ، اللهم إلا الرسول صلى الله عليه وسلم .

فإذا أخرجنا الشخصيات من محيطنا الاجتماعى فإن كل الأحزاب التى تقوم على الشخصيات إيمانا بها أو معارضة لها : تسقط من نفسها .

وما من شك فى أن البطولات تفرض التقدير على المجتمع ، وهذا أمر جرى عليه العرف ، وتناسقت العواطف مع العرف ، وشعور الإنسان المتدين يسير مع العرف ومع العواطف .

إن الإنسانية تحترم البطولات التى تقدم لها أعمال الخير : سواء أكانت بطولات عملية أم بطولات أخلاقية تهدى إلى الرشد ، وتدعو إلى سبيل الله .

ولكل إنسان مطلق الحرية فى أن يقدر فلانا أو يفضله على فلان .

أما أن تدخل الأشخاص ــ غير الأنبياء والرسل ــ فى العقائد فإن ذلك أمر بعيد عن الجو الإسلامى الذى من شعاراته قوله تعالى :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وأول قواعد التقريب أن نسقط من عقائدنا ما يتصل بالأشخاص ، ولنا أن نحترم منهم من نشاء ، وأن نصرف النظر عمن نشاء .

ولكن ذلك وحده غير كاف فى السير بالفرق إلى الوحدة ، وإذا كان ذلك يلغى الأحزاب الدينية فإنه لا يقضى على الفرق الدينية .

هذا وبالله التوفيق

عبد الحليم محمود
(شيخ الأزهر)



بين الصُورة والحَقيقة

العلامة أبو الحسن الندوى

إن كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة فى حياتكم ، وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة وأضرب لذلك مثلين : هذا مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءى للناظر كأنها تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، فى لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة ، وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ إنها ليست إلا للزينة أو المثال .

إنكم ترون فى المتحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئاب والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح . . وكل سبع مخيف . . ولكنها جثث هامدة لاحراك بها ، وأجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ، ليس فيها رمق من حياة . . وقوة تهجم بها وتصول . . حتى لاتحس منها من أحد ولا تسمع لها ركزاً .

إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها . . ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة فى الحياة وتأتى به من عمل ونشاط . . ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها . . فإذا وقع بينهما صراع انهارت الصورة . . ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة ، فإذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة أو عول عليها فى مهمة خانته الصورة وخذلته أحوج ما يكون إليها .

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة . . تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة . . لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وإن الولد يقدر أن يسقط الأسد الميت

المحشو بالليف والقطن . . بيده الضعيفة الناحلة ، لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة . . والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهيبة .

إن هذا العالم الذى نعيش فيه عالم الحقيقة والأمر الواقع . . وقد خلق الله كل شىء على حقيقته . . فللمال حقيقة . . وحبه فطرى طبعى . . ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب . . وللأولاد حقيقة والحنان إليهم وحبهم فطرى ، ولأجل ذلك وردت الأحكام فى الشرع عن تربيتهم وتعليمهم . . وكذلك للحاجات الطبيعية . . والميول الفطرية حقيقة لا تجحد . . ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ، ورغبة أعظم وأشد .

إننا نحتاج إلى حقيقة الإسلام — والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة فى العالم ، أما صورة الإسلام فهى عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل ، لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أى حقيقة .

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الإسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة . . لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدساً رائعاً ، ليس لها سلطان وتأثير . . وأن صورة إسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لاتقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الجنسية أو تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

إن الكلمة التى كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب ، والأرواح وكانت تهون على ترك الناس المألوفات وقهر الشهوات والشهادة فى سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله ، واحتمال المكاره وتجرع المرائر فى سبيل الله ، هى عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا فى النوم طول الليل ، ويقوموا لصلاة الفجر ، نعم ، الكلمة التى كانت تغلب على شهوة الخمر فتحول بين الإنسان وبين الكأس ؛ وهى على راحته فيمتنع عن شربها ، لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هى الآن قد أصبحت لا تملك أمرا ولا نهيا .

سرح طرفك فى تاريخ الإسلام وتجول فى فصوله وأوراقه ، يظهر لك أن كلمة الإسلام التى كان الصحابة وكان المسلمون فى القرون الأولى يتلفظون بها ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وكلمتنا نحن ألفاظ مجردة . . ونطق فارغ . . ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها فى حياة الأمة . . ثم إننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على حياتنا . . ونرجو أن تؤتى هذه الكلمة أكلها كل حين .. وتحدث ماأحدثت فى الماضى .. حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تساءلنا وقلنا : « ألسنا مسلمين ؟ ألسنا نصلى ونصوم ؟ ألا نتلفظ بكلمة الإسلام ونرددها صباح مساء ؟ فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ؟ ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم ؟ وأين ثمرات شجرة الإيمان ؟ وأين نتائج الصلاة والصيام ؟ وأين ما وعد الله من النصر المبين .. والاستخلاف والتمكين ؟

لاتخدعنا أنفسنا . . ولنعلم أنهم كانوا أصحاب جد وحقيقة الدين . . لقد كانت كلمتهم حقيقة . . وكانت صلاتهم حقيقة . . ونحن متجردون عن هذه الحقائق . . فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة وتغنى غناءها . . إنما هو وهم وخيال . . وضرب من المحال .

أما قرأتم فى التاريخ أن خبيبا رضى الله عنه رفعوه على الخشبة وتناولوه بالرماح والأسنة . . حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن . . فقال له : « أتحب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مكانك » ؟ فيضطرب ويقول : « والله لا أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه » !

يا أبناء الإسلام!

إن الذى ثبته فى هذا المكان .. وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة فى حب الرسول هل هى صورة الإسلام ؟ لا بل هى الحقيقة التى مثلت بين عينيه الجنة . . والرماح تنوشه وتعبث بجسمه . . وناجته . . وقالت : صبراً ، يا خبيب ! فما هى إلا لمحات وثوان . . وها هى الجنة تنتظرك ورحمة الله ترتقبك فإذا احتملت آلام هذا الجسد الفانى والحياة الزائلة العابرة نلت السعادة الدائمة . . والحياة الباقية .

هذه هى اللذة الروحية . . وحقيقة الحب والإيمان التى أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة فى قدمه ، فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها على هذا الإخلاص والتفانى . . والثبات على العقيدة .. والصبر على الموت ؟ كلا!

إن الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام . . بل حتى الخيالات والأوهام وقد بدا لنا ذلك فى الاضطرابات الطائفية الماضية فى الهند . . فإن أناسا من المسلمين قد غيروا صورة الإسلام خوفاً مما مر بخاطرهم من الفزع . . وخشية الموت . . وما دار فى رؤوسهم من معارك خيالية حامية . . واختاروا شعار الكفر . . وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة .

هاجر سيدنا صهيب رضى الله عنه ، فلما كان فى الطريق اعترضته جماعة من مشركى مكة وقالوا له : أتيتنا صعلوكا حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الإسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقة الإسلام على ضدها ، وقال لهم صهيب : « أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم قال : فإنى قد جعلت لكم مالى »[1] وهكذا انطلق صهيب بدينه ؛ متجرداً من ماله ، فرحاً مسروراً كأنه لم يفقد شيئاً ، ولم يخسر شيئا .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢١

وخرج سيدنا أبوسلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجال من بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقة الإسلام بحب الزوج والولد ، فما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبوسلمة وزوجه وولده تحت رعاية الله، وهاجر وحيداً ، هل الصورة تستطيع ذلك ؟ ؟ وهل يقدر أصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ! بل سمعنا أن أناسا قد ارتدوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها ،

كان أبوطلحة مقبلا على صلاته فإذا طائر يدخل فى بستانه ثم لايجد الطريق للخروج ، ويميل إليه قلب أبى طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب أن يشغله شىء عن حقيقة صلاته، وينازع قلبه !

إن للبستان حقيقة ، ولثمره وأكله حقيقة ، ولا تغلب هذه الحقائق إلا

حقيقة الإسلام، وإن صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ، ولذلك لا تقدر أن تقاوم أدنى الحقائق المادية .

لقد كان فى حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مائتى ألف أو يزيدون ، فإذا النصرانى كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فيقول خالد رضى الله عنه : والله لوددت أن الأشقر برأ من توجعه، وأنهم أضعفوا فى العدد[1].

بم كان خالد رضى الله عنه مطمئنا، ولم لم يشغل خاطره هذا العدد الهائل ، ولم لم تكبر فى عينه جنود الروم الكثيفة ؟ ذلك لأنه كان مؤمنا بالله واثقاً بنصره، ولأنه كان يعلم أنه على الحقيقة ، وأن مقابله صورة فحسب ، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت لا تقدر أن تقاوم حقيقة الإسلام .

لا شك أننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ، ومنا من يعرف ما يقول، ولكن الصورة شىء والحقيقة شىء آخر إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة فإذا قالوا : لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره ، ولا رب غيره، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضار إلا هو له الملك والحكم . . والخلق والأمر . . بيده ملكوت كل شىء . يجير ولا يجار عليه، وأخلصوا له الحب والخوف ، والسؤال ، والرجاء ، والعبادة والدعاء ، وأصبحوا عباداً حنفاء ، شجعاناً أقوياء ، لا يهابون العدو، ولا يخافون الموت ، ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع إلى أنفسنا ، ونفكر : هل هذه هى الحقيقة متغلغلة فى أحشائنا ، ومتسربة فى عروقنا وشرايينا ، وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء ؟ معذرة وعفواً ، أيها السادة ! إنا نخاف أن لا يكون الأمر كذلك ؛ وأن نصيب الصورة فى حياتنا أكثر من أن نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف فى حياتنا ، وسر شقائنا ومصائبنا ، إننا جميعا نؤمن : أن الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل إننا حاملون لحقيقة الإيمان كأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول صلى الله عليه وسلم يقول: « قوموا إلى جنة عرضها

---

(١) الأشقر : فرس خالد رضى الله عنه .

السماوات والأرض » فرمى بما معه من التمر وقال: « لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه ، إنها لحياة طويلة » وقاتلهم حتى قتل ، لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشك فيها ، فمن أيقن يقول كأنس بن النضر : إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للأمير : إنى قد تهيأت لأمرى، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ! تقرئه عنى السلام وتقول : يارسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .

أفيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول فى سبيل الله ، وملاق رسول الله ومجتمع به فى نعمة الله وأنه مكلمه ومحدثه ، فإذا حصل لرجل مثل هذا اليقين فما الذى يمنعه من استقبال الموت ، وما الذى يحول بينه وبين الشهادة ؟ إن أكبر انقلاب وقع فى تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة، واستولت على حياة الأمة ، وذلك من عهد بعيد فى التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة ، الإسلامية كمجدار ينصبه الفلاح فى حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش، ولا تزال الطيور والوحوش تظن أنه إنسان ، أو حارس فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكى . أو حيوان جرى فيجد أنه ليس بشىء ، هنالك تدخل الطيور والوحوش فى هذا الحقل ، وتعيث فيه ، وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الإسلام مدة طويلة جداً، فلم تجترئ عليهم أمم العالم ، ولم يدر بخلد أحد أن يمتحن هذا الشبح المخيف ويتحققه .

ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتار على بغداد ، افتضح المسلمون وظهر إفلاسهم فى الروح والقوة المعنوية ، من ذلك الحين ، أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الأمم، فإن الصورة لا تقوم إلا على الجهل والغرور فإذا انكشف الغطاء وزاح الستار، تبين الصبح لذى عينين .

وإن ما نرى ونقرأ فى تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم فى ميادين القتال ، إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ،

وقد فضحتنا الصورة فى كل معركة وحرب ، ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطع حملها ولم تمسكها وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا وكذبت أمانينا وخذلتنا فى الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الإسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفى كل مرة تنخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد الناس أنه هزيمة الإسلام وخذلانه — وبذلك هان الإسلام فى عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولايدرى الناس أن حقيقة الإسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تنازل أمم العالم ، وأن الذى يبرز فى الميدان هو صورة الإسلام لاحقيقته وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والأمر الجد .

هاجمت بعض الدول الأوربية فى الحرب الأولى تركيا الإسلامية ، تركيا التى أرعبت أوربا كلها ، وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا فى هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للإسلام ، وقد فقدت شيئا من حقيقة الإيمان ، ففشلت فى المقاومة وفقدت كثيراً من ممتلكاتها .

واجتمعت سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية فى فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت المادية الأوربية جمرة القلوب وشعلة الجهاد فى سبيل الله ، وحبب إليها الحياة واللذات ثم إنها تتخلف تخلفا كبيراً فى المعدات الحربية والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

إن الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ؛ لأنها قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل ، لأن الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الإيمان والإسلام ، فلنحافظ على هذه الصورة ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغى أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

يا أبناء الإسلام ! إن وعد الله من النصرة والفتح فى الدنيا ، والنجاة والغفران فى الآخرة ، كل ذلك محصور فى

حقيقة الإسلام ، وذلك قوله تعالى : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[١]. لا شك فإن الخطاب فى هذه الآية للمسلمين ، ومع ذلك اشترط الإيمان للعزة فى الأرض والعلو والشوكة ، وقال فى موضع آخر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »[٢]. وقال أيضاً : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[٣] ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الإيمان والأعمال الصالحة اشترط أن يكون فى المسلمين حقيقة الإيمان والتوحيد .

إن أكبر مهمة دينية فى هذا العصر ، وأعظم خدمة ، وأجلها للأمة الإسلامية هى دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام ، فلمثل هذا فليعمل العاملون ويبذلوا جهودهم ومساعيهم فى بث روح الإسلام فى جسم العالم الإسلامى ، ولا يدخروا فى ذلك وسعاً ، فبذلك يتحول شأن هذه الأمة وفى نتيجته شأن العالم بأسره ، فإن شأن العالم تبع لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبع لحقيقة الإسلام ، فإذا زالت حقيقة الإسلام من الأمة المسلمة ، فمن يدعو العالم إلى حقيقة الإسلام ، ومن ينفخ فيه الروح ؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه : « أنتم ملح الأرض فإذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ »

قد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح ، لأن السواد الأعظم للأمة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروح والحقيقة فى الحياة الإنسانية مرة أخرى ؟ !

إن فى هذا العالم أمماً لا تزال فارغة عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولم يبق فيها إلا عدة معتقدات مرسومة ، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتها الدينية ، والروحية الحقيقية ، حتى إن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم وتجديد حياتها الدينية

(١) آل عمران ٣ : ١٣٩ .
(٢) غافر ٤٠ : ٥١ .
(٣) النور ٢٤ : ٥٥ .

والخلقية ، والذين نهضوا لإصلاحها، وبذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل قد أخفقوا ولم يفلحوا فى مهمتهم رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التى حدثت فى هذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والإذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير ، وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاماً ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياه الدينية ، والخلقية والروحية .

أما الأمة الإسلامية فلا تزال — على علاتها وضعفها — مستمسكة استمساكاً ما بعروة الدين وهى الإيمان بالله والرسول واليقين بالدار الآخرة ، والحساب ، لم تتركها ألبتة ، ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى ، بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزرى بإيمان كثير من خواص الأمم الأخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخاً وحماسة ، ثم إن كتابها لايزال فى يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ؛ ولا تزال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة إلى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الإيمان سريعة الاتقاد ، والشقة بين الصورة والحقيقة : قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة إلى تجديد الإيمان ، والرجوع إلى الدين ، والتشبع بروحه والتحلى بحقيقته .

لست قانطا من ظهور حقيقة الإسلام فى هذا العصر ، ولا نصدق أبدا بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام فلا أمل فى حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد، انظروا إلى ورائكم تروا جزر حقيقة الإسلام قائمة منتشرة فى فجر التاريخ، وإن الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الإسلام وتجلت فى ناحية من نواحى العالم الإسلامى أو عصر من عصور التاريخ الإسلامى ، غلبت وانتصرت . وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم ، وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلى ما كانت عليه فى الماضى السعيد وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول ، وإن حقيقة الإسلام فى هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت فى جماعة تستطيع أن تذلل كل عقبة وتهزم كل قوة وتأتى بعجائب وآيات من الإيمان والشجاعة ، والإيثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل على تعليل حوادث الفتح الإسلامى . وأخبار القرن الأول .

كل شئ عن شهر رمضان

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فقد فرض الله الصوم على عباده فى جميع الرسالات ، لما له من فوائد جليلة تعود على الروح والخلق والجسد ، وجعله فى الإسلام أحد قواعده الخمسة التى يقوم بناؤه الكلى عليها ، وأفرد له شهراً كريماً من شهور السنة القمرية ، هو شهر رمضان المبارك الذى أنزل فيه القرآن ، وجعل فيه ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، وأعقبه بعيد الفطر ليفرح فيه الصائمون بإكمالهم لفريضة الصيام ، وليغتبط فيه البؤساء بصدقة الفطر التى جعلهم يشاركون المياسير فى مباهجه ومظاهره ، وليتواصل الجميع بالود والتراحم فيما بينهم .

وقد حفل هذا الشهر الكريم بأحداث جليلة كان لها أثر فى مسيرة الإسلام وانتشار نوره فى المشارق والمغارب ، فمن حقه علينا أن نفرد له رسالة تتضمن الكثير مما يتصل به من الأحكام والأحداث لتكون مشكاة للمهتدين ، وذكرى للذاكرين ، ولتغنيهم عن البحث فى أمهات الكتب وراء المسائل التى ضمناها إياها ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

فريضة الصوم وتطوراتها :

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

لطائف الخطاب :

يخاطب الله المسلمين بقوله : « يأيها الذين آمنوا » فى نيف وثمانين موضعا من القرآن ، بينما يخاطب اليهود فى التوراة بقوله : يأيها المساكين ، ويخاطب النصارى فى الإنجيل بقوله : يا أبناء الماء والطين .

ونداء الله للمسلمين فى القرآن بذلك يمنح الكرامة ، ويورث الاعتزاز بأن ربهم اعتبرهم مصدقين بالحق ، لا يجادلون فيه بالباطل ، وجعلهم أهلا لموعـــده الجليل « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

معنى الصيام وكتابه

الصيام فى اللغة : الامتناع عن أى شىء ، ومنه قول مريم : « إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » وصومها امتناعها عن الكلام .

وفى الشرع : الامتناع عن الأكل والشرب والجماع فى وقت مخصوص مع النية القلبية ، وكتابه فرضه ، وقد أخبرنا الله تعالى فى الآية أنه فرض الصيام علينا كما فرض على من قبلنا ، فجميع الشرائع تضمنت : فرض الله للصيام على أممها .

والصيام فى كل أمة له نظام قد يختلف عنه فى أمة أخرى ، ولكنه بصفة عامة يمنع النفس من غشيان ملذاتها وشهواتها ، ويمنحها الصبر وقوة العزيمة ، ويحضها على بر الفقراء والمعوزين ، ويضفى على الأجساد الصحة والعافية ، وعلى الروح السمو والصفاء ولهذه المزايا وغيرها فرض فى جميع الأديان كما تقدم .

لعلكم تتقون

بين الله فى قوله « لعلكم تتقون » الغاية من فرض الصيام ، وهى حصول التقوى للصائمين والتقوى بابها واسع ، فهى من الوقاية ، والوقاية تدخل فى الطاعات والأخلاق والأجساد والأرواح .

فالمعنى يأيها الذين آمنوا فرض عليكم الصـــيام كما فرض على أهل الأديان السابقة لتقوا أنفسكم وتحفظوها من وضر الإثم ، ودرن الخلق ، وفساد الجسم ، وصدإ النفس وظلمة القلب .

ولكون الصوم يحفظ من المعاصى وصفه النبى صلى الله عليه وسلم علاجاً للشباب الذين لايجدون مؤنة الزواج من الانحراف فقال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة : (أى مؤنة الزواج) فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » أى وقاية من الفحشاء .

والأديان غير السماوية تهتم بالصيام للتقوى وتقوية للعزائم ، كما فى البوذية والهندوسية ، وبعض أولئك يصل بتقوية

إرادية بالصيام إلى درجة تحمل الآلام والتحكم فى النفس وشراين الدم ، فتراهم ينامون على ألواح برزت منها مسامير تغوص فى أجسادهم فلا يتألمون ولا ينزف من أجسادهم دم وبعضهم يدفن ساعات تحت الرمل ، والهواء لا يصل إليه فى محبسه ، ولا يموت بذلك ، وقد حدث أن رجلا كان يسمى نفسه الدكتور سالمون دفن نفسه فى الإسكندرية فى ثلاثينيات هذا القرن لمدة ست ساعات تحت الأرض بحضور لجنة من الأطباء ، ثم رفع التراب عنه فإذا هو حى ، ولكنه كان يتصبب عرقاً وقد عاصرنا هذا الحادث ، وهذا التحمل كان منه بفضل رياضة الصيام التى يجهل فضلها الجاهلون .

« أياما معدودات » .

كان الصيام أول الإسلام أياما معدودات ، فقد كان المسلمون يصومون من كل شهر هلالى ثلاثة أيام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، وهى أيام الليالى البيض ، قيل وحدها ، وقيل معها يوم عاشوراء ، ثم نسخ ذلك بآية « شهر رمضان » قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم اهـ .

فأما القبلة فإنها نسخت من بيت المقدس وحولت إلى الكعبة ، وأما الصوم فقد علمت أمره .

وذكر الأجهورى فى كتابه (فضائل شهر رمضان) أن الأيام المعدودات المذكورة التى فرض الله تعالى صومها قبل شهر رمضان كان فرضها فى شهر صفر من السنة الثانية الهجرية ،

أما فرض رمضان فكان فى شهر شعبان لليلتين خلتا منه فى السنة الثانية الهجرية أيضاً ، وبذلك يكون المسلمون قد صاموا على هذا النمط لمدة ستة أشهر ، فتكون جملة هذه الأيام ثمانية عشر يوماً ، وأن الصوم لم يفرض إلا فى المدينة .

ومن العلماء من قال : إن الأيام المعدودات هى شهر رمضان .

قال مقاتل : كل معدودات فى القرآن أو معدودة فهى دون الأربعين ، ولا يقال ذلك لما زاد ، اهـ .

وإذا كان المراد بالأيام المعدودات شهر رمضان فإن التعبير عنه بذلك للإيذان بأنه تعالى ترفق بنا وخفف عنا بصيام أيام قلائل ، بدلا من أن يكلفنا بعدة أشهر أو بصيام الدهر كله .

« فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

أفاد هذا الجزء من الآية : أنه تعالى أباح الفطر للمريض والمسافر ، وأوجب على المريض أن يقضى ما أفطره بعد شفائه ، وعلى المسافر أن يقضى ما أفطره بعد انقضاء سفره سواء كان المراد من الأيام المعدودات أيام الليالى البيض أم شهر رمضان كما تقدم بيانه «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين»

أى وعلى الذين يقدرون على صيامه ويريدون الفطر : فدية طعام مسكين إن أفطروا ، وهذا الحكم معناه التخيير بين الصيام وبين الفطر والفدية ، وقد كان هذا فى أول مشروعية الصيام، قبل أن يلزم به القادرون عليه إلزاماً لا تخيير فيه ، بقوله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

والحكمة فى أن الصوم لم يشرع محتوما فى أول التكليف به أنه فريضة شاقة وأن بلاد الحجاز وقت فرضه كانت شديدة الحرارة ، فتكليفهم الصيام على القطع يشق عليهم ، وقد جرت عادة الإسلام بالتدرج فى — التكاليف التى تشق على الناس ، كما صنع فى تحريم الخمر ، حيث بين لهم أولا أن إثمها أكبر من نفعها ، ثم طلب منهم ثانياً أن لا يقربوا الصلاة ، وهم سكارى ، فبقى بعضهم يشربها فى وقت لا يقدم فيه على الصلاة وهو سكران ، ثم حرمت نهائياً بآية « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وأكد التحريم — بقوله تعالى فى نهاية الآية الثانية « فهل أنتم منتهون » .

ومما يدل على أن الصوم كان مخيراً فيه أول التكليف به ، ما أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم عن سلمة بن الأكوع قال لما نزلت هذه الآية « وعلى الذين يطيقونه فدية » كان من شاء منا صام ومن شاء أفطر وبفتدى ، فعل ذلك حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وقد ذهب إلى ذلك أكثر العلماء ومنهم عبدالله بن عمر وسلمة بن الأكوع ، قاله ابن العادل

وخلاصة ما تقدم أن الصوم أول ما فرض كان أياما معدودات، وهى إما ثلاثة أيام من كل شهر قمرى ١٣ ، ١٤، ١٥ على قول ، وإما شهر رمضان على قول آخر ، وأن المسلم كان مخيراً بين الصيام والفدية ، فإن كان يرغب فى الصيام ولا يبغى به بديلا ، ومنعه

عنه المرض أو السفر أفطر وقضى بعد زوال العذر بعدد ما أفطره ، وإن كان يريد الفطر سواء أكان صحيحاً أم مريضًا أفطر وأعطى فدية طعام مسكين.

ومن العلماء من قال : إن التكليف بالصيام أولا كان لشهر رمضان ، وكان حتميا لا تخيير فيه ، والأيام المعدودات عنده : هى شهر رمضان ، وفسر قوله تعالى « وعلى الذين يطيقونه فدية » بمعنى وعلى الذين يصومونه بمشقة — (من أطاق الشيء قدر عليه بمشقة) وهم الشيوخ الضعفاء عليهم إن أفطروا فدية بدل صيامهم ، ففى الآية إباحة الفطر لهم مع الفدية وهذا الرأى فضلا عن مخالفته لظاهر الآية ، فهو مخالف لحديث سلمة بن الأكوع الذى روته كتب الصحاح ، ويلزم عليه تكرار حكم المريض والمسافر مرتين فى حالة واحدة بدون داع ، والفدية المذكورة هى مد من طعام عند أهل الحجاز عن كل يوم ، والمد رطل وثلث ، وعند أهل العراق نصف صاع من بر عن كل يوم أو صاع من غيره ، والصاع أربعة أمداد ، والمد عندهم رطلان ويمكن دفع قيمة البر المطلوب ، بدلا من البر نفسه « فمن تطوع خيراً فهو خير له » .

المراد من تطوع الخير : إما الزيادة على القدر المذكور فى الفدية ، أو الزيادة على عدد من يلزم إطعامه بأن يطعم عن اليوم مسكينين مثلا ، أو الجمع بين الإطعام والصيام .

« وأن تصوموا خير لكم » من الفطر والفدية « إن كنتم تعلمون » ما فى الصوم من الفضيلة وعظيم الثواب « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

أفاد هذا الجزء من الآية : أن الله تعالى أنزل القرآن الشريف فى شهر رمضان لهداية الناس إلى الحق والخير عقيدة وخلقا وتشريعا ، منذ أنزله الله إلى أن تقوم الساعة ، ومع كون القرآن الكريم أنزل فيه لهداية الناس .

فهو آيات واضحات من جملة الكتب الإلهية الهادية إلى الحق ، والفارقة بين الحق والباطل ، باشتمالها على المعارف الإلهية والأحكام العملية .

وفى اختيار شهر رمضان لإنزال القرآن إعظام لشأن هذا الشهر الكريم فلا بدع أن يجعله الله ميقاتا للصوم الذى فرضه الله على المسلمين ، ليجتمع له بذلك شرفان : شرف نزول القرآن فيه وشرف صيامه ، « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

أى فمن علم منكم بهلال الشهر ليلة الثلاثين من شعبان فليصمه ، فشهود الهلال ليس شرطا للصيام بمعناه الخاص وهو الرؤية له ، بل بالفرض منه وهو العلم بوجوده فى الأفق بالرؤية أو عن طريق العلم بحكم القاضى بثبوت الرؤية ، أو بتصديق من رآه أوعن طريق الحساب الوثيق كما سنبينه .

أما من شك فى رؤية ليلة الثلاثين من شعبان فإنه يحرم عليه صوم يوم الثلاثين المذكور وحده .

وبهذا الجزء من الآية الكريمة نسخ التخيير بين الصيام وبين الفطر والفدية للصحيح المقيم وتحتم الصوم عليه .

واعلم أنه إذا شهد عدلان عند القاضى برؤيتهما هلال رمضان ليلة الثلاثين من شعبان فإنه يجب عليه الحكم بثبوت الهلال ووجوب الصيام غداً على أنه أول رمضان ، كما يجب عليه الحكم بوجوب الفطر بثبوت الهلال ليلة الثلاثين من رمضان بشهادة عدلين عنده أما إن شهد برؤية الهلال فى كل عدل واحد ، فإنه يحكم بثبوت هلال رمضان ووجوب صيام الغد دون هلال شوال احتياطا للعبادة فى بدء الصيام ونهايته ، فيقبل قوله فى رمضان ليصوموا ولا يقبل قوله فى هلال شوال ليتموا رمضان ثلاثين يوماً .

ويدل لثبوت هلال رمضان شاهد عدل واحد « أن ابن عمر رضى الله عنهما رآه ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فصام وأمر الناس بصيامه» رواه أبو داود وابن حبان وصححه ، وأن ابن عباس قال : (جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إنى رأيت هلال رمضان ، فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله ، قال : نعم ، قال : أتشهد أن محمدا رسول الله ، قال : نعم ، قال : يا بلال أذن فى الناس فليصوموا غدا) صححه ابن حبان والحاكم .

ويعلم ثبوت الهلال برؤية المآذن مضاءة ، وقد كانت قبله لا تضاء ، كما يعلم ذلك بقراءة الصحف أو سماع من المذياع بأن القاضى قد حكم بثبوته ، كما يعلم بنحو ضرب الدفوف والطبول كما يحدث فى بعض البلاد ولقد جرت عادة الجهات الشرعية العليا بمصر أن تحتفل بهذه المناسبة ، وتبعث بمندوبيها إلى المآذن وقمم المرتفعات كما يقوم مرصد حلوان برصد الهلال ، فإذا أبلغ شهود الرؤية الجهات الشرعية المذكورة أنهم رأوه أعلنت ذلك فى طول البلاد وعرضها .

وأحيانا تعتمد فى ذلك على بعض البلاد العربية الدائمة الصحو القريبة من مصر مثل السعودية والسودان، فتثبت رؤية الهلال لدى أهل مصر برؤيته فى تلك البلاد ، وتوجب الصوم بذلك ، وهو مسلك شرعى سليم .

فإذا وجد المسلم ببلاد لا يرى فيها الهلال — لأنها غائمة فى معظم أيام السنة — فإنه يكمل شعبان ثلاثين يوما، قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما ».

ولا يثبت رمضان برؤية أحد للنبى صلى الله عليه وسلم مناما وقوله للرائى غداً من رمضان ، حكى القاضى عياض الإجماع على ذلك ، ولا من طريق الكشف بأن رأى الرسول يقظة وأخبره بذلك ، لأن التلقى عن الرسول بأى صفة بعد الوفاة ليس من الأدلة ، قاله الشيخ الخضرى الكبير ، ولأن حكم الله لا يتلقى إلا من لفظ أو استنباط وما ذكر أولا ليس واحداً منهما ،

وعلى التنزل فهذا من قبيل تعارض الدليلين ، فيعمل بما فى اليقظة دون المنام ، لأن الأول أرجح .

وقال جماعة منهم صاحب المهذب : إن غم الهلال وعرف رجل بالحساب ومنازل القمر دخول رمضان يلزمه — الصوم ، لأنه عرف الشهر بدليله ، فكان كمن عرف بالبينة ، وعليه حمل قوله صلى الله عليه وسلم فى رواية « فإن غم عليكم فاقدروا له » وجمع بينه وبين الرواية الأخرى « فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » بأن الأول لمن يعرف منازل القمر ، والأخير لمن لا يعرفها .

وجاء فى الكفاية ما نصه : وعن الشيخ أبى حامد أنه ذكر فى التعليق وجها : أن ذلك بمنزلة الشهادة على الرؤية ، فيتعدى الوجوب ممن عرفه بالحساب إلى من لم يعرفه .

وإذا عارض الحساب أو التنجيم الرؤية فى إثبات الهلال وعدمه قدمت الرؤية ولو من عدل واحد ، كما قاله بعض العلماء ، وقال الشيخ محمد ابن عوض الدمياطى فى كتابه منحة العلى المتعال فيما يثبت به الهلال ص ٢١ (فقد استفيد من كلام الرملى أولا وأخيراً: أنه إذا عارض الحساب الشهادة يعمل بالشهادة بالنسبة لعموم الناس وأما الحاسب والمنجم فيجب عليهما حينئذ العمل بما اقتضاه الحساب — والتنجيم ، وكذا من صدقهما ، لكن

لابد أن يكونا ذوى قدم راسخة فى هذا الفن ، فعليهما حينئذ التثبت التام ، وعلى من يصدقهما كذلك ، ليكون على ثقة تامة من الركون إلى قولهما .

وقال ابن حجر فى الإتحاف كما نقله ابن عوض المذكور :(تنبيه) قال السبكى محل قبول شهادة العدل – بل العدلين – إذا دل الحساب على إمكان الرؤية ، فإن دل على عدم إمكانها وهو يدرك بمقدمات قطعية لم تقبل شهادتهما لاستحالتها اه ملخصا .

وقال القليوبى فى حاشيته على – الخطيب قوله (وتثبت رؤيته بعدل) ما نصه : أى إن لم يدل الحساب – القطعى على عدم رؤيته ، وإلا لم يعمل بقوله العدل وإن تعدد ، بل يحكم بكذبه كما قال العبادى ، وهو مما لا يجوز القول بخلافه ا هـ .

« ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

المراد بالمرض ما يشق معه الصوم ويعسر ، كما يؤذن به قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وهو قول الأصم وجماعة ، وأكثر الفقهاء على أنه هو الذى يؤدى الصيام معه إلى ضرر فى النفس أو زيادة فى العلة .

والمراد بالسفر السفر الطويل ، فإنه هو الذى يشق معه الصوم ، وقدره الشافعية بستة عشر فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، وهو بالكيلو متر نحو (٩٠ كم) من دمياط إلى الراهبين ودليلهم قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أهل مكة لا تقصروا فى أدنى من أربعة برد . من مكة إلى عسفان » فدل ذلك على أنه السفر الذى تحصل به المشقة عادة ، قياساً للصيام على القصر بل هو أولى ، وبهذا أخذ أحمد ومالك وإسحق .

وهناك آراء أخرى للفقهاء فى تقدير مسافة السفر المبيح للفطر ، ومنها رأى أبى حنيفة ، إذ قدرها بأربعة وعشرين فرسخا ، فارجع إلى المطولات إن شئت المزيد من المعرفة .

والحكم المستفاد من الآية : أن من كان مريضًا أو على سفر فأفطر فعليه صيام أيام بقدر ما أفطره من شهر آخر غير رمضان ، والفطر لهما رخصة عند الأكثرين ، فإن شاءا صاما وإن شاءا أفطراً ، ما لم يتضررا بالصوم ضرراً لا يحتمل عادة ، فإن الصوم يكون حراما عليهما ، وذهب قوم من الصحابة : إلى أن الفطر واجب عليهما

مطلقـًا ، وبه قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ، ونقل عن ابن عمر : أن المسافر لو صام فى السفر فعليه القضاء فى الحضر ، وهذا اختيار داود بن على الأصفهانى .

ومن حججهم قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس من البر الصيام فى السفر » قاله حين رأى رجلا جالسا تحت ظلة وهو مجهد من الصيام فى السفر .

ومن حجج الجمهور : ما رواه أبو داود أن حمزة الأسلمى سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هــل أصوم على السفر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « صم إن شئت وأفطر إن شئت »

ويشترط الشافعية فى إجازة الفطر للمسافر أن يسبق السفر طلوع الفجر لقوله تعالى « أو على سفر » أى أنه متمكن من السفر قبل الصوم ، فإن كان سفره بعد الفجر لم يفطر يومه هذا .

وإذا أفطر كل من المريض والمسافر ففى طريقة القضاء بعد زوال العذر قولان : أحدهما أن يقضى ما أفطر فيه على التتابع وجوبا ، وبه قال على ، وابن عمر والشعبى ، وثانيهما أن التتابع فى القضاء مستحب وهو قول الأكثرين .

ولا يجب القضاء على الفور خلافـًا لداود ، ومن أفطر رمضان كله وكان تسعة وعشرين يوما قضى عدته ، ولا يقضى شهراً ثلاثين يوما ، وإذا كان رمضان تاما فأفطره قضى مكانه ثلاثين يومـًا ، لا شهرا تسعة وعشرين يومـًا ، فإن العبرة بعدة ما أفطر فيه .

بعض أحكام الصيام :

١ — لا يشترط فى السفر المشقة ، فالسفر بالوسائل الحديثة المريحة لا يمنع من رخصة الفطر وإن كان الصيام أولى ، بل قال أنس بن مالك ، ومالك والشافعى وأبو حنيفة وغيرهم : الصيام أولى للمسافر القادر عليه وإن كان السفر شاقـًا ، وكذا المريض .

وقال أحمد والأوزاعى وغيرهما الفطر أولى ،

وقال غيرهم أفضلهما أيسرهما .

٢ — ومن أحكام الصيام أنه لا يضره وصول غبار طريق أو غربلة دقيق أو غبار عرقسوس أو نحو ذلك إلى جوف الصائم لأن الاحتراز عنه شاق والله يقول « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

٣ — ولو وصل الطعام أو الشراب إلى جوفه مكرها أو حال نومه فلا

يفطر ، لأنه لا اختيار له فى ذلك وكذا لو أكل أو شرب ناسيا ، خلافا لمالك ، لحديث « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولخبر الصحيحين « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه »

وزاد فى صحيح ابن حبان « ولا قضاء عليه ولا كفارة » .

٤ — ومن كان يتسحر فسمع الفجر فليلق ما فى فمه من طعام أو شراب ولا يبتلعه ، وليغسل فمه وليمسك ، وصيامه حينئذ صحيح ولا إعادة عليه ، وكذا من كان يأتى أهله فسمع الفجر فنزع فوراً ، بخلاف ما لو ابتلع الطعام أو الشراب الذى فى فمه فإنه يفطر مع الإثم وعليه الإمساك وقضاء هذا اليوم بعد رمضان ولا كفارة عليه عند الشافعية وعليه الكفارة فى مذهب المالكية ، ومن استمر يجامع زوجته بعد سماعه أذان الفجر فعليه مع القضاء الكفارة الكبرى[1] وعليه كالذى قبله الإمساك احتراما ليوم الصيام ، وإن كانا قد أفطرا بما فعلا .

٥ — ومن غلبه القىء فلا يفطر ما لم يرجع منه شىء إلى جوفه ، فإنه يفطر ، وكذا من تعمد القىء وإن لم يرجع منه إلى جوفه شىء .

٦ — وابتلاع نخامة وصلت إلى ظاهر الفم يفطر عند بعض الفقهاء ولا يفطر عند آخرين .

٧ — ولا يفطر إثر طعام تذوقه لتعرف شئونه ثم مجه ، ولا يفطر — بالاكتحال ولو ظهر طعمه فى حلقه ولا برطوبة من مسام بالاستحمام ، ولا بدهن من مسام عضو طلى بالدهن ، ولا حقنة جلدية أو وريدية أو عضلية ، لأنها وصلت إلى الجسم لا عن منفذ مفتوح ، وفى الحقنة الشرجية خلاف بين الأئمة ، فمنهم من يقول بالفطر بها ، ومنهم من لايقول بذلك ولايفطره ريح طيب وصل إلى أنفه .

٨ — ومن مبطلات الصوم إنزال المنى بلمس بشرة بشهوة ، كالوطء بلا إنزال ، وفى الأخيرة الكفارة الكبرى مع القضاء ، أما نزول المنى بالاحتلام فلا يبطل الصوم ، كنزوله بنظر أو فكر ، وتكره القبلة لمن يحل تقبيله كالزوجة ، إن لم تحرك شهوة ، فإن حركتها حرمت . فإن قبلها ونزل المنى

(١) وهى عتق رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطيع فإطعام ستين مسكيناً كما سيأتى بيانه فى شرح آية « أحل لكم ليلة الصيام . . »

بسببها أفطر ، ولا يفطر بفصد ، ولا بحجامة .

٩ — ولابد من نية الصيام ليلا ، ويكفى عند مالك أن ينوى صيام الشهر أول ليلة فيه والنية محلها القلب ،وليس التلفظ شرطا ولا مسنونا ، ومن تسحر أو شرب ليلا ليتقوى على الصيام ، أو امتنع عن المفطرات خوف طلوع الفجر كان ذلك نية ، ويكفى فى صيام النفل أن ينوى قبل الزوال بشرط أن لايسبقها مفطر نهاراً .

١٠ — ويسن تعجيل الفطر لحديث الصحيحين « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطر » زاد أحمد « وأخروا السحور » وأن يكون على رطب فتمر فماء فحلو فحلوى ، ويسن بعد الفطر أن يقول « اللهم إنى لك صمت وعلى رزقك أفطرت» إلى آخر الدعاء المأثور .

١١ — ويسن السحور لحديث الصحيحين « تسحروا فإن فى السحور بركة » ولخبر الحاكم« استعينوا بطعام السحر على صيام النهار ، وبقيلولة النهار على قيام الليل » ويحصل بقليل المأكول وكثيره لحديث فى صحيح ابن حبان « تسحروا ولو بجرعة » .

١٢ — ويدخل وقت السحور بنصف الليل ، ويسن تأخيره ما لم يقع فى شك .

١٣ — وعلى الصائم أن يصون لسانه عن الفحش من الكذب والشتم والغيبة والنميمة ونحوها ، لحديث — البخارى « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ولخبر الحاكم « ليس الصيام من الأكل والشراب ، الصيام من اللغو والرفث» أو كما قال .

١٤ — ويكره شم الرياحين ، لأن المقصود من الصيام كسر النفس .

١٥ — ويغتسل الصائم من الجنابة قبل الفجر ، ليكون على طهر من أول الصيام فذلك أفضل ، فإن اغتسل بعده فلا شيء عليه ، ولا مانع من الاغتسال فى الصيام للنظافة أو التبرد ، ولا يفطر الصائم بوصول ماء إلى أذنه ، لأنها لا توصل شيئا إلى الداخل .

١٦ — ولو سبق ماء المضمضة أو الاستنشاق إلى جوفه كرها فلا يفطر ، ما لم يكن ذلك من مرة زائدة على الثلاثة أو نتيجة غرغرة ولو من إحدى المرات الثلاث ، فإنه يفطر لأن الزيادة على الثلاث غير مستحبة ، والمبالغة فى المضمضة والاستنشاق مكروهة حذراً مما ذكر .

١٧ — والفطر واجب على الحائض والنفساء ، وعليهما القضاء بعد زوال العذر ، فإن صامتا كانتا آثمتين ولا يصح صومهما ، وعليهما قضاء ما صامتاه حال عذرهما .

١٨ — وللحامل والمرضع أن يفطرا كما لهما أن يصوما ، فإن أفطرتا فعليهما القضاء بعد الحمل أو الرضاع ، ولا فدية عليهما إن أفطرتا خوفا على أنفسهما ، أو عليها وعلى الولد ، فإن كان الفطر خوفا على الولد فقط فعليهما مع القضاء الكفارة ، وقد مر بيان مقدار الفدية عند قوله تعالى « وعلى الذين يطيقونه فدية » .

١٩ — وفريضة الصوم معلومة من الدين بالضرورة ، فمن جحدها فهو كافر ، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ، أو نشأ بعيدا عن العلماء .

٢٠ — ومن أقر بفريضة الصوم ، ولكنه أفطر بغير عذر حبس ومنع عن الطعام والشراب نهارا ، عقاباً له وتعويداً على الصوم جبراً .

فضل صوم رمضان :

جاء فى فضل رمضان أحاديث عديدة نذكر منها ما يلى :

١ — جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وفى رواية « وما تأخر » أخرجه الشيخان .

٢ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى أنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إنى صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

رواه البخارى ومسلم .

٣ — وفى رواية لمسلم « كل عمل ابن آدم يضاعف . الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع طعامه وشرابه من أجلى ، للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

شرح بعض المفردات :

« جنة » أى واق لصاحبه من — الشهوات المؤذية ومن النار « فليقل : إنى صائم » أى فليقل ذلك بلسانه ليسمع الشاتم فينزجر ، وبقلبه ليمنع نفسه من المشاتمة والمسابة « فلايرفث» أى لا يفحش فى القول « ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك » خلوف فمه ريحه المتغير بسبب الصيام ، والمراد من كونه أطيب عند الله من ريح المسك أنه تعالى يرضى عن الصائم لأنه صبر على عدم تناول الطعام حتى تغير فمه، ويثيبه على ذلك لأن استطابة الروائح بمعناها الحقيقى من صفات الخلق لا من صفات الخالق وهذا لا يقتضى أن يترك الصائم فمه بدون سواك ، بل من السنة أن يستاك حماية لجوفه من ريقه الذى يصل إليه متغيرا بتلك الرائحة ملوثا بصديد الإسنان الذى هو أحد سببى هذا الخلوف ، والسبب الثانى الجهاز الهضمى ،ومن قال بكراهة السواك فى الصيام فقد أخطأ فهم المراد من الحديث، ولم يفطن إلى الضرر الناشىء عن ترك مصدر الرائحة الكريهة بدون إزالة . أخرج أبو داود والترمذى عن عامر بن ربيعة قال « رأيته صلى الله عليه وسلم يستاك وهو صائم مالا أعد ولا أحصى» .

٤ — وجاء فى الحديث الصحيح « إن فى الجنة بابا يقال : له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لايدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد » رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، زاد الترمذى « ومن دخله لم يظمأ أبداً » .

٥ — وجاء فيه أيضاً « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين» رواه البخارى ومسلم ، والمراد من تصفيد الشياطين حبسها عن الإغواء ، ولعل ذلك بما حصن الله به الصائمين من قوة الإرادة وبغض المعصية ، ومن شأن ذلك فشل الشياطين فى الإغواء فكأنهم مصفدون .

٦ — وجاء فيه « اغزوا تغنموا وصوموا تصحوا » رواه الطبرانى ورواته ثقات .

٧ — وجاء فيه « الصيام جنة يستجن به العبد من النار» رواه أحمد بإسناد حسن ورواه البيهقى .

٨ — وجاء فيه « من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ولا مرض

لم يقضه صيام الدهر كله وإن صامه »

رواه الترمذى وأبو داود والنسائى — وغيرهم ، واللفظ للترمذى .

٩ — جاء فيه « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

رواه للبخارى ومسلم .

١٠ — وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصيام نصف — الصبر » .

١١ — وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » .

١٢ — وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت أمتى خمس خصال فى شهر رمضان لم تعطهن أمة قبلهم : خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ، وتصفد فيه الشياطين ، ويزين الله تعالى كل يوم الجنة ، ويقول : ويوشك عبادى الصالحون أن يكف عنهم السوء والأذى يغفر لهم فى آخر ليلة منه ، قيل : يارسول الله . أهى ليلة القدر؟ قال : لا ، ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله » .

١٣ — وجاء فيه عنه صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة ، وصمت رمضان وقمته فممن أنا ؟ قال من الصديقين والشهداء » .

١٤ — وجاء فيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رمضان سيد الشهور » .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

أى أنه تعالى شأنه أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر ، ولهذا رخص فى الفطر لعذر السفر أو المرض .

« ولتكبروا الله على ما هداكم » .

أى وشرع لكم الأحكام الماضية من صوم شهر رمضان عند العلم بهلاله ، والترخيص بالفطر لعذر السفر أو المرض ، وقضاء ما فاتكم منه لتكملوا عدة رمضان بما تصومونه أداء أو قضاء ولتعظموا الله على ما هداكم إليه من الصوم النافع لأرواحكم وأبدانكم ، والفطر عند العذر ، ولعلكم

تشكرون نعمة هذا التشريع فى جميع صوره ، لما فيه أن الفوائد والمنافع صوما ، والتيسير على المعذورين فطراً .

صلاة التراويح :

يجمل بنا قبل أن نشرح باقى آيات الدعاء والصيام أن نتكلم على صلاة التراويح وعدد ركعاتها لاختلاف الناس فى أدائها حتى يكونوا على بينة مما يفعلون ، وفيما يلى البيان :

روى الإمام البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ليلة من رمضان ، فصلى فى المسجد وصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم صلوا معه ، فأصبح الناس فتحدثوا ، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج عليه الصلاة والسلام لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ثم قال « قد رأيت الذى صنعتم ، ولكنى خشيت أن تفرض عليكم » وفى الصحيحين « عن عائشة : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى التراويح ليالى فصلوها معه ، ثم تأخر فصلاها فى بيته بقية الشهر وقال : خشيت أن تفرض عليكم — فتعجزوا عنها » .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم توفى والناس يصلونها فرادى ، وكان الأمر كذلك فى خلافة أبى بكر وصدر خلافة عمر ، ثم جمع عمر الرجال على أُبىّ بن كعب ، والنساء على سليمان بن أبى خثعمة ، فخرج على بن أبى طالب —رضى الله عنه— فى أول ليلة من رمضان فسمع القراءة فى المساجد ، ورأى القناديل فيها ، فقال : نور الله قبر عمر كما نور مساجدنا بالقرآن ، وكذلك قال عثمان بن عفان فى خلافته .

وسميت بهذا الاسم لأن كل اربع منها يتروح المصلون عقبها ، أى يستريحون ، وهى تؤدى ركعتين ، ركعتين ، وكل ركعتين بنية وتكبير وبتشهد وتسليم .

والناس مختلفون فى أدائها ، فمنهم من يؤدونها عشرين ركعة بعشر تسليمات ، ويوترون بعدها بثلاث ركعات ، ومنهم من يؤدونها ثمانى ركعات بأربع تسليمات ويوترون بعدها بثلاث ركعات ، وكل منهم له سند فيما يفعل . .

فمن يؤديها بالطريقة الأولى سنده ما روى عن مالك عن يزيد بن رومان « أن الناس كانوا يقومون رمضان فى زمان عمر بثلاث وعشرين ركعة » .

ومن يؤديها بالطريقة الثانية سنده ما رواه مالك فى الموطأ عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد أنه قال « أمر عمر بن الخطاب أبىّ بن كعب وتميما الدارى : أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة ، قال : وقد كان القارئ يقرأ بالمئين ، حتى كنا نعتمد على العصى من طول القيام ، وما كنا ننصرف إلا فى بزوغة الفجر » .

فمن هذين الخبرين : علم أن الناس كانوا يصلونها فى عهد عمر بالصورتين المذكورتين وعلى هذا لا ينبغى لأحد أن ينكر على الآخر إذا صلى بصورة منهما .

وبما أن التشريع أساسًا مصدره الكتاب والسنة ، فلهذا لابد أن تكون الطريقتان المذكورتان رئى الرسول صلى الله عليه وسلم بهما فى المرات التى ظهر لهم فيها وهو يصليها ، أو أنهم عرفوهما فى عهد عمر بحديث عنه صلى الله عليه وسلم سمعوه ولم يصل إلينا .

الدعاء وإجابته :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » .

لما أمر الله عباده المؤمنين بصوم رمضان ومراعاة عدته ، وحثهم على تكبيره وشكره ، عقب ذلك بهذه الآية الدالة على أنه سبحانه خبير بأفعالهم سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً لما مر وحثا عليه .

سبب النزول :

مما ذكره الفخر الرازى فى سبب نزولها : أن أعرابيا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ، فنزلت .

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة فرفع أصحابه أصواتهم بالتكبير والتهليل والدعاء فقال صلى الله عليه وسلم « إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعًا قريبًا » .

وقال الحسن : سأل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : أين ربنا ، فأنزل الله هذه الآية .

معنى الآية :

وإذا سألك عبادى عنى فقل لهم :

إنى قريب ، وقربه تعالى من عباده قرب علم وحفظ وليس قربـاً بالجهة والمكان ، فإن ذلك للحوادث ، والله يقول « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ٤٢ : ١١ » .

ولأن من كان فى مكان فهو مفتقر إلى ذلك المكان ، وذلك على الله محال ، ولأنه لو كان فى مكان لما كان قريباً من كل ، بل كان إذا قرب من شىء بعد عن شىء آخر ، والآية تقول « فإنى قريب» وذلك يقتضى أنه قريب من كل شىء ، فثبت أن القرب بالعلم وليس بالمكان وهذا هو معنى قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وهو المقصود من قوله « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ومن قوله « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » الآية .

ومعنى إجابته تعالى للداعى إذا دعاه أن يقول له : لبيك عبدى لأنه يسمعه ، أو أنه يحقق له ما دعاه ، فتكون الإجابة بهذا المعنى مشروطة بمشيئة حملا للآية على قوله تعالى « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » .

فإن قيل : إن المطلوب بالدعاء إن كان مقدراً وقوعه فى علم الله فما فائدة الدعاء بالنسبة له وهو واقع ولابد ، وإن كان غير مقدر الوقوع فإن الدعاء لا يحقق وقوعه ، لأن ما فى علم الله لا يتخلف .

والجواب : أن الدعاء ينفع فيما جعله الله أزلا مترتبـاً عليه ، فلابد من حصول الدعاء ليحصل ما يترتب عليه ، كما لابد من حصول العلاج بالدواء الذى توقف شفاء المريض فى علم الله عليه ، وكما أنه لا يصح أن يمتنع المريض عن تعاطى الدواء اتكالا على ما كتبه الله فى علمه من الشفاء أو عدمه أخذاً بالأسباب فكذلك لا ينبغى أن يترك العبد دعاء ربه فى أموره المختلفة اتكالا على ما قدره الله فى شأنها أزلا أخذاً بالأسباب .

ولمثل هذا الاتكال سألت الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أرأيت أعمالنا هذه ، أهى شىء قد فرغ منه ؟ أم هى أمر يستأنفه الله تعالى ، فقال صلى الله عليه وسلم « بل هى شىء قد فرغ منه » فقالوا : ففيم العمل إذن ؟ فقال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وبعد هذا التحقيق : نعلم أن وعده الكريم بالاستجابة للداعى هنا مقيد بمشيئة الله تعالى وفقـاً لقوله تعالى فى آية أخرى « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » حملا للمطلق على المقيد .

وإن من رحمته تعالى أن يجعل إجابة الدعاء مرهونة بمشيئته لا بمشيئة الداعى فإن لله مقادير فى عباده لا يتركها ولا يهملها من أجل دعاء الداعى فقد تكون استجابته تعالى لدعائه فى غير مصلحته العاجلة أو الآجلة ، أو فى غير مصلحة أسرته أو البيئة التى حوله ، فعلمه تعالى بالمصلحة أعمق وأشمل ، وحكمته فيما يقدره أرفع وأجل شأنا من رغبة الداعى فكل ما يقضى به الله من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر ، ومن حمل أو عقم ومن سلم أو حرب ، ومن خصب أو جدب ، أو غير ذلك ، لله فيه حكم عظيمة ، والخيرة دائماً فيما يختاره الله وإن خالفت ما يشتهيه الداعى .

ولو أنه تعالى أجاب كل داع إلى ما يلتمسه منه لفسد نظام أهل الأرض ، بل لهلكوا جميعاً ، فإن كل امرئ لا يخلو من عدو ، فإن استجاب الله دعاء كل داع فى خصمه بأن يهلكه لهلك الناس جميعا ، فأى حكمة فى ذلك ، وكل إنسان يحب الغنى ويكره الفقر ، فلو استجاب الله فأغنى كل من يطلب الغنى لفسد نظام الناس ، إذ لا يستطيع أحد أن يسخر أحداً فى خدمته ، فكل غنى يترفع عن خدمة غنى مثله ، فتتعطل بذلك مصلحة الخلائق ، وتفسد أمورهم ، ولهذا قال سبحانه « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

ولو توالد الناس جميعاً وأنجبوا كما يريدون وكما يسألون ربهم ، ولم يمت من ذرياتهم أحد كما يطلبون من مولاهم لضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم تكفهم أرزاقهم ، ولأكل الناس بعضهم بعضاً — لأن حاصلات الزراعة والثروتين : الحيوانية والسمكية لا تفى بضروراتهم — ولأصبح الناس لا يجدون متنفسا لأنفاسهم من عظيم تكدس بعضهم فوق بعض ، وقس على ذلك بقية المطالب التى يدعو بها العباد ربهم ، فلهذا كان من حكمته تعالى أن لا يجيب أحداً إلى ما سأل إلا وفق مشيئته وحكمته المبنية على نظام محكم لخير البشرية جميعاً ، واعلم أن دعاء الداعى لا يمكن أن يذهب سدى ، فإما أن يلقى استجابة من الله إن وافق ما يدعو به مشيئته تعالى ، وإما انشراحا فى صدره وصبرا يسهل معه احتمال البلاء إن لم يوافق مشيئته جل وعلا ، وإما عوضا فى الدنيا أو الآخرة .

وفى الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعوة المسلم لاترد إلا لإحدى ثلاث ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، إما أن يعجل له فى الدنيا وإما أن يدخر له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا » .

وللدعاء مزية كبيرة بين أنواع العبادة ، قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة » وذلك لما فيه من تفويض الأمر إلى الله تعالى ، والاعتراف بأن مرد كل شيء إليه سبحانه وحسبك فى الدلالة على أهميته أنه تعالى يغضب من عبده إذا نزلت به شدة فلا يدعوه ، قال تعالى « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » .

والله يحب من عبده أن يسأله جازما ، قال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغى أن يقول أحدكم اللهم اغفرلى إن شئت ، ولكن يجزم ويقول اللهم اغفر لى » .

ومعنى « فليستجيبوا لى » فليجيبونى إلى ما طلبته منهم من العبادة والطاعة فإنى قريب منهم بعلمى ، مجيب دعاءهم إذا دعونى « وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » أى يهتدون إلى مصالحهم فى دنياهم وأخراهم .

الجماع فى ليالى الصيام :

ويقول الله عقب ذلك « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية ، وسبب نزولها كما روى أحمد وجماعة عن كعب بن مالك قال « كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد ، فرجع عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عند النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد سمر عنده ، فوجد امرأته قد نامت فأيقظها وأرادها ، فقالت : إنى قد نمت ، فقال : ما نمت ، ثم وقع عليها ، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك ، فغدا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت » .

وكانوا إذا صلوا العشاء الأخيرة وإن لم يناموا حرمت عليهم المفطرات ومنها الجماع فنزلت هذه الآية لإباحة ذلك من الغروب وإلى الفجر كما سنبينه .

والرفث الجماع ، ونساؤكم زوجاتكم وفى حكمهن الإماء والمملوكات بملك اليمين أى أحل الله لكم الجماع لزوجاتكم وإمائكم ليلة الصيام من غروب الشمس حتى الفجر ، وذكر الله حكمة ذلك بقوله « هن لباس

لكم وأنتم لباس لهن » وهو كناية عن أن كلا منهما يمنع الآخر ويستره من الفجور ، وفى الخبر « من تزوج فقد أحرز ثلثى دينه » وبما أن الله تعالى جعلهن وقاية للرجال من الفاحشة ، وجعل الرجال وقاية لهن منها فلهذا أفسح الله وقت الاستمتاع بهن فى الصيام منعا من الوقوع فيما لا يحل، فأباح الاستمتاع . فى أى وقت من الليل كله بدلا من الوقت الضيق السابق الذى أوقعهم فى الحرج وجعلهم — يغشون الإثم .

« علم الله أنكم كنتم تختانون — أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم » الخيانة عدم الوفاء والاختيان الخيانة الشديدة كما قاله الزمخشرى ، — واختيانهم لأنفسهم عدم وفائهم بحفظها من المعاصى ، أى علم أنكم كنتم تُسِرُّون بالمعصية إذ تجامعون زوجاتكم سراً بعد النوم أو بعد صلاة العشاء ، وتأكلون وتشربون كذلك ، وبذلك تخونون أنفسكم لأنكم جلبتم لها العقاب ومعنى « فتاب عليكم » فقبل توبتكم من المعصية التى خنتم بها أنفسكم « وعفا عنكم » فلا يعاقبكم بسبب هذه التوبة المقبولة .

« فالآن باشروهن » أى فجامعوهن ليلة الصوم من الآن دون حرج ولو بعد النوم أو صلاة العشاء فقد حل لكم ذلك بعد ما كان محرما بعدهما « وابتغوا ما كتب الله لكم » أى اطلبوا ما كتبه الله وقدره لكم من الذرية بسبب هذا الجماع ، لا مجرد قضاء الشهوة فقط فإن ذلك هو الغرض الأسمى من النكاح ، قال صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا تكثروا » أو اجعلوا هذه المباشرة فى حدود ما شرعه الله لكم وهو أن تكون للحلائل من زوجة أو مملوكة فى الطهر .

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » أى فالآن باشروا حلائلكم بالوقاع ليلة الصيام وكلوا واشربوا حتى الفجر ، فالفجر غاية لِيحِلِّ الوقاع والأكل والشرب ، فى أى وقت من ليل الصيام ، أما بعد بداية الفجر فيحرم كل ذلك .

والمراد من الخيط الأبيض أول ما يبدو من الفجر الصادق المعترض فى الأفق قبل انتشاره والمراد من الخيط الأسود ما يمتد مع الفجر من آخر ظلمة الليل ، وقوله « من الفجر » بيان

لأول الخيطين ، ومنه يتبين أن الخيط الثانى من الليل ، وخصه بالبيان لأنه هو المقصود بالحكم، وقيل : هو بيان للخيطين الأبيض والأسود فالفجر ، مكون منهما ، قال الطائى : وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه : وهو على هذا يشبه قولك : حتى يتبين العالم من الجاهل من القوم .

فإذا فاجأك الفجر وأنت تأكل أو تشرب أو تجامع ، فألقيت ما فى فمك من طعام أو شراب ، ونزعت نفسك من مباشرة أهلك فوراً صح صومك ، وقد مر بيان ذلك :

ومن كان معه (ساعة) لضبط الوقت ، ومعه توقيت الفجر ، وكانت ساعته مضبوطة كفته (ساعته) هذه فى معرفة الفجر حسب التوقيت ويعرف الصائم أيضًا لسماع المؤذن الذى عرفه أهل الحى بالدقة فى مراعاة الوقت ، وينبغى له أن يؤذن للفجر بصفة خاصة فى ميقاته تمامًا ، فلا يضيف إليه دقائق كما يفعله بعض المؤذنين الجاهلين حتى لا يتسبب فى فساد صيام بعض الناس فيتحمل إثمهم ، فإن من الناس من يصحو قبيل الفجر فيأكل أو يشرب أو يأتى أهله اتكالا على أن الليل لا يزال باقيا فإذا أذن المؤذن للفجر بعد فوات دقائق من أول وقته، وهؤلاء لا يزالون يباشرون أكلهم ، وشربهم ووقاعهم ، فقد أوقعهم فى الفطر وهم لا يعلمون ، فيكون بذلك آثما ويصح صومهم ما داموا جاهلين، فإن علموا قضوا يومهم هذا .

ويعرف الفجر أيضًا برؤية أول بياضه فى الأفق وبقراءة القرآن وورد وبإخبار ثقة .

ومن السنة الإمساك عن المفطرات قبل الفجر بزمن يسير يسع قراءة خمسين آية احتياطا للعبادة كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن أكل أو شرب أو جامع ناسيا أنه صائم ولم تذكره زوجته أو غيرها فصيامه صحيح لحديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم (أن رجلا قال أكلت وشربت وأنا صائم ، فقال صلى الله عليه وسلم « أطعمك الله وسقاك فأنت ضيف الله فتم صومك » ولقوله صلى الله عليه وسلم: « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وليحذر الصائم مغالطة ربه فيزعم أنه ناس وهو كاذب ، فإنه تعالى يعلم السر وأخفى ، وليحذر الأزواج من

مداعبة زوجاتهم نهارا حتى لايقعوا فى الخطيئة الكبرى بجماعهم فى نهار رمضان ، فإنه إثم عظيم ، وكفارته هى الكفارة الكبرى مع قضاء اليوم ، والكفارة الكبرى هى عتق رقبة مؤمنة فإن لم يجد فصيام شهرين أو ستين يوما متتابعة ، بحيث لو أفطر يوما ولو لعذر استأنف ، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا لكل مسكين مد ، والمد رطل وثلث من غالب قوت البلد « ثم أتموا الصيام إلى الليل » .

أفادت الآية أن الصيام يبدأ من أول الفجر الصادق عند تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وأنه يتم عند غروب الشمس حيث يبدأ الليل، فيحل الفطر حينئذ بأى مفطر قل أو كثر ، ويحرم الوصال فى الصيام دون فطر ، فقد روى الشافعى عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال ، قيل يارسول الله إنك تواصل فقال : « إنى لست مثلكم ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » أى أن الله تعالى يجعل النبى صلى الله عليه وسلم فى قوة من أكل وشرب ، وإن لم يطعم ولم يشرب « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » .

لما أباح الله مباشرة النساء ليلة الصيام وضع هنا قيدا لحل هذه المباشرة، وهو أن تكون فى غير المساجد ، فلا يحل للصائمين المعتكفين فيها أن يستدعوا إليهم زوجاتهم لمباشرتهن ليلا فيها ، فكما تحرم تلك المباشرة نهاراً لحرمة الصيام تحرم ليلا بالمساجد ، لحرمة بيوت الله .

« تلك حدود الله فلا تقربوها » .

أى ما تقدم من الأحكام إباحة ومنعا أحكام الله التى حددها ، فلا تقربوها محاولين اقتحامها بتحريم ما أحل أو تحليل ما حرم .

« كذلك » البيان الواضح فيما مر « يبين الله آياته للناس » فى شرائعه المختلفة ، لتكون واضحة المعالم « لعلهم يتقون » أى يحذرون عقوبته بامتثالها .

حكم الصوم وما ينبغى فيه :

حكم الصوم كثيرة منها أن يعرف الأغنيـــاء قدر النعيم فيشكروا الله عليه ، فإن الصائم الغنى يرى نفسه محروما من الطعام والشراب والاستمتاع الحلال بزوجته نهارا ، فيتذكر أن غيره من الفقراء محروم من هذا بصفة دائمة ، أما هو فإنه يجده طول العام

فيما عدا شهر الصيام ، كما يجده ليلا فى الصيام ، فيدرك بذلك فضل الله تعالى عليه فيشكره ، إذ لا يعرف قدر النعمة كما ينبغى إلا من غابت عنه .

ومنها أن يذكروا الفقراء فإن من شبع لا يذكر من جاع ، وإنما يذكره أن لوجاع مثله ، ومنها صحة الأجساد وراحة الأجهزة الهضمية التى تعبت طول العام من ألوان الطعام الدسمة ، ووجباته العديدة ، وكمياته الكثيرة ، لأن الطبيب يعالج المريض بالحمية حتى ينفع فيه الدواء ، والصيام أفضل حمية وأجل علاج ، بشرط أن تكون وجبتا الفطور والسحور معتدلتين مقــداراً ونوعا ، حتى تحصل الفائدة المرجوة منه للجسم والجهاز الهضمى .

وينبغى للصائم أن يحرص على أكل الحلال والإكثار من الصدقة فى رمضان لحديث (أى الصدقة أفضل ؟ قال صلى الله عليه وسلم « الصدقة فى رمضان » وكان صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة ، كما ورد فى الحديث الصحيح .

والصدقة الطيبة مجزية من الله ولابد ، قال تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » الآية فسماها قرضا لتحقيق جزائها وثبوته كثبوت سداد الدين ، وهى ترضى الرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « الصدقة تطفئ غضب الرب» ويكون صاحبها فى ظلها ، قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن فى ظل صدقته حتى يقضى الله بين الناس » .

وينبغى للصائم أن لا يرد السائل المحتاج ولا يخيب رجاءه ما دام قادرا قال صلى الله عليه وسلم : « إذا وقف السائل بالباب وقفت الرحمة معه ، ردها من رده ، وقبلها من قبله » وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد شيئاً يعطيه للسائل يلين له الكلام ، ويعده بالعطاء فى وقت آخر ، وكانت عائشة رضى الله عنها تعطى السائل ماوجدت ولو تمرة ، والصدقة تدفع البلاء ، قال صلى الله عليه وسلم : « أكثروا من الصدقة ، فإن البلاء لا يتخطاها » ولا تنقص من المال ، قال صلى الله عليــه وسلم : « ما نقص مال من صدقة ، ومازاد الله أحداً يعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » ولها أجر عظيم عند الله ، قال صلى الله عليه وسلم

« من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه[1] حتى تكون مثل الجبل وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو فى يد الله حتى تكون مثل الجبل فتصدقوا ، ثم قرأ « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وينبغى للصائم أن لايمن بصدقته على من أخذها فإن المن حرام ومحبط للثواب ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . كان أبى يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف عنه سلامك .

وينبغى له أن يمتنع عن اللغو والسباب وقول الزور والعمل به ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » وقال « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

كما ينبغى أن يواظب على الصلوات فى أوقاتها جماعة ، وأن يصل رحمه ويتزاور مع الصائمين ، وأن يكثر من قراءة القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من قراءته فى رمضان ، وكان يدارس جبريل فيـــه ، وبالجملة ينبغى له أن يأتى بما يستطيع من خير ويبتعد عن كل سوء حتى يخرج من صيامه وهو من الأبرار الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ليلة القدر

جاء فى آيات الصيام السابقة أن شهر رمضان أنزل فيه القرآن والليلة التى أنزل فيها ، هى ليلة القدر من هذا الشهر المبارك ، قال تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ؟ ليلة القـــدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . سلام هى حتى مطلع الفجر » .

فأنت ترى أنه تعالى اختار لإنزال القرآن الكريم ليلة القدر ، فكانت به أشرف الليالى وأعظمها قدرا ، وحسبك فى بيان قدرها أنها خير من ألف شهر ، وأن الملائكة تتنزل فيها من أجل كل أمر قدره الله ، وأنها ليلة السلام منه تعالى حتى مطلع فجرها .

وكيف لا ينزل فى أشرف ليلة وهو أجل كلام من أجل متكلم نزل على أعز رسول لأعز أمة وخيرها .

---

(١) الفلو : كسمو وكعدو وكحمى : المهر .

وحسبك في الدلالة على فضل القرآن قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقد بقى هذا التحدى إلى يومنا هذا ، وسيبقى إلى يوم القيامة ، وقد جاء به نبى أمى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » فإذا كان الحكماء والفصحاء قد عجزوا عن الإتيان بسورة مثله فمحمد مثلهم ، لأنه فوق قوى البشر جميعاً من ناحية فصاحته وبلاغته وروحانيته الجذابة للقلوب والأرواح ، وتشريعاته الباقية على مر الدهور ، الصالحة لكل زمان ومكان ، وإذا كان فوق مستوى البشر كما أنه فوق مستوى الجن ، فلابد أن يكون من عند الله العليم بمصالح عباده ، أيد به رسوله محمدا الذى عرف طيلة حياته بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلاتعقلون » فكان الإيمان به حقاً له على العباد ، ومسلكا من مسالك الهدى والرشاد .

أسماء ليلة القدر :

تسمى ليلة البركة لقوله تعالى فى سورة الدخان : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » وليلة السلام لقوله تعالى فى حقها : « سلام هى حتى مطلع الفجر » وليلة الرحمة لقوله تعالى فى سورة الدخان : « رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » بعد قوله « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » الآيات من ٣ — ٦ .

عظمة ليلة القدر :

عظم الله ليلة القدر بقوله « وما أدراك ما ليلة القدر » أى أنها من فخامة القدر وعظم الشأن تفوق دراية المخلوقين ، ولا يعلم قدرها سوى رب العالمين .

وعظمها بطريقة أصرح إذ قال « ليلة القدر خير من ألف شهر » وقيل فى تفسير ذلك أن العمل الصالح فيها خير منه فى ألف شهر ليست فيها ، وروى عن ابن عباس أنه ذكر للرسول صلى الله عليه وسلم أن رجلا من بنى إسرائيل حمل السلاح فى سبيل الله ألف شهر فعجب لذلك ، وقال يارب جعلت أمتى أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالا ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر خيرا من ألف شهر إلى يوم القيامة .

ولا أعتقد أن هذا الخبر صحيح النقل ، فبنو إسرائيل ليسوا أطول منا أعماراً ولا أكثر منا أعمالا ولايعرفون قداسة الجهاد ، فهم الذين قالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » كما أن ألف شهر تساوى ثلاثة وثمانين عاما وثلثا ، ولا يعقل أن هذا الإسرائيلى المزعوم ، يظل طيلة هذه المدة يجاهد فى سبيل الله ، فطاقة الجسد على الجهاد لاتبقى هذه المدة الطويلة .

ومن أسباب رده أنه يصرف الناس عن الجهاد فى سبيل الله ، والاعتماد على قيام ليلة القدر التى تعدل ألف شهر جهاداً فى سبيل الله ، ولاشك أن خطر ذلك على الإسلام لاحد لفظاعته ، لهذا نرفض هذا الخبر شكلا (أى سندا) وموضوعا .

دستور الله لعباده وقانونه لخلقه والذى أفهمه من الآية أن هذه الليلة عظم الله قدرها بنزول القرآن الشريف فيها ، فهو دستور الله لعباده ، وقانونه لخلقه ، ولا شك أن الليلة التى نزل فيها تعتبر خيراً من ألف شهر لم ينزل فيها ، لما فيه من المنافع التى تعود على العباد فى عقائدهم وأخلاقهم ومعاشهم ومعادهم ، بما اشتمل عليه من قوانين وتشريعات ، وآيات بينات وإرشادات واضحات .

فإنك إن قارنت بين هذه الليلة التى نزل فيها هذا البلسم الشافى لأمراض المجتمع الإنسانى وعلله ، وبين العصر الذى سبق نزول القرآن تجد أن ذلك الحكم حقيقى خال من المبالغات فقد كان الناس يعيشون قبله بعقول متأخرة ، وأذهان راكدة ، حتى عبدوا الحجارة والتماثيل والحيوانات التى هى عاجزة عن حماية أنفسها من الذباب « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » وكانت الحروب بينهم لأدنى الأسباب وأوهى العلل ، ولاتكاد حرب تنتهى حتى تتبعها أخرى ، وكانت الجهالة منتشرة ، والظلم سائداً ، والأعراض مسلوبة ، والأموال منهوبة ، والضعفاء مستذلين ، والأقوياء مستبدين ، إلى غير ذلك من المآسى فكانت هذه الليلة التى نزل فيها القرآن حداً فاصلا بين هذا كله وبين العلم والعرفان وتمجيد الواحد الديان ، والالتزام بقوانين السلوك الرشيدة ، والأخلاق الحميدة ، والاستقرار والتجمع بين الأمة العربية وسواها على أساس من

تبادل الخير والنفع والمحبة والسلام تحت دين واحد لرب واحد ، فكيف لا تفضل هذه الليلة التى نزل فيها القرآن الجامع لأشتات الخير ، المانع من اقتراف المآثم كيف لا تفضل ألف شهر ؟ أليست ليلة الشفاء خيراً من عمر طويل تقضيه عليلا طريح الفراش .

وليس المقصود من ألف شهر العدد بعينه ، بل هى خير من الزمان كله ، ولا شك أن العبادة فى ليلة لها هذا القدر عظيمة المكانة عند الله تعالى ، ولهذا صح فيها عن النبى صلى الله عليه وسلم : «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

ومما سبق علمت أنها إنما سميت ليلة القدر لأنها ذات قدر وشرف عظيم بسبب إنزال القرآن الشريف فيها ، من قولهم فلان له قدر بين الناس أى شرف وكرم مكانة .

وقيل سميت بذلك لأن الله ينزل فيها مقادير الأمور للعام المقبل ، ليقوم الملائكة مدبرات الأمور بتنفيذها فى حينها ، فينزل لملائكته آجال العباد وأرزاقهم ومقـادير الرياح والسحب والأمطار والحروب ، ورحـلات الطيور ، والمواليد والموتى ، وغير ذلك من شئون الخلائق من إنسان وحيوان ونبات وجماد .

ومدبرات الأمور هم رؤساء الملائكة الأربعة ، وحين يقومون بالتنفيـذ يفعلون ذلك بمعونة تابعيهم من الملائكة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم » .

وقيل للحسين بن الفضيل أليس الله قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض قال بلى ، قيل فما معنى ليلة القدر ، قال سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر .

وقيل سميت بذلك لأن للطاعة فيها قدرا عظيما .

كيف أنزل القرآن فيها :

نصت الآية على أن القرآن أنزل فى ليلة القدر ، ولكن لا يعلم منها صراحة أنه أنزل كله دفعة واحدة فيها ، أو ابتدئ إنزاله ، وقد ذهب إلى الأول بعض العلماء ، فقد قالوا أنزل كله ليلتها إلى السماء الدنيا فى رمضان من العام الأول للنبوة ، ثم كان ينزل على الرسول منجما ومقسما حسب الوقائع مدة البعثة .

وقال الشعبى : ابتدئ إنزاله فى ليلتها ، ولم ينزل كله دفعة واحدة ، وقال عمر : معنى الآية أنزلناه فى شأن ليلة القدر وفضلها، أى أنزلنا قرآن هذه السورة من القرآن فى شأن ليلة القدر .

موضع ليلة القدر من ليالى رمضان :

أكثر العلماء على أنها فى أوتار العشر الأخير من رمضان ، وأكثر هؤلاء على أنها ليلة السابع والعشرين منه ، ولذلك جرت عادة المسلمين أن يحتفلوا بها فيها وعمادهم فى ذلك ما رواه مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين » .

ومن طرائف الاستنباط فى تعيين ليلتها أن عدد كلمات السورة ثلاثون كلمة وأن كلمة « هى » الراجعة إلى ليلة القدر هى الكلمة السابعة والعشرون ، ونحن لا نحتاج إلى الاستنباط ، ومعنا النص فى حديث مسلم السابق .

والعلماء مختلفون فى تحديد وقتها وكل يستند إلى رواية صحيحة ولعل اختلاف الروايات يرجع إلى أنها تتنقل بين الليالى التى وردت فى الروايات المختلفة .

وانما أخفاها الله تعالى ليتعدد طلب العبد لها بألوان العبادة والدعاء ، كما أخفى الإجابة فى الدعاء ليبالغ العبد فيه ، وكما أخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة ليجتهد الناس فى الدعاء جميع يومها ، وكما أخفى موعد قيام الساعة ليديموا الحذر منها ومن مفاجأتها فى أى وقت وقد علمت أن الأكثرين على أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعد لها فيعتكف فى المسجد فى العشر الأخير من رمضان قالت عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأخير شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله » والمئزر ما يستر العورة ، وشده كناية عن تمام استعداده للعمل .

هل هى أفضل من ليلة الإسراء :

ظاهر الآية يدل على أنها أفضل من ليلة الإسراء والمعراج فى حق الأمة ، وإن كانت ليلة الإسراء فى حقه صلى الله عليه وسلم أفضل منها ، ولم يأت فى ليلة الإسراء حديث يدل على فضل العمل فيها .

من يحرز فضلها :

يحرز فضل ليلة القدر من قامها ، قال صلى الله عليه وسلم : « من قام

ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخارى ومسلم .

ولما كانت ليلة القدر مختلفا فى وقتها ، وإن أرجى الليالى فيها هى ليالى العشر الأخير من رمضان على رأى الأكثرين ، فلهذا يحسن قيام ليالى هذا العشر بل يستحب ، قال المتولى يستحب التعبد فى كل ليالى العشر حتى يحرز الفضيلة على اليقين ، أقول ولعل النبى صلى الله عليه وسلم كان يعتكف فى العشر الأخير لذلك كما قدمنا .

وإحياؤها يكون بقيام لياليها صلاة ودعاء وقرآنا وذكرا ، وقيامها يحصل بشغل طائفة من وقتها بذلك فلاينام الليل كله .

ويرى بعض العلماء أن من صلى العشاء الأخيرة فى جماعة ، وعزم على صلاة الفجر كذلك فقد أدرك قيام ليلة القدر ويرى بعض آخر أن صلاة التراويح تكفى فى قيام ليلة القدر للمقل ولذلك تنوى بقيام رمضان كما تنوى بالتراويح ، فإذا ضم إليها صلاة العشاء فى جماعة مع العزم على صلاة الفجر كذلك كان ذلك قياما لليلة القدر لا بأس به .

وأصحاب الحظ السعيد ذوو النفوس الصافية والأعمال الطاهرة ينكشف لهم فى هذه الليلة مالايراه غيرهم ، فيرون الملائكة على صورهم مجتهدين فى عبادة الله تعالى ، ويرون منازل الأولياء والأنبيـــاء والصديقين والشهداء ، ويطلعون على بعض مظـــاهر الملك والملكوت ، فيتجلى لهم كبرياء الحى الذى لايموت وعظمته التى لا حد لها .

ومنهم من يرى الناس فى هذه الليلة على الحقيقة التى هم عليها ، وينكشف المستور من حالهم فيعلم المقيم على على الطاعة بصدق وإخلاص ، والمقيم على المعصية باطنا المرائى بالطاعة ظاهرا .

روى أن بعض الأولياء رأى فيها بعض من كان يعتقد فيه الصلاح على خلاف ظنه فيه ، فنعوذ بالله من الرياء .

ويرى الإمام النووى أنه لايحرز فضلها إلا من أطلعه الله عليها ، فمن قامها ولم يشعر بها لم ينل فضلها ، ذكر ذلك النووى فى شرحه لمسلم وخالفه الأوزاعى والمتولى حيث قالا ان فضلها يناله من قامها بإخلاص لله تعالى ، وهذا هو الصحيح بدليل الحديث الصحيح الذى ذكرناه فى هذا الفصل .

« تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » .

هذا كلام مستأنف دال على فضلها، والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والروح هو جبريل رئيس الملائكة والسفير بين رب العزة وبين الرسل عليهم الصلاة والسلام، ينقل وحيه وكتبه إليهم وهو الذى كان ينزل بالقرآن على النبى صلى الله عليه وسلم آنا فآنا ، قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

والتعبير بتنزل للإشعار بأن الملائكة والروح ينزلون فى تلك الليلة على دفعات ، ولا يزالون يتنزلون إلى الفجر .

وقيل إن الروح أعلى من الملائكة ، وهم حفظة عليهم ، كما أن الملائكة حفظة علينا ، وإذن الله: أمره، « من كل أمر » معناه من أجل كل أمر قضاه الله عز وجل لتلك السنة كقوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

« سلام هى حتى مطلع الفجر » .

أى يسلم فيها الملائكة على مؤمنى أهل الأرض تحية لهم ، وقيل يسلم الله عليهم ، والسلام من الله الرحمة ، ومن الملائكة استغفار .

وأرى أن المعنى أن هذه الليلة ليلة سلام من الله وأمان ومسالمة منه تعالى لعباده ، يقبل فيها من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم إذا أقبلوا على عبادته تائبين من ذنوبهم ، وكما أن تنزل الملائكة يبقى حتى مطلع الفجر،

بقاء ليلة القدر :

يرى بعض العلماء أن ليلة القدر لا تكرر سنويا ، وأنها كانت لليلة واحدة وانقطعت ويرى آخرون أنها تكررت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ورفعت بعده ، والصحيح أنها باقية إلى يوم القيامة .

واستدل من قال برفعها بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرا لكم » ولكن هؤلاء غفلوا عما جاء فى آخر الحديث « فالتمسوها فى التاسعة السابعة الخامسة » وعلى هذا يؤول رفعها فى صدر الحديث برفع العلم بها ، أى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم بها ، وقد خرج ليعلم الناس بوقتها ، فلما تلاحى الرجلان أنساه الله إياها لحكمة يعلمها الله ، ولهذا طلب

من الناس أن يلتمسوها فى تلك الليالى فإنها مظانها عنده صلى الله عليه وسلم .

زكاة الفطر وصلتها برمضان :

سميت زكاة الفطر لوجوبها بالفطر من رمضان عند استهلال شهر شوال ، ويقال لها زكاة الفطرة ، أى الخلقة، لأنها وجبت تزكيـــة للنفس وتنمية لعملها ، وهى تجبر النقص الذى حدث فى الصيام كما تجبر سجدة السهو ما حدث فى الصلاة روى عن بن عباس قال : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين » .

والأصل فيها ما رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى ، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس للصلاة » .

وما رواه البخارى أن عبد الله بن عمر قال : « أمر النبى صلى الله عليه وسلم بزكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير » قال عبد الله « فجعل الناس عدله مدين من حنطة »

وقد جاءت أصناف أخرى غير ما ذكر كالزبيب والأقط[١] فى أحاديث أخرى .

وقد وجبت فى السنة الثانية من الهجرة مع صوم رمضان فقد فرض فى السنة الثانية من الهجرة أيضًا .

وتجب عند (الشافعية) بأول ليلة العيد عن كل من أدرك جزءاً من رمضان وجزءاً من شوال ، فمن ولد بعد الغروب آخر يوم فى رمضان فلا زكاة عنده وكذا من تزوجها بعد غروب شمس اليوم المذكور ، ومن مات قبل غروبه فلا زكاة عنه أيضاً ، وتكون أداء إذا أخرجت قبل غروب الشمس من يوم العيد ، ويحرم تأخيرها عنه ، وتعتبر حينئذ قضاء ، كمن يؤدى الصلاة بعد خروج وقتها .

ويصح تعجيلها من أول رمضان[٢] وتلزم زكاة الفطر من فضلت عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته ، وعن مسكن وخادم وكتب علم وثياب الأسرة ، وما اعتيد عمله فى العيد من نحو كعك ونقل ولحم أو سمك، ولا يشترط أن تفضل عن دينه على

---

(١) الأقط : لبن يابس نزع زبده .

(٢) وعند الحنفية يصح أداؤها مقدما ومؤخراً، لأن وقت أدائها العمر كله ، كما فى سائر الواجبات الموسعة ، وسيأتى فى بيان مذهبهم ومذهب المالكية .

المعتمد عند الشافعية ، خلافا لمن اشترط ذلك .

ويخرج الشخص عن نفسه وعمن تلزمه نفقته من زوجته وولد صغير أو كبير لايقدر على الكسب لمرض أو اشتغال بطلب العلم أو نحو ذلك ، وعن أبوين فقيرين وإن قدرا على الكسب ، ولا يلزمه زكاة زوجة أبيه .

ولو أيسر ببعض المال قدم نفسه فزوجته فولده الصغير فالأب فالأم فالولد الكبير والواجب عن كل نفس صاع ، وهو خمسة أرطال وثلث بغدادية ، والرطل البغدادى مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع الدرهم ، وهو قريب من أربع حفنات بكفى رجل معتدل الكفين ، وهو بالكيل المصرى قدحان تقريبا من الحب الخالص ويخرج القدر المذكور من غالب قوت البلد[1] ، ويجوز إخراج قيمة ذلك نقداً تيسيراً على الناس وبخاصة أهل المدن الذين يقتاتون بالخبز (الجاهز) وما تقدم هو مذهب الشافعية كما قلنا من قبل والحنفية لا يوجبونها إلا على من ملك نصابا فاضلا عن حاجاته الأصلية ، وتجب فى مال الصبى والمجنون يخرجها عنهما وليهما ، ووقت وجوبها عندهم من طلوع فجر يوم عيد الفطر ويصح أداؤها عندهم مقدما ومؤخراً لأن وقت أدائها عندهم العمر ، إلا أنها تستحب قبل الخروج إلى المصلى ، لقوله صلى الله عليه وسلم: اغنوهم السؤال فى هذا اليوم » .

ويجب أن يخرجها عن نفسه وولده الصغير الفقير وخادمه وولده الكبير إذا كان مجنونا ، فإن كان عاقلا فلا يجب على أبيه وإن كان فقيرا ، وله أن يتبرع عنه ، ولا يجب على المزكى أن يخرج زكاة زوجته ، فإن تبرع بها أجزأت ولو بغير إذنها .

وتخرج عندهم من أربعة أشياء الحنطة والشعير والتمر والزبيب ، والواجب عندهم من الحنطة وهى القمح نصف صاع عن الفرد الواحد ، والصاع أربعة أمداد ، والمد رطلان عندهم ، والرطل عندهم أيضًا مائة وثلاثون درهما ، ويقدر الصاع بالكيل المصرى بقدحين وثلث ، فالواجب منه قدح وسدس[2] ويجب

(١) ويجب أن يعطى عندهم لثلاثة من المستحقين على الأقل ، والكيلة عندهم تكفى عن أربعة تقريباً ولا يلزمه الاقتراض .

(٢) فالكيلة من القمح عندهم تكفى سبعة أفراد إذا زيد عليها سدس قدح بشرط نظافة القمح .

من التمر والشعير والزبيت صاع كامل ، فالكيلة منها تكفى عن ثلاثة ويبقى منها قدح ، ويجوز إخراج القيمة نقوداً بل هذا أفضل عندهم لأنها أنفع للفقير ويجوز دفع الزكاة عن جماعة إلى مسكين واحد كما يجوز دفع زكاة الفرد إلى عدد من المساكين .

والمالكية توجبها على كل مسلم حر قادر عليها فى وقت وجوبها ولو بالاقتراض إذا كان يرجو الوفاء ، ويشترط أن تكون زائدة عن قوته وقوت من تلزمه نفقته فى يوم العيد ، فإذا احتاج إليها فى النفقة فلا تجب عليه ، ويخرجها عمن تلزمه نفقته وهم الأولاد الذكور الذين لا مال لهم ، إلى أن يبلغوا قادرين على الكسب ، والإناث الفقراء إلى أن يدخل الزوج بهن أو يدعى للدخول والزوجة أو الزوجات ، والوالدان الفقيران .

وقدرها عندهم صاع عن كل فرد ، وهو قدح وثلث بالكيل المصرى ، فتجزئ الكيلة عن ستة أشخاص ، وتخرج عندهم من غالب قوت البلد من هذه الأصناف . القمح والشعير والسلت والذرة والدخن والأرز والتمر ، والزبيب والأقط (وهو لبن يابس نزع زبده) كما مر ، ولا تصرف عندهم إلا للفقير أو المسكين من غير بنى هاشم وبنى المطلب ، أما باقى الأصناف الثمانية فإنها لا تصرف لهم ، وخالفهم فى ذلك الشافعية والحنفية فقد أوجبوا إخراجها لهم ، وهم مجموعون فى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » الآية ويجوز عند المالكية إعطاء كل فقير أو مسكين صاعا أو أقل أو أكثر .

ويندب عندهم إخراجها بعد فجر يوم العيد وقبل الذهاب لصلاته ، ويجوز إخراجها قبل يوم العيد بيوم أو يومين ولا يجوز بأكثر من يومين على المعتمد ويحرم تأخيرها عن يوم العيد ولا تسقط بمضيه ، بل تبقى فى ذمته حتى يخرجها .

ويجوز عندهم إخراجها من الدقيق أو السويق بالكيل وهو قدح وثلث كما تقدم فى الحب فإن أخرجت من الخبز فالوزن ، وقدر برطلين بالرطل المصرى ، كذا قالوا ولكنى أراهما أقل من وزن قدح وثلث ، فالأولى الاعتماد على وزن القدح والثلث الواجبين عندهم فى الحب .

تنبيه مهم :

لا أرى داعيا لاختلاف المذاهب فى مقدار ما يخرج عن الفرد الواحد ، ويعتبر مذهب المالكية وسطا بين مذهبى الشافعية والحنفية ، وبما أن الواجب عندهم قدح وثلث وأن الكيلة المصرية تكفى عن ستة ، فلتجعل الزكاة موحدة بين المسلمين على هذا الأساس فى جميع المذاهب ولتخرج القيمة فإنها أنفع للفقير ، لا فرق بين مذهب ومذهب تمشيا مع واقع الحياة ، ولأن الفقراء يحتاجون فى العيد إلى غير الخبز ، من كساء وغيره ، وتقدر فى مصر قيمة سدس الكيلة فى وقتنا هذا بنحو خمسة عشر قرشا بالعملة المصرية يخرجها المزكى عن كل فرد ممن تجب عليه الزكاة عنه ويلاحظ أن الفقير تجب عليه الزكاة إذا فضلت عن قوت يومه وليلته يخرجها لمثله ، روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صاع من بر — أى قمح — على كل اثنين صغير أو كبير حر أو عبد ، ذكر أو أنثى غنى أو فقير ، أما غنيكم فيزكيه الله ، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطاه » أى أكثر مما أخرجه فى الزكاة لمثله ، لأنه سيأخذ من الزكاة بوصف كونه فقيراً من الغنى أو الفقير ما يعوضه .

ولا شك أن اشتراك الجميع فى مواساة بعضهم بعضًا مظهر تعاونى عام يحبه الإسلام ويحض عليه فى هذه المناسبة الكريمة .

العيد وما ينبغى فيه :

سمى العيد عيداً لعوده وتكرره كل عام ، أو لأن المسلمين عادوا فيه من طاعة الله بالصيام والقيام إلى طاعته بالمواساة والتراحم .

ويسن أن يأكل المسلم قبل توجهه إلى المسجد أو المصلى لصلاة عيد الفطر ، أما فى عيد النحر فبعد الصلاة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم .

وليس العيد لمن أكل اللذيذ ، وليس الجديد ، ولكنه لمن أطاع ربه وواسى أهله وزار جيرانه ، وأخواته .

دخل رجل على على بن أبى طالب كرم الله وجهه يوم العيد فوجده يأكل خبزاً خشنًا ، فقال يا أمير المؤمنين ، أفى يوم العيد تأكل خبزاً خشناً ؟ فقال : اليوم عيد من قبل صومه وشكر سعيه وغفر ذنبه ، ثم قال : اليوم لنا عيد ، وكل

يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد .

ورأى عمر بن عبد العزيز ولدا له يوم العيد وعليه قميص خلق (قديم بال) فبكى عمر ، فقال الولد لأبيه ما يبكيك ؟ فقال يابنى. أخشى أن ينكسر قلبك فى يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص الخلق ، فقال يا أمير المؤمنين : إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه ، أو عق أمه وأباه ، فضمه إليه وقبله بين عينيه ودعا له ، فكان أزهد أولاده بعده

وختاما أسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم فى هذا الشهر المبارك لعبادته ، وأن يعيننا جميعًا على قراءة كتابه ومواساة الفقراء والمعوزين ، وأن يكف ألسنتنا وجوارحنا عن المعاصى إنه نعم المولى ونعم المجيب .

مصطفى محمد الطير

لا أعود إلى مثلها

دخل زيان بن عبد العزيز على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فشكا له عمر وقال :

قل نومى هذه الليلة ، فاتهمت عشاء تعشيت به .

فقال : وما هو ؟

فقال : عدس وبصل ..

فقال زيان : لقد وسع الله عليك ، وتُضَيِّقُ على نفسك!

فقال عمر : أطلعتك على سرى فوجدتك غاشا غير ناصح ، أما والله لا أعود إلى مثلها أبداً .

الحوار بين المسلمين والمسيحيين

باق إلى ما شاء الله على أن لا يفسد للود قضية

الأستاذ / أحمد حسين

أرسلت منذ بضعة أسابيع دعوة لرئيس دولة عظمى ، لاعتناق الإسلام وقد تلقيت أخيراً جداً وبعد مضى فترة طويلة خطاباً من سفير هذه الدولة ، يشكرنى على ما ورد فى ختام الرسالة من تمنيات طيبة لتوفيق هذا الرئيس .

والمهم أن هذه الرسالة التى نشرت مؤخراً على صفحات مجلة الدعوة ، قد أثارت عدة تساؤلات تقتضى مباحث موضوعية .

أولها : أهذا هو الوقت الذى نبشر فيه بالإسلام خارج الحدود ؟

حيث يحتاج المسلمون فى داخل كل دولة على حدة ، ثم فى داخل العالم الإسلامى ككل إلى معالجة عشرات ، بل مئات المشاكل التى تكاد تطفئ نور الإسلام وكم من المسلمين ليس لهم من الإسلام ، سوى الاسم ، كل ذلك بالإضافة إلى الأخطار التى تهدد العالم الإسلامى من القوى الشيوعية والصهيونية ، وموجات الانحلال والتدهور أليس ذلك كله هو الأجدر بعنايتنا وتكريس جهودنا ، بدلا من التطلع خارج حدودنا ، حيث يرد علينا واقع المسلمين « المهلهل » .

هذا هو التساؤل الأول الذى أثارته دعوتى لرئيس أعظم دولة مسيحية فى العالم للإسلام .

الحوار بين المسلمين والمسيحيين يجب أن يوجه لمقاومة الإلحاد .

أما الموضوع الثانى الذى أثارته رسالتى ، فهو قول البعض ، إن القضية اليوم لم تعد قضية إسلام أو مسيحية ، وإنما أصبحت دينا أو لادينا ، اعتقادا بالله أم كفرا به ، فالخلاف الحقيقى ،

والعدو المشترك للأديان كلها ، هو هذه المادية الجارفة التى أصبحت تهدد المجتمع الإنسانى كله بالفوضى .

ولدراسة هذين المبحثين أخصص هذا المقال .

أولاً – بالنسبة للواقع الإسلامى :

يصور المسلمون الطيبون ، المتحمسون واقع العالم الإسلامى بصورة منكرة ، فيتحدثون عن انقسامه وسوء أحواله ، وتربص القوى العالمية به ، ويتحدثون عن اضطهاد المسلمين فى أريتريا ، والفلبين ، وفى غير ذلك ، حتى إذا انتقلوا للحديث عما يجرى فى داخل المجتمعات الإسلامية نفسها ، ازدادت الصورة قتاما وسوءاً ، فالشريعة الإسلامية غير مطبقة ، واللهو والفجور منتشران إلى آخر الصورة .

وأبادر فأقول ، أن لا لوم ولا تثريب فالتماس الكمال محبوب ومرغوب ، بل ونحن مأمورون بالسعى لإدراكه ، وكل ما هناك أننى أريد أن أسوق ملاحظتين ، لا أقصد من ورائهما ، إلا إدخال الأمل والثقة فى بعض النفوس واننا على الدرب واصلون بإذن الله إلى ما فيه الخير للمسلمين وعزة الإسلام .

استقلال الدول الإسلامية بشئونها :

فأما الملاحظة الأولى فاستقلال الدول الإسلامية وقد شرحت على صفحات مجلة الأزهر من خلال ثلاثة أعداد متوالية ، كيف لم يكن هناك منذ نصف قرن بوصة واحدة من العالم الإسلامى ، لم تكن تحت السيطرة المباشرة للعالم المسيحى ، أو على الأقل فى دائرة نفوذه ، وكان معنى ذلك أن العالم الأوربى أراد أن يفرض على المسلمين أفكاره ، وجراثيم الانحلال الذى كانت بدأت تدب إليه .

ففى مصر على سبيل المثال اعتبرت الخمور ودور اللهو الحرام من الأمور المباحة ، بل والمرغوب فيها ، بحيث أصبحت الدولة تعطى رخصا لمزاولة الزنا ، ولا مجال للحديث فى هذا المقال عن الكفاح الذى وصل إلى حد الاستشهاد لمقاومة ذلك كله ، والمهم أن ذلك كله قد توقف بسبب استقلال البلاد الإسلامية ، فلم تعد السلطة هى التى تدفع بالناس إلى هذا التدهور الشائن وبدأ المجتمع يعزز قواه الإسلامية الأصيلة ، فأصبح الغالبية العظمى من شباب الجامعات : هم الذين يطالبون بوجوب تطبيق الشريعة

الإسلامية ، وإذا كان الحاضر لا يزال يتلكأ فى فهم ذلك ، فإن المستقبل ، والمستقبل القريب ، قد بات مؤكداً ، وأن ذلك آت لا ريب فيه .

العالم الإسلامى لم يكن مثاليا :

هذه هى الملاحظة الأولى التى أسوقها لمن يريد أن يتفاءل بمستقبل العالم الإسلامى .

أما الملاحظة الثانية ، التى أريد أن أضعها تحت أنظار المتحمسين ، والذين يتطلعون دائماً إلى الكمال أن يدركوا ، أن الكمال لله وحده ، وأنه ليس من طبيعة الحياة ، فالدين عند الله الإسلام ، ومع ذلك فقد شاءت إرادته . أن لا يكون الناس جميعاً مسلمين « ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة » أى أن سنة الله فى خلقه ، أن يجعلهم متفاوتين فى كل شىء ، ولك أن تتصور أن المجتمعات الإسلامية (باستثناء مجتمع المدينة المنورة) كانت خلوا من النقائص والانحرافات ، وحسبنا أن نذكر أن شاعراً ماجنا كأبى نواس كان قريباً إلى خليفة المسلمين ، فالنفس الإنسانية الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم لن يكفا عن العمل فى ظل أى ظرف من الظروف لأن تلك هى مشيئة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وليس هناك ما يدل على قوة الإسلام وتمكنه من نفوس المصريين ، أكثر من هذه الجموع التى تؤم المساجد يوم الجمعة . فقديماً فى عهد سلطان الدولة الإسلامية كانت القوانين والعرف ، يعاقبان على ترك الصلاة ، فعندما يصلى الناس ، لا نعرف إذا كان هذا خوفا من الله أم من القانون .

أما اليوم حيث لا يعاقب القانون أو العرف على ترك الصلاة ، فلا دافع لهذه الجموع الكثيفة إلى الصلاة سوى مخافة الله .

فالإسلام بخير ، وما على الوعاظ إلا أن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يفهموا الناس ، أن الإسلام ليس صلاة فحسب ، وإنما هو سلوك كامل فى كل شئون الحياة صغيرها مثل كبيرها . والمهم أننى ممن يعتقدون ، أن العالم الإسلامى بخير ، وأنه يدرج نحو التخلص من أوزار عهد الاستعمار لينطلق بعد ذلك بكل قوة لقيادة العالم المضطرب .

ثانياً : بالنسبة لوجوب التعاون الإسلامى والمسيحى :

أنتقل الآن — إلى القضية الثانية التى أثارتها رسالتى ، وهى التساؤل عما إذا كان الوقت الحالى مناسباً للدخول فى جدل عقائدى بين الإسلام والمسيحية حيث أصبح يهددهما خطر واحد مشترك وهو الإلحاد وما يجر إليه من انحلال وتدهور وليس أدل على ذلك من ايفاد الفاتيكان بعثة من الكرادلة ، وهم يعرضون حواراً إسلامياً مسيحياً وأبادر فأقول ، أن ليس هناك من يسعده أن يقوم حوار بهدف التقارب والتواد بين المسلمين والمسيحيين ، منى أنا بالذات :

ولكنى أقسم الموضوع إلى أقسام ثلاثة :

١ — المسيحية الحقيقية والأصيلة :

٢ — المسيحيون كأشخاص

(ا) فى العالم كله

(ب) فى مصر بخاصة

٣ — المسيحية الكنسية :

— بالنسبة لأشخاص القائمين عليها

— بالنسبة للمبادئ التى تنطوى عليها .

ولنعرض لكل قسم من هذه الموضوعات ببحث على حدة .

المبحث الأول

المسيحية الحقيقية

عندما تقول لنا المسيحية « الله محبة » وعندما تبشر بالحب بين الناس ، عندما تدعو للاستقامة والأخلاق الحميدة ، عندما تدعو للسلام والتعاون ، عندما تشجب العنف وتندد بالعدوان وتكره الظلم والبغى فلست أحسب أن هناك إنساناً واحداً فى حالته الطبيعية ، يمكن أن يختلف حول هذه المبادئ ، الإنسانية . يزيد على ذلك ، أننا نحن المسلمين » مأمورون أمراً بنص قرآننا أن نؤمن بالمسيح « عيسى بن مريم » وأن نؤمن بميلاده المعجز ، وبطهارة أمه وقداستها ، ونحن مأمورون أمراً ، أن نؤمن بأن سيدنا عيسى هو رسول رب العالمين ، وأنه أحيا الموتى بإذن الله وأنه شفى الأكمه والأبرص ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أنزل عليه الإنجيل ، كما أنزل التوراة على سيدنا موسى ، وأنزل القرآن فى خاتمة المطاف على سيدنا محمد باعتباره خاتم الرسل والأنبياء ونحن مأمورون أمراً باعتبارنا مسلمين أن نؤمن بأن جوهر الأديان كلها واحد وهو الإيمان بإلٓه واحد ، والعمل

الصالح ، ومأمورون فوق ذلك بأن لا نفرق بين أحد من رسله :

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »

فالمسيحية بهذا المعنى ، وفى هذه الحدود لايوجد بها ذرة من خلاف بينها وبين الإسلام ، والمسلم الذى لا يدرك ذلك يكون ناقص الإسلام

المبحث الثانى

بالنسبة للمسيحيين بعامة والأقباط بخاصة

فإذا كان هذا بالنسبة للمسيحية الحقيقية ، فإن العلاقة بالمسيحيين الطيبين . أبين وأظهر ، وهى علاقة المودة، والثقة والاحترام المتبادل ، وما من مسيحى حق فى طول الدنيا وعرضها ، إلا وهو ينضح بالخير والاستقامة والمحبة . ولقد طفت العالم شرقا وغربا فأشهد أننى رأيت أحسن النماذج التى تشرف الإنسانية ، ولا داعى لذكر أمثلة مما عرضت لى فى معاملاتى ، حتى لا يضيق بنا المجال .

وإنما أسرع لأنوه بما أحسه نحو مسيحيى مصر أو بالأحرى أقباطها ، وأشهد أمام الله ، أننى لم أشعر أبداً فى كل حياتى النضالية ، من أجل الله والوطن ، وما يستتبع ذلك من قيم ، أخلاقية ، ومثاليات ومعنويات . بأدنى فارق بين مسلم أو مسيحى . ولى من الأصدقاء الأقباط ، أشخاص أضعهم فى الصف الأول ، وما أكثر المحن التى صادفتنى فى الحياة ، وأشهد أمام الله أن أفراداً من أقباط مصر كانوا هم الذين مدوا إلى طوق النجاة .

المبحث الثالث

المسيحية الكنسية

أنتقل الآن إلى بيت القصيد من هذا البحث وهو العقيدة المسيحية ، كما تصورها الكنيسة ، وهنا أيضًا يجب أن نفرق بين أمرين :

(ا) أشخاص رجال الكنيسة .

(ب) عقيدة الكنيسة .

فأما عن أشخاص رجال الكنيسة ، فلهم عند أى مسلم كل احترام وتقدير .

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين

ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين» .

فهذا هو نص القرآن ملزم لكل مسلم أن يحترم رجال الكنيسة من قساوسة ورهبان .

أما بالنسبة لى شخصيًّا ففوق كونى مسلمًا ، فإن تجاربى الخاصة جعلتنى ألمس ذلك لمس اليد :

فالاحترام والإكرام لرجال الكنيسة قضية مفروغ منها لا نسوقها نفاقاً ، أو بطريقة مرحلية لا تلبث أن تتغير بتغير الظروف ، فهى جزء من ديننا ، وهى نص من نصوص القرآن كما قدمنا ولكن ذلك لا يعنى بحال ، أن نسكت عن مناقشـــة العقيدة المسيحية كما تصورها الكنيسة بمقولة إن ذلك قد يؤذى مشاعر رجال الكنيسة ، فذلك أمر لا حيلة لنا فيه ، وفى تصورنا أنه لم يدفع أوربا إلى الانسلاخ من الدين (على درجات متفاوتة) . والاستغراق فى المادية ، إلا هذه الآراء والمعتقدات الكنسية بالذات . ولم يكن بطريق المصادفة أن كانت روسيا « بالذات » هى قاعدة الشيوعية والإلحاد فقد كانت روســـيا هى أعظم قلاع الكنيسة والتصورات الكنسية :

كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن تكون إيطاليا اليوم (وهى مقر البابوية) أكبر دول أوربا اعتناقا للشيوعية :

فإذا كان هناك خطر يتهدد الإيمان بالله فهو فى تصورنا (إن كان خطأ أو صواباً) ينشأ من هذه الآراء والمعتقدات الكنسية ، فأصبح لزاماً علينا أن نبين للناس وللأجيال الناشئة أن الإسلام لا يعرف هذه التصورات الكنسية ، وبالتالى فهو قادر على الوقوف فى وجه المادية والإلحاد ، وهذا يجرنا إلى بحث هذه المعتقدات الكنسية .

المبحث الأخير

فى المعتقدات الكنسية

نصل الآن إلى لب موضوعنا ، والذى لا نستحق أن نوصف بأننا مسلمون ، إذا لم نبين رأينا فيه أو نصرح به فى غير مواربة أو مجاملة ، فالأمر فوق ذلك كله لأنه يتصل بجوهر العقيدة الإسلامية بحيث إن القضية يجب أن تلخص فى إسلام أو لا إسلام ، فالمسلم لا يكون مسلما إلا إذا لخص عقيدته فى :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله »

وقد نص القرآن على اعتبار كل ما تقول به العقيدة الكنسية من أن المسيح إلّه ، وأن الله له أقانيم ثلاثة : الآب والابن وروح القدس » وأنه تجلى بصورة الابن ويتجلى بصفته روح القدس لرئيس الكنيسة فيوحى إليه ما يوحى ... إلخ ما يقال ، فنحن كمسلمين لا يمكن إلا أن نصدر حكمنا على هذا القول وأنه ليس إلا تراثا وثنيا ، ولطالما ساءلت نفسى ، وأنا حدث صغير ، ما الذى يزعج المسيحيين كل هذا الإزعاج من اعتبار سيدنا عيسى رسولا وليس إلها ، ما دام ذلك لا ينقص قيد شعرة من إجلالنا وتكريمنا إياه وتسليمنا بميلاده المعجز ، ومعجزاته التى قام بها .

ولقد كان يدهشنى بل ويحيرنى ، ضيق الكنيسة بقول القرآن الكريم : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » كنت أتصور فى شبابى أن أى مسيحى حقيقى ، يجب أن يسعد بهذا التصحيح الذى جاء به القرآن الكريم لأنه الأكثر ملاءمة لعظمة المسيح ، أقول كان يدهشنى بل يحيرنى ، ضيق المسيحيين بهذا القول » وليس إلا بعد أن درست المسيحية الكنيسة ، أن أدركت سبب هذا الضيق ، لأنه يهدم المسيحية الكنسية من أساسها ، فأبادر فألفت النظر إلى أنى لا أتعسف القول فضلا عن أن أرمى الكلام على عواهنه ، عندما أفرق بين المسيحية كما نادى بها سيدنا عيسى وبين المسيحية كما صاغتها المجامع الكنسية ، فالمسيحية كما نادى بها المسيح وكما هى مسجلة فيما يسمونها الأناجيل الأربعة « متى ولوقا ومرقص ويوحنا » هذه الأناجيل تحدثنا ، عن عيسى ابن مريم كرسول مبعوث من السماء لهداية البشر ، وفى سبيل هذه الهداية ، فهو يطوف ويبشر ، ويندد بالانحرافات والسلوكيات المعيبة . وهو يجرى المعجزات والخوارق بإذن الله ، ليظهر سلطان الرب وأنه يتكلم باسمه وفى اختصار شديد . فإن الأناجيل تطلعنا على صورة أقرب ما يكون إلى حديث القرآن عنه ، فلم يحدث أن نطق مرة بما يفيد أنه إلّه ، وكان تلامذته يخاطبونه بأنه المعلم . أما الناس الذين آمنو به فلم يصفوه إلا بأنه نبى ، ومن ناحيته هو فطالما تحدث عمن أرسله وأن من أرسله أعظم منه ، وإذا كان قد أطلق على من أرسله « أبى الذى فى السماء » فلم تكن هذه الأبوة أو البنوة شيئا خاصا به وإنما هى عامة لبنى البشر ، ولذلك فقد كان يكثر من قول « أبى وأبوكم » ولقد علم المسيحيين أن تكون

صلاتهم « لأبيهم فى السماء » فدل ذلك على أن البنوة لمن فى السماء ليست خاصية له ولم يكن يصف نفسه إلا بأنه (ابن الإنسان) أى أننا لا نجد فى الأناجيل، إلا ما يثبت أن سيدنا عيسى هو رسول من رب العالمين ، فمن أين جاءت الأفكار بألوهيته ، وبالأقانيم الثلاثة وكونه ابن الله الذى أرسله ، ليرفع على الصليب ويعذب ثم يموت فيكون بموته كفارة للبشر ، فيتم الصلح بين الله والبشر .

اختراعات كنسية

كانت هذه الآراء والأفكار كلها من عمل الكنيسة وقولها ، أى ثمرة السلطة الدنيوية أيا كان مصدرها أو اسمها ، وقد تم ذلك بعد أربعة قرون مذ كان المسيح ، ولكى يدرك الإنسان فى وقتنا الحاضر ما الذى تعنيه أربعة قرون ؟ فما عليه إلا أن يستحضر أن ما يسمونه الولايات المتحدة الأمريكية أعظم دول العالم فى العصر الحديث ، كانت لاوجود لها ، ولا حتى مجرد ذكر قبل ثلاثة قرون ، وقد قامت فى هذه القرون الثلاثة ، إمبراطوريات وزالت إمبراطوريات ، والثورة الفرنسية التى أعادت صياغة وتكوين العالم الأوروبى ، والعالمى لم يمض عليها قرنان بعد ، فعليك أن تتصور كيف مضت أربعة قرون دون أن يكون للتصور الكنسى للعقيدة المسيحية أى وجود ، حقًا وجد من قال بألوهية المسيح ، ولكن لاعجب فى ذلك ، فقد كان تأليه البشر فى هذا الوقت السحيق مبدأ عاما على اختلاف فيمن يؤله ، أهو فرعون أو قيصر ، أو كائنا من كان . فأن يؤله المسيح فلا شذوذ فى ذلك عن التفكير السائد ، ومع ذلك فقد وجد المسيحيون الحقيقيون الذين رفضوا ألوهية المسيح ، وفى كل الأحوال فقد اعتبروا أنه يستحيل اعتبار المسيح مساويـًا للآب أى الله .

وهنا لعبت الكنيسة المصرية ، دوراً إلى الوطنية والسياسة وإثبات الشخصية المصرية أقرب ، فقد كانت فى نزاع حاد مع بيزنطة (الدولة المستعمرة لمصر آنذاك) ووجدت مصر فى النزاع الدينى ، وسيلتها لإثبات الاستغلال والتفوق ، فكان أن انتصرت وجهة النظر المصرية ، وكان المصريون قريبى عهد بثالوث :

« أوزوريس ، إيزيس ، حورس » فتنادوا بثالوث مقدس ، ومع ذلك

فقد احتاج إلى مؤتمر جديد ، بعد مؤتمر « نيقية » لإقرار هذا الثالوث « الآب ، الابن ، روح القدس » ولكن روح المسيحية الحقيقية لم يكن من المستطاع تجاهلها ، فكان التقرير بأن « الكل » أى الثالوث « إلّه واحد » وكل العلم المسيحى « اللاهوت » تلخص فى التوفيق بين هذين النقيضين من أن الثلاثة هم الواحد ، ثم كانت هذه الأسطورة .

وأرجو أن لا يغضب إخواننا المسيحيون من وصفنا التصور الكنسى أنه أسطورة فهو لا يمكن أن يوصف بأى مقياس علمى إلا أنه أسطورة ، من نوع أساطير مصر القديمة ، والإغريق والرومان القديمين . وإلا فما ظنك بقول يقول :

إن الله قد غضب على آدم وذريته ، وظلت الأجيال تلو الأجيال ، تعيش فى ظل اللعنة الإلّهية ، إلى أن رأى الله أن يتصالح مع البشر ، فأرسل ابنه الحبيب إلى الأرض ليتعذب ويشقى ويموت على الصليب فيكون موته كفارة للبشر ، ويتم التصالح بين الله والناس . ونحن كمسلمين نؤمن بالله واليوم الآخر لا نرى فى هذا القول أكثر من أسطورة .

أما لماذا اخترنا الوقت الحاضر

لنواجه المعتقد الكنسى وجها لوجه ، فذلك لأن المعركة الضارية التى تشنها المادية على الإيمان بالله ، فهى لا تجد موطن ضعف تنفذ منه للانقضاض على إيمان المؤمنين ، سوى هذا التصور الكنسى الذى ينتمى إلى عهود وثنية مضت فضلا عن أنه لا يمت للمسيحية بأى صلة ولسنا نفكر بطبيعة الحال ، فضلا عن أن نطمع فى أن تستسيغ الكنيسة هذا القول عن قرب أو بعد فقد قام بناؤها كله على هذه العقيدة ، وجعلت الأمر كله أسراراً وحجبا .

تفوق الإسلام :

ومن هنا يأتى تفوق الإسلام ، وأنه هو وحده القادر على مواجهة المادية ، والإلحاد وقهرهما .

١ — فالله هو القدرة الواحدة المهيمنة على هذا الكون ، والله ليس كمثله شىء ، فهذا التوحيد الصارم لا يمكن أن يتحداه العقل البشرى فى أى عصر من العصور .

٢ — ولا فئة من أى نوع كان تحتكر لنفسها حق الوساطة بين الإنسان

والله ، وتزعم لنفسها أنها وحدها من تتلقى إرادة الله وفى كلمة لا كنيسة فى الإسلام .

٣ – كل ما انتهى إليه البشر بعد التجارب الطويلة من أنه يؤدى إلى حضارة البشر ، من علم وعمل وتآخ وحرية ، وتعاون وتراحم وتضامن ونظام واستقامة وسلام .

كل هذا مبادئ أساسية فى الإسلام وطبقت بالفعل ، وأوربا لم تنهض نهضتها الحديثة إلا بعد أن استعارت هذه المبادئ والقيم كلها من الإسلام ويطلق الأوربيون على العصر الذى عاشت فيه تحت حكم الكنيسة المسيحية وما تبعها من محاكم التفتيش وصكوك الغفران ، وفرض الحرمان على شعوب بأكملها من دخول ملكوت السماء ، يسمى الأوربيون ذلك كله بأنه عهد الظلام الذى لم يخرجوا منه إلا بعد أن أخذوا ببعض تعاليم الإسلام تحت ستار « الإصلاح الدينى » .

واليوم :

واليوم والبشرية مهددة باسم العقل والعلم والتقدم باكتساح الإيمان بحجة أنه خرافات وأوهام ، فإن هذا القول إذا جاز إشهاره فى وجه اليهودية والمسيحية الكنسية ، فلا يمكن بحال أن يثار فى وجه الإسلام ، لا من حيث العقيدة ، أو نبى الإسلام ، أو تعاليم الإسلام فكل ذلك أثبت بالتجربة الحية ، قدرته على البقاء ودفعه الإنسان إلى التحضر والارتقاء .

أحمد حسين

فى التقوى

اتقوا الله ، وصلُّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدُّوا زكاة أموالكم . وأطيعوا أمراءكم ، تدخلوا جنة ربكم . .

من تراثنا الحديث

إحياء سنن الإسلام وقواعده

المرحوم العلامة

محب الدين الخطيب

سنن الإسلام وقواعده لا تنحصر فى المسجد ، ولا فى أصناف العبادة من صلاة وصوم وحج ، بل هى عامة شاملة لكل ما تعمه الحياة وتشمله الطمأنينة والسعادة ، لأنها هى رسالة الإسلام إلى الإنسانية ما بقيت الإنسانية .

وهى تبدأ من العقل البشرى ، لأنه المنظم لمدارك بنى الإنسان ، والمحرك لجوارحهم ، والمتصرف — إيجابا وسلبا — فى عواطفهم وأهوائهم التى تنطوى عليها جوانحهم ، فتحوطه بما يقيه الخطأ فيما يجب عليه من الحكم للحق على الباطل ، والحطل فيما ينبغى له من إيثار الخير على الشر .

وتصحب هذه السنن والقواعد النفس الإنسانية — فى جميع أدوار حياتها — فتملى عليها التصرف الحميد فى كل ما يصدر عنها من قول وعمل فى معترك الحياة ، وفى مذاهب العيش ، وفى تنظيم الحوائج والضرورات ، وفى تعديل الميول والأهواء .

وهذه السنن والقواعد يقوم منها حارس أمين على المنزل والأسرة إذا اتخذت معياراً للأقدار ، ومقياساً فى الحسنات والأوزار ، وإذا عنى الوالدان بأن يسيرا عليها فى أخلاقهما وتصرفاتهما ، ويكونا قدوة للبنين والبنات فى معرفتها من طريق العادة والعمل ، والتزامها فى السر والعلن .

ومن هذه السنن والقواعد مالو تعامل به الجار مع جيرانه ، والتاجر مع عملائه ، والأقارب مع أنسبائهم وأصهارهم ، وصاحب العمل وعماله والموظف مع أصحاب المصالح فى مصلحته ، ورئيس المصلحة مع موظفيه ، لكنّا جميعاً — بسبب العمل بهذه السنن والقواعد — أشبه بالأسرة الواحدة فى المحبة والمودة ، حتى لو

كان عددنا فى هذا الوطن أربعين مليوناً. بل كنا نكون — لو عمل جميع المسلمين بها — كالأسرة الواحدة فى المحبة والمودة ولو كان عدد المسلمين خمسمائة مليون .

سعادة عظيمة هى فى متناول أيدينا، ولكنا لا نعرفها ، لأن الطريق الحقيقى والعملى لمعرفتها هو طريق التعامل بها ، ومما يؤسف له أن التعامل بها بطل من ألف سنة وأكثر ، وكان معمولا بها فى البطون الثلاثة الأولى فى الإسلام، وهى زمن الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان ، وهم الذين صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيهم « خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وكان قرنه خيراً من القرن الذى تلاه ، وكان القرن الذى تلاه خيراً من الثالث والقرون الثلاثة — بنص الخبر المحمدى الصحيح — هى خير قرون الإسلام ، لا لأنهم اكتسبوا ذلك من زمنهم ، فالزمن فى نفسه متشابه : قبل آدم وبعد آدم وقبل محمد صلى الله عليه وسلم وبعده، وقبل القرون الثلاثة من أجيال الإسلام وبعدها . بل الخير الذى امتازت به الأجيال الثلاثة الأولى فى الإسلام جاءهم من اتباع هذه السنن والقواعد وعملهم بها ، وكان الموفق من الله من أبنائهم يتعلمها من الآباء بالقدوة والمشاهدة والعمل . وزمن الدولة الأموية — الذى رسم أكثر الناس صورة له فى أذهانهم كاذبة مشوهة — كان ثالث هذه الثلاثة ، وحتى الذين كانت فيهم رجولة وشهامة وحزم وتربية من خلفاء صدر الدولة العباسية هم الذين تربوا فى زمن دولة بنى أمية ، ثم أخذ الناس يتهاونون بهذه السنن والقواعد من طريق القدوة أيضاً — كما كانوا يعملون بها بالقدوة — حتى تناسوها وتناسوا أكثرها ، والموجود منها الآن عند أصلح الناس يكاد يكون من أشكال هذه السنن والقواعد ومن مظاهرها ، وقلما أبقى الناس على شىء من حقائقها . والذى ضاع بتاتاً ونسى بالمرة تسعمائة جزء من الألف ، والذى بقيت مظاهره وأشكاله لا يبلغ مائة من الألف. وهو فى نفسه من الشكليات التى لا أثر لها فى النفس الإنسانية إلا من طريق الْعَـرَضِ ، أما جواهرها وحقيقتها التى تسمو بالنفس الإنسانية فهى التى أهملت ونسيت .

ويقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى : « من أحيا سنة أميتت بعدى كان معى فى الجنة » .

وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أن شريعته وسنته ستحتاج إلى من يحييها ويقيمها فى عصورنا ، كما احتاجت إلى من يعين على تقريرها وتعميمها والدعوة إليها ابتداء فى القرون الثلاثة الأولى ، فبشر صلى الله عليه وسلم العاملين على إحياء سنن الإسلام وقواعده فى عصورنا بأنهم كالغيث الذى يحيى الله به الأرض وأنهم يضارعون فى الخير ذلك الغيث الأول الذى أحيا الله به الإسلام فى القرون الثلاثة الأولى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى أيضًا : « إنما مثل أمتى كمثل الغيث لايُدرى أوله خير أم آخره » . وإذا كان لإحياء سنن الإسلام وقواعده هذه المنزلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا شك أن العاملين على إحيائها مثوبون على عملهم كثواب العبادة ، بل إن هذا من نوع الجهاد ، والجهاد أفضل العبادات ، ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه : « إن العبادة وقت الهرج والفتن كهجرة إلىّ » .

هذه الملايين التى أسلمت فى صدر الإسلام فى مختلف الأقطار لم تُسْلِمْ بالجدل والمناظرة ، لأن الإسلام يكره الجدل ويكتفى من المناظرة بعرض الحق على فطرته ونقائه . ثم يرى الأغيار تطبيق ذلك فى معاملة المسلمين الأولين وأخلاقهم ، فلا يخامرهم شك فى أن هذا هو دين الفطرة ، وأنه الخير المحض المجرد تعرفه الإنسانية وتنشد من ينهض به ويجعله دستوراً لأبنائها .

والعمل بالخير المحض ، وبالحق النقى ، أمنية لجميع الأجيال ، وكان العمل بهما محتاجاً إلى سنن وقواعد تبينهما تبيينًا حازمًا واضحًا مركّزاً وإلى أمة تجرب العمل بهما ، فيتجلى أثر ذلك من الطمأنينة والسعادة فى المجتمع ، فتقبل الأمم عليه .

وكانت مهمة الإســلام ورسالته إعلان هذه السنن والقواعد ، وكان واجب المسلمين العمل بهما ، والتخلق بأخلاقهما . وبهذا عم الإسلام أقطار الأرض المعروفة فى زمن ظهوره . وكان الإسلام فى زمن ظهوره غريبًا ، وبمعرفة سننه والعمل بها زالت غربته . وصح بعد ذلك ما أنبأ به نبينا صلى الله عليه وسلم من أن الإسلام يعود غريبا كما بدأ . ومعنى ذلك أن سننه وقواعده تعطل وتهمل ، فيأتى على الإسلام زمان يحتاج فيه إلى من يزيل غربته بإحيائها ، وقد حض النبى صلى الله

عليه وسلم على ذلك ورغب فيه بحديث الترمذى الذى أوردناه آنفاً وهو قوله صلوات الله عليه : « من أحيا سنة أميتت بعدى كان معى فى الجنة » .

وبعد : فإن لإحياء سنن الإسلام ثلاث مراحل :

الأولى : الدعوة إلى ذلك بإخلاص وحسن نية وابتغاء وجه الله الكريم ، وأرجو أن تكون هذه الكلمة من هذه المرحلة .

المرحلة الثانية : تفرغ أهل العلم من الأزهريين والجامعيين لتتبع هذه القواعد واستقصائها ، وتحرى ما قاله سلف الأمة فى أحكامها ، وفهم ذلك وهضمه ، والنظر إليه من ناحية ما نرجوه لمجتمعنا من السعادة بهذه السنن والقواعد ، وما يترتب عليها من الطمأنينة والرضا العام الشامل .

والمرحلة الثالثة : العمل بذلك ، وتربية المسلم نفسه على العمل بسنن الإسلام فى عقله ونفسه وبيته وأسرته وبيئته ومحيطه وكل ما يتصل به .

بهذا نكون مسلمين ، وبهذا يكون البعث الإسلامى ، وهذا هو الوجه المشرق الجميل للإسلام ، ويستحيل على غير المسلمين أن يروه وأن لايحبوه ، فكيف بالمسلمين من خاصة وعامة وتابعين ومتبوعين .

إن المسلمين بانسلاخهم الآن عن سنن الإسلام التى فيها سر جماله قد أصبحوا حجابا بين الإسلام ومعرفة الأمم به ، فهى لا ترى من الإسلام إلا ما عليه المسلمون . والذى عليه المسلمون اليوم غير الذى كان عليه المسلمون الأولون عندما عرفوا الإسلام من الرسول الذى جاءهم به ، وعندما عرفه الذين جاءوا بعدهم من السيرة التى كان عليها تلاميذ الداعى الأول صلى الله عليه وسلم والذين بقوا منا على عهد الوفاء للإسلام اكتفوا منه بنظام عبادته ، وانحرفوا مع تيار المجتمع فى نظام المجتمع من جهة التعامل والتطبع والتخلق بما يسمو بالنفس إلى المثل العليا ، أو ينحط بها إلى المنافع الوقتية الزائلة ، فصرنا جميعاً ممن يؤثرون العاجلة وإن كانت تافهة ، على الآجلة وإن كانت أجل وأبقى وأرضى لله عز وجل .

كان الإسلام دين الإنسانية . والسنن والقواعد التى جاء بها هى سنن الإنسانية العليا والمدنية الفاضلة ، وقد استجابت لها الأمم يوم كانت لا تزال كما هى وبقدر ما هى ، وكان

من نتائج ذلك وثمراته ما نقرأه فى التاريخ عن سيادة أسلافنا وسعادتهم وازدهار العمران والعدالة والطمأنينة بهم . وأخذ الإهمال والتهاون والتناسي ينقص هذه السنن والقواعد فتذبل خُضْرَةُ أغصانها ، إلى أن تحولت بقاياها القليلة من أغصان زمردية يانعة الفاكهة والزهر إلى حطب اقتنع من يراه بأنه لا يصلح إلا للوقود . وما على الإسلام ذنب فى شىء من هذا التحول ، ولكن الذنب فيه على المسلمين ، ولا أحصره بمسلمى جيلنا ، بل هو يعم كل من ساهم فى هذا الإهمال من مسلمى الأجيال بعد البطون الثلاثة الأولى .

وأعود فأذكّر صالحى المسلمين من أزهريين وجامعيين وسائر المثقفين بقول نبى الإنسانية ورسولها الأعظم صلى الله عليه وسلم « من أحيا سنة أميتت بعدى كان معى فى الجنة » . وقد يظن من يأنس فى نفسه الميل إلى المساهمة فى هذا الخير أن إحياء سنن الإسلام وقواعده عمل علمى يتم بالبحث عنها فى كتب الحديث المحمدى والشريعة الإسلامية وسيرة السلف وتدوين ذلك ونشره فى مقالات ورسائل وكتب . ولا أنكر أن هذا من خير ما يعمله أهل العلم والشباب الإسلامى المثقف ، غير أن طريقة السلف فى هذه الناحية هى أنهم كلما عرفوا شيئاً من ذلك عملوا به فى أنفسهم ، وأرشدوا إليه إخوانهم وأحبابهم وذويهم ، فإذا انتقلوا إلى غيره من طريق العلم انتقلوا إليه وهم عاملون بما عرفوه من قبل . وقد حدِّثتُ بذلك فيما مضى بما رواه حماد بن زيد وغيره عن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمى قال : أخذت القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يعملوا بما فيهن . فكنا (نتعلم) القرآن و(العمل) به . وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يجاوز تراقيهم ، بل لايجاوز ها هنا (ووضع يده على حلقومه) .

دراسات قرآنية

ما حَلَّ مِن الأرزاق ومَا حرم

• رأى الدين

فى الذبائح والصيد واللحوم المحفوظة "المعلبات"

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم .. »
« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .. »
الآيتين ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة البقرة
« وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم .. »
من الآية ٥ من سورة المائدة

البيان

أمر الله تعالى عباده المؤمنين فى الآية الأولى ، أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم ، وطيبات الأرزاق إن أريد بها ما أحله الله منها ، فالأمر بأكلها يقتضى النهى عن سواها ، ويوجب قصر الأكل عليها وحدها ، وقد بيّن النبى صلى الله عليه وسلم حكمة ذلك فى قوله « أيها الناس : إن الله تعالى طيِّب فلا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، قال تعالى « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بما تعملون عليم » وقال « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنَّى يُستَجابُ له » أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الزكاة عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى التحذير من أَكْلِ الحرام قال صلى الله عليه وسلم « كلُّ لحم نبت من حرام فالنار أولى به » .

وإن أريد بطيبات الأرزاق ما طاب

منها وكان لذيذ الطعم غزير الفائدة من اللحوم والفواكه وغيرها ، فالأمر بأكلها أمر إباحة وليس أمر إيجاب والله تعالى يقول فى الرد على من يحرم الاستمتاع بطيبات الأرزاق منكراً عليهم « قل مَنْ حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامه . . »[1]

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأكلها إذا تيسرت له ولا يتورع عنها ، وإنما يكون الورع فى البعد عن المحرمات والشبهات ، ذكر صاحب المواهب اللدنية أنه لم يكن من عادته صلى الله عليه وسلم أن يحبس نفسه الشريفة على نوع واحد من الأغذية ، بل كان يأكل ما جرت به عادة أهل بلده ، فكان يأكل من اللحم والفاكهة والخبز والتمر وغيرها ، ونَقَل عن البُخَارى وغيره أنه كان يأكل الحلوى والعسل ويحبهما.

وحكى ابن حجر فى فتح البارى عن الثعالبى فى فقه اللغة ، أن حلوى النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يحبها هى (المَجِيعُ) وهى تمر يعجن باللبن .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم أكل نوعاً من الحلوى مؤلفاً من الدقيق والعسل والسمن (ويسمى العصيدة) .

ويطلق عليه أهل فارس اسم الخبيص.

وعن ابن عباس قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يأكل العنب ،وروى مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم أكل الرطب والتمر والبسر ، وذكر الإمام الطبرى أنه صلى الله عليه وسلم أكل الخزيرة ، وهى طعام يتخذ من الدقيق على هيئة عصيدة ، لكنه أرَّق منها ، ورُوى أنه كان يشرب العسل ممزوجاً بالماء البارد ، إلى غير ذلك مما يتيسر ، وإن كان غالب أمره على التقشف ــ صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أمر الله المؤمنين أن يشكروا ربهم على ما أحلَّ لهم من الطيبات بقوله واشكرو الله إن كنتم إياه تعبدون » فلذا ينبغى ختم الطعام والشراب بحمد الله وشكره ، ليبارك نعمته عليهم ويحفظها من الزوال .

لماذا حرمت الميتة والدم

نحن خير أمة أخرجت للناس ، فلذا أحل الله لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث ، ومما حرمه علينا الميتة والدم .

والميتة ما فارقته الروح من غير ذبح ، والحكمة فى تحريمها أنها من الخبائث

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .

لاشتمالها على ميكروبات الأمراض التى كانت سبباً فى موتها ، فالله تعالى حرمها على المؤمنين حماية لهم من الإصابة بمرضها ، أو بأى مرض آخر يتسبب عن أكل لحمها المريض .

ولا يخلو حيوان من حمل ميكروبات مرضية ، وإن لم تظهر عليه آثارها لمناعة فيه ، ولهذا أوجب الله تعالى ذبح الحيوانات التى أباح أكلها للمؤمنين ، فإن الدم المتدفق منها بعد الذبح ، يحمل معه ما عسى أن يكون بها من ميكروبات ، ويخلِّص الذبيحة منها ، فضلا عن أن خروج الدم منها يجعل لحمها مستساغاً مستلذًّا ، فتصبح بذلك طيبة داخلة فى مفهوم قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم » ولهذا حرم الله كل ميتة ، سواء أكان موتها عن مرض أم عن خنق بنحو حبل ، وهى (المنخنقة) أو عن ضرب بحجر أو عصا أو نحوهما وتسمى (الموقوذة) أو عن سقوط من أعلى إلى أدنى ، وتسمى (المتردية) أو عن نطح حيوان لها ، وتسمى (النطيحة) أو عن أكل سبع أجزائها ، وهذه الأخيرة وإن سال دمها ، لكنها ماتت دون ذبح وازدادت سوءاً بأكل السبع لبعض أجزائها ، فقد يكون مصاباً ببعض الأمراض التى تضر آكلها ، وكان المشركون يحلون أكل الميتة ، ويسمونها ذبيحة الله ، ويقولون للمؤمنين توقاً لهم : ما بالكم تأكلون ماذبحتم ، وتتركون ما ذبح الله ، فأنزل الله تحريم الميتة ، وأنزل أيضًا : « وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »[1] .

ما يحل الميتة والدم

يحل من الميتة السمك والجراد ، ومن الدم الكبد والطحال قال تعالى : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أُحِلَّتْ لنا ميتتان : الحوتُ والجرادُ ، ودمان الكبد والطحال » أخرجه الدارقطنى .

والمقصود من الحوتِ السمك وجميع دواب البحر ، قال القرطبى : أكثر أهل الفقه يجيزون أكل جميع دواب البحر : حَيِّها وميِّتها : وتوقف الإمام مالك فى خنزير البحر — أى لم يقطع بتحريمه — وقال : أنتم تقولون خنزيراً . أى تسمونه خنزيراً — ولكن ابن القاسم كان صريحاً فى بيان حكمه ، فقال :

(١) الآية ١٢١ من سورة الأنعام.

أنا أتَّقيه ولا أراه حراماً : يعنى أنه لا يقول بحرمته لأنه من دواب البحر التى يشملها النص فى القرآن ، ويدخل فى السمك الذى جاء فى الحديث بلفظ الحوت وإن كان يمتنع عن أكله ، ولعل ذلك لشبهه شكلا بالخنزير ، فلهذا تعافه نفسه ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يأكل لحم الضَّبِّ مع كونه حلالا ، لأن نفسه الشريفة تعافه .

وقد جاء حِلُّ الجراد أيضاً فى حديث مسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه » .

لحم الخنزير

جاء لحم الخنزير ضمن المحرمات فى الآية ، وكان الناس يعللون تحريمه بأنه يأكل القاذورات ، ثم ظهر علمياً أنه تكثر إصابته بالدودة الشريطية الخطيرة ، فتبين بذلك الكشف العلمى أن الحكيم الخبير حرمه علينا ليقينا هذه الآفة الخطيرة التى يصاب كثيرٌ من أكلة لحم الخنزير بها ، وبتحريم لحمه حرم شحمه وغضاريفه وعظمه ، فلو أحرق عظمه ودقّ ناعماً ، فلا يحل لمسلم أن يضمه إلى طعامه .

والاقتصار على ذكر اللحم فى النص القرآنى لأن الشحم ملابس له ، فيقع اسم اللحم عليه ويغنى ذكره عن ذكره ، ولأنه إذا حرم اللحم وهو الأهم ، فلأن يحرم سواه أحق وأولى .

قال القرطبى فى المسألة السابعة عشرة : لا خلاف فى أن جُمْلَةَ الخنزير محرمة ، إلا الشعر فإنه تجوز الخِرازَةُ به ، وقد روى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشعر الخنزير فقال : « لا بأس بذلك » ذكره ابن خويزمنداد : اهـ كلام القرطبى — والخرازة خياطة النعل .

ما أهل به لغير الله

أى ما ذكر عليه اسم غير الله ، وهو ذبيحة المجوسى والوثنى ، وفى حكمهما ذبيحة المعطل — وهو من لا دين له — فالمجوسى يذبح للنار ، والوثنى يذبح للوثن ، والمعطل لا يعتقد شيئاً فيذبح لنفسه .

قال القرطبى فى ج ٢ ص ٦٠٢ — طبعة الشعب — لا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسى لِنَارِهِ والوثنىُّ لوثنه لا يؤكل . . ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعى وغيرهما وإن لم يذبحا

للنار والوثن ، وأجازهما ابن المسيب وأبو نور إذا ذبحا لمسلم بأمره .

ثم قال القرطبى : وقال ابن عباس وغيره .. إن فى تفسير قوله تعالى « وما أهل لغير الله به » : المراد ماذبح للأنصاب والأوثان لا ما ذكر عليه اسم المسيح ، ومقتضى كلامه أن ما ذكر اسم المسيح يحل أكله، وسيأتى ولذلك مزيد بيان بتوفيق الله تعالى .

والإهلال رفع الصوت ، قال القرطبى: جرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة ، وغلب ذلك فى استعمالهم ، حتى عبِّر عن النية التى هى علة التحريم ، ألا ترى أن علياً ابن أبى طالب رضى الله عنه راعى النية فى الإبل التى نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها مما أهل لغير الله به فتركها الناس : انظر المسألة العشرين فى شرح هذه الآية جـ ٢ من القرطبى ص١٠٢ ، ٦٠٣ طبعة الشعب ، وقد جاء فى آخرها أن امرأة سألت السيدة عائشة رضى الله عنها قائلة : يا أم المؤمنين : إن لنا أصهاراً من العجم ، لا يزال يكون لهم عيد ، فيهدون لنا منه أفنأكل منه شيئاً ؟ قالت : أما ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا ولكن كلوا من أشجارهم :

فنهى السيدة عن عائشة لمن سألتها عن الأكل من ذبيحة العجم فى يوم عيدهم محمول على أنهم ذبحوها على نية معبوداتهم ، فلذلك حرمت أكلها لأنها أهل بها لغير الله ، ويفهم من ذلك أنها تبيح الأكل من ذبائحهم فى غير هذا اليوم إن ذبحوها لأنفسهم أو لغيرهم من المسلمين ، وهذا الرأى قريب مما ذهب إليه ابن المسيب وأبو ثور وقد مرَّ ذكره ، ولعل هذا وذاك مقيد بما إذا لم تذكر أسماء آلهتهم عليه ، فإن ذكرت فلا أعتقد أن أحداً من العلماء يبيحه ولو ذبحوه لمسلم ، لمخالفة ذلك لقوله تعالى « وما أهل لغير الله به ».

الأكل مما ذكر اسم الله عليه

أمرنا الله تعالى أن نأكل مما ذكر اسم الله عليه بقوله فى سورة الأنعام « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين » [١] ونهانا فيهــا عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه بقوله « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » الآية ١٢١ .

وأخرج النسائى عن ابن عباس فى

(١) الآية ١١٨ سورة الأنعام .

بيان سبب نزول (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه قال (خاصمهم المشركون فقالوا : ما ذبح الله فلا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ، فقال الله سبحانه « ولا تأكلوا » فإنكم لم تذكروا اسم الله عليها : انتهى كلام ابن عباس رضى الله عنهما : وهذا يقتضى أن الآية نزلت لتبين للمشركين أن أن الميتة حُرِّمت لأنها لم يذكر اسم الله عليها، ويقول الأصوليون : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية بعمومها ناهية عن كل ما لم يذكر اسم الله عليه ، سواء أكان ميتة أم مذبوحاً ، وناهية أيضًا عن كل ما ذكر عليه اسم غير الله ، فإنه لم يذكر اسم الله عليه ، وزاد أنه ذكر عليه اسم غير الله ، وذلك محرم نصًّا بقوله تعالى فى جملة ما حرمه علينا « وما أهل لغير الله به » .

ترك التسمية من المسلم عند الذبح

يرى جماعة من الفقهاء أن المسلم لوترك التسمية على ذبيحته سهواً أو عمداً فإن ذبيحته هذه لا تحل، أخذاً بظاهر قوله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » فإنه عام فى الميتة والذبيحة، سواء ذبحها مشرك أو مسلم ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وممن قال بذلك ابن عمر ونافع وأبو ثور ومحمد بن سيرين .

ولكن جمهور العلماء يقولون : إنْ تركَها سهواً حل أكلها ، فإنه لا يُسَمَّى فاسقًا بنسيانه لها ،أما إن تركها عمداً فتؤكل عند جماعة من الفقهاء ، ومنهم ابن عباس وأبو هريرة وعطاء وسعيد ابن المسيب والشافعى والحسن وكثير غيرهم ، وحكى الزهرى عن مالك أنه قال : تؤكل ذبيحة المسلم التى تركت التسمية عليها عمداً أو سهواً ، وقال بعضهم لو تركت عمداً يكره أكلها ولا يحرم .

فهؤلاء يرون أن التسمية من المسلم سنة ، وأن المسلم إن لم يسم بلسانه، فقلبه وعقيدته مع الله تعالى ، أما تركها تهاوناً ، كأن يقول لا أسمى ، وأى دخل للتسمية فى الحل فهو فاسق فلا تؤكل ذبيحته[1] .

ذبيحة أهل الكتاب

قال الله تعالى فى سورة المائدة « وطعام

---

(١) راجع القرطبى جـ٧ ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ طبع دار الكتب فى تفسير قوله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . . » الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم » من الآية رقم (٥) والطعام جنس شامل لكل أنواعه ومنها الذبائح ، وذهب كثيرون من أهل العلم إلى الذبائح أن هى المرادة من الطعام هنا ، قال ابن عباس : قال الله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » ثم استثنى فقال « وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم » يعنى ذبيحة اليهودى والنصرانى وإن كان النصرانى يقول عند الذبح باسم المسيح ، واليهودى يقول باسم عزير ، وذلك أنهم يذبحون على الملة : انتهى كلام ابن عباس .

وقال عطاء : كُلْ من ذبيحة النصرانى وإن قال باسم المسيح ، لأن الله عز وجل قد أباح ذبائحهم وقد علم ما يقولون ، وبهذا قال الزهرى ومكحول وربيعة والصحابيان عبادة ابن الصامت وأبو الدرداء :

وقالت طائفة إذا سمعت الكتابى يسمى غير اسم الله عز وجل فلا تأكل : وممن قال بذلك من الصحابة على وعائشة وابن عمر رضى الله عنهم ، وقال به طاوس والحسن متمسكين بقوله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » وقال مالك : أكره ذلك ولم يحرمه : قال القرطبى[1] : ولا خلاف بين العلماء فى أن مالا يحتاج إلى زكاة كالطعام الذى لا محاولة فيه كالفاكهة والبُرِّ جائز أكله ، إذ لا يضر فيه تملك أحد ، والطعام الذى تقعُ فيه محاولةٌ على ضربين (أحدهما) ما فيه محاولةُ صَنْعَةٍ لا تعلُّقَ للدين بها كخبزه الدقيق وعصره الزيت ونحوه ، فهذا إن تُرِكَ أكلُه من الذِّمِّىّ فعلى وجه التقزُّز (والضرب الثانى) هو التذكية — أى الذبح — التى ذكرنا أنها هى التى تحتاج إلى الدِّين والنية ، فلما كان القياس أن لا تجوز ذبائحهم — كما نقول لا صلاة لهم ولا عبادة مقبولة . رخص الله فى ذبائحهم لهذه الأمة ، وأخرجها النص عن القياس على ما قاله ابن عباس ، والله أعلم ، انتهى ما قاله القرطبى .

اللحوم المحفوظة (المعلَّبات)

ترد على البلاد الإسلامية لحوم محفوظة (معلَّبة) من بلاد غير إسلامية وكثير من الناس يتحاشى تناولها خوفاً من أن تكون محرمة ، وآخرون — يتناولونها تساهلا أو بفتوى صادرة عمن ليست لهم دراية بأحكام الدين ، فلهذا رأيت أن أضمِّن مقالى هذا رأى

(١) انظره فى ج ٦ ص ٧٧ طبع دار الكتب .

الدين فى هذه الظاهرة الواسعة الانتشار وإليك البيان :

قد علمت مما تقدم حِلّ ذبائح أهل الكتاب ، بقوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم » ويترتب على هذا أن اللحوم المحفوظة (المعلَّبة) التى ترد إلينا منهم يحل أكلها إذا كانت من حيوانات مباحة كالبقر والغنم ، ودون المحرمة كالخنزير .

أما التى ترد من بلاد أهلُها ليسوا من أهل الكتاب ، كالبلاد الشيوعية والبوذية ، فلا يحل تناولها ، ما لم يتأكد أنها من حيوانات ذبحها المسلمون أو الكتابيون الذين تستخدمهم الشركة التى تصنعها ، مراعاة منها لعواطف المسلمين الذين تتعامل معهم ، فإن لم نتأكد من ذلك فلا يحل أكل معلباتهم ، وعلى الحكومات الإسلامية أن لا تستورد من تلك البلاد لحومًا محفوظة ، مالم يكن لها مندوبون مسلمون ثقات ، يشرفون عندهم على ذبح الحيوانات التى تصنع لحسابها ، كما يشرفون على طهوها وتعبئتها حتى لا يغشوها بلحم الخنزير فإن لم تفعل ذلك فلا سبيل إلى التأكد بأنها ذبحت على الطريقة الإسلامية وطهيت كذلك ، فالواجب الامتناع عن استيراد اللحوم المحفوظة من تلك البلاد ، إن لم يتحقق الشرط الذى قلناه .

ذبيحة المجوسى

المجوسى ليس من أهل الكتاب على المشهود لدى العلماء ، وقد أجمعوا على أن ذبيحته لا تحل ، أما طعامهم من غير الذبائح فلا مانع من تناوله ، ومثلهم فى ذلك المشركون ومن لادين لهم :

الأكل والطبخ فى آنية الكفار

لا بأس بالأكل والطبخ فى آنية الكفار كلهم بعد أن تغسل لأنهم لا يتقون النجاسات ، ما لم تكن نجسة العين كالمصنوعة من جلد الخنزير أو كان استعمالها محرمًا كآنية الذهب والفضة ، وقد جاء بيان هذا الحكم فى حديث أخرجه مسلم عن أبى ثعلبة الخُشَنِىّ قال (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إنَّا بأرض قوم من أهل كِتَاب ، نأكل فى آنيتهم ، وأرض صيد بقوس وأصيد بكلبى المعلم ، وأصيد بكلبى الذى ليس بمعَلَّم ، فأخبرنى : ما الذى يحل لنا من ذلك ، قال : « أما ما ذكرت أنكم بأرض قوم من أهل كتاب تأكلون فى آنيتهم ،

فإن وجدتم غير آنيتهم فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها » ثم ذكر باقى الحديث[١] .

أحكام الصيد

الحيوانات الصحراوية التى يحل أكلها كالظباء يصطادها الناس بوسائل شتى ، فتارة بصيدونها بالبندق وأخرى بالحجر وثالثة بالمعراض ، ورابعة بوساطة الكلاب والصقور ، وأحياناً بالشباك ، فإذا أدركها الصائد وفيها حياة فلا تحل إلا بالذكاة ، وإذا ماتت فإليك تفصيل الحكم فيها .

قال القرطبى تعليقاً على كلمة (الموقوذة) فى قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة .. » الآية ٣ من سورة المائدة جـ ٦ ص ٤٨ قال ما يلى :

وفى صحيح مسلم عن عدى ابن حاتم قال : قلت يارسول الله فإنى أرمى بالمعراض[٢] الصيد فأصيب، فقال « إذا رميت بالمعراض فَخَزَق[٣] فكُلْه، وإن أصاب بعرضه فلا تأكله » وفى رواية « فإنه وقيذ » قال أبو عمر : اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى الصيد ، بالبندق والحجر والمعراض ، فمن ذهب إلى أنه وقيذ لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته على ما روى عن ابن عمر : وهو قول مالك وأبى حنيفة وأصحابه والثورى والشافعى ، وخالفهم الشاميون فى ذلك، قال الأوزاعى فى المعراض: كُلْهُ خَزَق أم لم يَخْزِق، فقد كان أبو الدرداء وفَضَالة ابن عبيد ، وعبد الله بن عمر ، ومكحول لا يرون به بأساً، قال أبوعُمَر هكذا ذكر الأوزاعى عن عبد الله بن عمر والمعروف عن ابن عمر ما ذكره مالك عن نافع عنه ، والأصل فى هذا الباب والذى عليه العمل وفيه الحجة لمن لجأ إليه حديث عدى بن حاتم « وما أصاب بعرضه فهو وقيذ » انتهى كلام القرطبى — وخلاصته أن ما أصاب بشىء مما ذكر حيواناً يؤكل فى الصحراء ونفذ فيه بحده فأسال الدم ومات قبل أن تدرك ذكاته فإنه يحل ، فإن لم يسل دمه فهو وقيذ لا يحل أكله ، وأن هذا هو الراجح ، أخذا من حديث عدى بن حاتم

(١) راجع طعام الذين أوتوا الكتاب فى القرطبى جـ٦ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) المعراض بسهم بلا ريش، دقيق الطرفين غليظ الوسط ، يصيب بعرضه دون حده غالباً قاموس بتصرف .

(٣) أى نفذ فى الحيوان وسال الدم .

المذكور ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه» (الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما) .

(الصيد ببندق الرصاص)

كان من وسائل الصيد فى الصدر الأول بندق الطين المجفف ، ودقاق الحجارة ، يقذفون بها الحيوان بآلات بدائية ، فيصيبونه بها لإحكامهم الرماية ، أما الصيد ببندق الرصاص فقد استحدث فى المائة الثامنة ، وقد اختلف فيه المتأخرون فيما إذا أصاب الحيوان فى مقتل فقتله فقال بعضهم بتحريم أكله لأنه مقتول بقوة الدفع مَوْقوذ فيكون حراماً كسائر الموقوذات : ومنهم من قال بالحل ، لما فيه من إنهار الدم بسرعة ، وهو ما شرعت الذكاة لأجله ، وبالأول أخذ الشافعية والحنابلة ، وبالتالى أخذ المالكية وبعض محققى الحنفية ، والأخير هو الملائم لقوله صلى الله عليه وسلم «ما أنْهَرَ الدمَ وذُكر اسم الله عليه فكلوه » ويشترط المالكية ومحققو الحنفية لحله أن يكون الصائد مميزاً ، وأن يسمى عند إطلاقه الرصاص لنص الحديث (وذكر اسم الله عليه) ويشترط المالكية زيادة على ذلك أن يكون الصائد مسلماً وأن ينوى الصيد ، أما الأول فلأن الصيد رخصة والكافر ليس من أهلها ، وأما الثانى فلكونه شرطاً فى جميع أنواع الذكاة عندهم) .

واشتراط إسلام الصائد لأنه غير أهل للرخصة فيه نظر فإنه إن كان يصيد لمسلم فالرخصة فى أكله للمسلم لا له ، وإن كان يصيد لنفسه ، فكيف يقال له إن الإسلام لا يرخص لك بالحل إلا إذا أسلمت وهو يراه فى دينه حلالا فالصواب منه جنح إليه محققو الحنفية من عدم اشتراط إسلام الصائد ، فكما حلت ذبيحته رخصة لنا ، يحل صيده أيضًا رخصة لنا ، فيجوز للمسلم أن يأكل من صيده كما يأكل من ذبيحته .

متى يحل الحيوان المريض بالتزكية (أى بالذبح)

إذا مرض الحيوان أو سقط من مكان مرتفع ولم يمت حل أكله بذبحه وكذلك المنخنقة والموقوذة أى المضروبة بنحو حجر ، والنطيحة وهى الشاة ونحوها تَنْطحَهُا أخرى ، وما أكل بعضه حيوان مفترس كالسبع والثعلب والذئب ، والحيوان المصاب بضربة شمس ، فكل هذه الحيوانات إذا أدركت وفيها حياة وذبحت حلّ أكلها .

ودليل حلها بذلك قوله تعالى فى سورة المائدة « حرمت عليكم الميتة » إلى قوله « المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم » أى حرمت هذه كلها إلا ما ذبحتموه قبل موته من هذه المذكورات ، قال أبو طلحة الأسدى : سألت ابن عباس عن ذئب عدا على شاة ، فشق بطنها ، ثم انْتَثَرَ قُصبها — أى أمعاؤها — فأدركت ذكاتها فذَكيتها ، فقال : كُلْ : وما انتثر من قصبها فلا تأكل ، قال : إسحق بن راهويه : السُّنَّةُ فى الشاة على ما وصف ابن عباس ، فإنها وإن خرجت مصارينها فإنها حيَّةٌ بعد ، وموضع الذكاة منها سالم ، وإنما ينظر عند الذبح أحيَّةٌ هى أم ميتة ، ولا ينظر إلى فِعْلٍ هل يعيش مثلها معه؟ فكذلك المريضة ، قال ابن إسحق : ومن خالف هذا فقد خالف السنة من جمهور الصحابة وعامة العلماء — قال القرطبى : قلت : وإليه ذهب ابن حبيب ، وذكر عن أصحاب مالك وهو قول ابن وهب ، وهو الأشهر من مذهب الشافعى : ثم نقل القرطبى عن ابن العربى أنه قال : اختلف قول مالك فى هذه الأشياء فروى عنه أنه لايؤكل إلا ما ذكى ذكاة صحيحة : والذى فى الموطأ أنه إن كان ذبحها ونفسها يجرى وهى تضطرب فليأكل وهو الصحيح من قوله الذى كتبه بيده وقرأه على الناس من كل بلد طول عمره ، فهو أولى من الروايات النادرة ، وقد أطلق علماؤنا على المريضة أن المذهب جواز تذكيتها ولو أشرفت على الموت إذا كانت فيها بقية حياة ، وليت شعرى أى فرق بين بقية حياة من مرض ، وبقية حياة من سَبُع لو اتَّسَقَ النظر وسَلِمَتْ من الشبهة الفِكَرُ .

وقال أبو عُمَر : قد أجمعوا فى المريضة التى ترجى حياتها أن ذبحها ذكاة لها إذا كانت فيها الحياة فى حين ذكاتها ، وعُلِمَ ذلك منها بما ذكروا من حركة يدها أو رجلها أو ذنبها أو نحو ذلك ، وأجمعوا أنها إذا صارت فى حال النزع ، ولم تحرك يداً ولا رجلا أنه لا ذكاة فيها — أى لا تنفع فيها الذكاة ولا تحلها . — وكذلك ينبغى أن يكون حكم المُتَرَدِّية وما ذكر معها فى الآية : انتهى كلام أبى عمر ، وهو فى غاية القوة والنفاسة .

وخلاصته أن الذكاة تُحِلُّ المُنْخَنِقَةَ والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والمريضة وما فى حكمها كالمصابة

بضربة الشمس إذا ذبحت وفيها حياةٌ مَّا بحيث تحرك يدها أو رجلها أو ذنبها، وأنها إذا صارت فى حال النزع ولا تحرك يداً ولا رجلا فلا تحل بالذبح وأن ذلك بالإجماع فى المريضة ، وأن غيرها يقاس عليها .

وتقدم عن إسحق بن راهويه أن الشاة إذا أخرج السبع أمعاءها (مصارينها) تحل بالذبح ما دام موضع الذبح باقيا وبقيةٌ من الحياة موجودة ، ولا ينظر إلى أن مثلها لا يعيش ، وعلى هذا ابن عباس وجمهور الصحابة وعامة العلماء كما قاله ابن إسحاق ، وأن من خالف ذلك فقد خالفهم ، وأن ابن العربى نقل عن مالك أنه إنْ ذَبحَها ونفسها يجرى وهى تضطرب فليأكل وأن هذا هو الصحيح الذى كتبه بيده فى الموطأ وقرأه على الناس[1] .

ولا يصح أن يغيب عن الذهن أن المريضة التى تحل بالذبح إذا كان مرضها لا يغير آكلها ، فإن كان يغير حرم عليه الأكل منها اتقاء لضررها ، وإن لم يجر عليها حكم الميتة بعد أن ذبحت وفيها الحياة التى مر بيان ما يكفى منها لحلها ، لأن الإثم فى أكلها لم يأت من جهة كونها ميتة، بل من جهة أنها تضر آكلها ، والله تعالى أعلم .

متفرقات

١ — التذكية بمعنى التطييب ، ومنه رائحة ذكية أى طيبة ، فالحيوان إذا أسيل دمه: طاب لحمه (أنظر القرطبى) جـ ٦ ص ٥٢ ، ٥٣ .

٢ — لو ذُبِحَ الحيوان من قفاه واستوفى القطع وأُنْهِر الدم وقُطع الحلقوم والمرىء والودجان، لم يؤكل عند المالكية وقال الشافعية يُؤكل لأن المقصود قد حصل : انظر المسألة ١٢ جـ٦ ص٥٤ من القرطبى ومع أن ذلك تذكية عند الشافعية لكنه خلاف السنة .

٣ — لو رفع يده عن الذبيحة قبل تمام الذبح، ثم عاد فوراً وفيها حياة وأكمل الذبح، حلت الذَّبيحة على الأصح[2] .

٤ — إذا توحَّش الحيوان أو تردَّى فى البئر ، فلا يحل إلا بذبحه بين الحَلْقِ واللَّبة كالمعتاد كما قال مالك وأصحابه والليث ابن سعد وخالفهم فى ذلك بعض فقهاء المدينة وأبو حنيفة

(١) انظر القرطبى جـ٦ ص ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ .

(٢) انظر القرطبى جـ٦ المسألة ١٣ ص٥٤ .

والشافعى ، إذ قالوا بحل ذكاته فى أى موضع قدر عليه منه ، قال أبو عُمَر : قول الشافعى أظهر فى أهل العلم ، يؤكل بما يؤكل به الحيوان الوحشى : انتهى كلام أبى عُمَر .

وحجة الشافعى فى أن ذكاته حيث قدر عليه كالوحش ما رواه رافع ابن خديج : وقد جاء فيه ما يأتى : « وأصبنا نَهْبَ إبلٍ وغنم (١) فَنَدَّ منها بعير » فرماه رجل بسهم فحبَسَه — أى قتله — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لهذه الإبل أوابدَ كأوابد الوحش ، فإذا غلبكم منها شيءٌ فافعلوا فيه هكذا » وفى رواية (وكلوه) وما أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى العشراء عن أبيه قال : (قلت يا رسول الله أمَا تكون الذكاة إلا فى الحلق واللَّبة قال« لو طَعَنْتَ فى فخذها لأجزأتك » قال يزيد بن هرون : وهو حديث صحيح أعجب ابن حنبل ورواه عن أبى داود ، وأشار على من دخل عليه من الحُفَّاظ أن يكتبه قال أبو داود لا يصلح هـذا إلا ، فى المتردّية والمستوحش .

٥ — (ذكاة الجنين ذكاةُ أمّه) كما قال صلى الله عليه ، أخرجه الدارقطنى من حديث أبى سعيدوأبى هريرة وعلى وعبدالله عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا ذُبحت الأم حلَّ أكل جنينها إن خرج منها ميتا بعد الذبح وبهذا قال جماعة من الفقهاء ، وخالف فى ذلك أبو حنيفة ، وهو محجوج بهذا الحديث ، وبما يقوله هو من أنه لو أُعتقت جارية حامل ، سرى عتقها إلى جنينها ، فإن خرج منها حيًّا وجبت ذكاته بالإجماع ، ولا تكون ذكاة أمه حينئذ ذكاة (٢) له . والله أعلم .

مصطفى محمد الحديدى الطير



---

(١) وكان ذلك فى غارة لهم على المشركين .

(٢) راجع القرطبى جـ٦ ص ٥١ المسألة الثامنة (طبع دار الكتب) .

أهمية الصوم
وأثره فى مجالات الحياة

دكتور رءوف شلبى

* شاء الله أن يخلف الإنسان مواكب الملائكة فى عمارة هذه الأرض . وحسب الخطوط المدونة فى علم الله لحركات الإنسان على هذه البسيطة نشأت الجماعات وكونت المجتمعات والدول ، واحتاج الناس فى اجتماعاتهم التى ينشطون فيها بالحركة وتنشأ فى ظلالها أنماط العلاقات السلوكية . احتاج الناس إلى قانون ينظم لهم هذه العلاقات لتسير عمارة الأرض على أساس العدل والإحسان والرحمة والرفق . . . ومن غير شك ليس فى الحياة أدق حكمة ولا أصوب تقديراً ومعرفة لرغبات الناس إلا الله سبحانه وتعالى ، فأرسل الله الشرائع تترى بها الرسل المصطفون لهداية الناس إلى أقوم الطرق الموصلة إلى إقامة العدل فى الحياة لتكون عمارة الأرض بحركاتهم قائمة على السبيل القويم الذى تهفو له البشرية فى عمق عواطفها .

* وقليل من عباد الله الشكور أخذ بهذه الشرائع .

* وكثير من عباد الله الذين فتح الله لهم أبواب توبته ورحمته واسعة على مصارعها ينادون إلى ساحته بالليل والنهار إن كثيراً من عباد الله المخطئين قد انحرفوا وضلوا — فوضعوا قوانين ظنوا فيها العدل لإقامة مجتمع سليم فعجت الحياة بالمظالم والنكسات والتهافت . .

* والقوانين حسب الظواهر التاريخية لا تنجح إلا إذا اكتمل فيها شروط ثلاثة :

١ — صدورها عن رغبة الجماعة فى

الأمة : والقوانين لن تصدر كذلك إلا إذا أحست الأمة بالمشكلة فتسن لها قانوناً ينظمها .

٢ — معالجتها للمشكلات عن طريق الرحمة والعدل معاً .

٣ — تلقائية القوانين باحترام الشعب لها من عمق ضميره لاخوفا من السجن . ولا رهبة من السجان . . بل حباً فى أن يأخذ الإنسان نفسه بالسلوك على منوالها فتفيض نفسه احتراماً لها .

* وفرق كبير بين القوانين الوضعية وشرائع السماء . . فإنها إن اشتركت على سبيل الفرض والمثال فى الشرطين الأولين . . فإنها لن تشترك فى الشرط الثالث . . ذلك لأن تلقائية القوانين الوضعية مرتبطة بالسلطة التنفيذية التى لا تقبل توبة ولا تحترم اعتذاراً فهى شبه تلقائية سطحية شكلية لا اتصال لها بالقلب والعقل والفكر والإيمان .

* أما الشرائع السماوية فقد قالت :

« إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .

* بل هى تذهب إلى أبعد من ذلك فى قبول الاعتذار وحب التوبة فتختم الآية السابقة بقوله تعالى : « وكان الله غفوراً رحيماً » ويغذى هذا الاختتام قول الله تعالى هاتفاً بعباده :

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم . . لا تقنطوا من رحمة الله . . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . . إنه هو الغفور الرحيم » .

* ويكفى المؤمن طمأنينة أن الله يناديه بياء النسب إليه : « يا عبادى » ففيها من الله التهدئة والطمأنينة ما يحقق إيحائياً استقرار النفس وثقة الأمل والجرى السريع نحو الله . . نحو السلام . . والأمن . . والبركة . . والرخاء . .

* هذا من جانب

ومن جانب آخر :

فإن تلقائية القوانين تحتاج إلى تدريب سلوكى يحقق هدف القانون والإسلام وحده هو الذى يمتاز بأنه زواج بين التشريع التقنينى وبين الوسائل التدريبية ليربى الأمة على تنفيذ الشريعة تنفيذاً تلقائياً . . ولذلك فإن الله سبحانه قد سلب من البشرية كلها سلطة المراقبة العليا على الأعمال والطاعات وردها إليه وحده جل جلاله . . فيجيب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على سؤال جبريل ما الإحسان ؟ فيقول :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

* فالإسلام إذن : عالج بحكمة ربانية جميع الميادين التى تنشط البشرية لعمارة هذه الأرض . . معالجة بالتشريع المصاحب (بفتح الحاء) بالتدريب فجعل الله فى العبادة تدريباً للجماعة الإسلامية تنتظم بها ميادين حياتها الذاتية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية بل والترويحية أيضًا . .

* وكان من تلك العبادة التدريبية التى يحقق بها الإسلام تطبيق القانون السماوى فى جميع الميادين التى تقوم عليها حياة شريفة « الصوم » .

* والحديث عن الصوم كتغذية — لمجالات الحياة يتخذ له الإطار التالى :

١ — الصوم فى المجالات التربوية .

(ا) الصوم فى ميادين التربية أساس متين لخلق الشخصية المستقلة :

فبينما تقوم ضجة فى أندية علماء التربية بأوربا حول تربيـــة المواطن الصالح ويشرعون من المبادئ التى يحفظها المدرسون وتلقن بالتالى إلى التلاميذ وحسب ، بينما نرى الإسلام يجعل من الصوم تدريباً على الشخصية المستقلة التى تقبل أن يتنازل عن إشباع شهواتها الجوفية والوجدانية طوال النهار طال أم قصر . وليس عليها من رقيب إلا ربابيتها لله . ولا عليها من سلطان إلا رضوان الله والإشفاق من وعيده والرجاء فى وعده . ولا يحاسب إلا جبروت الله .. ولذا يقول الله تعالى فى الحديث : «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

إن الصوم الإسلامى الذى أضافه الله تعالى إلى جلاله فى الحديث هو الصوم الذى يعلم الفرد المسلم أن يكون ذا شخصية مستقلة فى التفكير صائمة عن الفساد الفكرى والاجتماعى مراقبة لله فى عملها فلا هى دنيئة محتاجة إلى رشوة ولا هى بليدة محتاجة إلى مراقب ولا هى خائنة ولا هى خبيثة محتاجة إلى تشجيع . . بل هى شخصية حبيب إليها أن ترضى الله حبيب إليها أن تعمل فى صوم طاهر لم يدنس عملها الصائم رشوة ولا طمع فى مكافأة ولا رجاء الشكر والثناء . يقول النبى الكريم : « الصيام جنة فإن كان يوم صوم أحدكم : فلا يرفث . . ولا يجهل . . وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم . . إنى صائم . .

والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك » .

(ب) الحساسية الاجتماعية وبطلان نظرية الصراع :

وإذا استمعنا إلى أحاديث علماء أمريكا فى التربية قالوا إن المواطن الصالح هو الذى يتميز بالحساسية الاجتماعية . ويحدد هؤلاء العلماء تلك الحساسية بأضلاع ثلاثة :

١ ـ أن يحس بآلام المواطنين وأن يندفع بعاطفة جياشة نحو حلها .

٢ ـ أن يحاسب نفسه فى سلوكه حتى لا يسلك سلوكاً معادياً يضير الآخرين .

٣ ـ أن يضحى فى سبيل الجماعة التى يعيش معها .

تلك الأضلاع الثلاثة لمثلث الحساسية الاجتماعية . ولكن أين هو الميدان التدريبى التربوى الذى يصنع المواطن الصالح ليدفعه سلوكياً إلى تحقيق تلك المبادئ حتى تكون الحساسية عنده عاطفة سيكولوجية ـ مكتسبة يستعملها المواطن الصالح فى غرضها النبيل تلقائياً عند اللزوم .

فشلت المنظمات الأوربية فى إيجاد ميدان تدريبى يجعل الحساسية صفة تلقائية فى سلوك المواطن الأوربى . . بينما الإسلام شرع الصوم تدريبا على خلق عاطفة الحساسية الاجتماعية ـ المشتركة بين الفقراء والأغنياء لإيجاد مجتمع تتحقق فيه الكفاية والعدل والحنان . . فالصالح الغنى عندما يكون صائماً لله إيماناً واحتساباً ويتذوق مرارة الصوم ويحس بآلامه وعنده كل ماتشتهيه النفس وتقر به العين ولا يستطيع أن يمد يده إليه طوال فترة الصوم التى حرم الله عليه فيها أن يتلذذ بشىء ما من نعمة الحلال ويقبل أن يتمنع إيماناً واحتساباً هذا المرء تتدمث نفسه الطيبة المسلمة وهى تستشعر من نفسها مواضع الحنان فتتصور بؤس الفقير ورقة حاله . فتنساب نفسه حناناً فياضاً وتمتد يده بخير الله الواسع . . فتمتلأ بيوت الفقراء بنصيبها من خير الله الذى وكل فيه الأغنياء فيدرب الصوم المسلم الغنى على إعمال الحساسية الاجتماعية تدريباً كله إيمان بالله واحتساب عند الله ويتضح بالصوم ميدان عملى للتشريع الاجتماعى لاغاثة الفقراء والبائسين تفتحاً انسيابياً طبيعياً تلقائياً .

وأيضاً يتذوق الفقير مرارة الصوم ويحتسب صومه عند الله ويصوم إيماناً

واحتساب لله . ثم تسعى إليه خيرات الله على يد الأغنياء الصائمين المسلمين فيستشعر بالصوم فى نفسه الأمانة على أموال الأغنياء ويحمد الله على كل خير جاءه . ويفتتح بالصوم ميدان عمل لحماية المجتمع من السرقة ، والانحرافات حفاظاً على أمن الدولة وسلاما على أموال أصحابها . فتبيت الدورة الاقتصادية فى مأمن من التعطيل والتعويق والتسيب ويحل محل الصراع الطبقى الإخاء الإسلامى والحنان الدينى .

وهكذا . . يؤاخى الإسلام بين الأغنياء والفقراء المسلمين بالصوم فى تربية الحساسية الاجتماعية فيترك فى كل نفس حساسية اجتماعية إيجابية ويتعلم كل من الأغنياء والفقراء عملا إيجابيًّا بالصوم : « إنه البذل والإنفاق عن حب وطاعة لله من جانب الموسر » .

« وإنه الحمد والثناء والرضا وحماية أموال الأغنياء امتثالا لأوامر الله من جانب الفقير » . وتحل بركة القناعة والرضا على كل طوائف المجتمع فينتشر الحب والإخاء بين المسلمين .

فأية أمة استطاعت أن تشرع قانونًا أو تربى مواطناً صالحًا كأمة الإسلام ؟ وذلك لأن دينها دين الطبيعة البشرية الحق . . وما كان كذلك إلا لأنه من عند الله وصدق الله العلى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

« استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

٢ ـ الصوم فى المجال الاجتماعى :

(١) السمو الخلقى :

تتسابق الأمم فى تشريعاتها القانونية لخلق مجتمع سام فى خلقه تقوم العلاقات فيه على أساس من الحق والصدق والنبل وتسرى فيه المودة مسرى الدم الصالح فى العضل القوى . وقد تظفر أمة فى تشريعها بالسمو النظرى . . ولكن الإسلام وحده هو الذى يمتاز فى تشريعه للجماعة بأنه دربها على السمو الخلقى بالصيام .

فالصيام جنة ووقاية للفـــرد من الانحراف وحماية للمجتمع من الإسفاف لأن الفرد لبنة فى بناء المجتمع . .

« فمن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

إن الصوم الحقيقى فى الإسلام يعلم الفرد أن يتعامل بالحق مع مساكينه.. وأن يتحرك فى المجتمع على أساس من الفضيلة الواضحة ليست الملتوية أو المنطوية . . فمن لم يستجب بكل جوارحه لغايات الصوم فلا يرفث ولا يجهل حتى ولو اعتدى عليه غيره . . فعليه أن يستحثه بقوله إنى صائم . . إنى صائم . . فيبعث فيه سمو الخلق . ونبل العتاب كما أنه لا يحيد عن الحق بشهادة الزور وأحاديث الإعراض .

من لم يستجب بكل جوارحه لغايات الصوم السامية التى تخلق مجتمعاً فاضلا فى خلقه متحاباً فى أفراده متعاوناً فى معيشته فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه أو شرابه لأن الصوم فى الإسلام ليس ترك الطعام أو الشراب ولكنه شيء أسمى من كل هذا . . إنه إنشاء سمو فى خلق الأفراد وبعث حب فى قلوب الناس وتعويد على الطاعة لمولى الأمر المسلم وبذل التعاون فى سبيل الخير والإحسان والمعروف ونشر للفضائل فى حياة المجتمع . . مجتمع المودة ، والبر ، والأخلاق الحميدة .

(ب) الصوم والوحدة :

وليس هذا فحسب . . بل إن الصوم ، فى مظهره إمساك من كل الناس فى وقت معين ثم إذا ما هتف الداعى من فوق المآذن الشامخة عزًّا فى ملك الله : (الله أكبر . . حى على الفلاح) حوقل المسلمون فى بقاع الأرض . . . وهللوا وقالوا فى زمن واحد : اللهم لك صمت . . وبك آمنت . . وعلى رزقك أفطرت ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر والحمد لله »

فأية أمة فى الغابرين والحاضرين لها من تماسك الوحدة التى لا انفصال فيها أبدا . . بمثل ما للأمة الإسلامية التى وحد الله بينها بالصوم ؟ .

فتذوق الغنى الطافح باليسار آلام الفقير فى غياهب الفقر . . وأحس المتعلم الممتلئ بالمعارف حاجة الجاهل الخالى من أى شيء . . أحسوا جميعاً بحالة نفسية واحدة طوال فترة الصوم . ثم اجتمعوا فى لحظة واحدة على حمد الله والإيمان به وسد رمقهم جميعاً لقمة واحدة : أية لقمة . . .

وابتلت العروق بماء أى ماء ... وكل ذلك ايماناً واحتساباً لوجه الله الكريم .

أن أمة فى الحياة لها هذا المظهر الجماعى لتتحدى القوانين والأمم أن يكون لغيرها مثل هذه الوحدة قوة وتماسكاً وتصميماً على القوة والتماسك وصدق الله العلى العظيم :

« لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

فهل يترك المسلمون الإحساس بهذه الوحدة التى ضمن الله بقاءها . . وسلامتها إلى أسلوب آخر من ألوان الارتباط السياسى ؟

(حـ) الصوم والرعاية الاجتماعية :

ليست الرعاية الاجتماعية هى أن يؤخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء . . . فإن مجرد الأخذ والإعطاء ليس رعاية . بل قد يولد علاقات البغض والحقد فى كلا الطرفين . . ولكن الرعاية الاجتماعية هى أن يعيش الفقراء فى ظل حنان الأغنياء عن إيمان مشترك من الطرفين . . إن للفقراء حقاً معلوماً وان الأغنياء أمناء على هذا الحق من قبل الله الكريم .

والصوم فى مجال الميدان الاجتماعى هو دربة عملية على تمرين الأغنياء على الحنان الإنسانى وتعويد للأثرياء على الإنفاق والبذل عن طيب خاطر ورضا نفس . . وهو اعتراف صريح من الأغنياء بأنهم أمناء على حق الفقراء صوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر .

فيعلق صوم الصائم بين السموات والأرض حتى يؤدى زكاة الفطر وهكذا يفهم المسلمون من أحاديث رسول الله ويعتقدون فيندفع الأغنياء الذين صاموا لله إيماناً واحتساباً لإخراج حق الفقراء وهـــو زكاة الفطر ليفك صومهم من العقال الذى علقه بين السماء والأرض ويتقبل الصائم الغنى فى حلاوة الإيمان هذا العمل الإنسانى النبيل بمنتهى اللذة النفسية والفرح القلبى : كما يشعر الفقير صاحب هذا الحق أن الله رد عليه حاجته التى ائتمن الغنى عليها فتبدو فى المجتمع روابط الرعاية الاجتماعية « البذل عن حب فى جانب الغنى والرضا والقناعة والحمد عن حب فى ذلك من جانب الفقير » .

وينجح الإسلام فى وسائله التدريبية فى إعداد مجتمع تسوده عواطف البر والحنان من غير قهر ولا جبروت . والإسلام بذلك إنما يخاطب عواطف

البر فى طبيعة الإنسان البشرى فهو كمثل طالب اللبن من الضرع إنه يطالب الحنان من مصدره الطبيعى وغير ذلك من القوانين الغربية والشرقية جافة صلبة تطلب الماء من الصخر وهيهات أن يجود الصخر بالماء .

وبذلك يتقرر أن الإسلام قد ضمن تنفيذ قوانين التكافل الاجتماعى تلقائياً فقد أوجد بالصوم التدريبى رابطة البر الاجتماعى بين أفراد البشر فهل بعد تلك الرعاية من سبيل . .

إن الأسلام قد نظم لنا شئون حياتنا بأضعاف ما نظم لنا أخرانا لأن الله صاحب هذا الدين حملنا رسالة الهدى لهذه البشرية :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

فعلينا نحن جماعة المسلمين أن نعدل سلوكنا على نمط قواعد الإسلام حتى لا نكون نحن معياراً فاسداً يقيس المبغضون لنا به قواعد ديننا . . وقد بلغت . . والله يشهد .

٣ ــ فى الميدان السياسى :

(ا) الحرية والمساواة :

تحتاج كل أمة فى حياتها الإنسانية إلى الشعور بالحرية وإلى الشعور بالمساواة ولكى يستمر وجود الأمة ويستمر فيها شكلها السياسى وأنماطها السياسية لا بد أن يشعر الشعب بالحرية والمساواة وقد علم الإسلام أمته ممارسة الحرية فى كثير من ميادينه التدريبية على نحو ما هو موضح فى دراسات نظام الحكم فى الإسلام . ولكن الصوم له منزلة خاصة يتضح فيها شعور الأمة بالحرية وشعورها بالمساواة فعندما يبيت الكل صائماً وقد كان فى وقت السحر . كل فرد من أبناء الأمة يجهز ما يتناوله استعداداً للصوم أيا كان لون هذا الطعام . وأيا كان هذا الفرد ، فالكل ينوى « نويت صوم غد لله العظيم » عندما يسرح خاطر أى فرد من هذه الأمة يشعر بالحرية الإنسانية ، فا لكل من رئيس دولة إلى أصغر فرد فيها قد نوى الصوم لله العظيم بإذن فالحرية الإدارية مكفولة والكل حر فى ظل احترام قوانين الجماعة ولن يعرقل إلا المارقون على قوانين الجماعة لأن القانون أنظمة أقرتها الجماعة لتنظم بهـــا حياتها . فعلى كل فرد أن يحترمها لأن احترام القوانين احترام لرغبة الجماعة . وهنا تبدو جليا وظيفة الشرطة. إنها ليست تلقين المجتمع القانون .

لأن القانون هو رغبة المجتمع . بل عمل الشرطة هو رد المارقين عن القانون أو على « رغبة الجماعة » إلى حوزة الجماعة والاعتراف بحرية رغبتها . ذلك هو فقط اختصاص البوليس « الشرطة » انه خدمة الجماعة وإصلاح الخارجين على رغبتها . . والجماعة هى صاحبة الحق الأساسى فى ممارسة الشرطة ذلك الاختصاص . وفى الجو الإسلامى يأتى دور الصوم ليرفع يد السلطة عن إرادة البشر المسلم .

فالصوم الإسلامى تدريب للجماعة والفرد معاً على ممارسة الحرية ممارسة تكفل حرية الفرد والجماعة فى تحقيق رغبة الكل فى سبيل الصالح العام إذ الصوم درس عملى يجدد معنى الحرية ومعنى المساواة . ومثل هذه الحرية التى يشعر بها المسلمون الصائمون يشعرون كذلك بالمساواة فالكل قد تساوى فى امتثال الأمر الإلهى ، لأن الكل صائم لله فهم متساوون أمام— القانون الإلهى— والذين يفطرون أيا كانت رتبهم خارجون على مشاعر الجماعة ويجب معاقبتهم . والتاريخ القديم والحديث لم يعرف أمة تساوت فيها جميع الطبقات مثل الأمة الإسلامية فقد تساوى فيها الرئيس مع أقل أفراد الدولة فى الحقوق والقضاء أمام القانون ويؤكد هنا المساواة قول سيدنا عمر بن الخطاب : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ويقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

وإن الصوم الإسلامى أداة تدريبية لشعور الشعب بالحرية وشعوره بالمساواة وهو بذلك قد ضمن لدولة الإسلام الاستمرار والبقاء فى ظل القوانين الإسلامية التى شرعها الله وآمنت بها الجماعة وائتمنت على تبليغها للناس .

(ب) الصوم والاكتفاء الذاتى :

تحتاج الأمم فى بعض ظروفها السياسية إلى قطع العلاقات مع دول أخرى ، فيتسبب عن ذلك نقص فى بعض الحاجات التى تستوردها الدولة وقد عاش الإسلام فى فجر حياته على أرض مقفرة جدبة فكان لابد له أن يعلم أبناءه الاكتفاء الذاتى على المواد المحلية . فدربهم الإسلام بالصوم على الاكتفاء الذاتى لمنتجات الجزيرة فى ظروف الحصار الاقتصادى أو الضغط السياسى لا سيما وقد مارس أعداء الدعوة لوناً من المجابهة ، الاقتصادية فى شعب بنى هاشم .

فبينما تقبل الأمم غير المسلمة مبدأ الاكتفاء الذاتى رغم أنفها لأنها لم .

تدرب طوال حياتها على هذا العمل . نرى المسلمين قد دربهم الصوم طوال ثلاثين يوماً كل عام على مبدأ الاكتفاء الذاتى . وذلك تأكيداً لمعنى الشخصية المستقلة التى تقرر مبدأ سياستها بناء على رأيها وظروفها هى غير متأثرة بضغط ولا بحصار . ولا بإملاء من أجنبى . . وذلك أيضًا من أساليب الحفاظ على حرية المسلمين وبقاء إرادتهم كاملة فى حرية تصريفها على أساس من التشريع الذى ارتضته من الله دينا .

٤ – فى الميدان الاقتصادى:

(ا) الكم يؤثر فى الكيف :

وبعد جهاد وصلت الأبحاث الاقتصادية إلى القانون الاقتصادى« الكم يؤثر فى الكيف» فإذا كثرت المادة فى يد فرد كانت سبيلا إلى تغيير أوضاعه السلوكية ، وكذلك إذا قلت المادة فى يده تغيرت أوضاعه السلوكية كذلك .

ولكن الإسلام من قبل قد أدرك هذه العلاقة بين المادة والسلوك فهتف:

« إنالإنسان ليطغى. أن رآه استغنى »

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله»

فالقوى ووسائل الإنتاج هبة الله إلى الناس ، فالإنسان فقير فى حاجته إلى هذه الوسائل فعليه أن يؤدى ضريبتها لتستمر هبة الله له ، ومن هنا يظهر معنى دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

إنه دعاء إلى الله بسلامة أدوات الإنتاج وحتى يشعر الفرد بحاجته إلى تلك الأدوات فى الإنتاج فرض عليه الصوم لتقتل فيه قوته على استمرار الإنتاج فيدرك أن أدوات الإنتاج فيه هبة من الله وأن سلوكه الأنتاجى مرتبط بقوتها وضعفها فيعطى من إنتاجه حقوق الفقراء لتستمر هبة الله له أو تبقى أدوات الإنتاج له سليمة ، فنحن نرى أن الإسلام قد عالج قانون الكم يؤثر فى الكيف من زاوية توجيه الكم إلى الخير واعتقاد صاحب الكم ووسائله من الله هبة ، وأنها هبة نظير ضريبة . والصوم وحده هو الوسيلة التدريبية التى تدفع المسلم الصائم إلى الإيمان بهذا التوجيه وإلى الاعتقاد بهذه الهبة وبضريبتها .

وأن المسلم ليرفع رأسه عاليا بين علماء الإقتصاد لأنهم وضعوا قانوناً

فى أوراق لا تعينة عاطفة ولا تحميه عقيدة ولا توقظه موعظة ، ولكن الإسلام — وضع دينا يوقظ المسلم إلى الكمالات والخير فى جميع الميادين ، ولاريب فإن الإسلام أغلى هدية من الله إلى الناس . . وأكرم به من هدية وأعظم به من دين .

٥ — الصوم فى الميدان التوجيهى :

لم يرد الإسلام أن يقيم احتفالاته القومية على نظام راقص فوضوى ، يسبح فيه الناس أشتاتاً صائحة هائمة ، بل نظم الإسلام مواسم الاحتفالات تنظيماً يبقى للجماعة الإسلامية طهر . ذكرياتها ، ويحفظ عليها كبرياءها ، ويجدد فيها العزم ويشحذ فيها الهمم .

١ — فنى رمضان نزل القرآن الكريم وهو دستور هذه الأمة :

« إنا أنزلناه فى ليلة القدر »

وهى ليلة واحدة فضلها الله فى عبادتها على ألف شهر كانت فى الماضى لأمم قبلنا .

٢ — وفى رمضان كانت غزوة بدر الكبرى وهى أول حرب إسلامية نزل فيها مدد الله إلى جيش الإسلام وسمعت العرب لأول مرة بأن محمداً الذى هاجر إلى مكة فريداً قد صار له جيش هزم قريشا . وفى بدر وضع أول قانون دولى للمقاصة من أموال المعتدين ، فكان الإسلام أسبق من العالم الحديث فى وضع القانون الدولى الذى يحترم سيادة الدولة على أملاكها وحقوقها المشروعة .

٣ — وفى رمضان أتم الله على المسلمين فتح مكة فدخلت العاصمة التى بها كعبة الإسلام فى حوزة الدولة الإسلامية فاكتمل للإسلام مقومات الدولة الرسمية .

تلك مواسم كلها ذكريات تهيج فى قلوب المسلمين فرحة النصر وفرحة الإيمان وفرحة الهبة الكبرى « دين الإسلام » فشرع الله الصوم إحياء لتلك المواسم واحتفالا طاهراً عبقاً ذكياً بتلك الأعياد . ليعلم الإسلام الشعوب نظافة الاحتفالات بالمواسم . وفى ظلال هـــذه الابتهالات المربيـــة للشخصية والجامعة للوحدة المدربة على السلوك الإجتماعى والسياسى والاقتصادى تبرأ الأسقام وتصح الأبدان والأمة قوية الأبناء أعز سلطاناً من الأمة التى صغر فيها بكروش

الاستسقاء أو أصابهم شحن التخمة والإعياء .

ويلاحظ المشرعون أن الله أعفى المرضى والمسافرين من الصوم لأن الميدان التدريبى لا تكمل نتيجته إلا حيث تكون أدوات الإدراك كاملة التفرغ وقد شغلها المرض والسفر فبات المريض والمسافر فى حل من حتمية هذا التدريب ، والمشرعون إذ يلاحظون هذا إنما يقفون موقف الإعجاب والإكبار لإنسانية القرآن السامية التى تحترم ظروف البشر ، ويقدرون فى عجز منهم دقة السياسة التشريعية للاسلام وإصابته للهدف عن قرب قريب .

وبهذا العرض الموجز جدا على طوله تتفتح معانى هذه الآيات الكريمة «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خيرلكم إن كنتم تعلمون »

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسرولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

وبذلك تتضح معالم الإسلام الحنيف فى حدث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى » .

وأخيراً :

فهذا هو الصوم تهذيب وتربية للفرد فى خلقه وعزيمته وشخصيته وتربية للحساسية الاجتماعية وتمرين على عواطف البر الاجتماعى وتدريب على الاكتفاء الذاتى وتوجيه إلى تأثير الكم فى الكيف إلى نواحى الخير والإحسان واحتفال طاهر بمراسم الخير والدستور والنصر وهو أخيراًعبادة إلى الله يكافئ الصائم إيماناً واحتساباً بفيضه الربانى الواسع .

هذا هو الصوم الذى أراده الله فى شريعته وهو الصوم الذى صامه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — نبى هذه الأمة . وصامه أصحابه أعلام

الجهاد الصادق ، صوم يخلق مواطناً ويوحد شعوباً ، ويربى قيادة ، وينظم عاطفة ، ويوجه إلى الخير ، ويدعو إلى التعاون ، ويرغب فى البذل والعطاء ، ويحث على الفضيلة والود : إنه العمود الرابع فى بناء هذه الأمة وهو السياج الحصين لشخصية أبنائها ، وهو الإعلام الطاهر للاحتفال بأعيادها . فصوموا كما أراد الله . . يغفر الله لكم ذنوبكم .

لقد أكمل الله هذا الدين . . فلن ينقصه أبداً . . وارتضاه للناس دينا فلن يسخطه أبداً . . وأنزل كتابه للبشر دستوراً فسوف يحفظه ابداً .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » .

رد الله على المسلمين دينهم وأخذ بنواصيهم إلى رياض شريعته ، وأضاء لهم طريق الحياة فى زحمة الظلمات . ووفق القادة إلى دينه . . ففيه العزة . . وهو الحياة .

وأختم هذا الحديث بقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . . من أن ينزل على غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى . . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دكتور رءوف شلبى

فى التقوى

كان صلى الله عليه وسلم يقول :

اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى .

من بحوث المؤتمر الثانى
لمجمع البحوث الإسلامية

الأقليات وتطبيق الشريعة الإسلامية

الدكتور يوسف القرضاوى

من الشبهات التى يثيرها أعداء الاتجاه الإسلامى كلما نادى مناد بحتمية الحل الإسلامى وبوجوب العودة إلى نظام الإسلام وأحكام الإسلام : أن فى البلاد الإسلامية أقليات لا تدين بالإسلام ، ففى البلاد العربية — مثلا — توجد أقليات مسيحية أورثوذكسية أو كاثوليكية ، وربما بروتستانتية ، كما يوجد بعض اليهود فى بعض الأقطار .

فكيف يقبل هؤلاء « الحل الإسلامى » وهو مستمد أحكامه من دين لا يؤمنون به ولا يرتضونه حكما فى شئون حياتهم ؟ وكيف يرغم هؤلاء على أمر يخالف دينهم ؟ وهذا ينافى مبدأ « الحرية » الذى قرره إعلان حقوق الإنسان ، كما ينافى مبدأ « عدم الإكراه » الذى قرره الإسلام نفسه منذ أربعة عشر قرناً حين قال : « لا إكراه فى الدين » .

لهذا يكون الأولى أن يحكم ، المواطنون جميعاً حكماً قومياً علمانياً ، يستوى فيه أهل الأديان جميعاً ، ولا مجال فيه لطائفية ولا لعصبية دينية كما هو مفهوم الدولة الحديثة ، فالدين لله والوطن للجميع .

هذه هى شبهة القوم حول — الأقليات غير المسلمة فى المجتمع الإسلامى ، وهى شبهة واهية ، بل باطلة كما سنبين ذلك فيما يلى :

حق الأكثرية فى حكم أنفسهم بما يعتقدون صلاحيته لهم :

(أ) أما دعواهم : أن الاتجاه إلى الحل الإسلامى والشرع الإسلامى ينافى مبدأ الحرية لغير المسلمين وهو مبدأ مقرر دولياً وإسلامياً ، فقد نسوا أو تناسوا أمراً أهم وأخطر ، وهو أن الإعراض عن الشرع الإسلامى

والحل الإسلامى من أجل غير المسلمين وهم أقلية — ينافى مبدأ الحرية — للمسلمين فى العمل بما يوجبه عليهم دينهم وهم أكثرية .

وإذا تعارض حق الأقلية وحق الأكثرية فأيهما نقدم ؟

إن منطق الديمقراطية التى يؤمنون بها ويدعون إليها — أن يقدم حق الأكثرية على حق الأقلية .

هذا هو السائد فى كل أقطار الدنيا فليس هناك نظـام يرضى عنه كل الناس فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين وإنما بحسب نظام ما (أن ينال قبول الأكثرين ورضاهم بشرط ألا يحيف على الأقلين ويظلمهم ويعتدى على حرماتهم وليس على المسيحيين ولا غيرهم بأس ولا حرج أن يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم ، وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم ولا يكونوا من الفاسقين أو الظالمين أو الكافرين إذا لم يحكموا بما أنزل الله كما قال تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكـافرون . . فأولئك هم الظالمون . . فأولئك هم الفاسقون» .

ولو لم تفعل الأقلية الدينية ذلك ، وتمسكت بآية تنبذ ما تعتقده الأكثرية دينا يعاقب الله على تركه بالنار لكان معنى هذا أن تفرض الأقلية دكتاتورية على الأكثرية وأن يتحكم مثلا ٣ ملايين أو أقل فى ٧ ملايين أو أكثر .

الحكم الإسلامى خير للمسيحى من الحكم العلمانى :

(ب) وهذا على تسليمنا بأن هناك تعارضًا بين حق الأكثرية المسلمة ، وحق الأقلية غير المسلمة .

والواقع أنه لا تعارض بينهما .

فالمسيحى الذى يقبل أن يحكم حكماً علمانيًا لادينيًا ، لا يضيره أن يحكم حكماً إسلاميًا .

بل المسيحى الذى يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة ، يرحب بحكم الإسلام لأنه حكم يقوم على الإيمان بالله ورسالات السماء ، والجزاء فى الآخرة ، كما يقوم على تثبيت القيم الإيمانية ، والمثل الأخلاقية ، التى دعا إليها الأنبياء جميعاً ، ثم هو يحترم المسيح وأمه والإنجيل ، وينظر إلى أهل الكتاب نظرة خاصة ، فكيف يكون هذا الحكم — بطابعه الربانى الأخلاقى الإنسانى — مصدر خوف أو إزعاج لصاحب دين يؤمن

بالله ورسله واليوم الآخر ؟ على حين لا يزعجه حكم لا دينى – علمانى – يحتقر الأديان جميعًا ، ولا يسمح بوجودها – إن سمح – إلا فى ركن ضيق من أركان الحياة .

من الخير للمسيحى المخلص أن يقبل حكم الإسلام ونظامه للحياة ، فيأخذه على أنه نظام قانون ككل القوانين والأنظمة ، ويأخذه المسلم على أن دين يرضى به ربه ، ويتقرب به اليه .

ومن الخير للمسيحيين – كما قال الأستاذ حسن الهضيبى رحمه الله أن يأخذه المسلمون على أنه دين ، لأن هذه الفكرة تعصمهم من الزلل فى تنفيذه ، وعين الله الساهرة ترقبهم لارهبة الحاكم التى يمكن التخلص منها فى كثير من الأحيان[١] .

ومن هنا رحب العقلاء الواسعو الأفق من المسيحيين بالنظام الإسلامى بوصفه السد المنيع فى وجه الملحدة التى تهدد الديانات كلها ، على يد الشيوعية العالمية كما سنذكر شيئًا من ذلك من كلام العلامة فارس الخورى .

(ج) الحكم الإسلامى لايرغم المسيحيين على أمر يخالف دينهم :

والادعاء بأن سيادة النظام الإسلامى فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم ، ادعاء غير صحيح .

فالإسلام ذو شعب أربع : عقيدة وعبادة ، وأخلاق ، وشريعة فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضها الإسلام على أحد « لا إكراه فى الدين » .

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[٢] .

وقد نزلت الآية الأولى فى شأن رجال من الأنصار كان لهم أبناء على الديانة اليهودية أو النصرانية ، فأرادوا أن يجبروهم على تغيير دينهم إلى الإسلام فنزلت الآية قاطعة مانعة لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى[٣] .

وجاء عن الصحابة فى أهل الذمة : اتركوهم وما يدينون .

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم ويقيمون شعائرهم ، فى حرية وأمان ، كما هو منصوص عليه فى العهود التى كتبت

---

(١) من رسالة دستورنا للأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين .

(٢) يونس / ٩٩ .

(٣) البقرة / ٢٥٦ .

فى عهد أبى بكر وعمر ، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء «القدس»

ومن شدة حساسية الإسلام أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين ، لما لهما من صبغة دينية ، باعتبارهما من عبادات الإسلام ، الكبرى — مع أن الزكاة ضريبة مالية والجهاد خدمة عسكرية — وكلفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرءوس ، أعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين وهى ما سمى « الجزية » .

ولئن كان بعض الناس يأنف من إطلاق هذا الاسم ، فليسموه ما يشاءون فإن نصارى بنى تغلب من العرب طلبوا من عمر أن يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية وقبل منهم عمر ، وعقد معهم صلحاً على ذلك ، وقال فى ذلك : هؤلاء القوم حمقى ، رضوا بالمعنى ، وأبوا الاسم[1] .

أما الأخلاق فهى — فى أصولها — لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض ، فجميعها تدعو إلى العدل والرحمة والإحسان والمحبة والعفاف ، والشجاعة والسخاء ، والتعاون على الخير « إلا ما وضعه اليهود فى شريعة « التلمود » الخارجة على الأديان والأخلاق جميعاً) .

فالزنا — مثلا — محرم فى هذه الديانات كلها .

والمسيح يقول : « من نظر بعينه فقد زنا » والرسول يقول : « العينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش . . إلخ .

والميسر ، وأكل مال اليتيم ، والقسوة على الضعفاء ، وغير ذلك من الرذائل تحرمها كل الأديان .

بقيت الشريعة التى تنظم علائق الناس بعضهم ببغض ، علاقة الفرد بأمته وعلاقته بالمجتمع ، وعلاقته بالدولة ، وعلاقة الدولة بالرعية وبالدول الأخرى .

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك ، فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا ولا يجبرون على شرع الإسلام باعتبار هذه « الأحوال الشخصية » كما تسمى مما له علاقة مباشرة بالدين ومساس به ، وقد أمرنا بتركهم وما يدينون « لا إكراه فى الدين » فمن اختار منهم نظام الإسلام فى المواريث

(١) انظر المغنى لابن قدامه جـ٩ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ط مطبعة العاصمة شارع الفلكى بالقاهرة .

مثلا – كما فى بعض البلاد العربية فله ذلك ، ومن لم يرد فهو وما يختار .

وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم فى ذلك كشأنهم فى أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق ، وترتضيها الأغلبية .

وفى العقوبات قرر الفقهاء : أن الحدود لا تقام عليهم إلا فيما يعتقدون تحريمه كالسرقة والزنا[1] ، لا فيما يعتقدون حله كشرب الخمر .

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شاءوا وإلا لجأوا إلى القضاء الإسلامى .

يقول المؤرخ الغربى (آدم متز) فى كتابه عن « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » .

« لما كان الشرع الإسلامى خاصًا بالمسلمين فقد خلّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم . والذى نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضًا ، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون ، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل – إلى جانب ذلك – مسائل الميراث وأكثر المنازعات التى تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به .

« على أنه كان يجوز للذمى أن يلجأ إلى المحاكم الإسلامية ، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا . ولذلك ألف الجاثليق تيموتيوس – حوالى عام ٢٠٠ هـ – ٨٠٠م – كتاباً فى الأحكام القضائية المسيحية (لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية) إلى أن يقول :

« وفى عام ١٢٠هـ – ٧٣٨م ولى قضاء مصر خير بن نعيم ، فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصارى . . ثم خصص القضاة للنصارى يومًا يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر عام ١٧٧هـ فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ترجمة الدكتور أبى ريده جـ ١ ص ٨٥ – ٨٧ .

ثم قال متز : أما فى الأندلس فعندنا أكثر من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون فى خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضى إلا فى مسائل القتل[1] .

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه فى دينهم واجباً ولا على فعل أمر يرونه عندهم حراماً ، ولا على اعتناق أمر دينى لا يرون اعتقاده بمحض اختيارهم .

كل ما فى الأمر أن هناك أشياء يحرمها الإسلام مثل الخمر والخنزير وهم يرونها حلالا والأمر الحلال للإنسان سعة فى تركه ، فللمسيحى أن يدع شرب الخمر ولا حرج عليه فى دينه، بل لا أظن دينا يشجع شرب الخمور ، ويبارك حياة السكر والعربدة وكل ما فى الإنجيل : أن قليلا من الخمر يصلح المعدة ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم فى موقفهم من الخمر والسكر .

(١) ويرى أبو حنيفة أن عقوبة الذمى والذمية فى الزنى هى الجلد أبدا لا الرجم لأنه يشترط الإسلام فى توفر الإحصان الموجب للتغليظ فى العقوبة على أن فى إقامة الحدود عامة على أهل الذمة كلاما وخلافاً بين الفقهاء انظر المحلى لابن حزم جـ ١١ المسألة ٢١٨٣ .

وكذلك بوسع المسيحى أن يعيش عمره كله ولا يأكل لحم الخنزير ، فأكله ليس شعيرة فى الدين ، ولا سنة من سنن النبيين ، بل هو محرم فى اليهودية قبل الإسلام ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير ، ويشربوا الخمر ويتاجروا فيهما فيما بينهم وفى القرى التى تخصهم ، على ألا يظهروا ذلك فى البيئات الإسلامية ولا يتحدوا مشاعر المسلمين .

وهذه قمة فى التسامح لا مثيل لها : ألا يضيق عليهم حتى فى شىء أحل لهم وحرمه الإسلام تحريماً قطعياً ، مع أن المباحات لاحرج فى تركها دينا ولا خلقاً بل يحبذ تركها فإذا كان فيه إيذاء للآخرين فكيف إذا كان هذا المباح عندهم مثل الخمر التى أجمع على إضرارها أهل الدين والدنيا جميعاً ، وقامت جمعيات لمنع المسكرات ومقاومة الكحوليات فى العالم كله .

الحكم القومى العلمانى لا يرضى كل المواطنين :

أما القول بتفضيل الاتجاه القومى

العلمانى على الاتجاه الإسلامى لأنه يجمع المواطنين جميعاً دون تفرقة ولا طائفية ولا عصبية دينية ، فهذا القول مردود .

فالاتجاه القومى دائماً تعارضه — من الناحية القومية البحتة — أقليات ترى أن لنفسها قومية غير قومية الأغلبية .

فإذا نادينا فى بلادنا العربية بالقومية العربية طابعاً للسياسة والحكم ، قام فى العراق قوم يقولون : نحن أكراد أو تركمان ، وقام فى لبنان من يقول : نحن فينيقيون سوريون ، وقام فى الجزائر أو المغرب من يقول : نحن بربر لا عرب ... إلخ وبذلك لم تحل عقدة الأقليات التى هربنا منها .

فإذا نظرنا إلى القومية العلمانية من الوجهة الفكرية «الأيديولوجية» وجدنا جماهير الأمة تعارضها بحكم التزامها بالإسلام الذى لا يقبل من المسلم أن يحتكم إلى شريعة غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ولا من الحاكم أن يحكم بغير هذه الشريعة الخاتمة ، وإلا دمغه القرآن بالكفر والظلم والفسوق «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما» .

فإذا كان المسيحى يقبل الحكم العلمانى لأنه غير ملزم بشريعة ، فالمسلم ما دام مسلما لا يقبله ، لأنه مقيد بشريعة مفصلة تحدد له منهج حياته من أدب المائدة ، إلى بناء الدولة وشئون الخلافة أو الإمامة العظمى .

فالحكم العلمانى بطبيعته ضد رغبات المسلمين لأنه ضد التزامهم بعقيدتهم وشريعة ربهم ، فكيف يقال إنه يجمع المواطنين جميعاً ، وهو يعارض دين الأغلبية واتجاهها ؟

عقوبة المرتد :

بقيت قضية لا أحب أن أهرب من مواجهتها بصراحة وهى قضية إعدام المرتد عن الإسلام التى أثارت مواطنينا الأقباط فى مصر حتى دعوا إلى الصيام احتجاجاً على الاتجاه إلى هـذا الحكم خاصة وإلى تطبيق الشريعة بصورة عامة .

وأود أن أبين هنا أن المرتد عن الإسلام نوعان :

أما مسلم جديد ، دخل الإسلام حديثا ، ثم أراد أن يعود مرة أخرى إلى دينه القديم .

وإما مسلم قديم الإسلام ، أصيل فيه :

برقت له بارقة ما ، فأراد أن يخرج منه ليدخل في دين آخر ، أو ليبقى زنديقا بغير دين .

فأى حزب النوعين هو الذى يخاف الأقباط عليه ، ويريدون أن يحموه من عقوبة المرتد وأن يبقى حبله على غاربه ، يؤمن متى شاء ، ويكفر متى شاء .

فأما الأول ولا شك فى أن الجميع يعلمون أن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه بأى حال من الأحوال ، وهو فى هذا واضح كل الوضوح ، حاسم كل الحسم والقرآن الكريم مكيه ومدنيه ينكر هذا ويمنعه . ففى المكى يقول تعالى لرسوله « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وفى المدنى يقول « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى « كما جاءت آيات شتى تلغى اعتبار أى إيمان لا يصدر عن إرادة حرة واختيار كامل .

ولكن الإسلام لا يرضى من الناس أن يجعلوا الدين « ملعبة » يدخل أحدهم فيه اليوم ليخرج منه غداً على طريقة اليهود الذين قالوا فى عهد النبوة (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

ولطالما شكا المسيحيون فى مصر أولئك المتلاعبين بالدين من النصارى حتى إن أحدهم ليترك دينه رغبة فى التخلص من زوجته المسيحية وآخر يدخل الإسلام ليتزوج من حبيبته المسلمة ولا مانع لدى هذا أو ذاك أن يرجع لدينه القديم متى حن إلى زوجته ، أو يفر من حبيبته والإسلام غنى عن هذا الصنف الذى لا يعتنقه إلا لغاية دنيوية زائلة ، والمسلمون لا بعتزون بهؤلاء ، ولا يرحبون بهم .

والعلاج الناجع لهؤلاء وأمثالهم أن يعلموا أن الإسلام لا يقبل الهزل والتلاعب والتنقل بين الأديان كتنقل المتفرج بين المسارح والملاهى ، وأن من دخل فى الإسلام يجب أن يدخله بعد اقتناع كامل بصحته ، ويقين تام بأحقيته وأن من دخله بإرادته الحرة لم يجز له الخروج منه ، فمن أراد الإسلام فليؤمن به على هذا الشرط . فإذا آمن بهذا الوصف أصبح واحداً من جماعة المسلمين ومن حق الجماعة أن تعاقب من يخونها ويتمرد عليها من أبنائها بعد أن التزم مختاراً بشريعتها . فهذا ما يتعلق بمن دخل جديداً فى الإسلام ثم أراد الخروج منه .

وأمـــا المسلمون القدماء فلاوجه للاعتراض على عقوبة المرتد منهم ولم تحدث فى تاريخ مصر ردة تكون إشكالا فإن ارتداد المسلم إلى النصرانية أمر فى غاية الندرة بل الشذوذ والمجتمع الإسلامى فى بلـــد كمصر لا يقبله ولا يسكت عليه لو حدث وإن لم يكن هناك تشريع بعقوبة المرتد .

وقد حدث منذ سنوات أن حاولت الكنيسة تنصير طالبين فى الإسكندرية فقامت الدنيا وقعدت وهاج الرأى العام فى مصر من أقصاها إلى أقصاها وكادت تحدث فتنة طائفية لا يعلم عواقبها إلا الله فالأولى منع هذا بالتشريع المحكم بدل أن يترك لعواطف العامة ومشاعر الجماهير التى لا أساس لها ولا قيود تضبطها — على أن هذه الحالات الشاذة ليست هى المقصودة بالتشريع المذكور لعقوبة المرتد أولا وبالذات إنما المقصود الأول هو من يرتد عن الإسلام إلى غير دين بل يعتنق مذاهب مادية لا تؤمن بالله ولا برسالاته ، لا بمحمد ولا بالمسيح وتريد هدم الأديان كلها كالشيوعية التى تزعم أن الدين أفيون الشعوب ، وتعمل على اقتلاع المجتمعات فيه قاطبة لحساب الإلحاد العالمى الأحمر ولا أحسب الأقباط فى مصر يشجعون هذا اللون من الردة لأنه خطر علينا وعليهم جميعاً ولهذا يتنادى المؤمنون بالدين فى العالم كله بالتعاطف والتكاتف لصده — والوقوف فى وجهه .

إذن لا داعى لهذه الضجة ولا مبرر لها ولا ثمرة لمثل هذا الموقف إلا الاستفزاز وإثارة الحزازات .

الحكم العلمانى والعصبية الدينية :

(هـ) وأما القول بأن الحكم العلمانى لا مجال فيه لطائفية ولا عصبية دينية مما يفهم أن الحكم الإسلامى يثير التفرقة الطائفية والتعصب الدينى ، فكلا الأمرين غير صحيح فقد يوجد الحكم العلمانى وتوجد معه التفرقة الطائفية والعصبية الدينية وهذا لبنان بلد علمانى الحكم ، ولا تزال الطائفية فيه على أشدها ، ولا يزال المسلمون يشكون من سوء نصيبهم فى مناصب الدولة ومغانم الحكم ، حتى انتهى الوضع إلى الحرب الأهلية الأخيرة .

وفى بريطانيا مظاهرات الكاثوليك واحتجاجاتهم المتكررة فى أيرلندا وقد تحولت فى السنوات الأخيرة إلى ثورة دامية .

وفى الهند تقوم المذابح الرهيبة بين

حين وآخر ، يذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين ، الذين يكونون أقلية ضخمة تزيد على ثمانين مليونا مع أن الحزب الذى يحكمها كان هو حزب المؤتمر المعروف بعلمانيته . وفى الفترة الأخيرة نال الأغلبية حزب له سمة دينية ، ومع هذا أصبح أكثر تسامحاً وتعاوناً مع المسلمين وتقديراً لعددهم ووضعهم .

وفى البلاد الشيوعية التى يقوم حكمها على الإلحاد وعدم الاعتراف بأى دين يعامل المسلمون خاصة معاملة شاذه مصدرها بقايا الحقد القديم من أيام بطرس دولة الخلافة العثمانية ، ويجمع المراقبون على أن المسلمين فى الاتحاد السوفييتى يتناقصون ولا يزيدون ، كما هو شأن المسلمين فى كل أنحاء العالم حيث تضاعفت أعدادهم فى ثلث قرن ، بل تدل الوقائع والأخبار أن هناك إبادة منظمة للسكان المسلمين يمارسها ضدهم الشيوعيون الملحدون[١] .

وبهذا — وأمثاله كثير — تسقط الدعوى القائلة بأن الحكم العلمانى لا يدع مجالا للتفرقة الطائفية ولا للعصبية الدينية .

الحكم الإسلامى والتعصب الدينى :

وبقى ما يلمح به فريق ، ويصرح به آخرون ، من اتهام الحكم الإسلامى بالتعصب الدينى . والحيف على الفئات الأخرى ، التى تعيش فى ظل دولته وفى كنف سلطانه .

وهو اتهام ظالم ، ليس له أساس من شريعة الإسلام ولا من تاريخه . وفى المقال التالى بيان وتفصيل لهذه الحقيقة .

---

(١) انظر فصل « أحوال المسلمين فى الاتحاد السوفييتى » من كتاب : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر للغزالى .

فى التوكل على الله

قال صلى الله عليه وسلم :

لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا ، وتروح بطانا[٢] .

---

(٢) أى ضامرة البطون من الجوع ، بطانا : أى ممتلئة البطون .

من مُثل التضحية والجهاد

مصعب الخير

الدكتور / عبد الجليل شلبى

مصعب الخير هو مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ومن السابقين إلى الإسلام وممن تحملوا المشاق الشديدة ثم الاستشهاد فى سبيل الله .

تاقت نفسى أن أكتب كلمة عن هذا الصحابى الجليل للتعريف به ولأنى أستريح إلى ذكراه وآنس إليه، ويملكنى الإعجاب والإكبار لماضحى به فى سبيل عقيدته ، فقد ضحى بالمال والوطن ثم بالنفس . وقد كتبت من قبل كلمة عن عاصم بن ثابت ، وهو شريك مصعب فى بعض مواقف البطولة الاسلامية ، وكلا الرجلين جدير بأن يعرف وأن يتخذ منه الشباب قدوة وإماماً ، وهو من الذين شملتهم الآية الكريمة : « مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا الله عليْهِ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » . . — فهو قد قضى نحبه ولما يجن المؤمنون ثمار جهادهم ، لكنه جنى عند الله ثماراً أطيب وأكثر .

ولكى نقدر إيمان هذا الرجل وتضحياته تذكر أن قبيلته — بنى عبد الدار — كان لهم فى الجاهليه اللواء وسدانة الكعبة والحجابة، ويقال ان الندوة أيضاً كانت فيهم ، ويرز منهم فى الجاهلية رجال كانت لهم مكانتهم وتأثيرهم على العرب منهم الحرث بن علقمه بن كلدة، كان زوج خالة رسول الله وكان ذا جود وبأس وهو غير الحرث بن كلدة طبيب العرب المعروف — فهذا ثقفى — أما صاحبنا فقرشى ، وهو أبو النضر بن الحرث الذى كان يشغل الناس عن الاستماع إلى رسول الله وأعد لذلك قينتين مغنيتين ، ونزل فيه قول الله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً . »

وهو الذى يتبع رسول الله حين يعرض نفسه على القبائل ، ويحدث الناس بتواريخ الفرس وغيرهم أو يقول إن محمداً يحدثكم عن عاد وثمود وأنا أحدثكم عن رستم واسفنديار .

وقد قتل صبراً[١] عقب موقعة بدر عند الأثيل ، لم تمنع قرابته إلى رسول الله (ص) من أن يأمر بقتله ، فقتله على بن أبى طالب .

وكان سبب الخصومة بين بنى عبد الدار وبنى هشام هو التنافس بين القبيلتين ، وهو السبب الذى من أجله عادتهم بطون قريش الأخرى ، وبلغ من هذا التنافس إلى جانب ما رأينا من عمل النصر أن كان بنو عبد الدار يحورون الشعر الذى يقال فى بنى هاشم بن عبد مناف فيجعلونه لهم . مر رسول الله (ص) مع أبى بكر فسمع منشداً ينشد:

يأيها الرجــل المحــول رحله
هلا نزلت بآل عبد الــدار

فنظر رسول الله (ص) إلى أبى بكر وقال : أهكذا قال ؟ .

قال أبو بكر لا ولكنه قال :

يأيها الرجــل المحــول رحله
هلا نزلت بآل عبــد مناف

الخالطــون فقيرهم يغنيهم
حتى يكون فقيرهم كالكافى

فى هذه العشيرة ومن أبوين من أكرم أبنائها جاء مصعب بن عمير ، وكان فى شبابه ذا رواء وجمال ، وكاد يمتاز بشعر ذى سبائب يرجله فيبدو رائعاً فاتناً . وكانت أمه على حظ من الثراء وكانت تسخو عليه من مالها وتعجب بمنظره ، فكانت تكسوه أجمل وأثمن وأرق ما يكون من الثياب ، وكان يختار العطور الجيدة ويلبس النعال الحضرمية الرقيقة ، فكان من أجمل شباب مكة وآنق أهل مكة وأعطر أهل مكة[٢] .

كل ذلك بفضل ما لأمه من ثراء ، والحق أنه كاد أثيراً لدى أبويه جميعاً ، وكلاهما شديد الحب له والإعجاب به وكاد رسول الله (ص) يقول فيه : ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير .

هذا الذى نشأ فى هذه النعمة وهذا الرخاء ، وبين قوم يعادون الإسلام وبنى الإسلام والذى لم يكن يتوقع منه أن يسرع إلى الدخول فيه ما كاد يتفهمه حتى ضحى فى سبيله بكل هذا النعيم .

سمع مصعب بدعوة الإسلام حين

(١) القتيل صبرا هو الذى يقتل فى غير معركة .

(٢) أكثر تعطراً ، وأزكاهم رائحة .

كان النبي فى دار الأرقم بن أبى الأرقم فذهب إليه معلناً قبوله الإسلام وتصديقه برسالة النبي محمد (ص)، ولكنه خوفاً من أبيه وأمه كتم إسلامه، وكان يختلف إلى رسول الله (ص)، بين حين وآخر سراً حتى أبصر به عثمان بن طلحة من أبناء عمومته — يصلى سراً، فوشى به إلى أبويه وكانت هذه فاتحة صفحة جديدة فى حياته، صفحة تختلف كل الاختلاف عن حياته الأولى. تبدلت رفاهيته خشونة ونعيمه شقاء وثراؤه فقرا، ولكن كل ذلك هان عليه واحتمله فى سبيل الاسلام.

كبر على والديه وعلى ذويه ما فعل من اتباع بنى من بنى هاشم، فحبسوه وحالوا بينه وبين الاتصال بالمسلمين خوفاً أن يفتنوه، وظل كذلك حتى هاجر المسلمون إلى الحبشة هجرتهم الأولى.

كانت أمه — وهى التى حبته بعطفها ومالها لا تكف عن لومه وتعنيفه.

وكان يجادلها كثيراً ويعييها حجة ولكنها كانت تخشى أن يتهمها الناس فى عقلها وولائها لقبيلتها إذا هى أسلمت، فلما هاجر إلى الحبشة اتقد شوقها إليه، وتطلعت نفسها لرؤيته، فلما عاد مع العائدين راعها أن اختلفت حاله، رثت ملابسه وتغير منظره وذهب جماله، فكفت عن لومه وعذله ولكن لم يعد له شيء من النعيم الذى كان له من قبل.

والحق أن هذه الهجرة كانت بداية متاعبه أو على الأصح بداية جهاده وتضحياته فى سبيل الإسلام، وأول ما عانى هو فقدان ما كاد فيه من رفاهية ونعمة، واستبداله بهما فاقة وخشونة وإقلالا.

قدم مرة على رسول الله (ص) وهو جالس مع أصحابه، وكان عليه نمرة قد وصلها بقطعة أو قطع من الجلد، فنكس الصحابة رءوسهم رثـاء له وأسفا لما صار إليه، وقال رسول الله: الحمد لله مقلب الدنيا بأهلها لقد رأيت هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة فى الخير فى حب الله ورسوله.

وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية أيضاً ولم ير المهاجرون أحسن منه خلقاً ولا أقل خلافاً.

وعاد من الحبشة مرة ثانية مع العائدين إلى مكة ولكن الفجوة زادت اتساعاً بينه وبين والديه — كما اشتدت الصلة بينه وبين رسول الله (ص).

بعد بيعة العقبة الأولى عاد النقباء الاثنى عشر إلى يثرب يحـدثون

بالدين الجديد ، وبدأت الدعوة تفشو ولكن القوم قليلو العلم بالدين شديدو الحاجة إلى تعلم القرآن لذا رأوا أن يبعثوا إلى رسول الله أن يمدهم بمن يسد هذا الفراغ فى حياتهم ، فاختار لهم مصعباً وابن أم مكتوم فكان هذان أول من هاجر إلى المدينة .

نزل مصعب على سعد بن معاذ ثم على سعد بن زرارة ، فأقرأ الناس القرآن وعلمهم مبادىء الإسلام ، ولم يكتف مصعب بمجىء المسلمين إليه يسألونه ويقرأون عليه ، بل كان يأتى الأنصار فى ديارهم ويغشاهم فى مجتمعاتهم فيدعوهم للإسلام ويقرأ عليهم القرآن على نحو ما كان رسول الله (ص) يفعل مع القبائل الوافدة فى موسم الحج ، فكان يسلم معه الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وانتشرت دعوة الله .

وكان مصعب أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة . فقد كتب لرسول الله (ص) يستأذنه فى هذا فأذن له فجمع الناس فى بيت سعد بن خيثمة ، فكانوا اثنى عشر رجلا صلى بهم الجمعة وخطبهم ، فهو أول من جمع فى الاسلام جمعة .

ولما استدار العام ووافى موسم الحج ، خرج السبعون أنصارياً من الأوس والخزرج ليبايعوا رسول الله وليدعوه إلى الهجرة إلى مدينتهم فخرج معهم مصعب كما يفعل السفراء مع كبار الرجال الذين يزورون بلادهم وعندما وصلوا مكة اتجه مصعب إلى بيت رسول الله ولم يذهب إلى أبيه وأمه ، وأبلغ رسول الله بحال الأنصار وسرعة استجابتهم للدعوة على غير ما يفعل مشركو مكة ، وتطلق وجه رسول الله (ص) وسر بما سمع .

وبقى مصعب بمكة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر — ثم ذهب إلى المدينة مستهل ربيع ليستقبل رسول الله فى الثانى عشر منه .

علمت أم مصعب بمقدمه مكة وعدم قدومه عليها فأرسلت إليه تقول : ياعاق أتقدم بلداً أنا فيه ولا تبدأ بى !

فلما فرغ من حديث رسول الله (ص) رجع إليها فقالت إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ! ماشكرت مارثيتك مرة بأرض الحبشة وأخرى بيثرب ، تعنى أنه لم يقدر عاطفتها نحوه وتشوقها إليه ، وأنه كان ينبغى أن يظل بجانبها . فقال أفر بدينى أو تفتنوا فى . وبدلا من أن يحبها دعاها هو

إلى الإسلام ورغبها فيه ضناً بها أن تعذب ويلقى بها فى النار .

وأرادت حبسه من جديد كيلا يفر ولكنه هدد بأنه سيقتل من يتعرض له كائناً من كان .

لا ريب أن التضحية واحتمال العذاب فى سبيل العقيدة مما يقوى الإيمان ويثبت المرء عليه ، أنه عرف ما لديهم واطمأنت نفسه إلى ما عند الله ، وليت الذين ظنوا أنهم يردون الناس عن عقائدهم بالعذاب فطنوا إلى هذه الحقيقة ، وقد فطنت لها أم مصعب فوافقت أن يقيم معهم ولا يعزلونه .

وفى دار الهجرة آخى رسول الله بين مصعب وسعد بن أبى وقاص من المهاجرين ، وبينه وبين أبى أيوب الأنصارى من الأنصار .

ويوم بدر كان يحمل لواء المهاجرين . وهو اللواء الأعظم إذ ذاك بين يدى رسول الله .

ويوم أحد حمل لواء المسلمين أيضاً .

كان لواء المشركين مع طلحة بن أبى طلحة من سادة بنى عبد الدار ، وأراد أبو سفيان أن يحمسهم فصاح : بنى عبد الدار ... إنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، فإما أن تكفونا اللواء وإما أن تخلوا بيننا وبينه ! فهموا به وتوعدوه ، وقالوا أنحن نسلم لواءنا إليك ؟

وكاد ذلك ما يريده من إثارة حميتهم .

ولما التقى الجمعان خرج طلحة يطلب البراز مبدياً إعجابه بقوته فتهيبه المسلمون ولم يخرج لمبارزته أحد ، وصاح ثانياً : تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد يعجلنى بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفى إلى الجنة . . كذبتم واللات والعزى . .

وما كاد يتم تهديده حتى برز إليه على بن أبى طالب فاختلفا ضربتين ثم قتله على وتوالى آل طلحة من بنى عبد الدار يحملون اللواء ويقتلون حتى كمل عددهم إثنى عشر رجلا ، وظل مصعب يحمل اللواء .

ولما انفرط عقد المسلمين ورمى بن قمئة رسول الله بحجر فى ثنيتيه وصاح : قد قتلت محمداً ، قال مصعب وهو يهيب بالمسلمين أن يثبتوا : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم .

ولم تكن الآية قد نزلت بعد ولكن جاء بها القرآن بعد ذلك .

واعتمده ابن قمئة وهو فارس فضرب

يده اليمنى فقطعها وهو يقول : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . وأمسك اللواء بيسراه .

ثم ضرب يده اليسرى فقطعها ، فضم مصعب إليه اللواء وأمسكه بعضديه يضمه إلى صدره وهو يكرر الآية أو ما صار آية بعد ، وما محمد إلا رسول . .

ثم حمل ابن قمئة عليه بالرمح فاندق فيه وسقط مصعب وناشته سيوف بنى أبيه من عبد الدار .

التمسه المسلمون آخر المعركة فوجدوه على هذه الحال ، ولم يجدوا ما يكفنونه به إلا نمرة كانت عليه لا تكفى لستر جسده كانوا إذا غطوا بها رأسه برزت رجلاه وإذا غطوا بها رجليه انكشف رأسه ، فأمر رسول الله (ص) أن يجعلوها مما يلى رأسه وأن يغطوا رجليه بشىء من الاذخر . . . ثم دفنوه .

ووقف رسول الله (ص) على قبره فقال : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت شعث الرأس فى بردة ، ثم قرأ الآية الكريمة : من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

انه مثل من أمثلة المجاهدين الذين وقع أجرهم على الله .

رضى الله عنه وأرضاه .

من أقوال التلمود

١ — ترجمة النص الطليانى :

(كنائس المسيحيين كبيوت الكفار فيجب على اليهود تدميرها) .

٢ — ترجمة النص الفرنسى :

يجب على اليهود المبادرة بهدم كنائس المسيحيين فانها بيوت الكفار) .

(التلمود ، الجزء الثانى ، الفصل التاسع ، المادة الخامسة)

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

الضرورة العملية هى السبيل للخروج من الشك

دكتور / يحيى هاشم

تحدثنا فى المقالات السابقة عن استحالة استقلال العلم والعقل عن أساس إيمانى سابق يقوم عليه وبينا أن هذا الأساس يمكن التماسه فى أمرين : « إيمان الفطرة » وقد بيناه فى المقالة السابقة ، ثم فى أمر آخر هو ما نسميه « الضرورة العملية » .

والضرورة العملية هذه هى التى اعترف بها الشاكون أنفسهم من اعتى الفلاسفة الملحدين ، إذ وضعوها فى أساس إنقاذهم لهيكل المعرفة الإنسانية.

واعترف بها العلم التجريبى ووضعها أساساً لاجراءاته جميعاً ، وأخذ بها فى نتائجه المحسوسة ومسلماته على السواء .

يقول ديكارت عن هذه الضرورة العملية :

(إنا متأكدون عملياً من صدق بعض القضايا وإن كنا غير متأكدين نظرياً . .)

ويقول :

(إن الفيلسوف يسلم بالأشياء الواقعية خارج الذهن . . . استجابة لمطالب الحياة العملية لا إقتناعاً بأسلوب وحجج فلسفية) .

ويقول الفيلسوف الإنجليزى هيوم وهو على قمة اللا أدرية :

(إن الطبيعة – عن ضرورة عملية لا تقاوم هيأتنا لأن نحكم كما هيأتنا لنتنفس ونحس) .

ويقول الفيلسوف الفرنسى بسكال . .

(لا يستطيع الإنسان الاستسلام للشك لأن عليه أن يتصرف بحزم فى المسائل العملية) .

وليست دلائل الوحى هى الدلائل الوحيدة على العقائد الدينية الفائقة للطبيعة فحسب بل أن بسكال مد هذا القول إلى الحقائق العقلية الطبيعية ، وأراد أن – يكون التدليل فى العلم الطبيعى وفى مصير

الإنسان على السواء بالتجربة الظاهرة والباطنة لا بالاستدال العقلى .

فشق بذلك طريقًا ولجه كثيرون من بعده :

أشهرهم كنط الذى يقدم العقل العملى على العقل النظرى وأصحاب البراجماتزم على إختلافهم الذين يمتحنون القضايا الميتافيزيقية بفائدتها العملية .

والسبب واحد عندهم جميعًا :

هو : الشك فى العقل ، وإرادة تجاوز الحس مع ذلك[1] .

ويقول الأستاذ اسماعيل مظهر فيما يلخصه عن الأستاذ كروزبار :

(من الظاهر الجلى أننا إذا أردنا أن نرد على العالم نظامه وعلى العقل ألفته فإن من الواجب أن لا ننظر فيما يمكن أن يثبت أو ينفى نظريًا :

بل ننظر فيما يمكن الاعتقاد به عملياً . .

إنى مضطر مثلا لأن أعتقد فى وجود عالم خارج عن حيزى لأتخذ اعتقادى هذا دعامة حقة ، وأساسًا ركيزاً فى سبيل بحثى عن الحقيقة . .

ذلك على الرغم من أن الفلاسفة قد ينكرون أن للعالم الخارجى وجوداً حقيقيًا فى ذته . . كذلك أعتقد أن هناك فرقًا قائمًا بين الفضيلة والرذيلة وبين سمو المدارك الروحية ، والشهوات وبين الأنانية والتضحية ، وبين الذاتية والغيرية[2] .

ومن جهة أخرى :

فإن الضرورة العملية هى التى تجعل الإنسان يتخطى شكوك العقل فى طريق وصوله إلى معرفة الله ، دون غيرها من الضرورات .

ولنأخذ الدليل على ذلك أولا ، من فلاسفة الشك قديماً ، وحديثاً ، وثانياً من مفكرى الإسلام ، وثالثاً من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) أما عن فلاسفة الشك فيقول أحد مؤرخى الفلسفة عن مذهب الشك عند سكنوس أميريقوس آخر الشكاك اليونانيين (واقع أن موقفه لا ينفى الدين ولا ينفى الألوهية ولكنه ضرب من اللاأدرية النظرية وفى مجال العمل نراه على استعداد للتسليم بأن الشاك يستطيع إن يؤمن بوجود الله وأن يشارك فى العبادة الدينية ، دون أن ينطوى موقفه على أى تناقض . .) .

ويرى باركلى أن العلماء التجريبيين

---

(١) انظر الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص ٩٤ .

(٢) ملتى السبيل ص ٨٢ .

يقبلون المبادىء النظرية التى تقوم عليها علومهم وهى (الزمان — المكان — العلة — إلخ) دون أن تكون معقولة ، وذلك لضرورة التسليم بها من الناحية العملية ، ومن هنا كان عليهم أن يقبلوا العقائد الدينية . لنفس الغرض . .

ويرى هيوم أن عواطفنا ودوافعنا العملية ترغمنا على التصديق بوجود الله ، وذلك بالرغم من إنكاره ليقينية الأدلة على وجود الله . .

ويقول شلر فى رده على أعداء الدين (إن فروض الدين كفروض العلم . العالم يسلك كما لو كان فرضه صحيحاً انتظاراً لتحقيقه ، والمؤمن لم يفعل أكثر من ذلك إذ يسلم بفروضه وينتظر نتائجها العملية ، وكل الخلاف بين العالم والمؤمن هو أن تحقيق الفرض العلمى يتم فى وقت أقصر من تحقيق الفرض الدينى . .)

والضرورة العملية عند وليم جيمس تؤدى به إلى النظر فى النتائج ، حيث يرى أن الخلاف بين المادية والروحية يحسم بالنظر — لا إلى الماضى — ولكن إلى المستقبل ، حيث يصبح الأمر مهماً وخطيراً ، إذ المادية هنا لا تضمن مصالحنا العليا على حين أن الإيمان بالله يحقق أفضلية عملية كبرى ، إذ أن معناه أن العالم قد يهلك ، ولكن صلتنا بالله هى التى تنجينا . .

ويقول بسكال :

(إن خلود النفس من الأهمية بحيث لا يظل عديم المبالاة بالنسبة له إلا من فقد كل شعوره . .) .

ويقول (فلنذكر الملحد بالموت وبالأبدية : ماذا لديه من القول عنهما ؟ هل يقول : إنه لا يبالى ؟ أليس منتهى الحماقة ونحن نعنى أكبر العناية بصغائر الأمور ألا نثير المسألة الكبرى التى يتوقف عليها النعيم الأبدى أو الشقاء الأبدى ؟ لنفرض أن الغموض متساو من ناحية إثبات الدين ومن ناحية نفيه يبقى ان الاختيار بينهما واجب — أى ضرورى عملياً — ولنلاحظ أن عدم الاختيار هو فى الحقيقة اختيار للنفى من حيث أننا نحيا كما لو لم يكن الله موجوداً ، ولم تكن النفس خالدة ، وهو اختيار الجهة الأشد خطراً من حيث أنه استهداف للعذاب الأبدى) .

ويذهب بسكال إلى أن الرهان على وجود مصدر لامتناه لسعادتنا هو الرهان الرابح وذلك لأن العقل لا يستطيع أن يحكم فى هذه القضية ، وهو يدعو

الناس إلى التزام عدم التناقض فى كل ما يتعلق بحياتهم العملية وبالتالى أن يتركوا نظرية الرهان تقرر سبيلهم بالنسبة إلى الله وكذلك فى سائر الحالات الأخرى التى يكتنفها شىء من الشك والرهان على وجود الله يكون فيه الربح لا متناهيًا من السعادة ، وتكون الخسارة غير متمخضة عن فوات أى شىء على مستوى السعادة الأبدية .

أما الرهان على عدم وجود الله فإن الربح فيه لا يحصل فيه شىء من تلك السعادة الأبدية وتكون الخسارة خسارة حقيقية للسعادة الأبدية ، وحسب قواعد الرهان لابد من اختيار الرهان الأول[1] .

(٢) أما عن مفكرى الإسلام . .

فنرى الإمام الغزالى فى كتابه ميزان العمل يستند إلى الضرورة العملية حيث يقرر أن الإنسان أمام اعتقاد أن الموت عدم محض ، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما لا يخلو أن يكون واحداً من أربعة :

إما إن يكون قاطعًا ببطلانه . .
أو ظاناً لبطلانـــه
أو ظاناً لصحته ظناً غالبًا
أو قاطعًا بصحته

وفى جميع هذه الأحوال يرى الإمام الغزالى ان عليه أن يعتقد بصحة الآخرة وأن يعمل لها .

أما فى الحالة الأولى والثانية فالأمر بيِّن .

وأما فى الحالة الثالثة حيث يغلب على ظنه أن الموت عدم محض ، ويبقى لديه احتمال بتجويز صدق الأنبياء ولو على بعد ، فعقله يلزمه سلوك طريق التصديق بالآخرة ففيه الأمن ، واجتناب التكذيب بها ، ففيـــه الخطر الشـــديد . ويضرب المثال على ذلك فيقول (إنك لو كنت فى جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى فى واحد من محارمه عملا تظن — ظناً غالباً — أنه يقع منه موقع الرضا فيعطيك ديناراً . . ويحتمل احتـــمالا — على خلاف الظن الغالب — أنه يقع منه موقع السخط فينكل بك ويفضحك، ويديم عقوبتك طول عمرك أشار عليك عقلك بأن الصواب ألا تقتحم هذا الخطر فإنك إن فعلت وأصبت فمزيته دينار لا يطول بقاؤه معك وإن أخطأت فنكاله عظيم يبقى معك طـــول عمرك فليس تفى ثمرة صوابه بغائلة خطره . .

ثم يتحدث عمن هو فى الحالة الرابعة التى يدعى فيها أنه على يقين من أن الآخرة لا وجود لها . . وبعد أن يلفت نظره

---
(١) انظر الله فى الفلسفة الحديثة لكولينز ٤٧٠.

إلى أنه لا برهان لديه على ما قطع بصحته يبدأ معه المناقشة من مبدأ إيمانه بالسعادة الدنيوية ، ويبين له أن الإيمان بالآخرة والعمل من أجلها يحقق هذه السعادة فى الدنيا . .

ثم يستخلص الامام الغزالى القاعدة العملية التى يحتكم إليها فى الإيمان بالآخرة . فيقول (ان العظيم الهائل إن لم يكن معلوماً – أى متيقناً – فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر) وهذا هو منطق الضرورة العملية .

ولم يكن ذلك هو موقف الإمام الغزالى فحسب ، بل نراه عند بعض المتكلمين ونراه عند القاضى عبد الجبار من المعتزلة إذ يقول (وقد تقرر فى العقول وجوب دفع الضرر عن النفس معلوماً كان أو مظنوناً متى كان المتحرز منه أعظم من المتحرز به . .) .

ويقول العلامة ابن المرتضى المعروف بابن الوزير (إن السلامة متحققة فى الإيمان والخطر مأمون فيه ، والمهالك مخوفة فى مخالفته) . .

وهذا هو معنى قول أبى العلاء المعرى:

قال المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

وهذا هو ما قاله الإمام على رضى الله عنه لمن كان يجادله فى أمر الآخرة .

(إن كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً .

وان كان الأمر كما قلتُ فقد هلكتَ ونجوتُ) . . .

وهذا هو ما تشير إليه الآية الكريمة : (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ؟ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) ؟

ويقول (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم) .

هذه هى المشكلة العملية ، وهذا هو التصرف العملى الذى يناسبها بحكم ما نسميه الضرورة العملية .

٣ – ولقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المشكلة أمام الإنسانية كلها على هذا النحو .

لقد كان أول ما بدأ به فى دعوته العامة قوله فيما رواه الشيخان بسندهما :

(مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم انى رأيت الجيش بعينى فأنا النذير العريان فالنجاء النجاء .

فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم

فنجوا وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم) .

وهنا تبرز مهمة الإنذار بعذاب الآخرة الذى يوجهه الرسول لكافة البشر فهذا الإنذار هو الذى يدعو إلى التعرض لتصديق الرسول فى ما يأتى به من قضايا فى العقيدة أو فى الشريعة ، لأن تكذيبه يعرض لأعظم الأخطار ، انه يعرض لخطر الخلود فى النار . وهذا أمر لا يمكن إغفاله .

وهنا يمكننا أن نقرر أن منهج الرسول عليه الصلاة والسلام — هو منهج الضرورة العملية المتمثلة فى ضرورة تحديد موقف الإنسان بالنسبة لما بعد الموت .

فقد كان أول ما نزل من القرآن الكريم فى بداية الدعوة العامة قوله تعالى . .(يا أيها المدثر قم فأنذر) . .

فالإنذار هو نقطة البداية فى الدعوة العامة إلى الإسلام . .

ولقد جاء إسناد مادة « أنذر » إلى الرسول فى القرآن الكريم — كتحديد لمهمته فى الدعوة — بصيغ مختلفة بلغت جملتها أكثر من مائة وعشرين مرة كلها تدور حول قيام الرسول بمهمة الإنذار ولا شك أن لهذا دلالته فى إيضاح جوهرية الإنذار فى الدعوة إلى الإسلام .

وهذا الإنذار بعد أن يشد بمنطقة القائم على الضرورة العملية سمع الإنسان وفؤاده يجعله يتجه إلى التعرف على شخصية الرسول لمعرفة صدقه ليواجه من غير إبطاء الموقف الخطير الذى وضعه فيه ذلك الإنذار ، ومن هنا يأتى الاحتكام إلى صدق الرسول بوسائله العديدة . . وهو ما تضمنه قوله صلى الله عليه وسلم لقومه وهو يلقى عليهم إنذاره الرهيب . . (أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . .)

وإذا كان من الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بشيراً أيضاً فإنه من المؤكـد أن التركيز كان على « الإنذار » باعتباره الضرورة العملية التى ترغم على تجاوز الشك ، والتعرض للإيمان ، دون غيرها .

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر :

(الحب والعطف أقل فى الواقع من الخوف فى النفس أثراً) . .

لذلك نرى أن أقل خروج فى الطبيعة

على أوجه تجانسها الظاهر مدعاة إلى إحداث انفعالات نفسية فى الإنسان أمعن فى النيل من شعوره ، من أبعث مظاهر الطبيعة على الروعة الهادئة والإعجاب الساذج . .)[١] .

يقول الأستاذ فريد وجدى :

(ان الإنسان مرغم على ألا يعتمد إلا على الأسلوب العملى ، حتى فى الحين الذى يدعى ويحلف أنه على غير تلك الصفة . .)[٢] .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقرر أمرين(ا) أولهما أن التسليم المطلق للنص كما جاء به هذا المنهج يقوم على الضرورة العملية بمالها من منطق خاص فينأى به من الوقوع فى تهمة الدور الباطل ويجعله صالحاً لمواجهة الفكر الإنسانى بصفة عامة ولا يقتصر فى جدواه على المؤمنين بصفة خاصة .

(ب) أن تلك هى بداية الطريق فحسب . .

وهى كافية لإخراج الإنسان من حالة الضياع العقلى .

ولكنها بعد ذلك فى حاجة إلى مكملات : منها ما يرجع إلى العقل .

ومنها ما يرجع إلى الضمير أو الوجدان

ومنها ما يرجع إلى الإرادة . .

وباختصار مكملات ترجع إلى طبيعة الإنسان ككل متناسق ، ولا تتعارض مع هذه الطبيعة .

فالرجوع إلى هذه القوى الثلاث لا يقوم على كونها حاكمة يحتكم إليها فى معرفة الحقيقة وإنما على كونها هى المداخل التى ينفذ منها إلى الإنسان ، ويستولى عليه من خلالها .

إن هذا المنهج يتجه بعد الإنذار لقوى الإنسان الأساسية : العقلية والوجدانية والإرادية ، ليتوافق معها جميعاً ، دون أن يغفل واحدة منها ، أو يتناقض معها ودون أن يفرق بين الناس تفريقاً طبقياً فى مسافة للعقيدة ، ما بين عقليين ووجدانيين أو خاصة وعامة ، أوعلماء وجمهور ، فكل هذه المستويات سواء فى حاجتها إلى تلقى هذا المنهج .

ومن هنا يصبح التسليم الذى يعنيه الإسلام ليس هو التسليم لطبقة عقلية من الناس ولا لقوة عقلية فى النفس ، وإنما هو أن تسلم قوى النفس الثلاث الإراده والعقل والوجدان — للقوة الأعلى أو للمرجع الأعلى ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

---

(١) ملتقى السبيل ص ٣٨ .

(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ١٩٩ .

(قل أى شيء أكبر شهادة . . ؟)

لم يقل شهادة أفلاطون ، وأرسطو ، ولا شهادة القلب ، أو العقل ، وإنما (قل الله شهيد بيني وبينكم) . وهذه الآية تتحدث عن الله لا باعتباره خالقاً وأصلا للوجود فحسب ، ولكنها تتحدث عنه كأصل للمعرفة الإنسانية .

فلتسلم القوى النفسية جميعاً لخالقها ولتسلم الطبقات الفكرية جميعاً لله . .

وليس أدل على ذلك من أن الإسفاف أو الانحراف جاء من العقل كما جاء من القلب وجاء من الفلاسفة كما جاء من العامة . .

ان التجسيم والتشبيه كان له مدارسه ومذاهبه واعلامه الذين يرتفعون — من حيث البحث والاستناد إلى المناهج العقلية — إلى أعلى المستويات الفلسفية .

كما أنه من ناحية التنزيه لم نجد فى الفلسفة عقلا أعلى من عقل أرسطو ولا تنزيهاً أشد تطرفاً من تنزيهه وقد كان الإله عنده لا يساوى إلا أنه (موجود يعلم نفسه) ، وكل من عداه من الموجودات فله من العلم والعمل ما ليس له .

ومن هنا يسقط المبرر الذى يجعل الفلاسفة يفرقون بين العامة والخاصة ، أو بين الجمهور والعلماء .

ويصبح المنهج الإسلامى القائم على الضرورة العملية ، هو أسلم المناهج وأبقاها وهو منهج اللطيف الخبير : الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويخاطب الإنسانية فى جميع العصور وعلى جميع المستويات .

ويحمل عنها إصر المناهج البشرية وأوزارها الثقال . . .

ومن هنا جاء خطاب القرآن الكريم للإنسان :

(ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسراً فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب . .) (وللحديث بقية)

قراءة فى كتاب

الثقافة العربيّة أسبق من ثقافة اليونان والعبريين

تأليف : عباس محمود العقاد

السيد حسن قرون

من المعروف لدينا وللعالم المتحضر أن علماء العالم الإسلامى فى العصور الوسطى نقلوا تراث الإنسانية من الدول التى فتحها العرب ومن غيرهما ولاسيما اليونان والفرس ثم درسوه وتعمقوا فيه وأخرجوه جديداً مبتكراً كان المشعل الذى أضاء سبل المعرفة والحياة لنهضة أوربا الحديثة. ولكن عباس العقاد فى كتابه « الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين » نقلنا إلى العصور القديمة وأتانا بمفاجأة لم تكن فى الحسبان ، فقد أثبت بالحجة والبرهان سبق الأمة العربية غيرها فى مجال الثقافة والدين على خلاف ما تعود الناس أن يقولوه ويكرروه وهو سبق اليونان فى العلم والفلسفة وسبق العبريين فى الثقافة الدينية .

يقول فى المقدمة : « حقيقة مفاجئة أقدم الثقافات الثلاث » وهذه الثقافات الثلاث هى : العربية واليونانية والعبرانية ، أقدمها فى التاريخ هى الثقافة العربية قبل أن تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور فى العصور الحديثة . . . إلا أن الإشاعة الموهومة كثيراً ما تطغى على الحقيقية ولا سيما الإشاعة التى تحتمى بالصولة الحاضرة وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة ؛ وقد أشاع الأوربيون فى عصر ثقافتهم وصولتهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم إلى العلم والحكمة ، واختلط عليهم وعلى غيرهم قدم التوراة بالنسبة إلى الإنجيل والقرآن وقدم الإسرائيليين بالنسبة إلى المسيحيين والمسلمين فتوهموا أن العبرانيين سبقوا العرب إلى الدين والثقافة

الدينية وقد حمدت للعقاد موقفه فى علاج هذه الحقيقة ، فقد أوردها بروح العالم الذى يبحث عن كشف وجه الحق دون تمكن العاطفة القومية أو الوطنية منه ، أو التعصب لرأى دون الأخذ بالأدلة ووسائل المنطق ، فهو يعتمد على المراجع الأوربية قديمة وحديثة أكثر من اعتماده على المراجع العربية ، وهو يعتمد على التوراة وواقع الطبيعة أكثر من اعتماده على ما يدور فى كتبنا التى تبحث عن العبرية والناطقين بها .

ولست بمستطيع أن أقدم الكتاب كله فى ذلك المقال ولكنى أقدم لك قراءة ميسرة عنه ، وإن كان الكتاب نفسه صغير الحجم قليل الصفحات ؛ إذ تبلغ صفحاته ١٣٩ صفحة ، ولكنه على صغره يعطيك مادة علمية تنير لك طريقك إلى معرفة شىء لا غنى عنه ، وتدعوك إلى البحث فى هذا الشأن ، وهو أمر مرغوب فيه لكثرة الدعاوى التى تجعل منا أمة متخلفة قديمًا وحديثًا وأن عقلنا لا يصل إلى عقول الآريين من جهة ولا يصل إلى ما تركه العبريون من ثقافة دينية من جهة أخرى ، ومن ثم عنى العقاد بإماطة اللثام عن وجود أصحاب هذه الثقافات الثلاث وكان لزامًا عليه أن يتحدث عن العرب وعن أصلهم ومواطنهم فمن العرب ؟ ولم سموا بهذا الاسم ؟

حين كتب العقاد : من هم العرب ؟ جال فى ذهنى أن السؤال سهل والجواب أسهل منه ، فقد عرفنا فى دراستنا العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة ، وأن هذا المنحى لم يغب عن كتب السيرة والتاريخ والطبقات ، ولكن العقاد يهجم بك على ما يريد هكذا : وجد العرب فى ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم ، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها ، وتمضى على سنة التطور عصراً بعد عصر إلى أن تبلغ الطور الذى عرفناه منذ الدعوة الإسلامية ، وهذه هى القاعدة العامة فى تسمية الأمم وفى تطور اللغات ، فليس العرب بدعاً فيها بين أمم المشرق والمغرب ويؤكد كلامه بضرب الأمثلة . فالهند مثلا كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهرها بنهر « الهندوس » وقبل أن يطلق اسم هذا النهر على شبه الجزيرة كلها . الحبشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم ويقصدون بلاد الأحباش أى السكان المختلطين ، قبل أن يسميها اليونان باسم (أنيوبية) أى بلاد الوجوه المحترقة ، قبل أن يسميها العبرانيون باسم

بلاد (الكوشيين) لأنهم ينسبون أهلها إلى (كوش بن حام بن نوح) .

ويمضى فى التمثيل والتنظير ذاكرا (السكنداف) و (الإنجليز) إلى أن يتساءل عن اسم العرب بعد أن مضى عليهم أكثر من ألفى سنة وهم معروفون بهذا الاسم إلى اليوم .

هل أطلق عليهم اسم العرب لأنهم كانوا يسكنون موقع الغرب من أمة أخرى يحل فيها حرف العين محل حرف الغين كما يحدث فى بعض اللهجات ؟ هل أطلق عليهم هذا الاسم من العرابة بمعنى الجفاف أو الصحراء فى لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟ هل أطلق عليهم نسبة إلى يعرب بن قحطان أو نسبة إلى (عربة) كما يقول (ياقوت) ؟ إن مؤرخى العرب يختلفون فى ذلك كما يختلف غيرهم يقول ياقوت : إن كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب ، سموا عرباً باسم بلدهم (العربات) .

وما رأى الأوربيين ؟ عند قوم من أوربة أنهم سموا شرقيين ، وأن الاسم فى أصله كان يطلق على قبيلة عربية تسكن إلى الشرق من جبل (السراة) ولعلهم سموهم (سراتيين) نسبة إلى الجبل نفسه ، وتحرف الاسم بلغة الأوربيين إلى (سراسين) وانتقل من تساؤله عن الاسم إلى تساؤل عن السكان من أين جاءوا ؟ نفى أن يكونوا قد جاءوا من الحبشة أو من بلاد النهرين أو الشمال ؟ « فمن المألوف أن يحدث الجفاف والجدب فى البلاد الصحراوية ، فيرحل عنها أهلها ، ومن التاريخ الواقع أن هذا قد حدث فعلا غير مرة فى هجرة القبائل من جنوب الجزيرة وأواسطها إلى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم ، ولكنه لم يؤلف ولم يحدث قط أن ينعكس الأمر فترحل القبائل أفواجاً أفواجاً من من أرض الماء والرعى إلى أرض تتخللها الصحراء الواسعة . . . »

وبعد أن حدثنا عن السكان واسمهم أوصلنا إلى لسانهم ، وقد كان أشهر اللغات السامية وأشيعها فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ثلاثاً بين جنوب الجزيرة العربية وشرقها وغربها إلى الشمال وهى : اليمنية ، والآرامية ، والكنعانية ، وكلها نبتت فى الجنوب ، ثم سرَتْ شرقاً وشمالا وغـربـاً إلى فلسطين . ثم شاعت الآرامية وغلبت على سائر اللهجات ، وتفرعت منها النبطيـة التى اتفقت الروايات على

أنها أم لهجات الحجاز ، وصارت لغة عامة للكنعانيين والحمريين ولو كتبوا بالحروف النبطية أو حرف المسند ، فكان الراحلون والمقيمون يتخاطبون بها كما يتخاطب أبناء الأقاليم من القطر الواحد مع اختلاف اللهجات والألفاظ فى بعض المفردات . وقد عرف الآراميون تاريخياً بقيام دولتهم التى حكمت (بابل) ومنهم (حمورابى) صاحب التشريع المشهور (سنة ٤٦٠ ق م) حيث سادت الآرامية وادى النهرين وبادية الشام وأرض كنْعان وبلاد الأنباط ، تنسبهم التوراة إلى (آرام بن سام) وتارة إلى (ناحور) أخى (إبراهيم) وتشير إليهم رسائل (تل العمارنة) فى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد باسم (أخلام) أى أخلاف آرام المذكورين فى وثائق القرن الثانى عشر قبل الميلاد — كما يقول صاحب كتاب الأبجدية .

ويرى العقاد أن مؤرخى العرب كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعاً إلى (إرَم) ويسمونهم (الأرمان) كما جاء فى تاريخ سنى الملوك (لحمزة الأصفهانى) ويجوز أن يكون هؤلاء الأرمان هاجروا إلى وادى النهرين فى تاريخ مجهول قبل قيام دولتهم فى بابل . والمهم أن اللغة الآرامية غلبت جميع اللغات فى أزمان متطاولة حتى بعد سقوط دولتهم وغلبت على ألسنة العبريين ، واستدل بنماذج من التوراة . وجملة القول أن الثقافة الآرامية عربية فى لغتها ونسبتها إلى عنصرها ولا يمكن أن تنسب إلى أمة غير الأمة العربية فى عهودها الأولى ، فكل ما استفاده العالم من جانبها فهو فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية .

ويهتم العقاد بالأمم التى عاصرت العرب قبل ألفى سنة فينقل عن اليونان الأسماء التى ذكروها فى ذلك الحين مثل اسم سورية والسريان وفينيقية ، وقد أطلق اسم (فينيقية) على شاطىء فلسطين إلى الشمال والجنوب من مدينة (صور) التى اشتهر أبناؤها الملاحون عندهم باسم الفينيقيين ولكن فينيقية كما يدل عليها اسمها كانت لبلاد النخيل فى الإقليم كله من كلمة (فينقس) عندهم بمعنى النخلة . . . ويعطيك العقاد معرفة بأصل (الفينيقيين) فلبنان يرى بعضهم أنهم ليسوا عرباً فيقول : « ولا يخفى أن أرجح الأقوال عن أصل الفينيقيين الأقدمين أنهم نشئوا عند

الخليج العربى فى بلاد النخيل وتحولوا إلى فلسطين يوم كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيها من النخيل ، واسم مدينتهم (قرطاجة) التى بنوها بعد ارتحالهم من فلسطين إلى شاطىء البحر الأبيض قريب جداً فى أصله — من الكلمة الآرامية (قارة حداثة) أى القرية الحديثة ، وتحريفها إلى قرتاشة أو قرطاجة على ألسنة الرومان قريب جداً بعد إسقاط الحاء التى لا ينطق بها الغربيون ».

وإثبات هذا النسب مهم جداً فيما يهدف إليه من نقل الثقافة من العرب إلى اليونان .

الكتابة :

عنى العقاد بالتأريخ للكتابة تمهيداً لأخذ اليونان عن العرب (الأبجدية) فيذكر أن الآثار المحفوظة أثبتت أن المصريين الأقدمين تطوروا بالكتابة من رسم الصور إلى رسم المقاطع إلى رسم الحروف التى تسمى اليوم بالحروف الأبجدية ، وتسمى عند الأوربيين بحروف « الألف باء تاء » وقد تبينت رسوم بعض الحروف المصرية القديمة من ألواح سيناء ، وهى حلقة الاتصال بين الحروف الأولى وبين الحروف على أشكالها المتقاربة التى تطورت بعد ذلك فى مختلف اللغات . إلا أن الكتابة اتخذت مجالا واسعًا حين انتقلت من الكتابة الدينية إلى المعاملات التجارية التى كانت تمتد من الهند إلى حدود مصر ، ولم يكن من المصادفة المجهولة أن تظهر فى لغة العرب خطوط الحرف المسمارى وخطوط الحرف المسند وخطوط الحرف النبطى بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين فإن التجارة التى تحتاج إلى المعاملة الكتابية تجرى على خط المواصلات من خليج العرب إلى عدن إلى العقبة إلى ما جاورها من بلاد الأنباط والكنعانيين ، وهى على التوالى مواطن الخط المسمارى والخط المسند والخط النبطى وما تفرع عليه . وتجرى المواصلات على غير هذا الخط من طريق البادية بين وادى النهرين وشواطىء البحر المتوسط ، وقد استخدم العرب الجمل سفينة الصحراء كما استخدموا البحر ، ويؤيد العقاد كلامه بالنقل عن التوراة والمسعودى ، ومن الواضح أن صناعة السفن لم تكن عامة فى بلاد العرب وما جاورها عموم الملاحة على شواطئها فى البحرين المتوسط والأحمر . . . فكانت شواطىء فلسطين ولبنان أعمر الشواطىء الشرقية بأسباب الملاحة والملاحين ومراكز التجارة التى تصدر من البلاد أو ترد إليها من

خارجها ، وكانت هذه الشواطىء هى التى اشتهرت عند اليونان باسم «فينيقية» ونسبوا إليها كل ما استوردوه من بلاد العرب على طريقها ، وتواتر عندهم أنها البلاد التى تلقوا منها الحروف وعلم الكتابة .

تعلم اليونان الكتابة وأخذوا رسم الحروف من (قدموس) الفينيقى كما قالوا فى تواريخهم ورووا قبل ذلك فى أساطيرهم المتواترة مما يدل على قدم العهد باعتمادهم فى ثقـافتهم على المصادر الفينيقية

ولا يكتفى العقاد بالنظرة التاريخية بل يناقش الأمر مناقشة علمية فيطرحه على النحو التالى وأيًّا كان قول المؤرخين والرواة فمسألة الأبجدية من المسائل التى لا تحتاج إلى التاريخ والرواية ؛ لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب فالأبجدية عند اليونان تسمى (ألفا بيتا) وتبدأ بالألف والباء والتاء ، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظ العربى فى العصر الحاضر على وجه التقريب . وليس لأسماء الحروف معان مفهومة فى اللغة اليونانية ، ولكنها مفهومة المعنى فى لغتنا العربية العصرية ؛ فضلا على اللهجات العربية الغابرة .

وأقرب هذه الحروف إلى المعانى العربية الشائعة فى أيامنا حرف الباء من البيت ، وحرف الجيم من جمل ، وحرف العين من عين ، وحرف الفاء من فم ، وحرف الكاف من كف ، وحرف الميم من ماء وحرف الياء من يد ، وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى كما يرى فى شكل البيت ، وشكل رقبة الجمل ، وشكل العين ، وشكل الفم وغيرها من الأشكال ، وليس من اللازم أن يكون النقل دفعة واحدة ، ويرجح المؤرخون أن اليونان نقلوا حروفهم من البلاد العربية جميعًا ، ويرى من كتاب (خيرشوف) أن حرف الجيم واللام والسين أقرب إلى حروف المسند أى الحروف اليمنية فى الجنوب منها إلى الحروف الفينيقية أو حروف النبط فى الشمال ، وقد يعزى الاقتباس إلى رحلات الرواد من اليونان إلى اليمن السعيد ، وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقتباس فلا خلاف فى أمرين : أحدهما أن الأبجدية اليونانية منقولة عن أبجدية سبقتها ، وأن هذه الأبجدية السابقة هى الأبجدية العربية التى تدل

عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها ولابد من حقيقة أخرى تجىء تابعة لها وهى انتقال لوازم الحضارة مع انتقال الكتابة وما يلزمها مما يدخل فى الصناعة كما يذكر ذلك (هيرودوت) المؤرخ اليونانى والثابت بعد هذا كله من الواقع أن الحروف اليونانية القديمة كالحروف العربية ، وأنهم كانوا يكتبونها من اليمين إلى الشمال كما نكتب العربية اليوم. وأن النقوش وأسماء المواقع فى البلاد اليونانية ترجح وصول العرب بحضارتهم إلى تلك البلاد فى زمن قديم سابق على الأقل لشيوع أسماء (لاريسا) أى العريش و(عسكراً) أى العسكر ، و(فندس) أى الجبل العظيم . على أن اقتباس اليونان عن العرب يظهر لنا من الألفاظ التى تدل على أصل متشعب فى العربية أو تدل على نظام المعيشة الغالب على الأمة وطول العهد به فى موطنه ومستقره ؛ فالبرج فى اليونانية برجوس ومادة الباء والراء ومثيلتهما أصيلة فى الدلالة على الظهور والعلو كبرز وبرص وبرع وبرق ومعنى البروج والتبرج والأبراج شائع فى المادة العربية إلى كثير من أمثال هذه الكلمات التى لها مدلولات أخرى . يقول العقاد ، ونظير ما تقدم فى الدلالة على اقتباس اليونان دائماً من العرب فى أمثال هذه الألفاظ التى ترتبط بالمعاملات وشئون المعيشة أنهم حولوا أسماء أيام الأسبوع إلى الترتيب العددى أسوة بأسمائها العربيــة وغيروا منهــا اسم السبت والأحد بعد ظهور المسيحية . وهل كان اقتباسهم من المسيحية إلا إطراداً فى هــذه القاعدة وجرياً على هذا القياس ؟

ثم الفلسفة

ولم يختل القلم فى يد العقاد حين تعرض لفلسفة اليونان وصلتها بالشرق عامة وبالعرب خاصة ، فقد أرجعها إلى (طاليس) أبى الفلسفة اليونانية الذى عاش فى (ليديا) من بلاد آسيا الصغرى.

وتلقى معلوماته من قبلها فى مسائل الفلك ومسائل النظريات الكونية وأصول الخلق والحياة ، وكان تلميذاً للمصريين فى العلوم الرياضية كما يقول مؤرخوه ، ومما له معناه الظاهر فى نسبة المعارف التى استخدمها طاليس إلى مصادرها أنه كان معدوداً من « حكماء اليونان السبعة » وأن هؤلاء الحكماء كانوا أشبه بهيئة مستقلة لا تنقص عن هذا العدد ، ويضاف إليها بديل ممن يخرج منها إذا ثبت أنه أقحم نفسه على الهيئة

بسلطان الإمارة أو الرئاسة ، فإذا قيل ان الفلسفة ليست بالاستثناء فى شئون الثقافة التى نقلها اليونان عن الشرق فهو الواقع الذى تتفق عليه مصادر التاريخ ومراجع الفلسفة ، وإن كانت الفلسفة تطورت كثيراً بعد طاليس ونظرائه من الحكماء حتى أصبحت فى عصر أرسطو وتلاميذه جديرة بالانتساب إلى اليونان دون غيرهم من أمم الثقافة والحضارة فى الأزمنة البعيدة .

ولماذا نبغوا فيها حتى نسبت إليهم ؟ إنها نشأت فى بلاد لم تحكمها دولة عريقة يقوم بجانبها دولة من دول الكهانة كما حدث فى البلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة ، فقد قامت كهانات الهند وما بين النهرين ووادى النيل ، فانفرد الكهان بالمعرفة الغيبية ولم يأذنوا لغيرهم خارج المعبد فى بحث هذه المعرفة ودراسة الفلسفة التى تقوم على تحقيق الوجود لذاته وتحقيق صفات الموجودات العليا والموجودات المقدسة التى كانوا ينعتونها باسم الأرباب .

ولم تكن فى اليونان دولة متمكنة ولا كهانة ذات سيطرة على دولتها الصغيرة فانطلقوا يدرسون ويبحثون غير متحرجين لا حاسبين حساباً لأحد ، وعمدوا إلى العلوم التى استفادوها من الشرق فقالوا فيها ما يقوله كل باحث منطلق اللسان يتحدث بما يشاء كما يشاء . وحين عظم سلطان الدولة قتل سقراط وتشرد أفلاطون وقضى أرسطو بقية حياته فى عزلة وإهمال .

وينصف العقاد دول الحضارة الشرقية فيقول : ونحن لا نعلم آثار الشرقيين الأقدمين أنهم تركوا « فلسفة » تبحث فى أصول الوجود بغير صبغتها الكهنوتية ، ولكننا لا نستطيع من أجل ذلك أن نجزم بانقطاع تفكيرهم فى هذه البحوث ولا بقصورهم عن إدراك مداها ؛ لأنهم لم يتركوا لنا كذلك كتباً مفصلة عن علوم الفلك والرياضة والكيمياء التى لا شك فى اشتغالهم بها وتطبيقهم لها فى بناء الهياكل ونقش الجدران وتحنيط الموتى ورصد الكواكب وسياسة الأنهار ، وكل ما نستطيع أن نجزم به أنهم لا يعلنون ما عرفوه ولا يدل كتمانهم على جهلهم إياه : فلليونان فضل ترقية الفلسفة ، واتهام الشرق بالقصور فيها انحراف عن سنة الإنصاف وادعاء لا دليل عليه. ومع ذلك فاليونانيون تلاميذ أبديون للشرق ، وقد أفادهم موقعهم فوائد

محسوسة ولولا موقعهم القريب من شواطىء الشرق ماوصلوا إلى ماوصلوا إليه من ثقافة أطلقت لسان المحدثين الأوربيين بالفخر ، فموقع بلاد اليونان ينبئنا بالعلاقة التى توجد بينه وبين الحضارات الشرقية ، فلم تنقطع علاقته بالشرق منذ خمسة آلاف سنة على الأقل ، ولم تكن علاقته فى هذه العصور بالشرق إلا علاقة التلمذة المتتابعة على الثقافات المتتابعة فيه ، ولا سيما الثقافة الروحية وثقافة النظرة الكونية العامة ، وتأتى بعدها ثقافة المعيشة المستمدة من الصناعة وعروض التجارة . ويمضى العقاد : ونحن نسمع اليوم كثيراً عن المناظرة بين الجنس الآرى والجنس السامى وعن مزايا كل من الجنسين فى التفكير ومبادىء الأخلاق وعن اقتدار كل منهما على إنشاء الثقافة وحفظ الحضارة وتقويم القيم الاجتماعية والنفسية ، ويدور هذا البحث كله أحياناً على مزايا اليونان فى طلب المعرفة لأنهم آريون وأوربيون ، مكانهم من ثقافة أوربة الحديثة مكان الرواد الأسبقين والباكورة التى تدل على الشجرة وعلى ما تحمله من ثمارها فى كل أوان ، فإذا ابتدأنا المسألة من بداءتها الأولى ، فالآرية نفسها صفة لم يكسبها اليونان من غير الشرق ولم تظهر فيهم مزية من مزاياها بغير « العلاقة » التى اتصلت بينهم وبينه بعد انفصالهم عنه فى زمان الهجرة الآرية ، فقد يكون اليونان آريين قدموا مع السلالة الكبرى من أواسط آسيا إلى أوربة الشرقية والوسطى ، وقد يكونون سكاناً أصلاء فى أوطانهم تغلب عليهم الآريون المهاجرون وصبغوهم بصبغتهم ، فهم على الحالين منسوبون إلى الشرق فى ثقافتهم ، ونسبتهم هذه هى سر امتيازهم على إخوانهم الآريين الذين ذهبوا فى الهجرة إلى أواسط أوربة وما وراءها ، وهؤلاء لا ثقافة تنسب إليهم ولا حضارة تعرف بهم بل كانوا همجاً لم تهذبهم ثقافة لأنهم بعدوا عن مواطن الثقافة وهو الشرق ، فليست الآرية إذن هى سر الامتياز ، وإنما الصلة بالشرق والتلمذة عليه ميزهم بها موقعهم الجغرافى فرجحهم على سكان المواقع النائية من إخوانهم الآريين ، ففى مراحل اليونان الثلاثة كانوا تلاميذ للشرق ، فى المرحلة الأولى قدم آباؤهم الأولون من القارة الآسيوية بعقائدهم الروحية كما أخذوها من منبعها ، ويكفى منها ذكر اسم الإله عندهم (ذيوس) وهو من الهندية القديمة ، وذكر أبى

الأرباب عندهم مركب اسمه من كلمتين بتلك اللغة هما (داوس باتر) أى أبى الأرباب (جوبيتير) . . . . .

والمرحلة الثانية مرحلة الكتابة والصناعة ترجع إلى الشرق والثقافة العربية سواء جاءتهم من هجرة (قدموس) وزمرته الفينيقية ، أو من هجرة تماثلها فى مصدرها ؛ فإنها من ثمرات الموقع الجغرافى الذى قربهم من أسباب التلمذة على الشرق المجاور لهم والاستفادة من حركات شعوبه .

وتأتى المرحلة الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح ، فليس دخـــول اليونان فى المسيحية إلا مرحلة فى السبيل المطروق من مراحل التلمذة على الثقافة الشرقية : أدبية أو صناعية أوروحية . ويشير العقاد إلى الفتوح العثمانية التى حملت معها القرآن إلى اليونان وأوربة ويقرر أنه لولا اشتداد شيوخ الإسلام فى فتاواهم الصريحة التى حرموا بها على السلاطين إكراه أهل الذمة على الدين لدخلوا فى حومة الثقافة الإسلامية واتخذوا الإسلام دينا .

وهذا هو حكم الموقع الجغرافى إلى جانب حكم التاريخ وحكم الآثار الباقية .

الثقافة العبرية

القضية هنا أيسر من سابقتها ، وقد جلا الحقيقة وهو سبق الثقافة العربية على الثقافة اليونانية ، فليقدم فى ثقة وفى يديه البرهان الناصع على سبق العرب للعبريين ؛ لأن السند القريب هنا مستمد من أسفار التوراة ، ومن أحوال المعيشة التى لا مجال للخلاف عليها ونبدأ بتحقيق أصل العبريين الذين سموا باليهود وبإسرائيل أيضاً وأطوار العلاقة بينهم وبين الأمة العربية إلى ما بعد ظهور الأنبياء والرسل فى بنى إسرائيل فمن العبريون ؟ وما أوثق الأقوال فى نشأتهم الأولى قبل أيام إبراهيم عليه السلام ؟ الجواب : إن أوثق الأقوال عن نشأة العبريين منذ أربعين قرناً أنهم « قبيلة بدوية صغيرة » عاشت زمناً فى جنوب الجزيرة العربية إلى الشرق ، وبقيت فيه على حالة بين الإقامة والترحل إلى مسافات قريبة حتى انتقلت — مع ملازمتها الشاطىء — إلى جنوب وادى النهرين ودليل العقاد على تلك النشأة « الدابة » التى كانت تعتمد عليها القبيلة فى الرحلة وحمل الأثقال وهى « الحمار » فهذا الحيوان كان يوجد فى حال الوحشية على مقربة من السهول الرملية فى جزيرة العرب ، ويصل أحياناً فى قطعانه المجفلة من السباع إلى أرض حوران ، ويظهر أن العبريين استخدموا

هذا الحيوان وهو قريب من حالته الوحشية حين كان يميل بلونه إلى الاحمرار على الاقتراب من ألوان الرمال التى يعيش فيها ومن هنا اسم « الحمار » واسم « اليحمور » الذى يطلق على الحمار الوحشى فى اللغة العربية استؤنس عندهم وطالت عشرته لهم بعد طول التدجين والعناية « المدنية » بعد انتقالهم إلى جوار المدن فابيض لونه ، وصار الأبيض مركب الرؤساء والأثرياء ، وفى ذلك يقول سفر القضاة من إصحاحه الخامس مخاطباً أولئك الرؤساء : « قلبى نحو قضاة إسرائيل المنتدبين فى الشعب باركوا الرب أيها الراكبون الأتن الصحر الجالسون على «الطنافس » أى إناث الحمير المبيضة اللون .

واستخدام الحمار يدل على أحوالهم بجوار القبائل التى تستخدم الجمال للسفر إلى المسافات البعيدة ، ونقل الأحمـــال الثقيلة ونزول المراعى المنيعة التى تحتاج إلى قوة وكثرة ، فإنما يستخدم الحمار للمسافات القصيرة والأحمال الخفيفة ، ويسير الحمار فى غير المفاوز الرملية التى تسلكها الإبل ، ولا يبتعد وقتاً طويلا عن موارد الماء الميسرة بغير عناء وحماية . فالعبريون قوم ضعاف قليلو العدد فى نشأتهم مضطرون إلى الاكتفاء بالمعيشة التى تركها سادة الصحراء زهداً فيها وعلى ذلك فوقع نشأتهم لابد أن يكون قريباً إلى الشاطىء قريباً إلى الحاضرة ، يقيم فيه أناس لم يتفرغوا للبداوة فى جوف الصحراء ولم يتفرغوا للإقامة فى الحواضر العامرة ، ولكنهم عاشوا بين البادية والحاضرة يؤدون أعمالا للطرفين وهى فى الغالب أعمال وساطة وسمسرة هادئة لا تتطلب صداماً لا مع أهل الصحراء ولا مع أهل المدينـــة ، وهم فى الوساطة يعولون على الرضا والطلب ولايعولون على القهر والاغتصاب ، وفى هذه المعيشة « المتبدية المتحضرة » يكمن كل سر من أسرار تاريخهم من فجره إلى العصر الحاضر ، ويقرر العقاد هذه الحقيقة التى عرضتهم للمشكلات على توالى العصور ، فهم قبيلة لم تتطور وقد ظلت بين البادية والحاضرة قبيلة لم تستوف أطوار البادية ولم تتحول إلى أطوار الحضارة شعباً . مدنياً » يتمشى مع الحياة المدنية على سنة جميع الشعوب ، ولازمتها عادة المعيشة بالسمسرة والوساطة فلم تتقدم إلى آخر الشوط فى تثمير أعمال البدو ولا فى تثمير أعمـــال الحضر ، فهى فى حالة العزلة الاجتماعية وما يلازمها عند البدو من عزلة « العصبية » بالدم

والسلالة، ومشكلة العبريين قديماً وحديثاً هى هذه المشكلة . مشكلة « التحجر » على حالة القبيلة وحالة العصبية بالدم والسلالة . وعقيدتهم فى جوهرها هى عقيدة عصبية منعزلة تؤمن بإله تعبده لأنه إلهها ، وهو الإله الذى يرعاها ، لأنها شعبه الذى يحابيه بين الشعوب لغير سبب ولغير فضيلة فيه غير أنه شعبه المختار لديه »

وهذه العزلة تدفع إلى الاحتكاك ثم الاصطدام ، فلا بد من شقاق بين السمسار وصاحب المال ، ولأن المجتمعات قائمة على التعاون وموقفهم يدعو إلى الشك ثم إلى العداء .

ولم سمى العبريون بهذا الاسم ؟ وأنت بين أمرين : إما لأنهم ينسبون إلى (عابربن سام) وإما لأنهم ، عبروا نهر الفرات بعد رحلتهم إلى وادى النهرين ، ويستدل العقاد على التعليل الأخير بما جاء فى سفر يشوع ، يقول يشوع للشعب كله : « هكذا قال الرب إله إسرائيل : آباؤكم سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر ، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت إبراهيم أباكم من عبر النهر ، وسرت به كل أرض كنعان » .

إلا أنهم لضعفهم كانوا يلوذون فى كل موطن سكنوه بمن هو أقوى منهم من القبائل التى تلتقى بهم فى أصولهم ويحتمون بمصاهرتهامن أعدائهم ، ففى سفر التكوين أنهم انتسبوا إلى الأصل الآرامى حين أرسل إبراهيم عليه السلام رسوله لخطبة (رفقة) بنت بتوشيل الآرامى . فقال له : « إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى .. » وفعلوا ذلك حين نزلوا بأرض كنعان وجعلوا لغتهم لغة كنعانية ، وقال أشعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر إنه « فى ذلك اليوم يكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان » — حماية من كنعان وخمس مستعمرات — وهكذا عاشوا فى هجرات من جنوب الجزيرة العربية إلى جنوب العراق ثم عبروا الفرات إلى أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر وفى كل موطن لهم حماية من سكانه الأقوياء إلى أن استقروا فى أرض مصر المضيافة . يقول العقاد :

والعرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤماً « تقليدياً » بالأيام التى قضوها فى مصر ويحسبونها بلية البلايا ومحنة المحن من عهد الخليل إلى عهد النازية الهتلرية فى القرن العشرين ، وقد مرت بهم محنة السبى إلى وادى النهرين ولكنهم لا يتشاءمون

بها كما تشاءموا بالمقام فى مصر ، ولا يجعلون الخروج من بابل عيداً باقياً متجدداً كعيد الخروج من أرض وادى النيل .

أما الواقع المعروف بنتائجه الكثيرة فهو على نقيض ما قدروه وأوجبوه على أنفسهم من تقاليد « الحداد » وتقاليد الأعياد ؛ فلم يستفيدوا قط من هجرة فى تاريخهم كله كما استفادوا من هذه الهجرة المصرية ؛ لأنهم نعموا بالعيش الرغيد فى جوار النيل ، وتعلموا من آداب الحياة وشرائط الصحة ما زاد فى عددهم وزاد فى خبرتهم بتدبير أمورهم والدفاع عن أنفسهم ، فأصبحو يعدون بمئات الألوف ، ويحسنون حمل السلاح وتنظيم الزرع والحصاد . . . »

ولولا هذه الزيادة وهذا التعليم والتدريب ما استطاعوا أن يهزموا القبائل التى كانوا يهابونها ، وأن يستقروا فى أرض كنعان ويقيموا ملكاً بجانبه الهياكل من الحجارة بدلا من العرائس والخيام . « ومهما يكن من بلاء أصابهم بمصر فهو بلاء استحقوه واستحقوا أضعافه فى بلاد العالم شرقيه وغربيه » .

وكانوا فى ملكهم قبيلة متعصبة معزولة عن الأمم ، بل سبطاً معزولا عن سبط فى داخل القبيلة ، وظلوا يحصرون العصبية فى أضيق حدودها بين الأسباط فى القبيلة الواحدة ويتشددون فى حصر كل سبط بميراثه إلى أعقاب الأعقاب . ففى الإصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد أنه : « لا يتحول نصيب إسرائيل من سبط إلى سبط ، بل يلازم بنو إسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه ، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بنى إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكى يرث بنو إسرائيل كل سبط نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر ، بل يلازم كل واحد نصيبه كما أمر الرب موسى » فهل يجوز لنقاد التاريخ بعد هذا أن يتحدثوا عن « رسالة عالمية » يستفيدها العالم من هذه العصبية القبلية بعد تطور الأمم والشعوب وتطور العلاقات العالمية وتطور العقائد والآداب ؟ والعقاد عنده الجواب

العبرية والعالمية

كثير جداً يقال عن ثقافة دينية محصورة متحجرة فى قالب العصبية إنها « رسالة عالمية » أو انها تهدى البشرية إلى السلوك الحميد ومكارم الأخلاق ، ومن الفضول أن تنعقد المقارنة بينها

وبين حضارات الشرق فى وادى النيل وفى وادى النهرين وفى شبه الجزيرة العربية ، فيقال : إن تلك الحضارات جميعاً لم تحفل بمبادىء الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وان أربابها لا تغضب للواجب والحق كما غضب لهمـا رب العبريين : رب الصواعق والرعود . ولم يفصل العقاد الكلام عن الحضارات التى سبقت ظهور العبريين خالية من التعصب والانطواء ، واكتفى باستقصاء المدى المعروف الذى بلغته الدعوة العبرية من أيام الخليل إلى أيام السيد المسيح تصحيحاً للدعوى التى يدعيها المبشرون بما يسمونه « الرسالة العالمية » من قبل العبريين والرسالة العالمية تقتضى الفضيلة والتميز بها ولا تكون الفضيلة فضيلة إلا إذا عمت البشرية وارتضتها نمطاً للحياة والسلوك فأين الفضيلة العامة فى رسالة محدودة ؟ إنهم اكتفوا بأنهم شعب الله المختار من غير مزية .

ويبرهن العقاد على ذلك بما جاء فى التوراة مثل قول الإله — كما جاء فى سـفر التثنية : « أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » ويقول : كما جـاء فى سفر الخروج — « رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبـة » .

ويقول أنبياؤهم : « إنه شعب ثقيل الإثم ، وتارة : إنه شعب لا يفهم » ويتكرر شبيه هذا على لسان الأنبياء من وصفه بالضلالة والنفاق والقسوة وقلة الوفاء ، ولكن هذا الشعب يعلم — مع كل ذلك أن الله يختاره ؛ لأنه شعبه وعصبته ، وأنه كما جاء فى سفر التثنية : « ليس لأجل بركة يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة » ويناديه الإله محذراً من عبادة آلهة غيره فيقول كما جاء فى سفر الخروج : لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك ، إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى . . » نعم ، كما تسرى شريعة الثأر فى الجاهلية من الآباء إلى الأبناء ومن إخوة إلى إخوة ، ومن الجار إلى الجار ، ويجرى هذا النذير من الأسفار المنسوبة إلى موسى إلى الأسفار التى كتبها آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه العصبية جرتهم إلى الاثرة وإنـكار حقوق الإنسانية فى جميع الأمم ، أو على « الجوييم » كما يسمونها بمعنى الغرباء أو الدخلاء فهم أولياء الله وأحباؤه وليس لغيرهم مكان ، بل يفعلون ذلك مـع أنفسهم ، فيضيقون الدائرة

جيلا بعد جيل ، فأبناء إبراهيم دون العبريين جميعاً هم الصفوة ، ثم إسرائيل من أبناء إسحق دون الآخرين ، ثم انحصرت صفوتهم المختارة فى بنى هرون آل موسى الأقربين عليه السلام ، ثم فى أبناء داود عليه السلام بعد قيام المملكة ، وقيل من أجل ذلك إن المسيح المنتظر لا يكون من غير ذريته وورثة عرشه ، ويستمر العقاد فى سرد التعصب والبعد عن غيرهم ، وظلوا إلى عهد الرسولين : بطرس وبولس ينكرون على العبرى أن يتناول الطعام مع غير العبريين ، ويحتدمون غيظاً إذا قيل لهم : إن دعوة الهداية تتجه إلى الأمم كما تتجه إلى بنى إسرائيل ، فجاء فى الإصحاح الحادى عشر من أعمال الرسل أنهم خاصموا بطرس يوم صعد إلى أورشليم لأنه دخل بيوت غير المختونين وأكل مع أهلها ، وبعد أن أورد ما أورد من دلائل التعصب والضن بالهداية على غيرهم قال : والثقافة الدينية التى من هذا القبيل ليس من شأنها أن توحى إلى أصحابها برسالة عامة أو رسالة عالمية ، وإنما شأنها عندهم شأن الميراث يرثها الآباء عن الأبناء ، فلا ترى أحداً منهم يعنيه تبشير الناس بمذهبه، وهداية «الأجنبيين إلى ملته» . كما يعنيه أن يتألب ويتعصب مع أبناء عصبته على تباعد الديار .

يقول العقاد : وإذا تركنا جانب الثقافة الدينيـــة والتفتنا إلى جانب الثقافات الأدبية والفنية أو الثقافات الفلسفية والأخلاقية لم نجد عند القوم منذ كانوا نصيبـاً من الثقافات يفيدون بها العالم باختيارهم أو على الرغم منهم ، سواء فى طور البداوة أو طور المملكة أو طور الشتات فى أنحاء البلاد ، وقامت دولتهم وذهبت ولم تعقب بعدها أثراً من آثار الفكر أو الوجدان كتلك الآثار التى نعرفها للأمم القديمة ، أما فى دور الشتات فلم يكن لهم مجتمع تنسب إليه ثقافته ، فهم عالة على الثقافات فى كل موطن وكل دولة . . ويوجز العقاد كل ما قدمه فى قوله : ولنا أن نقول بالتعبير الشائع فى عصرنا : إن هؤلاء العبريين منذ بداوتهم إلى هذا القرن العشرين كانوا مستفيدين ولم يكونوا قط منتجين ، وإن محصولهم فى الثقافة العالمية محصول المستغل والوسيط ، وليس بمحصول المالك العامل الذى يعطى وينتج ما يعطيه .

وماذا عن الدين والنبوة ؟

يقول العقاد : فيما عدا احتكار النعمة الإلهية وعزلة العصبية فى أضيق حدودها لم يبدع العبريون شيئاً فى

ثقافة الدين ، وأخذوا كل ما أخذوه من حولهم مستفيدين غير متصرفين فى عقيدة من عقائده الكبرى إلا ما تصرفوا فيه بالخرافة والأحجية والطلسم والشعوذة والسحر على سذاجته الأولى بين القبائل البادية .... ويثبت أن كلمة « النبى » لم يعرفوها قبل اتصالهم بكنعان فى الزمن الذى ظهرت فيه النبوءات العربية مما ذكره القرآن ، ومما ذكروه هم عرضاً فى أسفار العهد القديم ، ولم تكن لهم لفظة تؤدى معناها قبل وفودهم على أرض كنعان ومحاورتهم للعرب المقيمين فى أرض . « مدين » فكانوا يسمون النبى بالرائى أو الناظر أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبى إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التوراة وهم : (ملكى صادق) و(أيوب) و (بلعام) و (شعيب) الذى يسمونه (يثرون) معلم موسى الكليم . ويرجح بعضهم أنه الخضر عليه السلام للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر فى مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما السلام فى تفسير القرآن الكريم .

ويستشهد العقاد بعلماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا إلى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب منهم الأستاذ (هولشر) والأستاذ (شميدت اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت فى اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين ، ولكن العقاد يقول لا داعى لظنون المستشرقين ، فإن وفرة الكلمات التى لا تلتبس بمعنى النبوة فى اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية تغنيها عن اتخاذ كلمة الرائى والنبى ، وتاريخ النبوات العربية التى وردت فى التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبى بدلا من كلمة الرائى والناظر ، وتلمذة موسى لنبى مدين مذكورة فى التوراة قبل سائر النبوات الإسرائيلية ، والمطالع على كتبهم المأثورة يتبين منها أنهم آمنوا بهذه النبوات جميعاً ، ومع ذلك ظلوا يخلطون بين مطالب السحر ومطالب الهداية ، ويدلل على اشتغال أنبيائهم بالتنجيم بأخبار (صموئيل) أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها . وقد نسبوا إلى يعقوب قيامه بهذه الصناعة ، فالنبوة الخاصة بالهداية لم تكن متمثلة فى أذهانهم ... وقد عبرت هذه الأطوار فى فهم النبوة شوطاً طويلا فى حياة القبائل العبرية وتتلمذوا فى كل مرحلة منها لأستاذ من هداة العرب نساكاً ورسلا مبعوثين

بالرسالة أو أنبياء غير مبعوثين بها. كما جاء فى التوراة وفى القرآن الكريم مما لم تذكره كتب بنى إسرائيل .

وهنا يدخل العقاد مدخلا واضحاً فيقرر أن الأنبيــاء الكبار : إبراهيم وموسى وداود يتعلمون مــن أنبياء العرب كيف ذلك ؟ عندما تحول إبراهيم عليه السلام من أرض النهرين إلى أرض كنعان التقى بالرجل الصالح (ملكى صادق) كما جاء فى سفر التكوين من التوراة فى إصحاحه الرابع عشر « وكان كاهناً لله العلى وباركه وقال : مبارك إبرام من الله العلى مالك السموات والأرض ، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك » وقد أعطاه إبراهيم العشر من كل شيء قرباً إلى الله .

ويقول الإنجيل فى رسالة العبرانيين : إن السيد المسيح صار على رتبة ملكى صادق رئيس كهنة إلى الأبد . ويقول بعد ذلك فى الإصحاح السابع عن ملكى صادق : « إنه لابداءة أيام له ولانهاية حياة بل هو مشبه بابن الله . هذا يبقى كاهناً إلى الأبد . ثم انظروا ما أعظم هذا الذى أعطاه إبراهيم رئيس الآباء » ويعلق فيقول : فالتوراة والإنجيل معاً يصفان الكاهن الكنعانى بصفة الرئاسة الدينية وصفة الخلود الذى لا يحده الزمان ، ويرفعانه إلى المنزلة التى يتلقى منها إبراهيم بركة الإله العلى إله السموات والأرض ، ولا يكون ذلك لإنسان تعلم من إبراهيم ديناً لم يكن يعرفه ، وإنما يكون أستاذاً يتعلم منه إبراهيم . وموسى عليه السلام صاحب التوراة والشريعة والقيادة الظافرة من نبى (مدين) العربى كثيراً حين رجع إلى مصر وحين قدم شعيب القرابين اجتمع بنو إسرائيل بموسى ليعظهم ويفصل بينهم فى القضايا فنصحه نبى مدين بأن هذا لايطاق وهو مجهد لشعب إسرائيل ، وأمره بتعيين من يقوم بتنفيذ الشريعة والعظات . و « اختار موسى ذوى قدرة من جميع إسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات فكانوا يقضون للشعب كل حين » .

ومعنى هذا أن شعيباً تقدم موسى إلى عقيدته الإلهية وعلمه تبليغ الشريعة وتنظيم القضاء فى قومه ، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبى العربى ولم يكونوا معلمين . ويذكر أنهم فى أيام موسى أيضاً كانوا يحتكمون إلى نبى من العرب يقيم على نهر الفرات يسمونه (بلعام) ويظن بعضهم أنه مرادف لاسم لقمان ، ويقول سفر العدد إنه حكم للعبريين على (الموآبيين) وأيد نبوءات يعقوب .

وتحدث العقاد عن داود عليه السلام فنقل عن مؤرخى الغرب فى حديثهم عن آثار إخناتون أن المشابهة قريبة جداً بين مزاميره وصلوات ذلك الملك الذى تقدم بالدعوة إلى التوحيد فى مصر القديمة ، ومثل بنموذجين أحدهما من مزامير داود والآخر من صلوات إخناتون ، وفى ظنى أن الحديث عن المزامير يقصد به العقاد مطلق الأخذ لا أن إخناتون ليس نبيًّا من العرب أو من مصر ، وأن للجوار تأثيراً على العبريين ، ولذلك ساق العقاد أحاديث متصلة عن أنبياء العرب الذين ذكروا فى التوراة تزكية لهم ، وإن تركوا لعدم الاستقصاء وجاءوا فى القرآن كهود وصالح وذى الكفل ، ولا بد أن يكون لهم تأثير فى العبريين ، فمن قبل موسى كان النبى العربى (أيوب) فى أرض تيماء يدين بالتوحيد وينكر عبادة الكواكب والأوثان ويدعو إلى المساواة بين الحر والعبد قائلا متسائلا : أليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا فى الرحم ؟ والشراح ومؤرخو العهد القديم متفقون على سبقه إلى نزاهة التوحيد ، وتفضيل كتابه فى ذلك المعنى على كتب الأنبياء أصحاب الأسفار فى العهد القديم ، ومن هؤلاء الشراح إسرائيليون كالمستشرق (مرجليوث) الذى يقول فى كتابه عن العلاقات بين العرب والإسرائيليين : « إن أسلوب المتكلمين عن التوحيد فى هذا السفر أنزه من أسلوب الأنبياء الإسرائيليين الذين كانوا يضطربون فى بيئة وثنية ، خلافاً للمتكلمين فى سفر أيوب ، فإن البديل من الوحدانية ، عندهم هى الإلحاد والجحود » .

ويعلل العقاد تلمذة إسرائيل للعرب بأنهم درجوا من أرض الجنوب فى الجزيرة العربية ، وظلوا بعد ذلك زهاء ألف سنة يلتفتون إلى مواطنهم الأولى ويترقبون الحكمة منها ، فإبراهيم توجه إلى (جيرار) وموسى توجه إلى مدين وكان أرميا يهتف فى مراثيه سائلا : ألا حكمة بعـــد فى تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ وتيمان تقابل فى لغتنا الحديثة كلمة يمن بجميع معانيها . حتى بعد قيام المسيحية كان بولس الرسول يقول فى كتاب غلاطية : إنه ذاهب إلى بلاد العرب قبل مسيره إلى دمشق . أما تركيز القداسة فى أورشليم فهو شىء جديد طارئ بعد أيام موسى بزمن طويل ، ومما يدل على أنها لم تكن مقدسة أنه بعد ملك داود جاء ملك من ذرية إبراهيم اسمه (يهوامش) هدم

سورها وأخذ ودائع الذهب والفضة من خزائنها . وقال سفر الملوك: إنه مات فاضطجع مع آبائه ، أى مات مرضيا عنه فى اصطلاحهم المألوف .

إنما تحول القوم باتجاهم من الجنوب إلى بيت المقدس بعد ارتباط الهيكل بمصير بيت داود ، وتعليق أملهم فى الخلاص بعودة الملك إلى ذلك البيت فى آخر الزمن.

وأما قبل ذلك فقد كانوا يستقبلون الجنوب ويلوذون به ويتعلمون منه ، ولم يأخذ الجنوب منهم شيئاً من ثقافته الدينية فى أيام دولتهم ولا بعد أيامها ، ولن تكون الدعوة المحمدية التى ارتفعت من بلاد العرب فرعا من هذا الأصل الذى لم يتأصل قط فى الوحدانية ، فإن الدعوة إلى عبادة رب العالمين دين لا يلتقى بين العصبية المنعزلة فى طريق واحد ، وإن نبوة الداعى الذى لا يعرف من النبوة غير الهداية لطراز من النبوة لا يختلط بالتنجيم .

والذى لم يقله العقاد من شغف العبريين بالجنوب هو اتجاه أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وزوجته (هاجر) إلى الجنوب ، وقد اختار الله لهم مكة لحكمة ظهرت مآثرها بعد سنين وسنين .

اللغة والكتابة

يلح العقاد فى ذكر موطن العبريين الأول وهو جنوب الجزيرة العربية ورحلتهم التى كانت أشبه بنصف الدائرة ، فقدموا بالعراق جنوباً وشمالا ، وانحدروا إلى أرض كنعان بفلسطين ، ودخل إبراهيم عليه السلام مصر ثم رجع إلى أرض كنعان ثم اتجه إلى مكة ثم عاد من حيث أتى .

وكانت العبرية لهجة من اللهجات السامية ، وحين انتقلوا بها أخذت تضيق كلما بعدوا عن الموطن الأول ثم انعزلوا بها وبالديانة التى يعتنقونها ، ولم تتطور كما تطورت أخواتها ، ومع هذا التحجر استطاعت أن تعيش فى عصر المملكة برعاية الملوك والكهان وكانت ساذجة قليلة العدة ناقصة التصريف ويقول (فولتير) فى المعجم الفلسفى تحت كلمة آدم . « إنه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جداً وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافية والطبيعيات ، فلم يعرفوا شيئاً من تواريخ الأمم ولم يأخذوا فى التعلم إلا بعد اتصالهم بالإسكندرية حين شرعوا فى اقتباس المعرفة ، وكانت لغتهم البربرية مزيجاً من الفينيقية والكلدانية المشوهة ، وبلغ من فقرها

أنها لا تحتوى كثيراً من الأزمنة فى أفعالها » ويقول العقاد : أما الكتابة ، فهى من أبرز المسائل التى تمتحن بها قدرة العبريين فى تاريخهم القديم على الإنتاج والتصرف فى شئون الفكر والثقافة ، وهى كذلك من أبرز المسائل التى تمتحن بها بواعثهم الفكرية التى تدعو الأمة المنتجة إلى اختراع الوسيلة للإفضاء بما عندها لسائر الأمم من رسالات الإنسانية وأماناتها . ويطوف بنا فى تاريخهم ، يقيمون فى مصر ويرون المصريين يكتبون ولا يكون ذلك داعياً إلى سبقهم غيرهم فى الكتابة ودائماً يستفيدون ممن سبقهم ويتحجرون عليه ، وقد حفظ المزمور التاسع عشر أسماء الحروف التى احتوتها الأبجدية العبرية على عهد المملكة فكانت على هذا الترتيب (أبجد هوز . حطى . كلمن . سعفص . قرشت) اثنان وعشرون حرفاً . ومن آثار الاقتباس من النطق العربى أن حرف الغين لم يكن موجوداً بين حروف المزمور ، فلما وجد بعد اختلاطهم بمن ينطقون العربية أضافوه وسموه (غـَيْمــل) على وزن جـَيْمل ويلاحظ أن جيمل بمعنى جمل عندهم أما غيمل فلا معنى لها غير المحاكاة اللفظية ، وليس فى العبرية ثاء ولا ذال ولا ضاد ولا ظاء ، ولكنهم يقربون حروفهم منها بالتفخيم أو يكتفون بما يشابهها من حروفهم . وفى القرن العاشر الميلادى خافوا على ضياع العبرية فرجع الأحبار إلى النحو العربى يقيسون عليه ويستعيرون منه ، وكتبوا أجروميتهم الأولى باللغة العربية مقرونة فى بعض الأحيان بالترجمة العبرية ، ومن هنا تحدث العقاد عن تلمذتهم للعرب ، فذكر أنهم تلاميذ فى فلسفة اللاهوت ، فكان فلاسفتهم تلاميذ لمدرسة ابن رشد ، ومن هؤلاء الفلاسفة (ابن ميمون) الذى قال : « إن وصايا الناصرى ورجل إسماعيل يعنى محمداً عليه السلام . تهدى الإنسان إلى الكمال » وقد ثار عليه المتعصبون من قومـه وسموا كتابه « دلالة الحائرين » « بضلالة الحائرين »

وكانوا حيثما اشتركوا مع العرب فى ناحية من نواحى المعرفة والعقيدة تابعين مسبوقين ، ولم يكونوا قط سابقين لهم أو مرشدين .

أما الشعر فاللغة العبرانية خالية من الوزن والقافية وتستعيض منهما بالأسطر المتوازية والكلمات المترددة بين السطر

الأول وما يليه ، وقوام الشعر عندهم سطر يرددونه لأغراض ستة وهى : المجاز والاستطراد والتفسير والمبالغة والمقابلة والمقارنة ومن أمثلة الترديد لمقابلة المعنى الحقيقى بالمعنى المجازى قول المزامير : « من السيف أنقذ نفسى ، ومن يد الكلب أنقذ وحيدتى » ومن أمثلة الترديد للاستطراد قول أيوب : « هناك يكف المنافقون عن الفتنة ، وهناك يكف المتعبون فيستريحون » وهكذا ولا يقاس هذا بالعروض عند العرب ، فالشعر العربى كامل فى وزنه وقافيته وموسيقاه المتميزة التى تدل على تطور كبير ، وفن مستقل قائم بذاته .

وفى نهاية المطاف بين العقاد — مقصده من هذا الكتيب وهو تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية فى ميادين الثقافة وأنها تقتدى باليونان فى ثقافة الفكر ، وبالعبريين فى ثقافة العقيدة وقد بان لنا بما قدمه أنهم هم السابقون الذين أعطوا اليونان الثقافة الفكرية وكانوا لأنبياء بنى إسرائيل قدوة فى العبادة ومناهج الوجدان .

ولا شك أن الغربيين لا تطاوعهم نفوسهم فى إنصاف العرب ، فهم يقبلون أن يعترفوا بحضارات الهند والصين والفراعين ولكنهم من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون ينتقصون من شأن العرب ، لأن العرب طردوهم قديماً من الشرق وحصروهم فى جحورهم ودخلوا عليهم من أقطارهم ، واستولوا على شبه جزيرة أيبريا وحين تقاطروا فى الحروب الصليبية دحروهم بعد طول جهاد ، وفى كل العصور كان العرب منارة السلوك ومكارم الأخلاق . وإذا اختل الميزان أعواماً فتلك الأيام يداولها الله بين الناس . والأمل وطيد فى العودة إلى النسق الفريد وهو الجمع بين الدين والدنيا وإن الله مع المتقين .

السيد حسن قرون

الأزهر جامعاً وجامعة أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

٣

الأزهر فى عهد السلاطين المماليك :

ذكرنا فى المقال السابق كيف عطل صلاح الدين الأيوبى خطبة الجمعة من الجامع الأزهر بعد القضاء على الفاطميين سنة ٥٦٧هـ . وكيف أنشأ هو ومن تبعه من الأيوبيين ٢١ مدرسة بمثـــابة كليات فى القاهرة والفسطاط لتدريس العلوم الدينية على المذاهب السُّنية لتقوم مقام الأزهر . وكيف أعيدت خطبة الجمعة للجامع الأزهر سنة ٦٦٥ هـ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس .

واستعاد الأزهر مكان الصدارة على باقى المدارس . وســـاعد على ذلك ظرفان تاريخيان :

الأول : أن التتار زحفوا بجحافلهم من الشرق الأقصى متجهين إلى الغرب يسقطون الدول ويحطمون العروش . ويعيثون فى الأرض إفساداً وفى الناس قتلاً وإرهابا . حتى دمروا بغداد . وقضوا على الخلافة العباسية . وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ . (١٢٥٨م) . واستولوا على أغلب الشام . ولم يهزموا فى أى معركة ولم يُعق زحفهم أىُّ عائق. حتى قامت مصر بقيادة السلطان المظفر قطز فصدت زحفهم وهزمتهم فى عين جالوت بفلسطين سنة ٦٥٨هـ

ونقل الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إلى مصر بأن استقدم أحد أمراء بنى العباس وبايعه بالخلافة فى مصر . وعهد الخليفة إلى الظاهر بيبرس بالسلطنة وشؤون الدولة . وتلقب الخليفة باسم الحاكم بأمر الله العباسى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) .

وظلت الخلافة العباسية فى مصر حتى قضى عليها العثمانيون باستيلائهم على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م). ونادوا بأنفسهم خلفاء على المسلمين. وانتهت السلطنة من استانبول سنة ١٩٢٢م بقيام الجمهورية التركية. ثم ألغيت الخلافة سنة ١٩٢٤م.

وكانت إقامة الخلفاء العباسيين فى مصر فى الأغلب بالقرب من مقام السيدة نفيسة. وقبورهم للآن هناك خلف المشهد. ومن هنا كان اسم (حى الخليفة) للمنطقة هناك.

وكان نتيجة لهجوم التتار أن نزح كثير من علماء المسلمين فى الشرق إلى مصر التى كانت تتحمل كامل العبء فى الدفاع عن الإسلام. وعن هذه القيم الحضارية والإنسانية التى أرسى قواعدها الإسلام. ضد الغزاة التتار من ناحية. وضد من كانوا يسمون بالصليبيين من ناحية أخرى. وقامت مصر بدورها التاريخى فى هذا كاملا خير قيام. فقد صدت التتار باستمرار. وأجلت الصليبيين عن جميع ما احتلوه فى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين حسب الأسماء التى نعرفها الآن. وتم هذا فى عهد الظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون ثم ابنه الأشرف خليل بن قلاوون الذى فتح عكا واستولى على صيدا وصور وبيروت وأنطرسوس سنة ٦٩٠هـ وبذلك تطهر الساحل والشام منهم بعد أن لوثوها بالاحتلال منذ سنة ٤٩٠هـ.

والظرف التاريخى الثانى : أن المسلمين فى الأندلس كانوا يعانون محنة من ضغط الإفرنج عليهم، فنزح الكثيرون من علماء الغرب العربى إلى الشرق. وكانت القاهرة هى محط الرجال.

ولم يقف إنشاء المدارس فى عهد السلاطين المماليك الذى استمر بدولتهم : البحرية والبرجية ٢٧٥ سنة حتى دخول العثمانيين. فقد ذكر المقريزى ٤٣ مدرسة أنشئت فى عهدهم بخلاف الجوامع والمساجد والخوانك والأربطة والمارستانات (أى المستشفيات) العامة فهى فضلا عن علاج المرضى وصرف ما يلزم لهم من أدوية وأغذية كانت بمثابة كليات للطب نذكر منها المارستان المنصورى الباقى للآن بشارع المعز لدين الله بجهة النحاسين كمستشفى للرمد.

وكان للأزهر مركز الصدارة على

هذه المدارس العديدة . وكان خريجوه شيوخا لها . وكانت تدرس فيه كافة العلوم المعروفة وقتذاك . ففضلا عن علوم الدين بفروعها من أصـول وتفسير وحديث وفقه وغيرها . وفضلا عن علوم اللغة بفروعها من نحووصرف وأدب وبلاغة وغير ذلك . فقد كانت تدرس فيه الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وفلك وميقات وطبيعة وكيمياء . كذلك المنطق والتاريخ وتقويم البلدان وغيرها من العلوم .

وقد ذكرنا فى المقال السابق ما رواه عبداللطيف البغدادى عن تدريس الطب فى الأزهر .

والكثيرون ممن تفخر بهم المعارف الإسلامية وتعتز بهم وبأبحاثهم كانوا من علماء الأزهر أو طلابه . ونذكر منهم : العلامة ابن خلدون .

وهو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون (٧٣٢–٨٠٨هـ = ١٣٣١ – ١٤٠٥م) الفيلسوف العالم المؤرخ . ولد فى تونس وتقلب فى الوظائف فى دول بنى حفص وبنى عبدالواد وبنى الأحمر وبنى مرين فى تونس وتلمسان والأندلس والمغرب الأقصى . وفى سنة ٧٨٤ هـ نزح إلى القاهرة فقربه السلطان برقوق وولاه قضاء قضاة المالكية . ودرّس بالأزهر ولما هجم تيمورلنك على الشام خرج مع الناصر : فرج بن برقوق لمحاربته . ووقع فى أسر تيمورلنك . وأعجب به . وكان واسطة الصلح بين التتار والمسلمين . وتولى قضاء المالكية عدة مرات حتى توفى سنة ٨٠٨هـ بالقاهرة .

ولابن خلدون فى التاريخ (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) طبع فى القاهرة سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) فى سبعة مجلدات . بخلاف المقدمة . وقالت دائرة المعارف الإسلامية عن مقدمته المشهورة : (التى تتناول الكلام على كل فروع المعرفة والحضارة العربية : فستظل بلا شك أعظم مؤلفات ذلك العصر وأهمها من جهة العمق فى التفكير . والوضوح فى عرض المعلومات . والإصابة فى الحكم. ويظهر أنه لم يفقها كتاب مّا لأى مؤلف إسلامى) .

وقال ابن خلدون عن القاهرة عند قدومه لها سنة ٧٨٤هـ — وكانت القاهرة وقتذاك أكبر مدن العالم كله — : (فرأيت قاهرة الدنيا . وبستان العالم . وكرسى الملك . وإيوان الإسلام . تلوح :

القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الحوانك والمدارس بآفاقه . وتضىء البدور والكواكب فى عليائه . . . وختم حديثه عنها بقوله : ومن لم يرها لم يعرف عزة الإسلام) .

ونذكر ممن درسوا بالأزهر فى ذلك العهد: الحافظ العلامة ابن حجر العسقلانى وكان أيضاً خطيباً له .

وهو شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن محمد بن محمد بن على العسقلانى ولد بمصر القديمة (الفسطاط) سنة ٧٧٣ هـ . وتوفى سنة ٨٥٢ هـ . وذكره السيوطى فى (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٧) بين من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده . وقال عنه : (إمام الحفاظ فى زمانه . وانتهت إليه الرحلة فى الرئاسة والحديث . فلم يكن فى عصره حافظا سواه) . وقالت عنه دائرة المعارف الإسلامية (حجة مشهور ، ومؤرخ ، وفقيه شافعى) .

وفقد ابن حجر والديه وهو صغير . فنشأ فى كنف أحد التجار المسمى : زكى الدين الخروبى ، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين وانكب على الدراسة . ودرس على مشاهير عصره . مثل الفقه والحديث على سراج الدين البلقينى ، وابن جماعة . واللغة وفقهها على ابن هشام والفيروزابادى صاحب القاموس المحيط ، وكذلك باقى العلوم على شيوخ عصره .

ونود أن نذكر كلمة مختصرة عن بعض هذه الأسماء — :

فالخروبى : لقب لأُسرة من أثرياء التجار فى القرن الثامن الهجرى . من آثارها : مدرستان بالفسطاط ، ذكرهما المقريزى فى الخطط (ج ٢ ص ٣٦٨ وص ٣٦٩) أنشأ الأولى بدر الدين محمد المتوفى سنة ٧٦٢هـ . وكان من مدرسيها : سراج الدين البلقينى وسيأتى ذكره بإذن الله . وأنشأ الثانية تاج الدين محمد بن صلاح المتوفى سنة ٧٨٥هـ .

والبلقينى : اسم أُسرة على المذهب الشافعى نسبة إلى بلقينة من قرى مركز سمنود . تولى كثيرون منهم قضاء القضاة بمصر أولهم : سراج الدين عمر ابن رسلان وهو أُستاذ ابن حجر درس بمصر ولما تولى حموه ابن عقيل قضاء القضاة بدمشق عينه نائباً له . واشتغل بعد ذلك مفتياً بدار العدل . وقالت دائرة المعارف الإسلامية : إنه لم يرق إلى منصب قاضى ، بل شغل

منصباً أقل درجة وهو قاضى العسكر فضلا عن التدريس بعدة مدارس. على أنه تشرف بلقب **شيخ الإسلام** الذى كان فى صف قاضى القضاة أو أعلى منه وتوفى سنة ٨٠٥هـ .

ثم الثانى : ابنه بدر الدين محمد بن عمر تولى قضاء العسكر ، وتوفى فى حياة والده سنة ٧٩١هـ .

ثم الثالث : جلال الدين عبد الرحمن ابن عمر تولى قضاء القضاة حتى توفى سنة ٨٢٤هـ وكان صديقاً لابن حجر.

ثم الرابع : علم الدين صالح بن عمر تولى قضاء القضاة من سنة ٨٢٥ – ٨٦٨هـ حيث توفى . وهو أستـــاذ السيوطى والسخاوى فى الفقه .

ثم الخامس : بدر الدين بن محمد بن عبد الرحمن أى حفيد الثالث تولى قضاء القضاة سنة ٨٧١ هـ وعزل بعد شهور .

وابن جماعة: اسم لأفراد أسرة أصلاً من حماة . ويذكر المؤرخون أفرادها بهذا الاسم فقط مما يدعو إلى الخلط بينهم . واشتهر منهم الأول : بدر الدين محمـــد بن إبراهيم (٦٣٩ – ٧٣٣هـ) تولى قضاء بيت المقدس ثم قضاء القضاة بالقاهرة من ٧٢٠ – ٧٢٧هـ . وهو أستاذ ابن حجر . ثم الثانى : ابنه عز الدين عبد العزيز (٦٩٤ – ٧٦٧هـ) تولى قضاء القضاة بمصر والشام ثم اعتزل سنة ٧٦٥هـ وانقطع للتدريس . والثالث : برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم ابن بدر الدين – أى حفيد الأول (٧٢٥ – ٧٩٠هـ) ولد بالقاهرة وعين خطيباً ببيت المقدس ثم فى سنة ٧٧٣ هـ عين قاضى قضاة مصر ، ولكنه عاد لبيت المقدس بعد سنة . ثم عين ثانية قاضى قضاة مصر فى ٧٨١ – ٧٨٥ هـ . والرابع : محمد بن أبى بكر بن عبد العزيز – أى حفيد الثانى – ولد سنة ٧٥٩هـ وكان طبيباً ومدرساً للفلسفة فى القاهرة وتوفى بالطاعون سنة ٨١٩ هـ .

وقد ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ابن جماعة الأول بين فقهاء الشافعية ص ١٩٤ . والثانى بين حفاظ الحديث ص ١٦٥ .

نعود إلى ترجمة ابن حجر : فكان ابن حجر صديقاً لجلال الدين البلقينى الذى كان قاضى القضاة . فعينه نائباً له بعد أن رفض ابن حجر عدة مرات . ثم عُين ابن حجر مفتياً بدار العدل . وحضر سنة ٨١٥هـ تولية السلطان المؤيد شيخ : وهو الذى اختار له لقب أبى النصر .

وفى سنة ٨٢٧هـ عينه الأشرف برسباى

قاضى قضاة مصر جميعها . وعزل وأعيد لمنصبه عدة مرات آخرها بعد وفاة قاضى القضاة شمس الدين القاياتى سنة ٨٥٠هـ. ولم يمكث قليلا حتى عزل وخلفه صالح ابن عمر البلقينى . وانقطع ابن حجر للتأليف حتى مرض وتوفى إلى رحمة الله سنة ٨٥٢ هـ .

وكان ابن حجر مؤرخاً وشاعراً وبارعاً فى كثير من العلوم. ولكنه فاق فى علم الحديث ، وترك ثروة طائلة من المؤلفات تزيد عن المائة وخمسين مؤلفاً بعضها ضاع وبعضها لا يزال مخطوطاً .

ونذكر من كتبه التى طبعت : (فتح البارى فى شرح البخارى — مطبعة بولاق سنة ١٣٠٠هـ فى أربعة عشر جزءاً) (الإصابة فى تمييز الصحابة — القاهرة سنة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م وكستلانى سنة ١٨٥٦ ، ١٨٧٣م فى أربعة مجلدات) ، (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — حيدرأباد سنة ١٣٤٨هـ) و (تهذيب التهذيب — حيدرأباد ١٣٢٥هـ) ، (بلوغ المرام من أدلة الأحكام . القاهرة سنة ١٣٣٠هـ) .

وفى تشييع جنازة ابن حجر أمطرت السماء على النعش وهو قريب من المصلى فقال شاعر العصر الشهاب المنصورى :

قد بكت السحب على قاضى القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذى كان مشيداً بالحجر

وقال السيوطى — وسايره على مبارك : إنه لم يكن ذاك وقت مطر .

وابن حجر توفى فى ذى الحجة سنة ٨٥٢هـ وهو يوافق يناير/فبراير سنة ١٤٤٩م وهما شهرا مطر (حسن المحاضرة ج ١ ص١٦٧ ، الخطط التوفيقية ج٦ ص٣٧).

ونذكر أيضاً ممن درسوا بالأزهر فى ذلك العهد : الشيخ **عبد الوهاب الشعرانى** المنسوب له المسجد الحالى بميدان باب الشعرية — :

وهو العارف بالله الشيخ عبدالوهاب ابن أحمد الزغلى — أصل جدوده من سلاطين تلمسان (بجمهورية الجزائر الآن) وينتهى نسبه إلى محمد بن على ابن أبى طالب المعروف بابن الحنفية — وهو أخو الإمامين الحسن والحسين لأبيهما على بن أبى طالب ، وأمه من بنى حنيفة من سبى اليمامة بحروب الردّة. وولد الشيخ بقلقشندة من قرى القليوبية . ثم انتقلت به أمه إلى قرية ساقية

أبى شعرة من قرى المنوفية ، وهى بلدة أبيه ، ومن هنا جاءت نسبة الشعرانى .

وكان مولده سنة ٨٩٨ هـ (١٤٩٢م) وانتقل إلى القاهرة وعمره اثنتا عشر سنة . بعد وفاة والده بسنوات قليلة. فدرس بالأزهر ، ثم بالجامع الغمرى بشارع مرجوش ، ثم بمدرسة أم خوند بخط كافور الأخشيدى، ثم أنشأ زاويته محل الجامع الحالى .

وذاعت شهرته ، وعلا اسمه كفقيه عالم ، وصوفى له طريقته وأتباعه ومريدوه ، ونُسبت إليه كرامات ، وعرف قدره العلماء والحكام ، وزخرت زاويته بالطلاب والمريدين ، من فقراء الطريق ، فكان ينفق عليهم . وكان راتبه اليومى من الخبز : أردباً وثلث أردب من القمح ، ويختزن لهم كل عام عشرة قناطير من عسل النحل ، وعشرين قنطاراً من عسل القصب ، وأربعين أردباً من الفول ، وسبعة أرادب من الكشك ، ومثلها من الأرز ، ولا ينسى الترفيه عنهم فيختزن لهم أيضاً من أصناف النُّقْل من جوز ولوز وبندق وغيرها خمسة قناطير (الشعرانى للدكتور توفيق الطويل ، الخطط التوفيقية لعلى مبارك ج ١٤ ص ١٠٩) .

وبلغت مؤلفاته فى الفقه والتصوف أكثر من سبعين مؤلفا ، أشهرها (لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار والمعروف بالطبقات الكبرى) ، (الميزان الكبرى) ، (اليواقيت والجواهر) . وطبعت بعض مؤلفاته، ولا يزال الكثير منها مخطوطاً .

وتوفى سنة ٩٧٣ هـ . ودفن بزاويته المذكورة . وقبره بها للآن يزار .

ولا علاقة بين اسم الشعرانى وباب الشعرية. وإن تقاربت حروف اللفظين ؟ فالشعرية نسبة إلى طائفة من البربر يقال لهم: بنوالشعرية قدموا فى عهد الفاطميين ، وهم: مزاتة، وزيارة، وهوارة من أحلاف لواتة . **وباب الشعرية** كان فى السور الشمالى للقاهرة الذى مدّه قره قوش بأمر صلاح الدين الأيوبى لما أراد أن يدير سوراً حول القاهرة والقلعة والفسطاط . ولم يتم ذلك . ومد قره قوش السور الشمالى حتى باب البحر عند ميدان رمسيس الحالى . وقد سبق أن ذكرنا فى مقال سابق (من صفحات من تاريخ القاهرة) أنه كانت هناك الميناء النهرية للقاهرة ، وكان موقع باب الشعرية مقابل جامع العدوى الموجود للآن بأول سكة الفجالة المتفرعة من شارع بور سعيد (الخليج المصرى

سابقاً) . وهو يبعد عن ميدان باب الشعرية الحالى بحوالى ١٥٠ متراً .

ونذكر أيضاً من شيوخ الأزهر فى ذلك العهد : كمال الدين محمد بن موسى الدميرى (٧٥٠ – ٨٠٨ هـ = ١٣٤٩ – ١٤١٥م) من مواليد القاهرة على الأرجح وإن كان ينسب إلى دميرة قرية بقرب سمنود . فقد درّس بالأزهر الحديث والفقه والتفسير والفلسفة والأدب . ودرّس أيضاً بمكة داخل الكعبة الشريفة . وله مؤلفات عديدة فى هذه المواضيع . ولكنه اشتهر بكتابه العلمى (حياة الحيوان الكبرى – طبع بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٧٥ هـ فى مجلدين) .

فقد رتب فيه الحيوان على الحروف الهجائية . ذاكراً اسم الحيوان من الناحية اللغوية ووصفه وعاداته وما يروى عنه من القصص وأحكام الشريعة فيه على مختلف المذاهب . وما ورد فيه من الأمثال . والخواص الطبيعية للحيوان . وبهذا كان كتاباً جامعاً بين العلم والأدب والدين .

وللدميرى الفضل فى وضع أساس علم التكافل أو المشاركة بين الأحياء . الذى ينسبه الغربيون إلى جيته الفيلسوف الألمانى (١٧٤٩– ١٨٣٢م) أى بعد الدميرى بعدة قرون . (مقال للدكتور حسين فرج زين الدين نشر بدائرة معارف الشعب المجلد الثانى ص ٤٦٤ ، الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ١٠٩)

ونقل الغربيون على الدميرى مقدرين فضله . ونوّهت بذكره دائرة المعارف البريطانية . وذكره السيوطى بين قضاة الشافعية (حسن المحاضرة ج١ص ٢٠٢) وقال : اشتهرت عنه كرامات وإخبار بأمور مغيبات .

وفى المدارس التى أنشئت فى عهد السلاطين المماليك ثلاث مدارس نذكرها لأنها كانت ملاصقة للجامع الأزهر . ثم أدخلت فيما بعد ضمن مبانيه الحالية كما سيأتى خبره بإذن الله ؟

فأولى هذه المدارس هى **المدرسة الطيبرسية** وهى على يمين الداخل من الباب الغربى الكبير المطل على ميدان الأزهر الحالى (والمعروف بباب المزينين) واتجاه هذا الباب فى الواقع إلى الشمالى الغربى . ولكن نقول هذا للتخفيف ومسايرة للمؤرخين .

وقال المقريزى عن المدرسة الطيبرسية (الخطط ج٢ ص ٣٨٣) : إن عمارتها انتهت سنة ٧٠٩ هـ وإن منشئها تأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبدع زى وأحسن قالب وأبهج ترتيب

لما فيها من إتقان العمل وجودة الصناعة بحيث إنه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام . فإن جميعه على أشكال المحاريب . وقال على مبارك (الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١٨) إنها مربعة وتبلغ مساحتها ١٦٧,٧٦ متراً مربعاً. وفيها أربعة أعمدة من الرخام . ولها قبة عظيمة من الرخام الملون بها عمودان من حجر السماق ومنقوش بأعـلاها بالخط الجميل : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة . ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) اهـ وبها قبر منشئها وكانت لها شبابيك تطل على الجامع الأزهر لم يفتحها إلا بعد فتوى العلماء .

ومنشؤها هوطيبرس بن عبد الله الوزيرى كان نقيباً للجيش فى عهد السلطان المنصور لاجين . وقيل: إنه رأى مناماً للاجين قبل سلطنته : أنه سيلى الحكم . فوعده إن تحقق أن يرقيه. فلما تسلطن لاجين عينه نقيباً للجيش سنة ٦٩٧ هـ . وباشر وظيفته بعفة وأمانة . وظل بها — بعد لاجين فى السلطنة الثانية للناصر محمد ابن قلاوون ثم فى سلطنة المظفر بيبرس الجاشناكير ثم فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون — حتى توفى سنة ٧١٩هـ. ودفن فى مدرسته المذكورة .

والمنصور لاجين تولى السلطنة من ٦٩٦ — ٦٩٨هـ وبيبرس الجاشناكير تولى السلطنة تسعة شهور ٧٠٨/٧٠٩ . والجاشناكير كانت وظيفته قبل السلطنة . وهى إحدى الوظائف العالية فى الدولة . مركبة من كلمتين فارسيتين — جاشنا بمعنى الذوق وكير بمعنى المتعاطى — وهو الذى يتصدى لتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفاً أن يكون مسموماً .

وقيل: إن طيبرس بعد تمام مدرسته هذه أحضرت له كشوف حساب تكاليفها فاستدعى بطست ماء . وغسل فيها أوراق الحساب جميعها دون أن يطلع منها على شيء. وقال : شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه !

ومن آثاره أيضاً : جامع وخانكاه أنشأهما ببستان الخشاب . وهو أول من عمر به . ولا يزال للآن هناك شارع متفرع من شارع القصر العينى شمال مستشفى الكلب اسم شارع الطيبرسى حيث كان تقريباً موقع الجامع والخانكاه المذكورين . وبستان الخشاب كان جنوبى القصر العينى القديم وبالجزء الجنوبى من حى المنيرة. وكان مما انحسر عنه النيل عندما حوّل مجراه غرباً فى القرن السادس الهجرى ، وهناك الآن شارع

يتفرع شرقاً من شارع القصر العينى اسمه شارع بستان الخشاب .

وذكر المقريزى عن طيبرس فى موضع آخر أنه عمل قنطرة ليدخل من تحتها الماء من الخليج المصرى إلى بركة الفيل بالقرب من درب الجماميز . وأن هذه القنطرة كان اسمها المجنونة. وقال إن طيبرس هذا يعتريه الجنون . فقال أحد الشعراء :

ولقد عجبت من الطبرس وصحبه
وعقولهم بعقوده مفتونة
عقدوا عقوداً لا تصح لأنهم
عقدوا لمجنون على مجنونة

ونرى أن الشعر يدل على أن اسم المجنونة أقدم من طيبرس . كما أنه لايفهم من ترجمته هذه أنه كان مجنوناً .

والمدرسة الثانية التى ضمت فيما بعد مبانيها إلى الجامع الأزهر هى المدرسة الآقبغاوية. وهى على يسار الداخل للجامع الأزهر من الباب الغربى المذكور . أى مقابل المدرسة الطيبرسية . وهى نسبة إلى منشئها آقبغا عبد الواحد. وآقبغا معناها الفحل الأبيض، فآق معناها أبيض، وبغا معناها فحل بتقديم الصفة على الموصوف ، كالقاعدة عندهم . وعبد الواحد : اسم التاجر الذى باعه .

وذكر كتاب الأزهر وتطوره إصدار وزارة الأوقاف ص ٤٤ : أن بيبرس الجاشنكير وآقبغا عبد الواحد أنشآ مدرستين على مقربة من الأزهر ثم ألحقت المدرستان فيما بعد بالأزهر .

والصحيح أن المدرستين من إنشاء طيبرس وآقبغا عبد الواحد كما ذكرنا .

وكان مكان المدرسة الآقبغاوية دار عز الدين أيدمر الذى كان له الفضل فى إعادة الخطبة والمكانة للجامع الأزهر فى عهد الظاهر بيبرس كما سبق ذكره .

وكان آقبغا مقربا إلى الناصر محمد بن قلاوون . وقيل : إنه كان أخا زوجته . فجعله استدّار . وهى إحدى الوظائف الكبرى . وهى فارسية مركبة من استذ بمعنى الأخذ، ودار بمعنى ممسك ، وهو الذى يتولى قبض مال السلطان وتمثيل أوامره فيه. وخطأ القلقشندى من يقول : إنها من أستاذ بمعنى السيد أو الكبير (صبح الأعشى ج٥ ص ٤٧٥) .

وكان آقبغا ظالما غشوماً أقرض ورثة عز الدين أيدمر ثم أعسفهم فى الطلب حتى اضطروا إلى إعطائه هذه الدار فهدمها . وأخذ قطعة من سور الجامع الأصلى ليساوى الطيبرسية . وبنى المدرسة سنة ٧٤٠هـ . وسخر العمال فى بنائها : بأن فرض عليهم

عمل يوم كل أسبوع بدون أجر، ونهب مواد البناء إما من مبانى أخرى وإما من اختلاسات من عمارات السلطان حيث كان مباشراً لها. فلما كمُلت أمّل محتسب القاهرة وقتذاك أنه سيعينه فى التدريس فيها فتقرب إليه بفرشها على حسابه. ولكنه لم يعينه!

والحسبة كانت وظيفة إسلامية يقوم متوليها بالمرور فى الأسواق لمراقبة المكاييل والموازين والأسعار وعدم الغش والآداب العامة، ويوقع العقوبات المناسبة فوراً بالضرب أو المصادرة أو التوبيخ أو غير ذلك. وهذه العقوبات تسمى بالتعزيز. ومعنى التعزير اللغوى اللوم. وهى دون الحدود المنصوص عليها، وقال القلقشندى نقلا عن الأحكام السلطانية للماوردى: إنها مشتقة من قولهم: حسبك يعنى اكفف. لأنه يكف عن الظلم. وفى القاموس المحيط: احتسب عليه أنكر، ومنها المحتسب.

وقال المقريزى عن الأقبغاوية: إن منارتها من حجارة منحوتة. وهى أول مئذنة عُملت بديار مصر بعد المنصورية (يعنى جامع ومدرسة المنصور قلاوون بشارع المعز لدين الله بجوار المارستان المنصورى) وقبل ذلك كانت المآذن تبنى بالآجر.

وقال: إنها مدرسة مظلمة ليس عليها من بهجة المدارس ولا أُنس بيوت العبادات شىء ألبتة.

وكان قصد آقبغا أن يدفن فى مدرسته هذه. ولكن عدالة القدر أبته عليه ذلك فصودرت أملاكه وأمواله. ونفى إلى الإسكندرية وقتل هناك بأمر الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٤ هـ.

وكانت الآقبغاوية عند إنشائها مدرسة وخانكاه. فقد جعل فيها درساً للشافعية. وآخر للحنفية. وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ. وطائفة من القراء يقرأون القرآن بشبابيكها. وفتح لها شبابيك على صحن الجامع.

ورممت هذه المدرسة فى عهد الخديوى إسماعيل. وبها الآن مكتبة الأزهر. وسيأتى ذكرها وذكر رواق الآقبغاوية بإذن الله.

وكان لآقبغا عبد الواحد بستان كبير حكّره مبانى وأملاكاً ذكره المقريزى ضمن الأحكار. وكان موقعه شرقى وغربى الخليج المصرى وجنوب غربى مسجد السيدة زينب. ويوجد الآن شارع متفرع من شارع الخليج (بور سعيد) أمام مطابع الهلال كان اسمه شارع آقبغا عبد الواحد.

وتغير أخيراً إلى اسم شارع عبد الرحمن شكرى .

والمدرسة الثالثة التى أدخلت ضمن مبانى الأزهر الحالية هى الجوهرية .

والمدرسة الجوهرية فى الجهة البحرية الشرقية من الجامع الأزهر . وهى نسبة إلى منشئها جوهر القنقبائى الطواشى الحبشى وقانقبائى نسبة إلى مالكه الأصلى قانقباى أحد المماليك الجراكسة . وتولى جوهر الخازندارية فى عهد الأشرف برسباى (حكم فى ٨٢٥ – ٨٤١هـ) فباشرها مباشرة حسنة . وتزاحمت الناس على بابه وصار يقضى حاجة من ينتمى إليه . وبعد وفاة الأشرف وخلع ابنه الطفل أضيفت إليه وظيفة الزمام دار فى عهد الظاهر جقمق (٨٤٢–٨٥٧) والزمام دار أصلها الزّنان دار . وهى وظيفة من يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير . وهى مركبة من لفظين أحدهما زَنان بمعنى النساء . ودار بمعنى ممسك . فيكون معناها الموكل بحفظ الحريم . إلا أن العامة وأيضاً الكثير من الخاصة . قد قلبوها إلى (زمام‌دار) ظناً أن الدار على معناها العربى والزمام بمعنى القائد (صبح الأعشى ج ٥ ص٤٦٠) .

وزادت مكانة جوهر . وجمع ثروة طائلة بعضها من طرق مريبة بيّنها السخاوى فى (الضوء اللامع) ولكنه : والله أعلم بسريرته . وقال : ومع ذلك كان مواظباً على الصلاة ويتصدق على فقراء الحرمين .

وتوفى جوهر سنة ٨٤٤ هـ . ودفن بمدرسته هذه . وكان الاعتقاد أن جوهر المدفون بهذا القبر هو جوهر الصقلى منشئ القاهرة والأزهر . حتى بيّن أحمد زكى باشا شيخ العروبة خطأ هذا الزعم . وأن قبر جوهر القائد مجهول للآن .

والسخاوى هو شمس الدين محمد ابن عبد الرحمن مؤرخ وفقيه ولد ومات بالقاهرة (٨٣١ – ٩٠٢ هـ) وكان ابن حجر العسقلانى وعلم الدين البلقينى من شيوخه فى الحديث والفقه . وبلغت مؤلفاته أكثر من ١٤٠ مؤلفاً . بعضها فى عدة أجزاء . نذكر منها : (الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع) ، (التبر المسبوك فى ذيل السلوك – يعنى كتاب السلوك للمقريزى) ، (الإعلان والتوبيخ لمن ذم التاريخ) ، (الذيل على قضاة مصر (لابن حجر) ، (التراجم والدرر فى ترجمة ابن حجر) وغيرها .

والمدرسة الجوهرية أرضها بالرخام الملون . وبها قبر منشئها . ولها شباك فى جدار الجامع الأزهر اعترض على فتحه القاضى بدر الدين محمود العينى — جد شهاب الدين أحمد العينى منشئ القصر العينى — وحمل على جوهر فى تاريخه بسبب هذا الشباك . ولها الآن باب من داخل الجامع .

والقاضى بدر الدين محمود العينى المذكور هو قاضى قضاة الحنفية أصله من عين تاب (بالجمهورية التركية الآن . واللقب نسبة إليها ولو أنها نسبة على غير القياس) تولى الحسبة بمصر سنة ٨٠١ ﻫ بدلا من المقريزى . ثم عزل وتبادلها عدة مرات مع المقريزى . وعين قاضى قضاة الحنفية من ٨٢٩—٨٣٣ﻫ. وعزل وأعيد فى سنة ٨٣٥—٨٤٢ﻫ . وأنشأ المدرسة العينية سنة ٨١٤ﻫ ولاتزال موجودة للآن بشارع التبليطة (الشيخ محمدعبده سابقاً) خلف الجامع الأزهر . وهى من المدارس الملحقة به وتوفى العينى سنة ٨٥٥ ﻫ . ودفن بمدرسته المذكورة. وعُرفت الجهة هناك بالعينية كما فى تاريخ الجبرتى . وكانت فى عهد المقريزى اسمها حارة كتامة . ولم يذكر المقريزى المدرسة العينية ضمن المدارس مع أنها أنشئت سنة ٨١٤ ﻫ والمقريزى توفى سنة ٨٤٥ﻫ. ربما للتنافس بينهما فى وظيفة الحسبة . وهى سقطة من المقريزى .

وللعينى مؤلفات عديدة نذكر منها (عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى — طبع الآستانة فى أحد عشر جزءاً) و (عقد الجمان فى أخبار الزمان — ثمانية أجزاء) ، (كشف اللثام فى السيرة النبوية لابن هشام) ، (شرح لجزء من سنن أبى داود — فى جزأين منه نسخة بخط المؤلف بدار الكتب المصرية) وغيرها .

وكان بجوار المدرسة الجوهرية : **زاوية العميان** . وبينهما طرقة . وقد أنشأ هذه الزاوية عثمان كتخدا — مملوك والد عبد الرحمن كتخدا صاحب العمائر الشهير ، والذى له الفضل الكبير : فى الإصلاحات الكبيرة فى مبانى وعمارة الأزهر كما سنذكر بإذن الله عن الأزهر فى عهد العثمانيين . ولعثمان كتخدا هذا أيضاً إصلاحات بالأزهر سيأتى ذكرها بإذن الله . كما أنه منشئ الجامع الكبير على ناصية شارعى الجمهورية وقصر النيل بالقرب من ميدان إبراهيم باشا والمعروف بجامع الكخيا .

وقال على مبارك عن زاوية العميان :

إنها تحتوى على أربعة أعمدة من الرخام ولها قبلة وميضأة وثلاثة عشر مرحاضاً وفوقها ثلاث أود للعميان . ولا يسكنها غيرهم . ولهم شيخ وجراية (مقرر من الخبز) تصرف عليهم .

وكان إنشاء زاوية العميان حوالى سنة١١٤٨ هـ (١٧٣٥م) . وقد أزيلت ومكانها الآن إدارة الجامعة الأزهرية .

الإصلاحات فى الجامع الأزهر فى عهد السلاطين المماليك

فى سنة٧٠٢هـ فى سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون حصلت زلزلة سقط بسببها عدة دور ومساجد فى الفسطاط والقاهرة منها الجامع الأزهر ، فتولى عمارته وترميمه الأمير سلار نائب السلطنة . ثم جدد سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) فى سلطنة الناصر محمد أيضاً .

وفى سنة ٧٦١هـ فى عهد الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون جدد أيضاً على يد الطواشى بشير الجمدار . والجمدار : هو الذى يباشر ملابس السلطان لفظ فارسى مركب من كلمتين : جاما بمعنى الثوب ، ودار بمعنى ممسك .

وفى هذه المرة كان التجديد شاملا . فقد كانت جدّت فى الجامع عدة مقاصير وضعت فيها صناديق وأمتعة ضيّقت الجامع فأمر بشير الجمدار بإزالة المقاصير وإخراج الأمتعة . ورمم جدرانه وسقوفه . وبيّضه وبلّطه . وجعل عند الباب القبلى سبيلا للماء العذب . وفوقه مكتبا لإقراء أيتام المسلمين . ورتب فيه درسا للفقهاء الحنفية يجلس مدرسهم لإلقائه فى الفقه الحنفى بالمحراب الكبير . ورتب مصحفاً وجعل له قارئاً . ورتب لفقراء المجاورين طعاماً يطبخ كل يوم. والمجاورون: هم فقراء الأزهر المقيمون فيه . وظل مؤذنو الجامع الأزهر يدعون للسلطان الناصر حسن عقب كل صلاة بعد حكمه بأكثر من مائة سنة .

وفى سنة ٧٨٤ هـ صدر مرسوم من الظاهر بوقوق . أول السلاطين البرجية : أن من مات من مجاورى الأزهر بدون وارث شرعى فتركته تؤول إلى المجاورين بالجامع . ونقش هذا على حجر كبير عند الباب الغربى الأصلى . ولا ننسى أن كثيراً من المجاورين كانوا من بلاد نائية من شتى أنحاء العالم الإسلامى .

وفى سنة ٨٠٠هـ فى سلطنة الظاهر برقوق أيضاً هدمت منارة الجامع وعملت منارة أخرى أطول منها . وعلقت عليها القناديل . واجتمع القراء والوعاظ وتلوْا ختمة قرآنية ودعوْا للسلطان .

وفى سنة ٨١٧هـ فى سلطنة المؤيد شيخ : ظهر ميل بهذه المئذنة . فهدمت وهدم الباب الغربى الأصلى وأعيد بناؤه بالحجر . وركبت المئذنة فوق عقده . ثم فى سنة ٨٢٧هـ هدمت فى عهد الأشرف برسباى .

وبلغ عدد الفقراء الملازمين الإقامة بالأزهر فى زمن المقريزى — أى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى — ٧٥٠ رجلا ما بين عجم وزيالعة (نسبة إلى زيلع بالصومال على خليج عدن) ومغاربة وأرياف مصر وغيرهم .

وقال المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٢٧٦) : (ولكل طائفة رواق يعرف بهم . فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه . والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه والحديث والتفسير والنحو . ومجالس الوعظ وحلق الذكر . فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأُنس بالله والارتياح والترويح للنفس ما لا يجده فى غيره . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى . وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات . ولا سيّما فى المواسم) اهـ .

وفى جمادى الأولى سنة ٨١٨هـ فى سلطنة المؤيد شيخ : تعرض المقيمون بالأزهر لمحنة . فقد تولى نظارته الأمير سودون . فأراد أن ينظم أحواله . ولكن أخطأ التوفيق . وتعسف فى الرأى والتنفيذ . فأمر بطرد المقيمين فيه . واعتدى على أمتعتهم فبددها وبعثرها . فحل بالفقراء ضرر كبير . وكان بعض الناس قد اعتادوا المبيت بالجامع . من تاجر وفقيه وجندى ومختلف الطبقات . بعضهم على سبيل البركة وبعضهم لعدم وجود مكان مبيت له . والآخرون يقصدون الترويح عن النفس خصوصاً فى ليالى الصيف وشهر رمضان . فيمتلىء صحنه ورواقاته بالكثيرين . فَبَغَتَهُم سودون ذات ليلة وقبض على بعضهم وضرب الباقين وطردهم . واستولى أعوانه وغوغاء العامة على أمتعتهم وفرشهم . وسلبوهم ما كان معهم من مال . وقال المقريزى ما معناه : إن الله عاجله بالانتقام واعتقل سودون فى رمضان من نفس العام.

وفى سلطنة الأشرف قايتباى المتوفى سنة ٩٠١ هـ جدد باب الجامع الأصلى . وعملت فى صحنه فسقية كبيرة معتبرة . كما أنشأ قايتباى منارة باقية للآن على يمين الداخل من الباب الأصلى . وهى

أعلى منارات الجامع وأعظمها . وفصل صحن الجامع عن المقصورة الأصلية بدرابزين من الخشب باقى للآن . وإن كان قد جدد على حالته الأصلية فى عهد عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢ م) .

ويوجد بمتحف الفن الإسلامى سقف سبيل به كتابة بالثلث تدل على أنه من عهد قايتباى . وكذلك لوح من الخشب من عهد قايتباى وثريا نحاس شغل سبك مخروطة الشكل . وزلعة قيشانى لها أربعة آذان . و ٥٣ قطعة قيشانى مختلفة كلها منقولة من الجامع الأزهر . وتحت أرقام على التوالى ٤٨٢ و ٦٩٠ و ٤٩٥ و ٧٦٤ و ١١٣١ – ١١٨٤ . وغير ذلك .

ورتب الظاهر قانصوه بن قانصوه (خُلع سنة ٩٠٤هـ) طعاماً للمجاورين فى شهر رمضان .

وفى عهد الأشرف قانصوه الغورى (فُقد سنة ٩٢٢هـ فى حرب العثمانيين فى معركة مرج دابق) زيد فى هذه المرتبات كما بُنيت المئذنة العظيمة ذات الرأسين على يمين مئذنة قايتباى خلف المدرسة الطيبرسية .

ودخل العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)

يتبع محمد كمال السيد

بين عالم . . وملك

قال عمرو : ويلك يا سليمان ، إن أمير المؤمنين يموت ، وأن كل ما تراه يفقد وإنك جيفة غداً بالفناء ، لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته ، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذ كنت تطوى عنه النصيحة وتنهى من ينصحه ، يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم . قال المنصور : فاصنع ماذا ؟ ادع لى أصحابك أولهم . قال : ادعهم أنت بعمل صالح تحدثه ، ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس ، واستعمل فى اليوم الواحد عمالا كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل أمراً عزلته ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لانية له فيه . .

الإسلام والسيف

(أنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية طريقة أخرى . فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار .. لندعها تكافح بأيديها وأرجلها وأظافرها) .

توماس كارليل

لقد تعرض توماس كارليل لأساليب الرسول فى نشر دعوته فقال :

كانت نية هذا النبى قبل عام سنة ٦٢٢ ميلادية أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة وقد بذل فى سبيل ذلك كل جهد جهيد ، ولكنه وجد الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته ودعوته وعدم الإصغاء إليها ، بل عمدوا إلى إسكاته بشتى الطرق من تهديد ووعيد واضطهاد حتى لا ينشر دعوته أو يصور رسالته :

وهذا ما دفعه إلى الدفاع عن نفسه والدفاع عن دعوته وكأن لسان حاله يقول : أما وقد أبت قريش إلا الحرب فلتنظروا إذن أى قوم نحن !

لقد أصاب هذا الرسول فى رأيه ، فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق والصدق وأبوا إلا التمادى فى الباطل ، فاستباحوا الحرمات ونهبوا الممتلكات ، وقتلوا الأنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق .

واستطرد توماس كارليل يرد على القائلين بأن هذا النبى نشر دينه بحد السيف فيقول :

أرى أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال .. ألم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم

السيف أحياناً ، وحسبكم ما فعله شالمان بقبائل السكسون . . وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان ، أم بأية طريقة أخرى ، فلندع الحقائق — تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار . . لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم أبداً .. ولن يهزم منها إلا ما يستحق أن يهزم . . ولا يفنى منها إلا ما يستحق الفناء .. فالحقائق فى حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة التى لا تحترم منها إلا القوى الصحيح .

فحبوب القمح عندما نأخذها إلى باطن الأرض ، وكثيراً ما تكون مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب ، فإذا ألقيتها وهى مختلطة بكل هذه الشوائب فى جوف الأرض العادلة البارة ، فإنها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقيا . أما الشوائب والقذى فإنها تبتلعه فى سكون وتدفنه فى باطنها دون أن تذكر عنه شيئاً . . وما هى إلا فترة حتى نرى القمح ناميا يهتز كأنه سبائك الذهب .

هكذا الطبيعة فى جميع شؤونها ، فهى حق لا باطل ، ولا تشترط فى الشىء إلا أن يكون صادقاً حرًّا ... فإذا كان كذلك حمته وحرسته وصانته وقوته وإذا كان غير ذلك تنكرت له وتركته بلا حماية وبلا صيانة .

لهذا نرى لكل شىء تحميه الطبيعة روحا من الحق والصدق ، أليس شأن حبوب القمح هذه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذا الوجود أو ستجىء إلى هذه الوجود ؟ !

فالحقائق تأتى إلى معترك الحياة ، ثم يجىء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها فتموت وتذهب . . نعم يموت جسم كل حقيقة ويذهب ، ولكن الروح تبقى أبداً ، كل ما هنالك أن الروح يتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف !

ويظل روح الحقيقة وجوهرها ينتقل من الأثواب والأبدان ، أى أن جوهر الحقيقة لا يموت .

الأمر المهم فى الموضوع ليس فى نوع الثوب الذى لبسه الروح ، إنما فى الروح ذاتها . . وهل هى حق ؟ وهل هى منبعثة من أعماق الطبيعة ، دون أن تهتم بنقاء الشىء أو عدم نقائها فالطبيعة عندما تحكم لا تقول أفيك شوائب وأكدار؟ . . إنما تقول أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا . . وكأنها تريد أن تقول بعبارة أخرى أفيك قمح ؟ فهى لا تهمها القشور والشوائب

فالطبيعة – ستبتلعها ولا يبقى إلا قمحاً صافيا !

لقد جاء هذا الرسول عن طريق الرفق والأناة والمنطق فأبوا إلا استرسالاً فى الطغيان والاستكبار ، وأبوا إلا ضلالا وفساداً ، فلا غرو إذن أن يتدخل السيف ليقول كلمته . ولهذا قضى محمد بقية عمره ، وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد ونضال . .

هذه هى كلمات (توماس كارليل) التى يرى فيها أن من حق الإسلام أن ينشر دينه بشتى الوسائل ، ولكنه نسى أن يقول : إنه عندما لجأ النبى وأتباعه إلى الفتح والغزو لنشر دين الله ، لم يكن ذلك مصحوباً باضطهاد أو تعذيب ، بل ترك أمر الدخول فى الدين الجديد إلى رغبة الناس أنفسهم . .

ولكى نسجل ذلك بأقلام كتاب الغرب أنفسهم تذكر الفقرة التالية التى كتبها « **الكونت هنرى دى كاسترى** » فى كتاب له بعنوان « الإسلام » حيث قال :

« لجأت شيعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التى سارت سير الصواعق إلى الشام وشمال إفريقيا وعبرت البحار إلا أنهم مع ذلك لم يتركوا أثراً للظلم والتعسف فى طريقهم ، فلم يقتلوا أُمة أبت الإسلام . . . وكانوا إذا التقوا بأُمة خيروها بين واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها » .

وليس هناك مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمداً أرسل حملة واحدة يحمل فيها أُمة بالقوة على اعتناق الإسلام . .

وليست هناك حادثة واحدة سأل النبى فيها إنسانا أن يؤمن به وسامه العذاب عندما رفض ذلك .

لم يحدث شىء من هذا قط ، بل على النقيض منه ، فقد عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم .

ومن جانب آخر لم تحمل حروب المسلمين طابع العنف والقسوة .

وفى هذا الصدد يعترف الكونت هنرى دى كاسترى ويقول :

« لا حرج فى أن ينشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة التى لم تترك وراءها أى أثر للعسف والظلم . لقد زحف المسلمون فى كل اتجاه ولكنهم لم يقتلوا أمة أبت الإسلام .

ولو قارنا بين إغارة المتبربرين وبين إغارة المسلمين التى تلتها لوجدنا أن

الثانية أخف ضرراً وأكثر تسامحاً . فكان كلما التقى المسلمون بأُمة خيروها بين واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها . هكذا كانت الأوامر التى سار عليها المسلمون فى مطلع عصرهم يحسن هنا أن نقابل بين هذه الأمور وبين تعليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين حيث نجد « إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان ، فإن قبلته فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار إليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها فحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » . .

هذه هى كلمات الكونت دى كاسترى التى تدل فى وضوح وجلاء على أن المسلمين لم يخوضوا غمار المعارك مع أُمة إلا بعد أن يخيروها بين واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب .

وفى موضع آخر يتحدث الكونت عن تسامح المسلمين فيقول :

« لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يلحق بالمسيحيين أى ضرر ، ولكن عندما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين من غير إشفاق وأحرقوا اليهود بلا رحمة. لقد انتشر الإسلام فى جميع القارة الآسيوية بين القرن الثانى عشر والرابع عشر ، ولم ينشأ عنه عسف ولا اضطهاد ، حتى إن حكام المسلمين احترموا مدينة (بيناريس) .. لاعتبارها عند أهل الهند مدينة مقدسة ، مع أن أهلها كانوا وقتئذ من البراهمة .

من هذا يتحقق أن الدين الإسلامى لم يُنشر بالعنف والقوة ، بل الأقرب للصواب أن يقال : إن كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سبباً قويا فى انكماش دولتهم بعد ذلك .

ثم استطرد يقول :

« إن أكبر دليل على أن الإسلام قام على أكتاف البيان والحجة قبل أن يقوم على السيف بقاء الإسلام موطد الدعائم بالرغم من ضعف الدولة العربية الكبرى دون أن تعود أى أُمة إلى ما كانت عليه) . .

الـدين ينتصر .. والإلحـاد ينحسر

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

منذ أن أعلن داروين نظريته « النشوء والارتقاء » — أى فى مستهل النصف الثانى من القرن التاسع عشر — بدأ قطاع كبير من البشر يتشككون فى حقائق الدين وتعاليم الكنيسة ... وَوُجِدَ فى الناس عدد كبير استهواهم القول بأن الإنسان وليد المصادفة البحتة ، وأنكروا وجود الروح وحريتها فى أن تختار بين الخير والشر ، وكانت الحياة فى نظر هؤلاء شيئاً غامضاً يسير وفق نظام تتحكم فيه ثلاث قواعد متضاربة :

١ — التكاثر الجذرى للأحياء ..

٢ — النضال فيما بينها من أجل البقاء ..

٣ — والبقاء للأصلح منها ..

وهذه القوانين الثلاثة المتداخلة ، هى التى تقول نظرية داروين : إن تطور الكائن الحى قد سار على نهجها — وبطريقة معقدة — من صورته البدائية « البرتوبلازم » أى الخلية الواحدة حتى صار إنساناً مفكرا ..

ولم تكن هذه النظرية فى الحقيقة بداية لحركة التمرد والإلحاد التى عانت منها أوربا وتأثر بها سائر أنحاء العالم ردحا طويلا من الزمن .. ولكن هذه الحركة الإلحادية قد بدأت مع النهضة الفكرية فى أوربا . وكانت فى بدايتها ثورة على الإقطاع الأوربى الممثل فى النبلاء ورجال الدين ، والامتيازات التى كان يتمتع بها كل من هاتين الطبقتين ... وفى خضم النضال التحررى ضد الإقطاع الكنسى كان يصعب التفريق بين رجال الكنيسة — وهم الهدف الحقيقى — وبين التعاليم

الدينية نفسها ، لا سيما وأن رجال الدين كانوا قد أسبغوا على امتيازاتهم السياسية والمالية قداسة دينية . . . ومن أجل ذلك تأثر النفوذ الديني فى نفوس الأوربيين بالحملات التى كان يشنها أحرار المفكرين على النظام الكنسى . . .

فلما أُعْلِنَتْ نظرية داروين ، بدا للناس أنها تواجه بالنقض الصريح بعض نصوص الكتب المقدسة التى تتحدث عن قصة البشرية وكيفية خلق أول أبوين للإنسانية : آدم وحواء . . وكانت البراهين العلمية البارعة التى فُصِّلَتْ لتدعيم هذه النظرية تبدو وكأنها بضربات قاضية تصرع كثيراً من المفاهيم التى فسر بها رجال الدين نصوص الكتب السماوية . . .

ثم جاءت نظرية النسبية للعالم الطبيعى « أينشتاين » . . وتلا ذلك نضوج البحث العلمى فى المسائل الطبيعية والكونية ، وعرف أن التطور لم يكن بين الأحياء فحسب . . وإنما كان سمة واضحة فى الكون الأعظم جميعه . . فنباتات الأرض وجمادها بل الأرض برمتها ، وكذلك الشمس والقمر ، وسائر الكواكب وأقمار المجرات التى يتكون منها الكون برمته ، قد جرت وتجرى عليها سنن التغير والتبدل أيضاً وفق قوانين ونظم ثابتة لا يعتورها خمود أو خلل ...[1]

وفى مجال المادة كشفت الأبحاث العلمية عن وجود علاقة بين كتلة المادة والحركة والزمن ، وأنه بالإمكان تحويل المادة إلى طاقة ، وأن الذرة ليست أبسط صورة للمادة . وأن اختلاف العناصر إنما نشأ من اختلاف هيئة الذرة فى كل منها ، وأنه بالإمكان تعديل هيئة الذرة ، وبذلك يمكن تحويل عنصر ما إلى عنصر آخر ، وبالتالى قد يمكن بهذه الطريقة عينها استحداث عناصر جديدة غير معروفة لدينا أو لم يسبق وجودها قط » .. أو بمعنى أوضح يمكن للإنسان أن يكون إلى حد ما خالقا ..

وكان هذا النجاح العلمى الذى تلاحق بلا هوادة وما صاحبه من مخترعات وتقدم فى صناعة الآلة التى يسرت للإنسان تحقيق الكثير من مآربه فى أسرع وقت وبأقل جهد . . . قد ترتب عليها من غير شك تناقص شعوره بالاعتماد على الله . . . فإن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة وتسخيرها لأغراضه قد اطردت فى زيادتها . . حتى لقد أصبح من السهل عنده أن

---

(١) تلخيص عن : The Sceintific Encyclopedia. New Yourk U.S.A. 1955.

يظن أنه بالضغط على الزر المناسب يدور المحرك . فينجز له كل شيء . . والمهمة التى لم تصنع بعد الآلة الكفيلة بإنجازها فإن العقل البشرى كفيل باختراعها فيما بعد . . . ومن ثم فقد ساد نفوس الناس — سواء عن عمد أو بدون وعى — إيمان بالعقل والآلة . . تماماً كما كان أسلافنا يؤمنون بالسحر ، وبذلك فقدوا اهتمامهم بالأمور الروحية ، وازدادت الصعوبة فى توجيه أفكارهم إلى المسائل الدينية ، ففقدت القيم الخلقية التى تعتمد أساساً على روحانية الدين جل ما كان لها من أهمية وسلطان . . . ونشأت بالتالى قيم جديدة . . . ولكنها قامت على أساس مادى بحت . . .

وحتى هذا التقويم المادى الجديد لنظم المجتمع الحديث لم يستطع — فيما يبدو — أن يكتسب فى الوقت المناسب اقتناع الناس به ، وتقديرهم واحترامهم له فسادت بينهم حالة من الهوس الاجتماعى وأصيبوا بما يسميه علماء النفس بانفصام الشخصية . . فالتراث القديم من المعايير الأخلاقية لم تبق له سيادته وسلطانه على البشر الذين لم يستطيعوا أن يملأوا فراغ ما هجروه من مثلهم الروحية ومعاييرها ، بما يكفل تنظيم المجتمع الإنسانى فى صورته الجديدة ، والسير به فى طريق الصلاح والسلام والاستقرار . . .

وفى مثل هذه الحالة التى يسودها القلق الاجتماعى كان لا بد وأن تطل من مكانها (بملامحها البغيضة) الأسس الرئيسية لقانون الغاب : الحياة للأقوى . .

ولهذا كان التنافس المريع بين دول أوربا على استعمار القطاع المسالم من البشر فى أفريقيا وآسيا وأمريكا . . وإلى هذا التنافس يعزى إلى حد كبير — وفى خلال أقل من نصف قرن — اندلاع حربين عالميتين ، عانى من جرائهما العالم كله كثيراً من الويلات والدمار والبؤس . . .

ومن البدهى — فى كلتا الحربين أنه كان كل من الخصمين المتحاربين — وهما يمثلان قمة التقدم الحضارى والعلمى — يبذل كل طاقته للفوز وإحراز النصر . . . وجند كل معسكر الصفوة من علمائه فى كل فرع من فروع العلم لاختراع أفتك الأسلحة وأقواها وأسهل الوسائل للقضاء على العدو . . .

وانتهت الحرب العالمية الثانية بقنبلتين ذريتين ألقيتا على مركزين من أغزر المناطق اليابانية إنتاجاً فى الصناعة ،

وأكثرها كثافة فى السكان ، هما مدينتى هيروشيما وناجازاكى . . . وكان الدمار الهائل الفظيع الذى لم تشهد له الإنسانية مثيلا من قبل ... وسقط الشعب اليابانى — وهو من أصعب شعوب البشر شكيمة وأشدها مراسا — صريع الهزيمة بضربة قاضية .

وما أن انقشع الغبار الذرى لقنبلتى هيروشيما وناجازاكى حتى فتح العالم عينه ليرى هول ما وصل إليه ، وفظاعة النهاية التى يسير فى طريقها قطيع البشرية الضال . . .

ورأى الناس أن التقدم العلمى بدلا من أن يكون فى خدمة الإنسانية أصبح فى واقع الأمر عاملا فعالا من عوامل شقائها . . . واتضح لهم بشكل ملموس قاس أن نجاحهم فى استخدام الطاقة الذرية سيقربهم — إن ظلوا على ما هم عليه — من النهاية الحتمية المشئومة ... حتى إن المنتصرين أنفسهم لم تحجب نشوة النصر عن أعينهم فظاعة الكارثة التى أصابت الإنسانية برمتها . . . وأى كارثة أفظع من أن الطاقة الذرية التى يعتبر اكتشافها بداية عهد منح الإنسان قوة هائلة جبارة غير محدودة . فاستخدمها هذا الإنسان — أول ما استخدمها — فى القتل والتدمير والشر ، وليس من أجل الحياة والتعمير والخير .

وران على العالم صمت حائر أبله ، واشرأبت الأعناق وتطلعت الأبصار بحثاً عن ملجأ للنجاة ، وشعرت النفوس الحيرى — بإحساس غريزى — أن لا ملجأ لها ولا عاصم إلا الدين .. وانقشعت عن البصائر غشاوة الفتنة وراحت الأفهام تناقش وتتدبر زيف وضلال ما كانوا فيه .. ولعلك لا تجد فى العالم كله اليوم ذا رأى يعتد به إلاّ ويرى وجوب قصر استخدام طاقات العلم ومخترعاته على توفير السلام والخير للبشرية .

وكانت استجابة النفوس لهاتفها الغريزى — بأن لا نجاة من خطر سوء استخدام العلم إلا فى الدين — فورية وحاسمة[١] . . فقد استهل البلاغ العسكرى الذى أعلن استسلام اليابان وهزيمتها بشكر الله على عونه وتوفيقه بالنصر . . بينما كان البلاغ الذى أعلن هزيمة ألمانيا قبل شهور قليلة خالياً من أية إشارة لله ، مليئاً بعبارات العجرفة والزهو الأجوفين . .

والفرق هنا ليس تفاوتا فى عقليتين

---

(١) نص البلاغين فى (What After War By K.D. Sing - New Delhi).

صاغت كل منهما أحد البلاغيين ، ولكنه اختلاف خطير فى الظروف التى صيغ فيها كل منهما . . فقد استسلمت ألمانيا ولم تكن الطاقة — الذرية قد استخدمت بالفعل .

ومنذ ذلك الوقت استرد الدين كثيراً مما كان قد فقده من مواقع . . كما عادت لرجال الدين هيبتهم ،وأصبحت لكلمتهم قيمتها وقوتها . . كما يمكن أن يقال : إنه فى نفس الوقت قد فقد مسرح الإلحاد كثيراً من رواده .

ومنذ ذلك الوقت كان تزايد الشعور الدينى على هيئة مد جارف لا يمكن تجاهله ، حتى أن خصوم الدين العتاة ومن بينهم هؤلاء الذين بنوا كيانهم الاجتماعى والاقتصادى على أساس معاداته باعتبار أنه أفيون الشعوب ، قد اضطروا إلى التخلى عن تعصبهم الإلحادى ، وجعلوا إلى حد ما فى صميم نظامهم الحكومى كياناً للمناصب الدينية ، وقيادات معترفاً بها رسمياً لكل من الرعايا المسلمين والمسيحيين فى بلادهم ، واصطبغت — بشكل ملحوظ — كل من اتصالاتهم الخارجية ودعاياتهم الموجهة إلى العالم الخارجى بصيغة دينية . .

أما الأوساط العلمية وقد كانت فى البداية مركز العواصف الإلحادية التى اجتاحت العالم ، فإن قادتهم فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لا يتركون فرصة دون أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة تزعم النزعة الإلحادية ، بل إن كثيراً منهم لم يدخر وسعاً فى الدفاع بحماس عن الدين ومبادئه ، مستخدماً أساليب البرهنة العلمية على صحة هذه المبادئ الدينية .

وهنالك مجلدات ضخمة كتبها مؤلفون من كبار العلماء الطبيعيين مستخدمين العلم للبرهنة على وجود الله وصحة الحقائق الدينية والقيم الروحية .

وفى خريف عام ١٩٤٦ صدر كتاب عنوانه « مصير البشر » ألفه أحد كبار العلماء الأمريكيين هو الدكتور دى نوى — وهو أحد علماء معهد روكفلر ومعهد باستور . . وفى هذا الكتاب كشف العالم الكبير عن نظرية جديدة للتطور ، وأجاد فى استخدام الوسائل العلمية والمنطقية لإثبات المعانى السامية التى استراحت إليها نفوس البشر منذ أول عهدهم بالحياة ، كحرية الإرادة ومعنى الحياة والخلود ووجود الله سبحانه وتعالى ، ويؤكد بأن كل هذه حقائق لا مماراة فيها ولا جدال .

ويستهل دى نوى قوله معترفاً بأن العلم عرضة للخطأ ، والخطر أن نثق به وثوقـــا أعمى ، وكثيراً ما كشف البحث العلمى عن حقائق علمية نقضت أحكاما كانت قد اعتبرت على أسس المعايير الصحيحة حقائق علمية صحيحة، ونحن نعيش فى كون لا يحيط به إدراكنا ، فكل رأى نراه لا يمكن أن نسلم بأنه حقيقة .. لأنه رأى نسبى . وفى هذا الكون الجبار نجد العلم يعبث بأجزاء ضئيلة من المعرفة . . ولكن المهاوى التى تفصل بين ما نعرفه من الحقائق إنما هى مهاو شاسعة عميقة . وقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف رفع الستار لأول مرة عن مسرح الكرة الأرضية لتبدأ تراجيديا الحياة وروعة تطورها . .

ولا يمكن — بل من المستحيل — أن نعزو إلى المصادفة المحضة ما نفترضه عن بدء الحياة وارتقائها إلى عجائب العقل البشرى ، فعلى الرغم مما يزعمه الماديون ، من أن المصادفة وقوانين المادة تتحكم مطلقاً فى كل ما هو عرضة للفناء . . فإن الإنسان — وينطبق عليه هذا الوصف — حر فى تصرفاته ، له أن يفعل هذا الأمر أو ذاك . . فأين هو تحكم المصادفة أو قوانين المادة فى أفعاله ، ولما كان الإنسان حراً فى أن يطيع غرائزه الحيوانية التى تتيح له قدراً من المتعة الحسية ، أو ينشد غرضاً من ضرب آخر له أى قدر من سمو المقصد أو نبل الدافع . . فلكى يبلغ ذلك الغرض عليه أن يناضل غرائزه الحيوانية القوية ، وكثيراً ما يعذبه هذا النضال ، بل يبدو وكأنه يستعذب ما فى هذا النضال من ألم . . وقليل ما هم هؤلاء الذين يتجشمون فى سبيل الهدف . . ولكن هذه القلة هى التى كان لها شأن عظيم فى التطور . .

وعلى عكس الثلوج التى تذوب على قمم الجبال فتتدفق على السفح لتصبح فى السهل جداول وأنهاراً تسير بتؤدة نحو مصبها فى النهر ، فهى فى كل خطواتها تستجيب لناموس لا يرد هو قانون الجاذبية . . فإن تطور الحياة قد صعد — وفق نظام غامض — من أسفل إلى أعلى . . ولم يغفل العلم عن البينات التى يدل عليها هذا التناقض حتى نرى أشد الماديين عناداً مضطراً إلى التسليم بوجود قوة مجهولة ، ولم يكن لهؤلاء من بد سوى أن يطلقوا اسما على هذه القوة المجهولة لكى يتمكنوا من أن

يدخلوها فى نطاق تفكيرهم . . ولما كانت جوانحهم منطوية على نفور من اسم الله سبحانه وتعالى وصفوها بقولهم (عدو المصادفة) . . وما داموا يعترفون بوجودها فليسموها بما شاءوا .

ويتساءل دى نوى فى أحد فصول كتابه : « عن أنه لما كان الإنسان يتصرف فى حياته مدفوعاً بدوافع الخير أو محبذات الشر . . وإذا كان الله موجوداً . . فكيف نراه يأذن بكل هذه الشرور ؟ . . ويرد على هذا التساؤل بقوله : إن الخلق قد تم جميعه بأمر الله . . ولكنه سبحانه حينما وهب الإنسان ضميراً وإرادة حـــرة ، نفخ فيه من روحه ، وهذه الحرية التى وهبها الله لعباده حقيقة واقعة يتعالى الله سبحانه عن الحد منها . . وإذا علمنا بأن قوة الله العليا هى التى خلقت نواميس الحياة . . فينبغى أن نعلم أن هذه القوة الخالقة لن تحول دون تنفيذ هذه النواميس . . فالطبيعة على هذا ليست متهافتة بل متماسكة . . ولكن الإنسان جاهل ولا يزال الطريق أمامه، ومن هنا نرى الرجل الذكى حائراً إذا لم يستطع أن يدرك ذات الإله التى لا تدركها الأبصار ، ولكن يفهمها العقل .. ولكن فى هذا العصر — عصر العلم — لا يستطيع أحد أن يتصور بحواسه . «الألكترون» ، وكل عالم يقول لك إن الألكترون شىء لا يمكن تصوره ولا يسعك أن ترسم شكله ، وليس ثمة رجل رآه ، ومع ذلك فالألكترون الذى لا يرى موجود وإن تعذر علينا أن نتصوره ، فما ظنك بالله الذى لاتدركه الأبصار والذى ليس كمثله شىء . . »

وفى نفس العام أى فى عام ١٩٤٦ صدر فى الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً كتيب بعنوان « الإنسان ليس وحيداً » ألفه عالم له خطره . هو الدكتور موريسون الذى كان لمدة طويلة مديراً لأكاديمية العلوم فى نيويورك وجاء على لسانه فيه : « إن البشر لايزالون فى فجر العلم ، وكلما ازداد العلم ضياء جلا لنا شيئاً فشيئاً صنعة خالق مبدع . . ففى السنوات التسعين التى انقضت منذ عهد داروين تمت للعلماء مكتشفات هائلة . . والتقدم فى العلم يدنو بنا شيئاً فشيئاً إلى معرفة الله ، فطريق العلم يسير بنا إلى الإيمان به . . ولا يبتعد بنا عن ذلك أبداً . . فالمعادلات الرياضية إذا طبقناها على نظام الكون تجعل

عامل المصادفة فى ظهور الحياة احتمالا لا يبلغ واحداً من ملايين ، كما أن سعة حيلة الحياة فى تحقيق أغراضها يدل على تدبير عقل منبث فى أنحائها جميعاً . . وحكمة الحيوان تنطق بلسان – لا ترد حجته – بأن لها خالقاً كريماً بث الغريزة فيها ، فالرحلات الطويلة الوعرة التى يقوم بها كل من سمك السالمون وثعبان البحر تتم فى ظروف تجعلنا لا نستطيع أن نعلل ذلك بالتكيُّف والملاءمة ، بل لا بد وأن هذه الرحلات تتم على هدى غريزة موهوبة ممنوحة .

أما قدرة الإنسان على أن يتصور فكرة وجود الله فهى نفسها برهان فذ على ذلك ، فتصور وجود الله ينبثق من قدرة علوية فى الإنسان لا يشاركه فيها سائر الأحياء : هى قدرة التخيل ، وبها يستطيع الإنسان دون غيره من الأحياء أن يجد الدليل على أشياء لا يراها ، وإن الآفاق التى تفتحها هذه القدرة أمام عينه لهى آفاق لاحدود لها . وتخيل الإنسان إذا ما دنا من مراتب الكمال وصار حقيقة روحية استطاع أن يتبين به – من خلال دلائل النظام والقصد فى الكون – تلك الحقيقة العظمى ، ألا وهى : إن قدرة السماء فى كل مكان وكل شىء . . وإن الله فى كل مكان وعنده كل شىء ، ولكنه أدنى ما يكون إلينا فى قلوبنا . . إن قول صاحب المزامير لهو قول صحيح من ناحية العلم ومن ناحية التخيل جميعاً «السموات تتحدث بمجد الله . والفلك بخير يعمل يديه »

وعلى هذا النمط هناك شواهد كثيرة من كتب ألفها علماء أو أبحاث نشروها أو تصريحات أدلوا بها . . وليس المجال هنا بمتسع لسردها أو ترديدها بعد أن أوردنا نماذج منها قيلت على ألسنة بعض جهابذة العلماء ممن هم على مستوى رؤساء الأكاديميات ولكن يمكن وصفها بحق بأنها صيحات قوية تطلقها الأوساط العلمية لتهيب بالناس أن يعودوا إلى حظيرة الدين ، وأن يحتموا بقيمه الخلقية والروحية . . ولم يكن ذلك إلا لأن الطاقة الذرية وهى أعظم نتائج العلم التى كان من الممكن أن تحقق للإنسان قدراً غير محدود من الرخاء . . قد نشطت – بحوثها لضرورة حربية . . ثم استخدمت فى غرض حربى نتج عنه أفظع تدمير جلبه الإنسان على أخيه الإنسان . .

وما زال الاحتمال قائماً فى استعمالها استعمالا يحيق بالبشرية . . وهذا الاحتمال المفزع لهذا الكشف وما ترتب عنه قد جعل العلماء أنفسهم يحسون بنوع جديد من المسئولية الأخلاقية، فهم قد أدركو أن القوى الهائلة التى أطلقوها — إذا لم تضبط — قد تدمر المدينة نفسها .

وهذا الاحتمال المخيف قد زاد فى الصدمة المروعة التى أصابت الناس جميعاً من جراء حربين عالميتين . . وجعلهم يدركون أن الذكاء الإنسانى وحده خطر يهدد البشر إذا لم يخضع لرقابة الضمير وتوجيه المبادئ الأخلاقية.. وهل هناك وسط يمكن أن يترعرع فيه الضمير الكفء . . وتستبين المبادئ الأخلاقية القويمة فيه غير الدين ماذا يمكن أن يلهم ويوجه الاستعمال الصحيح لما وضعه العلم تحت تصرفنا من أجهزة وآلات رائعة ؟ .. لا شىء إلا التسليم لإرادة الله . . فنحن إذن فى حاجة إلى الدين ليهب لنا الشجاعة والهداية اللازمتين للحيلولة دون الكارثة الكبرى التى تهدد الجنس الإنسانى .. ولضمان التقدم الصحيح . .

وإلى هذا المعنى كان يهدف ألبرت أينشتاين فى محاضرة ألقاها فى جامعة برنستون بالولايات المتحدة حين قال : « العلم يخبرنا بما هو كائن ولكن الوحى وحده هو الذى يخبرنا بما ينبغى أن يكون . . » .

زاهر عزب الزغبى

الوقت .. لا ينتظرك

خطب الحجاج يوماً فأطال ، فقال له رجل: الصلاة !... فإن الوقت لا ينتظرك ، والرب لا يعذرك !

فأمر الحجاج بحبسه . فأتاه أهل الرجل ، وزعموا أنه مجنون . وسألوه أن يخلى سبيله ...

فقال الحجاج : إن أقر بالجنون خليته ...

فقيل له ، فقال معاذ الله ! لا أزعم أن الله ابتلانى ، وقد عافانى ! فبلغ ذلك الحجاج ، فعفا عنه لصدقه .

حقيقة الصيام

فضيلة الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ،

يقول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له ، وأن تصوموا خير لكم ، إن كنتم تعلمون ٢ : ١٨٣ ، ١٨٤) .

(شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ٢ : ١٨٥) .

وبعد :

فإن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة ، والفطر المستقيمة شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده ، رحمة بهم ، وإحساناً إليهم ، وحمية وجنة لهم ، فإن المقصود من الصيام : حبس النفس عن الشهوات ، وفطمها عن المألوفات ، وعدل قوتها الشهوانية ، لتسعد بطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكى به مما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وقسوتها ، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب ، وحبس قوى الأعضاء من استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها فى معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحها وتلجم بلجامه .

فالصوم لجام المتقين، وجنة المجاهدين، ورياضة الأبرار، والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم إنما ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها، إيثاراً لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه، لا يطلع عليه سواه.

والعباد قد يطلعون منه على تلك المفطرات الظاهرة، وما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التى إذا استولت عليها أفسدتها، واستفرغ المواد الردية، المانعة له من صحتها.

فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى فى تتمة الآية (لعلكم تتقون) وتفسير لعلكم فى حق الله تعالى — كما يقول بعض المفسرين — فيه وجوه:

أحدها: إنه سبحانه بين بهذا الكلام أن الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقطاع الهوى، فإنه يردع عن الأثرة والبطر، والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورياستها وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين فمن أكثر الصوم هان عليه أمر هذين، وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعاً له، عن ارتكاب المحارم والفواحش ومهوناً عليه أمر الرياسة فى الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى فيكون معنى الآية:

فرضت عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم فى كتابى، وأعلمت أن هذا الكتاب هدى لهم.

ولما اختص الصوم بهذه الخاصة حسن منه تعالى أن يقول عند إيجابها: (لعلكم تتقون) منبهاً بذلك على وجه وجوبه، لأن ما يمنع النفس عن المعاصى لا بد وأن يكون واجباً.

وثانيها: إنه لينبغى لكم بالصوم أن يقوى رجاؤكم فى التقوى، وهذا معنى (لعل).

وثالثها: (لعلكم تتقون) الله بصومكم وترككم للشهوات، فإن الشىء كلما كانت الرغبة فيه أكثر كان الاتقاء عنه

أشق والرغبة فى المطعوم والمنكوح أشد من الرغبة فى سائر الأشياء .

فإذا سهل عليكم اتقاء الله بترك المطعوم والمنكوح كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف .

ورابعها: المراد كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون إهمالها وترك المحافظة عليها ، بسبب عظم درجاتها وأصالتها .

وخامسها : لعلكم تنتظمون بسبب هذه العبادة فى زمرة المتقين ، لأن الصوم أضعفهم وهو لله سبحانه وتعالى من بين سائر أعمالهم .

أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد ، أو قاتله فليقل : إنى صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

وفى رواية له :

« . . يترك طعامه وشرابه وشهواته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها » .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة :

« أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، شباباً لا نجد شيئاً ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » :

« يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » .

وكان هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أكمل الهدى ، وأعظم تحصيلا للمقصود ، وأسهله على النفوس .

ولما كان فطم النفس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها ، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة ، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة ، وألفت أوامر القرآن الكريم فتفلت إليه بالدرج ، وكان فرضه فى السنة الثانية من الهجرة .

بيد أن الصوم على ضربين :

صوم ظاهر ، وهو الإمساك عن المفطرات مصحوبًا بالنية .

وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السر عن الملاحظات .

وصوم العابدين شرطه : صوم اللسان عن الغيبة ، وصون الطرف عن النظر بالريبة .

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك » .

وأما صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غير ، فمن أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم :

« صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » .

فالهاء في قوله عليه الصلاة والسلام « لرؤيته » عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه وتعالى ، والعلماء يقولون معناه عندهم : صوموا إذا رأيتم هلال رمضان ، وأفطروا لرؤية هلال شوال .

وأما الخواص : فصومهم لله ، لأن شهودهم : الله ، وفطرهم بالله ، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله ، والذى هم به : الله .

فمن شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب التوبة ، والصوم بالله يوجب القربة .

الصوم لله تحقيق العبادة .

والصوم بالله تصحيح الإرادة .

الصوم لله صفة كل عابد .

والصوم بالله نعت كل قاصد .

الصوم لله قيام بالظواهر .

والصوم بالله قيام بالضمائر .

الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة ، والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة ، فمن شهد الشهر أمسك عن المفطرات ، ومن شهد الحق أمسك فى جميع أوقاته عن شهود المخلوقات ، والإشارة فى قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) : أن الصوم كما يكون للظاهر يكون للباطن ، وباطن الخطاب يشير إلى أن صوم القلب ، والروح ، والسر ، للذين آمنوا : شهود أنوار الحضور مع الله تعالى .

فصوم القلب : صومه عن مشارب المعقولات ، وصونه عن حب الدنيا وزخارفها .

وصوم الروح : إمساكها عن ملاحظة الروحانيات ، وزهدها فى نعيم الدنيا ولذاتها .

وصوم السر : صومه عن شهود غير الله سبحانه وتعالى .

وكما كتب الله سبحانه وتعالى الصيام على كل صفة من صفات الإنسان فى الباطن فكذلك كتب سبحانه وتعالى الصوم على كل عضو من أعضاء الإنسان فى الظاهر :

فصوم اللسان : إمساكه عن الكذب ، والفحش ، والغيبة .

وصوم السمع : صونه عن المناهى والملاهى . . وعلى هذا فقس الباقى .

وصوم العين : كفها عن النظر فى الغفلة والريبة .

وصوم النفس : زجرها عن التمنى والحرص والشهوات .

وبعد : فلما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً على جمعيته على الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى ، فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى .

ولما كان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام وفضول المنام مما يزيده شعثاً، ويشتته فى كل واد ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه ، اقتضت رحمة العزيز الرحيم لعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد فى دنياه وأخراه ، ولا يضره ولا يقطعه من مصالحه العاجلة والآجلة .

يقول القفال : انظروا إلى عجيب مانبه الله عليه من سعة فضله ورحمته فى هذا التكليف ؟

فبين أولا أن لهذه الأُمة فى هذا التكليف أُسوة بالأُمم السالفة، فإن الأمور الشاقة إذا عمت خفت ثم بين لنا وجه الحكمة فى إيجاب الصوم وحصول التقوى .

ثم بين ثالثاً أنه مختص بأيام قلائل، لا بكلها ولا بأكثرها .

ثم بين رابعاً أنه خصه من الأوقات بالشهر الذى أُنزل فيه القرآن ، ليعلم شرفه فتوطن النفس له .

ثم ذكر خامساً : إزالة المشقة فى إلزامه ، فأباح تأخيره لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى زمن الرفاهية والصحة ، وهى هيئة يكون بها بدن الإنسان فى مزاجه وتركيبه ، بحيث يصدر عنها الأفعال كلها سليمة .

(وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ٢ : ١٨٤) .

والله ولى التوفيق

موسى محمد على

رد على مقال

مَوقفنا مِن السَلف

كنت أود من الدكتور محمد رجب البيومى أن يلتزم ما دعا إليه من إنصاف العلماء مهما اختلف الرأى ، وتعددت وجهات النظر ، وعنوانه « اختلاف الرأى بين الشطط والاعتدال » يشير إلى ذلك ، لكنى وجدته يقف بجانب الإمام الشافعى متعصباً لرأيه ، متنقصاً لرأى غيره فى تهجم أخذه هو على أمثال ابن العربى ، والشريف الرضى .

والموضوع يدور حول فهم كلمة وردت فى قوله تعالى : (فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » ، فقد فسر « ألاّ تعولوا » الشافعى بألاّ تكثر أولادكم وذهب مخالفوه إلى أن المعنى ألا تميلوا ألا تجوروا ، واللغة تساندهم فى تفسيرهم ، وإن كان ما ذهب إليه الشافعى يجد قبولا ؛ لأن اللغة لا تأباه مع التجوز .

ونحن — المعاصرين — حين نقرأ ما تركوه لنا : علينا أن ننظر فى أقوالهم ، ونعرضها على اللغة والعقل ، فما ظهر دليله ناصعاً أخذنا به ، وما ضعف دليله تركناه دون أن ننعت صاحبه بنعوت تحط من قدره أو علمه وليس لتأخرنا عن أزمانهم ما يمنعنا أن نقول مقالنا فيما نراه موافقاً للشريعة ويدل عليه اللفظ فما دمت قرأت لغة العرب وحذقتها ، وصار لك حسّ لغوى تميز به المعانى والمدلولات جازلك أن تقول وتبدى الرأى وليس لمتقدم على متأخر فضل إلا بالفضل العلمى ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ هكذا عرفنا تلك القاعدة ، وقد استشهد الدكتور بتفسير الزمخشرى أو بما كتبه فى هذا الصدد وإنى أنقل إلى القراء ما فسره الزمخشرى فى هذا اللفظ الذى دار حوله الخلاف . يقول فى الكشاف : « (ذلك) إشارة إلى اختيار

الواحدة والتسرى (أدنى ألاّ تعولوا) أقرب من أن لا تميلوا من قولهم عال الميزان عولا إذا مال، وميزان فلان عائل، وعال الحاكم فى حكمه إذا جار، وروى أن أعرابياً حكم عليه حاكم، فقال له: أتعول علىّ؟ وقد روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تعولوا «أن لا تجوروا» إلى هنا انتهى تفسيره ثم أخذ فى الدفاع عن الشافعى فقال: «والذى يحكى عن الشافعى رحمه الله أنه فسر (ألاّ تعولو) ألا تكثر عيالكم، فوجهه أن يجعل من قولك: عال الرجل عياله يعولهم كقولهم: ما نهم يمونهم: إذا أنفق عليهم؛ لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفى ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورءوس المجتهدين: حقيق بالحمل على الصحة والسداد، وأن لا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تظنن بكلمة خرجت من فى أخيك سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملا، وكفى بكتابنا المترجم بكتاب (شافى العى من كلام الشافعى) شاهداً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعا فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب فسلك فى تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات» وهو دفاع عفيف مقبول، ولكنه وصف الرأى بأنه سلك فى التفسير طريقة الكنايات، وما من شك فى أن الحقيقة إذا جاء ما يؤيدها كانت أحق بالاتباع من الكناية، ومخالفوا الشافعى نظروا إلى اللغة والنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الشريعة والمأمور ببيانها، وأزيد على ذلك أن السياق يتطلب أن تكون «ألا تعولوا» بمعنى ألا تجوروا؛ لأن النص يتحدث عن العدالة بين الزوجات، فما دام العدل لا يتحقق وخفنا الجور: فالاكتفاء بواحدة هو الأوفق والأسلم، ثم إن تفسير الشافعى يحصرنا فى نطاق ضيق، وهو أن تكون العلة كثرة الأولاد، وليس الناس جميعاً فقراء ففيهم الأغنياء والقادرون الذين لا يشكون من كثرة النسل، ولكن الأخذ بتفسير «ألا تعولوا» بأن لا تجوروا يمنع هذا التعدد، ويدفع ما يترتب عليه من آثام. وقد يكون ميل الدكتور راجعاً إلى حديث العصر الذى نعيش فيه ويفزعنا أرباب الفكر من ضيق كوكبنا عن أن يتحمل الغذاء لكل مولود، وقد يكون لحياة الشافعى الأولى، وما قاساه من شظف العيش

ما جعله ينفرد بهذا الرأى ، فيأخذ به من يشاء ، ولا ضير فى ذلك ، فمن قلد عالمًا لقى الله سالماً – كما يقولون !

لكن الموازنة التى عقدها كاتبنا بين الشافعى والشريف الرضى جاءت بعيدة عن مستواه العلمى والأدبى وأنا من قرائه منذ نشر فى الصحف والمجلات ، ووددت لو ترك هذه الموازنة جانباً ؛ لأنه جعل الشافعى أعرق فى الهاشمية من الشريف الرضى ، وميز الشافعى على الرضى بتقدم الأول على الثانى فى الزمن ، فالشافعى من رجال القرن الثانى الهجرى ، والشريف الرضى من رجال القرن الرابع الهجرى ، ثم حصره بالتلمذة على الشافعى » .

وفى كل هذا جانبه الصواب ، فليس الشافعى أعرق فى الهاشمية من الشريف الرضى ، لأن الشريف الرضى من بنى هاشم وليس كذلك الشافعى ، فالشافعى من بنى (المطلب بن عبد مناف) وقد قرأنا ودرسنا فى الأزهر كتاب « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » ومنه ترجمة الإمام الشافعى ، وينص الكتاب – وغيره – على أن (محمد بن إدريس) المنسوب لأحد أجداده (شافع) من ولد (المطلب ابن عبد مناف) فالمطلب أخو هاشم ابن عبد مناف ، ومن ثم لا يكون الشافعى من بنى هاشم ولا أعرق من الشريف الرضى فى هذا النسب ، وليس معنى هذا أن المطلب أقل من أخيه منزلة فالعرب كانت تصفه بالفياض لكثرة سخائه وعطائه . ثم هو قام بعد هاشم بالرفادة والسقاية وكان له فضل فى إحضار ابن أخيه عبد المطلب من يثرب ، وعبد المطلب نسب إليه ؛ فقد كان اسمه (شيبة) فلما رآه الناس مردفا وراء عمه قالوا (عبد) المطلب ؟ فقال : إنه ابن أخى هاشم فى حديث يطول .

وينبغى أن نعلم أن لعبد مناف الذى امتدت حكومة أبنائه فى الشرق والغرب من خلافة عثمان إلى سقوط بغداد إلى سقوط مصر فى يد سليم الأول أربعة أبناء كانت لهم السيادة : هاشم ، والمطلب وعبد شمس (والد أمية) ونوفل والأولان عاشا على الود ولم يفترقا فى جاهلية ولا إسلام . أما أمية ونوفل فكانا منافسين لهما فى الجاهلية والإسلام .

ونخلص من كل هذا إلى إثبات نسب الشافعى وأنه من ولد (المطلب بن عبد مناف) وليس من بنى هاشم ، ويبقى للشريف الرضى نسبه الهاشمى ، بل هو يمتاز بأنه من نسل الحسين بن على والحسين أمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله . ويقرر الجاحظ : أن أشرف الناس

أجمعين بنو أبى طالب ، فما بالك بمن يجمع من الهاشمية ذروتها وهو أبو طالب وفاطمة بنت محمد . وهذه حقائق لا ينكرها الشافعى لو سئل عنها . إنه نسب فى العالمين عريق !

ومن أين جاء للدكتور : أن الشريف الرضى انحصرت ثقافته وعلمه فيما رواه عن الشافعى ؟ إن عصره ملىء بروافد من علوم شتى لم تتهيأ للشافعى كما تهيأت له ، ففى القرن الرابع تميزت العلوم الشرعية واللسانية ، وصار لكلٍّ إمامها وأعلامها ، ثم ليس للمتقدم على المتأخر فضل بالتقدم ، إنما الفضل يرجع إلى ما حمله العالم وما أداه لعصره وما تلاه . ونحن لا ننقص من قدر الشافعى ، ولا نستطيع أن نجعل الشريف فى منزلته الفقهية ، إنما نعطيه حقه فى الفهم وإبداء الرأى ، وهذا ما فعله ، فالموازنة باطلة من كل نواحيها من جهة النسب ومن جهة العصر ، ومن جهة انتشار الثقافة والترشف منها ، وليس على الله بمستنكر أن يجعل من اللاحق أكثر علما من السابق ، فالعلوم تتطور تبع العصور إلا إذا نكبت بمن يحول بين الناس وبين التطور ، وقد يصل المتأخر إلى رأى لم يظهر للسابق ، وهذا ما تراه اليوم من تقدم العلوم والفنون والآداب ، وما من شك فى أن الشريف الرضى قسا على الإمام الشافعى ولكن هذا لا يدفعنا إلى مجاراته فنجرده هو من نسبه وعلمه وما يعتز به ، بل يجب أن نذكر كلا الرأيين ونفاضل بينهما وقد نأخذ بأحدهما وقد يكون لنا رأى آخر ، فالعلم بحر لا ساحل له . وأما قوله للدكتور رجب البيومى لا يغض من فضله وإنما هو من قبيل : صديقى من أهدى إلىّ عيوبى . وبالله التوفيق ،

السيد حسن قرون



بُورمَا ..
مذبحة كُبرى للمسْلمين

يواجه المسلمون فى أنحاء شتى من العالم ظروفاً قاسية خاصة الأقليات المسلمة المتمسكة بعقيدتها وسط عالم تنشط فيه تيارات ملحدة تسعى فى دأب لصرف المؤمنين عن طريق الحق والهداية .. والذى يدعو للألم والأسف معاً هو أن ردود الفعل تأتى سلبية من معظم البلاد الإسلامية والعربية تجاه موجات الاضطهاد والقهر التى تمارس ضد المسلمين فى تلك البقاع .

و« بورما » هى آخر مسرح نشاهد عليه مأساة إنسانية وإسلامية تدمى لها القلوب .. فى هذا البلد الذى تحكمه طغمة طاغية يشهد المسلمون ألواناً شتى من التعذيب والاضطهاد والقهر لا لشىء أو ذنب فعلوه سوى أنهم قالوا « لا إله إلا الله » .. لقد أصبح ثمن هذه الشهادة التشريد .. الاغتصاب .. الطرد من الديار .. إلخ

وتقع بورما فى جنوب شرق آسيا .. يحدها من الجنوب خليج البنغال .. ومن الشمال الصين التنين .. ومن الشرق تايلاند وفيتنام ومن الغرب بنغلاديش والهند .. ويبلغ عدد السكان ٢٥ مليون نسمة منهم أربعة ملايين مسلم .. ولقد دخل الإسلام بورما فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى عن طريق القوافل التجـارية ، ويتمركز معظم المسلمين البورميين فى إقليم « أركان » الواقع قرب حدود « بغلاديش » .

الأضرار التى يتعرض لها المسلمون فى بورما

إن مسلمى بورما يواجهون كل ألوان القسوة والاضطهاد من السلطة وأهم هذه المظاهر ..

١ — منع المسلمين من أداء فريضة الحج وعدم السماح لهم بأداء الصلاة .

٢ – إلغاء الدراسة الإسلامية فى المدارس والكليات .

٣ – مصادرة الكتب والمنشورات والجرائد والمجلات الإسلامية .

٤ – القيام بحملات إرهابية لإخراج المسلمين عن دينهم .

وقد نجحت بعض هذه الحملات فى تحويل أكثر من ١٢٥ ألف مسلم إلى البوذية عنوة وقهراً .

٥ – مصادرة البيوت والعقارات الموقوفة للمساجد والمدارس الإسلامية . . وكثير من الأعمال الوحشية التى تقوم بها السلطة الحاكمة تجاه المواطنين المسلمين .

ولما اشتد بطش السلطة واضطهادها لجماعات المسلمين بدأت قوافل النزوح إلى بنغلاديش وبأعداد هائلة تصل إلى ٥٠ ألف مسلم شهرياً وقد بلغ عدد المهاجرين من مسلمى بورما حتى الآن أكثر من ٢٠٠ ألف مسلم ، وذكرت الأنباء أن الحكومة فى بورما تمهد لإبعاد ٦٠ ألف مسلم آخرين وذلك بمواصلة التنكيل بهم والزج بهم على الحدود ثم طردهم .

وتعيش هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين البورميين المطرودين من ديارهم . . يعيشون الآن ظروفاً قاسية وأليمة حيث تنتشر المخيمات المتواضعة داخل أراضى بنغلاديش لإيواء كل هذه الأعداد وكثيراً من هؤلاء المسلمين مشردون . . بلا مأوى حيث يصعب احتواء مثل هذا العدد الكبير منهم خاصة وأن حكومة بنغلاديش تواجه مشاكل اقتصادية معروفة .

أساس المشكلة

عندما بدأ التواجد الشيوعى يظهر فى جنوب شرق آسيا كونت بعض الأحزاب الشيوعية نظاماً سياسياً وبالطبع فإن الإسلام هو الخطر الرئيسى فى وجه الشيوعية وسائر الدعوات الملحدة . . فلقد رأى القائمون على رئاسة هذه الأحزاب ثم القائمين على السلطة بعد ذلك أنه لا بد من تصفية المسلمين أو تحويلهم إلى وثنيين ، ومن هنا بدأت عمليات الاضطهاد والقهر لهم وحرمانهم من الوظائف الحكومية وتأدية الشعائر وغير ذلك من الحقوق الإنسانية وقامت حملات تعذيب يشرف عليها البوذيون والشيوعيون للمسلمين وذبح الآلاف منهم ثم تلا ذلك حملات الطرد الجماعى لهؤلاء المسلمين المتمسكين بعقيدتهم ودينهم الحنيف وتم سحب هوياتهم وإلقائهم على الحدود يواجهون ظروفاً صعبة من الضياع والتشرد . .

والآن وبعد هذه النبذة الموجزة عن آلام إخواننا مسلمى « بورما » يأتى السؤال : إلى متى سنظل واقفين مكتوفى الأيدى وإخوان لنا فى الدين والإنسانية يذبحون ؟ إن الإسلام يذبح فى الفلبين وفلسطين وقبرص وتشاد وكشمير وأرتيريا وغيرها من الأماكن فهم سنكتفى بالبيانات الموجزة للاستنكار . أيها الإخوة : الإسلام يناديكم أن تنقذوه فهبوا .. على الحكومات الإسلامية والعربية أن تتدخل بإيجابية لإنقاذ المسلمين فى بورما وعليها أن تساعد حكومة بنغلاديش لتستطيع إعاشة هؤلاء الإخوان النازحين الهاربين من بطش حكومة بورما .. إنها محنة إسلامية .. وإنسانية . فهل ندرك أبعادها ؟

عمر بن الخطاب

أول من دعى بأمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ وثبته بالهجرة بعد عام فتح بيت المقدس ، وأول من نظم بقاء المجاهد خارج أسرته مدة معلومة ، وأول من حمل الدرة لتأديب الناس ، وأول من وضع الخراج ومصّر الأمصار ، وأول من استقضى القضاء وثبّت قاعدة استقلال القضاء ، وأول من أحصى النـــاس ورتّب السكان ونظم معاشهم وأعطياتهم ، وأول من خطط المدن على أسس واضحة فى الإسلام ، وأول من تفقد شئون المسلمين ليلا لحفظ الدين وحقوق الناس ، وأول من سافر خارج الجزيرة لتسلم مفاتيح مدينة ، وأول من سن قاعدة .« من أين لك هذا ؟ » ، وأول من شرع للأطفال حقوقًا مادية ثابتة ، وأول من منع خروج المهاجرين والبدريين من المدينة إلى الأمصار .

باب الفتاوى

بقلم وإعداد :

الأستاذ / عبد الحميد السيد شاهين

مع قدوم شهر رمضان تتجدد الأسئلة عن أمور يتكرر حدوثها وتتكرر الإجابة عليها ونورد فيما يلى بعضا منها راجين أن يكون فيها النفع لمن يجهلها والذكرى لمن يعلمها . .

من يرخص لهم فى الفطر وتجب عليهم الفدية ؟

تحت هذا العنوان جاء فى « رسالة الصيام » لفضيلة الأستاذ الشيخ سيد سابق . من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الدينية بوزارة الأوقاف ؟

يرخص الفطر للشيخ الكبير والمرأة العجوز والمريض الذى لا يرجى برؤه . وأصحاب الأعمال الشاقة الذين لا يجدون متسعاً من الرزق ، غير مايزاولون من أعمال .

هؤلاء جميعاً يرخص لهم فى الفطر إذا كان الصيام يجهدهم ويشق عليهم مشقة شديدة فى جميع فصول السنة .

وعليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكينا .

وقدر ذلك بنحو صاع « قدح وثلث » أو نصف صاع أو مد على خلاف فى ذلك ، ولم يأت من السنة ما يدل على التقدير .

قال ابن عباس : « رخص للشيخ الكبير أن يفطر . ويطعم عن كل يوم مسكينا ولا قضاء عليه » رواه الدارقطنى والحاكم وصححاه .

وروى البخارى عن عطاء ، أنه سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقرأ : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » قال ابن عباس ليست بمنسوخة هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً .

والمريض الذى لا يرجى برؤه ويجهده

الصوم مثل الشيخ الكبير، ولا فرق، وكذلك العمال الذين يضطلعون بشاق الأعمال .

قال الشيخ محمد عبده : فالمراد بمن « يطيقونه » فى الآية الشيوخ الضعفاء والزمنى (المرضى مرضاً مزمناً لا يبرأ) ونحوهم ، كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة ، كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه .

ومنم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق الصيام عليهم بالفعل ، وكانوا يملكون الفدية .

والحبلى والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو أولادهما (بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) أفطرتا وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما عند ابن عمر وابن عباس .

روى أبو داود عن عكرمة أن ابن عباس قال فى قوله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه) هى رخصة تبيح للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينا . والحبلى والمرضع إذا خافتا (يعنى على أولادهما) أفطرتا وأطعمتا . رواه البزار .

وزاد فى آخره : وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه فعليك الفداء ولا قضاء عليك » وصحح الدارقطنى إسناده .

وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها فقال تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكينا مداً من حنطة (ربع قدح من قمح) . رواه مالك والبيهقى .

وفى الحديث : « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحبلى والمرضع الصوم » .

وعند الأحناف وأبى عبيد وأبى ثور : أنهما يقضيان فقط ولا إطعام عليهما .

وعند أحمد والشافعى : أنهما إن خافتا على الولد فقط وأفطرتا ، فعليهما القضاء والفدية ، وإن خافتا على أنفسهما فقط ، أو على أنفسهما وعلى ولدهما فعليهما القضاء لا غير .

ما حكم تعاطى الحقنة فى نهار رمضان ؟

فى كتاب « الصيام جنة » لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف مشتهرى . من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر قال : يباح للصائم حقن الدواء وغيره فى العروق ولا يفطر به كالكحل ، وكذا الحقنة فى إحليل الصائم لا يفطر بها عند النعمان ومالك ومحمد بن الحسن وأحمد . أما الحقنة فى الدبر وقبل المرأة فتفسد الصوم اتفاقا . . .

ثم أورد فتوى للأستاذ الجليل الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقاً رحمه الله جاء فيها :

« أما الحقنة تحت الجلد فلا تفسد الصوم باتفاق المذاهب الأربعة « سواء كانت للتداوى أو للتغذية أو للتخدير ، وفى أى موضع من البدن « ومثلها الحقنة فى العروق والحقنة فى الشرايين . . ثم قال فالحق أن الحقنة بجميع أنواعها لا تفطر »

كما أورد رأى لجنة الفتوى بالأزهر برياسة فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم حيث ختمت الفتوى بقولها : « واللجنة ترى الأخذ بمذهب الصاحبين ومن وافقهما فى أن ما يصل إلى الجوف من غير المنافذ الطبيعية لا يفطر ؛ لأنه أرفق بالناس ، وعليه لا يفطر الصائم بالحقن المعروفة الآن بجميع أنواعها سواء كان الدواء أو الغذاء يصل بها إلى الجوف أم لا ، أما إذا لم يصل فالأمر ظاهر . وإن وصل فإنما يصل من منفذ عارض غير خلقى — وتعميما للفائدة نذكر ما رآه فضيلة الأستاذ الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى كتابه الفتاوى تحت عنوان :

الحقن كلها لا تفطر :

وإذ كان من محظور الصوم الأكل والشرب — وحقيقتهما دخول شىء من الحلق إلى المعدة ، والمعدة هى محل الطعام والشراب من الإنسان ، وقالوا : إنها كالحويصلة للطائر والكرش للحيوان كان المبطل للصوم ما دخل فيها بخصوصها سواء كان مغذيا أم غير مغذ . ولا بد أن يكون عن المنفذ المعتاد .

ومن أجل هذا فما دخل فى الجوف ولكن لم يصل إليها لا يفسد الصوم ، فالحقنة الشرجية يدخل بها الماء الجوف ولكن لا يصل إليها فلا تفطر .

والحقن الجلدية أو العرقية يسرى أثرها فى العروق ولا تدخل محل الطعام والشراب فلا تفطر . . .

نعم ، قد يحدث بعضها نشاطاً فى الجسم وقوة عامة ، ولكن لا تدفع جوعاً ولا عطشاً ومن هنا لا تأخذ حكم الأكل أو الشرب . وإن أدت شيئاً من مهمته . . وإذا كان هذا هو الأصل فى الإفطار ، وكان الحقن بجميع أنواعها لا تفطر الصائم ، فإن أقماع البواسير أو مراهمها ، أو الاكتحال ، أو التقطير فى العين أو مسها كل ذلك لا تأثير له على الصوم فهو ليس بأكل فى صورته ولا فى معناه ، وهو بعد لا يصل إلى المعدة محل الطعام والشراب .

وجاء فى رسالة الصيام للشيخ سيد سابق :

فإن أكل أو شرب ناسيًا أو مخطئًا أومكرها فلا قضاء عليه ولا كفارة. فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من نسى وهو صائم « فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » رواه الجماعة وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أفطر فى رمضان ناسيًا فلا قضاء عليه ولا كفارة » .

قال الحافظ ابن حجر إسناده صحيح .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

رواه ابن ماجه والطبرانى والحاكم .

ثم ذكر فيها حكم من أكل أوشرب أو جامع ظانا غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ذلك فقال : عليه القضاء عند جمهور العلماء ومنهم الأئمة الأربعة . . .

وذهب إسحاق ، وداود ، وابن حزم ، وعطاء ، وعروة ، والحسن البصرى ، ومجاهد : إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه لقوله تعالى : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم)

ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ . . » الحديث :

وروى عبد الرازق قال : « حدثنا معمر عن الأعمش عن زيد بن وهب قال : أفطر الناس فى زمن عمر بن الخطاب فرأيت عساسًا « أى أقداحاً ضخامًا » أخرجت من بيت حفصة فشربوا ثم طلعت الشمس من سحاب ، فكأن ذلك شق على الناس فقالوا : نقضى هذا اليوم . فقال عمر : لم ؟ والله ما تجانفنا لإثم » .

وروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : أفطرنا يومًا من رمضان ، فى غيم ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلعت الشمس .

قال ابن تيميـــة : يدل على أنه لا يستحب مع الغـــيم التأخير إلى أن يتبين الغروب ، فإنهم لم يفعلوا ذلك ، ولم يأمرهم به النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة مع نبيهم أعلم وأطوع لله ولرسوله ممن جاء بعدهم .

والثانى : يدل على أنه لا يجب القضاء ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لو أمرهم بالقضاء لشاع ذلك . كما نقل فطرهم ، فلما لم ينقل دل على أنه لم يأمرهم . والله أعلم

كتاب الشهر

"موريس بوكاى"
(Maurice Bucaille)

القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم

دراسة الكتب المقدسة

فى ضوء المعارف الحديثة

« La Bible, le Coran et la Science »

عرض وتقديم :
د. عبد الودود شلبى

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول « رينيه جينو » العالم والفيلسوف الفرنسى الذى عمت شهرته أنحاء العالم شرقًا وغربًا عن سبب إسلامه :

« إنه أراد أن يعتصم بنص مقدس لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه ، فلم يجد — بعد دراسة عميقة — سوى القرآن — فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف والتزييف لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة . .

ومن آيات هذا الحفظ وعلاماته البارزة فى هذا العصر . . أن ألد أعداء الإسلام فى هذا العالم يذيعونه مرتلا صباح كل يوم من إذاعاتهم . . وأعجب من ذلك . أن إسرائيل التى تعلم يقينا مدى ما فى القرآن من أدلة دامغة لكيانها المزور تحرص على إذاعة هذه التلاوة ، وتقدمها إلى المستمعين بكثير من التوقير والإجلال.. والأعجب من هذا كله أن الاتحاد السوفيتى الذى تقوم فلسفته على إنكار الخالق جل شأنه ، وتحارب أى دين من الديانات التى تذكر اسمه . . الاتحاد السوفييتى هذا يأمر بطبع المصحف الشريف فى بلاده ويقوم بتوزيعه خارج وطنه . . وإن كان الغرض من ذلك كله إيهام السذَّج بحياده تجاه الدين . . أو الدعاية لنفسه فى شعوب المسلمين .

إننى أحتفظ فى مكتبتى بنسخة من هذا المصحف الذى طبع فى طشقند سنة ١٣٧٩هـ=١٩٦٠م ، وقد تسلمتها بحيلة من الملحق الثقافى السوفييتى حين حضر إلى مكتب شيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت ليقدم له طالبين أرسلهما المفتى بابا خانوف للالتحاق بالأزهر ومعهما نسختان من هذا المصحف وكأنما أحضرهما الرجل معه استعداداً للحلف بأغلظ الأيْمان إذا اقتضى الأمر ذلك فى حالة الشك والريبة . . لقد رفع الشيخ شلتوت المصحف بيده ثم قال منفعلا اكتُبْ يابُنىَّ وأشْهِد العالم على ما تكتب أن القرآن يقدم كل يوم دليل إعجازه وصدقه — وإلا . . هل يتصور أحد أن الاتحاد السوفييتى الذى يعلن أن « الله

خرافة » وأن « الدين أفيون الشعب » هو الذى يقوم بطبع هذا المصحف . .

* * *

وفى كل يوم . . يأتى القرآن بجديد . . . وهذا الجديد ليس وحياً من السماء يضاف إلى ما استقر عليه الأمر فى حياة النبى أو بعد مماته « لقد انقطع الوحى منذ غادر الرسول (ص) دنيانا إلى الرفيق الأعلى . . وإنما الجديد الذى أعنيه هو ما يتكشف للباحثين والدارسين من أولى البصائر . . إنه الكشف عن حقائق هذا الكتاب المعجز وآياته فى الحياة والناس والكون ، وكان آخر « جديد » فى هذا المجال ما كتبه العالم الفرنسى المحقق الدكتور « موريس بوكاى » — Maurice Bucaille عن القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم .

لقد بدأ المؤلف كتابه بالاعتذار عن هذا الجهل الذى غطى على عقول أوربا تجاه الإسلام . . ولكن الرجل يلتمس العذر لهؤلاء الذين حيل بينهم وبين الحقيقة « إذا تذكرنا الطريقة التى اتبعت فى تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان . وكيف فرض عليهم الجهل فى كل ما يمس الإسلام . وهكذا . . فإن مثل « الدين المحمدى » « والمحمديون » ليدل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بهذا الرأى الخاطئ القائل : بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل الاستعمال السائد حتى اليوم فى التسميات جهاد رجل وأنه ليس له « بالمعنى الذى يدركه المسيحيون » مكان فى تلك المعتقدات . ولنضف أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية فى الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامى بصورة خاصة . . كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويرون من البديهيات أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد اعتمد على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحى منذ البدء » ص ٦[١] .

وإننا لنأسف حقاً لذلك الموقف الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ فى نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً لكل منطق . . إن ذلك يسىء كثيراً إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة . . ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك

---

(١) كان يمثل هذا الاتجاه (ماسينيون) وآخرون لازال بعضهم أحياء ، ومنهم من يعيش فى مصر .

حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت فى جهالة تامة من أمر هذا التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التى تعتبر غالباً من المعارف السياسية جداً .. ص ١٠ .

(وهناك فرق جوهرى بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة ، ونعنى بذلك فقدان نصوص الوحى الثابت لدى المسيحية ، فى حين أن الإسلام لديه القرآن الذى هو وحى منزل وثابت معاً .

فالقرآن هو الوحى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، وقد كتب فور نزوله ، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وبخاصة فى شهر رمضان ، وقد رتب فى سور بأمر من محمد صلى الله عليه وسلم ، وجمعت هذه السور فور موت النبى (ص) وفى خلافة عثمان (من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، لتصبح ذلك النص الذى نعرفه اليوم .

أما الكتاب المسيحى المقدس فإنه يختلف بشكل بيّن عما حدث بالنسبة للإسلام . فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعـــددة وغير مباشرة ، وإننا لا نملك مثلا آية شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى — خلافاً — لما يتصوره الكثير من المسيحيين ولقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم — موضوع تفكير الإنسان فى كل العصور — ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين ، وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذى جعل اليوم مفسرى التوارة والأناجيل يناصبون العلماء العداء . . إذ لا يمكن فى الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية تنص على واقع غير صحيح بالمرة . . وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين . وهى عدم قبول صحة المقطع الذى يقول فى التوراة بأمر غير مقبول علمياً (ص١١) .

« . . . . وإن دراسة نص القرآن فى العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر فى هذا ، وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهى وقائع كثيرة جداً —. . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها ، أن القرآن لا يحتوى على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم » ص ١٣

لقد أجرت مجلة « المعرفة » التونسية

حواراً مع المؤلف لبيان السبب الذى من أجله ألف هذا الكتاب ، وعن الظروف التى دفعته لإخراجه وكتابته على هذا النحو . وقد رأيت فى هذا الحديث إضافة مهمة ينبغى ألا تهمل ونحن بصدد عرض هذا الكتاب لأن قيمة المكتوب والكاتب ترتفع قيمة وثقة حين تدرك نبل الغاية الدافعة إلى البحث ، وصدق النية الحافزة إلى التوضيح والشرح .

سؤال : كيف بدأت فكرة تأليف الكتاب ؟

● إن الناس لا يتصورون أن عاملا يدويا (لأنى عامل يدوى باعتبار أنى جراح) ينكب على تعلم العربية ثم على دراسة القرآن والإنجيل دون مناسبة . والحق أنى صادفت فى فرنسا بعض المسلمين المستنيرين والمثقفين ، الذين بينوا لى أن معلوماتى حول الإسلام خاطئة نظراً للتربية المسيحية التى تلقيتها فى طفولتى ، ونظراً لمطالعاتى المشتبهة لبعض الصحف والمجلات ولقد أدركت أثناء محادثاتى مع هؤلاء الأشخاص مدى الحاجز الكبير الذى يفصلنى عن المعرفة الحقيقية للإسلام . .

لذا بدأت وأنا فى الخمسين بتعلم العربية ولما أحسست بقدرتى على فهم القرآن فتحته وبدأت فى دراسته دون أى فكرة مسبقة ودون أن تخامرنى أبداً فكرة تأليف كتاب .

وصادفت أثناء قراءاتى بعض النظريات العلمية الحديثة التى تتنافى تماماً مع الأقوال التى تصرح بأن محمداً هو الذى ألف القرآن بإرشاد من بعض الأحبار أو الرهبان . ولقد دهشت لما ورد فى القرآن من نظريات فبدأت بجمعها دون أى معتقد دينى بل كان موقفى أولا علمياً بحتاً .

ولما أنهيت قراءة القرآن ، توصلت إلى نتيجة وهى : أنه من المستحيل أن يكتب إنسان فى القرن السابع ميلادياً كل هذه الحقائق المجهولة آنذاك .

هكذا بدأت فكرة الكتاب . وهو حسب رأيى أول كتاب يؤلفه غربى حول هذا الموضوع .

وبما أنى أردت أن يكون البحث عميقاً رأيت أن أقوم بدراسة مقارنة مع التوراة والإنجيل ، وهكذا ولد الكتاب .

سؤال : توصلت فى آخر كتابك إلى نتيجة وهى : ضرورة التسليم بصحة الإسلام ، فما معنى هذا ؟

● إن إعلان الإسلام يعنى التصريح بأن القرآن كتاب موحى به (ولم يؤلفه

بشر) وإن محمداً رسول الله ولا أرى هنالك موقفاً آخر . لكن موقفى كان أولا موقفاً فكرياً . ولقد كنت أتجنب فى كل اتصالاتى وتصريحاتى طرح الموضوع من وجهة النظر الدينية العقائدية. وهذا ما فعلته أمام الأكاديمية الطبية بفرنسا منذ سنة حين طرحت مشكلة المعطيات الفيزيولوجية والجنينية فى القرآن وقلت وقتها إنه لا يوجد شرح لوجود مثل هذه المعطيات الصحيحة فى القرآن إلا إذا اعتبرنا أنه كتاب منزل ، ولقد توصلت إلى هذه النتيجة كنهاية لبحثى ولم توجهنى هى فى وهذا ما أقصده عندما أقول إن موقفى كان فكرياً بالدرجة الأولى .

سؤال : هنالك صعوبة كبيرة تحول دون التفاهم مع الأوربيين حول موضوع الدين . ذلك أن الدين والألوهية والمفاهيم المتصلة بها تتسم فى عقل الغربى بسمة الغموض فهل ما زالت هذه الصعوبات قائمة ؟ وما العمل لإزالتها ؟

● أعتقد أولا : أن هنالك تغيراً جذرياً فى موقف المسيحيين وهذا التغير نتيجة مباشرة مجمع الفاتيكان الثانى (Concil II Vatican) فهذا المجمع دشن الانفتاح على الديانات الأخرى . وهنالك نشرة أصدرها الفاتيكان وأشرت إليها فى كتابى وعنوانها – توجيهات حول الحواريين المسيحيين والمسلمين ، وما مؤتمرات التقارب بين الإسلام والمسيحية إلا نتيجة لمجمع الفاتيكان الثانى . إذن وللعودة للسؤال : هنالك تحول جذرى بطىء ولكنه أكيد . ولقد جاء من القمة ولم يمس القاعدة إلا جزئيا . هذا التحول يتمثل أساساً فى الاعتراف بالإسلام كدين من طرف الفاتيكان .

ولابد من دعم هذا التحول وتشجيعه من طرف المسلمين ، الذين يتحملون مسئولية التعريف بدينهم تعريفاً صحيحاً وذلك من خلال الكتب والدراسات والمحاضرات حتى يدرك الغربيون أن ما يعرفونه عن الإسلام خطأ تماماً . هذا هو دور المسلمين فإذا وقع تزييف مقصود أو غير مقصود ، عليكم أنتم المسلمون توضيح الحقيقة .

هنالك مثلا مشكلة الله فى ترجمات القرآن بالفرنسية نجد كلمة (Allah) بينما يجب أن نجد كلمة (Dieu) أو كلمة (God) إذا كانت الترجمة إنجليزية ، فالإنسان الفرنسى العادى يتصور أن المسلمين يعبدون إلاها خاصا بهم يسمى (Allah) .

وهناك مثال آخر : لى كثير من

الأصدقاء الذين يتصورون أن الإسلام يرفض السيد المسيح ولقد أفهمتهم الحقيقة وهى أن الإسلام يعتبر عيسى نبيا مثله مثل باقى الأنبياء ولقد أطلعتهم على بعض الترجمات واقتنعوا .

بعض الحقائق البديهية بالنسبة لكم مجهولة تماماً عند بعض المثقفين . ولو اطلعتم على الشبهات التى تجول فى أذهان المثقفين لاستغربتم .

سؤال : هل يمكن اعتبار كتاب القرآن والإنجيل والعلم آخر أبحاثكم ؟

● بعد إتمام الكتاب كان من الضرورى أن يترجم إلى العربية ولقد قام بذلك أحد المصريين المقيمين بفرنسا وسيصدر قريباً عن دار المعارف [1] ولقد ترجم بعد ذلك للإنجليزية . كل هذا يمثل عملا كبيراً حال دون التفكير فى عمل جديد ، ثم أنت تعلم أن الأعمال الجدية تحتاج إلى وقت طويل .

سؤال : يرى بعض المفكرين المسلمين أن شرح القرآن على ضوء العلوم أمر خطير على العقيدة ، ذلك أن الحقائق العلمية عرضة للتحوير أو ربما للتغيير . فما رأيكم ؟

● اسمح لى بالعودة إلى عنوان الكتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم وهنالك عنوان تحتى وهو : دراسة على ضوء المعلومات – أو المعارف الحديثة – ولابد أن أشير إلى أن كلمة علم (Science) تعنى الظاهرة العلمية وهى ما لا يتغير أو النظرية العلمية وهى شرح الظاهرة العلمية وهى ما يتغير .

وهاك المثال التالى : دوران الأرض حول الشمس أو دوران القمر حول الأرض – هذه ظواهر ثابتة لن تتغير (إلا إذا أراد الله ذلك) أما شرحنا لها فهو المتطور . وهذا مثال آخر : التناسل البشرى الظاهرة الموجودة علمياً ولا تتغير أما معلوماتنا حولها فهى المتطورة وفى كتابى أشير إلى أن القرآن يؤكد الظاهرة العلمية لا النظرية . فالقرآن ليس كتاباً فى العلوم وإن كان يشير إلى ظواهر علمية ثبت وجودها فيما بعد : إذن فليس هدفى أن تثبت العلوم صحة القرآن . فالدراسة العلمية دراسة موازية للقرآن فقط . وكل من ظن أن هدفى هو إثبات صحة القرآن على ضوء الاكتشاف العلمى يكون مخطئاً ، لأن هذا العمل يكون عملا دينياً عقائدياً وسبق وأن صرحت لك أن موقفى كان من منطلق فكرى علمى بحت يثبت أن العلم يوازى القرآن لا أن العلم يثبت صحة القرآن ..

---

(١) وقد صدر الكتاب فعلا عن دار المعارف.

سؤال : وقضية الأحاديث النبوية ؟

● كنت انتظر هذا السؤال . إن هذا الموضوع موضوع شائك وأود أن أؤكد قبل كل شيء أنه ليس لى تصور خاص للحديث ولا أدعى أنى سأضيف شيئاً للعلم الحديث .

واقد حورت مع الأستاذ معروف الدواليبى (من سوريا) الفصل المخصص للأحاديث فى الترجمة العربية ، وكل ذلك لتوضيح موقفى للمسلمين وسيصدر هذا التحوير فى الطبعة الفرنسية الخامسة .

هنالك حقيقة تعرفونها وهى أن الأحاديث متفاوتة من حيث الصحة . فمنها الصحيح والضعيف والموضوع . ومن ناحية أخرى يمكننى أن أقسم الأحاديث إلى أحاديث ذات صبغة مقدسة وأحاديث تتعلق بأمور دنيوية . وفى حادثة تلقيح النخل أكد الرسول ما معناه أنه على المسلمين أخذ عقائدهم عنه ، أما فيما يتعلق بأمور دنياهم فقد يكونون هم أدرى . قلت كل هذا لأثبت أنه من الأحاديث ما ليس بصحيح (بينما لاتوجد آيات ضعيفة أو موضوعة) وأن الخلاف يدور حول الأحاديث المتعلقة بالأمور الدنيوية والتى قد لا تكون صحيحة . هذا هو رأيى ورأى الأستاذ معروف الدواليبى .

سؤال : سؤال ذو صبغة عامة : هل تتوقع أن تساعد هذه العقلية الموضوعية التى تسود كتابك على نهضة إسلامية ؟

● إنى لا أعتبر نفسى نموذجاً أو قدوة وعلى المسلمين الإجابة على هذا السؤال .

سؤال : فكيف تشرحون إذن أن كتابك لم يكتبه مسلم ؟ بل صدر عن إنسان تلقى ثقافة أوربية .

● لكى يدرس الإنسان موضوعاً مثل موضوعى الذى درسته لابد من التأكيد على نقطة الانطلاق ، فالزاوية التى ينظر من خلالها الدارس للموضوع يجب أن تكون متحررة من كل الأفكار المسبقة . أعطيك مثالا على ذلك ، فالطبيب يستفيد فى كثير من الأحيان من آراء بعض الناس الذين ينظرون للمشكل بطريقة تكون ربما أشمل من طريقة الطبيب . فالذى ينظر للمشكل من الخارج يشاهد ربما أكثر ممن يشاهده من الداخل . ونعود بعد ذلك إلى الكتاب . .

لقد بدأ المؤلف كتابه بسؤال عن العهد القديم فقال :

من هو مؤلف العهد القديم ؟ كم من قراء العهد القـــديم الذين قد يطرح عليهم السؤال ولن يجيبوا إلا بترديد ما قرءوا

فى مقدمة كتابهم العهد القديم ؟ كم من القراء سيردد أن مؤلف هذه الكتب هو الرب برغم أنها كتبت بأقلام بشر ألهمهم الروح القدس ؟ ص ١٧ .

ولكن .. إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التى كتبها بعض رجال الدين – للخاصة – وليس لعامة الجمهور – فيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيداً مما مما كان يظن بداءة ، وإذا استوضح « طبعة الكتاب المقدس الحديثة » التى ترجمت إلى اللغة الفرنسية – فإنه سيكتشف أن نبرة الحديث مختلفة جداً ، وسيدرك أن العهد القديم كالعهد الجديد – يثير مشاكل لا يخفى المفسرون عناصرها التى تسبب النزاع . ص ١٨

ويشير إدموند جاكوب (Edmond Jacob) إلى أنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد فى النصوص ، وبعد أن يتناول المؤلف حقيقة هذه النصوص بالتحقيق والشرح والسنة والتاريخ ينتهى إلى القول بـ« ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم – وبهذا أيضاً يتبين للقارئ التحولات التى أصابت نص العهد القديم من نقل إلى نقل آخر ، ومن ترجمة إلى أخرى بكل ما ينجم حتماً عن ذلك من تصحيحات جاءت على أكثر من ألفى عام ص ١٩ .

يقول المؤلف :

فى سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث وتمس هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية :

أولاً : خلق العالم ومراحله .

ثانياً : تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .

ثالثاً : رواية الطوفان .

وقد لاحظ الأب ديفو (R.p.Duvaux) مدير مدرسة الكتاب المقدس : ن سفر التكوين يبدأ بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى ، وتحتل الرواية الأولى – الإصحاح الأول والآيات الأولى – من الإصحاح الثانى – أنها بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلمية ، ولا بد من القيام بنقدها فقرة فقرة . ص ٤١

ثم يتابع المؤلف شرحه للتناقض والتخبط الغريب . فى قصة الخلق – كما تنص عليه هذه الرواية ، ثم ما تشتمل عليه هذه الرواية من تناقضات مع الرواية الثانية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة (تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض) فيفند علمياً –

كل أقوال هذه الأسفار التى تحدد بدء تاريخ خلق العالم منذ ٥٧٣٦ سنة ولكى تكون أكثر قرباً من الحقيقة : لنقل : إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبرى يحدده تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد .

ثم يتساءل المؤلف قائلا :

ماذا يعلمنا العلم الحديث ؟ . . عسيرة هنا الإجابة عما يتعلق بتكون الكون ، وكل ما يمكن ترقيمه هو « عصر تكون النظام الشمسى » الذى يمكن تحديده زمنياً بتقريب مرض . وبقدر الزمن الذى يفصلنا عن تكون النظام الشمسى بأربع مليارات ونصف من السنوات . . ص ٤٧

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة الطوفان لكشف تناقضات هذه القصة بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى كما وقعت فى « نصوص التوراة » فالإصحاحات ٦، ٧ ، ٨ من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان ، وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنبا إلى جنب . . إنما تنفصلان فى مقاطع متداخلة كل فى الآخر ، وبمنطق ظاهر فى تعاقب مختلف الأحداث . . والحقيقة أن فى هذه الإصحاحات الثلاثة تناقضات صارخة . .

هنا أيضاً تتعلل هذه المتناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى المصدر اليهوى (نسبة إلى يهوه) والمصدر الكهنونى . وقد رأينا أن هذين المصدرين يشكلان تجميعاً متنافراً . فقد قطع كل نص أصلى إلى فقرات أو عبارات وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر ، بحيث ننتقل من مصدر لآخر فى الرواية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص .

ولنضف أيضاً أن للطوفان حسب هذه النصوص مدتين مختلفتين إذ تقول الرواية « اليهوية » أربعون يوما فيضانا — على حين يقول النص الكهنوتى — مائة وخمسون يوما فيضانا .

ثم ينتقل المؤلف إلى تاريخ هذا الحادث كما تقول التوراة والتى تقول إن نوحاً قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من آدم ، ٢٩٢ عاماً من ميلاد إبراهيم ولما كان الطوفان قد شمل كل الأرض وكل الأحياء فمعنى هذا أن البشرية ولدت من جديد بعد هذا الحادث — بحيث إنه عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها فى مجتمعات فكيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم فى زمن قليل

إلى هذا الحد ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنتزع عن النص أية معقولية .

أكثر من ذلك — فإن الوقائع التاريخية تثبت استحالة اتفاق الرواية مع المعارف الحديثة — والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ — ١٨٥٠ — ق. م. تقريباً . فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم — كما يوحى بذلك سفر التكوين فإن الطوفان يقع فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م . وهذا العصر كانت قد ظهرت من قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها ، وعلى سبيل المثال فهذه الفترة بالنسبة لمصر هى التى تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ ق.م) وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى قبل الأسرة الحادية عشرة ، وفى (بابل) أسرة أور الثالثة ومن المعروف جيداً أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات ، وبالتالى لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة ، وبالتالى فلا يمكن اعتبار روايات التوراة روايات حقيقية كما أنه من غير الممكن تصور (إله) يعلّم الناس بأوهام متناقضة ، وطبيعى أن يثير ذلك وجود تحريف بواسطة البشر . (٥٢ — ٥٣ — ٥٤) .

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى « العهد الجديد » أو ما يعرف بالأناجيل الموجودة بين أيدى المسيحيين ، وقد استهل المؤلف كلامه فى هذا الموضوع قائلا :

« كثيرون من قراء الأناجيل يشعرون بالحرج بل بالحيرة عندما يتأملون فى معنى بعض الروايات أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروى فى كثير من الأناجيل . وتلك هى الملاحظة التى يقدمها الأب روجى (R. Roguct) فى كتابه مقدمة إلى الإنجيل « Initiation l'Evangilc

« إن التجربة الثرية التى اكتسبها هذا الكاتب — حيث إنه كان لسنوات طويلة مكلّفاً بالرد فى جريدة أسبوعية كاثوليكية على قراء الأناجيل الذين تحيرهم النصوص . . هذه التجربة قد سمحت له أن يدرك مدى أهمية الاضطرابات التى يشعر بها قراء الأناجيل ، ويلاحظ أن طلبات الشرح التى يبعث بها محدثوه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية شديدة التنوع ، وتنصب على نصوص يراها القراء مبهمة غير مفهومة بل ، حتى متناقضة وعبثية أو فاضحة . . . ص ٦٥ .

لقد تعرض المؤلف لتاريخ (كتابة

الأناجيل) وتأليفها فى حوالى أربعين صفحة من كتابه هذا (٦٥ — ١٠٤)، وانتهى من هذه الدراسة التاريخية بما يشبه الرفض لأكثر ما جاء فى هذه الأناجيل بعد أن تناول بالتحليل كل إنجيل من هذه الأناجيل المعروفة على حدة : من حيث الكاتب ومن حيث الموضوع ومن حيث الشكل الذى كتب به هذا الإنجيل أو ذاك . ونتيجة لذلك — كما يقول المؤلف — فإننا لم نعد متأكدين مطلقاً من أننا نتلقى كلمة المسيح بقراءة الإنجيل (ص ٩٨) .

ثم يضرب المؤلف لذلك مثلا بنسب المسيح عليه السلام :

إن البديهية الأولى فى هذه القضية أن يكون نسب المسيح من جهة أمه — إن كان يجب أن يكون له نسب — لأنه (أى المسيح) جاء من غير أب وولدته أمه من غير زوج ، ولكن الأناجيل تتعرض لنسب المسيح من جهة الأب وتذكر لهذا النسب سلسلة تبدأ أحياناً من إبراهيم عليه السلام وأحياناً من آدم أبى البشر وهى فى هذا وذاك تذكر أسماء تختلف من هذا الإنجيل إلى هذا الإنجيل . ويزيدنا المؤلف إيضاحاً فيقول :

يحتوى كل من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الروايات التى تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، أو تذكر فى عدة أناجيل ، أو فيها كلها . فإذا كانت مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، فإنها تطرح مشاكل هامة . وعلى هـذا . . فنى حالة ما يكون (الحدث) بعيد المرمى ، فإن القارئ يدهش أن مبشراً واحداً فقط قد ذكره ، وعلى سبيل المثال : « صعود المسيح إلى السماء » يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الأحداث مسرود بشكل مختلف ، وأحياناً بشكل مختلف جداً لدى اثنين أو أكثر من المبشرين ، وكثيراً ما يدهش المسيحيون عندما يكتشفون وجود هذه المتناقضات بين الأناجيل . (ص ١١٧)

ثم يتعرض المؤلف بعد ذلك لروايات الأناجيل حول قيامة المسيح من القبر ، وما صاحب ذلك من روايات غير طبيعية ، ويعطينا الأب « روجى » فى كتابه « مقدمة إلى الإنجيل » أمثلة على الاختلاط والفوضى والتناقض الذى يسود هذه الروايات فيقول :

« لا تتطابق تماماً فى الأناجيل الثلاثة المتوافقة قائمة النساء الآتين إلى القبر إلا امرأة واحدة فى إنجيل يوحنا وهى « مريم المجدلية » ولكنها تتحدث بضمير الجماعة

كما لو كانت لها رفيقات، فهى تقول « لا نعرف أين وضعوه » أما فى إنجيل «متّى» فملاك هو الذى يعلن للنساء أنهن سيرين المسيح بالجليل . ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهن على مقربة من القبر... والواقع أن لوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته . . أما يوحنا فيقول . . إنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت المقدس . ثم فى المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة . وأما متّى فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل . . وكل هذه الأمور تتناقض مع إشـــارات ظهور المسيح الموجودة فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس . . إذ يقول : إنه ظهر لأكثر من خمسمائة شخص فى وقت واحد يضاف إلى ذلك أن هناك تناقضاً بين رواية « أعمال الرسل » وهى من تأليف لوقا المبشر.. عن ظهور المسيح لبولس، وبين ما يقوله لنا بولس عن ذلك بشكل موجز ... (ص١٢١ – ١٢٢).

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى « أحاديث المسيح الأخيرة » أو الفارقليط (paracllet) فى إنجيل يوحنا ويقول متسائلا :

« كيف يمكن أن نشرح الغياب التام فى أناجيل متى ومرقص ولوقا لرواية الوداع المؤثر الذى يحتوى على الوصية الروحية للمسيح ؟

هل كان النص موجوداً أولا عند المبشرين الثلاثة الأولين . . ؟

ألم يحذف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولنقل فوراً أنه لا يمكن الإتيان بأية إجابة .

وهاهى ذى الفقرات الجوهرية فى هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد :

« إذا كنتم تحبوننى فستعملون على اتباع أوامرى وسأصلى للأب الذى سيعطيكم (paracllet) آخر .

ما معنى هذه الكلمة ؟ إن النص الذى نملك حاليا لإنجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التاليه : الـ (paracllet) الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى سيبلغكم كل شىء ، وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلته لكم « هو نفسه سيشهد لى » .

« رحيلى فائدة لكم ، لأننى إذا لم أرحل (فالفارقليط) لن يأتى إليكم وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم » .

وعندما يقول المســيح حسب إنجيل يوحنا « سأصلى لله وسيرسل لكم (فارقليط) آخر » فهو يريد بالفعل

أن يقول : إنه سيرسل إلى البشر « وسيطاً آخر » كما كان هو وسيطاً لدى الله وفى صالح البشر فى أثناء حياته على الأرض .

إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائنا بشريا على هذه الأرض ، ليؤدى الدور الذى عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار : إنه دور نبى يسمع صوت الله ، ويكرر على مسامع البشر رسالته .. ذلك هو التفسير المنطقى لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلى » . (ص ١٢٧ — ١٢٩) .

فمن يكون هذا النبى أو الكائن البشرى الذى يحمل رسالة الله بعد المسيح ؟ إنه النبى العربى محمد طبعاً .

وبعد أن ينتهى المؤلف من عرضه لنصوص العهدين « القديم والجديد » على ضوء المعارف العلمية الحديثة ينتقل إلى القرآن الكريم ثم يقارن .
فيعرض فى حوالى مائة صفحة (١٣٥ — ٢٣٧) قصة خلق السموات والأرض ، والنظام الشمسى ، والمجرات والنجوم ، وعلم الفلك ، وتعاقب الليل والنهار ، وتطور العالم السماوى ، وغزو الفضاء ، وطبيعة الأرض ، والبحار ، وعالمى النبات والحيوان والتوازن الذى يتحكم فى عالم النبات ، والتناسل فى عالم الحيوان ، وتأملات خاصة بالنحل والعناكب والطيور ، وأصول مكونات لبن الحيوان والتناسل الإنسانى ، وتطور الجنين فى الرحم ، ثم ينتهى المؤلف من ذلك كله إلى تصديق كل ما جاء به القرآن تجاه هذه الظواهر العلمية ، وإلى مطابقة ذلك للحقيقة وإلى رفض كل محاولة للتشكيك فى قدسية القرآن وصدقه وقبوله .

لقد مررت سريعاً تجاه هذه الظواهر العلمية ولم أشأ التعليق عليها بإفاضة فالظواهر العلمية لم تكن — بالدرجة الأولى — هى الغاية من عرض هذا الكتاب وتقديمه وإنما الغاية الأسمى فى نظرى — كمسلم — هى تأكيد ما جاء به القرآن نصا وحقيقة ، وأنه وحى الله المنزل على صفيه وحبيبه ، لأن ما يهم المسلم بالدرجة الأولى هو إيمانه ويقينه ، ولا يطمع مسلم اليوم فى شىء أكثر من هذه الشهادة التى يقدمها إليه رجل على غير ملته ودينه ، غير أنى أستأذن القارئ فى عرض نموذج واحد لهذا التفسير العلمى الذى ذكره المؤلف فى كتابه ، وأستأذنه كذلك فى اختيار قصة تطور الجنين كمثال لكل ما اشتمل عليه الكتاب فى كل أبوابه .

يقول المؤلف :

« إن تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوى هذا الوصف على أية مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها، إذ يقول القرآن إن الجنين بعد مرحلة التشبث ، وهو التعبير الذى رأينا إلى أى حد هو مؤسس على الحقيقة ، يمر بمرحلة « المضغة » (أى اللحم الممضوغ — ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يغلف باللحم) .

« ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً » (المؤمنون ١٣) .

المضغة تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر ، ويستحق هذا التمييز الالتفات ، إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلا للعين المجردة كلحم ممضوغ ، ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة وبعد أن تتشكل العظام تتغطى بالعضلات ، والمعروف أن بعض الأجزاء فى أثناء مدة تطور الجنين تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد فى المستقبل، على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة ، وذلك هو معنى « مخلق » وهى تعنى « مشكل » بنسب ، وقد جاءت الآية الخامسة من سورة الحج تشير إلى هذه الظاهرة (ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة) ، ثم يذكر القرآن بعد ذلك ظهور الحواس والأحشاء (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) السجدة : ٩

وتشير أيضاً إلى تشكل الجنس . .

(وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى) النجم : ٤٥ — ٤٦

وكما قلنا فلا بد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التى تثبت فى العصر الحديث، ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة فى هذا الموضوع والتى كانت سائدة فى عصر التنزيل ، حتى ندرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل ، وليس هناك أدنى شك من أن هؤلاء المعاصرين للتنزيل لم يعرفوا فى ذلك العصر تفسير هذا الوحى مثلما ندركه نحن اليوم ، والواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد مّا عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر ، فطيلة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية هى قاعدة

مختلف المعتقدات فى هذه الموضوع . . إن المرحلة الحاسمة فى تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى « هارفى » الذى قال سنة ١٦٥١ بأن كل شىء حى يأتى أولا من بويضة ، وأن الجنين يتخلق تدرجاً . . لقد ساعد اختراع المجهر على هذه المعرفة . . وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائراً حول دَوْرَىْ كل من البويضة والحيوان المنوى . ولكن القرآن حسم هذا الأمر بحقائق علمية ثابتة ، وبألفاظ بسيطة . حسم هذه القضية التى أنفق الناس مئات من السنين لمعرفتها . . . (ص ٢٣٢ — ٢٣٣) .

لقد عقد المؤلف مقارنة بين رواية التوراة لقصة الطوفان وبين رواية القرآن لهذه القصة فالتوراة تقول : «إن الطوفان كان عاماً لبنى البشر جميعاً » الأمر الذى نفته الدراسات العلمية الحديثة والواقع .

بينما يقول القرآن بأن « الطوفان » كان عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول بين الروايتين .

أما الفرق الجوهرى الثانى فهو : أن القرآن — على عكس التوراة — لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطى إشارة عن مدى الكارثة نفسها .

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح — فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع فى السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان .

« . . . احمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول . . ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » .

ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة ، فالتوراة — فى الواقع — تقدم ثلاث رايات عن محتوى السفينة .

— على حسب الرواية الكهنوتية نوح وأسرته دون أى استثناء وزوج من كل نوع .

— على حسب الرواية اليهوية هناك تمييز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور — وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى .

— على حسب روايات « يهويه » معدلة — زوج من كل نوع طاهر أو نجس ، وتقول التوراة بأن المكان الذى جنحت إليه السفينة نحو جبل « أرارات » أما القرآن فيقول إنه « الجودى » ، وهذا الجبل هو قمة جبال أرارات بأرمنيا . . فى نهاية الأمر فالاختلافات بين رواية القرآن ورواية التوراة موجودة . . ولكن إذا كان بالإمكان التحقق من معطيات

الكتب المقدسة . . يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة فى تقديمها للطوفان بزمنه ومدته مع مكتسبات العلوم الحديثة ، وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أى عنصر مثير للنقد الموضوعى (ص ٢٤٨)

* * *

وفيما يختص بالمسيح عليه السلام وقصة ميلاده يقول المؤلف :

« يجب أولا أن نلاحظ أنه ليس هناك أى موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتقادات من وجهة النظر العلمية دون أن تجده فى القرآن (أى تجد الموضوع لا النقد) والمسيح فى — القرآن موضع إشارات عديدة منها على سبيل المثال — إعلان ميلاد مريم إلى أبيها ، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم — وطبيعة المسيح — فهو نبى يحتل المكانة الأولى بين الأنبياء .

إن سورة «آل عمران» وسورة « مريم » تخصصان فقرات طويلة لأسرة المسيح ، وهما ترويان مولد أمه مريم وصباها ، وإعلانها بأمومتها الخارقة ، والمسيح يسمى دائما فى القرآن بـ « ابن مريم » والقرآن يعطى نسب المسيح من جهة أمه أساساً ، وذلك أمر منطقى تماماً . « إذ ليس للمسيح أب بيولوجى وهنا . . ينفصل القرآن عن إنجيلى متى ولوقا اللذين يعطيان للمسيح كما رأينا نسبين من جهة الذكور وهى بالإضافة إلى ذلك مختلفة . . .

أما القرآن فإنه يضع المسيح من خلال نسب أمه من سلسلة نوح وإبراهيم ، ولا يجد قارئ القرآن أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل ونعنى الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح .

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون — بلا أى أساس — إن محمداً (ص) مؤلف القرآن قد نقل كثيراً من التوراة . . . ولو كان ذلك حقاً لتساءلنا من الذى دفعه ، أو ما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح ، وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيداً عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة ؟ على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه . (ص ٢٤٢)

* * *

وفى نهاية هذه الدراسة الممتعة الرائعة يقول المؤلف . .

« إن العهد القديم يتكون من مجموعة من

المؤلفات الأدبية أُنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً . . وهى بشكل عام مجموعة متنافرة جداً من النصوص عدّل البشر من عناصرها عبر السنين، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل . بحيث إن التعرف اليوم على مصادر هذه النصوص عسير جداً فى بعض الأحيان . . (ص ٢٨٤) .

ولقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر عبر سرد أفعال وأقوال المسيح بالتعاليم التى أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض ، والسيئ هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التى أخبروا بها . . أنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة . وذلك فى شكل أقوال متوارثة — شفهية أو مكتوبة — اختفت اليوم بعد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهى ، والنصوص النهائية ، ولقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هو التناقضات والمتعارضات التى أعطينا عليها أمثلة عديدة (ص ٢٨٤)

أما القرآن فإنه لا يخلو فقط من متناقضات الرواية — وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل — بل يظهر أيضاً لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية ، وعلى ضوء العلوم طابعه الخاص : وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة . . . بل أكثر من ذلك يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنسانا فى عصر محمد (ص) قد استطاع أن يؤلفها (ص ٢٨٥) .

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تظهر الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة . . .

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر . . لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله . . وأن تعطى له مكانة خاصة جداً . . حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو وكأنها تتحدى أى تفسير وضعى .

« وإنه لكتاب عزيز » . . .

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . . . »

صدق الله العظيم

د . عبد الودود شلبى

فهرس العدد

صفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

Hud, Saleh and Shuaib with imposture; Moses too was charged with imposture.

The Lord hath respited those unbelievers for the allotted span of their lives; then he destroyed them and lo, how severe His disapproval was, and what a change He hath wrought !

How many a city whose people were ungodly hath the Lord destroyed because of their wrong-doing and rendered desolate and in ruins; and how many a well hath been abandoned with no one to draw water therefrom after the destruction of those people; and how many a lofty castle hath the Lord deprived of its inhabitants.

Have those people not journeyed in the land to witness the destruction of the unbelievers and take warning thereby ! Nay but their hearts are blinded and their minds rendered deficient of understanding **through** the following of passion and indulging in vain imitation".

(*Baidwy's Commentary.*)

«To be Continued.»

حفيد خليفة — ينصح خليفة

كان عبد الله بن عبد العزيز العمرى (حفيد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأموى) يسعى فى مكة بين الصفا والمروة ، وكان هارون الرشيد أمير المؤمنين ممن شهد الموسم ذلك العام ، فأقبل الرشيد بموكبه يسعى ، فلما رقى هارون درجات الصفا هتف به ابن عمه سليل بنى أمية :

— يا أمير المؤمنين ، انظر بطرفك إلى البيت .

ولم يكن يومئذ بين البيت وبين المسعى هذه الجدران القائمة ، فالتفت أعظم ملوك الدنيا يومئذ إلى جهة الحرم المكى وأجاب مخاطبه قائلا :

— قد فعلت . . .

قال العمرى : كم من الناس ترى ؟

قال الرشيد : ومن يحصيهم إلا الله . .

Abu-Sufian Ibn Harb was the one thus addressed. He was an unbeliever and a bitter enemy of Muhammad at the time. On his way out from the presence of Heraclius, he is related to have said to those in his company, "The influence of Muhammad hath become so great that the Emperor of the Romans feareth him."

When he embraced Islam later, Abu Suflan is related to have said, "I continued to entertain a strong belief that the mission of Muhammad would ultimately prevail until the fulfilling of the Lord's decree to guide me unto Islam."

The questions which Heraclius put to Abu Sufian and the investigation that followed thereafter convinced him, beyond all doubt, that Muhqmmad was the Promised Prophet.

Every sane and normal person who hears of these questions and the investigation that followed, will readily recognise the great ingenuity with which the discussion was conducted thus contributing widely to the establishment of the truth.

Another sign testifying to the truth of a prophet, is the Divine rule that the Lord giveth His support to His chosen ones and afflicteth their enemies with failure, and no matter what betide them, the final victory will be granted the righteous.

It is feasible on consideration of this aspect of the truth, to recognise the favours which the Lord hath bestowed upon the Prophets and true believers as well as the punishment which He hath inflicted on the unbelievers.

This latter aspect of the truth has become well established through the constant corroboration it had received from such events as the Deluge and the drowning of Pharaoh and his host.

It was frequently referred to in the Quran as in the following verses :

«وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ
وَقَوْمُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ
مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ .
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ
قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» .

"And if your pedple charge thee (Muhammad) with imposture, thou art not the only one who hath been so charged; the people of Noah, and Ad and Themoud, the people of Abraham, and the people of Lot, and the inhabitants of Madian, have charged their Prophets Noah,

We then asked whether they had ever accused him of falsehood before he proclaimed what he preached; to this they answered in the negative whereupon Heraclius explained, "He would not have obstained from lying to men and then have lied about the Lord.' Such wduld have been a deliberate lie, positively against his principles, and could only have been told by someone who was in the habit of telling untruths. Moreover, if lying was not a characteristic of his, having always been known to tell the truth, and averse to lying to people, he would be more so it regard to Allah.

Heraclius then inquired whether the number of his followers had increased or decreased; to this they answered that they had certainly increased, whereupon he explained "Such is the course of true belief until it is rendered perfect and complete."

He then asked whether any of his followers had ronounced his faith, out of aversion to it, after embracing it; to this they answered in the negative; whereupon he explained, "Such is the case with true belief when its sheer joy penetrateth the hearts of men."

He then inquired whether his followers had remained steadfast to his faith and had continued to uphold its tenets; to this they answered in the affirmative, whereupon he explained, "This again is a sign of truth : for falsehood is bound to be exposed in the end with the result that his disciples would desert him and that others would decline to adopt his Faith.'

The early Prophets have declared that the reign of the false claimant to prophethood is shor-tlived.

Heraclius further inquired whether Muhammad had ever been known to betray a trust; to this they answered in the negative; whereupon he explained, "So it with the Prophets; they betray not their trusts"

He knew that Prophets received the support of as well as trials from the Lord. It has always been the Divine rule to exercise the faith of the Prophets and the true believers, in both prosperity and adversity, so that they may attain to resignation and gratitude.

Finally, Heraclius inquired of them regarding what Muhammad had enjoined. On learning of them that he enjoined the worship of Allah as well as prayer, truthfulness, purity and charity and that he forbade them to worship what their fathers had worshipped before, he said, "This is a sign of a true prophet; I knew that a Prophet would appear, but it never occurred to me that he would be from amongst you. If I know that I should be able to attain to him safely, and were to come into his presence, I should be glad to wash his feet."

those who were in his company to contradict him should he tell an untruth. But they, one and all, agreed to what he said despite their eagerness to refute the claims of Muhammad and to belittle his influence.

By so doing Heraclius meant to ascertain the truth of Muhammad's prophethood through the considera-tion of his qualities and conduct as well as the circumstances in which he was placed. A most ingenious process indeed of establishing the truth.

"Have any of his forefathers been a king ?" inquired Heraclius.

"No," said they.

"Has any one, from among the Koreish, prior to him ever made this claim ?" he continued.

"No," they replied.

"Is he of noble descent ?" asked he.

"Yes," said they.

"Did you ever accuse him of falsehood before he made that claim ?" he inquired.

"No," they made answer, ,,we have never known him to tell a lie."

"Do the mighty follow him or the humble ?" he questioned.

"The humble follow him," said they.

"Do his followers increase or decrease ?" inquired he.

"They increase," they replied.

"Have any of them, after having embraced it, renounced his faith out of aversion to it ?" he queried.

"No," they answered.

"Was he ever known to betray a trust ?" he asked.

"No," said they.

"What doth he enjoin you to do ?" askcd he.

"He enjoineth us to worship Allah alone and to associate naught else with Him, ordaineth prayer, truthfulness, purity and charity," they said.

Heraclius then explained the significance of those questions thus : He asked them whether one of his forefathers was a king and they answered in the negative, whereupon he said, "had one of his forefathers been a king, I wduld have said, a man claiming the kingdom of his father."

We asked whether any one of the Koraish prior to him had made that claim and he receivcd the same answer; whereupon he said, "Had any one prior to him made that claim, I would have said "a man following an instance set before." This, no doubt, was a thing of frequent occurrence among men, in contradistinction to proclaiming something that was never known to the people before, of to the institu-tion of new practices diametrically opposed to their old. Such latter innovation is indeed, of rare occur-rence; nevertheless it could take place.

It was becouse Khadija[1] knew Muhammad to be true and righteous that she said to him when he betrayed fear on receiving the Revelation for the first time "Nay, By Allah ! Allah shall never put thee to shame, for thou givest unto the kindred, supportest the weak, dost lavish hospitality on the guest, renderest succour to the needy and relievest the misfortunes of the afflicted."

It is the Divine rule that those endowed with noble and unimpeachable conduct enjoy the favour and support of Allah.

Should the one blessed with these attributes fulfil the other requirements of the Prophets, he would be recognised as one of them, particularly if his advent was foretold and his distinctive qualities were known to men. Such knowledge should lead to a positive conviction that he is the promised prophet. It is in reference to this, that the Lord saith :

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

"The learned people of the Scripture know Mohammad by his qualities even as they know their own children, but some pertinacious cavillers from amongst them conceal this fact though they recognise its truth."

(*Baidawy's Commentary.*)

On inquiring of the Moslems regarding what Muhammad preached and on requesting them to recite the Qoran, the Negus of Ethiopia came to the conclusion that the revelation of Muhammad bore the same stamp as the revclations of other prophets. He is reported to have said "Verily the revelation of Muhammad and that of Moses issue from the one and the same source."

It is reported that Waraka Ibn Nowfal, who embraced Christianity in pre-Islamic days had said unto Muhammad regarding the revelation "Thit is the Nomos who descended on Moses, and your people shall drive thee out." The Prophet inquired whether his people would do that; whereupon Waraka said "No man hath ever preached what thou hast preached, but hath made enemies, and if I live to see your day, I shall give thee my strong support," but he did not survive and died shortly afterwards.

Heraclius[1] inquired of Abu-Sufian (who was then an unbeliever) regarding Muhammad and ordered

(1) First wife of the Prdphet and his only wife for five and twenty years.

(1) Heraclius (575-642) East Roman Emperor proclaimed in the year 610 A.D. In 629 A.D. the Arabs made their first incursion into his domains. In 36 they won a notable victory on the Yermuk (Hieromax) and in the tollowing years conquered all Syria, Palestine and Egypt.

knowledge and duties are the most noble of all accomplishments. It is incredible, therefore that the true could be confounded with the false and that truth and imposture should remain undiscovered in face of such indications. It is particularly so when we remember that the world has never ceased to be influenced by some Prophet or other from the time of Adam up to the present day.

Nor is mankind unaware of the kind of revelation proclaimed by the Prophets and Apostles of Allah, the influence of whom still prevails on earth, for men still retain some impressions of those Prophets by which they can recognise the verity of their claims and distinguish between prophet and impostor.

Assuming therefore, that someone came unto mankind, enjoining theocrasy and idolatry and preaching wickedness, iniquity and disbelief in Allah and the Day of Judgment, would such a man be required to perform a miracle or expect to be believed ? And even granting that he happened to perform what appeared to be a miracle, it would only be a clever piece of ellusion or some sort of charlatanism. In a word, the innermost of man's thoughts whether right or wrong, good or evil are bound to show on his face, through the slips of his tongue — nay, even in thc very gestures he unconsciously makes.

It it is of such people that thc Lord addressed his Prophet thus :

«وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ
بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»

,,Shduld We please We would point the hypocrites out to thee, and thou shalt surely recognise lhem by the peculiar signs whereby We have marked them and by the erroneous perversion of their words."

(*Baidawy's Commentary.*)

And if man's innermost thoughts could be detected without being voiced, they would even be more amenable to be fully understood should they be accompanied with some actual expression thereof.

Again, if the truth or imposture of a speaker could be inferred from the circumstances, nay, even from the very slips of the tongue or twitchings of the face, then how could the truth or imposture of someone who claims prophethood remain undiscovered ? And how could the true remain undistinguishod from the false in the face of such evidence.

Again, people know of their elders and fellow-beings, whose truth and veracity they have long tried, that they do not deliberately tell a lie. We do not deny that man is liable to change and become the intentional liar that he never was before. But when he does so, those who know him will not fail to perceive the change that has come over him.

CHAPTER 4

To complete our subject, we summairse in the following pages a long discourse of Ibn Taimiyya's, one of the most learned doctors of Islam in the seventh century of Hejra.

No one has honestly claimed prophethood but hat displayed such signs as wisdom, truth, charity and other virtuous attributes which constitute a proof of his genuineness.

A prophet necessarily preaches and enjoint certain truths and tenets. He has moreover certain dutiet to perform. Not so an impostor, whose falsehood will be readily detected in whatever he does or says.

When two persons claim something, the one being true and the other falsc, the truth of thc former and the lies of the latter are bound to be revealed in more than one way, for truth is requisite to righteousness and falsehood necessarily implies wickedness. The true is guided by inspirations from on High which urge him on ward and lead him unto the right path. The light and the good example which he affords to mankind could never be attained by the impostor who is influenced by Satan. Of such the Lord saith :

«هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » .

"Shall I tell you on whom satans descend ? They descend on liars and wicked men."

(*Baidawy's Commentary.*)

It is shown that satans hold communion with the wicked. Soothsayers, who, even through they should chance to predict some unknown event which proves to be true, are essentially wicked impostors whose pretensions will be exposed. They have no real claim to prophethood and what they reveal could not be the outcome of divine inspiration.

Those, however, who know the truthfulness, integrity and consistency in word and deed of the Prophet Muhammad, will realise, out of real conviction, that he was no soothsayer or impostor.

People can easily distinguish between the true and the false by means of the many indications manifested even among those who profèss knowledge of arts and handicrafts. As the truth or falsehood of such people is easily discernible from many stand points, so it is with him who proclaims, in word or deed, a faith of love, righteousness and truth; his genuineness or imposture is bound to be revealed sooner or later.

Prophethood implies certain knowledge and duties by means of which a prophet is known. Such

And :

«يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ» .

"They will find his name and qualities clearly given in the Torah and Evangel."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

«تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» .

"Let us call together our kinsfolk and your kinsfolk and make imprecations on those who lied concerning Christ."

(*Alucy's Commentary.*)

As already alluded to in the beginning of this chapter, the Christians who came to dispute with Muhammad, were dumbounded and never as much as uttered a single word when they were challenged by him to make imprecations.

To the just and fair-minded among them this was proof positive of the truth of Muhammad's prophethood and not a few of the eminent men and learned rabbis, such as Abdullah Ibn Sallam and Mocharich, believed in him.

It is incredible that such a man as Abdullah Ibn Sallam, one of the most learned rabbis who were versed in the Law would have believed in Muhammad had he been an impostor. Nor would the Christians of Najran have ignominiously withdrawn from making imprecations after accusing him of falsehood and deceit.

Moreover, it is highly imporobable that Muhammad, had he been an impostor, would address them in such a way and upbraid them with the fact that he is known to them ,,even as they know their own children."

Nor is it imaginable that he would dare, unsupported, to maintain such an assertion for it would have driven them away from him and made him an object of scorn and derision.

Had Muhammad not been a prophet as it is alleged, he was admitted by the unbelievers to have been the most prudent of men. He would have been most imprudent and ignorant had he claimed to be what he was not. His enemies would have found in him an easy prey, and the great edifice which he had succeeded in raising, would have long ago toppled to the earth in ruins.

impostors claiming prophethood for that would be incompatible with the wisdom and justice of The Lord.

"There will come after me false prophets" saith Jesus Christ and on being asked what will their sign be, he answered "Their sign will be that The Lord shall not support them."

The support extended by Allah to the Prophet Muhammad exceeds, by far, such as was rendered to any of the Prophets before him. The great change which took place after his mission is unprecedented in the annals of anterior religions. Any one, who deems it possible that The Lord should support Muhammad and cause him to prevail when he was a lying impostor, would be guilty of gross ignorance of the proper attributes due to The Lord as well as His Justice and Wisdom and of the divine laws governing His creatures.

Moreover a lying impostor could not hide his false attitude all his lifetime—particularly from his most intimate friends.

It would be impossible that such hypocrisy and deceit should remain unexposed for any length of time. Truth has a distinctive quality which vanity completely lacks, and deception is but a false mask which vanity completely lacks, and deception is but a false mask which the lapse of time is bound to tear off some day.

This is more so in the case of someone who has a host of inexorable enemies as Muhammad had.

Yet the history of his companions such as that of Abu-Bekr and Omar bear a glowing testimony to his integrity and moral perfection, for mutual harmony could be achieved only in proportion to the affinity that exists between kindred souls. Character is affected by character and is ultimately tinged with the peculiar traits thereof and this is particularly so in the case of master and disciples where deep and true affection exists.

Nor is that all; the material phenomena alone performed by Muhammad more than substantiate his claims. They were cited from the most reliable sources and never, in a single instance, lacked the corroboration of history or tradition. Had pertinacious cavillers been endowed with a sense of justice and were they seekers of truth alone, they would have, unhesitatingly, believed in the authenticity of the Qoran which never failed to re-iterate such verses as :

«ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ » .

"Those who were given the Scripture know Muhammad even as they know their own children, for his name and qualities were clearly given in their books".

(*Baidawy's Commentary.*)

tangible proofs and natural phenomena for these others fail to appreciate the fundamental truth on which rests the salvation of mankind and their elevation to the highest possible standard of moral and spiritual excellence.

They fail to comprehend the reality of things and lack those finer blessedness of the Kingdom of Heaven to which they aspire.

In no other wise could man achieve refinement in the material and spiritual spheres.

To those of deep insight and penetration, there could be no greater proof of truth than the actions of the claimant to prophethood, his spiritual and moral worth and his striving for the salvation and well-being of his people to render them foremost in Heaven as well as on earth.

Such was the state of the Moslem people at the time when they adhered strictly to their Faith and its tenets. It would, indeed, be impossible that such far-reaching and important results could be achieved without divine support. The history of the failure of philosophers and others who wielded earthly power fully bears out such a conclusion. Moreover, it should be remembered that Muhammad was brought up among the savage and ignoront tribes of the Arabs which fact constitutes a proof in itself.

It is not our intention to discuss in detail the characteristics and miracles of Muhammad. Nor is it our desire to dwell long on the fact that falsehood does not become such a perfect soul. "I have been sent to perfect the traits of noble conduct" was Muhammad's message unto mankind.

A great soul such as Muhammad's could hardly be prone to deceit, for deceit is a characteristic which has a most pernicious and detrimental effect on souls and is positively a sign of utter depravity and degradation.

It is an established fact that he who lacks something, cannot but fail to give that thing, that the true character of a person will in course of time be revealed, whether he willed it or not, and that the soul of man will be lain bare not only through his words and actions but also through his very gestures.

It is recorded of some Arabs that on beholding the divine light of truth which radiated from Muhammad's face, they exclaimed: "Verily this is not the face of an impostor" and consequently believed in him(1).

Suffice it to say in this connection that Muhammad was so noted for his noble conduct and unimpeachable character that the people of Qoreish called him "The Faithful".

Moreover, it has never been the divine rule to give support to

(1) The same statement is recorded of Abdullah Ibn Sallam a learned Jewish rabbi.

superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anythink like it. Nay but they could not do it even though they co-operate together for the purpose and support one another all they can."

(*Alucy's Commentary.*)

Could such an extraordinary utterance be made by a wavering impostor ? Impostors are known, the world over, to be a cowardly lot who feel apprehension on the least possible provocation.

What great faith and conviction must have filled that heart from whence issued at The Lord's behest this significant verse :

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» .

"Would the unbelievers not peruse the Qoran and meditate upon its exhortations that, haply, they may avoid such sins as they have committed; Nay but their hearts are so completely sealed against meditation that no word or truth could find a way thereunto."

(*Alucy's Commentary.*)

Much more could be written on this point, but we must present the case from other angles.

On further consideration, it will be readily recognized that the elevation of the Arab people from the lowest depths of ignorance to the highest attainments of knowledge, from servile humiliation to exaltation, the inclucation in them of a most efficient culture and noble conduct in every sphere of life, had so transformed them that every single individual of their nation had become a power in himself after having been akin to the beasts of prey. They had been guilty of oppression and infanticide, an atrocity from which even animals they achieved distinction as the greatest statesmen and leaders of their time and the light that was theirs was, henceforth, shed all over the earth.

To those of sound judgment and clear insight, this proves beyond all doubt that the source of such a great Faith was the very incarnation of all good and perfection, for the virtues with which one person imbues others must, of necessity, be commensurate with his moral worth and attainments.

The object of all divine dispensations is but to deliver mankind from the pernicious evils that beset them and to implont noble conduct as well as the secret and open fear of God deep in their hearts : for this is the basis of all good and prosperity. The Prophet Muhammad is, in this respect, the greatest of all Prophets and this in itself affords ample evidence of the truth of his prophethood for those who set a value on moral proofs. As for the others, we would refer them to the more

«وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» .

"But they shall never wish for death, on account of the sins they have committed."

The Jews claimed that Paradise is exlusively assigned to them to the exclusion of all other people. In refutation of their claims, they were challenged to wish for death if they were so sure of going to Heaven, but they dared not wish for it, even perfunctorily, despite their eagerness to refute his claims.

(*Baidawy's Commentary.*

So much for this digression; to resume the main subject, the failure of the Arabs to emulate the Qoran was proof positive, against them as well as all others, of the divine origin of the Qoran—even as the healing of the blind and the leper by Jesus was considered a proof against medical practitioners, and the turning of his staff into a serpent by Moses a proof against magicians. Yet the successive corroboration sustained by authentic Muslem traditions and versions have never fallen to the lot of Moses, Jesus or any other prophet; in fact such corroboration is completely lacking in their case and it was only through the Qoran that their miracles were confirmed.

Should we consider fairly the Book revealed to Muhammad, we would readily recognize the Divine Source whence it issued. The reader who studies the Qoran carefully would find that it enjoins no more than the worship of Allah, noble conduct and kindly treatment of men, thus leading to the path of salvation and to the urging to mercy and benevolence towards Allah's creatures. It maintains the unity and infallibility of Allah and points out the love and reverence due unto Him. It further enjoins to entertain no awe except of Him and to seek no refuge save in Him (for He considereth none of men's outward appearances but looketh deep into their hearts) in order that they may attain through faith and integrity, the highest of all virtues and the acme of perfection.

Had this Book been faked for some ulterior motive or other, we would have found it altogether different and it would have been a medley of confusion and contradictions instead of being the model of sublime wisdom and perfection that **it is.**

No wonder, therefore, that The Lord saith in this connection :

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» .

"Were men and Djinn assembled to produce something equal to the Qoran in eloquence, rhyme and

people could only proceed from a soul completely devoid of personal ends and desires. Had this not been the case, he would necessarily have lapsed into contradiction and confusion in the pursuit of different ends and according to the ever-changing phases of circumstance.

The following verse is significant in this connection :

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا
فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً» .

"Had the Qoran been a discourse of men as the unbelievers allege, they would not have failed to detect therein many incongruities and contradictions."

(*Baidawy's Commentary.*)

Would not his wide vision, comprehending as it did all spheres of human life, constitute another sign of the truth of his prophethood ? There was not a single concern of man to which he, through Divine Inspiration, did not prescribe the adequate means for the right conduct thereof. He pointed out the proper attitude in regard to Allah which leads to the elevation of man's mind and the salvation of his soul, acquainting him thereby, with the finer and higher attributes that dwell within him. Nor was the treatment of family or of people in general left out; relations with them were so happily ordered to ensure a peaceful and contented life.

Would not the failure of the Arabs — who were the acclaimed masters of eloquence and oratory — to emulate the Qoran constitute yet another sign of the truth of his prophethood ? They were intent on the refutation of his claims and the suppression of his influence; but he contianued to upbraid them and to challenge them to disprove his words :

«فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» .

"Produce a chapter like that of the Qoran and summon all ye command of men and deities apart from Allah to help you in the attempt; but if ye fail to do it as ye are bound to, then fear ye Hell whose fuel shall be men and the hewn idols they worshipped, and which is made to receive those who disbelieved."

(*Baidawy's Commentary.*)

It should be observed that a prophecy is included in this verse foretelling the inevitability of their failure which was duly fulfilled. We have already alluded to the many prophecies foretold in the Qoran; a similar one is the prophecy concerning the Jews which runs :

«يَـٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ» .

"O people of the Scriptures ! An Apostle had come unto you making manifest much of what you have concealed of the Torah and the Evangel."(1)

(*Alucy's Commentary.*)

Yet another sign of the truth of Muhammad's prophethood is the giving in full detail, on being questioned by the Jews, the stories of Zul-Karnein(1), Moses, Jesus, the inmates of the Cave and Lokman and his son as well as that which had been forbidden and made lawful unto the Jews.

CHAPTER 3

The attitude of Muhammad towards the Christians was just the same; yet, in no single instance, did a Christian or a Jew dare to deny his integrity and singleness of heart, despite the bitter hatred and animosity they harboured against him and their eagerness to refute his claims.

Did he not call upon the Christians at the behest of the Lord :

«تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» .

"Let us call together our kinsfolk and your kinsfolk and make imprecations on those who lied concerning Christ"(2)

(*Alucy's Commentary.*)

But they declined to do so, knowing the truth, and their chief spokesman, Al-Akeb, by name said "Ye have witnessed that the man is a Prophet and never did a people enter into imprecation against a prophet of God but they were destroyed."

The solicitude which Muhammad had shown for the guidance of his

---

that he is the son of God or that he is one of a trinity or that he is a mere prophet like all other prophets, etc., etc.

(1) Such as the description of Muhammad and the verse of stoning adulterers in the Law; and Christ's prdphecy of Muhammad by the name of Ahmed in the Gospel.

(1) A great prince of the pre-Christian era whose conquests extended far east and west. Commentators differ widely as to his proper identity but they all agree that he was a True Believer.

(2) The Christians of Najran sent a deputation to dispute with Muhammad concrening Christ. They agreed to abide the tria mentioned in the verse but at the last moment their courage failed them.

with his face cut and eye-tooth broken he turns unto the Lord in earnest prayer "O Lord, forgive my people, for they know not what they do."

Thus in the midst of his afflictions he would find an excuse for his pepole and pray for their forgiveness.

Such tolerance and magnanimity could only proceed from a complete disregard of the material world and an implicit faith in the Almighty and the divine reality of truth.

Would not the spiritual light from Allah which filled him and enabled him to read with the feelings and inner workings of the human soul, all point to a supernatural attainment in the sphere of the unknown ? But one wonders not at this for The Lord saith in this connection :

«أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» .

"Shall not Allah who hath created all things know what men conceal or declare for His omniscience encompasseth all hidden or open thoughts".

(*Baidawy's Commentary.*)

Yet Muhammad was illiterate and had never travelled searching for knowledge nor held converse with any of the contemporary men of learning as is testified by history, for he was brought up an orphan among an ignorant people. Nor was trade such a vocation of his that he could be assumed to have come into contact, in the course of his journeys, with the sons of advanced nations such as those of Persia and Rome; moreover all other such assumptions lack the corrboration of history and tradition, for Muhammad had neither the means nor the desire for the material world that would induce him to take any trouble on that account.

Is it not a sign of the truth of his prophethood to hav told of past peaple and remote generations, such events as were only known to the high priests of the Scriptures with whom he never came into contact - such events as were most guardedly kept from even their most intimatc adherents.

Muhammad had severely taxed them with the distortion of the Scriptures and the withholding of many truth contained therein, and yet he used to make known these truths as signified by the following verses :

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»

"Verily this Qoran declareth unto the Jews and Christians the truths of many points concerning which they are continually at variance".(1)

(*Alucy's Commentary.*)

---

(1) Such points as they disagree upon are the conception of Jesus as a God or =

The faith of men in Muhammad wduld have, undoubtedly, been shaken and they would have deserted him had it transpired that his knowledge of these hidden thoughts was unfounded and that such detection was mere conjecture on his part.

It is incredible that Muhammad shduld prejudice his chances of maintaining his cause by claiming other than the truth for he would, consequently, have been exposed to utter disgrace.

Would not the fervent zeal which he displayed in calling the people unto their salvation in this world and the hereafter, be considered a sign of perfection and nearness to the Almighty ?

So great, indeed, was his anxiety guide to the people unto the path of righteousness that The Lord addressed him thus :

«فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ» .

"Spend thou not thyself out of sorrow and grief over the unbelievers and their persistence in disbelief".

(*Baidawy's Commentary.*)

His sole objective was to guide them unto a higher sphere of conduct and give them that great system of laws which raised the Arab nation from the absymal depths of humiliation into which it had sunk, to the very zenith of might and glory.

He had, thereby, made them masters after being the abject creatures that they had beed and rendered them through those glorious teachings, the mightiest nation on earth after having absolutely been the most despicable of all.

Erudition and learning flourished, and many great philosophers and thinkers distinguished themselves and lead the world unto the untrodden paths of inquiry and research. So thorough, indeed, was the treatment of their subjects that many of the scientific and philosophical theories of to-day still bear the unmistakable stamp of the particular systems of thought of which they were the world's pioneers.

"Christianity", remarks Draper[1] the celebrated American scientist "continued for one thousand years without the appearance of a single scientist or philosopher of any attainment while Islam could boast of thousands, of distinguished men within a few years of its revelation."

Would such a soul which well nigh spent itself with anxiety or the salvation of others be capable of falsehood and deceit ?

Would not his mercy and tolerance which he displayed at Ohod speak for themselves when

(1) Draper, John William (1811 - 1882) American scientist, who wrote among other treatises "The History of the Conflict between Religion and Science (1875).

they will only be defeated and none would afford them victory over you."

(*Baidawy's Commentary.*)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

"We have sent down the Qoran whose revelation the unbelievers deny; and We will preserve it from distortion and corruption."

(*Alucy's Commentary.*)

« وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » .

"Allah hath promised you victory over the unbelievers and you aimed at the spoils and the avoidance of danger, but Allah willed to exalt His Religion qnd make manifest the truth by giving you the promised victory over the host of the unbelievers".(1)

(*Baidawy's Commentary.*)

« إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً »

"When the Lord shall cause thee to prevail over the unbelievers, and the people shall betake themselves **in multitudes** to the Religion of **Allah.**"(1)

(*Baidawy's Commentary.*)

All these prophecies and many others were fulfilled, one by one, and their entire significance was fully unfolded to the world; otherwise the enemies of Islam would have gloated over its failure, and its followers would have forsaken it instead of multiplying in numbers as has been the case.

Furthermore, would not the detection of the innermost secrets and workings of souls, as testified in the following verses, bear ample evidence to the truth of Muhammad's prophethood

« وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ » .

"The hypocrites who feigned belief would say amongst themselves, 'If Muhammad were a prophet would he not invoke The Lord to punish us because of our disbelief and hostility to him."(2)

(*Alucy's Commentary*).

(1) At the Battle of Badr the unbelievers were encamped in two parties, one a caravan under Abu Sufian and guarded by only forty horsemen and the other was the mass of their fighting force under Abu Jahl which latter was defeated by the Moslems in fulfilment of God's promise.

(1) This took place in the ninth year of the Hejra when Mecca was reduced to submission and its inhabitants submitted to Islam as well as the pedple of Al-Taif, Yemen, Hawazen and other tribes who came willingly to Muhammad to profess th Faith.

(2) The Jews and hypocritical Moslems plotted secretly against Muhammad and derided him in their private discourse, although as this proves that this secret plotting was divinely revealed to Muhammad.

prophethood ? The following verses would serve as an example :

«سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» .

"The host of unbelievers shall be utterly routed and shall take to disordered flight."(1)

(*Alucy's Commenetary.*)

«غُلِبَتِ الرومُ فِى أَدْنَى الأرضِ
وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ »

"The Romans have been defeated by the Persians in a near land : and after their defeat, they shall overcome their foes."

The unbelievers of Mecca rejoiced at the victory, as the Persians were unbelievers like themselves and the Romans were followers of the Scriptures like the Moslems. The verse was thus revealed foretelling a victory of the Romans over the Persians which was fulfilled a few years later(2).

(*Baidawy's Commentary.*)

«لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ
اللهُ آمِنِينَ » .

"Ye shall enter the Sacred Mosque, if Allah pleases, in fully security".

The Moslems were promised to enter Mecca in full security and the verse was revealed to the effect that they would enter the Sacred Mosque in Mecca, which entry was materialised soon after.

(*Alucy's Commentary.*

«وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى
لَهُمْ » .

"Allah hath promised the True Believers to exalt Islam and cause it to triumph over disbelief, and cause them to succeed the unbelievers and make them His viceregents on earth, as he caused the Israelites before to succeed the infidels; and that He would establish Islam which He has been pleased to give unto them."(1)

(*Kashaf's Commentary.*)

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ
يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » .

"The unbelievers shall inflict no grievious harm on you, nay, naught but slight injuries and threats and if they engage in battle against you,

(1) Referring to the battle of Badr.

(2) Vide footnote page 22.

(1) In fultfilment of this promise, the Moslem conquests extended from China in the east to Morocco and the Atlantic in the west, a mighty evidence of the far-flung dominion and exaltation of Islam.

us after death and unto Him shall we return."

On putting on a new garment, he would say, "Praise be to Allah who gave me the wherewithal to adorn myself in life."

When he ate, he used to say "Praise be to Allah who hath provided us with food and by Whose pleasure we are Moslems"; and when he drank, "Praise be to The Lord Whose infinite mercy maketh water to be fresh and sweet — not salt and bitter because of our sins."

When he broke his fast, he wont to say "Praise be to Allah Who hath aided me to fast and Who hath given me to eat."

On turning in bed during the night, he would say "There is no God but Allah, The One, The All-Mighty, Lord of The Heavens and thc Earth and what lieth between them, the All-Mighty, the Ever-Forgiving."

Should he wake up during the night, he wduld say, "O Lord forgive us Thy mercy and guide us unto the right path."

Shduld he feel apprehension of certain people, he was wont to say, "O Lord ! Be Thou our weapon to pierce them, our shield against them, and our refuge from their evils."

When he would come out of his house, he would say "In the Name of Allah do I depend for there is no Power nor Might save in Him; and I seek refuge in Him from misguidance, error and oppression or being lead by others thereto."

When beholding the new moon he would say, "May it be an auspicious augury of guidance and good unto my people. I extol Allah Who created you !"

Should he raise his eyes towards the heavens he wduld say, "O Thou Director of Hearts ! Make firm my heart in Thy obedience;" and if he had occasion to swear by the Lord he would say "By Him in Whose hands lieth the soul of Muhammad."

If the wind blew he would say, "O Lord, grant us the good it bringeth and preserve us from the evil thereof."

Such was Muhammad in all his actions, completely given to the thought of Allah and ever seeking His aid and support in whatever project he might set out to do. No might or power, indeed, did he ever attribute to himself or others where Allah and His couse were concerned; he reposed his faith in Allah to the exclusidn of all others and thus was wont to say "Sufficient unto me is The Creator apart from the created, The Provider apart from the provided for; sufficient unto me is He Who sufficeth me; sufficient is Allah unto me for He is The Most Excellent Sufficiency."

To resume our analysis. Wduld not the prophecies of future events which abdund in the Qoran constitute a mighty evidence of the truth and authenticity of Muhammad's

It would not be irrelevant to mention in this connection that once, when preaching to the people of Al - Taif to call them unto The Lord, Muhammad was so roughly handled and maltereated that he bled profusely, yet in the midst of his afflictions he turned to God in earnest prayer "O Lord, I appeal to Thee out of my weakness, my lack of resourcefulness and in complaint of the contempt and abuse of men. Yet if I but merit Thy favour, verily naught care I."

Can not such a magnificent display of faith and fortitude be considered ample evidence of the truth of his mission ?

An impartial broad-minded inquirer with a fair sense of justice, who analyses the character of Muhammad and puts his actions beneath of his mission and be convinced of his integrity and truthfulness.

The signs of the truth-teller as well as that of the impostor show not only in their actions and utterances, but also in their very gestures. A discerning critic or a psychologist can not mistake these signs, for indeed the states of man's mind and conscience are show nin his face, though little or nothing thereof can be detected in word or deed. Of such the Lord hath said :

«فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ
فِى لَحْنِ الْقَوْلِ » .

«Thou shalt surely recognise the hypocrites by the peculiar signs whereby the Lord hath marked them and by their erroneous perversion of words.»

(Baidaw'y Commentary.)

CHAPTER 2

As already pointed out, Muhammad was wholly given to the meditation of The Glorified. Allah was all in all to him and the awe and reverence due unto the Lord seemed to run through his very veins.

Like all other Prophets and Apostles, he used to attribute everything to the Lord. Should any good come his way, he was wont to say, "Praise be to Allah by whose grace our blessings are endered complete." And should a misfortune befall him, he would say, "Praise be to Allah in prosperity and adversity."

Should he contemplate an action, he would solicit Allah's aid saying "O Lord, grant me the good and guide me unto what is right"; and should he set out on a journey he would pray unto Him, "O Lord, of Thee do I ask strength and seek support."

On going to sleep, he was wont to say "In the care of Thy Name do I lay me to rest"; and on rising, "Praise be to Allah who quickeneth

that his own people had never imputed to him a single lapse from virtue or a vile action despite the fact that he never ceased disparaging their mentalities and fearlessly reviling their so called gods; you must realise that such a man could never be an impostor.

A man like Muhammad could not possibly lie—he who proclaimed the greatness of God in such an unprecedented manner and relentlessly strove against those who imputed falsehood unto Him.

Again had he been an impostor, he could not, try as he might have helped lapsing into confusion and contradiction and would have thereby been exposed to ridicule and disgrace.

He could never have been the source of perfection or the guide unto goodness and righteousness that he was.

The position of Christians in denying the prophethood of Muhammad is identical with that of the Jews in denying the prophethood of Jesus. Why then should the Christians attack the Jews when they themselves are guilty of an identical sin.

Imagine ! Islam spread to the furthest corners of the globe in less than a single century Imagine it ! Imagine the mighty Truth that was in it that caused its revelation to spread like a flame across the world ! The eagerness with which it was welcomed, the support it received, and the faith and devotion it inspired must surely suggest, even to the most prejudiced, that here was — and is — a religion coming direct from the Lord of All : for, when in the history of the world do we find any religion that spread to the four corners of the earth in such a short period !

The zeal and self-sacrifice shown by Muhammad in the guidance of mankind constitute an irrefutable proof of his belief in the truth of that Divine Reality which filled his heart and soul; so much so that the Lord addressed him thus :

«فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ
إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً»

«Grieve thou not too much over the unbelievers who believed not in the Qoran, for haply thou mayest kill thyself out of grief over them.»

(*Alucy's Commentary.*)

So great, indeed, was his faith, that all threats and persecutions affected him not. It seems beyond human endurance to have suffered unflinchingly what Muhammad suffered in the course of announcing his divine message. Yet Muhammad, a mere man, supprised with divine fire as he was, bore all.

The most cursory persual of his early history would suffice to convince the reader of his integrity and of his belief in the truth of his mission.

deaf to hear the sound of cannon, or the blind to behold the brilliance of the radiant sun !

Small wonder, therefore, that they are bound to remain in doubt and disbelief and that the Lord saith concerning them :

«وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» .

«Were We to send down the Angles to announce unto them the truth of the apostles, were We to quicken the dead to bear witness thereto and were We to cause all things to confront them face to face and testify to such truth, they still would not believe.»

(*Ibn Kathier's Commentary.*)

«وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً» .

«Even if they hear the revelations recited, or see the miracles performed they would not, out of obstinacy, believe therein; and if they see the path of truth and righteousness, they would not take it; and if they see the path of error and misguidance, they would choose to take it for the satisfaction of their passions.»

(*Alucy's Commentary.*)

So much then for those hopeless few; to resume our main discussion, we would like to point out that it would have been easy to prove many of Muhammad's miracles which were established beyond all doubt through authentic successive corroboration of facts pertaining thereto and to dispel all suspicions, and banish all doubts regarding the truth of his mission. But we decline to enter into such lengthy discussion and prefer to choose a short cut leading thereto; and thus in making our appeal to your mind and reason, we are only meeting the demands of the present era which is definitely one of reason and research.

A thorough analysis of the precepts of Islam and a careful consideration of that pure heart through which flowed those divine waters of wisdom and salvation, will leave no room for doubt in the minds of inquirers regarding the truth of Muhammad's prophethood. For whosoever contemplates the fortitude of Muhammad in the times of trials and tribulations and the toleration with which he suffered all kinds of insults and persecutions, will scarcely doubt his honesty and his conviction in the truth of his mission.

Should you study his life you must inevitably come to the conclusion that Muhammad was distinguished by such noble conduct and unimpeachable character that he was called "The Trustworthy" long before his prophetic mission;

faculty and the human nature of its initial clearness and purity.

A philosopher has rightly remarked in this connection that «Scepticism is responsible for the demoralisation of many a good man» - and as such he will lack that uncontaminated instinet and that clear judgment to which he may turn for judicious decisions.

Suppose, for the sake of argument, that someone declared that he gives little or no creadence to all news and he regards it as positively unreliable on the grounds that it is possible that his informant may be telling a lie, or that he may have believed something contrary to what actually had taken place, or that he may have, inadvertently, told something else or that he may have, in speaking figuratively, told something other than the truth. In view of all these contingencies which the mind admits as liable but not certain to occur, there then could be, indeed, no confidence or trust in anything whatsoever.

Should he declare that he has no faith in any of the established principles such as those of grammar, etymology declension and the like on the grounds that those who compiled them from the original authors, are only a few persons who are liable to error and forgetfulness, he will go on applying the same argument to every statement of these writers and to every opinion of the exponents thereof.

What answer can be given to such sophistry ? And what argument can be advanced ? Can one hope from guidance or expect the reform of one who argues thus ?

Would it not be very hard to convince him — though you are absolutely sure that his assumptions are utterly unfounded ?

It is significant in this connection to quote the Qoranic Verse in reference to such people :

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

«Were We to throw open above them a gateway unto Heaven through which they mount to behold its marvels, they woued still declare out of sheer obstinacy and scepticism, that their sights were obstructed from beholding the real and that what they saw was a mere vision. Nay that they were even bewitched at the time.»

(*Baidawy's Commentary.*)

The Lord explained that they feigned to rebut that marvel which they have witnessed on the ground of the likelihood of defective sight or bewitched minds.

It would seem as if some of God's creatures lack the faculty of belief and can never be made to believe, despite all your endeavours.

Futile indeed is your endeavour, for it is as if you were expecting the

If we doubt the authenticity of Muhammad's prophethood, then how can we establish the prophethood of Moses or Jesus or the other Prophets — lacking, as they did, that consistent corroboration which was the lot of Muhammad ?

If the Christians, out of scepticism, will not accept the historical corroboration of the prophethood of Muhammad, how can they blame the Jews for being sceptic of the prophethood of Jesus — which, yet, Muslims accept.

It is always detrimental to let the forces of scepticism run riot in the mind, for this will not lead to truth.

As a result of such sceptical conjectures that the atheists deny the existence of Allah. Allah Who is the very source of existence—Whose existence is the most obvious of all facts and without whom nothing has a reasonable existence !

Others have doubt even in perceptible objects and declare that they do not denote knowledge of the object, as perception is often liable to err. They cite such errors of perception as may be witnessed in the apparent rushing past of the landscape while in a train or the apparent magnitude of a single grape seen through water.

Others albsolutely deny the existence of all objects and declare that objects are not real, but merely subjective.

Yet another school, the agnostics, were so hopelessly steeped in scepticism that they completely lost their way and had to confess their failure to comprehend the reality of things.

You will find through the study of the different doctrines and opinions expounded by the different schools of thought that the controversy raged fiercely regarding knowledge, which is known in itself and by means of which other things are known.

But as assumption and speculation found their way into knowledge, scepticism began to show itself in the doctrines of their exponents and the door was thus flung wide open for all sorts of unfounded conjecture.

Contradictory opinions were held by opposing schools. Some declare knowledge to be axiomatic and requires no definition. Others declare that it is indefinable owing to the intrinsic difficulty involved in comprehending its reality, while others declare that it is, *par se*, the known thing - for knowledge of fire is fire itself and knowledge of water is water itself. When, however, knowledge is conceived by the mind, it assumes another form and would become subject to different rules. Another raging controversy is that regarding existence and the existing object, and many other such hypotheses which are the outcome of mere conjecture nurtured by speculation and scepticism.

It is tragi-comical indeed to see such divergence of opinion. It seems to rob the mind of its inherent

The Prophet who maketh lawful into them the things which are rightly enjoyed and forbiddeth those things which are distasteful : he who mitigated the rigours of their rituals and tempered the severe stringency of their injunctions.[1]

As for those who believe in his mission and prophethood and reverred and supported him against his enemies, and followed the Qoran revealed unto him, those will merit favour and prosperity".

(*Alucy's* Bommentary.)

«رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» .

«O Lord, Thy mercy and knowledge are unbounded, they embrace everything. Forgive Thou those of whom Thou knowest true penitence and repentance and abandonment of sin : those who have followed the ordained path of righteousness; save them from the severe torment of Hell."

(*Alucy's Commentary.*)

The truth and authenticity of the prophethood of Muhammad could be easily proven by citing his many miracles which though they may be single open to criticism, could not possibly be gainsaid collectively.

To be sceptic would make it very difficult indeed to believe the records of any past king or prophet or any historical event. History then would be rendered unreliable and laws and conventions thrown into utter confusion.

The authenticity of Mohammad's prophethood is too consistently corroborated by the traditions of successive generations to admit of any falsehood or untruth. It would have been impossible for all those millions of people from East and West to concur as they did, on such a question, despite the difference of their races and the vast distances which separate their countries.

Regarding his miracles, it is unnecessary to detail them specifically, for it is unanimosly admitted that Muhammad was the medium for certain miracles to take place.

It should be borne in mind that many of these miracles were cited by trustworthy and impartial chroniclers related by others whose accuracy and integrity are beyond question.

It would be quite sufficient for such and event to be cited from any one absolutely reliable and authentic source, for it to be incumbent on us to accept it : but here we have not one but many consistent irrefutable corroborations.

---

(1) While this verse has a general application, it particularly referred to the Jews with their rigorous rituals and stringent injunct ions.

MESSAGE OF PEACE

A TREATISE ON ISLAM

By

Prof. SHEIKH YOUSSEF EL-DIGWY

Of Al-Azhar University and Member of The Body of Grandulama

Translated from Arabic

By

ALY Z. HUSNY M.A.

PART 2 «*Continued*»

The Prophet Muhammad

CHAPTER 1

«وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ
هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ
مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى
أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

«His Mercy encompasseth everything — even the evildoers : for is it not of His Mercy that He chastieth them that they may be aware of their evildoing ?

Yet most is His Mercy poured down upon those who refrain from sin and disbelief, those who give the ordained alms out of their wealth, and those who implicitely believe in all His Divine communications.

Most chiefly are they so blessed who follow the Apostle sent by Allah to make known His communications, the illiterate Prophet whose names and qualities are already set down in the Scriptures, The Torah and the Evangel : the prophet who enjoineth true belief and all good, and forbiddeth all evil.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**
SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

The fiftieth Volume   No 5   Ramadan 1398 H. — August 1978 A.D.



In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

قُرْآنٌ كَرِيمٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ *
الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ *
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا
الصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ .

The Meaning of
THE GLORIOUS QURA'AN

In the Name of ALLAH, the Beneficent, the Merciful.

1. Praise be to Allah, Lord of the Worlds,
2. The Beneficant, the Merciful.
3. Owner of the Day of Judgment,
4. Thee (alone) we worship; Thee (alone) we ask for help.
5. Show us the straight path,
6. The path of those whom thou hast favoured;
7. Not (the path) of those who earn Thine anger nor of those who go astray.

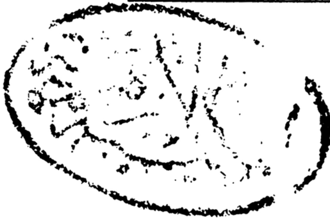
مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء السادس – السنة الخمسون – شوال ١٣٩٨هـ : سبتمبر ١٩٧٨م



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام وفكرة التطور

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الدكتور عبد الحليم محمود

موضوع الدين والحضارة يستدعينى أن أقول فى المبدأ : أننى مهما تحدثت عن الحضارة بإجلال أو بتحقير ، ومهما تكلمت عنها بنقد أو تحليل ، فإن الدين على وجه العموم لا يعارض قط ، التقدم العلمى لإسعاد الإنسانية :

لا يعارض التقدم الصناعى لإسعاد الإنسانية – على أية صورة كانت – مادام الأمر أمر إسعاد الإنسانية ، وإذا كانت هذه قضية مفروغاً منها فإننى أتجه إذن لتصوير نشأة الحضارة .

نشأة الحضارة :

الحضارة نشأت فى فترة معينة من التاريخ ، وفى زمن محدد نعلم ابتداءه .. ونعلم العوامل التى أنشأتها ، والتى كانت الأساس فى هذه النشأة .

وكلنا يعلم أنه فى فترة من الفترات ، كانت الكنيسة مسيطرة على العالم الأوربى سيطرة تامة : ما كان هناك شىء يُفْعَل ، أو شىء ينتهى فيه الأمر ، ولا شىء يقام أو يهدم ، وما كان إنسان يقدم على أمر ، وما كان إنسان يحجم عن أمر ، إلا باستئذان الكنيسة ، وباستئذان رجال الدين . ولكن الكنيسة ورجال الدين تعسفوا فى استعمال سلطتهم ، حتى لقد أنشأوا محاكم التفتيش .

وقد كتب الأوربيون والمسيحيون عن محاكم التفتيش كثيراً ، وصوروها فى أبشع مظاهرها وفى أسوأ صورها ، كتب الكاثوليك . والبروتستانت ، وكتب الفرنسيون ، وكتب الإنجليز . . كتب كل هؤلاء — وهم رجال المسيحية — فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولقد وضحوا وبينوا أن الكبت الذى كان يغمر أوربا فى ذلك العصر ولَّد الانفجار ، واتخذ الانفجار اتجاهاً معيناً . اتخذ الاتجاه الإنسانى .

وأخذ قادة الحضارة — مبتدئين من هذا الاتجاه الإنسانى — يقررون أن الإنسان له كيانه ، له شخصيته ، له ذاتيته ، له حدوده ، له تقديراته ، له مكانته التى يجب أن يحتلها . يجب أن يحتل الإنسان المكانة التى تليق به .

ومن هنا كانت كلمة الإنسانية التى تطلق — كرمز مميز — على هذه الحضارة ومن هنا كان تمجيد الإنسانية .

ولكن حينما بدأوا يتحدثون عن الإنسان فى ثورة عواطفهم القوية وفى غمرة نفورهم الشديد من رجال الدين ، كانت كلمة الإنسانية توحى — عند قادتهم — بانفصال الإنسانية عن الإلهية ، أو انفصال الإنسانية عن الكنيسة ، أو انفصال الإنسان عن الدين ، أو بالتعبير الحديث انفصال الدين عن الدولة .

يجب أن يكون للإنسان مكانته ، يجب أن يكون له موقفه أمام الدين وتجاه الألوهية ، تجاه النص المقدس ، تجاه الكنيسة . ويجب أن يخضع كل ذلك للإنسان .

فالإنسان له عقله ، له منطقه ، يجب أن يسير بهذا العقل ، وبهذا التفكير وبهذا المنطق .

وتصوروا جماعة من الجماعات كانت السيوف مصلتة عليها من جميع النواحى ثم انفجرت هذه الجماعة فقضت على السلاح الموجه إلى نحرها . .

ماذا يكون تفكيرها بالنسبة لهذا السلاح ، وبالنسبة لحامليه : بالنسبة لهذا المصدر الذى كان عاملا للكبت ؟

إن تفكيرها – فى أهدأ حالاته – يكون معارضاً منتقداً ، ومتحمساً فى معارضته ، وفى انتقاده ، ولكن يشعر أحياناً بشعور السفاك النهم لإسالة الدماء . .

هكذا كان الأمر فى بدء الحضارة الحديثة : لقد أراد زعماؤها : أن يتخلصوا من الدين ومن رجال الدين ، لتحتل الإنسانية مكانتها دون معارضة لها أو كبت أو تنكيل .

وحينما أقول « الإنسانية » يختلط الأمر نوعاً ما ، إذ أن معنى هذه الكلمة اكتسب من الآلام التى نزلت بالإنسانية فى كثير من فترات التاريخ نوعاً من التقديس وكثيراً من التمجيد والعطف ، ولذلك فإنى دون إخلال بالمعنى ، سأستعمل كلمة « البشرية » ، وإذا استعملت كلمة البشرية كان المعنى الذى أريده أدق فيما يتعلق بصلة الثورة الأوربية ، أو الحضارة الأوربية فى بدء نشأتها ، وفى ثورتها ضد رجال الكنيسة .

كان هناك إذن الدين من جانب ، وكانت هناك البشرية من جانب آخر ، وأرادت هذه البشرية أن تقف فى وجه الدين ، وأن تستقل بنفسها فى وضع أصولها وقواعدها ، ونظمها ، وأن تنتهى فى النهاية إلى أن تكون مستقلة كل الاستقلال عن جميع النواحى التى تتعلق بهذا الجانب الروحى .

* * *

وتلفتت الحضارة أو ممثلو الحضارة أو الذين يقومون على الحضارة . . تلفتوا يميناً وشمالا على الأصول والقواعد التى يمكنهم أن يقيموا عليها نظمهم البشرية ، وتساءلوا : ماذا يمكن أن يحل محل الدين ؟

إن الدين نظام اجتماعى ، وتشريعى ، وأخلاقى ، فما الذى يمكن أن يحل محل هذه النظم ؟ إذا أردنا أن نتخلص من هذه النظم لأنها نظم دينية يقوم عليها رجال الكنيسة ، ورجال محاكم التفتيش ، فما هى المصادر والمنابع التى نستقى منها إذا أردنا أن يسود الأطمئنان فى المجتمع .

أما المصادر فما كان يمكن ، وما كان يتأتى ، إلا أن تكون مصدرين :

١ – العقل : فى ناحية ما وراء الطبيعة .

٢ – والضمير : فى ناحية الأخلاق .

إذن لجأت الحضارة الحديثة فيما وراء الطبيعة إلى العقل ، ولجأت فى الأخلاق إلى الضمير : فالعقل : هو الذى يؤسس ما وراء الطبيعة . والضمير هو الذى نرجع إليه فى الأخلاق .

ولكن . . تخبط العقل : لأنه يختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، ومن زمن لزمن ، ومن مكان لمكان ، ومن ثقافة لأخرى .

وأخذ الضمير من جانبه أيضاً يوحى بإيحاءات مختلفة : فالضمير ليس إلا أثراً للبيئة ، وللثقافة ، وللوسط الذى يعيش فيه. ليس الضمير معصوماً قط وإنها لفكرة خرافية : كون الضمير معصوماً . والضمير إذا تخلص من سيطرة الدين فإنه يوحى بالفساد ، كما يوحى بالصلاح ، لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت البيئة إجرامية فالضمير إجرامى ، وإذا كانت البيئة صالحة فالضمير صالح ، وإذا كانت البيئة أوربية فالضمير أوربى ، وإذا كانت البيئة شرقية فالضمير شرقى .

ومن الواضح أن ضمير الأوربيين لايؤنبهم قط على السفك الذى يستبيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه ، إنه يبيح إذن — لو اتخذناه مقياساً — السفك ، والتنكيل والاستعمار .

ليس هناك إذن شىء ثابت مستقر معصوم اسمه الضمير .

وليس هناك قضايا يتفق عليها العقل فيما وراء الطبيعة .

وتخبط العقل ، وتخبط الضمير .

فما المخرج إذن ؟

أسطورة التطور الإنسانى :

رأى رجال الحضارة أن يلجأوا إلى شىء يبعد عنهم وصمة العجز ، فلجأوا إلى فكرة التطور : الإنسان متطور ، الأفكار متطورة . وإذن المسألة ليست مسألة خطأ صريح ، وإنما هى مسألة تطور فيما يتعلق بالأفكار ، وفيما يتعلق بالمعانى. وما دام هناك قانون للتطور إذن لا عيب عليهم إذا أخطأوا أو تخبطوا فى كل مرحلة من مراحلهم ، وفى كل فترة من فتراتهم . . . ونادى الحضاريون البشريون بفصل الدين عن الدولة . وحينما فصل الدين عن الدولة رأت نفسها تتخبط حينما تستند إلى العقل فى فى نظمها الدينية والاجتماعية ، وحينما تستند إلى الضمير فى نظمها الأخلاقية فاخترعت أسطورة التطور الإنسانى فيما يتعلق بالفكر .

وكانت كلمة التطور هى الطلسم السحرى ، الذى يحاولون التعلل به ، لإخفاء عجز العقل والضمير الإنسانى لإخفاء هذا العجز المطلق الذى يجعل الإنسان متخبطاً بعقله فى أمور ما وراء الطبيعة ، ومتخبطاً بضميره فى أمور الأخلاق؟

لقد أخفوا كل ذلك بفكرة التطور .

ليس فى الأحكام القاطعة تطور :

ولكن إذا نظرنا إلى فكرة التطور فى الدين والأخلاق فما معناها حقيقة ؟

ما معنى فكرة التطور، إذا أدخلناها فى الفكر على وجه العموم ؟

— إن فكرة التطور ما هى إلا عودة إلى السوفسطائية القديمة ، إنها عودة إلى آراء اليونان القدماء — السوفسطائية منها — لأن معنى التطور فى الفكر أنه ليس هناك قضية ثابتة — وإنما جميع القضايا الفكرية متطورة ، وهذا التطور لا ينتهى إلى حد ، وإذن هناك النسبية باستمرار ، هناك النسبة المطلقة، هناك إذن الخطأ المستمر، وهذا الخطأ لا علاج له مادمنا نقول بالتطور ، لأنه مادمنا نقول بالنسبة وبالتطور فليس هناك الثبات ، وإذن لا يكون هناك ثبات فى الدين ولا يكون هناك ثبات فى الأخلاق .

فإذا أدخلنا فكرتهم بالتطور فى الدين فقد قضينا على الدين وإذا أدخلنا فكرة التطور فى الأخلاق فقد قضينا على الأخلاق .

هذه الفكرة التى أتحدث عنها : فكرة إدخال التطور فى الدين، فكرة سمعناها من الكثيرين ، لقد ألفنا لذلك كلمة إدخال التطور فى الدين إلى درجة أنه يخيل إلىّ وأنا أتحدث فيها : أن الأمر غريب على بعض الأذهان التى تتساءل : لم لا يكون فى الدين تطور ؟

ولكن إذا فهمت فكرة التطور على حقيقتها : وإذا فهمت فكرة الدين على حقيقتها : كان لا مناص من الإقرار بأن الدين لا يدخله قط — ولا شروى نقير ، لا ، ولا قلامة ظفر — فكرة التطور .

إن التطور الفكرى تغيير من حال إلى حال ، وهو تغيير مستمر دائم ، إنه تغيير لا ينتابه هدوء ولا سكون ، إنها إذن النسبية ، إنها إذن السوفسطائية القديمة ، إنها عود إلى هذه الفترة القديمة التى لم يكن فيها دين ثابت ، ولم يكن فيها خلق ثابت ، فالأمر فيهما حينئذ عند السوفسطائيين ليس أمراً ثابتاً مطلقاً .

وليس أمر عصمة ، وليس أمر قضايا محققة ، وإنما الأمر أمر تغيير باستمرار وأمر نسبية .

وبذلك يقضى على الدين ، ويقضى على الأخلاق .

وإنه لمن المؤسف حقيقة — أننا نجد فكرة التطور تتسرب إلى الناحية الدينية

وإلى المحيط الدينى فى الأقاليم الإسلامية . وهذه الفكرة لخطورتها، ولأنى أعلق على إزالتها كثيراً من الأهمية : أريد أن أضرب بعض الأمثلة حتى نكون على بينة من الأمر :

قرأت فى بعض المجلات مقالا يقول كاتبه: إن فضيلة الشيخ (. . .) رجل متطور واسع الأفق ، ومن مظاهر تطوره — فى رأى الكاتب — أنه يأبى إلا أن يقيم صلاة الغائب على روح فلان.. وفلان هذا الذى ذكره الكاتب، لايدين بدين الإسلام، ومامن شك فى أن ذلك لا يجوز « إسلامياً » وما من شك فى أن فضيلة العالم الكبير ، لا يفعل ذلك ولا يبيحه ، ولكن ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على جهل الكاتب بمعنى الحقائق الدينية التى لا تتغير بتغير الأهواء والعواطف ، ويدل من جانب آخر على الخطورة التى يتعرض لها الدين حينما تدخله فكرة التطور ، وحينما تتناوله أقلام الذين لا يعقلون دين الله على الوجه السليم .

ومثل آخر :

إننا جميعاً نجل الشيخ محمد عبده ، ونحترمه وندين له بكثير من تخليص الدين من الخرافات والأساطير ، ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم فنراه لا يمنع احتمال أنها تمثيل ؛ ونتساءل : لما ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال؟ وحينما نتساءل حقيقة عن السر العميق فى الشعور — أو فى اللاشعور — نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور منتشرة فى جميع أرجاء أوربا ، بل والعالم، وهى— فيما يرى بظاهرها—تتعارض مع التعاليم التى تنبىء أن آدم هو أول البشر ، وهو الذى خلقه الله وسواه ، وخاطب الملائكة فى شأنه وأمرهم أن يسجدوا له :

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيراً مع فكرة التطور المزعومة فماذا صنع؟ ذكر هذا الاحتمال، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفما شئنا ، وما كنا نود أن يجيز ذلك إذ أنه يفتح للناس باب التأويل فى صورة من الاستفاضة الضارة .

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسالات الرسل وتعاقبها . موسوية وعيسوية وإسلامية ، بتطور الإنسانية ، إن الإنسانية — حسبما يرى— حسية فى زمن موسى فكانت رسالة سيدنا موسى حسية ، ثم تطورت الإنسانية من الحس إلى العاطفة، فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية . ثم تطورت الإنسانية من الحس والعاطفة إلى العقل،

فكانت رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : عقلية .

ورأى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور ، وأن الإنسانية أينما سرنا وعند أى فرد رأينا ، وفى أى مجتمع شاهدنا ، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاث :

الحس ، والعاطفة ، والعقل .

ولكن فكرة التطور وأن الإنسانية متطورة انتهت بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها فى المحيط الدينى ، فأفسدت كثيراً من القضايا ، ونعود فنترحم على الشيخ محمد عبده ، وإذا كنا ننتقده ونحن نحاضر فى قاعته ، فذلك أننا نعلم أنه رحمه الله ، كان من سعة الصدر ، ومن سعة الأفق بحيث لا يضيق بنقد ، ونعتقد أنه لا يضيق الآن بنقدنا .

ونأتى إلى شخصية أخرى نمجدها أيضاً ونحترمها : شخصية محمد إقبال . وإن جهاده بالنسبة للإسلام ، وجهاده بالنسبة للمسلمين لا ينكر .

ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة التطور فى بعض المسائل كما رأى ! فليراجعها من شاء فى آرائه وفلسفته .

أيها السادة :

كلكم تعلمون أن الدين عقيدة وأخلاق وشريعة ، وتصوير التطور فى العقيدة، أن نقول مثلا : اليوم ، ربنا واحد . . أما غدا فإنه — سبحانه وتعالى عن ذلك — يكون اثنين !

وتصوير التطور فى الأخلاق ، أن نقول مثلا : إن الصدق اليوم فضيلة وغداً يكون رذيلة ، أو الصدق فضيلة اليوم وهو غداً ليس بفضيلة ولا رذيلة !

فأنتم ترون أنه لا تطور فى العقيدة ، ولا فى الأخلاق .

لكن الشُّبه تخلق فى بعض الأذهان حول التطور فى التشريع ، والذى يوجد الوهم بهذه الشُّبه هو : باب الاجتهاد ، والمنطق يقول : إنه ما دام هناك اجتهاد فى — التشريع فسيكون هناك تطور فيه ، ولكن الذى يقول هذا الكلام لا يفهم معنى الاجتهاد أو هو يفهم معناه ويحاول أن يتجاهله ! معنى الاجتهاد وحقيقته ، إنما هو المحاولة الجاهدة المستمرة للوصول إلى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أجل اتِّباعه ومن أجل إدخال المسائل الجديدة تحت القواعد القديمة التى استنتجت من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ومن القرآن . وليس للاجتهاد معنى آخر غير هذا .

وكل المجتهدين : الإمام الشافعى ، الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام

أبو حنيفة، الإمام مالك.. كلهم يقولون: إذا صح الحديث فاضرب برأيي عرض الحائط: أى أنه إذا رأى رأياً من الآراء، ملتمساً فى هذا الرأى أن يكون موافقاً لكلام الرسول، ثم تبين فيما بعد أنه أخطأ، لأن الحديث يفيد غير ذلك، فإن كلامه ورأيه لا قيمة لهما، ويجب أن يُطْرَحَا ويهملا وأن يؤخذ بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذن ليس فى الاجتهاد تطور..

إن العقل: كمنبع لما وراء الطبيعة، والضمير: كمنبع للأخلاق..

كل هذه هى البشرية فى مقابلة الألوهية، فى مقابلة النص، واعتمدت إذن الحضارة الحديثة على البشرية فى مبادئها وقواعدها، فكانت النظم الاجتماعية المختلفة، والنظم الأخلاقية المختلفة، وكان الهدم فى كل يوم ! !

وانتهت فى بعض الميادين الفكرية الاجتماعية إلى ما كان يمكن أو يتصور أن تنتهى إليه:

لقد انتهت بتفسير أو تصوير رائع، لآية قرآنية كريمة هى:

«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث ٧: ١٧٥، ١٧٦» . .

وأريد أن أشرح هذه الآية فى إيجاز:

إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره، فالسموات من آيات الله، والأرض من آيات الله، والأشجار من آيات الله، والأنهار والجبال، والمحيطات والنجوم والكواكب: كل ذلك من آيات الله. هذا الإبداع المحكم، الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره، هذه الآيات التى تحيط بالناس أينما كانوا والتى تنادى بجلال الله وعظمته ... حاول بعض الناس الانسلاخ منها — فلم يقروا بالألوهية الإقرار السليم، والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون ! !

لقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان وانسلخوا منها — بعد لأى، وعلى خلاف الفطرة، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ! إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله، فتهيأوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان، وسهل على الشيطان غزوهم، فغزاهم بخيله ورجله فكانوا

من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ولكن العيب جاء منهم هم ، إذ أخلدوا إلى الأرض !

وما من ريب فى أن الإخلاد إلى الأرض فى أبشع صورة: هو الشيوعية !

واتبعوا أهواءهم :

وما من شك فى أن اتباع الهوى فى أسمج صورة : هو الفلسفة الوجودية !

وسواء كنا بصدد الشيوعى ، أو بصدد الوجودى: فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث !

ولكن لِمَ يلهث سواء أحملت عليه أم تركته ؟

إن الشيوعى : ليس همه إلا المادة ، والإخلاد إلى الأرض . ومهما بسط الله له فى الرزق : فهو ضيق بذلك ، وإذا ضيق الله عليه الرزق ، فهو ضيق بذلك أيضاً . إنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة — مهما أوتى الإنسان منها — فإنها — ما دام جشعاً — لا تنتهى إلى إرضائه .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالوجودى .

فإنه : وقد آثر اتباع الهوى — وليست الوجودية إلا إيثار اتباع الهوى — فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ، ولا على اطمئنان يسكنه ، وهو ضيق بالحياة ذرعاً ، سواء كان سعيداً أو شقياً ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث!!

انتهت الحضارة إلى أمثال هذه النظم التى لا ترى إلا المادة ، أو لا ترى إلا البشرية الهاوية أو الغاوية ، وانتهى الأمر بالشيوعى والوجودى: إلى ما كان لا مفر من أن ينتهى إليه ، وهو انفصال الشيوعى وانفصال الوجودى عن المحيط الإلهى، عن السرادق الإلهى .

ومما لا شك فيه ، أن هذه النظم التى لا تتصل بالعصمة إنما تتخبط وتكون باستمرار متأرجحة متقلبة ، ولا تستقر استقراراً نسبياً ، إلا بالحديد والنار ، وبالسلاح ،وبسفك الدماء وبالقتل، وأن ما وراء الستار الحديدى يمكن أن يكون صورة لكل هذا الانفصال عن الألوهية الذى لا يستقر إلا بالحديد والنار ! ؟

تلك أُسس الحضارة ومنابعها ، ومصادرها : عقل ، فضمير ، فتطور ، فانتهاء إلى أمثال هذه النظم التى خرجت بالإنسان عن الجادة .

والدين — إذن — لا يعارض التقدم فى سبيل إسعاد البشرية . هذه قضية نحن مسلمون بها .

د. عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

هل الإنسان مسير أم مخير

العلامة أبو الأعلى المودودى

هذه الكلمة القصيرة أذيعت من لاهور منذ مدة طويلة . وهى تتعرض لموضوع شائك . ولكن المؤلف حفظه الله قد تناول هذا الموضوع بطريقة سهلة وموضوعية عسى أن القارىء ينتهى من قراءتها وهو مرتاح الخاطر وثيق الإيمان بالله .

خليل الحامدى

هل أنّ قدرنا مقضى فيه من قبل ؟ وهل أن نجاحنا وفشلنا ، وسقوطنا ونهوضنا وفسادنا وصلاحنا ، ومتاعبنا وراحتنا : وبالجملة كل ما يعرض لنا فى حياتنا مما يسرنا أو يحزننا نتيجة لقرار غيرنا وقضائه من قوة ، أو قوى بحيث لا نصيب لنا فى تقريره وتحديده . ؟ والأمر إذا كان هكذا فهل نحن مجبورون بمعنى الكلمة ؟ وهل نحن فى هذه الدنيا دُمًى ميتة يلعب بها ويمسك خيطها قوة غريبة هى التى تضعها متى تشاء أو ترفعها أو تحركها كما تريد؟ وهل نحن نُستخدم كآلة من الآلات لتحقيق مشروع مّا وضعه غيرنا كأننا لسنا فى مسرح الدنيا إلا ممثلين حدّد أعمالـَهم وأدوارَهم أحدٌ غيرهم ؟

هذه أسئلة تخالج دائماً نفس كل من يفكر فى موضوع الإنسان ، والدنيا ، ومصيرها ؟ ؟

وهذا لغز قد قدح فيه زناد عقله كلُّ شخص من الفلاسفة ، وعلماء الطبيعة ، ورجال التاريخ والقانون والاجتماع والأخلاق والدين ، بل وعامة الناس ، لأنهم كلما شَغَلوا به ذهنهم وقفوا مبهوتين حيارى لا يتقدمون إلى الأمام ، ولا يستطيعون أن يتقدموا ما لم يعثروا على حل مرض ترتاح إليه نفوسهم ،

وتطمئن به عقولهم ، بصرف النظر عما إذا كان هذا الحل فى حد ذاته حلا صحيحاً أو باطلا !

أجب عن هذه الأسئلة بـ « نعم » أو « لا » بكل بساطة وبدون بحث أو تعمق فيها إن شئت . ومن الممكن أن تجد فى هذا الباب ما ترتاح إليه نفسك ويطمئن به عقلك ، ولكن سواء عليك أقلت « نعم » أم « لا » جواباً عن هذه الأسئلة ، فإنه لابد أن تواجهك فى كلتا الصورتين أسئلة كثيرة أخرى لا تستطيع ألبتة أن تجيب عنها بمجرد « نعم » أو « لا » وأنت مرتاح القلب مطمئن الخاطر !

إنك إذا قلت « نعم » فإن ذلك يحتم عليك الإقرار بأن ليس ثمة فرق جوهرى بين الحجر والحديد ، والشجر والحيوان والإنسان ، وأن الإنسان : كسائر هذه الموجودات لا يفعل إلا ما قد كتب له أن يفعله ، إذ لا اختيار له ولا لها ، وأن الإنسان إن كان يصنع قضبان السكك الحديدية ، وكان النمل يخربها فلا فرق بين عمل هذا وعمل ذاك باعتبار النوع ولو كان باعتبار الدرجة ، إذ أن أحداً غيرهما هو الذى قد جعلهما يصنعان سكة الحديد والتخريب ، وكلاهما محروم من شرف الابتكار والإبداع ! ومن اللازم أن تقرّ بعد هذا بأن الإنسان لا تبعة عليه لفعل من أفعاله ، كما أنه لا تبعة على سائر الموجودات فى العالم لفعل من أفعالها ، فهو إن كان يعمل عملا صالحاً أو يصلح سيارة فما فعله فى كلتا الصورتين إلا بمنزلة سواء ، وكذلك اقتراف الإنسان جريمة من الجرائم وخياطة ماكينة الخياطة ثوباً ناقصاً كلاهما فى حد سواء وفى منزلة بعينها من ناحية الاعتبار .

والأمر إذا كان هكذا ، فكما أنك لا تنطق بكلمة « سيارة صالحة » وآلة خبيثة « وقاطرة أمينة » و« كرسى خائن » كذلك ينبغى أن لا تنطق بكلمة « رجل صالح » أو « خبيث » أو « شريف » أو « شرير » أو « أمين » أو « خائن » وما إلى ذلك من النعوت والصفات المعنوية وإن كنت تنطق بها — بل تُستنطق بها — فلزاماً عليك — على الأقل — أن تشعر بأن ليست كلّ هذه الكلمات التى وردت على لسانك إلا كلمات فارغة جوفاء لا معنى لها ولا مدلول !

لا هذا فحسب ، بل لا يبقى إذن أىّ معنى لديننا وأخلاقنا ، ولا لقانوننا ومحاكمنا ولا لشرطتنا وسجوننا ودوائرنا لتحقيق الجرائم ، ولا لمدارسنا ومعاهدنا

للتربية والإصلاح . لاشك أن كل هذه الأمور ستبقى كما هى ولا يلغى منها واحد ، لأن كل هؤلاء الممثلين — على حسب نظريتك — عليهم على كل حال أن يلعبوا أدوارهم فى مسرح الدنيا ، كل يلعب دوره الذى خلق له ولكنه من الظاهر أنه إذا لم يعد كل واحد من المحافظين على الصلوات فى مساجد الله ، وعبّاد الأوثان فى الصوامع ، وقضاة المحاكم ، ومجرموا السرقة والنهب إلا مجرد ممثّلين ، ولم يعد كل شىء من المساجد والمعابد إلى دور القمار والخمارات إلا مناظرَ مختلفة لمسرحية عظيمة — فإنما معنى كل ذلك أن ليست كل حياة الإنسان الدينية والخلقية إلا تمثيليــــة . لأنه إذا كان شخص يعبد ربه بكل تجرد فى خلوة الليل فى الحين الذى ينقّب شخص آخر فى بيت غيره بنية السرقة ، فإن كل واحد منهما فى هذه اللّعبة أو المسرحية لا يلعب إلاّ دوراً فرض عليه ، ولا فرق بينهما سوى أن المخرج خصّ أحدهما بدور العابد الزاهد ، وأسند إلى الثانى دور السارق الناهب ! ومهما يستمع القاضى فى محكمتنا إلى القضية المعروضة عليه بعناية واهتمام ، ومهما يبذل من جهد ودقة للعدل بين الخصمين بعد الاستماع إلى الشهود وإجراء التحريات ودراسة الحيثيات ، فما هو ولا الخصمان : المدّعى والمتّهم — على حسب نظريتك — إلا مجرد ممثلين يظنون أنهم جالسون فى المحكمة للفصل فى قضيتهم ، مع أنهم فى حقيقة الأمر إنما يلعبون فصلا من فصول رواية تمثيلية .

هذى : هى نتيجة « نعم » الذى كنتَ أجبتَ بها عن أسئلتى الابتدائية بدون ما فكر ولا رويّة عميقة !

ولكن . . هل بإمكانك أن تجيب عن أسئلتى هذه بـ « لا » ؟ كلا ، فإن الأمر لن ينتهى عند ذلك بأن تقول : « لا » مرة واحدة ، بل لا بد أن تضطر إلى أن تنكر مجموعة من الحقائق الصريحة الصارخة !

وبيان هذا : أنك حين تقول : إن قدر الإنسان ليس بمقدور من قبل ، وأن قدره لا يتقرر بقضاء قوة خارجية ، فالأغلب أن معنى إنكارك هذا : أن الإنسان هو الذى يصنع قدره بنفسه ، أى أن قدره انما هو نتيجة لأرادته وجهده . . إذا قلت هذا فأول سؤال لابد أن يواجهك إذن : ما هو المراد بكلمة «الإنسان» فى قولك هذا ؟ أهو كُلُّ واحد من أفراد البشرية بصفته

الشخصية ؟ أم مجموعة من أفراد البشرية تعرف بالمجتمع أو الأمة أو الشعب ؟ أم النوع البشرى فى جملته ؟ إن كان المراد من قولك : إن كل واحد من أفراد البشرية يصنع قدره بنفسه ، فقلّب نظرك فى المواد التى يتكون بها القدر ثم قل : أى شىء منها يقدر عليه الإنسان ؟

إن أول مادة يحتاج إليها الإنسان فى صنعه قدره : هى جوارحه ، وقواه الفكرية والبدنية ، وصفاته الخلقية ، ومواهبه المعنوية .. وهى مما يؤثر صلاحه وفساده واتزانه وعدم اتزانه ، وقلته وكثرته تأثيراً حاسماً بالغاً فى قدره ، ولكنها بأجمعها مما يأتى به كل فرد من أفراد البشرية من بطن أمه ، ولم يولد حتى اليوم فرد واحد خرج إلى نور الحياة صانعاً نفسه كما شاء! ثم إن صلاح قدر الإنسان وفساده وخيره وشره ليس له فيه يد ، وأىّ يد للمؤثرات العرقية التى يرثها كل إنسان عن آبائه وأجداده ؟ ثم إن الأسرة أو المجتمع أو الطائفة أو الجامعة أو الأمة أو الدولة التى يولد فيها ، تجلب عليه مالا يُعَدُّ ولا يُحصَى من مؤثراتها الفكرية والخلقية والمدنية والاقتصادية والسياسية لأول ما يتنفس فى هذه الدنيا . . كل هذه الأشياء تساهم فى صنع قدر الإنسان بتعاونها وتفاعلها .

ولكن هل فى الدنيا من إنسان قد حدّد بمحض إرادته واختياره الجنس أو البيئة التى ولد فيها ؟ وهل قرره من تلقاء نفسه قبل أن يولد : أى شىء منها سيقبل مؤثراته ؟ وإلى أى حد ، وأى شىء منها لا يقبل مؤثراته ، وإلى أى حد ؟ وإلى هذا : فإن الدنيا تحدث فيها أحداث مفاجئة ومصادفات طارئة تؤثر تأثيراً محموداً أو غير محمود فى قدر الإنسان ! وذلك مثل الزلازل والفيضانات — والمجاعات وحوادث الصدام والأمراض والحروب وتطورات الفصول وتقلبات الوضع الاقتصادى : فإن كل هذه الأحداث كثيراً ما تغير مجرى حياة الإنسان — بمعنى الكلمة — وتحطم كل خططه وتدابيره التى يتخذها لسعادته ونجاحه بعد إعمال فكر وروية ، وبذل جهود جبارة متتابعة . وعلى العكس من ذلك : فإن هذه الأحداث نفسها قد تعرج بإنسان آخر فجأة إلى معارج الكمال والرخاء التى لا يكون لسعيه وجهده أى نصيب فى الوصول إليها فى واقع الأمر . . كل هذه الحقائق ثابتة بارزة ناصعة لا ينكرها إلا مكابر ! إذن فكيف يجوز الاعتراف بأن الإنسان يصنع قدره بنفسه ويسجّل حظوظه بيده ؟ !

وأما إن قلت بإدخال بعض التعديلات على دعواك : أن الأمم تصنع قدرها . فإن قولك هذا أيضاً باطل لا أساس له من الصحة ولا يستحق أن نقبله أبداً . ذلك لأن الأسباب التى يتكون بها قدر كل أمة من الأمم فيها ضلع عظيم للخصائص النسلية والمؤثرات التاريخية ، والأحوال الجغرافية ، والأسباب الطبيعية والأوضاع الدولية ! ولا قبل لأية أمة فى الأرض بأن تتحرر من سلطان هذه الأسباب فتصنع قدرها كيفما تشاء وترضى : بالإضافة إلى ذلك فإن قانون الفطرة ، ذلك القانون الذى يسير عليه نظام السماوات والأرض ، والذى لا قبل لأية أمة بأن تدرك كنهه وتحيط بأسراره فضلا عن أن تتدخل فيه : يؤثر فى مصير الأمم تأثيراً فعالا لا تقدر أمة من أمم الأرض أن تمنعه أو تتخلص منه مهما كانت فى حد ذاتها على قسط وافر من الذكاء والقوة والمنعة ! هذا القانون لاينفك يؤدى عمله من وراء الستار . وقد يسفر مفعوله ، فجأة حيناً وتدريجاً حيناً آخر ، عن نتائج تسقط أمماً ناهضة وتنهض أمماً متداعية .

دع عنك ذكر هذه الأسباب ، فإنها مما لا يصل إليه العقل الإنسانى وفهمه ، وانظر نظرة فى أسباب أخرى : أسباب هى فيما يبدو فى متناول عقل الإنسان وفهمه ، تجد أن ليست دراستها التفصيلية كذلك مما يبعث فيك الأمل كثيراً ! ذلك بأن الذى يتوقف عليه مصير أمة من الأمم إلى حد كبير هو أن تتيسّر لتلك الأمة زعامة تلائم ظروفها وآمالها ، وأن يكون عدد كبير من أفرادها متحلين بصفات حائزين على مميزات تؤهلهم للاستفادة من هذه الزعامة ! ولكن مما يشهد به التاريخ ما تدل عليه كل مشاهداتنا فى الحياة أن الأرض ما وجدت ولا توجد فيها أمة قد مارست إرادتها واختيارها للحصول على هذين الأمرين على أكمل وجوه الحرية ! بل كل ما نشاهده : هو أن أمة من الأمم حين تدق ساعة نهوضها ، تتيسّر لها القيادة على مستوى ظروفها وآمالها ، وتنشأ فيها الصفات والخصائص اللازمة لنجاح هذه القيادة .. ثم إن نفس هذه الأمة حين تأخذ فى الانهيار تدبر عنها مؤهلات القيادة ومستلزمات التبعية فى آن واحد ، بحيث لا يستطيع أحد — مهما كان قلبه مفعماً بالإخلاص والبكاء على مصيرها — أن يسترجعها إليها . . إننا لا نعلم أبداً بموجب أى

قانون يحصل هذا المدّ والجزر ، والنهوض والسقوط ، فى تاريخ الأمم ؟!

ولكن . . هل يمكنك بعد هذا أن تقول : « لا ، بل إن النوع البشرى بمجموعه هو الذى يصنع قدره بنفسه » ؟ كلا ، وألف كلا ! فإنك إذا قلت هذا قلت قولا باطلا لا يقبله العقل بوجه من الوجوه ، وذلك أن أحداً إذا كان يفترض افتراضاً : أن النوع البشرى المتفرق إلى مالا يحصى من سلالات وشعوب ، المنتشر فيما لا يأتى عليه الحصر من بلاد وبقاع ، المصطبغ بما لا حدّ له من حضارات ومدنيات ، الناطق بما يفوق العدّ من لغات ولهجات — إذا جاء أحد يفترض أن هذا النوع متواطىء على إرادة جماعية! وكل قرار يصدر عنه بصدد قدره ومصيره ينطلق فيه من تلك الإرادة الجماعية ، فإن هذا الافتراض شىء يدعو إلى الاستغراب : هل إن هذا النوع هو الذى كان وضع ، بإرادته الجماعية ، تقويم سير رقيّه وقرّر بموجب ذلك ، التقويم أنه يستعمل الأدوات الحجرية إلى العهد الفلانى ، ثم يشرع فى استعمال الحديد والنار ، ثم فى الانتفاع بالطاقة البشرية والحيوانية إلى العهد الفلانى ، ثم فى استخدام طاقة الآلة العهد الفلانى .. وأخيراً يدخل فى عصر غزو الفضاء ؟

وأتابع السؤال ، وأقول : أو كان هو الذى قدر أنه سيسيّر الفلك فى البحر بدون المحرك (motor) إلى القرن الفلانى ، ثم يستخدم المحرك لتحديد وجهة الأسفار ؟ أو أنه هو الذى قد حدّد الأقدار المتضاربة لمختلف الأمم القاطنة فى مختلف أنحاء العالم فى إفريقية وأمريكا وأوربا وآسيا واستراليا ؟ من الظاهر بداهة أن دعوة عجيبة مثل هذه لا تصدر عن رجل أوتى نصيباً من الحكمة والفهم والعقل !

وبعد هذا : لا متسع لك أبداً للإصرار على رأيك القائل بأن الإنسان هو الذى يصنع قدره بنفسه ، لأنه إذا لم يكن كل فرد من أفراد البشرية ولا جماعة من الأفراد ولا النوع البشرى بمجموعه مالكاً لقدره : فأىّ « بشر » هو — ياترى — يكون مالكاً للأقدار وصانعها ؟ !

فقد رأيت — فيما مرّ سابقاً — أن الأسئلة التى وجّهتها إليك فى بداية هذا البحث ، لا يمكن الجواب عنها بمجرد : « نعم » ولا بمجرد : « لا » . فالحقيقة متأرجحة بين الأمرين ، وبيانها : أن هناك إرادة قوية فى الكون تُعنى

بتسيير نظامه الهائل ! ولا قبل لأى شىء فى السماوات والأرض بأن يبقى حيًّا — فضلا عن أن يعمل عملا — بالتحرر عن سلطانها القاهر : قيودها : هى خطة محكمة شاملة تتحكم بكل شمول فى السماوات والأرض ! ولا قبل لأى شىء فيهما بأن يخالفها فى سيره ، أو يبدلها ، أو يؤثر فيها أيما تأثير. وكل ما وصل إلينا من العلوم والتجارب والمشاهدات تبرهن على أن لا مجال لأحد فى مملكة هذا الكون العظيم أن يجعل نفسه مختاراً مستقلا بذاته ، كائناً من كان ، وأن الإنسان مادام يعيش تحت نظام لا تسمح قيوده ولا لأكبر سيارة فى السماء بأن تحيد عن مدارها المقرّر لسيرها— ولو قيد شعرة — ويعيش تحت قوة قد أجبرت الأرض : هذه الكرة العظيمة ، على أن تدور وفقاً لضابطة مضبوطة ، ويعيش تحت حكومة لها سلطة كاملة على الهواء والماء والنور والحرارة والبرد ، ويعيش تحت قوة قد — هيّأتْ له — قبل أن يوجد على وجه هذه المعمورة—أسباباً مكنته من العيش على وجهها ، ويعيش تحت قوة هى من سعة القدرة والسلطة حيث لو أدخلت أدنى تغيير على توازن أسباب الحياة للتى نوعنا حتفه فى لمحة من البصر ، أو إذا كان الإنسان يعيش فى وضع كهذا لا يستطيع أن يتصور — ولو مجرّد التصور — أن له من الاستقلال والحرية ما يمكنه من أن يقدّر قدره ويصنع مصيره على ما يشاء ويرضى .

ولكن من الخطأ فى الوقت ذاته الظن بأن القوة التى قد أوجدتنا فى هذه الدنيا والتى قد أعطتنا قوى العلم والفكر والروية ، ومواهب العقل والإرادة ، والتى وهبت لنا من الكفاءة ما نميّز به بين الصالح والفاسد، وبين الحسن والقبيح من الأعمال ، ونقرر على أساسه انتهاج طريق أو الامتناع عنه فى شئون الدنيا ومعاملاتها .. إذن فمن الخطأ أن نحسب أن هذه القوة ما فعلت كل ذلك إلا لتتخذنا سخريًّا وعبثاً ، والذى نشاهده فى نظام هذا الكون: هو الجدّية ، بكل ما فى الكلمة من معان ، والحكمة ، والتدبير ! ولا نشاهد فيه الهزل والعبث والسخرية فى ناحية من نواحيها . فما الحقيقة إلا ما يشعر به كل إنسان منا على الوجه الوجدانى ؟ أى أننا فى هذه الحياة الدنيا قد أوتينا جانباً محدوداً من الاختيار ، وأوتينا جانباً محدوداً من الحرية للتمتع بها إلى حد مناسب : كما أن هذه الحرية ليست ما اكتسبناه اكتساباً، بل قد

أعطينا إياها عطاءاً . أما ما هى كمية تلك الحرية ما هى حدودها ؟ما هى نوعيتها ؟ فمن المتعذر علينا بل من المستحيل بتاتاً تحديدها . ولكن الذى لا يجوز إنكاره — فى الوقت نفسه — هو وجود تلك الحرية وصلاحية ممارستها ! ومعنى هذا أن المكانة التى قد جعلت لنا فى نظام هذا الكون وتخطيطه الشامل البديع : هى أن نقوم بدورنا فيه كممثل يكون حرًّا فى القيام بدوره على نطاق محدود وقدر مقدور ! وكل مالنا فى هذه الحياة من الحرية : هو على قدر ما يلائم ويناسب هذا التخطيط الكونى ، ولذلك نحن لسنا بمسؤولين عن أعمالنا من الوجهة الخلقية : إلا على قدر مالنا فيها من الحرية ، أما على أى قدر نحن أحرار وعلى أى قدر نحن مسؤولون عن أعمالنا ؟ فكل من هذين الأمرين خارج عن نطاق علمنا ! ولا يعلمه إلا الذى قد اختار لنا مكانتنا هذه فى إطار تخطيطه لخلق السماوات والأرض .

هذه : هى النظرية التى قد ذهب إليها الدين فى مسألة الجبر والاختيار ! فالدين يدعونا إلى الإيمان بالله العلى العظيم ، وهذا : إن دلّ على شىء فإنما يدل على أننا نحن البشر وكل ما حولنا وبين أيدينا من الموجودات فى السماوات والأرض ، نبصره أولا نبصره ، خاضعون لله تبارك وتعالى ، مذعنون لأمره ، وأنه محيط بكل شىء : حكماً وقدرة وسلطة ، هذا فى جانب ، وفى الجانب الآخر نفس الدين : يزوّدنا بتصورات للأخلاق ، ويعطينا مقاييس للخير والشرّ ، ويبين لنا أننا إذا سلكنا طريق الخير : فلنا النعمة والثواب ، وإذا سلكنا طريق الشر : فعلينا النقمة والعذاب . وهذا : لا يعد معقولا إلا فى حالة واحدة : هى أن نكون أحراراً فى اتباع أى طريق نشاء فى حياتنا بمحض إرادتنا واختيارنا ! ؟

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين . . .

لماذا بعث النبي صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب ؟

العلامة أبو الحسن الندوي

اقتضت حكمة الله أن تطلع هذه الشمس التى تبدد الظلام ، وتملأ الدنيا نوراً وهداية من أفق جزيرة العرب الذى كان أشد ظلاماً ، وكان أشد حاجة إلى هذا النور الساطع .

وقد اختار الله العرب ، ليتلقّوا هذه الدعوة أولا ، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم ، لأنّ ألواح قلوبهم كانت صافية ، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة ، يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم والفرس وأهل الهند ، الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية ، ومدنياتهم الزاهية وبفلسفاتهم الواسعة ، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية ، لم يكن من السهل حلها . أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداوة ، ومن السهل الميسور محوها وغسلها ، ورسم نقوش جديدة مكانها ، وبالتعبير المتأخر العلمى كانوا أصحاب « الجهل البسيط » الذى تسهل مداواته ، بينما كانت الأمم المتمدنة الراقية فى هذا العصر مصابة بـ « الجهل المركب » الذى تصعب مداواته و إزالته .

وكانوا على الفطرة ، وأصحاب إرادة قوية ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم ، أحبوه واحتضنوه ، واستماتوا فى سبيله .

يعبر عن هذه النفسية العربية خير تعبير ما قاله سهيل بن عمرو ، حين سمع ما جاء فى كتاب الصلح فى الحديبية : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » :

« والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك »

وما قاله عكرمة بن أبى جهل حين حمى الوطيس فى معركة اليرموك ،

واشتد عليه الضغط : « قاتلت رسول الله عليه وسلم — فى كل موطن وأفر منكم اليوم ؟ » ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه من بايعه . . ثم لم يزل يقاتل حتى أُثْخِن جراحاً وقتل شهيداً .

وكانوا واقعيين جادين ، أصحاب صراحة وصرامة ، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم ، اعتادوا القول السديد ، والعزم الأكيد ، يدل على ذلك دلالة واضحة : ما روى فى قصة بيعة العقبة الثانية ، التى تلتها الهجرة إلى المدينة .

قال ابن اسحاق :

« لما اجتمعت الأوس والخزرج فى العقبة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال العباس بن عبادة الخزرجى : يا معشر الخزرج . . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس .

فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا ، أسلمتموه ؟ فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم : خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ؟ فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : أبسط يدك ؟ فبسط يده ، فبايعوه

وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبايعوا رسوله .

وقد قال سعد بن معاذ على لسانهم يوم بدر :

« فو الله لإن سرت تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقد تجلى هذا الصدق فى العزم والجد فى العمل ، وروح الامتثال للحق فى الجملة التى تؤثر عن عقبة .

ثم قال : « يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك » .

أما اليونان والرومان ، وأهل إيران ، فقد اعتادوا مجاراة الأوضاع ومسايرة الزمان ، لا يهيجهم ظلم ، ولا يستهولهم حق ، ولا تملكهم فكرة ودعوة ولاتستحوذ عليهم استحواذاً يتناسون فيه أنفسهم ، ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم .

وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنية والترف ، التى يصعب علاجها ، والتى تحول دون التحمس للعقيدة والتفانى فى سبيلها .

وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة ، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم ، وكانوا مغاوير حرب ، وأحلاس خيل ، وأصحاب جلادة وتقشف فى الحياة ، وكانت الفروسية هى الخلق البارز الذى لا بد أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل . . لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات ، والفتوة والبطولة .

وكانت قواهم العملية والفكرية ، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم ، لم تستهلك فى فلسفات خيالية ، وجدال عقيم « بيزنطى » ومذاهب كلامية دقيقة ، وحروب إقليمية سياسية فكانت أمة بكرًا ، دافقة بالحياة والنشاط والعزم والحماس .

وكانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة ، وحب الطبيعة ، والسذاجة لم تخضع لحكومة أجنبية ، ولم تألف الرق والعبودية ، واستعباد الإنسان للإنسان ، ولم تتمرس الغطرسة الملوكية الإيرانية أو الرومانية ، واحتقارها للإنسان والإنسانية ، فكان الملوك فى إيران — المملكة المجاورة للجزيرة — فوق مستوى الإنسان والإنسانية ، فكان الملك إذا احتجم ، أو فصد له ، أو تناول دواء ، كان ينادى فى الناس : ألاّ يمارس إنسان من رجال البلاط أو سكان العاصمة عملا ، ويكفوا عن كل صناعة أو ممارسة لنشاط ؟

وإذا عطس فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعو له ، وإذا دعا أن يؤمن عليه ، لأنه فوق مستوى البشر .

وإذا زار أحد من وزرائه أو أمرائه فى بيته كان يوماً مشهوداً خالداً ، يؤرخ به فى رسائله ويصبح تقويماً جديداً ويعفى عن الضريبة إلى مدة معينة ، ويتمتع باستثناءات أو مسامحات وتكريمات ، لأن الملك شرفه بالزيارة !

هذا فضلا عن الآداب الكثيرة التى يتقيد بها رجال البلاط ، وأركان الدولة ، وأفراد الشعب ، ويحافظون عليها محافظة دقيقة ، من الوقوف بحضرته ، والتكفير له[1] ، وقيام كقيام العباد أمام الرب فى الصلوات .

وهو تصوير حال كانت عليه إيران الساسانية فى عهد أفضل ملوكها ، وهو كسرى الأول المعروف بأنوشيروان العادل (٥٣١ — ٥٧٩) فكيف فى عهد الملوك الذين اشتهروا فى التاريخ بالظلم والعسف والجبروت ؟

(١) أى تعظيم الملك أو الحاكم .

وقد كانت حرية إبداء الرأى — والملاحظة — فضلا عن النقد — مفقودة تقريباً فى المملكة الإيرانية الواسعة .

وقد حكى الطبرى حكاية طريفة عن عهد أفضل ملوكها وأعدلهم كسرى أنوشيروان العادل تدل كل الدلالة على مدى ما وصل إليه الحكم الإيرانى من الاستبداد والحظر على إبداء الرأى الحر والتعليق الجرىء فى البلاط الإيرانى ، يقول :

« أمر الملك قباذ بن فيروز — فى آخر ملكه — بمسح الأرض : سهلها وجبلها — ليضع الخراج عليها ، فمسحت ، غير أن قباذ هلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة .

حتى إذا ملك ابنه كسرى أمر باستتمامها وإحصاء النخل والزيتون والجماجم .

ثم أمر كتّابه فاستخرجوا جُعْل ذلك ، وإذن للناس إذنا عامًّا ، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليه الجُعَل التى استخرجت من أصناف غلات الأرض وعدد النخيل والزيتون والجماجم ، فقرأ ذلك عليهم .

ثم قال لهم كسرى : إنا قد رأينا أن نضع على ما أحصى من جريان هذه المساحة من النخل والزيتون والجماجم وصنائع ، ونأمر بإنجامها فى السنة فى ثلاثة أنجم ، وتجمع فى بيوت أموالنا من الأموال مالو أتانا من ثغر من ثغورنا أو طرف من أطرافنا فتق أو شىء نكرهه واحتجنا إلى تداركه أو حسمه ، يبذلنا فيه مالا . . كانت الأموال عندنا معدة موجودة ، ولم نرد استئناف اجتبائها على تلك الحال ،، فما ترون فيما رأينا من ذلك وأجمعنا عليه ! ؟ فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورة ولم ينبس بكلمة ! !

فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات ؟ فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى : أتضع أيها الملك — عمرك الله — الخالد من هذا الخراج على الفانى من كَـرْم يموت ، وزرع يهيج ، ونهر يغور ، وعين أو قناة ينقطع ماؤها ؟ فقال له كسرى : ياذا الكلفة المشئوم من أى طبقات الناس أنت ؟ قال : أنا رجل من الكتاب ، فقال كسرى : اضربوه بالدوىّ حتى يموت ؟ فضربه بها الكتاب خاصة ، تَبَـرُّءاً منهم إلى كسرى من رأيه ، وما جاء منه ، حتى قتلوه ، وقال الناس : نحن راضون !

ولم يكن الرومان يختلفون عن الإيرانيين كثيراً ، وإن لم يبلغوا شأوهم فى الوقاحة وامتهان الإنسانية وإهدار كرامتها — فقد روى المؤرخ الأوربى Victor Chopart فى كتابه « العالم الرومانى » ماترجمته :

« كانت القياصرة آلهة ، ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة ، بل كان كل من تملك زمام البلاد كان إلها ، وإن لم تكن هناك إمارة تدل على وصوله إلى هذه الدرجة ، ولم يكن لقب « أغسطس » Augustus الملوكى المفخم ينتقل من إمبراطـور إلى إمبراطـور بموجب دستور أو قانون ، ولكن لم يكن من شغل مجلس الشيوخ الرومانى إلا أن يؤكد صحة كل حكم يصدر بحد السيف ، ولم تكن هذه الإمبراطورية إلا صورة لدكتاتورية عسكرية .

ولم يكن السجود للملوك نادراً ، فقد حكى أبوسفيان بن حرب فى القصة التى رواها عن هرقل قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقد جاء فى آخر هذه القصة .

« فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم علىّ ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل .

أما الهند فقد بلغ فيها إهدار كرامة الإنسان ، وازدراء الطبقات التى اعتبرها الشعب الآرى المحتل للبلاد ، والقانون المدنى الذى وضعه مشرعوه ، مخلوقاً خسيساً لا يتميز عن الحيوان الداجن إلا بأنه يمشى على اثنين ، ويحمل صورة الآدمى وإن كانوا سكان البلاد الأصليين ، مبلغاً يصعب تصوره ، فقد نص القانون على أنه « إذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمى يداً أو عصاً ، ليبطش به ، قطعت يده ، وإذا رفسه فى غضب قطعت رجله ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتاً فائراً ، وكفارة قتل الكلب ، والقطة ، والضفدع ، والوزغ ، والغراب ، والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء !!

إذا قورن ذلك بما اعتاده العرب من الحرية ، وعزة النفس ، والاقتصاد فى التعظيم والأدب قبل ظهور الإسلام: ظهر فرق هائل بين طبيعة الأمتين ووضع المجتمعين : العجمى والعربى ، فكانوا يخاطبون ملوكهم بقولهم :

« أبيت اللعن » و« عم صباحاً » .

وقد بلغت هذه الحرية والتماسك والاحتفاظ بالكرامة بالعرب : إلى حد كانوا يمتنعون فى بعض الأحيان عن الخضوع لمطالب بعض ملوك العرب وأمرائهم .

ومما يستطرف فى ذلك أن أحد ملوك العرب طلب من رجل من بنى تميم فى الجاهلية فرساً له ، يقال لها « سكاب » فمنعه إياها ، وقال أبياتاً أولها :

أبيت اللعن : إن سكاب علق
نفيس لا تعار ولا تباع

وآخرها :

فلا تطمع أبيت اللعن فيها
ومنعكها بشىء يستطاع

وقد سرت هذه الحرية ، والاعتداد بالنفس ، والأنفة من التذلل ، إلى جميع طبقات الشعب ، وعمت ، الذكور والإناث ، يدل على ذلك ما ذكره المؤرخون العرب عن سبب قتل عمرو بن كلثوم الفارس المشهور والشاعر الفحل ، لعمرو بن هند ملك الحيرة ، فقد ذكروا أن عمرو بن هند ملك الحيرة أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظعن من بنى تغلب ، وأمر عمرو بن هند برواقه ، فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، ودخل عليه عمرو بن كلثوم فى رواقه ودخلت ليلى وهند فى قبة من جانب الرواق ، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالظرف ، وتستخدم ليلى ، فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالظرف فقالت هند : « ناولينى ياليلى ذلك الطبق » فقالت ليلى : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « واذلاه يالتغلب » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه ، ووثب إلى سيف لعمرو ابن هند معلق بالرواق ، فضرب به رأس عمرو بن هند ، وانتهب بنو تغلب ما فى الرواق وساروا نحو الجزيرة ، وقال فى ذلك عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة التى عدت من المعلقات السبع .

ولما دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رستم ، وهو فى أبهته وسلطانه ، جلس معه — على عادة العرب — على سريره ووسادته

فوثبوا عليه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى .

وفى جزيرة العرب ، وفى مكة كانت الكعبة ، التى بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — ليعبد الله فيها وحده ، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد إلى آخر الأبد « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ٣ : ٩٦ » .

وقد بقيت كلمة « وادى بكة » فى التوراة على ما دخل فيها من التحريف والتغيير إلا أن المترجمين حولوها إلى « وادى البكاء » وجعلوها اسم نكرة بدل علم ، وقد جاء فى مزامير داود ما نصه :

« طوبى لأناس عزهم بك ، طرق بيتك فى قلوبهم ، عابرين فى وادى البكاء يصيرونه ينبوعاً » (مزامير ٨٤ — ٥ — ٦ — ٧) .

وقد انتبه علماء اليهود بعد قرون إلى أن هذه الترجمة كانت خاطئة ، فقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية اعتراف بأنه واد مخصوص لا ماء فيه ، وأن فى ذهن من صدرت عنه هذه العبارة صورة لواد له أوضاع طبيعية عبر عنها بهذه الكلمة .

وقد كان ناقلو هذه الصحف إلى الإنجليزية أكثر أمانة ودقة فى الترجمة من الذين قاموا بالترجمة العربية ، فقد تركوا كلمة « بكة » كما كانت فى الأصل ، وكتبوها بالحرف الاستهلالى ، كما تكتب الأعلام ، ففى الترجمة الإنجليزية :

وكانت بعثته — صلى الله عليه وسلم — استجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عند رفعهما لقواعد الكعبة ، وكان دعاؤهما كما نقله القرآن :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت العزيز الحكيم ٢ : ١٢٩ » .

وقد جرت سنة الله باستجابة أدعية المخلصين المبتهلين — فضلا عن الأنبياء والمرسلين — والصحف السماوية والأخبار الصادقة مشحونة بأمثلتها وقد جاء فى التوراة نص يدل على استجابة هذا

الدعاء الذى دعا به إبراهيم فقد جاء فى سفر التكوين ما لفظه :

« وعلى إسماعيل استجبت لك هو ذا أباركه وأكبره وأكثره جداً ، فسيلد اثنى عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير » .

ولذلك صح عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يقول عن نفسه : « أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى » .

وفى التوراة — على ما أصابها من التحريف — شواهد على أن هذا الدعاء قد استجيب ، فقد جاء فى كتاب التثنية (١٨ — ١٩) على لسان نبى الله موسى ما نصه :

« يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى ، له تسمعون » وقد دلت كلمة « إخوتك » على أن المراد بها هو بنو إسماعيل ، الذين هم أبناء عمومة بنى إسرائيل ، وقد جاء ما يؤيد هذا ، بعد آيتين (١٧ — ١٨) من نفس الصحيفة ، وهو كما يلى :

« قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » (سفر التثنية ١٧ — ١٨)

وكلمة « أجعل كلامى فى فمه » يعين محمداً — صلى الله عليه وسلم — فهو النبى الوحيد الذى جاء بكلام الله نصاً وفصاً ، وأعلن الله عن ذلك بقوله :

« وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ٥٣ : ٣ ، ٤ » .

وبقوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ٤١ : ٤٢ » .

أما صحف أنبياء بنى إسرائيل ، فلا تدعى أنها من كلام الله لفظاً ومعنى ، ولا يتحرج علماء هذه الطوائف من إضافة تأليفها إلى الأنبياء فقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية ما يلى :

« إن الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة : من تأليف النبى موسى ، باستثناء ثمانى آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى وما زال الربيون يعنون بتناقضات واختلافات وردت فى هذه الصحف ، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم » .

وأما الأناجيل الأربعة التى تسمى « العهد الجديد » فهى أبعد من أن تكون كلاماً إلهياً لفظاً ومعنى : يقتنع ، بذلك كل من أجال النظر فيها وتصفحها ، وفى الحقيقة هى بكتب السيرة والأخبار أشبه منها بالكتب المنزلة من الله ،

المبنية على الوحى والإلهام .

ثم إن موقع الجزيرة العربية الجغرافى ، يجعلها جديرة بأن تكون مركزاً لدعوة تعم العالم ، وتخاطب الأمم ، فهى مع كونها جزءاً من قارة آسيا تقع بمقربة من قارة إفريقيا ، ثم قارة أوربا ، وكل منها مركز الحضارات ، والثقافات القوية الواسعة ، وتمر بها القوافل التجارية ، التى تصل بين بلاد مختلفة ، وقد تصل بين قارات تحمل من بلد ما يستطرف وينتج فيه إلى بلد يفتقر إليه .

وتقع هـــذه الجزيرة بين قوتين متنافستين : قوة المسيحية وقوة المجوسية وقوة الغرب وقوة الشرق ، قد ظلت رغم ذلك كله محتفظة بحريتها وشخصيتها ولم تخضع لإحدى الدولتين إلا فى بعض أطرافها ، وفى قليل من قبائلها ، وكانت فى خير موقف لتكون مركزاً لدعوة إنسانية عالمية ، تقوم على الصعيد العالمى وتتحدث من مستوى عال ، بعيدة عن كل نفوذ سياسى ، وتأثير أجنبى .

لذلك كله اختار الله الجزيرة العربية ، ومكة المكرمة ، لتكون مبعث الرسول ومهبط الوحى ، ونقطة انطلاق للإسلام فى العالم .

«الله أعلم حيث يجعل رسالته ٦ : ١٢٤» .

أبو الحسن الندوى
ندوة العلماء — لكهنو — الهند

ابن هبيرة والحسن البصرى

حضر لدى ابن هبيرة الحسن البصرى ، فاستفتاه ابن هبيرة فى كتب تأتيه من عند يزيد بن عبد الملك وفيها من الأمر ما لم يأذن به الله ، وقال : إن أنفذتها وافقت سخط الله ، وإن لم أنفذها خشيت على دمى . فقال الحسن : يا ابن هبيرة : خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله . يا ابن هبيرة : إن الله مانعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله يا ابن هبيرة : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى ، فما وافق كتاب الله فانفذه ، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه . فضرب ابن هبيرة على كتف الحسن وقال : هذا الشيخ صدقنى ورب الكعبة ! ؟

أبشروا أيها المسلمون بالمستقبل بعد أن عادت إليكم إرادة القتال

الأستاذ / أحمد حسين

طالما فكرت طويلا تفكيراً حراً بعيداً عن أى اعتقاد دينى : ما الذى يرفع من شأن بعض الدول فيقدرها على بسط سلطانها على دول أخرى ، ثم يطرأ عليها ، فإذا هى تذبل وبالتالى تضعف ، فتفقد سلطانها ، حتى على نفسها ، فإذا هى تحت نفوذ غيرها وفى دائرة سلطانه ! ؟

وآخر نموذج لهذه الظاهرة ، التى تكررت مرات ومرات عبر التاريخ : إمبراطورية يعرفها المسلمون جيداً وأعنى بها انجلترا ، ففى ظل تظاهرها بصداقة المسلمين ، كانت هى أعدى أعدائهم ، وتصدت فى كل مكان لهم فيه شوكة ، لتحطم هذه الشوكة .. فاحتلت مصر وسيطرت عليها ، وتحت ستار صداقة العرب حرضتهم للوقوف فى وجه تركيا ، ثم نكثت بعهودها !

وزرعت فى قلب العرب : الدولة اليهودية التى ما زالت تدمية حتى اليوم ، هذه الإمبراطورية البريطانية التى حرصت على أن لا يكون فى الدنيا شبر إسلامى واحد ليس تحت سيطرة مسيحية .. هذه الإمبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس أبداً : قد انتهت وانتهى أمرها ، وأصبحت تابعة لغيرها وإن تظاهرت بغير ذلك !

وطبيعى : أن لقيام الدول المؤثرة فى دنيا البشر عوامل كثيرة ، ولكن من الطبيعى أيضاً أن يكون ثمة عامل هو الأول بين هذه العوامل ، فما هو هذا العامل ؟

لقد صدّعوا رؤوسنا (أخيراً) بالعامل الاقتصادى ، فراحوا ينسبون إلى العامل الاقتصادى كل شىء ، حتى أوشكوا أن يجعلوا العامل الاقتصادى سبباً لدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس !

حاولوا أن يوجدوا دائماً أسباباً مادية لتفسير ظهور هذه الدولة أو تلك ، وكل

هذا أثبتت الأيام زيفه وبطلانه، فالجزر البريطانية هى الجزر البريطانية لم تتحول عن موقعها الجغرافى، بل وفوق ذلك خرجت منتصرة من أعظم حرب عرفها البشر، ومع ذلك فقد انحدرت إلى دولة من الدرجة الثالثة لا يدخلها أحد فى حسابه أهى خصم أو صديق ؟

وفى الناحية المقابلة تقف اليابان وحسبنا أن نشير إليها مجرد إشارة .

فهذيان ما بعده هذيان : أن يتحدث متحدثٌ عن أسباب مادية، فضلا عن تحديدها فى الاقتصاد .. وسخافة ملكية وسائل الإنتاج، فلا شىء تبدل من ذلك أو تغير .. سواء فى انجلترا أو اليابان ؟ ومع ذلك فإحداهما تهوى إلى الحضيض والثانية ترتفع إلى عنان السماء (بمقاييس العصر) !

وثمة ملاحظة أخرى . . جديرة بالتسجيل :

وهى هزيمة أعظم دولة فى العالم بكل قدرتها « التكنولوجية » التى أوصلتها إلى القمر من دويلة صغيرة وهى فيتنام الشمالية التى كانت قد هزمت قبل ذلك فرنسا التى حكمتها بكل يسر وبساطة عشرات وعشرات من السنين . . لا بد أن يكون وراء ذلك سر، وهذا هو ما حاولت التوصل لمعرفته من خلال استقراء التاريخ وقيام الدول وسقوطها ؟

ولا بد أن يكون هذا السر أولا وقبل كل شىء أبعد ما يكون عن الماديات، وأقرب ما يكون إلى الحالة النفسية التى تسود الجماعة .. وقد كان القرآن الكريم أول من حدثنا عن هذا السر فقال وقوله الحق : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فدل ذلك : أن العنصر الحاسم لتبديل الأمور من حال إلى حال .. هو عنصر نفسى من الدرجة الأولى، هو عين ما توصلتُ إليه من خلال تفكيرى الحر المرسل فى استقراء حوادث التاريخ . . وكان الطابع المميز لكل التطورات التاريخية : أن تكون مسبوقة دائماً بمعركة حربية، بين قوة قديمة ساحقة تستعين بأقوى ما عرف حتى وقتها بالأسلحة، وبين قوة جديدة ناشئة تصغرها حجماً، وتقصر دونها فى المعدات، ومع ذلك فإن الغلبة تكون من نصيب هذا الجانب الجديد الأصغر، والأقل شأناً فى التجهيزات العسكرية ! ؟

ولقد كان ذلك أكثر ما يكون ظهوراً فى معارك الفتح الإسلامى، حيث كانت الأعداد القليلة من جيوش المسلمين، تهزم أضعاف أضعافها عدداً

وعدة ، حتى سحقت فى وقت واحد جيوش أعتى إمبراطوريتين ، وهما الإمبراطورية الفارسية ، والإمبراطورية الرومانية ، وإذا كان المسلمون قد أزالوا الإمبراطورية الفارسية تماماً ، وأبقوا على الإمبراطورية الرومانية ، فما ذلك إلا لأن الأولى وثنية ، أما الثانية فمسيحية.. وقد فسر بعض أعلام جيوش المسلمين لخصومهم سر انتصارهم المؤكد فى جميع المعارك بقوله : « نحن قوم نحرص فى القتال على الموت . . قدر حرصكم على الحياة » .

وهو يعنى بالموت بطبيعة الحال : الاستشهاد فى سبيل الله .

وفتح المسلمون العالم شرقاً وغرباً ، وانتصروا — وبدون استثناء — فى كل معركة خاضوها ما بقوا بهذه الروح ، فلما أن فقدوها وأصبحوا أشد حرصاً على الحياة ، فقد هزموا وأفسحوا الطريق ، لمن هم أقل حرصاً على الحياة !

ولست أحسب أنه يوجد عبر التاريخ كله معركة واحدة انتصر فيها قوم يحرصون على الحياة أيًّا كان عددهم وأسلحتهم ، وإنما ينتصر دائماً ، من يؤثر الموت على عار الهزيمة ، وذل الانكسار .

أسبانيا ومعركة الأرمادا :

وفى التاريخ الحديث وصلت أسبانيا والبرتغال إلى أن يكونا أعظم قوتين فى العالم . . حتى لقد اقتسما الكرة الأرضية فيما بينهما ، ونحن نعلم حظ هاتين الدولتين فى ذلك الوقت ، وباستطاعتنا أن نضع أيدينا على نقطة التحول بالنسبة لكل منهما : فقد بدأت بالنسبة لأسبانيا على سبيل المثال ، عندما تحدى أسطول إنجليزى صغير ، الأسطول الأسبانى الكبير « الأرمادا » ويحدثونك عن ضخامة قطع الأسطول الأسبانى .. وأن ذلك كان سبب هزيمتها أمام قطع الأسطول الإنجليزى الأصغر حجماً ، والأخف حركة أى إن سبب الضعف وهو « الصغر » قد تحول إلى سبب قوة ! وحقيقة الأمر : أن السر كله كان فى نفسية المتحاربين .

ومثل ذلك سيقابلنا فى كل صفحات التاريخ ، فما من شعب ، أيًّا كانت درجته من حيث الفقر أو الاستعداد ، فبمجرد أن تتوفر لأفراده إرادة القتال ، حتى تصل به هذه الإرادة إلى ما شاء الله فلا تكاد هذه الإرادة تضعف وتهن ، فضلا عن أن تتعطل تماماً حتى يتدهور المجتمع ويتراجع !

السعي والعمل فرعان من إرادة القتال :

ذلك أن إرادة القتال وهى أعلى صور غريزة البقاء : تنبع منها بقية الفضائل الأخرى التى ترفع من شأن الشعوب ، كالعمل والإنتاج والإبداع ، فلا بد للقتال من أسلحة وتدريبات ودقة فى كل شىء وانضباط وانصراف عن الاستغراق فى ملذات الحياة وشهواتها ، وهو ماغاب . . عن المجتمع الإسلامى فى وقت من الأوقات فانتهى أمره إلى ما انتهى إليه ، وهو وقوع العالم الإسلامى كله تحت سيطرة أوروبا ونفوذها المادى والمعنوى معاً ، وما كانت أوروبا المسيحية تصل إلى هذا التفوق على المسلمين ، لولا أنها أخذت فضائل الإسلام من نظافة ونظام وعلم وعمل ، ثم توافرت إرادة القتال لدى شعوبها ، وعملت أوروبا بكل قوتها فى إضعاف إرادة القتال أكثر وأكثر لدى المسلمين ! !

واليوم تغير ذلك :

فإذا كنت اليوم أتفاءل وأبشر المسلمين بأن المستقبل لهم ؟ فذلك لأننى رأيت إرادة القتال وقد بدأت تنتقل إليهم ، فى الوقت الذى بدأت فيه هذه الإرادة ، تضعف فى شعوب : أوروبا ، وأمريكا كما قدمت ، وهكذا بدأنا نسمع عن قتال للمسلمين فى «الفلبين» ، حقاً إن الأخبار تترى عن عجزهم عن تحقيق آمالهم ، وعن الأخطار التى تهددهم ، ومع ذلك فمن كان منا يعلم بوجود مسلمين فى الفلبين ؟ وقل مثل ذلك عندما تسمع بقتال المسلمين فى الحبشة ، أو فى « تايلند ، أو بورما » حقاً إن جناحهم لايزال مهيضاً وجانبهم هو الأضعف ، ولكن الجديد فى الموضوع . . أنهم بدأوا يشعرون بكيانهم ، وباتوا يتطلعون لتحقيق إرادتهم ، وهذا لايعنى بحال أن الصعوبات قد انتهت ، بل إنها قد تتفاقم ، والمهم أنها مؤشر على الطريق ، أما لماذا تتفاقم ؟ فذلك : لأن الغزو الأوروبى العسكرى ، إذا كان قد زال ، فإن الغزو النفسى لا يزال قائماً ، وهو الأشد خطراً من الغزو العسكرى ، لا زال المجتمع الإسلامى يؤمن بتفوق المجتمع الغربى ، فنحن فى مصر — على سبيل المثال — لازلنا نردد أقاويله عن اقتناع وإيمان .. فنحن « شعب نامى » ، أى متخلف ومقياس التخلف ، هو مقياس مادى ومغلوط فى نفس الوقت ، فالحضارة عندهم تقاس بما يخص الفرد من دولارات فى العام ! فمتى قلّت هذه الدولارات عن قدر معين فالشعب متخلف ! وهو نوع من

السخف والهذيان .. ومع ذلك فنحن نردده ، ونعمل على أساسه حيث إن أى فرد فى أوروبا وأمريكا لم يعد يقوى على الحياة (أى درجة من الحياة) إلا إذا أنفق مقادير معينة من الدولارات ، فإذا كان باستطاعة كائن من كان ، أن يحيا بعشر معشار هذا القدر من الدولارات فلا مجال للحديث عن التخلف ؟

وقل مثل ذلك عن موضوعات تحديد النسل ، والأمية ، وعن الهدف من الحياة ، فلا زالت الأفكار الأوروبية ، والأمريكية . . تغزوا عقولنا وأرواحنا ، وقد حانت الساعة لنتحرر من هذا الغزو وأن نتشبث بحضارتنا الإسلامية . . ولكى نعرف فى اختصار شديد : ما هى مقومات هذه الحضارة ؟ فهى كل ما سار عليه الأوربيون فى الثلاثة قرون الماضية ، فهم لم يزيدوا على نقل الحضارة الإسلامية وما تنطوى عليه من إرادة القتال فى سبيل ما هو حق وصالح ونافع لبنى الإنسان ! ؟ وعندى من اليقين والإيمان .. أن المسلمين مقبلون على ذلك ، والله أعلم ، وسبحان الله وبحمده ، والله أكبر .

(أعرابى يفحم الحجاج)

خرج الحجاج ذات يوم فأصحره ، وحضر غداؤه فقال : اطلبوا من يتغدى معنا ؟ فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابيًّا فى شملة فأتوه به ، قال له : هلم ؟ قال : قد دعانى من هو أكرم منك فأجبته ! قال : ومن هو ؟ قال : الله تبارك وتعالى .. دعانى إلى الصيام ، فأنا صائم ! قال : صوم فى مثل هذا اليوم على حَرٍّ ؟ قال : صمت ليوم هو أحر منه .. قال : فأفطر اليوم وتصوم غداً ؟ قال : أو يضمن الأمير لى أن أعيش إلى غد ! قال : ليس ذلك إلى ؟ قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ! قال : والله .. ما طيبه خبازك ولا طباخك ، ولكن طيبته العافية ! فقال الحجاج : تالله . . ما رأيت كاليوم ، أخرجوه عنى ! ؟

الفقه الإسلامى بين المثالية والواقعية

الدكتور محمد مصطفى شلبى

فكرة تطوف فى رؤوس رجال القانون من زمن بعيد ، ظلت مجرد فكرة وأمنية تجول فى النفس فترة من الزمن حتى خرجت بعدها على هيئة مطلب ورجاء فى المحاضرات حيناً ، وفى المقالات حيناً آخر ، ثم فى كتب القانون أخيراً .. هى فكرة توحيد القوانين ، أو بتعبير أدق « فكرة تكميل القانون المدنى بإدماج الأحوال الشخصية بعد تقنينها فيه ، ليصبح شاملا للأحوال العينية والشخصية على السواء ؟ » .

بدأ هذا الطلب مع المطالبة بتنقيح القانون المدنى — تقريباً — حيث نادى الدكتور السنهورى بذلك فى مقالاته بمجلة القانون والاقتصاد ، وفى محاضراته مع إشارات فى كتبه .

ولقد كان واضحاً فى مطلبه عندما دل على مصدر ذلك التقنين فقال :

« ولا نقصد بهذا أن ننقل تشريع الأحوال الشخصية من التشريعات الغربية ، بل يجب أن يكون تشريعنا فى هذه المسائل منقولا من الشريعة الإسلامية ، مع جعله ملائماً لأن يطبق على غير المسلمين من المصريين ، فيكون لنا بذلك تشريع عام فى الأحوال الشخصية يخضع له جميع المصريين مع احترام العقائد الدينية ، وعدم المساس بها ، فنحن إذن لا نريد بإدماج الأحوال الشخصية فى القانون المدنى أن ننتقص من سلطان الشريعة الإسلامية ، بل على العكس من ذلك ، نحن نحب امتداد هذا السلطان إلى دائرة المعاملات نفسها » .

ثم أبان أن تقنين الشريعة أمر ممكن ، بل وجد فعلا فى تركيا ، وفى مصر فى المجلة العدلية ، وفى كتب قدرى باشا ، وما صدر من قوانين لبعض أحكام الأحوال الشخصية مدرجاً فى لائحة المحاكم الشرعية أو منفصلا عنها .

وتبعه فى ذلك كثير ممن كتب فى القانون بحثاً وشرحاً . نذكر منهم : الدكتور

حسن بغدادى الذى طالب بتقنين الأحوال الشخصية مقترحاً أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً لهذا التقنين ، ولكن من غير أن يتحمس لهذا الاقتراح كما فعل الدكتور السنهورى صاحب الفكرة.

ويقينى . . أن الدكتور السنهورى قال ذلك عن اقتناع — بعد دراسة طويلة — بدليل أنه يشيد بالشريعة وما فيها من كنوز فى كل مناسبة ، ويطالب فى إحدى محاضراته بوجوب الرجوع إليها وعدم إغفالها كمصدر خصب للتقنين العصرى فيقول :

« وإنى زعيم لكم بأن تجدوا فى ذخائر الشريعة الإسلامية من المبادىء والنظريات مالا يقل فى رقى الصياغة ، وفى إحكام الصنعة عن أحدث المبادىء والنظريات وأكثرها تقدماً فى الفقه الغربى » .

ثم ختمها بقوله :

« فالشريعة الإسلامية كما رأيتم مصدر خصب لتشريع يوضع لبلاد شرقية عربية ».

والدكتور محمد عرفة يقول — بعد أن تكلم على إلغاء المحاكم الشرعية — :

وعندنا أن الإصلاح لا يكون تامًّا إلا بإصدار قانون موحد يحكم المنازعات بالأحوال الشخصية للمسلمين وغير المسلمين من المصريين ، ولا بأس عندنا من أن تستقى أحكام هذا القانون من مبادىء الشريعة الإسلامية وغيرها من الشرائع الطائفية فى نطاق النظام العام ، وبذلك وحده يقضى على عيب تعدد القوانين بعد القضاء على عيب تعدد جهات القضاء .

وزميلنا الدكتور حسن كيره يطالب — فى حماس — بتحقيق هذه الفكرة فيقول فى مقدمة كتابه الحقوق العينية الأصلية .

« الأصل أن القانون المدنى يعرض لأنواع الحقوق المختلفة ، غير أن المشرع المصرى قد اضطر منذ أول تقنين مدنى أصدره فى أوائل الربع الأخير من القرن الماضى إلى الخروج على هذا المنهج السوى نظراً إلى ظروف خاصة، وعادات وتقاليد موروثة قضت بربط مسائل الأحوال الشخصية بالدين والملة مما استتبع استبعادها من نطاق هذا التقنين أمام تعدد القواعد القانونية التى تحكمها بتعدد الأديان والملل السائدة فى مصر ، واقتصار هذا التقنين كقاعدة عامة على الحقوق التى تتعلق بروابط الأحوال العينية — أى بالمعاملات المالية وحدها — ولم يتغير الحال فى التقنين المدنى المصرى الجديد رغم طول الفترة التى مضت بين التقنينين ، وما شهدته من تطور كبير متواصل فى المجتمع المصرى ، إذ مايزال للتقاليد سلطان قوى غير منكور » .

ثم يعلق على ذلك بقوله :

« لعل فى إقدام المشرع المصرى أخيراً على توحيد الاختصاص القضائى فى مسائل الأحوال الشخصية ما يبشر بقرب استكماله للإصلاح المنشود من توحيد القانون فى هذه المسائل دون نظر إلى اختلاف العقائد الدينية ، بحيث يصبح التقنين المدنى المصرى — كسائر مثيلاته من التقنينات — شاملا لمسائل الأحوال الشخصية والعينية على السواء » .

ويقرر مثل ذلك شارحاً له فى كتابه « أصول القانون » .

وبهذه الصراحة التامة يطلب تقنين الأحوال الشخصية ليكمل القانون غير أنه لم يعرض لبيان مصدر ذلك التقنين الجديد كما عرض سابقوه ، ولعله تركه لاختيار المشرع حينما يعزم على التنفيذ بعد أن كشف عن رأيه فى الشريعة الإسلامية فى مواضع مختلفة من كتابيه « المدخل » و « أصول القانون » كشف عنه بطريق التصريح مرة ، وبطريق الإيماء مرة أخرى مما سيأتى توضيحه فى موضعه من هذا البحث .

فأنت ترى أن هذه الفكرة قامت فى أصلها على أمرين : أولهما — المطالبة بتقنين الأحوال الشخصية تقنيناً عامًّا يخضع له جميع المصريين على السواء لا فرق بين مسلم وغيره . وثانيهما — الإرشاد إلى المصدر الذى يرجع إليه . وأن الاتفاق قائم على الأمر الأول ، وأن ثمة اختلافاً بينهم فى الثانى ، فقد بدأ بالمطالبة بجعل الشريعة مصدره الوحيد مطالبة صريحة مع الاعتراف بكفايتها لذلك ، ثم فتر الطلب عند البعض ، فاقتصر على رفع المانع من طريقة توقع رفع البأس ، ثم آل إغفاله مع التعريض بعدم صلاحيته الشرعية لذلك بوضعها الحالى .

ومن يدرى لعل الأيام تأتينا باقتراح أكثر صراحة يطلب صاحبه جعل مصدر التقنين التشريعات الأجنبية ، حتى يلتئم التقنين كله برجوعه إلى أصل واحد .

لهذا ولما وجدته عند قرائى فى كتب أصول القانون من تعابير عديدة تصف أحكام الشريعة الإسلامية بأنها أحكام خلقية دينية جاءت — فيما أظن — تقليداً لما شاع عند رجال القانون الغربيين . الأمر الذى يجعلها فى نظر الناس ، وبخاصة طلاب الحقوق — غير صالحة للتقنين لأنها لا تتلاءم مع واقعهم الذى يعيشون فيه .

لهذا وذاك اتجه تفكيرى إلى معاودة البحث فى واقعية فقه هذه الشريعة

وقانونها ، لأثبت للناس من جديد أنه فقه واقعى يلائم الحياة ويسير معها مهما تقلب الزمن وتجددت الأحداث لا يعادى مدنية ، ولا ينفر من الجديد لأنه جديد ، فيه من المرونة واليسر مالا يقل عن أحدث القوانين وأرقاها إن لم يفقها كلها فى ذلك !

اتجه تفكيرى إلى هذا البحث بعد أن شرعت فى بحث آخر فعدلت عنه إلى حين أن أنتهى من هذا البحث الجديد، ثم أعود إليه بمشيئة الله الذى وضع القلوب بين إصبعين من أصابعه يقلبها سبحانه كيف شاء !

عدلت عنه : لما لوضعنا الجديد من أهمية بالغة فى ظروفنا الحاضرة ، ولأنه يعتبر كالأساس لغيره من موضوعات المقارنة بين الشريعة والقانون .

ومن الصواب : أن يبدأ المرء سيره من أول الطريق حتى لا تلتوى به السبل ، ولا تضطرب خطواته أثناء مسيره .

وجعلت عنوان البحث «الفقه الإسلامى بين المثالية والواقعية » .

معنى الواقعية :

وإذا كانت الواقعية مأخوذة من الواقع ، وهو فى عرف الناس يراد به « سلوك الأفراد والجماعات » فهل معنى واقعية القانون : أنه يخضع لهذا الواقع فى كل شىء ، ويسايره فى جميع اتجاهاته ويحقق رغباته .

أم أن القانون هو الذى يخضع الواقع ويتحكم فيه ، فيبيح منه أشياء ، ويحرم أخرى ، ولكنه لا يقف جامداً على ما جاءت به نصوصه ، بل يسير فى ركب الحياة ويتطور معها ؟

معنيان للواقعية يهوى بعض الناس أولهما ، ويشتهى . . أن لو خضعت كل القوانين — سماوية كانت أم وضعية — لواقعهم ، ولو كان فاسداً وهم قوم إباحيون ، يريدون التحلل من كل قيد فيسيرون وراء أهوائهم لإشباع رغباتهم ! ؟

ويتجه آخرون إليها بالمعنى الثانى ، يثبتونها لقوانينهم الوضعية ، ويسلبون الفقه الإسلامى حظه منها ، قائلين : إنه فقه مثالى متأثر بعنصرى : الخلق والدين ، ومن ثم وصفوه تارة . . بأنه أحكام خلقية ، وأخرى . . بأنه أحكام دينية ، حتى صوره للناس بأنه فقه جامد لا يتحرك ، وإن تحرك ففى ضيقه ، ويخلصون من ذلك أنه لا يساير الزمن ، ولا يلائم المدنيات ، فلا يصلح للتطبيق ! الآن ومن هنا قيل : إن دخول القوانين الغربية فى معظم البلاد الشرقية التى تدين بالإسلام . . يرجع إلى

جمود الشريعة الإسلامية بعد إقفال باب الاجتهاد فيها مع تيقظ الوعى فى أواخر القرن الماضى فى تلك البلاد ، وأن تمسك بعض الدول الإسلامية ، « كالحجاز واليمن » بشريعتهم دون اللجوء إلى القوانين الحديثة راجع إلى ظروف هذه البلاد الخاصة وهى أنها تعيش فى حالة بدائية لا تحتاج معها إلى تجديد ! ؟

خطة البحث :

ونحن نقف مع الفريق الأول وقفة قصيرة نبطل فيها دعواه ، ونبين لهم أن الفقه الإسلامى بعيد عن الواقعية بهذا المعنى ، بل إن القوانين الوضعية فيما استقرت عليه تنكر هذه الواقعية لأنها لا تتفق وطبيعة القانون .

ولنا مع الفريق الثانى وقفة طويلة نناقش فيها دعواهم ، ونكشف عما فى شبههم من زيف وبعد عن الحقيقة ، ثم نثبت تلك الواقعية لهذا الفقه من واقع مصادره ومبادئه وأحكامه ، شارحين ما فى تلك المصادر .. من مرونة تكفل لهذا الفقه واقعية دائمة ، ثم نعقب على ذلك ببيان الطريقة التى ينبغى سلوكها لكى ننتفع به فى تشريعنا الحاضر ، وبعد هذا كله نتصدى لدفع ما أثير من شبه حول إمكان تطبيقه والعمل به الآن ، حتى يتبين لهؤلاء المنكرين أن فكرة عدم واقعيته جاءت وليدة عدم العلم بما فيه من أسس سليمة ، ومبادىء قويمة ، تهدف فى مجموعها إلى خير الإنسانية وإرساء قواعد المجتمع على أرض صلبة لا تميد ، وبالتالى يظهر لنا وضوح أن مبدأ الواقعية والملائمة فى هذا الفقه الخالد تستعصى على الرد والإنكار ، وأن إنكار المنكرين على اختلاف ألوانهم ، وتعدد صورهم وأشكالهم لم يفلح فى هدم ذلك البناء الشامخ ، أو زعزعة اعتقاد أصحاب العقول السليمة فى صلاحيته ، وأن هذا الفقه يتمكن من أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة الصحيحة ، والتوفيق بين حاجاتها .

المثالية والواقعية فى القوانين الوضعية :

وقبل أن نبين ما فى الفقه الإسلامى من واقعية ، ومع أى الطريقتين يسير . نعرض لموقف القوانين الوضعية منها ، لتتم المقارنة بينهما فى يسر وسهولة ، وهذا يضطرنا إلى عرض تاريخى موجز لمسلك رجال القانون فى تكوين قواعدهم القانونية فنقول :

لرجال القانون الوضعى فى طريقة تكوين قواعدهم ثلاث مدارس ، وبعبارة أدق مدرستان . كانتا على طرفى نقيض هما : المدرسة المثالية ، والمدرسة الواقعية سلكت كل واحدة منهما مسلكاً يضاد

مسلك الأُخرى ويناقضه ولما لم تسلم واحدة منهما من النقد والتجريح جاءت فئة أُخرى وكونت مدرسة ثالثة تجمع بين المثالية والواقعية ، وعلى طريقتها استقر الوضع الأخير لتلك القوانين .

فالمدرسة المثالية ترجع القاعدة القانونية إلى ما يختاره العقل من المثل العليا دون نظر لواقع المجتمع ، وعبرت عن هذا القانون فى مبدأ الأمر بالقانون الطبيعى ، وزعمت أنه قانون أبدى ثابت صالح لكل زمان ومكان ومع ذلك فقد دخله التعديل والتغيير ، وتشكيله بأشكال عديدة .

وفى أثناء موجات التغيير التى لحقته اصطبغ بصبغة دينية فى العصور الوسطى فى كنف الكنيسة المسيحية حتى صار القانون آنئذ هو ذلك القانون الإلهى الذى يسمو على القانون الوضعى وحينذاك فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وراجت القولة المشهورة « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فبعد أن كان القانون الطبيعى فكرة فلسفة فى العصور الأولى صار فكرة دينية فى العصور الوسطى ، ولما ضعف سلطان الكنيسة وقوى سلطان الدولة أصبح القانون الطبيعى فكرة قانونية تشريعية ، وأُتيح لها حظ كبير من الذيوع والانتشار فى القرنيين السابع والثامن عشر .

وفى القرن التاسع عشر . . هوجم القانون الطبيعى كما هوجمت مدرسته المثالية ، وتركز الهجوم على صفة الخلود فى هذا القانون ، وفيما يلازمه من نزعة فردية مما أدى إلى هجره فترة من الزمان ، ثم عادت فكرة إحيائه فى أواخر القرن التاسع عشر ، فأُعيد مجرداً من صفة الخلود ، وقصر على صفة القيادة الموجهة الملهمة بقليل من مبادىء العدل المثالية ، دون أن ينزل إلى التطبيق العملى ، وهو ما عبروا عنه بالقانون الطبيعى ذى المضمون المتغير ، ومع ذلك لم يسلم من النقد والتجريح ، فطعنوه بالتناقض ، لأن المثل الأعلى الذى يقوم عليه القانون الطبيعى ثابت خالد ، فاعترافهم بتغيره يعد تناقضاً منهم !

وأخيراً انتهت فكرة القانون الطبيعى إلى أنه موجه مثالى للعدل لكل القوانين الوضعية ، فتلتزم الدولة عند وضع قانونها احترام هذا الموجه لا تحيد عنه ، وكما جعل موجهاً للمشرع عند تشريعه جعل موجهاً للقاضى عند تطبيقه إذا لم يجد حلاً للنزاع المعروض عليه فى قواعد القانون .

أما المدرسة الواقعية . . فقد جاءت فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وكانت على النقيض من المدرسة المثالية ، لأنها لا تؤمن بما يستنبطه العقل

بعيداً عن الواقع حيث أنها تراه ضرباً من الحدس والتخمين ومن ثم اتجهت إلى إخضاع القانون للواقع المحسوس ، فجعلت القاعدة القانونية تقوم على الواقع ، وهو وجود تضامن بين الأفراد فى المجتمع .

وقد خرج من هذه المدرسة مذهبان : (أولهما) المذهب التاريخى .. الذى يجعل القانون من صنع الزمن وتطور التاريخ ، فكل أمة من الأمم تخلق قانونها كما تخلق لغتها وتقاليدها .

فالقانون عنده تعبير جماعى صامت يتكون على مر الزمن ، فهو من الأعراف يولد ، وعمل المشرع فيه ليس إلا تسجيلا لهذا التعبير الصامت وتغييراته المستمرة على مر الزمن !

ولقد نقد هذا المذهب نقداً مرًّا غدا معه قليل الأنصار رغم ما أدخل عليه من تعديلات (وثانيهما) مذهب التضامن الاجتماعى .. ويقوم هذا المذهب على أن القاعدة القانونية هى التى يشعر جمهور الأفراد المكونين للجماعة : أنها ضرورة ولازمة لصيانة التضامن الاجتماعى ولا يرضى أن تكون القاعدة القانونية تطبيقاً لأصل أو مثل أعلى كما يدعى أنصار القانون الطبيعى !

ولقد نقد هذا المذهب بأنه يجعل القانون خاضعاً للواقع التجريبى فالقاعدة القانونية عنده لا تقول : افعل هذا لأنه خير أو نافع ، بل تقول له : افعل هذا لأنه كائن ، وهو إغفال لطبيعة القانون لوظيفته لأن القانون فى حقيقته لا يقر ما هو كائن ، وإنما يقوِّم ما هو كائن تقويماً يقرر به ما ينبغى أن يكون . أى ينتقل من الواقع إلى الواجب ، فيجاوز بذلك دائرة المشاهدة والتجربة إلى دائرة العقل والتفكير حيث يمكن التقدير والتقويم .

ومع ما أدخل على هذا المذهب من تعديل بإدخال العدل مؤثراً فى القاعدة القانونية لم يسلم من النقد لأنه لم يرد العدل فى ذاته كمبدأ أو كمثل أعلى بل باعتباره شعوراً للجماعة الأمر الذى يجعل العدل خاضعاً للأفراد فيتأثر بالأهواء .

هاتان المدرستان : متنازعتان قصرت كل واحدة منهما فى نظرتها ، فصرفت وجهتها إلى ناحية واحدة فالمدرسة المثالية لا تهتم إلا بالناحية الروحية فى الإنسان ، فأسرفت حين جعلت القانون مجرد عمل عقلى محض بعيداً عن الحقائق الواقعية فى حياة المجتمع !

والمدرسة الواقعية كانت على العكس من ذلك ، فقصرت نظرتها على الناحية المادية فى الإنسان ووجوده المحسوس فى المجتمع فأسرفت بدورها لما جعلت القانون مجرد

عمل علمى تجريبى فقط . . يتبع واقع الحياة بعيداً عن التفكير والعقل .

من أجل هذا الغلوّ عند كل من المدرستين نادى جماعة من الفقهاء بفكرة تعتبر وسطاً بين الفكرتين : بنى هؤلاء فكرتهم على أن الإنسان — الذى يراد القانون له — مكون من عنصرى المادة والروح فاعتبار إحداهما دون الآخر يجعل القانون غير ملائم لذلك الإنسان ، فينبغى ، بل يجب أن يكون مزيجاً من حقائق الحياة الاجتماعية التى تسجلها المشاهدة والتجربة ومن المثل العليا التى يستخلصها العقل مما وراء المحسوس .

على أن القاعدة القانونية التى تحكم سلوك الإنسان فى المجتمع — هى قبل كل شىء : قاعدة تقويمية لا يكفى فيها تقرير الواقع من الحياة عن طريق المشاهدة والتجربة ، بل يجب أن تجاوز ذلك إلى فرض واجب معين عن طريق تقويم هذا الواقع بالقياس على ما يفرضه العقل من مثل عليا ، فالواقع وحده قاصر عن تكوينها .

هذا الاتجاه المزدوج ، والجمع بين فقه المدرسة المثالية والمدرسة الواقعية سار عليه أغلبية فقهاء القانون الوضعى ، فالقانون عند هؤلاء ليس عملا علميًّا بحتاً كما تذهب المدرسة الواقعية ، ولا هو عمل عقلى تفكيرى خالص كما تذهب المدرسة المثالية ، ولكنه عمل مزدوج من عمل علمى وعمل عقلى ، لأن الواقع وحده لا يكفى . . لتسرب الأهواء إليه ، فلابد من تقويم هذا الواقع تقويماً عقليًّا بالقياس على مثل أعلى : هو العدل الذى يفرضه العقل بعيداً عن الأهواء والشهوات .

وعلى هذا : استقر الوضع الآن بين رجال القانون ، فهم لا يقبلون الواقع بين الناس إلا بعد تقويمه . . لذلك نراهم يقسمون العرف إلى صحيح وفاسد ، فيقبلون صحيحه ويردون فاسده .

هذا هو موقف القانون الوضعى وفقهائه من الواقعية بعينها ، فقد نقدوا تسلط الواقع على القانون تسلطاً مطلقاً . نقدوه وجرحوه حتى أغلقوا مدرسته ، وتفرق طلابها عنها ، ولكنهم لم يهملوا الواقع ، بل قبلوه بعد تقويمه ونقده بميزان أعلى منه بعيداً عن الأهواء والشهوات !

ذلك : عرض سريع لتاريخ الواقعية عند رجال القانون . عرضناه بخطواته وما وقع فيها من نزاع طويل ، وكيف تطورت حتى وصلت إلى وضعها الأخير لنخلص منه النتائج الآتية :

أولاً : أن القوانين الوضعية على

اختلاف ألوانها ولدت ناقصة قلقة غير مستقرة ، لعدم وجود مصدر ثابت تستقى منه ، ولا أدل على ذلك من هذا الاختلاف البين فى مصدر تكوين القاعدة القانونية فى تلك القرون !

ثانياً : أن تلك القوانين لم تصل إلى وضعها الأخير إلا بعد كفاح شاق طويل ، فقد بدأت بفكرة المثالية المفرطة فى الخيال — ثم نازعتها فكرة الواقعية التى لا يكون للقانون معها سلطان ، ثم امتزجت الفكرتان : فكرة الواقعية على مر الزمان ، وخرجت منهما فكرة وسط استقام معها الأمر إلى حد ما .

ثالثاً : أن فكرة المثالية الممثلة فيما سمى بالقانون الطبيعى لبست ثوباً دينياً فى مرحلة من مراحل حياتها على يد الكنيسة المسيحية فى القرون الوسطى لما تبنتها ودافعت عنها لملاءمتها لتعاليمها الدينية ، ولعل هذا الأمر يخفى وراءه السر فى وصف بعض رجال القانون للفقه الإسلامى بأنه « فقه مثالى » لأنه فى نظرهم عبارة عن مجموعة من الأحكام نزلت بها نصوص الوحى فى فترة زمنية معينة ، بل فى بقعة من العالم معينة متأثرة بعنصرى الدين والأخلاق . وكثيراً ما حالت هذه النصوص بينه وبين واقع الناس وما تعارفوا عليه . ومن ثم يكون عبارة عن مثل عليا . ليس بينه وبين الواقع صلة فلا يصلح للعمل به !

رابعاً : أن الوضع الذى انتهى إليه رجال القانون بعد ذلك الجهاد الطويل من اعتبار الواقع — بعد تقويمه وتقديره بميزان العدل — ليس أمراً جديداً ، بل هو فى شريعة الله : قديم حيث قرره الإسلام من أول أمره ، وسار عليه فقهاؤه إلى الآن . فهو لم يكن مثالياً بالمعنى الذى بدأت به القوانين ، ولا واقعياً بالمعنى المقابل له عندهم فهو لم يكن خيالياً فى يوم من الأيام ، ولا واقعياً خاضعاً للأهواء والشهوات ، بل كان ولا يزال واقعياً معقولا ، يسير مع الواقع بعد تقديره بميزان العدل الإلهى البعيد عن أغراض الناس ونزواتهم وهو ما قصدنا إثباته بعد أبطال شبه الطاعنين فيه ! ؟

الأقليات وتطبيق الشريعة الإسلامية

الدكتور يوسف القرضاوى

(٢)

دليل العدل والتسامح من شريعة الإسلام :

أما شريعة الإسلام فحسبنا قول الله تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم : أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم : أن تَوَلَّوْهُمْ ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» (١) . والخلط يقع دائماً بين الصنفين المذكورين : الذين نهى الله عن توليهم ، لأنهم عادوا المسلمين وآذوهم وأعانوا عليهم — والذين رغب الله فى برهم والإقساط — إليهم لأنه يحب المقسطين ! ؟

وإذا كانت هاتان الآيتان نزلتا فى شأن المشركين ، كما هو مبين فى أسباب نزول السورة — الممتحنه — فإن لأهل الكتاب منزلة خاصة فى اعتبار الإسلام

(١) الآيتين ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة ٦٠ .

فقد أباح القرآن مؤاكلتهم ومصاهرتهم . أى اعتبر ذبيحتهم حلالا ، كذبيحة المسلم على حين حرم ذبيحة الملحد والوثنى ، وأجاز للمسلم أن يتزوج كتابية عفيفة كما قررت ذلك « سورة المائدة » .

ومعنى هذا : أنه أباح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته وأم أولاده : كتابية ، وأن يكون أصهاره وأخوال أولاده وخالاتهم .. من أهل الكتاب ، وهذا ذروة التسامح .

أطلق الإسلام على اليهود والنصارى الذين يعيشون فى كنف دولته : اسمين يوحيان بمعان كريمة سامية — :

الأول : اسم « أهل الكتاب » إشارة إلى أنهم فى الأصل أصحاب كتاب سماوى .. وهذه التسمية لسائر اليهود : والنصارى ، وإن لم يعيشوا فى دار الإسلام .

والثانى : اسم «أهل الذمة» إيماء بأن لهم ذمة الله وذمة رسوله : أى عهد الله وعهد رسوله ألا يؤذوا ولا تهدر حقوقهم أو تخدش

حرماتهم ، وهذا الاسم خاص بالذين يعيشون فى ظل سلطان الإسلام .

وفى الحديث الشريف : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، إن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

والمعاهد يشمل من له عهد مؤقت بأمان ونحوه ومن له عهد مؤبد وهو الذى عهده أوثق وأوكد .

وفى حديث آخر: « ومن ظلم معاهداً » .

وقد كتبت بحثاً مستقلاً وضحت فيه حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى وضمانات الوفاء بهذه الحقوق وما عليهم من واجبات بإزاء هذه الحقوق ، فليرجع إليه .

العدل والتسامح فى تاريخ المسلمين :

أما تاريخ المسلمين فى معاملة غير المسلمين ، فلم تر البشرية مثله نصاعة وإشراقاً ، إنه صحائف رائعة من التسامح الفذ المنقطع النظير بين المؤمنين بالأيدلوجيات : دينية أو علمانية ، مما جعل الشعوب المسيحية وغيرها ترحب بالحكم الإسلامى منقذاً لها من تعصب حكامها الذين كانوا فى بعض الأحيان على دينها، ولكن يخالفونها فى المذهب .

ولن أنقل هنا كلام أحد من المسلمين ، وأكتفى بما سجله المؤرخون الباحثون من غير المسلمين .

يذكر لنا المؤرخ « لودفيج » فى كتابه « النيل — حياة نهر » كيف استقبل أقباط مصر الجيش الإسلامى — بقيادة عمرو بن العاص — استقبال المنقذين لا استقبال الغزاة الفاتحين وكيف كان بالغاً حد الحماسة[١] .

ويقول : لودفيج أنه ما عدا فرض الجزية على المسيحى فإن عمراً لم يفرق فى المعاملة بين المسلمين والمسيحيين بل إنه أعلن حمايته لحرية الأديان جميعاً ، ولإقامة شعائرها ، وكفل المساواة المطلقة بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، مساواة شملت كل حق لهم وكل واجب عليهم ، بما فى ذلك وظائف الدولة ، بغض النظر عن الجنس أو الدين[٢] .

يقول جيروم وجان تارو » :

« إن فضيلة التسامح التى كانت أزهى السمات الخلقية فى العرب ، والتى ندر أن تتوافر لغيرهم فى جميع الأزمان ، هذه السجية الكريمة قد أفادت العرب كثيراً ، ولم يكن ليفيدهم ذكاؤهم الفطرى وذوقهم الفنى ونزعاتهم : لو لم يتميزوا بفضيلة التسامح[٣] .

(١ ، ٢ ، ٣) الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (المرحلة الأولى) للاستاذ محمد على الغتيت ص ٧٤ — ٧٥ .

يقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » متحدثًا عن عدل الفاتحين المسلمين وسماحتهم :

« كان يمكن أن تُعْمِيَ فتوح العرب الأولى أبصارهم ، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى العالم . . ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد أدرك الخلفاء السابقون — الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ماندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة — أن النظم والديانات ليست مما يفرض قسراً[1] فعاملوا — كما رأينا — أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب ، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقًا ، فى مقابل حفظ الأمن بينهم . فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحًا مثل دينهم[2] .

وينقل عن جوتييه فى كتابه «أخلاق المسلمين وعاداتهم » :

« لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية فضيلة المسامحة التى لم تكن تتوقَّع من أناس يحملون ديناً جديداً . وما فكر العربى قط فى أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد أن يطفىء بالدماء ديناً منافسًا لدينه » .

وقد جاءنا العالم (متز) فى باب التسامح الإسلامى بتفاصيل أشد غرابة من هذه . قال :

« إن من أعظم بواعث الاستغراب كثرة عدد غير المسلمين من رجال الأسر فى الدول الإسلامية ، وقد شوهد المسلم فى بلاده يحكم عليه النصارى ، وحدث مرتين فى القرن الثالث للهجرة أن كان من النصارى وزراء حرب ، وكان على القواد — حماة الدين — أن يُقَبِّلُوا أيدى الوزير وينفذوا أمره ، هذا والدواوين غاصة بالكتاب من النصارى » .

ولم يكن التسامح مقصوراً على عهد الراشدين أو المسلمين الأولين أو جنس العرب كما يظن ذلك بعض الناس ، بل بقى هذا التسامح صفة أصيلة ملازمة للمجتمع المسلم ، وللحكم الإسلامى فى

(١) الواقع أن هذا الإدراك من الخلفاء الأولين ليس راجعاً إلى مجرد عبقرية سياسية كما ذكر الكاتب بل إلى تعاليم الإسلام التى كانت هى الموجه الأول لهؤلاء الخلفاء والتى علمتهم أن « لا إكراه فى الدين » وغرست فيهم روح العدل والسماحة المنقطعة النظير .

(٢) حضارة العرب ص ٦٠٥ .

كل عصر وفى كل مكان ، أياً كان الحاكمون وكان المحكومون ، حتى فى أشد العصور اشتهاراً بالعصبية الدينية ، بل كانت الدولة الإسلامية هى الملاذ الذى يلجأ إليه المضطهدون من أى دين ، فيجدون فيها التسامح والأمان والاطمئنان.

يقول توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » :

« وحدث ان هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة ، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر » .

ويقول أيضاً « حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركى لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أى حكومة مسيحية » .

ويقول ريتشارد ستيز من أبناء القرن السادس عشر :

« على الرغم من أن الاتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب . . فقد سمحوا للمسيحيين جميعاً : للإغريق منهم واللاتين ، أن يعيشوا محافظين على دينهم وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية وفى أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق — بدليل إثنى عشر عاماً قضيتها فى أسبانيا — أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب ، بل أننا فى خطر على حياتنا وأحفادنا » .

وهذا ما جعل بطريرك أنطاكية واسمه مكاريوس يقول : أدام الله دولة الترك خالدة إلى الإبد فهم يأخذون ما فرضوه من « جزية » ولا شأن لهم بالأديان سواء كان رعاياهم مسيحيين أو يهوداً أو سامره[1] .

والعجيب أن يتم هذا التسامح فى الوقت الذى كان المسلمون يغادرون فيه الأندلس بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون ينشرون العلم والحضارة ويهدون أوروبا إلى طريق النور فى زمن لم تكن ترى فيه الضوء إلا من مثل سم الخياط وظل هذا التسامح سارياً فى كل الديار الإسلامية ومع كل الطوائف والأقليات ما دام الشرع الإسلامى هو الذى يحكم ويسود.

حتى اليهود الذين يتصرفون كثيراً تصرفات تثير مواطنيهم عليهم وتوقد شعلة الكراهية لهم ، وخاصة حين يدبرون المكايد خفية أو ينشرون

---

(١) انظر « الدعوة إلى الإسلام » لتوماس أرنولد ترجمة د . إبراهيم حسن وزميله فهو يحوى مئات الوقائع والأمثلة على سماحة المسلمين .

الفساد جهرة . . حتى هؤلاء اليهود عاشوا فى المجتمع الإسلامى فى أمن على أنفسهم ومعابدهم وأعراضهم وأموالهم التى لم يتورعوا عن استخدامها فى الربا المحرم عند المسلمين .

وأكتفى هنا بذكر وثيقة تاريخية تبين لنا كيف يعامل الحكم الاسلامى الأقليات ولو كانت يهودية .

وهذه الوثيقة هى نص الفرمان «الظهير» الذى نشره السلطان محمد بن عبد الله سلطان المغرب فى ٥ فبراير سنة ١٨٦٤م .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر أيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الأحكام، حتى لايلحق أحدهم منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ، ولاينالهم مكروه ولا اهتضام وألا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم، وألايستعملوا أهل الحرف منهم إلاعن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم ، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ونحن لا نوافق عليه ، لافى حقهم ولا فى حق غيرهم ، ولانرضاه لأن الناس كلهم عندنا فى الحق سواء، ومن ظلم أحداً منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله ، وهذا الأمر الذى قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقرراً ، ومعروفًا محرراً ، ولكن زدنا هذه السطور تقريراً وتأكيداً ووعيداً فى حق من يريد ظلمهم وتشديداً ليزيد اليهود أمنا إلى أمنهم ومن يريد التعدى عليهم خوفًا إلى خوفهم صدر به أمرنا المعتز بالله فى السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ١٢٨٠ هـ »[١] .

وكفى بهذه الوثيقة وحدها رداً على الأفاكين الذين يثيرون العجاج ويفتعلون الضجيج ، بغير مسوغ ولا برهان .

ما سر هذه الضجة حول الأقليات ؟

(ز) وليت شعرى إذا كان هذا هو موقف الإسلام الواضح المبين فى شريعته وفى تاريخه ، وهو البر والإقساط والتسامح مع غير المسلمين فما سر هذه الضجة حول « الأقليات» ؟ وما معنى هذا التوجس والقلق الذى يبديه غير

(١) تاريخ المغرب فى القرن العشرين تأليف روم لاند وترجمة د . نقولا زيادة نقلا عن كتاب « خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية للأستاذ عبد الله التل ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

المسلمين كلما ذكر الحكم الإسلامى، وكلما دعا الداعون بضرورة العودة إلى نهج الإسلام وشرع الإسلام؟

والجواب: إن هذا التوتر لم ينبع من الداخل وإنما جاء من الخارج، جاء من الغرب الذى شن على المنطقة حملات صليبية وحشية متكررة ولم يرفع يده عنها بعد والعجب أنه شنها باسم المسيح رسول المحبة والسلام والمسيح منها ومن أهلها براء.

ولا زال الغرب يكيد للمنطقة وأهلها متذرعًا إلى ذلك بشتى الذرائع المختلفة ومنها مسألة الأقليات.

إن السياسة التى اتبعها الغرب خلال ثمانية قرون هى استخدام مسألة الأقليات المسيحية فى الشرق لإثارة الفتن والقلاقل التى تخدم أغراضه دائماً، وذلك بخلق جو من الريبة والعداء الدائم بين المسلمين والمسيحيين. ويصف المؤرخ «لود ڤيج دى كونتش» هذه السياسة فيقول: «كان الغرب يعمل جاهداً على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين فى نفوس المسيحيين يتلقونها خلفاً عن سلف، ويرضعها الطفل من شعور أمه كما يرضع اللبن من ثديها، فتسرى فى كيانه مسرى الدم فى عروقه وينشأ على عقيدة تقضى على العلاقة بين المسيحى وبين المسلم إلى الأبد[1] وفى سبيل هذه الغاية الشريرة حاول الغربيون أن يشوهوا تاريخ التسامح الإسلامى الذى لم تعرف الإنسانية له نظيراً، متذرعين بحوادث جزئية قام بها بعض العوام والرعاع فى بعض البلاد وبعض الأزمان، نتيجة لظروف خاصة تحدث فى كل بلاد الدنيا إلى يومنا هذا.

من هذه الظروف أن التسامح الإسلامى هيأ للكثير من أهل الذمة مراكز قوية فى النواحى المالية والإدارية فلم يحسنوا معاملة المسلمين بل أظهروا التسلط والتعنت والجبروت.

وفى هذا يقول «متز» وكانت الحركات التى يقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولا إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين[2].

ويقول أيضًا: إن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر — يعنى فى القرون الأولى — نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط[3] ومن هذه الظروف أن بعض النصارى كانوا يبدون ارتياحًا إذا انتصر النصارى على المسلمين فيؤدى ذلك إلى هياج العوام عليهم.

---

(١) الغرب والشرق — السابق ذكره — ص٩٧.

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١١٢.

ولا ننكر إن هناك حكاماً ظلموا أهل الذمة أو تشددوا عليهم ولكن مثل هذا يعتبر شذوذاً عن القاعدة العامة فى التسامح الإسلامى مع غير المسلمين .

وفى الغالب أن هذا النوع من الحكام يظلم المسلمين قبل اليهود والنصارى ، فإن الظالم لا يقف ظلمه عند حد .

بل إن كثيراً من ظُلاَّم الحكام كان يرفق بأهل الذمة رعاية لذمتهم على حين يقسو على أهل ملته من المسلمين ويحيف عليهم ، حتى وجدنا الشيخ الدردير علامة المالكية وشيخ علماء عصره فى مصر يذكر عن أمراء زمانه : أنهم أعزوا أهل الذمة ورفعوهم على المسلمين . حتى يقول : (وياليت المسلمين عندهم كمعشار أهل الذمة وترى المسلمين كثيراً ما يقولون : ليت الأمراء يضربون علينا الجزية كالنصارى واليهود ويتركونا بعد ذلك كما تركوهم» (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) [١] .

ولكن الرجاء معقود بعقلاء المسيحيين الذين يدركون كيد الغرب ونواياه الشريرة التى لم تتشرب روح المسيحية قط ، حتى يوم غزت هذا الشرق باسم المسيح ، وتحت عنوان الصليب .

فإن كان المسيحيون وغيرهم من الأقليات يخافون سيادة الإسلام فلا محل لهذا الخوف وقد أمضوا فى ظله قروناً طوالا وإن كان بينهم من يحقدون على الإسلام ويكرهون سيادته فهذا مالا حيلة لنا فيه ونسأل الله أن يطهر قلوبهم وقلوبنا من الضغن والسخيمة .

الإسلام تراث حضارى للمسلمين وغير المسلمين فى دار الاسلام :

(ح) على أن هنا أمراً له أهميته ، ويجب التنبيه عليه . وهو أن الإسلام بالنظر للمسيحيين العرب — بالذات — يعتبر تراثًا قوميًّا وحضاريًّا لها ، فهم وإن لم يؤمنوا به ديناً ، يؤمنون به ثقافة وحضارة يعتزون بها ويفخرون بأمجادها وآثارها .

وهذا ما جعل بعض المنصفين من المسيحيين فى مصر وفى سوريا وغيرها يقول « أنا مسيحى ديناً ، مسلم وطناً وثقافة .

ولا عجب إن رأينا كثيراً من أدباء النصارى يحفظون القرآن كله أو جله باعتباره كتاب العربية الأكبر .

كما كان الوزير المصرى المسيحى الشهير — مكرم عبيد ، وكما حكى عن نفسه الكاتب الأديب الدكتور نظمى لوقا — فى مقدمة كتابه القيِّم « محمد :

---

(١) من الشرح الصغير للدردير المطبوع مع حاشية الصاوى ج ١ ص ٣٦٩ .

الرسالة والرسول » ووجدنا كثيراً من هؤلاء الأدباء يكتبون عن محمد صلى الله عليه وسلم رسول المسلمين مقالات وقصائد جيدة بوصفه عندهم أعظم شخصية عربية .

يقول الشاعر الماروني — رشيد الخوري :

شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت
عروبتي مثلي الأعلى وإيماني

ويقول أمين نخلة :

« الإسلام إسلامان : واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة ومن لايمت إلى محمد بعصبية ، ولا إلى لغة محمد وقومية محمد فهو ضيف ثقيل علينا غريب الوجه بيننا .

ويا محمد : يميناً بديني ودين ابن مريم . . إننا في هذا الحي من العرب نتطلع إليك من شبابيك البيعة ، فعقولنا في الإنجيل وعيوننا في القرآن » .

ولا غرو إن وجدنا أيضاً بعض القانونيين المسيحيين يدرسون الفقه الإسلامي ويدافعون عنه ، ويعتبرونه تراثًا تشريعيًّا للأمة كلها مسلمين وغير مسلمين .

بل وجدنا من زعماء المسيحيين المعدودين من يدعو إلى تبني النظام الإسلامي في السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع .

من أقوال فارس الخوري عن الإسلام :

وأبرز مثل لذلك هو الزعيم السوري الشهير فارس بك الخوري ، الذي شغل منصب مندوب سوريا في هيئة الأمم ، كما شغل منصب رئيس الوزراء مدة من الزمن .

فهذا الأستاذ محمد الفرحاني تلميذه وملازمه وراويته يحكي عنه فيقول :

قال لي فارس الخوري ذات يوم في مجلسه بحضور عدد من زواره ومن بينهم القسيس البروتستانتي داود متري :

« أنا مسيحي ولكنني أجاهر بصراحة : أن عندنا النظام الإسلامي ، وبما أن الدول العربية المتحدة « كان ذلك في عهد الوحدة المصرية السورية واتحادهما مع اليمن » بأكثريتها الساحقة مسلمة ، فليس هناك ما يمنعها من تطبيق المبادئ الإسلامية في السياسة والحكم والاجتماع » .

« عقيدتي ويقيني أنه لا يمكننا محاربة النظريات الهدامة التي تهدد كلا من المسيحية والإسلام إلا بالإسلام . . . وأن هذا هو الذي يحد من نشاط الشيوعية ويقضي عليها القضاء المبرم لأن حقائقه تهزم أباطيلها وتدمرها [1] .

---

(١) عن كتاب « فارس الخوري » وأيام لا تنسى » للأستاذ محمد الفرحاني ص ٢٦٧ .

فالإسلام هو الدرع الحصينة ضد الشيوعية ، وهذا ما صرحت به مراراً وتكراراً سواء فى المحافل الدولية أم فى مجالسى الخاصة فلا حيلة للعرب ولا قوة بغير الإسلام . . هذا أمر أنا أومن به . ولقد كنت فى هيئة الأمم المتحدة منسجما كل الانسجام مع وفد الباكستان وغيره من الوفود الإسلامية ، وكان الباكسانيون يدافعون عن قضايانا بأشد من الروح التى يدافعون بها عن قضاياهم .... إنهم يحبون العربى حبًا عظيمًا بل يقدسونه تقديسا[١] .

ويقول الأستاذ الفرحانى :

قال لى فارس الخورى :

هذا هو إيمانى . أنا مؤمن بالإسلام وبصلاحيته لتنظيم أحوال المجتمع العربى وقوته فى مواجهة كل المبادئ والنظريات الأجنبية مهما بلغ من اعتداد القائمين عليها ، لقد قلت ولا زلت أقول لا يمكن مكافحة الشيوعية . . . والاشتراكية مكافحة جدية إلا بالإسلام ، والإسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها .

ولقد نقلت هذا الكلام فى حينه إلى الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق فقال لى :

من الغريب حقًا أن يستهان بأمر الإسلام من قبل بعض أبنائه ، ويعمل على إبعاده عن واقع الحياة ، فى حين يقف أعظم مسيحى فى الشرق يجهر بضرورة الأخذ بأحكام الإسلام والعمل بشريعته[٢] .

والأعجب من ذلك أننا نراه يؤيد قيام حكومة إسلامية قوية حازمة ، بل دكتاتورية لتضرب بشدة على أيدى مروجى الإلحاد والفساد والانحلال فيقول : « نحن بحاجة إلى حكومة حازمة تؤمن بالإسلام كدين ونظام متكامل ، وتعمل لتطبيقه ، فكما أن الشيوعية تحتاج لدكتاتورية حازمة تشق لها طريق الانتشار والازدهار والثبات فالإسلام أشد حاجة لمثل ذلك .

ومن ذا الذى يرضى ضميره ويطمئن قلبه إلى سلامة أمته وكيان بلده وهو يعلم أن التحلل والفساد منتشران لدرجة يصعب معها صدهما وإيقاف تيارهما ! ومن ذا الذى ينكر على المسئولين فيه مكافحة ذلك التحلل ، وذلك الفساد بشريعة هى من تلك الأمة وفيها[٣] !

وفى مناسبة أخرى يبين الأستاذ

(١) نفس المصدر ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦٩ .

الخورى فضل التشريع الجنائى الإسلامى فى تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع ، وللقضاء على الجريمة والمجرمين فيقول : « تذكرون ولاشك عندما تضعون الموازنة العامة للدولة المبالغ الطائلة التى تخصص للأمن العام ، والشرطة والدرك والمحاكم كرواتب ونفقات . . » .

فلو طبق الشرع الإسلامى وقطعت يد فى حلب مثلا . . وجلد آخر فى دير الزور ورجم ثالث فى دمشق ، وكذلك فى بقية المحافظات ، لانقطع دابر هذه الجرائم ولتوفر على الدولة ثلاثة أرباع هذه الموازنة .

واستدرك الأستاذ فارس الخورى يقول :

فى العهد العثمانى كان فى دمشق ثلاث محاكم شرعية وصلحية تنظر فى الدعاوى الجزائية والبدائية وكان قضاة هذه المحاكم ، يقضون أغلب أوقاتهم فى مراكز عملهم بدون عمل . . .فإذا قسنا ذلك الظرف وقارناه بظرفنا الحالى وجدنا أن السبب فى كثرة المحاكم اليوم يعود إلى تدنى الأخلاق ، وانتشار الفساد وعدم الاكتراث بما تفرضه الدولة من عقوبات غير رادعة ، ولا زاجرة لعدم تطبيق التشريع الإسلامى فى الحكم [1] .

ولقد انتبه هذا السياسى الكبير إلى علاقة العرب بالعالم الإسلامى وما لهم من رصيد كبير لدى الشعوب المسلمة ينبغى الحرص عليه والاستزادة منه فكان يقول « إننا نستطيع أن نثير بهذا الإسلام قوى خطيرة جبارة ، ليس فى العالم الإسلامى فحسب ، وإنما فى جميع أقطار الدنيا . فالمسلمون بروابطهم الدينية الوثيقة واتجاههم نحو قبلة واحدة وإيمانهم بكتاب واحد وعملهم بسنة نبى واحد إنما هم يشكلون أمة واحدة متماسكة مفروض فيها أنها تتعاون على البر والتقوى ، والعدل والإحسان ، وإن لم تكن كذلك تختفى عنها صفة الإسلام.. هذه الأمة الإسلامية إذا ما أثيرت بأفرادها العاطفة الدينية بشكل جيد ، وأحسن تسييرها فباستطاعتها أن تغير مجرى التاريخ .

ومما لفته إلى هذا الأمر مالمسه من حماس المندوبين الإسلاميين فى هيئة الأمم للقضايا العربية — كما ذكر ذلك من قبل — كما أنه شهد مرة حفلا أقيم لتكريم رئيس أندونيسيا ورفقائه فلما وصل ضيف الشرف الرئيس الأندونيسى ومن معه من وزراء وسفراء أندونيسيين فوجئ المرحوم فارس بك بأنهم يحدثونه باللغة العربية الفصحى فعجب وسألهم أين تعلموا اللغة العربية ؟ فأجابوه بأنهم

(١) نفس المصدر ص ٢٧٢ .

تعلموها فى أندونيسيا ، حيث تقوم ألوف من المدارس العربية المختصة بتعليم اللغة العربية حيث جعلت اللغة العربية لغة التدريس الأساسية لجميع العلوم .

فأعجب فارس بك جداً بما سمع وخاطب الحاضرين من المدعوين العرب قائلا : ما أعظم رصيد الأمة العربية الثقافى

البلاد الإسلامية ، وما أجدرنا ، نحن العرب — المسيحيين منا والمسلمين — أن نعض بالنواجذ على صلاتنا بالأقطار الإسلامية وأن نوثق علاقاتنا بمئات الملايين من سكانها الذين يكنون لنا أصدق مشاعر الحب والولاء فإن لنا بذلك فوائد عظيمة ثقافية وسياسية واقتصادية وإن من واجب الأمة العربية أن تعى هذه الحقيقة وتعرف كيف تفيد من هذه الكنوز الثمينة المدخرة لنا فى أقطار العالم الإسلامى .

وبعد هذه النقول الناصعة من زعيم مسيحى منصف لم يبق هناك مجال لمتوجس أو متعنت فقد حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

العلم . . والعمل . .

قال عيسى عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت ، فظهر حملها فافتضحت . فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله يوم القيامة على رءوس الأشهاد . قال مالك رضى الله عنه : إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن ، إذا صحت فيه النية . ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرن عليه شيئاً . ورد فى الآثار : قال الله لعيسى عليه السلام (يا ابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى) : قال الشعبى : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار ، وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون : إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهى عن الشر ونفعله . .

حديث ترتيب براءة مع الأنفال إيضاحه والدفاع عنه

الشيخ على حسن البولاقى

(ا) نص الحديث :

عن ابن عباس قال : « قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أنزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده ، يقول : ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وينزل عليه الآيات فيقول ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وينزل عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن فكانت قصتها شبيها بقصتها فقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها ، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال » .

(ب) مخرِّجو الحديث ، ودرجته من الصحة :

أخرج هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى مسنده (حـ ١ ص ٣٢٩ رقم ٣٩٩) ، وأبو داود فى سننه (ج ١ ص ٢٨٧) ، والترمذى فى سننه (ج ٤ ص ١١٣) وقال : « هذا حديث حسن [1] لا نعرفه

(١) قال الشيخ أحمد شاكر « وفى نسخة الترمذى المطبوعة ببولاق ج٣ ص ١٨٢ « حسن صحيح » وزيادة التصحيح خطأ فإن النسخ الصحيحة التى فى شرحه للمباركبورى ليس فيها هذا وكذلك لم يذكر فى مخطوطتنا الصحيحة من الترمذى التى صححها الشيخ عابد السندى محدث المدينة فى القرن الماضى ، وأيضاً لم ينقل المنذرى والسيوطى عن الترمذى إلا تحسينه انظر شرح أبى داود والدر والمنثور ٣ ، ٢٠٧ » .

إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسى عن ابن عباس » ، وأخرجه أيضاً ابن أبى داود فى كتاب المصاحف ص ٣١ ، والحاكم فى المستدرك (ج ٢ ص ٢٢١ ، ٣٣٠) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (ج ٢ ص ٤٢) ، ونسبه السيوطى فى الدر المنثور لابن أبى شيبة والنسائى [1] وابن حبان وغيرهم .

وبهذا يعلم أن أقل درجات هذا الحديث : الحسن ، لأن أبا داود سكت عليه ، وما سكت عليه فهو صالح ، حسنه الترمذى وصححه الحاكم أقره الذهبى على تصحيحه وعلى الرغم من هذا أنكره الشيخ أحمد شاكر وسيأتى كلامه والرد عليه إن شاء الله .

(ح) إيضاح الحديث :

١ — (عن ابن عباس)

أى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وهو من أكثر الصحابة عناية بالقرآن الكريم وما يتعلق به وبالفقه وسائر أمور الدين ، فلما لم يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا القليل لأنه كان صغير السن ، أكمل علمه بالأخذ عن صحابته الكرام فكان يسأل ويعى ويستنبط ويحدث فلهذا كان حبر الأمة وفقيهها وترجمان القرآن ، قال موسى ابن عبيدة : كان عمر يستشير ابن عباس ويقول : غواص ، وقال سعد : ما رأيت أحضر فهما ولا ألب لباً ولا أكثر علما ولا أوسع حلماً من ابن عباس ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات .

٢ — (قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتهم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما . . . .) إلخ .

لعناية عبد الله بن عباس رضى الله عنهما بالقرآن الكريم وما يتعلق به سأل أمير المؤمنين ذا النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه عن أمر من أخص الأمور التى يحيط عثمان بعلمها أكثر من غيره ، ألا وهو ترتيب سور القرآن الكريم فى المصحف ، وكيف لا وعثمان رضى الله عنه هو الذى أمر بجمع القرآن فى المصحف ، وألف اللجنة التى قامت بذلك مع إشرافه التام واهتمامه البالغ الذى يليق بشرف هذا العمل ويتناسب مع جلاله وعظم قدره .

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر « ولم أجده فيه » أى لم يجد هذا الحديث فى كتاب النسائى ، ولا يلزم من عدم وجدانه فيه أنه لم يخرجه النسائى فى سننه الكبرى لأن المجتبى المتداول الآن إنما هو بعض السنن لا كلها .

بيد أن ابن عباس لم يسأل عثمان عن ترتيب شيء من السور سوى براءة حيث سأل عنها لماذا قرنوها بالأنفال، والذى ينظر فى مظان هذا البحث ويرجع إلى أمهات الكتب التى يخطر بالبال أن تفيد القول فيه وتجمع الآثار والأخبار المتعلقة به ككتاب المصاحف لابن أبى داود والبرهان للزركشى والإتقان للسيوطى والجامع الكبير له وتيسير الوصول ومجمع الزوائد والدر المنثور وشروح البخارى وغيرها — أقول إن الذى يرجع إلى هذه المراجع جميعًا لا يعثر بخبر أو أثر يروى عن ابن عباس أو غيره أنه سأل عثمان أو غيره من كاتبى المصحف عن ترتيب سورة من سور القرآن فى المصحف سوى براءة التى سأل ابن عباس عثمان عن القرن بينها وبين الأنفال.

وإذا علمنا أن ترتيب المصحف العثمانى الذى بين أيدينا يخالف ترتيب مصحف ابن مسعود ومصحف أُبَىِّ بن كعب ومصحف على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وعلمنا أنه ليس سائرًا حسب الطول فى عدد الحروف أو عدد الكلمات أو عدد الآيات، وعلمنا بالاستقراء أنه لم ينقل عن عثمان ولا عن غيره من الجامعين أنهم وضعوا سورة كذا بعد سورة كذا أو بين سورة كذا وكذا لأجل كذا وكذا — إذا علمنا ذلك علمنا أن هذا الترتيب فيما عدا براءة كان بتوقيف النبى صلى الله عليه وسلم وأمره، وإلا فما الذى جعلهم يضعون آل عمران بين البقرة والنساء مع أن النساء أطول منها ويضعون المائدة والأنعام قبل الأعراف مع أنها أطول منها ويخلطون المثانى والمئين بعضها ببعض ؟

لو كان ذلك بالاجتهاد أو بمجرد الهوى لكان موضع أسئلة واستفسارات كثيرة تتوفر الدواعى على نقلها وشيوعها.

ونعود إلى سؤال ابن عباس لعثمان فنقول : إن سأل عن السر الذى دعاه هو ولجنة الجمع إلى أن يقصدوا إلى هاتين السورتين : الأنفال وبراءة، فيقرنوا بينهما فى المصحف دون أن يكتبوا بينهما سطر البسملة ويضعوا براءة فى السبع الطوال مع أنها من المئين، والأنفال التى قرنوها بها من المثانى.

وهذا السؤال الذى يتضمن ثلاثة استفسارات يتضمن ثلاثة ألقاب يحسن بنا أن نبينها لتتضح الاستفسارات الثلاثة، وذلك فيما يلى :

كان النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله عنهم يقسمون سور القرآن ماعدا الفاتحة أربعة أقسام :

(الأول) السبع الطوال[١] وهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، هذه ست ، وقد اختلف فى السابعة فقيل براءة ، وقيل يونس .
(الثانى) المئون ، وهى السور التى تزيد كل منها على مائة آية وليست من السبع الطوال ، وهى إحدى عشرة سورة : أولها يونس أو براءة ويليها هود ويوسف والنحل والإسراء والكهف وطه والأنبياء والمؤمنون والشعراء والصافات (الثالث) المثانى ، وهى السور التى تنقص كل منها عن مائة آية ولم تكن من قصار السور المسماة بالمفصل ، وسميت المثانى لأنها تثنى وتكرر فى الصلاة وغيرها أكثر من الطوال . والمئين ، أو لأن القصص تكررت فيها وهى تسع وعشرون سورة : الأنفال والرعد وإبراهيم والحجر ومريم والحج والنور والفرقان والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس وص والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح .
(الرابع) المفصل وهو قصار السور ، وآخره سورة الناس واختلف فى أوله ، ورجح الإمام النووى أن أوله الحجرات ، فهو فى المصحف العثمانى ست وستون سورة ، وسمى بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة أو لقلة المنسوخ منه لهذا سماه بعض الصحابة بالمحكم .

وبهذا يتضح سؤال ابن عباس رضى الله عنهما فهو يقول إن براءة من المئين لأنها تزيد على مائة آية وليست من السبع الطوال فى نظره ، وإن الأنفال من المثانى لأنها تنقص عن مائة آية وليست من المفصل ، ثم يسأل عثمان رضى الله عنه (أولا) لماذا قرنتم بينهما مع أنهما من صنفين مختلفين ولم تصنعوا كما صنع ابن مسعود حيث قرن الطوال بعضها ببعض ثم المئين ثم المثانى ثم المفصل ويسأله (ثانياً) لماذا لم تكتبوا بينهما سطر البسملة مع أن هذا السطر كتب بين كل سورتين فى القرآن سواهما ؟ ويسأله (ثالثاً) لماذا وضعتم براءة فى السبع الطوال وهى من المئين ؟

ويخطر ببال من يسمع هذه الأسئلة إشكال فإننا إذا قصدنا بالسبع الطوال أطول سور القرآن فالواجب أن تكون براءة منهن وليست من المئين فكيف يقول ابن عباس إنها من المئين ويسأل عثمان عن وضعها فى السبع الطوال .

---

(١) بكسر الطاء ، جمع « طويلة » وتسمى « الطول » بضم الطاء وفتح الواو جمع طولى مؤنث أطول .

والجواب أن من تتبع الأخبار يظهر له أن ابن عباس وعثمان كانا يريان أن سابعة السبع الطوال هي يونس لا براءة ولعل مرجع هذا إلى شهرة يونس بالطول عند تمام نزولها ولم تكن براءة ولا النحل قد أنزلتا ولم تكن هود قد تم إنزال كل آياتها فاستمر إطلاق اسم السبع الطوال على يونس مع الست الأوليات حتى تم إنزال القرآن كله فكانت هود والنحل وبراءة كلها من المئين الرغم من أن الأوليين أطول من يونس والأخيرة أطول من الجميع .

٣ — (قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد . .)

هذا جواب عثمان رضى الله عنه عن الأسئلة الثلاثة ، وقوله « مما يأتى ... إلخ معناه « ربما يأتى عليه الزمان الطويل . . . . » قال الحافظ بن حجر العسقلانى فى فتح البارى ج١ ص ٢٤ فى بدء الوحى « إن (من) إذا وقع بعدها (ما) كانت بمعنى (ربما) وهى تطلق على القليل والكثير ، وفى كلام سيبويه مواضع من هذا ، منها قوله : اعلم أنه مما يحذفون كذا ، ومن حديث البراء : كنا إذا صلينا خلف النبى صلى الله عليه وسلم مما نحب أن نكون عن يمينه ، ومنه حديث سمرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح مما يقول لأصحابه من رأى منكم رؤيا . . . » انتهى ما قاله الحافظ ويؤخذ منه أن المعنى هنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ربما يأتى عليه الزمان تنزل عليه أشياء أو أبعاض من السور ذوات العدد الكثير التى أنزلت صدورها قبل ذلك ، وهذه الأشياء أو الأبعاض تارة تكون بعض آية وتارة تكون آية كاملة وتارة تكون آيات ، وقد فصل ذلك فقال :

٤ — (وكان إذا أنزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده يقول ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وينزل عليها لآيات فيقول ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وينزل عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا) .

يعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أنزل عليه بعض آية أو آية كاملة أو آيات من سور كانت أوائلها منزلة قبل ذلك — يدعو بعض من يكتبون كزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان

وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب فيقول لهم ضعوا هذا الشيء الذى هو بعض آية أو هذه الآية أو هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا كأن يقول السورة التى يذكر فيها (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) أو السورة التى يذكر فيها (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران) أو السورة التى يذكر فيها (وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً) وهذه الكناية عن السورة قبل اشتهارها باسم مفرد أو مضاف ، وفى هذا الكلام إيجاز لأنه لا يكفى ذكر السورة إذ لا بد من بيان الموضع فمثلا قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) هذا بعض آية من سورة المائدة فلا يكفى أن يقول لهم ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها (أوفوا بالعقود) بل يقول ضعوه بعد قوله تعالى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون) وبهذا يعلم أن ترتيب الآيات فى سورها توقيفى وهذه حقيقة لاشبهة فيها دل عليها الإجماع والنصوص المترادفة وممن حكى هذا الإجماع الزركشى فى البرهان وأبو جعفر ابن الزبير فى المناسبات والسيوطى فى النوع الثامن عشر من الإتقان والألوسى فى الفائدة السادسة من مقدمة تفسيره روح المعانى .

وإذا عرفنا أن المراد بالشيء بعض الآية فهو يشمل البسملة على القول بأنها مع مابعدها آية فإن كانت آية كاملة شملها قوله « وينزل عليه الآية » فالكاتبون لا يثبتون البسملة إلا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم لهم بكتابتها فلما لم يأمرهم بكتابتها قبل براءة لم يكتبوها وهذا من أعظم الأدلة على أنهم لا يكتبون شيئًا من تلقاء أنفسهم .

٥ — (وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن فكانت قصتها شبيهاً[1] بقصتها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها) .

يعنى أن الأنفال مع بسملتها كانت من أوائل السور التى نزلت بالمدينة وبراءة بدون بسملة كانت من آخر القرآن نزولاً ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم للكاتبين ضعوا هذه الآيات المبدوءة ببراءة فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا فلم يبين أنها من الأنفال أو من غيرها

---

(١) هكذا فى المسند بصيغة التذكير فهى مثل قوله تعالى (إن رحمت الله قريب من المحسنين) وقوله تعالى (وجبريل والملائكة بعد ذلك ظهير) .

أو أنها سورة مستقلة هذا السكوت من جانب النبى صلى الله عليه سلم يؤدى إلى الظن بل القطع بأنها مستقلة لجريان عادته صلى الله عليه وسلم فى الأبعاض التى تنزل متأخرة عن سورها أنه يأمر بكتابتها فى موضع كذا من سورة كذا، فإذا لم يأمر بذلك كانت سورة مستقلة، هذا الكلام من عثمان رضى الله عنه إقرار بما قاله ابن عباس رضى الله عنهما من أنهما سورتان إحداهما من المثانى الأخرى من المئين غير أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبين أين موضعها فكان ذلك محلاً لا للاجتهاد فى معرفة موضعها فلما كانت قصتها شبيهاً بقصة الأنفال كانت جديرة بأن توضع عقبها .

ووجه الشبه أن الأنفال احتوت على بيان غزوة بدر ومعاملة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين للمشركين قبل الحرب وفى أثنائها وبعدها وتقسيم الغنائم ومقاتلة من نبذوا العهود والتعريف بأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض والمشركين بعضهم أولياء بعض وفيها الإشارة إلى سبب الهجرة النبوية، وبراءة احتوت على معاملة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين للمشركين الذين نبذوا عهودهم والذين ينبذوها والإشارة إلى غزوة حنين وإلى بيان حال المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين والمؤمنين والإشارة إلى الهجرة أيضاً وتقسيم الصدقات ، فالسورتان تتحدثان عن معاملة المشركين قبل فتح مكة وبعد فتحها فكانتا جديرتين بالاقتران وسكوت ابن عباس وغيره عن سؤال عثمان وغيره عن ترتيب سور القرآن سوى براءة دليل على أن كل سورة قد وضعت فى مكانها بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم وإلا فلماذا لم يسألوا عن وضع سور من المثانى بين المئين وسور من المئين بين المثانى .

وقول عثمان رضى الله عنه : « وظننت أنها منها» معناه أنه ظن أنها قرينتها التى تجتمع معها فى مكان واحد وليس معناه أنها جزء منها لأنه يناقض تصريحه بالمغايرة بينهما حيث قال « وكانت الأنفال . . . » إلخ كما يناقض قوله « فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها » فإن عدم البيان لكونها منها يقتضى أنها ليست جزءاً منها بل مستقلة وقد يكون قول عثمان : « ولم يبين لنا أنها منها معناه ولم يبين لنا أنها قرينتها التى تتبعها ترتيباً وكلمة « من » تحتمل هذا المعنى كما فى قوله تعالى : (فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى) وقوله صلى الله عليه وسلم عن

الأشعريين الذين كانوا يجمعون طعامهم ويقتسمونه بالسوية « فهم منى وأنا منهم » فهذه الكلمة لبيان القرب والاتصال لا الجزئية .

٦ — (فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال) .

أى : فمن أجل ذلك صنعت هذه الأمور الثلاثة :

الأمر الأول أنى قرنت بينهما فجعلت براءة تلى الأنفال فى الترتيب لأن قصتها تشبه قصتها وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا بياناً صريحاً أنها تليها فى الترتيب فكانت المناسبة مؤدية إلى الظن بأنها تليها فى الترتيب .

الأمر الثانى أنى لم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم لأن براءة أنزلت هكذا ولا أثبت شيئاً من تلقاء نفسى ، فما أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبتناه وما تركه تركناه .

الأمر الثالث أنى جعلت براءة فى السبع الطوال لأنها لما جعلت عقب الأنفال وكانت الأنفال عقب الأعراف بالتوقيف لزم أن تكون فى السبع الطوال لأنها مسبوقة بالأعراف وسابقة على يونس التى كانت معدودة من السبع الطوال قبل نزول براءة .

وهاهنا ملاحظتان مهمتان :

الملاحظة الأولى أن القرن بين السورتين مع العلم بأنهما سورتان لابد أن يصحبه تمييز بأن يكون بين آخر الأنفال وأول براءة فراغ أكبر من الفراغ المعتاد بين كل سطرين ، أو نحو ذلك مما يحس الناظر به أنهما سورتان لا سورة واحدة .

الملاحظة الثانية أن قول عثمان رضى الله عنه « وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن » يتضمن الاعتراف بأنهما سورتان مع العلم بأن أولاهما مبدوءة بالبسملة وثانيتهما غير مبدوءة بها فتكون العلة فى عدم كتابتها هى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بها ، وهنا يخطر بالبال سؤال عن الحكمة فى عدم بدئها بالبسملة ، وقد اختلف الباحثون فى هذه الحكمة فمنهم من قال إن الحكمة هى مراعاة القول بأنهما سورة واحدة وهذه الحكمة لا تصلح بياناً لعدم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بها ومنهم من قال إن الحكمة هى أن هناك آيات سابقة على كلمة براءة فنسخت تلاوتها ونسخت معها البسملة التى قبلها وهذه الحكمة تخمين ولا يليق أن تنسخ تلاوة البسملة لنسخ

الآيات التى بينها وبين كلمة براءة ، ومنهم من قال بأن البسملة أمان وبراءة نزلت بالسيف فقد روى أبوالشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن على كرم الله وجهه أنه قال « إن البسملة أمان وبراءة نزلت بالسيف » .

فإن قيل إن البسملة موجودة فى أول سورة ويل للمطففين وسورة ويل لكل همزة وسورة تبت يدا أبى لهب .

قلنا إن سورة براءة لا تشبهها سورة من هذه السور فإنها ما تركت أحداً . — كما قال حذيفة — إلا نالت منه ، أما المنافقون والكافرون فظاهر ، وأما المؤمنون ففى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) — إلى قوله : (والله لا يهدى القوم الفاسقين) وهو من أشد ما يخاطب به المخالف فكيف بالموافق ؟

* * *

(د) طعن الشيخ أحمد شاكر على هذا الحديث :

قال القاضى الفاضل الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : فى إسناد هذا الحديث نظر كثير ، بل عندى ضعيف جداً بل هو حديث لا أصل له يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » الذى رواه عن ابن عباس ، تفرد به عنه عوف ابن أبى جميلة الأعرابى ، وهو ثقة ، . . . ويزيد الفارسى هذا اختلف فيه أهو يزيد بن هرمز أم غيره ؟ قال البخارى فى التاريخ الكبير ج ٣٦٧/٤/٢ « قال لى على : قال عبد الرحمن : يزيد الفارسى هو ابن هرمز قال فذكرته ليحيى فلم يعرفه قال وكان يكون مع الأمراء ، وفى التهذيب ج ٣٦٩/١١ قال ابن أبى حاتم اختلفوا هل هو ابن هرمز — يعنى يزيد الفارسى — أو غيره فقال ابن مهدى وأحمد هو ابن هرمز وأنكر يحيى بن سعيد القطان أن يكونا واحداً وسمعت أبى يقول يزيد بن هرمز هذا ليس بيزيد الفارسى ، هو سواه » وذكره البخارى أيضاً فى كتاب الضعفاء الصغير ٣٧ وقال نحواً من قوله فى التاريخ الكبير .

فهذا يزيد الفارسى الذى انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً حتى شبه على مثل ابن مهدى وأحمد والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره ويذكره البخارى فى الضعفاء . فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به ، وفيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى قراءة وسماعاً وكتابة فى المصاحف

وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه وحاشاه من ذلك ، فلا علينا إذا قلنا إنه حديث لا أصل له تطبيقاً للقواعد الصحيحة التى لا خلاف فيها بين أئمة الحديث . قال السيوطى فى تدريب الراوى ٩٩ فى الكلام على أمارات الحديث الموضوع أن يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى . وقال الحافظ بن حجر فى شرح النخبة « ومنها ما يؤخذ من حال المروى كأن يكون مناقضاً لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى » وقال الخطيب فى كتاب الكفاية ص ٤٣٢ « ولا يقبل خبر الواحد فى منافاة حكم العقل وحكم القرآن الثابت المحكم والسنة المعلومة والفعل الجارى مجرى السنة وكل دليل مقطوع به» وكثيراً ما يضعف أئمة الحديث راويا لانفراده برواية حديث منكر يخالف المعلوم من الدين بالضرورة أو يخالف المشهور من الروايات فأولى أن نضعف يزيد الفارسى هذا بروايته هذا الحديث منفرداً به ، إلى أن البخارى ذكره فى الضعفاء وينقل عن يحيى القطان أنه كان يكون مع الأمراء ثم بعد كتابة ما تقدم وجدت الحافظ ابن كثير نقل هذا الحديث فى التفسير ج ٤ــ١٠٦ــ١٠٧ وفى كتاب فضائل القرآن المطبوع فى آخر التفسير ١٧ــ١٨ و وجدت أستاذنا العلامة السيد محمد رشيد رضا رحمه الله علق عليه فى الموضعين فقال فى الموضع الأول بعد الكلام على يزيد الفارسى : فلا يصح أن يكون ما انفرد به معتبراً فى ترتيب القرآن الذى يطلب فيه التواتر ، وقال فى الموضع الثانى فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التى انفرد بها مما يؤخذ به فى ترتيب القرآن المتواتر ، وهذا يكاد يوافق ما ذهبنا إليه فلا عبرة بعد هذا كله فى هــذا الموضع بتحسين الترمذى ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبى وإنما العبرة للحجة والدليل والحمد لله على التوفيق .

انتهى ما قاله الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه على هذا الحديث .

(هـ) الرد على هذا الطعن :

أقول إن هذا الطعن تضمن أمرين : أحدهما الطعن فى يزيد الفارسى الذى انفرد برواية هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وثانيهما الطعن فى نفس الحديث بادعاء أن فيه تشكيكاً فى معرفة سور القرآن والطعنان غير مقبولين وإليك البيان :

١ – لقد كفانا الشيخ أحمد شاكر رحمه الله مؤنة الرد على طعنه فى يزيد الفارسى حيث نقل ما قاله فيه الناقدون وخلاصة ذلك : أن الإمام أحمد بن حنبل والإمام عبد الرحمن بن مهدى قالا : هو يزيد بن هرمز، ومعلوم أن يزيد بن هرمز ثقة ، فقد وثقه ابن معين وأبو زرعة وابن سعـد كما فى التهذيب، وخالفهما الإمام يحيى بن سعيد القطان والإمام أبو حاتم فقالا : إنه غير ابن هرمز وزاد يحيى أنه كان يكون مع الأمراء ومقتضى هـذا أنه مجهول ، ولا شك أن الذى اختلف فيه هكذا لا يعتبر ضعيفاً بمجرد هذا الاختلاف بل تجب الموازنة بين ما قيل فيه من الجانبين وترجيح أحدهما . ولا شك أن عبد الرحمن بن مهدى أثبت من يحيى القطان كما قال أبو حاتم، وهو أيضاً أثبت من أبى حاتم ، فقد قال على بن المدينى : إنه أعلم الناس بالحديث ، فإذا انضم إليه الإمام أحمد بن حنبل كان قولهما بأنه ابن هرمز أرجح من قول يحيى وأبى حاتم إنه ليس إياه ، فقول الشيخ أحمد شاكر « إن يزيد الفارسى هذا يكاد يكون مجهولا حتى شبه على مثل ابن مهدى وأحمد والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره ويذكره البخارى فى الضعفاء . . . . إلخ » يجاب عنه بأنه لا يكاد يكون مجهولاً ولم يشبه على ابن مهدى وأحمد فإنهما جزما بأنه ابن هرمز ولم يشبه على البخارى أيضاً فإنه نقل قول عبد الرحمن بن مهدى وقول يحيى القطان ومعلوم أن الأول أرجح من الثانى ، ثم إن البخارى ذكره فى كتاب الضعفاء ولم يذكر أنه من الضعفاء ، بل نقل كلام ابن مهدى ويحيى القطان ولا يلزم من ذلك أن يكون ضعيفاً وقول يحيى : إنه كان يكون مع الأمراء ليس طعنا قادحاً خصوصاً إذا قوبل بكلام أحمد وابن مهدى .

هذا : إلى أن سكوت أبى داود : على الحديث وتحسين الترمذى له وتصحيح الحاكم وموافقة الذهبى ونقل الحافظ بن كثير لهذا الحديث فى تفسيره ساكتا عليه ونقل الزركشى والسيوطى وغيرهما لهذا الحديث مع القول بمقتضاه – كل هذا توثيق ليزيد الفارسى ، فمن الجرأة التى لا تحمد أن يقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله « فلا عبرة بتحسين الترمذى ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبى وإنما العبرة للحجة والدليل » وستعلم أنه لا حجة ولا دليل فى مقابلة كلام هؤلاء الأئمة .

٢ – وأما طعنه فى متن الحديث فهو طعن فى غير مطعن .

فقوله « فيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى قراءة وسماعاً وكتابة فى المصاحف » يجاب عنه بأنه لا تشكيك ، فابن عباس وعثمان لم يختلفا فى أن الأنفال وبراءة سورتان ، كما أوضحناه ، وعلى فرض اختلافهما فمعرفة كون السور مائة وأربع عشرة سورة وليست مائة وثلاث عشرة سورة ليس متواتراً لأن كون الأنفال وبراءة سورتين أو سورة واحدة هو محل خلاف وإن كان الصحيح أنهما سورتان.

وفى الإتقان فى النوع التاسع عشر ج١ ص ٨١ « أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به ، وقيل وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة ، أخرج أبو الشيخ عن أبى روق قال : الأنفال وبراءة سورة واحدة ، وأخرج عن أبى رجاء قال : سألت الحسن عن الأنفال وبراءة سورتان أم سورة ؟ قال : سورتان ونقل مثل قول أبى روق عن مجاهد

وأخرجه ابن أبى حاتم عن سفيان ، وأخرج ابن أشتة عن ابن لهيعة قال : يقولون إن (براءة) من (يسألونك)[1] وإنما لم تكتب فى (براءة) بسم الله الرحمن الرحيم ، لأنها من (يسألونك) وشبهتهم اشتباه الطرفين وعدم البسملة ، ويرده تسمية النبى صلى الله عليه وسلم كلا منهما » ا هـ .

وقوله « وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، وحاشاه من ذلك » يجاب عنه : بأنه لا تشكيك ، فإن عثمان قد بين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أنزل عليه الشىء ، أو الآيات ، أو الآية أمر بوضعها فى مكانها من سورة كذا ، وكلامه هذا يشمل البسملة فقوله فى آخر الحديث : فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم – معناه : أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما أوضحناه ، ففى الحديث فائدة من أعظم الفوائد وهى التعريف بأمانة الصحابة وأنهم فى القرآن وكتابته متوقفون على ما وقفهم عليه النبى عليه الصلاة والسلام لا يحيدون عنه قيد شعرة ، وإنما اجتهد عثمان والصحابة فى شىء واحد وهو ترتيب سورة براءة فى المصحف وهى سورة واحدة من مائة وأربع عشرة سورة علموا ترتيبها

---

(١) أى الأنفال ، لأن أولها « يسألونك عن الأنفال » .

بالتوقيف ، وهذا أمر يسير جداً ، فإن ترتيب السور لا يطلب فيه التواتر وإنما التواتر مطلوب فى ترتيب الآيات فى سورها ، وكيف يقال إن ترتيب السور مطلوب فيه التواتر مع العلم بأن الأئمة الأجلاء قد اختلفوا فيه ، فمنهم من قال : إنه توقيفى ومنهم من قال : إنه بالاجتهاد ومنهم من قال : إنه كله توقيفى ماعدا ترتيب براءة مع الأنفال ، فهو بالاجتهاد أخذاً من هذا الحديث (انظر النوع الثامن عشر من كتاب الإتقان فى علوم القرآن ج١ ص ٧٥ — ٨٠) على أن هذا الخلاف لفظى كما قال بعض المحققين فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد يوقفهم على الترتيب صراحة وقد يرمز إليه ليجتهدوا ، فيؤديهم اجتهادهم إلى معرفته فالقائلون بأن الترتيب توقيفى يعنون أن النبى صلى الله عليه وسلم وقفهم عليه إما بالتصريح وإما بالرمز ، والقائلون بأنه اجتهادى لا يريدون أنه كله اجتهادى بل يريدون أن بعضا منه اجتهادى وهذا لا ينافى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد وقفهم على كثير منه بالتصريح وعلى بعضه بالرمز ، والقائلون بأنه كله توقيفى ماعدا ترتيب براءة يعنون أنه لم يوقفهم على ترتيب براءة بالتصريح ، وهذا لا ينافى أنه وقفهم على ذلك بالرمز حتى إذا اجتهدوا وقفوا على الصواب بدون عناء وفى إيضاحنا لهذا الحديث بيّنّا أن قول عثمان « وظننت أنها منها » معناه وظننت بناء على المشابهة — أنها قرينتها التى تكتب عقبها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم رمز إليهم أن يضعوا سورة براءة عقب السورة التى قصتها تشبه قصتها ، فلم يحتاجوا إلى كبير عناء فى ذلك . وبهذا سقط ما أطال به الشيخ أحمد شاكر رحمه الله ، كما سقط ما نقله عن السيد رشيد رضا رحمه الله .

(و) استشكال الألوسى وجوابه :

قال العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى رحمه الله فى مقدمة كتابه روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ج ١ ص٢٦ : « والذى ينشرح له صدر هذا الفقير ، هو ما انشرحت له صدور الجمع الغفير ، من أن ما بين اللوحين الآن موافق لما فى اللوح من القرآن وحاشا أن يهمل صلى الله عليه وسلم أمر القرآن وهو نور نبوته وبرهان شريعته فلابد إما من التصريح بمواضع الآى والسور وإما من الرمز إليهم بذلك وإجماع الصحابة فى المآل على هذا الترتيب ، وعدولهم عما كان أولا من بعضهم على غيره من الأساليب ، وهم الذين لا تلين قناتهم

لباطل ، ولا يصدهم عن اتباع الحق لوم لائم ولا قول قائل — أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما ، ولم يدع عندهم خيالا ولا وهما ، وعثمان رضى الله عنه وإن لم يقف على ما يفيده القطع فى براءة والأنفال وفعل ما فعل بناء على ظنه ، إلا أن غيره وقف وقبل ما فعله ولم يتوقف ، وكم لعمر رضى الله تعالى عنه موافقات لربه أدى إليها ظنه فليكن لعثمان هذه الموافقة التى ظفر غيره بتحقيقها من النصوص أو الرموز فسكت ، على أن ذلك كان قبل ما فعل عثمان التحقيق ولكن لما رفعت الأقلام وجفت الصحف واجتمعت الكلمة فى أيامه واقتدت المسلمون فى سائر الآفاق بإمامه ، نسب ذلك إليه ، وقصر من دونهم عليه والسؤال منه وجوابه ليسا قطعيين فى الدلالة على الاستقلال ، لجواز أن يكون السؤال للاستخبار عن سر عدم المخالفة ، والجواب لإبدائه على ما خطر فى البال ،

وبالجملة بعد إجماع الأمة على هذا المصحف لا ينبغى أن يصاخ إلى آحاد الأخبار ولا يشرأبُّ إلى تطلع غرائب الآثار ، فافهم ذاك ، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك » اه

أقول خلاصة جوابه : أن غير عثمان وقف على ما لم يقف عليه عثمان ، وأن اجتهاده وافق ما وقفوا عليه ، وهذا بعيد جداً ، فعثمان رضى الله عنه قد ألف لكتابة المصحف لجنة من أربعة وفيهم زيد بن ثابت الذى اختاره أبوبكر رضى الله عنه لجمع القرآن فى الصحف خوف ذهابه بذهاب حملته وهو وعثمان من كتاب الوحى ، ولم يكن الجامعون مستبدين ولا مختفين ، بل كانوا ظاهرين وكان سائر الصحابة يعلمون ما يفعلون ، وقد قال على كرم الله وجهه : لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل ما فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا وتشاور ، فكيف يقال إنه لم يقف على ما وقف عليه غيره فاجتهد وأداه اجتهاده إلى الظن فوضع براءة عقب الأنفال ، بناء على هذا الظن ؟ فالتحقيق أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يوقف الصحابة على ترتيب براءة توقيفاً صريحاً ، ولكنه رمز إلى ذلك رمزاً يحتاج إلى الاجتهاد فاجتهد هو واللجنة التى ألفها ، فأداهم اجتهادهم إلى الظن ولم يختلفوا ولم يخالفهم أحد من الأمة فصار هذا الظن يقينا بعد ذلك وكان موافقاً للحق ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجتمع أمتى على خطأ » .

* * *

وبعد فقد تبين لك أن الحديث صالح

مقبول لا إشكال فيه ، وقد أفادنا فائدتين عظيمتين :

الأولى : أن ترتيب الآيات فى سورها توقيفى .

الثانية : أن الصحابة قد بلغوا من الأمانة والدقة فيما يتعلق بالقرآن : أنهم لم يستسيغوا أن يكتبوا قبل براءة بسم الله الرحمن الرحيم قياساً على كتابتها قبل مائة وثلاث عشرة سورة ، بل وقفوا على ما وقفهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرنوا أول براءة بآخر الأنفال ، مع علمهم بأنها سورة مستقلة ، واحترمت الأمة صنيعهم هذا ، فلم يخطر ببال فريق منها أن يجرؤ فيكتبها عملاً بالقياس ، كما لم يجرءوا أن يكتبوا المصاحف على غير الرسم العثمانى مع صياح الصائحين الذين لا يدرون العواقب ، ومناداتهم بكتابة المصاحف على الرسم الإملائى الذى يكتبون به ما سوى المصحف من كتابات دينية ودنيوية ! ؟

و « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله ٧ : ٤٣ » .

على البولاقى

حكم

أول العلم الصمت ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم نشره . قيل : علم علمك من يجهل ، وتعلم ممن يعلم ما تجهل ، فإنك إذا فعلت علمت ما جهلت وحفظت ما علمت .

قال معاذ بن جبل : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء . وقال ابن المبارك : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة . وقال أبو الدرداء : العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، وسائر الناس همج لا خير فيهم ! ؟

بين الموالاة والمعاداة

(٢)

من أشكال الموالاة وآثارها

الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة

تحدثنا فى مقالنا السابق[١] عن موقف الباطل وأهله من الحق وأهله ، وكيف يستتبع ذلك تلقائياً قيام قاعدة عامة فى الموالاة والمعاداة يتبين لنا منها أنهما وجهان لشىء واحد، ذلك أن موالاة الحق تستتبع عداوة الباطل ، كما أن موالاة الباطل تعنى تماماً معاداة الحق .

وقبل أن نمضى اليوم لنتبين ما ينبغى أن يتحرز منه أهل عقيدة التوحيد من أشكال الموالاة لأهل الكفر والباطل ينبغى أن نبين — منعا للبس ، ودرءاً للشبهات — أن قاعدة الموالاة والمعاداة الإسلامية لا تمنعنا من أن نعامل بالحسنى من يحسن معاملتنا منهم ، ما دامت المعاملة على مقتضى القـــواعد والنظم المعتبرة ، والمتفق عليها بيننا وبينهم ، بحيث لا يكون فيها مساس بالإسلام ، ولا بأوطان المسلمين وحقوقهم ومصالحهم ، وبحيث لا تتعارض مع القواعد والنظم التى أقرها الإسلام ، ونظم بها مختلف العلاقات بين المسلمين وغيرهم من سائر الأديان ، فعدم موالاتهم ، لا يعنى العدوان عليهم ، ولا إساءة معاملتهم ، ما داموا يرعون حقوقنا ، ولا ينتهكون حرماتنا . كما أن شعورنا بعداوتهم لنا لا يخرجنا عن حدود العدل والإحسان ما لم تخرج عداوتهم إلى حيز العدوان .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمه ، أخبرنى حسن بن محمد بن على ، أخبرنى عبد الله بن أبى رافع .

وقال مرة : إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره أنه سمع عليا رضى الله عنه يقول :

---

(١) الذى نشر فى العدد الثامن [عن شهرى : شوال ، والقعدة ١٣٩٧ هـ] من مجلة الأزهر ، صفحة ١٦٦٣ — ١٦٨٣ منها .

بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب ؟ قالت : ما معى كتاب !

قلنا :

لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ؟

قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله صلى الله صلى عليه وسلم ، فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حاطب ، ما هذا ؟

قال : لا تعجل على ، إنى كنت امرءاً ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قربات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رضًا با لكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم .

فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك؛ لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

قال : وزاد البخارى فى كتاب المغازى : فأنزل الله السورة : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) اه.

ولولا سابقة حاطب رضى الله عنه ، وما تأوله هنا من أعذار قبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكان للرسول وللمسلين معه موقف آخر .

من أجل هذه المواقف ، وما يجر إليها ، وما ينجم عنها ، نزلت الآيات الكثيرة التى ذكرنا بعضها فيما سبق ، تمنع منعاً تامًا ، وتنهى نهيا شديداً عن موالاة الكافرين ، وعن كل ما يؤدى إليها على أى صورة من الصور ، مهما تبدو هذه الصورة فى أعيننا صغيرة ، ومنها :

الإعجاب بما يملكون من زينة الدنيا :

إن مد العين إلى ما آتاهم الله من زينة الدنيا ، والنظر إليهم نظرة الإعجاب بزينتهم ومتاعهم ، وما يبعثه ذلك من شعور بالرغبة فى اقتناء ما يقتنون أو مثله والمقارنة بينه وبين حال المسلمين ، وقد

تكون حال المسلمين عندئذ رقيقة ضعيفة ، والأيام دول ، وليس من الضرورى ، ولا هو من سنة الله فى خلقه أن يظل الغنى والقوة والسيطرة الدنيوية والمادية فى جانب واحد كجانب المسلمين مثلا .

وما يشعر به المسلم الذى يمد عينيه إلى زينتهم ، عندما يقارنها بضعف حال المسلمين وفقرهم ، وما يثيره ذلك فى نفسه من إكبار لهم وإزراء على أهل دينه ، هذه المشاعر وأمثالها قد تنفعل بها نفس المسلم عندما يمد عينيه إلى ما متّع الله به أعداءه ، ولا يؤمن أن تفعل هذه المشاعر فعلها فى نفسه ، فتزرع فيها بذور الطمع والحقد ، أو بذور الشك والريبة ، أو بذور اليأس والقنوط ، وما تزال به حتى تخلعه عن دينه جملة من حيث لا يشعر .

ولقد حذر الله سبحانه المسلمين من ذلك وحسم أصل هذه المشاعر ، مبيناً أن أعراض هذه الدنيا كلها لا قيمة لها عند الله ولا مقدار ، ولا يصح أن يكون لها عند المسلم أدنى اعتبار ، حتى وهو يسعى لتحصيلها ، لأنه إنما يسعى لتحصيلها امتثالا لأمر الله ، فى اصطناع القوة ، واتخاذها وسيلة لتحقيق أهدافه العليا من إعلاء كلمة الله ، وإرهاب أعدائه ، أما هى فى ذاتها ، فإن الله يعطيها لمن يريد (وكل شىء عنده بمقدار) (الرعد ٨) (كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) (الإسراء ٢٠) وهو تعالى يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) (الزخرف ٣٣ : ٣٥) .

ولقد جرت سنة الله بأن يمدهم بهذا المتاع فتنة لهم ، وإرخاء لهم فى العنان ، (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) (المؤمنون ٥٥ : ٥٦) ، فهى فى يد الكافر نقمة من حيث يحسبها نعمة ، والمسلم لا يغتر بها ، إنه قد حظى بأصل النعم ، وهو الإسلام ، فما عداه بعد ذلك إن حصلناه فبه ونعمت والحمد لله وإن صرفه الله عنا إلى غيرنا ، لم ننظر إليه بعين الحسرة والندم (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (طه ١٣٠) بل ينبغى أن

نشعر بالإشفاق فيما بيننا كمؤمنين ، وأن نبذل الجهد فى التعاون (ولا تمدن عينيك لى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) (الحجر ٨٨) .

ولعل المسلمين يعانون الآن أشد المعاناة من مثل هذه الصورة ، فحالة المسلمين الآن من ضعف القوة ، وقلة ذات اليد ، وما هم فيه من حصار معنوى ومادى يشمل كافة نواحى الحياة فى مقابل ما يتمتع به أعداؤهم من قوة عسكرية رهيبة ، وغنى مادى فاحش ، وسلطان غاشم يطبق على أطراف المعمورة ، ويعيث فى داخل بلادهم عسفاً وقهراً وطغياناً ، هذه الحالة قد أغرت ضعاف الإيمان وضعاف النفوس ، فبهرتهم بما عند أعدائهم ، وأزرت فى أنفسهم بما عند قومهم ، فهم فى كل حركة وسكنة يظهرون إعجابهم بأعدائهم ، وبما فى أيديهم من زخرف هذه الحياة ، ويعزون ذلك ، جهلا وعمى ، إلى ما قد يكون عندهم من فكر وثقافة وفلسفة ، ويتشدقون بتخلف قومهم ، وهبوط مستواهم ، وضعف قوتهم ، ويعزون ذلك ضعفاً واستخذاء ، إلى تقاليدهم ، وتراثهم وأصولهم ، فالتبس عليهم الحق بالباطل ، ولم يستطيعوا التمييز بين ما هو غاية وما هو وسيلة .

فلاهم أعانوا قومهم على النهوض !
ولا هم كفوا عنهم أذاهم وتثبيطهم !

ولاهم قاوموا أعداءهم ! ولاهم حجبوا عنهم نصرهم وتأييدهم !

وقد حذرنا الله تعالى من الاغترار بذلك قائلا (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧) .

الركون إليهم :

يقول تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) (هود ١١٣) .

قال ابن جرير وابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، فالركون نوع من الميل ، ولو كان يسيراً ، وقد نهى الله عن ذلك نهيا شديداً ، وتوعد عليه بمسيس النار ، مبينا أن ميلنا إلى الظلمة — ولو كانوا أولياء — لا يوفر لنا حماية من عذاب الله ، لأنه لاولى من دون الله .

وقد يبدو الميل إليهم مسألة هينة لا تستحق كل هذا التشدد ، ولكن الله يغار على أهل التوحيد أن يلتبس عليهم الباطل بالحق ، والميل إلى الظالم فيه شيء من الرضا بظلمه ، ومن إقراره عليه ،

وسواء كان هذا الظلم يسيراً كما فى الأمور المحقرة من أمور هذه الدنيا ، أو كان ظلما عظيما كما فى الكفر (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان ١٣) فإن الركون إلى الظالم رضا بظلمه ، وإقرار له عليه ، وقد يسهل له ذلك أن يقع هو نفسه فى الظلم ولا كذلك شأن المؤمن الذى يعرف عقيدة التوحيد ويؤمن بالحق ، فلا يميل ولا ينحرف ، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم – على علو شأنه ورفعة قدره – يخاطب فى هذا المعنى بقوله تعالى (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) (الإسراء ٧٤ ، ٧٥) فأخبر سبحانه أن مثل هذا الركون لو وقع لكان العذاب مضاعفاً فى الدنيا والآخرة ، ولكن ذلك لم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل الله وتثبيته إياه ، بل عاداهم ونفض يديه منهم ، وإذا كان الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام بمثل هذا الأسلوب الشديد فغيره أولى بتشديد الوعيد .

ولا شك أن مد العين إلى ما فى أيديهم من زهرة الحياة الدنيا يساعد فى الركون إليهم والميل لما عندهم، وينبغى على المسلم أن يحسم صل هذه المادة من نفسه ، وأن يعتز بدينه وبالحق الذى عرفه ، فلا يميل إلى باطل مهما يكن تمويهه ، ولا يركن إلى ظالم مهما يؤت من زخرف وسلطان .

ولا نريد أن نبدو فى ثوب المبالغ لنقول : إن كثيراً من المسلمين أصبحوا لا يشعرون بالظالمين ولا بظلمهم ، وما ذلك إلا لأنهم أرخوا لهم الحبل فى بداية الأمر ، ميلا مع الظلمة والجبارين ، وركونا إليهم ، واعتماداً عليهم ، واستمرءوا ذلك حتى إذا مستهم النار فى هذه الدنيا كان إحساسهم قد توقف ، وشعورهم قد تبلد وأغفى إغفاءة طال عليها المدى ، وما يزالون فى مكان من يعانون من عسف الظالمين ، ويقاسون من جورهم . وهم لكل طاغية إلف وخلان .

المداهنة والمجاملة :

وقد يفضى الشعور بالميل إليهم إلى الإغضاء عن شىء من الحق ، أو التساهل مع شىء من الباطل ، تحت أى حجة من الحجج ، مشروعة أو غير مشروعة ، كاجتذاب أهل الباطل إلى الحق وتأليفهم ، أو العمل على نيل ما هو فى أيديهم وتحت سلطانهم ، أو لدفع شرهم واتقاء عدوانهم ، أوما شابه ذلك من هذه الحجج ، وهى كلها لا تبرر المداهنة وماذا يرجو الكافرون من المؤمن

أكثر من أن يتنازل ، ولو قليلا ، عن حقه ، أو أن يتساهل ، ولو قليلا ، مع باطلهم .

من يكون الرابح فى هذه الصفقة ؟ ومن يكون المغبون ؟ وهل يطمع الكافرون أن يتحول مسلم عن دينه الحق جملة إلى دين الباطل جملة ؟ إنها غاية تتقطع دونها كثير من الأعناق ، وهم يعلمون ذلك يقينا ، لذلك يقنعون من المسلم ببعض التنازلات ، أو بعض التساهلات ، علما منهم بأن التورط فى الباطل مرة قد يفضى إلى الانغماس فيه إلى الأذقان ، درجة بعد درجة ، وهم لذلك يعملون ، وهم عليه دائبون .

لذلك نهينا عن أول خطوة فى هذا الطريق (ودُّوا لوتدهن فيدهنون) (القلم ٩) .

ومنذ وقع العالم الإسلامى تحت نير الاستعمار المسيحى الصليبي وهو يتعرض لكثير من التنازلات ، وأعظم هذه التنازلات خطباً وفداحة : هو تحطيم الخلافة الإسلامية ، وتفتيت وحدة العالم الإسلامى ، ثم تنحية القرآن عن الحكم .

وأكبر هذه التساهلات ضرراً وأذى : السماح لهم بإعلان شعائرهم جهرة ، وإبراز شعاراتهم وأنصابهم ، وترك المجال مفتوحاً أمام بعثاتهم ومؤسساتهم التبشيرية والاستشراقية ، وإكراه المسلمين على معاملتهم وتوقيرهم ، وصياغة النظم والقوانين العامة والخاصة بحيث تعمل تلقائياً لخدمة مصالحهم ، وتقوية أركانهم ، وإعلاء منزلتهم ، بل حتى للتيسير عليهم فى قضاء شهواتهم ، وإشباع نزواتهم تحت سمع المسلمين وبصرهم ، عد عن المسائل الأخرى التى لا تكاد تترك جانباً من جوانب الحياة فى هذا العالم الإسلامى المنكوب .

ولو أن المسلمين التزموا بالتحذير فى قوله تعالى (وَدُّوا لوتدهن فيدهنون) لما وقعوا فى هذا العار الذى شوه بلادهم ودنس حياتهم ، وأفقدهم كثيراً من عزتهم وكرامتهم ! !

التشبه بهم :

إن المسلم إذا مد عينيه إلى زينة الكافر ، فمال إليه وداهنه ، سهل عليه أن يظهر بمظهره ، ولا يجد فى ذلك غضاضة على نفسه ، ولا إزراء بدينه أو شخصيته وكثيراً ما يحدث ذلك فى فترات الضعف والانحطاط ، حيث تكون للكافر الغلبة والسلطان ، وحيث تعمل القاعدة الاجتماعية فى تقليد المغلوب للغالب عملها فى ضعاف النفوس ، ممن تزعزعت

عقيدتهم ، وأقفر وجدانهم ، وخلت قلوبهم ، وأصبحت أفئدتهم هواء !

والتشبه بالكفار فى شىء من كفرهم كفر ، لكن حديثنا هنا فى تشبه المسلم الذى لا يزال على إسلامه ، بأن يفعل من الأفعال الظاهرة مثل أفعالهم التى يعرفون بها ، كالاحتفال ببعض المناسبات ، أو التزين بنوع من اللباس ، أو التلبس بهيئة من الهيئات البدنية والمادية ، وقد نهينا نهياً شديداً عن التشبه بالكفار فى شىء من أفعالهم هذه ، وليس بعجيب أن يشتد تحذير المسلم من التشبه بهم خوفاً عليه أن يصبح منهم ، لأنه كلما زادت نواحى التشابه زادت الفرصة لكى يعتنق ما يعتنقون ، ويؤمن بما يؤمنون ، وهو لا يدرى .

ورد بإسناد صحيح عن أبى أسامة قال : حدثنا عوف عن أبى المغيرة عن عبد الله بن عمرو قال : من بنى ببلاد الأعاجم فصنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة .

وهذا يقتضى أن يصبح كافراً مثلهم ، لمشاركتهم فى مجموع أفعالهم ، أو يكون ذلك من الكبائر الموجبة للنار .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ ثوبين معصفرين فقال : « إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها » رواه مسلم .

وفى كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عتبة بن فرقد : وإياك وزى أهل الشرك .

وروى أحمد فى مسنده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس .

قال حماد بن سلمة : فحدثنى أبوسنان عن عبيدة بن آدم قال : إن إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة ، وكانت القدس كلها بين يديك ، فقال عمر رضى الله عنه : ضاهيت اليهود ، لا ، ولكن أصلى حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدم إلى القبلة فصلى .

فعاب رضى الله عنه على كعب مضاهاة اليهود ومشابهتهم فى مجرد استقبال الصخرة مع أن المسلم لا يقصدها بالصلاة .

وروى أبوداود عن أنس أنه دخل عليه غلام له قرنان أو قصتان ، فقال : احلقوا هذين أو قصوهما فإن هذا زى اليهود ، فعلل رضى الله عنه النهى عنهما بأنهما من زى اليهود ، ودل على أن زى اليهود مما يطلب اجتنابه .

كما روى أيضاً فى سننه من حديث هشيم ، أخبرنا أبو بشر عن أبى عمير ابن أنس عن عمومة له من الأنصار قال: اهتم النبى صلى الله عليه وآله وسلم (للصلاة) كيف يجمع الناس لها ، فذكروا له شبور اليهود ، فلم يعجبه ذلك وقال : هو من أمر اليهود ، قال : فذكروا له الناقوس فقال : هو من أمر النصارى . . . والشبور هو البوق .

ومع هذه الضرورة القائمة فى إيجاد وسيلة لجمع الناس للصلاة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقبل أن يتخذ لذلك وسيلة من الوسائل التى تتبعها اليهود أو النصارى ، حتى هدى الله المسلمين إلى الأذان .

بل إن كراهية التشبه بالكافرين لتصل إلى ما هو أبعد من ذلك . . تصل حتى إلى اللغة التى يتكلمون بها ، وليس المقصود بذلك أن نمتنع عن تعلم لغتهم ، فقد يكون تعلمها مفيداً للمسلمين فى كثير من النواحى دنيوية ودينية ، ولكن المقصود بالنهى أن نتعلمها على سبيل التشبه بهم ، ، أو التودد إليهم ، أو التعالى على أبناء ديننا بلغة أعدائهم .

وروى البيهقى بإسناد صحيح عن عمرو بن دينار قال عمر بن الخطاب : لا تعلموا رطانة الأعاجم ، ولا تدخلوا على المشركين فى كنائسهم يوم عيدهم ، فإن السخط ينزل عليهم .

ومن ذلك يتبين أن مجرد مشاركتهم فى أعيادهم والرطن بلغتهم مظنة مشاركتهم فيما ينزل عليهم من السخط ، فما بالك بمن يتشبه بهم ، ويتخذ أعيادهم أعياداً له مثلهم ، أو يتباهى بلسانهم .

يقول ابن تيمية فى ترك التشبه بالكفار فى الأفعال الظاهرة :

« لأنها تورث نوع مودة ومحبة وموالاة فى الباطن ، كما أن المحبة فى الباطن تورث المشابهة فى الظاهر ، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة ، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا فى دار غربة كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم ، وإن كانا فى مصرهما لم يكونا متعارفين ، أو كانا متهاجرين ، وذلك لأن الاشتراك نوع وصف به اختصاص عن بلد الغربة ، بل لو اجتمع رجلان فى سفر أو بلد غريب ، فكانت بينهما مشابهة فى العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركب ونحو ذلك ، لكان بينهما ائتلاف أكثر مما بين غيرهما ، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيـوية يألف بعضهم بعضـا

ما لا يألفون غيرهم ، حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة . . . تجد الملوك من الرؤساء وإن تباعدت ديارهم وممالكهم بينهم مناسبة تورث مشابهة وحماية من بعضهم لبعض .

وهذا كله موجب الطباع ومقتضاها إلا أن يمنع ذلك دين أو غرض حاضر .

فإذا كانت المشابهة فى أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة لهم ، فكيف بالمشابهة فى أمور دينية ، فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد » اهـ .

وفوق ما فى التشبه بالكافرين من هذا الضرر الفردى الذى يفضى بصاحبه إلى خطر التعرض لسخط الله وأن يحشر مع الكافرين يوم القيامة ، هناك الضرر الذى يصيب مجتمع التوحيد ، فالتشبه بشىء يوحى باحترامه وتقديره ، وهجران شىء من أجله يوحى بسقوط منزلة هذا الشىء وتحقيره .

وإذا فشت مثل هذه المبتدعات فى المجتمع الإسلامى تحطمت قيمه وتقاليده ، وتزعزعت قواعده وأعرافه ، وعقيدة التوحيد تأبى ذلك ، وتحرص على تماسك أبنائها وتضع حولهم سياجًا يحميهم من التمزق ويمنعهم من التفرق ، لأجل ذلك منعت أشد المنع من التشبه بالكافرين ، ولو فى فعل من أفعالهم الظاهرة ، لما بين الظاهر والباطن من تواطؤ وتعاون ، وخوفًا أن يجر التشبه بهم فى أمر من الأمور الظاهرة إلى التشبه بهم فى أمر من الأمور الباطنة ، وحتى لا تماع شخصية المسلم وشخصية المجتمع الإسلامى وتضيع ملامحه الأصلية فى غمرة من طوفان التقليد الأعمى .

وكم يأسى الإنسان إذ يرى المجتمعات الإسلامية الآن ، فلا يكاد يميز فيها معلمًا من معالم الإيمان ، أو ملمحا من ملامح الإسلام ، فقد طغى طوفان التقليد فى كل شىء ، فالرطانة بلغة الأعاجم تسمعها من كل إنسان ، وفى كل مكان ، إما تحذلقاً وتظرفاً وتكايساً ، وتظاهراً بالاطلاع على ما للأعاجم من لسان ، كأنه عرف أسراراً عجيبة تعز على أضرابه من المسلمين ، وإما تعززاً وترفعاً على اللغة التى أنزل بها القرآن ، وإما جهلا وعجزاً عن معرفة ما هو من أصل لغته ، وما هو دخيل من لغة الأعجميين .

وطوفان الأعياد التى غمرت بلادنا ، وليس لها أصل فى أعياد المسلمين ، بل بعضها أعياد وثنية كأعياد النيروز والربيع ، وأخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، كهذا العيد الذين يريدون ابتداعه ويسمونه

بعيد الحب ، وغيرها من الأعياد التى تعمل كلها على طمس معالم الإيمان وتذويبها فى غيرها من أحابيل الشيطان .

والملابس والأزياء، وما أدراك مافوضى الملابس والأزياء ، بين الرجال والنساء على السواء ، كأن ليس لنا فيها شرع سماوى ، ولا توجيه نبوى ، فتظل عيوننا معلقة بما يقرره أصحاب بيوت الأزياء فى كل موسم من عواصم الكفر والفساد ، وهم قابعون هناك يعبثون بعقول الملايين وأخلاقهم ، ناهيك بما فى جيوبهم ، عبث الهرة بفأر سمين ، وهم لا يخجلون ، ولا يستحيون أن يجعلوا جسد الآدمى سلعة ومعرضا ، ودمية حية يتحكمون فى حركاتها وسكناتها . بخيوط خفية تسمى خيوط الأناقة ، ولو كانت بعيدة عنهم بمئات الأميال ، وهم يستحسنون كل يوم ما يستهجنونه بالأمس ، ويستهجنون اليوم ما كانوا يستحسنونه ويعجبون به ، لا يبالون بالطويل ، وإن كان يكنس الطرقات ، ولا بالقصير وإن كان يبدى العورات ، ولا بالضيق المشدود الذى يصف ، ولا بالواسع الفضفاض الذى يشف ، ولا بالسميك المانع ، ولا بالشفاف المبيح ، المتناقضات عندهم سواء ، وأفضلها ما انتهك حرمة البدن البشرى ، وأبدى عن عورة الجسد الإنسانى ، ومن تبعهم على الهوى سخروا منه ، وضحكوا عليه ، وافتنوا فى إغوائه .

والشعر وقصه وتصفيفه؛ وما يبتدعون فيه كل يوم ؛ أُلهية اللاهين ، وعبث الفارغين ، وتغييراً لخلق الله ، خاصة وقد جعل المرأة تستهين بكرامتها الأنثوية لتضع رأسها بين يدى رجل أجنبى يعبث بشعرها كيف شاء !!

ولقد شاهدنا أمما ليس لها ما للمسلمين من دين إلهى ، لكنها اعتصمت بعقلها ، فحماها من هذا الخبال ، فهلا كان للمسلمين عقل يعصمهم إذ لم يطيعوا أوامر دينهم وشريعتهم ! ؟

والفن !! وأى شىء هو الفن ! ؟ باب واسع حطموا قيوده ، وطمسوا حدوده ، فتحوه على المسلمين ، وأكسبوه من المبالغات صفة الحصانة ، وأحاطوه من التهاويل بهالة القداسة ، وزخرفوه وبهرجوه بكل ما يحلو فى الهوى ، وأدخلوا من خلاله من الفجور والإثم كل ما استعصى عليهم إدخاله من باب العقل أو العلم ، فكلما نعق ناعق فى هذا الباب تبعوه ، وكلما نقر لهم على أوتاره ناقر رقصوا له ، فهم منه فى غمرة يعمهون ، كأنما

سكّرت أبصارهم ، وسحرت ألبابهم ، فى نوبة من نوبات التنويم المغناطيسى الثقيل ، وإلا فما هذا التعظيم والتوقير لكل راقص أو راقصة ، وماجن أوماجنة وهاذ أو هاذية ، بحجة أن ذلك تشجيع لأرباب الفنون ، وارتقاء بذوق الأمة (الإسلامية) المتخلف عدة قرون ، ناهيك بالتماثيل والأنصاب ، وصور العرايا بغير حساب ، ناهيك باتخاذ الدين هزواً ولعبا ، والأخلاق ملهاة وسخرية ، ناهيك بتحدى شعور المجتمع الإسلامى ، وحصاره فى عاطفته ووجدانه ، وإحباطه فى تطلعاته وآماله ، فلا يعرضون عليه إلا ما يمجد تقاليد أعدائه ويعظم أعمالهم وأقوالهم وتراثهم ، فإذا تعرضوا لموضوعات إسلامية لم يجدوا إلا ما يستفز هذه العاطفة ، ويحتقر هذا الوجدان ، ويحطم هذه التطلعات والآمال !

والثقافة !! وقد أمكن أن تزحزح الثقافة الإسلامية فى المجتمعات الإسلامية لتوضع جانباً على أحد الرفوف ، للذكرى والتاريخ ، أو البكاء والعويل ، لتحل محلها ثقافة الكافر الدخيل ، حتى إنك لتجد المثقف المسلم يعرف عن نابليون مثلا : أكثر مما يعرف — إن كان يعرف — عن خالد بن الوليد ، وشتان بين الرجلين مؤمن عميق الإيمان ، سليم القلب والوجدان ، وكافر عريق الكفر ، طاغية سادر فى الطغيان ، ويعرف عن ديكارت — مثلا — أكثر مما يعرف عن الغزالى ، وشتان بين الرجلين ، مؤمن يؤصل للحق ، وكافر يؤصل للهوى ، ويعرض قضية المرأة — مثلا — مقلوبة رأساً على عقب ، كما يعرضها أئمة الكفر ، ولا يعرضها سوية كريمة كما يعرضها القرآن العظيم ، والهدى النبوى السليم ، إلى غير ذلك من الأمور الثقافية التى تتجلى فى نواحى العلوم والصناعة والعادات والتقاليد وأصول التفاهم وآداب التعامل وفى كل وجوه الحياة ! ؟

وبالجملة ، فقد فشا فى المسلمين التشبه بالكافرين ، حتى أصبحت معالمهم المميزة طامسة ، وملامحهم الوضيئة دامسة ، وأصبح يخشى عليهم إذا تأصل فيهم الداء أن يستأصلهم ويفضى بهم إلى الفناء ! !

وليس بعجيب إذن أن يكون حرص المسلمين الأولين على عدم التساهل قيد شعرة مع التشبه بشىء من أحوال الكفار ، امتثالا للأوامر الإلهية ، وحرصاً على عقيدتهم ، من أن تشوبها أى شائبة ، وحماية لمجتمعهم من التفسخ والذوبان !!

المودة :

وكما قال ابن تيمية : إن التشبه بالكفار فى الأفعال الظاهرة يورث نوع مودة ومحبة وموالاة فى الباطن ، فإن كل العوامل السابقة لابد أن تفضى بالمسلم إلى أن يشعر نحوهم بعاطفة الود .

ومن التناقضات الواضحة أن يحب إنسان عدوا تحقق من عدوانه ، فهو بين اثنين ، إما أن يأخذ عداوته مأخذ الجد ، فلا يشعر من جانبه بشىء من الأمن ، ولا يتصور مع فقد الأمن وقوع المودة أو المحبة ، وإما أن ينظر إلى هذه العداوة بعين الشك والريبة ، لعدم ثقته فى وجود هذه العداوة أصلا ، وما ذلك إلا لأنه لا يرى بينه وبين عدوه خلافـًا جوهريـًّا يثير هذه العداوة .

والمؤمن صاحب عقيدة التوحيد ، لا يستطيع أن يتصور أن أهل الباطل يمكن أن يتركوه وشأنه ، لأن الباطل — كما ذكرنا من قبل — ما هو إلا انتهاك الحق والعدوان عليه ، فأهل الباطل أعداء لأهل الحق بطريقة عملية ، لا يتصور منهم غير ذلك ، لهذا لا يكون المؤمن صادق الإيمان ثم ينظر إلى عداوة الكافرين له نظرة تهاون أو تساهل ، إلى درجة يقيم فيها معهم علاقات المودة ، ولو أنه فعل لكان فى إيمانه مدخولا ، ولم يكن على بينة مما فعل .

ولذلك يقول تبارك وتعالى (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . . .) (المجادلة٢٢ آخر آية منها) ويقول : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) (أول الممتحنة) .

وقد عالج الله سبحانه وتعالى ما يكون بين المؤمن وأقربائه الكفار من مودة فطرية ، مبينا أن هذه العلاقات والصلات لا تصمد أمام العقيدة فى هذه الحياة الدنيا ، وأنها تتقطع يوم القيامة عندما يقف الإنسان أمام مسئوليته وحده دون معين ، ولا مدافع من الأهل أو الأتباع ! ؟

(فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (المؤمنون : ١٠١) .

(يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) (عبس ٣٤ ، ٣٧)

(لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » (الممتحنة ٣) .

وما فتنة أشاعها أعداء الإسلام بين

جهلة المسلمين وعوامهم مستغلين هذه الفترة التى ضعف فيها الوازع الدينى بين المسلمين، ففقدوا فيها الخلق والنظافة والنظام، وساعدت القوة والثروة أعداءهم على التحلى بصفات ظاهرة تتفق مع مظاهر الخلق والنظافة والنظام، فجعل المسلم من هؤلاء الجهلة يزعم أنه يفضل أن يصحب ويصادق غير المسلمين ولو كان مجوسياً، على أن يصحب المسلمين، ثم يندفع لينسب إلى المسلمين أسوأ الصفات. أو ليس هذا المسلم فرداً منهم !! أى عته أو جنون !! هل تستر هذه الصفات الظاهرة عند الكافرين عداوتهم ؟ وأى حسن فى الخلق يبقى مع هذه العداوة ! ؟

ولا شك أن هذا القول — إن لم يكن تشدقا باللسان وكان صادراً عن شعور صحيح — إنما يعكس ضعفاً شديداً فى الإيمان يجعل صاحبه على شفا جرف هار من الكفر !

إن أهم ما فى المسلم مما يجعلنا نحرص على مودته ومحبته هو أنه يشهد بالحق الذى ندين به، وبأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وما بقى بعد ذلك فعلينا تقويمه وإصلاحه، أما أن نحطم معنوياته ونفضل عليه الكافر، فهذا والله من عجائب المتناقضات .. وأى دعوة إلى تحطيم الإسلام أبلغ من ذلك !!

وإن أهم ما فى الكافر مما يجعلنا نحترس ونحذر منه، هو أنه يتمسك بالباطل، ويتخذ منا موقف العداوة جملة، وما بقى بعد ذلك فأى فائدة فيه !! ؟

أما أن نبالغ فى تقدير مزاياه مع كفره إلى درجة نفضله فيها على المسلم ! فهذا من عجائب المتناقضات، وأى دعوة إلى تمجيد الكفر أبلغ من ذلك ! ؟ ؟

الاستغفار لهم :

ولقد يهون على الإنسان أن يقطع مودته بمن كفر، ولو كان من أهله وذوى قرباه، ثم يجد من الصعب على نفسه أن يجدهم عرضة لعذاب الله، وإن عذاب الله لهو العذاب الأليم، لذلك ترق لهم نفسه، وتأخذه بهم الشفقة والرأفة وعندئذ قد يتوجه إلى الله راغباً إليه فى أن يغفرلهم و يرحمهم .

ولا بأس أن يدعو الإنسان ربه فى هدايتهم وإرشادهم ما داموا أحياء، فهذا لا شك من البر الذى يأمر به الإسلام، فوق أنه من مهمات الداعية إلى الله أن يستعين به فى هداية من يدعوهم، وأولاهم بذلك أهله وعشيرته .

ولكن المسألة هنا عندما يتبين أن هذا

الكافر قدمات على كفره ، فهل من المناسب أن نتشفع إلى الله فى عدو له مات على عداوته : أن يغفر له ويمحو صفحة كفره وجحوده ؟ وأن نظهر أمام الكافر بالاستغفار له وهو لا يزال على كفره ، كأن هناك أملا فى أن يظل على كفره وأن يدخل — مع ذلك — فى رحمة ربه ؟

إن رحمة ربى وسعت كل شىء ، ولعل هذا هو ما ساعد على الاستغفار لهم فى بعض الظروف ، ولكن رب الرحمة — التى وسعت كل شىء — حدد لنا بعد ذلك حدوداً لا يصح أن نتجاوزها فى طلب المغفرة ، وبين أنه لا يغفر أن يشرك به ، (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (النساء ٤٨ و١١٦) ثم نهى المسلمين عن الاستغفار للكافرين ، لما فى الاستغفار لهم من نوع إقرار لهم على كفرهم ، ولما فيه من معنى قد يضر المسلم والمجتمع الإسلامى ، من حيث إنه يضيع الحدود بين من أسلم ومن كفر ، وليسا سواء . (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير » (فاطر ١٩— ٢٣) (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون)(السجدة ١٨)

روى ابن كثير .. قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرازق معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال : أى عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل ؟ فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك ، فنزلت (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) (التوبة ١١٣) ورويت فى أسباب نزول هذه الآية روايات أخرى ، ولكن المقصود هنا بيان أن النهى عن الاستغفار قد ورد هنا فى صيغة تدل على عدم الإقرار لمثل هذا الموقف ، وما ساعد الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك إلا وفرة رحمته (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (الأنبياء ١٠٧) ولقد فعل إبراهيم عليه السلام مثل ذلك من قبل

حين واجـــه أباه بالحق فقال له : (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لأرجمنك واهجرنى مليا ؟ قال : سلام عليك سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا) (مريم ٤٦ ، ٤٧) لكنه نزل على مقتضى العقيدة بعد ذلك فتبرأ منه ، وجاهر بعداوته ، وقد ذكر الله تعالى ذلك فى معرض نهى المسلمين عن الاستغفار للمسلمين ، حتى لا يكون لهم فى موقفه عذر ولا حجة ، فقال : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) ، إن إبراهيم لأواه حليم» (التوبة ١١٤) ، فمناط الأمر هو موقف الكافر من ربه ، إنه موقف العداوة الثابت ، فهل نقف منه موقف التعاطف والرحمة واللين ، وهو عدو لله ، وكيف نتصور أن تتسع محبتنا لله لمحبة أعدائه إلى درجة الرحمة وطلب المغفرة لهم ؟؟ وكيف يجتمعان : محبة الله ومحبة أعدائه ؟ ؟ وماذا نطلب لأولياء الله أكثر من هذه المغفرة التى نطلبها لأعدائه ؟ إنه موقف غير متوافق ولا متناسق ، ولهذا نهينا عنه صراحة .

وكسائر المفاهيم الإسلامية ، بدأ هذا المفهوم يتميع ، وأصبحنا عندما يهلك من الكفار هالك نسمع كثيراً من المسلمين وهم يترحمون عليه فيصفونه (بالمرحوم) و (بالمغفور له) و (برحمة الله) و (أدخله الله فسيح جناته) ، إلى غـــير ذلك من الألفاظ التى لا تقال إلا لمسلم !

لقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلى على المنافقين الذين لا يظهرون الكفر ، لما فى الصلاة عليهم من الدعاء لهم فمابالكم بمن يعلن كفره ، ويجهر بعداوته لربه (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) (التوبة ٨٤) .

وليت هذه الألفاظ تقال فى مضمار المداراة السياسية فحسب ، إذن لكانت مصيبتها أهون ، ولعرف الناس أن هذا باب طريف مستحدث من أبواب المداراة ، ولكن الأمر بدأ فى محيط الساسة ثم تجاوزهم إلى كثير من عامة المسلمين ، فأصبحوا لا يميزون بين ما يستحقه المؤمن وما يستحقه الكافر ، وكأن الكافر عندهم على مستوى المؤمن ، وإذا وقرت الأمور فى نفوسهم على هذه الصورة لم نأمن أن نصبح يوما فإذا بهم قد استسلموا للكفر وهم مستبشرون أن الله سوف يغفر لهم ، ويدخلهم الجنة بغير حساب ، ومن أوسع الأبواب !!

اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين :

وأبشع من ذلك أن نتخذ منهم بطانة دون المؤمنين ، فنقربهم فى المجالس ، ونهش لهم عند اللقاء ، ونستشيرهم فى شئون المسلمين ، ونوليهم أمورهم ، ونعلق فى أيديهم مصالح المسلمين ، ونضفى عليهم ألفاظ التعظيم والتكريم وأهل الكفر والضلال ليسوا أهلا لشىء من ذلك خاصة فى أوطان المسلمين وديارهم .

يقول تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) (آل عمران ١١٨) .

ومع ذلك فأينما نسرح الطرف فى أوطان المسلمين نجد أن رؤساءهم وكبراءهم قد استظهروا بهم واتخذوهم بطانة من دون المسلمين ، فوسدوا إليهم الأعمال الحيوية ، ووضعوهم فى المناصب المركزية ، ومكنوهم من مفاتيح المصالح والمرافق ، وأصبح المسلم يحتاج إليهم فى شئونه ، وهو مضطر أن يبذل لهم ما يستحقه منصبهم من التوقير والتعظيم ، وكان فى أول أمره يشعر بالغضاضة لذلك حتى تعود عليه ، وأصبح تحكم الكافر فى شئونه ، وتسلطه على تصريف حياته أمراً مألوفاً ، ووضعاً عادياً ، لا يثير الاستغراب ، ولا يولد السخط والنفور ، وكيف نأتمن عدوا ثبتت عداوته على شأن من شئون المسلمين مهما صغر وتضاءل ! ؟

عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قيل له : إن هنا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً ، فلو اتخذته كاتباً ، قال : قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين ، رواه ابن أبى شيبة .

ولسنا ندرى ما الذى دها المسلمين حتى استمروا على هذا التصرف المنافى للإسلام وللمبادئ الإسلامية .

ولقد كان عذرهم فيما مضى وجود الاستعمار ونفوذ سلطانه ، فماذا يكون عذرهم الآن ، ونحن ندعى استقلال الأوطان والفكر والإرادة ، انظر إلينا عندما نفكر فى إقامة مشروع — أى مشروع — ولو كان مشروعاً لتربية الدواجن والفراريج ، من نستشير ؟ ومن نعينه للإشراف على المشروع ومن نوليه تصريف شئونه ، وتدبير أموره ! ؟

قد يقال : إن ذلك فى الأمور الصغيرة من شئون المسلمين ، وإذا كنا لا نثق بالمسلمين فى إدارة شئونهم الصغيرة فإن موقفنا فى الأمور الكبيرة ، بل الخطيرة ،

لا بد واضح معروف ، وهو بالفعل ما يحدث ، فعندما نفكر فى إنشاء نظم مدرسية أو جـامعة تعليمية تعلم أبناء المسلمين ، نبعث فى استجلاب الخبرات من (اليونسكو) وهى مؤسسة أقل ما يقال فيها (غير إسلامية) أو من بلاد استعمارية صليبية، أو شيوعية إلحادية ، لتضع لنا البرامج والنظم فى كيف نتعلم لغتنا وتاريخنا وديننا وعلومنا وفنوننا وتراثنا ، فماذا نتوقع من مثل هؤلاء (الأعداء الخبراء)وما أمر دنلوب وأتباعه وأشياعه وسدنه هيكله عنا ببعيد .

سرح الطرف فى أى اتجاه شئت من مختلف المشروعات والمؤسسات فلن تجد فى ذلك اختلافـًا يذكر ؟

ومن الغريب أن المسلمين يمكنون لهم ما لا يمكنون لأبناء دينهم وأمتهم من الاطلاع على أسرار بلادهم ، ومعرفة خباياها وزواياها وهم يستفيدون بذلك إضعاف قوتنا المادية والمعنوية ، واستنفاد طاقتنا ، واستنزاف مواردنا دون رقيب ولا حسيب ، فقد وضعنا ثقتنا فيهم واطمأننا لهم ، وأفضينا إليهم بدخائل أنفسنا ومخططات حياتنا .

وليس من العجيب إذن أن يعرفوا عن حياة المسلمين وبلادهم من المعلومات والأسرار ما قد لا يعرفه حتى قادتها وساستها ، وأن يسربوا هذه المعلومات إلى من شاءوا عند اللزوم وفى الوقت المناسب لمخططـاتهم و (تكتيكهم) فى تحطيم الإسلام ، وتخريب بلاد المسلمين ، والاستيلا طوعـًا وكراهية على أرضهم وديارهم وأموالهم وأهليهم وأولادهم !

لو كان المسلم حملا وديعاً أعجم لما فعل ذلك مع ذئب ! !

طاعتهم واتباعهم :

وهو أبعد ما نتصوره من مسلم بالنسبة لكافر ، ومع ذلك فقد نهى الله عنه صراحة حتى لا يستهين به المسلم ، ووجه الخطاب فى معظمه للرسول صلى الله عليه وسلم اهتماماً به فقال (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطـًا) (الكهف ٢٨) ، (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً »(الفرقان ٥٢) ، « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما » (أول الأحزاب ١) ، (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » (الأحزاب ٤٨) ، إلى غير ذلك من الآيات .

ولقد وقع هذا الذى لم نكن نتصوره ،

نتيجة لكل ما سبق ذكره من مقدمات ، فنحن فى معظم شئوننا ، خاصة العامة منها ، نصدر عن رأيهم ، ونقوم بتنفيذ مشوراتهم ونصائحهم ، ولو كنا نعلم يقينا أنها السم النقيع ، حتى ما يتعارض مع ديننا صراحة ، ويقف منه على طرف النقيض ترددنا فيه بين يمين ويسار ، طاعة للرأسماليين الجبارين مرة ، وطاعة للشيوعيين الطـــواغيت مرة ، وباسم الديموقراطية والحرية فى كلى مرة .

أما الإسلام والإيمان والتوحيد ، فليس له — عندئذ — اسم ولا عنوان !؟

آثار موالاتهم :

فأى فائدة جنينا من ذلك سوى الخبال ، وضياع معالم الهدى والحق ، والتعرض للفتنة الصاخبة الهادرة ليل نهار ، ووقوع العداوة والبغضاء بين الأمة الواحدة والفرقة والتشتت بين أصحاب التوحيد ، وأصبحنا بذلك أضعف الأمم ، وأكثرها فقراً ومرضاً ، وانحطاطاً فى المعارف والأخلاق، ولقد حذرنا الله تبارك وتعالى من هذه العواقب ، وبين لنا كيف نأمن من شرور موالاتهم ، بالاعتصام بولاية الله تعالى ورسوله والمؤمنين ، فلم يدع لنا عذراً ولا احتجاجاً .

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط) (آل عمران ١١٨ — ١٢٠) .

وقال تعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) (البقرة ١٢٠) .

وقال تعالى : (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) (آل عمران ٦٩) .

وقال تعالى : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) (النساء ١١٣) .

وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا

الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) (آل عمران ١٤٩، ١٥٠) .

وما ذلك إلا لأن طاعة الكافرين فى كافة الأمور يجر إلى طاعتهم فى كفرهم، وقد ينزلق المسلم إلى أمور تخالف دينه وعقيدته وهو لا يدرى ، فإذا هو قد أصبح كافراً من حيث لا يشعر .

يقول جل شأنه : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً) (النساء ٤٤ ، ٤٥) .

ويقول تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين) (الجاثية ١٨ ، ١٩) .

ويقول تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) (المائدة ٤٨) فطاعتهم تفتن الإنسان وتصرفه عن شىء من طاعة دينه ، وكيف يتبع المسلم أهواءهم وهى أهواء ضالة لا يجمعها هدى ، تاركا ما فيه شرعته وهداه من دين الله ! !

يقول جل شأنه : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) (الأنعام ١٥٩) .

ويقول تعالى : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) (التوبة ٤٧) .

فالفرقة والتمزق ووقوع العداوة والبغضاء بين الأمم الإسلامية نتيجة عملية لموالاتهم ! ؟

ولو تتبعنا هذه الآيات التى أشرنا إليها وكثيراً غيرها ، لتبين لنا مدى اهتمام القرآن العظيم بهذه القضية الحيوية المهمة فى حياة المسلمين ، كما نتبين فى الآيات التى ذكرناها آنفا أنه يعقب فيها دائماً بالعلاج الصحيح ، وهو ترك موالاة الكفار إلى الاعتصام بحبل الله ، والتمسك بولايته وولاية رسوله ، وولاية المؤمنين .

وولاية الله هنا ولاية خاصة بالمؤمنين لا تنال الكافرين (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً ٤ : ٤٥)، (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) (محمد ١١) .

والله أعلم . [وللبحث بقية]

د. عبد الفتاح عبد الله بركة
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بجامعة الأزهر

موقف الزيات من الأدب المكشوف

الدكتور محمد رجب البيومى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

راج لدى نفر من القارئين ما يسمى بالأدب المكشوف ، وهذا النفر لاحيلة لنا فيهم لأن انفعالاتهم الجائشة فى دور من أدوار الحياة تدفعهم إلى التطلع إلى اكتشاف الغوامض فيما يحسون من غرائزهم المتوثبة ، وعواطفهم المتعطشة وكان علينا — لو خلصت النيات — أن نقدم لهم ما يهديهم إلى السلوك الحميد ، وأن نساعدهم على الطمأنينة النفسية بما نرسم من وسائل الاستعلاء والتسامى ، أجل : كان على أصحاب الأقلام أن ينهجوا هذا النهج الصائب فيما يكتبون ولا أنكر أن فريقاً منهم قد التزم بميثاق الفضيلة فحارب إسفاف الهابط ، وتبذل الخليع ، ولكنه لم يستطع أن يوصد باب الشر من أقلام ناوأت الكرامة ، وسعت إلى الكسب الخبيث مما تدون من فضائح الجنس وتصف من أساليب الخلاعة ، وقد وجدت السوق رائجة نافقة ، نفوس المراهقين والمراهقات فى تطلع وجماح ، والزاد مغر خادع ، والأفئدة جائعة ظمأى .

وأعجب ما يروعنا فى سلوك هؤلاء الإباحيين ، أنهم يحاولون أن يكونوا من ذوى الرسالات الأدبية ، إذ يتحدثون بأنهم أطباء يشرحون العلل ويشخصون الأمراض ، وأنهم حين يبسطون فضائح الجنس . يحذرون القارئ والقارئة من كوارثها ، ويزيدون فيزعمون أن أدب النهضة فى أوربا وأدب العرب فى أرقى عصوره أيام بنى العباس قد بسط الحديث الفنى عن هذه النوازع الهابطة ، فما ارتقى الأدب الأوربى إذن — فى زعمهم — إلا بهذه الإباحية المندفعة ، وماسار لشعراء العصر العباس من الذيوع

والنباهة على الألسنة وفى مجلدات العصور المتتالية إلا لإخلاصهم الفنى فى صراحة ما يبدعون! وهذا باطل يتزيى أمامنا بالحق، لأنه يوهم السطحيين أن الأدب الانحلالى: مصدر قوة، وطريق إبداع، وذلك عين الباطل حقاً أما تزييه الكاذب بالحق، فلادعاء أصحاب هذا المنطق أنهم قد درسوا تاريخ الأدب فى عصر النهضة الأوربية وتاريخ الشعر فى العصر العباسى فوقفوا على أسباب تقدمه، حين حصروها فى هذه الإباحية الساقطة، وهم واهمون فيما يدعون، لأن الأدب الأوربى فى عصر النهضة لم يكن كله ولا نصفه ولا ثلثه ولا ربعه أدب جنس، ولكنه كان فى أكثره أدب عقل باحث، وعاطفة نزاعة للسموّ، وداعية إلى الاستعلاء والطموح والذين ارتكسوا فى مهاوى الجنس الفاضح وجدوا من زعماء الأدب، ونقدته من يشنون عليهم حروب النقد، ومن يحذرون منهم جمهرة القراء والقارئات ولو اقتصر أدب النهضة على هذا اللون المنحل ما كانت نهضة، وما تحقق تقدم فكرى فى إنتاج أدبى، ولا زلنا نذكر صرخات تولستوى العالية فى وجوه المنحلين من الكتاب، إذ يرى الفيلسوف الكبير أن غاية الفن هى الرقى بأحوال الجماعات والأفراد، وابتكار أشرف الأحاسيس، والسمو بمنحدرات العواطف إلى حيث ترتفع وتحلق وتنجو من مهاوى الإسفاف، وإذا وجد فى إنتاج شكسبير ودانتى وبوكاشيو بعض مالا يسير فى هذا الاتجاه فهو شذوذ ينحرف عن القاعدة المستقيمة، والألزم الحتمى أن نوجه جهودنا الأدبية إلى إحياء المروءات والفضائل والربط القوى بين أوامر الله وسلوك الناس!

أما الأدب العباسى فنحن أدرى به وأوعى وأفهم فإنه إذا وجدت قلة من الشعراء تتسفّلُ فى مباذلها الهابطة كمطيع ابن إياس، وأبى نواس، ووالبة بن الحباب وسلم الخاسر، والحسين بن الضحاك، فإن هناك مئات من شعراء الرجولة والكرامة والخلق، ومن ذكرناهم من شعراء المجون باستثناء أبى نواس شعراء صغار ضعاف: لا يرتقون إلى الأوج الفنى فيما ينظمون، ولولا تبذلهم السفيه حين أغرى بعض المرضى بتدوين ما يقولون، لولا هذا التبذّل ما ذكرهم ذاكر، إذ ليسوا قمما ترتفع، وإنما هم سفوح تنخفض! ولو اكتفى أبو نواس بما اكتفوا به لصار نظيرهم فى مكانتهم الأدبية ولكنه لزم الجد فى كثير مما

قال ، فكان عربيًّا قوى الديباجة سامى الهدف فى كثير من أوصافه وأماديحه ومراثيه وزهدياته ، وبذلك عُدَّ من الشعراء الفحول ، على أنه مع ذلك لم يبلغ مبلغ أبى تمام أو ابن الرومى والبحترى ممن دارت حولهم مناقشات أدبية فى كتب نقدية تتحدث عن البديع وعن عمود الشعر! فأين هو طابع المجون الذى ارتقى بالأدب العباسى ؟ على أن الشعر وحده لم يكن كل حصيلة الأدباء ! فقد كان لدينا الناثرون والقصاصون ، وذوو البيان من كبار العلماء وبهم ازدهر الأدب العباسى أينع الازدهار ! وجلهم غير خليع .

تلك مقدمة ضرورية للحديث عن موقف الزيات من الأدب المكشوف فى هذا العصر ، لأن ذرية هؤلاء المنحدرين قد انبعثت تقفوا آثار أجدادها فيما تتبذل فيه من انحدار ، فراجت القصص الخليعة وانتشر الشعر الماجن؟ ومن فضل الله: أن ذلك لم يكن على أيدى زعماء الأدب من الأصلاء، ولكنه كان جرائر المتخلفين من صغار الكتاب ومَن فوق الصغار بقليل ، وقد وجدوا الرواج حقًّا كما وجده السالفون لأسباب ترجع إلى توقد الغرائز وانحدار العواطف ، وخداع الأهواء ، وقد بحث الزيات عن مصدر هذا الوباء فعرف أن أوربا قد خرجت من الحرب العالمية الثانية منهوكة الأعصاب ، فاقدة الإيمان ، فلجأ نفر من متبذليها إلى هذا العبث الساقط حين انقلبت الأوضاع ، وتغيرت الطباع ، واختلفت المقاييس وبرد الدم الحار ، فشاع الإغضاء ، وساغ البذاء ، وقلت المبالاة ، وسكنت الحمية ، حتى صار الفجور دينا له زعماؤه ومبشروه، فمنهم: فرويد وسارتر وجيد ولورنس وفيكتور مرجيت ، أما أتباع هؤلاء فهم مسوخ الحرب ومشوهوها ممن لا يعتصمون بخلق ولا يرجعون إلى دين !

ويتعمق الأستاذ أحمد حسن الزيات موضوعه فيقول بتصرف يسير[1] :

« ولكن دواعى أدب المجون التنفيس عن رغبة مكظومة ، أو التعبير عن عاطفة جائشة ، والتحرر من التزامات مقيدة ، وهى خواص فى طبع الإنسان تلزم لزوم البكاء والضحك له، وتدوم دوام الجد والهزل فيه ، وأقل دواهيه أن تزول الحدود بين المعروف والمنكر، فلا يكون فارق بين حلال وحرام ،

(١) وحى الرسالة ج٣ ص ٢٠٠ .

ولا بين نظام وفوضى ، ولا بين إنسان وحيوان ، والذين كانوا فى القديم يقولون كانوا ينشئونه لأنفسهم لا للناس ، ويتناقلونه فى السر لا فى العلن ، ويتفكهون به فى المجالس الخاصة لا فى المجامع العامة ،

ولوكان لهم مالنا اليوم من طباعة تنشر وصحافة تذيع ، وجمهور يقرأ ، لتحرجوا من أكثر ما قالوه، فإن الناس مذبثّ الله فى أبويهم آدم وحواء فضيلة الحياء فخصفا على جسديهما العاريين من ورق الجنة ، شعروا أن للجنس عورات لا يجوز أن تظهر ، ولما هذبهم الدين ، وثقفهم العلم ، وصقلهم التحضر ، شعروا كذلك أن للفكر عـــورات .. لا يجـــوز أن تنشر، فهم بحكم الحرية والاستقلال والانطلاق يقولون ويفعلون فى خلواتهم ومباذلهم ما شاءوا، ولكنهم بحكم الدين والقانون والعرف يسترون سوءاتهم ونزواتهم ما استطاعوا ، فلا يقولون كل حق ولا يصورون كل حالة ولا يظهرون كل مضمر .. مراعاة لشعور الجملة ومحافظة على كرامة الإنسان » .

إلى هنا ونحن مع الأستاذ أحمد حسن الزيات فى كل كلمة ، ولكننا قد نختلف معه حين يستطرد فيقول :

« أدب المجون إذن يجوز أن يقال ، ولكن لا يجوز أبداً أن يعلن ، والرقيب على هذا الأدب ضمير المنشئ وكرامة القارئ ، فما دام للمنشىء ضمير يحييه الدين القويم ، والخلق الكريم فإنه يتكرم عن الهبوط إلى حضيض القوادين الذين يزينون الفحش ، والمطاردين الذين يروجون الحشيش» .

أجل : إننا نختلف هنا مع الأستاذ الزيات — رحمه الله — فى هذا الرأى، لأن تجويز قول المجون فى المجالس ، دون نشره فى الأوراق فتح لباب يجب أن يسد ، فأكثر من مجنوا من شعراء العصر العباسى لم يكونوا يظنون أن أبياتهم الخاصة فى زوايا اللهو رموا خير الفساد ، ستصبح ذات يوم على كل لسان ، لأن فى بعض النفوس ولعاً بترديد المجون العابث استجابة لرغبات هابطة لم يتح لها طريق التسامى والإعلاء ، والقول متى قيل، فلا بد أن يذاع بعضه إذا امتنع جميعه على الإذاعة ، وهذا ما كان فيما سلف أفيجوز أن نغضى عنه الآن فيما سيقال؟

لقد تساهل أمثـــال الجاحظ وأبى الفرج الأصبهانى وأبى منصور الثعالبى فى رواية هذه المنكرات فى كتب

الحيوان والأغانى ويتيمة الدهر ، فكان من جراء ذلك أن خلف بعدهم خلف لزموا طريقة الاسترواح بالتساهل والإغضاء فَحُكِي ذلك عن أمثال : ابن حزم والراغب الأصفهانى والقاضى التنوخى ، وهم — على أدبهم الجم — من كبار الفقهاء وشيوخ الدين والتشريع ، وقد اغتفر لهم ذلك الأستاذ محمد كرد على . . حين ألم بحديثهم فى الجزء الثانى من أمراء البيان[1] .

وذلك انحدار كان الأولى توقيه ، بل إن الأستاذ كرد على فى تبرير هذا التساهل المبتذل زاد فردد قول ابن قتيبة فى مقدمة الجزء الأول من عيون الأخبار :

(وإذا مرّ بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب) .

ثم قال صاحب عيون الأخبار ، وهو العالم الوقور المحدث ، وكأنه يتراجع :

(ولم أترخّصْ فى إرسال اللسان بالرفث ، على أن تجعله هجِّيراك ، على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منّى فى حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها ، تنقصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجرى فى هذا على عادة السلف فى إرسال النفس على السجية والرغبة عن الرياء والتصنع) .

وهذا تراجع جزئى لا يفيد ، إذ أن ابن قتيبة يبيح أن نذكر الساقط من القول ، والمبتذل من المجون ، متى ما لم يكن مذهباً متعيناً لا محيد عنه ، فهو إذن ينكر أن يكون الساقط ممنوعاً فى بعض المجالات ، بل فى أكثر المجالات إذا لم يكن ديدنا عاماً !!

ونحن نعرف أن الساقطين لا يجعلون الإسفاف ديدنا عاما !! فَيَمْجون ويُسأمون ، فهم ينتقلون لامحالة من الجد إلى الهزل ومن الهزل إلى الجدّ ، بعد أن يكشفوا فى هزلهم كل مستور ، وبعد أن يعصفوا فى لهوهم بكل حرمة !

أفيوافقهم صاحب عيون الأخبار على هذا التسفل المنحدر ، لأنه لم يصر ديدنا عاماً لا فكاك منه ، لقد كان الأجدر بمن له مكانته العلمية بين أعلام أهل السنة من رجال الإسلام — أن يقف موقف المتشدد ، وأن ينادى بسد الذرائع

---

[1] (١) أمراء البيان ج٢ ص ٥٣٣ ط ١ — للأستاذ محمد كرد على .

ودفع الشبهات! ولا ملامة — إذن — على أديب كالجاحظ أن يلهو ، ما دام ابن قتيبة الزميت الوقور يستبيح اللهو متى ما لم يكن فى جميع الأحيان ، بل كان حيناً بعد حين ! والأستاذ أحمد حسن الزيات — فى رأينا — أقرب إلى الحسنى من ابن قتيبة ، لأن صاحب الرسالة أجاد اللهو قولا دون تسجيل ، وصاحب عيون الأخبار أجاز اللهو تسجيلا ما لم يكن طابعاً عاماً !

ثم روى فى (عيون الأخبار) من أخبار الماجنين ونوادر الخلفاء ما كان عليه أن يتحاشاه ! وتلك عثرة لا تقال ! ؟

وقد عظم الخطب وفدح اليوم فى المسرح ، لأن شاشة التليفزيون قد أعدت رواياتها للمشاهدين فى شتى الأماكن كل يوم ، وللتمثيل المسرحى تأثير يفوق تأثير القصة أو المقالة أو القصيدة فى الصحيفة أو الكتاب ، لأن الورقة المطبوعة لا يقرؤها إلا من تعلم أما التمثيل فيشاهده الأمى ويتابعه ويفهم منه ما يناسب تفكيره ، وما ينقدح مدلوله فى نفسه ، لذلك نجد ، أنصار الفضيلة يتشددون فى نقاء المسرحية أو القصة مما يسف ويشين وينحدر ، ولهم خصوم يدعون إلى التبذل بحجج ملفقة تكشف عما يتوقون إليه من هبوط ، وللأستاذ الزيات فى ذلك رأى ذائع هتف به حين قال[1] :

والملهاة العامية غرضها الإضحاك والإلهاء بتصوير العيوب المضحكة . تصويراً يتعدى حدود الأدب والحشمة والذوق والإمكانية ، فهى تقوم على الإحالة والبُذاء كما تقوم الملهاة (الفضيحة) على السخر والأضاحيك والرأى بين الناس تختلف فى بقاء هذا النوع فى أمة راقية وحكومة منظمة ومسرح مهذب ، فالذين يدافعون عن الملهاة يقولون : إن الناس يرفهون عن صدورهم بشهودها ، وأن الأذواق ليست واحدة فى تقدير اللهو الرفيع وأن العكوف على الجد الخالص ، واللهو المحتشم يتعب الذهن ، ويكد القريحة ، ونحن لا ننكر على العامية مطلقاً أنها تلهى الجمهور وتسر الناس ولا ننكر كذلك أن القليل فى الناس هم الذين يدركون معنى الحق والجمال والخير فيلذهم إدراكه ويمتعهم فهمه وأن دهماء الناس وسوادهم لا يلهيهم إلا المحال الفاحش، والبذئُ المقذع ، وأن من الأذهان ما يعتريه الكلال

(١) فى أصول الأدب للزيات ص ٣٣٢ ط ٣ .

من الجد ، فلا يشحذُ إلا بالمزاح الخالى من الذوق والفكر ، ولكن سلطان هذا النوع على الشعب هو مصدر الخطرفيه ، ومنشأ الضرر منه ، فإن من يحبه ويميل إليه يكره غيره ويصد عنه وانصراف الشعب عما يغذى عقله بالحكمة ، وذوقه بالجمال ، ووجدانه بالفضيلة ، إلى مايملأ عينيه بالفحش ، وقلبه بالرجس ولسانه بالبُذاء ، مؤد إلى الوهن والانحلال والعدم ، ذلك : إلى أن اللهو الفارغ تستسهله النفس وتفضله ، وإذا استرسل المرء فيه خمدت نفسه بترك الفكر ، كما يخمُد جسمُه بترك العمل .

أما قولهم : إن الملهاة العامية لا تضر ، ما دامت تسر . فذلك مثل قولهم : إن نوع الغذاء لا يهمك ما دام يلذك) ! ؟

ونحن نعلم : أن الزيات قد رأس تحرير (مجلة الرسالة) على مدى يزيد على عشرين عاماً ، فى كل أسبوع تصدر المجلة حافلة بشتى فنون الأدب من مقالة وقصيدة وقصة ونقد وتاريخ ولم نر فيما نشره الزيات على هذا المدى الأطول ما يخل بمذهبه الخلقى فى التقيد بالمثل الرفيع ، بل إن معارك قلمية ساخنة دارت رحاها على صفحات الرسالة مهاجمة دعاة التبذل والإسفاف ولا زال زئير الرافعى وعبـــد الوهاب عزام وعبد المنعم خلاف والزيات ومحمد أحمد الغمراوى وسيد قطب وعلى الطنطاوى وغيرهم من رجال الفضيلة يجلجل فى الأسماع ، وقد أغضب الزيات نفرا من الكتاب حين أصر على حذف ما يشين من مقالاتهم أو قصصهم مراعاة للسمو الإنسانى تعبيراً وتصويراً واتجاهاً ، وأذكر أن الأستاذ دريني خشبه قد أرسل للرسالة قصة تحت عنوان (حب اللحم) تحدث فيها عن إحدى الخيانات الزوجية المزدوجة وعرض من الوقائع ما يسيء ، دون أن يُخْجل بلفظ فاحش أو معنى فاضح ، وكان الحل الذى انتهى إليه مما ينكره الخلق إذ دبر أحدُ الأبطال فى القصة مؤامرة لسحق منافسه وإغراقه فى النيل ، وكان فى نية الأستاذ الزيات أن يهمل نشرها ولكنه أرتأى بعد التأمل أن ينشرها وأن يعقب عليها بما يدل عـلى مكمن الضعف لينبه الأستاذ دريني ومن يحذو حذوه إلى مجانبة السقوط الخلقى فيما يكتبون ، فنشرت الرسالة القصة بالعدد (١٦٦) من السنة الرابعة ، وفى نهايتها تعقيب موجز يدل على أن الحل لا يرتضيه الخلق الجميل ، وقد ارتاع

الأستاذ دريني لهذا النقد الناسف على إيجازه فكتب يدافع عن نفسه فى العدد التالى (١٦٧) ويقول إن البطلة لم تكن موفقة على مكيدة صاحبها فهى إذن من أنصار الخلق الفاضل الذى تشير إليه القصة عن طريق الإيماء ، ولكن الزيات قد وضع الحق فى نصابه حين علق على كلام الأستاذ دريني بقوله :

(نوافق الأستاذ على أنه ينشد بقصصه الخلق الجميل ، وهو لا شك يوافقنا على أن الدين والقانون هما جوهر الخلق الكريم بالضرورة ، والدين يأذن للزوجة المضرورة أن تطلب الطلاق ، وتثبت الضرار ، فيحكم القاضى بالتفريق ، والقانون لا يجيز لحبيب الزوجة ولا لغيره أن يقتل الزوج وعشيقته على هذه الصورة) إننا نرجو أن يكون فى كل دار للنشر ، وفى كل صحيفة تطالع القراء بأقصيص العاطفة : أستاذ كبير يؤمن بالرسالة المثالية للأدب ، فيمنع الأدب الساقط ، ويجيز الأدب الهادف ، لينشأ جيل مؤمن يعتز بأخلاق القرآن ، ويتعشق البيان العربى فى إبداعه الخالب ، وتصويره الموجه ، وترفعه النبيل !؟

د. محمد رجب البيومى
(الأستاذ بكلية اللغة العربية)

في التقوى

قال صلى الله عليه وسلم :

« إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . . »

وقال أيضاً :

« اتقوا الله ، وصلوا رحمكم ، وصدقوا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا أمراءكم ، تدخلوا جنة ربكم » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللهم إنى أسألك الهدى ، والتقى ، والعفاف والغنى . . »

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

الشك .. هو النهاية المحتومة للعقل المستقل

دكتور / يحيى هاشم

بينا فى المقالات السابقة *أن كلا من الفلسفة اليقينية ، والعلم التجريبى يقوم على مسلمات ، تشمل الإيمان بما لم يقم عليه برهان ، أو تحققه تجربة ، ومن ثم تسقط دعوى كل منهما فى الاستقلال عن الدين .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الفلاسفة الذين وقفوا فى بحثهم لأصل المعرفة الإنسانية عند العقل الإنسانى يرفضون أن يمتدوا به إلى مصدر أسمى يتلقى منه المعارف . . . فإننا نجد هؤلاء قد آل أمرهم إلى الشك واللاأدريه .

إن ابن رشد هو الذى فتح الطريق للفلسفة الغربية الحديثة حين جعل العقل الفعال غير خارج عن النفس الإنسانية .

وجعل إدراك العقل الهيولانى له : لايعنى صعوداً من ذات إلى ذات أخرى ، أو من كائن إلى كائن خالد ، وإنما جعله نوعاً من الاتصال داخل النفس الإنسانية ، منكراً بذلك نظرية الفيض[1] .

وهنا نجد : أن جميع الفلسفات التى سارت فى هذا الطريق اصطدمت بالسؤال الذى قدمناه :

من أين لنا الثقة فى هذا العقل ، وبخاصة أن العقل هو الذى ينقد نفسه ؟ إننا مالم نصل إلى إجابة شافية عن مصدر البدهيات أو المسلمات بصفة عامة تتوفر له الثقة التامة فسيظل حلم الغزالى وشيطان ديكارت احتمالا قائماً .

وحلم الغزالى خلاصته أن العقل لا يمكنه أن يرفع احتمال وجود حالة فوق اليقظة

* انظر مجلة الأزهر الجزء ٣ السنة ٥٠ [عن شهر رجب ١٣٩٨ هـ صفحة ٥٨٩ – ٥٩٥ منه] والجزء ٤ السنة ٥٠ [عن شهر شعبان ١٣٩٨ هـ صفحة ٨٤٠–٨٤٨ منه] والجزء ٥ السنة ٥٠ [عن شهر رمضان ١٣٩٨هـ صفحة ١٠٥٥–١٠٦٢ منه].

(١) انظر فى النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام للدكتور محمود قاسم ص ٢٤٠ ، ص ٣٠٠ إلى ٣٠٣ .

تكون نسبة اليقظة إليها كنسبة حالة النوم إلى حالة اليقظة !

يقول الدكتور سليمان دنيا :

(إن ملاحظة إمكان هذه الحالة من شأنها أن تجعل العقل يكف عن ادعاء : أن أحكامه صحيحة فى الواقع ونفس الأمر . .) .

ولقد وقع ديكارت فريسة لمثل هذا الاحتمال ، وحاول الخروج من الشك الذى وقع فيه ببدهية « أنا أفكر فأنا موجود » لكنه فى تقدير الكثيرين لم يكد يصل إلى هذه البدهية حتى غرق فى بئر الذاتية مرة أخرى ، إذ أن ما أثبته هو وجود الأنا المفكر دون أى شىء آخر . وكل ما بناه بعد ذلك من قضايا — قضية وجود الله ، وأنه لايضل أحداً ، وأنه هو الضامن لصحة الأحكام العقلية — لا يخرج به من دائرة الذاتية البحتة .

إن شك ديكارت تطرق حتى إلى الحقائق الرياضية . . .

ذلك : لأن الذى أدى به إلى ذلك هو احتمال وجود (. . . شيطان يضل صاحب الفلسفة ، أنه يرى أن اثنين وثلاثة تساوى خمسة ، لكن ضرورة حاصل هذا الجمع قد تكون — وفقاً لما يقول — ضرورة داخلية ذاتية بمعنى أنها من ضرورات عالم الأذهان وليس بلازم فيما هو خارج الذهن أن يكون كذلك) . . .

إنه إذا كان حلم الغزالى أو شيطان ديكارت يقف حائلا بين العقل وبين الاطمئنان إلى أن ما يصل إليه يمثل الحقيقة الخارجية . . .

فإننا نجد أن المقياس الذى وضعه البعض للتفرقة بين الحلم واليقظة عن طريق صلاحية اليقظة للاحتكام إلى تجارب مماثلة ، دون الحلم . . .

هذا المقياس نفسه مشكوك فيه ، ويمكن إدخاله برمته فى حكم ما يراه النائم .

يقول آير الفيلسوف المعاصر الذى اقترح هذا المقياس ثم تراجع عنه (من الممكن أن أكون فى هذا مخطئاً) [١] .

ويقول أزفلد كوليه فى كتابه المدخل إلى الفلسفة (يدعى العقليون أن البدهيات التى يحكم بها العقل قضايا كلية صادقة صدقاً ضرورياً لا يتطرق إليه شك .

ويستندون فى ذلك إلى أن هذه الأحكام فطرية أو ذاتية للعقل .

والحقيقة أن كونها ذاتية ليس دليلا على ضرورة صدقها) [٢] .

إن هذا — على أقل تقدير — يضع أمامنا احتمالا : هو أن تكون البداهة شعوراً ذاتياً داخلياً لا سبيل إلى أن تعرف شيئاً

---

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل .
(٢) المدخل إلى الفلسفة ص ٢٤٧ .

عن مطابقته للخارج !

إن العلم اليقينى بالوجود الخارجى عند من يقولون بذلك .. يعنى أن يكون هناك مطابقة بين فكرتنا الذهنية وبين الحقيقة الخارجية ، وهذه المطابقة يستحيل إجراؤها فى رأى كانط . الفيلسوف الألمانى المتوفى عام ١٨٠٤ م .

وذلك لاستحالة إجراء المطابقة بين الفكرة والواقع — إذ كل إجراء من هذا القبيل إنما يؤدى إلى مطابقة بين الفكرة والفكرة .

أى بين فكرتنا عن الواقع ، وبين الواقع كما هو فى فكرتنا ، أما الواقع فى نفس الأمر فلا سبيل لنا إلى إجراء هذه المطابقة عليه !

يقول كانط : (وحل هذه المشكلة ممتنع لجميع العالم امتناعاً مطلقاً)[١] .

ومن هنا ذهب كانط إلى أن البدهيات أمور تابعة لطبيعة العقل نفسه ، فهى خاصة به ، وليست خاصة بالوجود الخارجى.

ووصفها أتباعه بأنها أمور افتراضية نتخذ منها أساساً لبحثنا فى العلوم يقول الفيلسوف الإنجليزى المعاصر السير وليم هاملتون . .

(إن العقل لا يمكنه أن يحصل معرفة يقينية بالأشياء كما هى فى نفسها . . إنه بحسب الواقع ونفس الأمر يحتاج منا ذلك إلى أن نضع العقل نفسه تحت البحث لاختبار مدى قدرته ، وهذا يقتضى منا أن نتخلى عنه وأن نحصل على أداة أخرى نتناوله بالفحص ، والأداة الأخرى لا يمكن الثقة فيها إلا إذا فعلنا بها كما فعلنا فى الأداة الأولى وهكذا دواليك)[٢] .

وهذا هو نفس ما قاله الإمام الغزالى من قبل . .

ولم يقطع الإمام الغزالى هذه السلسلة — الرهيبة — إلا بالإيمان بالله .

الإيمان الذى يوضع فى أول الطريق ، والذى بدونه يصبح العقل وما يبنيه فى مهب الريح .

إذن فالسقوط فى هاوية اللاأدرية هى النتيجة الحتمية لقطع العقل عن أصل خارج عنه يستمد منه ضمان أصالته واستقامته .

أما الذين لم يقطعوا العقل عن أصل خارج عنه ، فقد لزمهم أن يكون إيمانهم بهذه المبادىء العليا سابقاً على إيمانهم بالعقل .

(١) انظر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين لشيخ الإسلام الشيخ مصطفى صبرى ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢) مقال فى المعرفة للدكتور سليمان دنيا ص ٢٩ — ٣٠ .

فكيف تستقيم بعد ذلك دعوى استقلال الفلسفة أو العلم عن الدين مركوزاً فى أساس كل منهما ؟

وبعد : فإذا كان الإيمان الدينى ضرورة أولى فى حركة الإنسان نحو المعرفة العقلية أو العلمية فعلى أى أساس يمكن أن يقوم هذا الإيمان ؟

إن الجواب على هذا السؤال يتمثل فى إجابتين ، أولاهما : الفطرة ، ثانيتهما : الضرورة العملية . .

وبيان أولاهما : أن الإيمان بالله يأتى أولا ، باعتباره فطرة إنسانية لا تحتاج إلى تسويغ من عقل أو علم ، فهو أمر نابع من تكوين الإنسان الطبيعى يفرض نفسه برغم كل أنواع المعوقات والجحود والنكران . . .

يقول الإمام ابن تيمية :

إن فطرة الخلق مجبولة على أنهم متى شاهدوا شيئاً من الحوادث المستجدة كالبرق والرعد والزلازل ذكروا الله وسبحوه ، لأنهم يعلمون أن ذلك المتجدد لم يتجدد بنفسه ، بل له محدث أحدثه .

وهم يعلمون هذا فى سائر المحدثات ، وإن كان ما اعتادوا حدوثه صار مألوفاً لهم ، بخلاف المتجدد الغريب .

وخلق الإنسان من أعظم الآيات ، فكل أحد يعلم أنه هو لم يحدث نفسه ولا أبواه أحدثاه ، ولا أحد من البشر أحدثه ، ويعلم : أنه لا بد له من محدث ، فكل أحد يعلم أن له خالقاً خلقه ، ويعلم أنه موجود حى عليم قدير سميع بصير . ومن جعل غيره حيًّا كان أولى أن يكون حيًّا ، ومن جعل غيره عليما كان أولى أن يكون عليما ، ومن جعل غيره قادراً كان أولى أن يكون قادراً . . . كما قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون ٥١ : ٢١) . .

ثم يقول : « فما عدت هذه المسألة من النظريات التى يقام عليها برهان . فإن الفطرة الإنسانية تشهد بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها بصانع قادر عليم حكيم وهذا قوله تعالى :

(أفى الله شك ١٤ : ١٠) . . وقوله تعالى . . (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) الزخرف ٩ .

وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة فى السراء فلا شك أنهم يلوذون إليها فى حال الضراء يقول تعالى : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) ٣٢ لقمان ويقول تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) ٦٧ الإسراء . .

ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفى الشرك .

ويقول ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين (إن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر السليمة من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمهما.

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتابه الإسلام فى عصر العلم فى تعليقه على أدلة أفلاطون وأرسطو .

أما أفلاطون فبرهانه يحتاج إلى شىء من العلم والحكمة فهو بعيد عن البرهان الفطرى على قدر بعده عن متناول العقل العادى ، وهذا كما لا يخفى عيب فى الدليل لا يغيب على بصير . . إذ لا يخفى أن الخالق جل وعز أكبر من كل كبير وأظهر من كل ظاهر فكيف يليق أن يكون البرهان على وجوده من الخطأ بحيث يدق على كثير من الأفهام .

وليس أدل على سلامة وجهة نظر ابن تيمية تلك من أن إنكار وجود الله لم يكن مذهباً لأى مجتمع إنسانى فى أى عصر من العصور ، وإنما كان فى بعض الأحيان مذهباً لأفراد اضطروا بعد إنكارهم إلى اتخاذ آلهة أخرى من صنع أيديهم ، فأنشأوا لها نظاماً من الأفكار يدعون الناس إلى التسليم بها كدين من الأديان ، وضربنا المثل على ذلك فى المقالات السابقة ، من أكبر الفلسفات الإلحادية المعاصرة : الفلسفة الوضعية ، والماركسية ، وأوضحنا أنه لم يعد من اللازم فى مواجهة هاتين الفلسفتين ، أن تقوم المناقشة على أساس سوق الأدلة على وجود الله ، وإنما على أساس المقارنة بين المعبود فى الدين الحق والمعبود فى تلك النظريات .

هذا وسوف نواصل الحديث — بإذن الله — فى المقالة التالية ، لنبين الإجابة الثانية التى أشرنا إليها « الضرورة العملية ».



الاجتهاد والإفتاء

مفهومه وضرورته

دكتور / رءوف شلبى

من خصائص الشريعة الإسلامية أنها عامة شاملة سرمدية لأنها أحكام الله التى تحقق للإنسان سعادته فى الدنيا والآخرة .

وسرمدية الشريعة وصلاحيتها للزمان والمكان مرتبط بإلحاق جزئيات الأحكام المستحدثة بكلياتها العامة المتعلقة بأصول التعاشر الإنسانى : العقل ، والنفس ، والمال ، والنسل ، والعرض . ومركز ذلك هو : الاجتهاد .

والاجتهاد : هو تفويض فى السلطة التشريعية من صاحب الحق المطلق فيها وهو الله ورسوله :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم)[1] .

وقد نفى الإسلام أن تكون هناك أدنى سلطة بعد ذلك فيما يتعلق بتشريع الأحكام .

قال ابن عباس : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها فأنزل الله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل آلله أذن لكم ، أم على الله تفترون ٥٩ يونس)[2] .

وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد والضحاك . . نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل[3] .

فالقرآن الكريم ينكر على المشركين أن يتدخلوا بعقولهم فى عملية التشريع لأن العباد جزء من ملكوت الله وكل ما فى الملكوت يجرى على سنن أودعها الله وقوانين بثها فى الكون ، والإنسان كواحد من هذا الملكوت ليس له الحق فى أن يخرج على قانون الله : (لا الشمس

(١) الحجرات .

(٢) تفسير الطبرى ج ١١ ص ١٢٧ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٤٢١ .

ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) . (يس ٤٠) .

فكذلك الإنسان ينبغى أن يسير على قانونه الذى شرعه الله له .

ومصدر سلطة الحكم الشرعى هو الله ورسوله يقول الله تعالى :

(فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) . (٥٩ النساء) .

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما) . (٦٤ النساء) .

ذلك هو الأصل فى السلطة التشريعة : الله ورسوله .

ولما كانت الأمة الإسلامية قد ورثت شرف تبليغ الدعوة الإسلامية وحماية الدولة الإسلامية حسبما أمرت فى كتاب الله تعالى :

(فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) . (الأنعام) .

(ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا » . (فاطر) .

فقد أذن الله لجماعة الحل والعقد وهم العلماء والمتفقهون فى دين الله أن يبحثوا بجهد جهيد مع الإخلاص والحرص والورع على أن يكون ربط الجزء الحادث لحكم ما بكليته العامة على نحو مما يرضى عنه الله ورسوله .

وإذا استعرضنا تاريخ الاجتهاد وقفنا على خاصية فريدة للأمة الإسلامية وهى :

أن الاجتهاد ليس تصيداً للحكم لإرضاء شهوة وليس تسلطاً على الناس لضياع حق ، ولكنه تهيئة فرصة ليعبد الناس ربهم بحكم صحيح وإقامة العدل الذى يرضى الله عنه .

وفى سبيل ذلك كان الاجتهاد له صبغة العمل العلمى التعاونى .

فقد روى أن رجلا قتلته امرأة أبيه وخليل لها فرفع الأمر إلى عمر بن الخطاب وهو عند ئذ رئيس الدولة فتردد هل يقتل الكثير بالواحد . . . ؟ .

تلك حادثة جديدة قاعدتها الكلية : « ولكم فى القصاص حياة » .

فعرض سيدنا عمر رضى الله عنه القضية على فقيه الدولة ومفتيها سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه فقال له :

« أرأيت لو كان نفراً اشتركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟

قال عمر : نعم

قال على : فكذلك .

فعمل عمر بفتوى على فاقتص للواحد من الكثير .

ومثلها المسألة المشتركة وهى التى مات فيها امرأة وتركت زوجاً : وأما : وإخوة لأم : وإخوة أشقاء : فقسم عمر الميراث حسب الفروض المحكمة :

للزوج : النصف .

وللأم : السدس .

وللإخوة من الأم : الثلث .

فلم يبق بعد ذلك للإخوة الأشقاء شىء فقالوا : يا عمر : هب أن أبانا كان حجراً فى اليم ألسنا أبناء أم واحدة فعدل عمر عن فتواه وأشركهم فى الميراث [1] .

ومن هنا يظهر أن الاجتهاد هو بذل أقصى الجهد لاستنباط حكم شرعى أو تطبيقه لهدف هو أن يرتبط سلوك المسلمين دائماً بأصول الشرع الإسلامى الحنيف فليس الاجتهاد للخروج من حكم فيه مشقة حسب ظروف عصر ما أو مكان ما إلى حكم يتخيل أنه جائز الاجتهاد لأنه أخف الضررين .

والاجتهاد قسمان :

١ ــ اجتهاد فى استنباط الأحكام من مصادرها الأولى : القرآن والسنة والإجماع .

٢ ــ اجتهاد فى تطبيق الأحكام الشرعية والمحافظة على سلامة المجتمع من قانون دخيل يغير سلوك المسلمين إلى نظام آخر .

والمجتهد هو العالم المسلم الورع المستجمع صفات الاجتهاد وهى :

١ ــ العلم بالعربية لأنها لغة القرآن .

وقد قال الإمام الغزالى فى تحديد القدر الكافى للاجتهاد إنه القدر الذى يفهم به خطاب العرب وعاداتهم فى الاستعمال حتى يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله ومجازه .

٢ ــ العلم بالقرآن وأسباب نزوله وآيات الأحكام والنسخ والمنسوخ ، وقد اشترط الشافعى رحمه الله تعالى ورضى الله عنه حفظ القرآن كله واستيعاب معانيه .

٣ ــ العلم بالسنة الإسلامية : القولية والنقلية والتقريرية .

٤ ــ معرفة المسائل التى حظيت بالإجماع من العلماء السابقين .

٥ ــ معرفة القياس وأوجه طرائقه لأنه

(١) راجع حاشية البنانى جـ ٢ ص ٣٨٣ .

وسيلة الاجتهاد فى استنباط الحكم أو فى تطبيقه .

٦ ــ معرفة المناهج التى سلكها السلف الصالح .

٧ ــ معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية وإدراك الفرق بين موضع يكون أخف الضررين هو الأليق بالفتوى وبين موضع يكون فيه صيانة الحكم هى الأوفق .

٨ ــ صحة الفهم وحسن التقدير .

٩ ــ سلامة النية وسلامة الاعتقاد .

١٠ ــ أن يكون للمسألة نصيب من عرضها للاجتهاد فيها .

١١ ــ لا يكون الاجتهاد لإرضاء حاكم فى مسألة يراد زجها فى العادات والتقاليد الإسلامية .

متى يكون الاجتهاد :

١ ــ يكون الاجتهاد واجباً على العلماء الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد إذا وقعت حادثة ناشئة عن علاقات المسلمين فى مجتمعهم ولم يكن لها حكم معروف وهى مسألة يخاف فواتها .

٢ ــ ويكون كفائياً إذا كانت الحادثة لا يخاف فواتها .

٣ ــ الندب لمن شاء أن يستخرج الأحكام من قواعدها رغبة فى خدمة الدين والأمة الإسلامية .

محل الاجتهاد :

والاجتهاد بشروطه ومواصفاته له محل خاص بعيداً عن :

كل نص قطعى من القرآن أو من السنة .

وكل حكم فيه إجماع منقول عن السلف الصالح .

ومعنى ذلك أن محل الاجتهاد هو استنباط حكم المسألة المستحدثة من السلوك الإسلامى فى المجتمع الإسلامى وليس لها حكم معروف .

« قال أبو إسحق الشيرازى » :

مالا يسوغ فيه الاجتهاد على ضربين :

أحدهما ما علم من دين الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة بأن تشترك فى معرفته الخواص والعوام من غير قبول فى التشكيك كالصلاوات والزكاوات .

والثانى : كالأحكام التى تثبت بإجماع الصحابة وفقهاء الأمصار [1] .

إذن فالاجتهاد هو وسيلة استمرار الشريعة فى إصلاحها الزمان والمكان .

وهو واجب العلماء لحماية المجتمع الإسلامى عند تطبيق للاشريعة ، وحماية

---

(١) نزهة المشتاق شرح اللمع للشيرازى ص ٨٠٣/٨٠٤ .

الشريعة من الاعتداء عليها وهو خاصية هذه الأمة قال الله تعالى :

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا . (٨٣ النساء) .

ولهـــذا وجبت الحيطة والحذر فى استخراج الحكم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار » . رواه الدارمى مرسلا .

قال العلقمى : لأن المفتى موقع عن الله حكمه من حلال وحرام وصحة وفساد فإن لم يكن عالماً بما أفتى به أو تهاون فى استنباطه من الأدلة إن كان مجتهداً كان إقدامه على ذلك سبباً لدخوله النار»[١]

الإفتاء والاجتهاد :

الإفتاء نوع من الاجتهاد ولكنه أدق لأنه تحمل مسئولية تحديد الحكم لمسألة معينة بذاتها ، ولهذا شدد العلماء فى شروط المفتى وقد ذكرها الإمام أحمد بن حنبل فى خمس خصال :

— أن يكون له نية ليكون عليه نور والمراد الإخلاص لوجه الله .

— أن يكون عليه وقار وله سكينة .

— أن يكون قوياً قادراً على ما هو فيه وعلى معرفته .

— الكفاية والفقه .

— معرفة أحوال الناس .

وقد ذكر العلماء أن عمل المفتى دائر بين ثلاث مسائل :

(ا) ألا يختار قولا متهافتا فى دليله .

(ب) أن يكون حسن القصد فى كل ما يختاره .

(حـ) أن يكون فى فتواه مصلحاً لحال المسلمين وشئون دينهم .

ولهذا ألزموه :

(ا) بأن يردف القول بدليله .

(ب) وألا يتخير المذهب الأضعف .

(حـ) وألا يخرج عن المجمع عليه

(د) وألا يتبع هوى الناس .

(هـ) وأن يأخذ هو بما يفتى به فلا يبيح أشياء لنفسه دون الناس فإن فعل سقطت عدالته[٢] .

---

(١) السراج المنير شرح الجامع الصغير جـ١ ص ٥٠ .

(٢) راجع أصول لفقه فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة ص ٤٠١ .

اختيار المفتى :

يقول الله تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

والرجل العامى مكلف بأحكام الشريعة وهذا التكليف يلزمه بالتعرف على أحكامها ولهذا فقد أجمع الصحابة على إفتاء العوام وعدم تكليفهم بالاجتهاد .

غير أن العامى لا ينبغى أن يسأل من العلماء إلا من عرف بالتقوى والورع والصلاح ثم بالفقه والذكاء والعدالة وقد اختار الغزالى إلزام العامى باتباع أفضل العلماء ديناً وفهماً .

وللمفتى أن يفتى العامى بغير مذهبه إذا كان ملماً بمآخذ أحكام المذهب الآخر . لأن العامى غير ملتزم باتباع مذهب معين . إنما مذهب العامى هو مذهب مفتيه(١) .

ذلك هو مفهوم الاجتهاد : « بذل أقصى ما فى وسع العالم الورع لاستخراج الأحكام الشرعية من مصادرها الأولى القرآن والسنة أو المحافظة على تطبيق الشريعة صيانة لدين الله والمجتمع الإسلامى .

وضرورة الاجتهاد لاستمرار الشريعة الإسلامية فى أداء رسالتها تصون الناس من عبث البشر وتعطيهم فرصة العبادة الصحيحة لله ولربط سلوك المسلمين فى المستقبل بطريق السلف الصالح الذى تحمل شرف اللقاء بهذا الوحى الصادق الأمين . وإن تبعتنا اليوم لهى أخطر من كل خطر فى الوجود الإنسانى لأن حياة المسلمين إما أن تتبع الجو الربانى الذى يرضاه الله ورسوله وإما أن تتخاذل وتندهش بما للشيطان من أفانين وزينات فتنحرف عن سواء السبيل .

وإن الأمل كبير أن يكون العلماء دائماً على استعداد لإعطاء الدليل على عن أنهم علمـــاء أفضل أمة هى أمة القرآن الكريم .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . (آل عمران ١١٠) .

والله يوفق ويهدى إلى سواء السبيل والسلام .

دكتور رءوف شلبى

---

(١) أصول الفقه الخضرى بك ص ٣٨٣ / ٣٨٤ .

الدين ينتصر ..
والإلحاد ينحسر

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

فى المقال السابق قلنا بأن بداية النهضة العلمية فى أوربا قد صاحبتها موجة عارمة من الإلحاد .. ولكن أطراد التقدم العلمى قد أدّى إلى ظهور طائفة من العلماء قادتهم اكتشافاتهم العلمية إلى أن يتوطد فى نفوسهم الإيمان بوحدانية الخالق . . فتحمسوا فى مناهضة الإلحاد ، وأهابو بالناس أن يعودوا إلى حظيرة الدين ليفوزوا بالسعادة .

وليس ثمة شك فى أن الدين قد كسب جولته مع العلم . . تماماً كما تغلب من قبل على الفلسفة ، ونتائج المباراتين هنا متشابهة إلى حد كبير ، فكما انتصر الدين على الفلسفة وأخضع أساليبها الجدلية البارعة واستغلها فى البرهنة على حقيقته . . كذلك تغلب الدين على العلم واستغل حقائقه الثابتة فى البرهنة على صحته .

ولم يكن ذلك إلا لأن كلا من الدّين والفلسفة والعلم ليس إلا طريقاً للوصول إلى معرفة الحقيقة . . وإذا كان الدين يصل إليها بالوحى فإن الفلسفة تستعين بالعقل . . أما العلم فإنه يستعين بالعقل والتجربة معاً . .

ولما كان من الجائز على العقل أن يضلّ أو يعجز ، وعلى التجربة أن تخطئ أو تفسد ، فإن كلاّ من الفلسفة والعلم طريق غير مأمون لمعرفة الحقيقة ، بخلاف الدين فإن الوحى ينبع من لدن بارئ الكون ربّ السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، العالم المحيط بكل شىء . المدرك لكل شىء ، لا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . فوحيه حق لا يضلّ ولا يغوى .

وإذا تتبعنا الوسائل الاستقرائية التى ينتهجها — فى الوصول إلى النتيجة المقصودة كل من الفلسفة والعلم نجدها جدّ متشابهة ، فالعنصر العقلى فيها واضح السمات وله تأثيره وفعاليته . . غير أن الفلسفة قد

تقتصر على المسلك الحدسى وحده دون التجربة الحسية ، ولكنها وهى بصدد تمحيص هذا الحدس العقلى تلجأ فى كثير من الأحيان – بل فى معظمها – إلى التجربة المحسوسة لتنفى أو لتثبت الافتراض الذهنى . . . أما العلم فإنه بالعكس يعتمد اعتماداً كلياً على التجربة المادية الملموسة ليتوصل إلى نتيجة من ذات النوع ، ولكنه فى الوقت نفسه ينحو فى كثير من الأحيان طريق الحدس العقلى الذى يغنيه عن إجراء كثير من التجارب التى يتعذر إجراؤها أو يستحيل بسبب قصور الامكانيات البشرية . . وقد بنيت نظرية النسبية على اثنى عشر فرضاً عقلياً لم تجر لإثباتها تجربة مادية واحدة . . . فجاءت نتائجها كالنتائج الفلسفية بالطريق العقلى المحض . .

ومع ذلك ؛ فإنه لما توفرت للإنسان الإمكانيات المادية ؛ أمكن تطبيق هذه النظرية تطبيقاً عملياً ، وبذلك أسلمت له الطاقة الذرية زمامها » . . . ومن هذا التشابه العريض بين العلم والفلسفة يمكن أن نعتبرهما طرفاً واحداً فى مجال المقارنة بالدين . . .

وفى الأيام الأخيرة ظهرت أبحاث كثيرة تعالج العلاقة بين الدين والعلم ، ولكنها فى جملتها قد ركزت اهتمامها على لوم كل من رجل الدين والعالم لاتخاذ كل منهما موقفاً معادياً من الجهة الأخرى .

ولما كان من غير الجائز أن نحل المشكلة باختيار أيهما وأن نتغاضى عن الثانى وننصرف عنه ، تعين علينا أن نجمع بين الاثنين وأن نوفق بينهما . . . وأتباع الأديان السماوية الثلاث السائدة الآن : من مسلمين ومسيحيين ويهود يقفون على قدم المساواة نفس الموقف إزاء هذه المشكلة . . . وهم فى معالجتهم لها يجب أن يضعوا فى اعتبارهم أن الطرق العلمية والدينية للوصول إلى الحقيقة ليست أصالة متعارضة . . فكل من الدين والعلم يعالجان حقيقة واحدة ، غير أنهما يمثلان نواحى مختلفة . . لأنهما يواجهانها من طرق مختلفة . . وفى مجالات مختلفة . . . والمعالجة الدينية للحقيقة تهدف على الدوام إلى سعادة البشر . . أما العلم فإنه لا يبغى سوى محض المعرفة .

والإيمان الدينى يقوم فى بعض نواحيه على مدركات مخالفة لتلك التى تؤلف مادة العلم الطبيعى . . فالتجارب الداخلية الروحية التى تجىء من طريقها البصيرة الدينية ، وكذلك الانفعالات الداخلية التى تؤجج الشعور الدينى . . لا يمكن

قياسها أو إخضاعها لضوابط رياضية ، أو وضعها موضع الاختبار فى معمل . . وإنما أقصى ما يستطيعه العلم هنا باستقرائه وضوابطه أن يصف الشعور الدينى والانفعال الدينى ، وأن يحدد أشكال التجربة الدينية . . لا يزيد بإمكانياته المادية المحدودة عن ذلك شيئاً .

فالعلم إذن يستطيع أن يصف أشكال التجربة الدينية ، ولكنه لا يستطيع أن يحكم على قيمة مادتها . . فالعلم يصف الخطوات السيكلوجية أما الإيمان فيفسرها بالعلاقة بين الإنسان وخالقه . . وذلك التفسير لا يمكن أن يحكم بصحته أو بطلانه عن طريق الاختبار فى المعمل . . وإلى هنا تعجز الإمكانيات العلمية عن الخوض فى حقيقة الاعتقاد الدينى والإيمان بوجود الله . . . ومن قبل قد ضلت الفلسفة وتاهت فى هذه المسالك الوعرة . .

والذى يجعل النفس المخلصة ترتضى الحقيقة الدينية وترتاح إلى الإيمان بوجود الله إنما هو الطريق الذى رسمه الدين .. فالدين هو الذى يدعونا إلى أن نرى آثار الله بالتأمل فى الطبيعة وفى الحياة الإنسانية . . أن نرى ذات الصانع من خلال صنعته ، وأن نعنو له الوجوه ، ونسلس له القياد .

والقــرآن دائم التقريع للناس لأنهم لا يرون آثار الله فى التجــارب اليومية العامة . . كتعاقب الليل والنهار والشمس والقمر والحياة والموت والنبات والمطر . . وأى تجربة سواء منها الروحية المحضة أو المادية المحضة تصبح تجــربة دينية حينما يرى الاعتقاد فيها معنى دينيًّا . .

والاعتقاد الدينى يفسر التجارب كلها فى لغة المغزى والعلة الغائية .. وهما خارجان عن ميدان العلم الطبيعى . . وتفسير الدين للتجارب على هذا النحو لا يجعله ملزماً إذا تعرض للمسائل المادية أو الظواهر الكونية — لكى يستخلص منها مغزى أخلاقيًّا أو معنى له صلة بالألوهية — أن يتعمق فى وصف الماديات أو الكونيات إلا بالقدْر الذى تستسيغه عقول الناس فى وقت توجيه الخطاب . . وقد قال رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » .

فإذا كان الإصحاح الأول من سفر التكوين فى التوراة قد تحدث عن خلق الله للكون فى ستة أيام فإن هذا لا يعد مطلقاً مناقضاً لما استقر عليه العلم من أن الكون قد مرت عليه فترة طويلة من الزمان — لا تقدر بأقل من آلاف الملايين من السنين — حتى

تم استواء خلقه . . وصحيح أنه قد جاء فى القرآن الكريم : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ، (كما جاء أيضاً : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . . ولكن فترة تكامل الكون لا يمكن أن تضغط فى ستة آلاف سنة أو ستة ملايين من السنين .

والخطاب الإلهى لا يعنى فى وقت توجيهه إلا بالمغزى وبالقدر الذى تطيقه عقول الناس . . فالمغزى الدينى لهذا ليس فى أن الله خلق العالم فى ستة أيام وإنما ينحصر فى أن الله خلق العالم . . فالعالم ليس نتيجة مصادفة محضة أو قوى مختلطة عمياء — وهى التى يسمونها بالقوانين الكونية — بل إنه من صنع الله . . والمغزى الدينى فى أن يوم الله كألف سنة من سنواتنا ليس فى أن الأمر كذلك . . بل فى مطلق الاختلاف بين التقديرين : الإلهى والبشرى للكم الزمنى . .

وهذا النص القرآنى على بساطته قد أفحم الكثير من الملحدين الذين حاولوا أن يستغلوا نظرية العلم عن طريقة نشأة الكون ومدة تكامله فى تكذيب الكتب السماوية والارتكاز على هذا التكذيب كمقدمة منطقية فى البرهان على بطلان الدين ، كما أن العلم نفسه أثبت أن القدر الزمنى لليوم يختلف من كوكب إلى آخر فى المجموعة الشمسية الواحدة . .

وقد وردت قصة خلق الكون فى الإطار الذى كانت تفهمه وتستسيغه عقول البشر إبان الوحى بها . . ولو أوردتهما الكتب السماوية آنذاك على النحو الذى يحاول العلم أن يفصله لضاع المغزى المقصود وسط تفاصيل كان ولا بد أن يعد بسطها فى ذلك الوقت من قبيل العبث أو المهزلة .

ومن هنا يتعين على رجل العلم أن ينظر إلى النصوص السماوية بعين الإنصاف لا التطاول . . فالصورة التى يتشكل بها المضمون الدينى فى آيات الوحى يتحكم فيها الإدراك البشرى والآراء العامة السائدة عن الدنيا فى الوقت والمكان اللذين ينزل الوحى فيهما . وهذه لا يمكن أبداً أن تكون دقيقة أو كافية ، ولهذا يجب دائماً أن ينظر فى الوحى إلى المضمون دون الصورة التى يجب دائماً أن تعتبر رمزاً أو مجازاً .. ولا حاجة أبداً أن تصحح فيما بعد . . لأنها بهذا الاعتبار فى — وقت الوحى بها — قد أدت مهمتها فى التعبير عن حقيقة دينية هامة . . وبهذا الاعتبار أيضاً تظل صالحة لأداء هذه

المهمة فى كل الأوقات والظروف . .

ولو أن الصورة التى عبرت بها التوراة عن خلق الكون جاءت فى قالب من تصورات العلم الحديث عن الكون ما كان لها معنى عند القوم الذين نزلت عليهم بل لم يكن من الممكن إطلاقاً أن يعبر عنها بلغتهم آنذاك . . . فضلا عن أنها كانت ستحتاج بالضرورة فيما بعد إلى تعديل بعد تعديل لأن مبلغ علمنا عن الكون لم يأتنا دفعة واحدة ولم يتكامل بعد . . وربما ظلت المعرفة الإنسانية إزاء هذا الموضوع على الدوام غير كاملة ولا نهائية . . .

والخلاصة أنه يتعين على أهل العلم أن لا يتعدوا مجال اختصاصهم فى البحث التجريبى بين ربوع المادة الكائنة ، وبالوسائل الحسية والإمكانيات الإنسانية . . . تلك الوسائل والإمكانيات التى هم أول المعترفين بأنها محدودة وقاصرة . . . فإذا ما حاولوا أن ينظروا إلى ما هو أبعد فليكن بهدى البصيرة والعقل . .

وقد رسم الدين لذلك طريقاً مأموناً لا ضلال فيه ولا انحراف ولا زيغ . .

الكون قائم بأجرامه وفراغه يجرى على امتداد الزمن وفق نظام وقواعد ثابتة . . . كينونته كانت بعد أن لم تكن . . . وقد بدأت على أية كيفية ، وليكن بدء الوجود بذرة « الأيدروجين » كما يقول العلم . . تلك الذرة التى تكونت منها السدم ثم الكواكب ثم الأقمار ، وانتظم فيها الكون جميعه . . فمن هو الموجد لنقطة البداية ؟؟ ذرة الأيدروجين تلك . . . ؟ من الذى طوّرها حتى أصبحت كوناً ضخماً جباراً بما فيه من عوالم تحتوى على مجرات وكواكب وأقمار تشمل مواد مشتعلة وخامدة وجمادات ونباتات وأحياء ؟ ؟

إن التجربة العلمية هنا تقف عاجزة عن أن تساهم فى الرد على هذا السؤال سوى أن تقرر أن كل موجود لا بد له من موجد ، وكل كائن لا بد له من صانع . . . أما حقيقة هذا الصانع الموجود فإن الوحى وحده هو الكفيل بإيضاحها على النحـــو الذى تطيقه عقولنا ، وحسبنا أنه كلما اتسعت معارفنا عن الكون وعمقت بدا لنا عمل الله فى الخلق أبدع وأروع صنعاً .

وخلف هذه الحقيقة العظمى تقبع مجالات أخرى تصاب الأداة العلمية بالفشل أن هى جرؤت على الخوض فيها . .

ومن هذه المجالات الـــروح : ماهيتها ودوامها أو فناؤها « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . »

ومنها الغيبيـــات كالبعث والحشر والحساب والجنة والنار والجن والملائكة ، فهذه القضايا تخرج عن نطاق العلم الطبيعى الذى يقصر نفسه على بحث الظواهر الكونية الملحوظة أو القابلة للملاحظة .

ولقد حاول العلماء فى الآونة الأخيرة البحث فى موضوع البعث والحياة الأخرى ففشلوا . . لأن نتائج أبحاثهم لم تتعد القول بالإمكان وعدمه ، وكل ما توصلوا اليه أنهم قالوا . بأنه لم يكتشف فى الوجود أى شيء يؤيد الاعتقاد فى حياة شخصية أخرى بعد موت الجسم . وانحلاله . . .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه فى الكثير مما اكتشف عن طبيعة الشخصية وعن العلاقة بين العقل والجسم وعدم فناء مادة الجسم فناء مطلقاً ما يثير احتمالات تتعلق بإمكان الحياة المستقبلة . .

وهذه صورة من صور فشل العلم إذا تعدى مجالاته وتطاول على ما تقصر دونه إمكانياته . . فتبقى المسألة على حالها مسألة اعتقاد وإيمان ، للدين وحده فيها كلمة الفصل والقرار الوحيد .

وموضوع البعث والحياة الأخرى وما فيها من حساب وجزاء يشير إلى نواح مهمة من موضوع العلاقة بين الدين والعلم قد يتيح بحثها طرقاً مجدية فى مسألة التوفيق بينهما . . وإذا رجعنا إلى ما قلنا من أن كلا من الدين والعلم طريق للبحث عن الحقيقـــة فيمكننا هنا أن نقول بأن الدين لا يعنى فقط بالبحث عن الحقيقة بل يعنى بالعمل أيضاً ، وبأهدافه النهائية . . وما استشهدنا به فى مقالنا السابق من قول الـــبرت أينشتاين عن « أن العلم يخبرنا بما هو كائن أما الوحى وحده فهو الذى يهدينا إلى ما يجب أن يكون » يوضح هذا المفهوم لمهمة كل منهما .

وقد يستطيع العلم أن يخبرنا عن ماهية الإنسان . . وكيف نشأ ؟ . وكيف تطور . . وكيف أصبح على ما هو عليه ؟؟ ولكن الدين وحده هو الذى يخبرنا لم يعيش الإنسان . وعلى أى نمط يجب أن تكون معيشته ؟ وإلى أية غاية يجب أن تكون حياته ؟ . وليس هذا إلا جوهر الدين فى الإسلام ويتحقق بعض هذا الجوهر فى المسيحية

واليهودية على حد سواء . .

إذن الدين ليس مجرد إيمان واعتقاد، ولكنه أيضاً تسليم واعتراف بسلطان الله علينا ، وخضوعنا لإرادته ومشيئته، وطاعتنا لحكمته . . أى أنه اعتقاد وعمل حسب إرادة الله .

غير أن العلم أيضاً قد يوضح أمامنا طريق العمل فهو حين يخبرنا عن ما هية الطبيعة ونظمها وقوانينها يرينا كيف نخضعها لتصريفنا ونستخدمها فى أغراضنا . . ويوضح لنا طريق استغلالها لتحقيق مآربنا ، وكيفية الانتفاع بها على أى وجه نريده .

وهنا يمكن أن نستخدم العلم — كما هو حاصل فعلا — لأغراض بعضها حسن وبعضها قبيح . . للخير أو للشر . « وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » (سورة الحديد ٢٥) . . .

وهنا تبدو إمكانية اتفاق العلم والدين فى شركة قد تؤدى إلى خير كثير يخدم الغاية المشتركة بينهما فى إسعاد البشر حين تستخدم القوة الهائلة التى يعطينا إياها العلم فى الأغراض التى يحددها الدين . . . وهنا يكون العلم والدين قد عملا معاً لسعادة الإنسان وفى خدمة الله . . .

ومن الواضح أنه ليس هناك شىء لا دينى فى تزايد سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة . والقرآن ملىء بالآيات التى تحض على استخدام كل ما فى ملكوت الله فى كل ما ينفع الناس فى غير معصية أو نكران لنعم الله . « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (سورة يونس ٥) . . . « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» (سورة الزخرف ١٢ ، ١٣) .

والمغزى الدينى لهذه الآيات وأمثالها يشمل ما توصلنا إليه بالعلم من مخترعات حديثة كقطارات الإكسبريس والبواخر والطائرات . . بل وحتى الصواريخ إذا أمكن الانتفاع بها كوسيلة للسفر والانتقال . .

هذه بعض من طرق التوفيق بين الدين والعلم، وستستقيم الأمور إذا عرف العلماء مدى المجالات التى يمكن أن يزاولوا فيها نشاطهم ، وأن يسلموا بحقائق الدين التى لا تخضع لهم أو تقصر دونها مقاييسهم ،

ما دامت قد جاءت عن طريق وحى الله مؤيدة بدليل صحتها إلى رسول أو نبى ثبت صدقه بالمعجزة . . .

والمعجزة تثير مصدراً آخر من مصادر الاحتكاك بين الدين والعلم ، وشبيه بذلك استجابة الله لدعاء العبد الصالح وتحقيق ما يسمى بالكرامة . . وكل من المعجزة والكرامة حصول أمر خارق للعادة يحققه الله حسب رغبة النبى أو الولى ، فكيف يتفق هذا مع النظم والقواعد الثابتة لدوران الكون والعلماء لا يعترفون بتوقف هذه النظم أو تبدلها . . ولكنهم أيضاً يعترفون بالمصادفة . . . وتضيق شقه الخلاف حين يجزم الدين بأن استجابة الله لنبيه أو وليه بتحقيق المعجزة أو الكرامة إنما ينحصر فى دائرة الممكن حصوله أو عدمه ، ولا تتحقق المعجزة أو الكرامة بإيجاد مستحيل الوجود أو إفناء واجب الوجود . . .

وقد فصل علماء الكلام من المسلمين القول فى هذه المسألة وأفاضوا فى البحث عن السببية والمسببية وذهبوا فى ذلك طرائق قددا ، وقد أنكر الأشاعرة القول باطراد القوانين الطبيعية والأسباب الثانوية إذ أن كل ذلك يقع فى دائرة « الجائز » ولا يتعداه . . . وكثير من علماء الطبيعة يؤكد أنه لايوجد فى الكون وراء الاحتمال الإحصائى اطراد يمكن التنبؤ به .

وبدون أن نخوض فى تفصيلات هذا الموضوع وما انتحاه أهل السنة من المتكلمين فى تقسيم كل من « الواجب » و « المستحيل » إلى قسمين عقلا وعادة ، فالواجب والمستحيل عادة هما فى الواقع من نصيب « الجائز» ولكنهما أخذا صفة الوجوب أو الاستحالة من الاطراد الدائم . وهو القواعد الثابتة التى يسيِّر بها الله الكون . . فإشعاع الشمس للضوء والحرارة من قبيل « الجائز» حصولاً أو عدماً ولكنه عند أهل السنة أيضاً واجب عادة لأن الله أراد هذا لطبيعة الشمس : فكان الأشعاع قانوناً ثابتاً لها . . . ومن ثم أخذ صفة الوجوب لاطراده فى العادة . .

وكذلك انطفاؤها من قبيل « الجائز» ولكنه عند أهل السنة أيضاً مستحيل عادة لانه يخالف طبيعة الشمس ونظامها . . . والمعجزة والكرامة عندهم جائزة الحصول فى الممكن العقلى ومن ضمنه الواجب والمستحيل عادة » أى

أن الأمر الخارق للعادة يمكن أن يقع لأنه فى الأصل من قبيل «الجائز» حصولا أو عدماً .

وعلى أية حال فاننا بدون أن نتقيد بفكرة رفض الأسباب الثانوية أو الاعتراف بها نستطيع أن نرى الحقيقة الجوهرية فيما نلاحظه من التوافق الدائم فى عمليات الطبيعة . . ذلك التوافق الذى يعكس عادة الله وطرقه المطردة ضمن تأثير قدرته العليا . . وفى نفس الوقت لا بد وأن نسلم بأنه من المستحيل أن يخضع الله لقوانين وراء قوته وإرادته . .

وإذا كنا حتى الآن قد ألمعنا إلى اختصاص العلم بمجالات محددة — لا يتعداها . . وليس من بينها البحث فى عقائد الدين أو حقائقه . . فإن من اختصاصات العلم أيضاً أنه يستطيع أن يخضع الدين لتجاربه وطرقه الاستقرائية لا من الناحية . العقائدية بل من خلال الإنسان نفسه . فالظاهرة الدينية فى الإنسان — أو العنصر الإنسانى فى الدين — يمكن للعلم بحثها من عدة جوانب إن لم يكن من جميع وجوهها . . . وأخص ناحية فى الظاهرة الدينية لدى الأنسان هى الانفعالات الدينية . ودوافعها فى داخل الإنسان ذاته ، وهذه أمكن بحثها واخضاعها للتجارب السيكلوجية . . أما أشكال الظواهر الدينية ، واتفاق مظاهرها واختلافها ، وتداخلها وأصول انبعاثها ، فقد تكفل بإيضاحها علم مقابلة الأديان وتطور . . هذه الإشكال وتباينهما على مر الأزمان ، واختلاف الأمكنة وتأثر الحوادث بها فتبيان ذلك يمكن أن يتدخل فيه التاريخ . . فإذا أردنا فهم صلاحية الدين للتأثير فى البنيان الاجتماعى قوة وضعفاً كان مجال ذلك علم الاجتماع . . وبهذا الاعتبار يميل كثير من مؤلفى هذا العصر إلى النظر فى الدين من وجهتين : أطلقوا على الأولى الناحية الاعتقادية وهذه لا دخل للعلم فيها بل أمرها متروك للبصيرة الفردية Intuition والإلهام الشخصى Inspiration المؤديان للإيمان الجازم . . . وأطلقوا على الثانية الناحية العلمية : وتلك هى التى أمكن بحثها باعتباراتها المختلفة فى كل من علوم النفس ومقابلة الأديان والتاريخ والاجتماع . . .

زاهر عزب الزغبى

أول قراض فى الإسلام

روى مالك فى الموطأ أن عبد الله وعبيد الله ابنى عمر أمير المؤمنين خرجا فى جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى وهو أمير البصرة ، فرحب بهما وسهل ثم قال :

لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به .

ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمـــير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح .

فقالا : وددنا ذلك .

ففعل : وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا ، فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أكل الجيش أسلفه ؟

قالا : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه .

فقال عمر : أديا .

فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله .

فقال أحد جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا

فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وجعلهما فى بيت المال وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال . قالوا : وهو أول قراض فى الإسلام .

محور المرأة

كانت المرأة عندهم كمتاع يقتنى، وسلعة يستكثر منها، ولا يهم الرجل بعد ذلك ما يصيب الأسرة من تفكك وانهيار، ولا ما يترتب على تعدد الزوجات من عداوة وبغضاء بين النساء وبين الأبناء، حتى تصبح الأسر حرباً على نفسها، ومصدر نزاع وعداوة بين أفرادها . . .

وكان الزوج لا يعنيه الأمر سواء عدل بين أزواجه أو جار، سوى بينهن فى الحقوق أو مال، فكانت حقوق الزوجات مهضومة، ونفوسهن ثائرة، وقلوبهم . متنافرة .

وناهيك بالآثار السيئة التى تصيب الأسرة فتقوض أركانها وتشيع بينهما العداوة والبغضاء والتنابذ والشحناء من جراء هذه الفوضى العائلية .

وليت الأمر كان قاصراً على تعدد الزوجات إلى غير حد فى أبشع الصور وأوخم العواقب بل كان الرجل منهم إذا قابل آخر معه ظعينته . « أى امرأة فى الهودج » هجم عليه فتقاتلا بسيوفهما فإن غلبه أخذ منه ظعينته واستحلها لنفسه ظلماً وعدواناً .

ويكفى لكى نذلل على بؤس المرأة العربية وسوء حالها قبل الدعوة المحمدية أن نسجل أمرين : أولهما : وأد البنات خشية الفقر أو العار... وثانيهما: حرمان المرأة من أن ترث الرجل بعد وفاته ...

وجاءت الدعوة المحمدية فحررت المرأة من فوضى الجاهلية وأخرجتها من الظلمات إلى — النور . ومنحتها كافة حقوقها، وأعادت إليها حرياتها كاملة غير منقوصة .

وقد اعترف المستشرق الفرنسى . « أندريه سرفيه » بفضل هذا الرسول فى كتابه « الإسلام ونفسية المسلمين » فقال :

« لا يتحدث هذا النبى عن المرأة إلا فى لطف وأدب . . كان يجتهد دائماً فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها، وكأنهم مال أو رقيق . وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع فحرر

المرأة وأعطاها حق الأرث .

ثم ختم كلمته قائلا :

« لقد حرر محمد المرأة العربية ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بها فليقرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خيراً وليقرأ أحاديثه المتباينة »

وما أصدق هذا القول :

وما أكثر دفاع النبي عن المرأة وحقوقها !

ألم يقل فى خطبته التى قالها فى حجة الوداع :

« إن لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهن حقاً : لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحد تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن — انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن ، وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً . أليس هو القائل :

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وخياركم خياركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى . . وما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » .

أليس هو القائل أيضاً :

« يا بنى إذا دخلت على أهلك فسلم ، وليكن سلامك بركة عليك وعلى أهلك .. وعن ابن عباس : إنى لأتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى » .

ولها رأيها فى تزويجها وليس لوليها أن يعدو إذنها ويقصرها على من لا تريد إن كانت رشيدة . وعن عائشة رضى الله عنها : أن فتاة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أبى زوجنى من ابن أخيه يرفع فى خسيسته وأنا كارهة . فأرسل النبى إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها. فقالت : يارسول الله إنى قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء » ..

ومن أعجب المصادفات أن يجتمع « ماكون » فى زمن النبى أى فى سنة ٥٨٦ ميلادية لبحث : هل المرأة إنسان ؟ وبعد بحث ومناقشة وجدل قرر : أنها إنسان ولكن خلقت لخدمة الرجل وحده . . . ولم يكد يصدر هذا القرار الجائر فى أوربا حتى نقضه محمد صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب إذ رفع صوته قائلا :

(إنما النساء شقائق الرجال)

بل قال للرجال :

ألستم حريصين على دخول الجنة ؟ هذه الجنة التى تحرصون عليها هى تحت أقدام الأمهات وكل امرأة أم . .

وبذلك علم العالم أجمع أن المرأة إنسان مهذب ، له من الحقوق ما للرجال ، من حقرق فى وقت كانت فيه أوروبا تنظر إلى المرأة نظرة سخرية واحتقار .

وفى القرن السابع الميلادى عقد مؤتمر عام فى روما ليبحث فيه المجتمعون شئون المرأة فقرروا أنها كائن لا نفس له . . وعلى هذا فليس لها الحق فى أن ترث الحياة الآخرة . .

ووصفها هذا المؤتمر أيضاً : بأنها رجس كبير وحرم عليها ألا تأكل اللحم وألا تضحك وألا تتكلم . . ونادى بعضهم بوضع أقفال على فمها .

وفى هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور وتحتل مكانتها الرفيعة فى المجتمع العربى وتقف — بجانب الرجال فى معترك القتال . .

لقد قالت الربيع بنت معوذ :

« كنا نغزو مع رسول الله ونسقى القوم ونخدمهم ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة . .

وعن أم عطية الأنصارية قالت :

« غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهن وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى . .

وعن أنس قال :

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة معها يسقين الماء ويداوين الجرحى .

فمن بعد هذا كله يكابر ولا يعترف لهذا النبى العظيم بأنه أول من نادى بتحرير المرأة ؟!

ومن هنا — بعد هذا كله — لا يعد هذا النبى الكريم منقذ المرأة من الذل والطغيان والعبودية .

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف (أندريه) نبينا الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها ؟!

ألا يحق بعد هذا كله أن يصفه بأنه نصير المرأة ؟!

ألا يحق بعد هذا كله لمسيو (ريفيل) أن يقول بدوره :

(إننا لو رجعنا إلى زمن هذا النبى لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول ، فالنساء مدينات لنبيهن بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس . .)

وهذا أيضاً هو ما دفع العالم الألمانى (دريسمان) أن يسجل قوله :

(لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة السبب فى نهوض العرب وقيام مدنيتهم . . وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحريتها كان ذلك من عوامل ضعفهم واضمحلال قوتهم .

وقد كتبت جريدة المونيتور الفرنسية تصور احترام الإسلام ونبيه للمرأة فتقول :

« لقد أجرى الإسلام ونبيه تغييراً شاملا فى حياة المرأة فى المجتمع الإسلامى . . فمنحها حقوقاً واسعة تفوق فى جوهرها الحقوق التى منحناها للمرأة الفرنسية . . . أما تعدد الزوجات فقد أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه . . ويخف انتشار هذه الظاهرة يوماً بعد يوم . . . ويجب علينا أن نلفت الأنظار إلى شرط موجود عند المسلمين ، وهو أن من حق المرأة أن تشترط على زوجها فى عقد زواجها عدم الزواج بأخرى ، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته فى حل من أمرها ...

أما الكونت (هنرى دى كاسترى) فقد تناول عقد الزواج عند المسلمين فقال :

« إن عقد الزواج عند المسلمين عقد يخول للمرأة حقوقاً أدبية وحقوقاً مادية من شأنها إعلاء منزلة المرأة فى الهيئة الاجتماعية ، فلها أن تشترط على زوجها عدم التزوج بغيرها أو غير ذلك من الشروط ، فإن لم يف بهذه الشروط جاز للمرأة أن تطلب الطلاق .

ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نصف هذا النبى الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها ؟ !

فى الصدق

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » . وقال : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » .

زعيم الأنصار بين الاختيار والاختبار

الأستاذ / السيد حسن قرون

لا مناص من الحديث عن نسب الأنصار لنمهد به للحديث عن زعيم الأنصار سعد بن عبادة فالنسب له أثر كبير فى حياته ، وهو عند العرب له وزنه وشأنه ، وفى القرآن الكريم (اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) إذ ترى العرب تقول : اتق الله والرَّحم الذى بينى وبينك ، أو أسألك بالله وبالرحم ، ونحن اليوم نعنى بالنسب حين نتعرض لحياة علم من الأعلام ، سواء أكان ذلك فى عالم السياسة والحرب أم فى عالم العلم والأدب؟ فللنسب والبيئة آثارهما الكبيرة فى حياة الإنسان أنَّى كان وجوده فى أى زمان بهما يرتفع إلى القمة أو ينحدر إلى الحضيض وسعد بن عبادة رجل من الخزرج وإذا ذكر الخزرج ذكر الأوس، فهما أخوان صارا قبيلتين يسكنان يثرب ، تصفو الحياة لهم حينا وتتكدر فى كثير من الأحايين ويسكن مع القبيلتين جماعة من اليهود ولا تحلو الحياة لهم إلا بالحروب التى تشن بينهما .

وما رأيت مؤرخاً أو دارساً أو كاتباً للسيرة النبوية أغضى عن نسب الأوس والخزرج ، وهو نسب عريق يعتز به صاحبه ، ويعترف به معاديه ، وقد أراد الله الخير للدعوة الإسلامية بانتقالها من مكة إلى يثرب لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى عز ومنعة بين قومه ولا يصلح لدعوته إلا عز ومنعة فى قوم ورثوا حلقة الحرب كابراً عن كابر وهم الأنصار ، ومن ثم نجد محمد بن سعد كاتب الواقدى حين أرخ للبدريين من الأنصار كانت ديباجته لتاريخهم : وشهد بدراً من الأنصار ، وهم ولد الأوس والخزرج ابنا حارثة وهو — (العنقاء) بن عمرو (مزيقياء) بن عامر وهو (ماء السماء) بن حارثه وهو (الغطريف) بن امرئ القيس بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد . . . ينتهى النسب إلى كهلان بن سبأ ، وسبأ من قحطان ، وإلى قحطان جماع اليمن . وأُمُّ الأوس الخزرج (قَيْلَةَ) بنت كاهل بن عذرة وينتهى النسب إلى

قضاعة وقضاعة من حمير ، وحمير من قحطان ، تقول العرب : الأوس والخزرج أبناء قيلة والنسب إليها شرف الشريف وفخر الفاخر ، لأن نساء (أسلم بن الحاف بن قضاعة) كن ذائعات الصيت فى إنجاب النجباء ولهن السيادة فى بيوتهن ، والقوامة البارعة فى تنشئة الأبناء ، ترى هذا فى الأوس والخزرج كما تراه فى بنى إلياس بن مضر حيث عرفوا بأنهم (خِنْدف) وهى من ولد أسلم بن الحاف بن قضاعة ، ومن أبنائها (مدركة) وهو فى عمود نسب النبى صلى الله عليه وسلم .

وعمرو بن عامر جد الأوس والخزرج هو الذى قاد أبناءه وأحفاده إلى الشمال إبان هدم (سدّ مأرب) فنزل الأوس والخزرج يثْرب ، ونزل آل جفنة ابن عمرو بن عامر الشام ، فالأوس والخزرج يجمعهم فى النسب عمرو بن عامر فهم أبناء (ابن ماء السماء) ومن هنا فخر حسان بن ثابت بالنسب والمكان ، فقال :

إما سألتِ فإنا معشر نجب
الأسدُ نسبتنا والماء غسانُ

فى هذا النسب العتيق العريق وفى يثرب ولد سعد بن عبادة ابن دُلَيْم من بنى ساعدة ، فنشأ نشأة كريمة فيها ثراء ونجابة ، وسخاء ونجدة ، وقد سقت إليك هذا النسب بإيجاز غير مخل لأنتقل بك إلى أن هذا النسب الكريم تركه سعد وتركه قومه من الخزرج وإخوتهم من الأوس ، واستعاضوا عنه نسباً أوجده الإسلام وسجله القرآن ، فصار النسب (الأنصار) أنصار محمد صلى الله عليه وسلم وأنصار الإسلام فمنذ التقوا بالرسول وبايعوه بيعة العقبة الأخيرة ، وطلبوا إليه أن يهاجر إليهم وهذا النسب لاصق بهم دال عليهم ، وأنا لا أقول هذا استنتاجاً ولكن أقول واقعاً والحادثة الآتية دليل الواقع وترجمانه (١)

حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبى سفيان ، فخرج إليهم حاجبه (سعد بن أبى بردة) فقالوا له : استأذن للأنصار ، فدخل — وعند معاوية عمرو ابن العاص — فاستأذن لهم ؟ فقال عمرو لمعاوية : ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين الذى جعلوه نسباً ؟ اردد القوم إلى أنسابهم ! فقال له معاوية : إنى أخاف من ذلك الشناعة ! فقال عمرو : هى كلمة تقولها إن مضت غضتهم ونقصتهم وإلا فهذا الاسم راجع إليهم ! فقال معاوية لحاجبه : اخرج إليهم فقل : مَنْ كان هنا من ولد عمرو بن عامر

(١) الأغانى — أخبار النعمان بن بشير .

فليدخل ؟ فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار . فنظر معاوية إلى عمرو نظر منكر ! فقال عمرو : باعدت جدا — يريد أنه ذهب بالنسب إلى الجد البعيد — فقال معاوية : اخرج فقل : من كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ؟ فخرج فقالها ، فلم يدخل أحد . فقال معاوية : اخرج فقل : من كان هنا من الأنصار فليدخل ، فخرج فقالها ، فدخلوا يقدمهم النعمان ابن بشير الأنصارى ، وهو يقول :

يا سعد لا تُعِد[1] الدعاء فما لنا
نسبٌ نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا
أثْقِل به نسبا على الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم
يوم (القُليب) هم وقود النار

فقال معاوية : قد كنا أغنياء عن هذا !

ونعود إلى سعد بن عبادة لنعيش معه حياته ، ونبحث عن مولده فلا نجد فى الكتب شيئاً يعين سنة ميلاده ، دع عنك اليوم والشهر ، فقد كان التاريخ غائباً عن الحجاز حين ولد ، ولم يشر إليه إلا حين دب الإسلام فى ربوع يثرب وسماها المدينة المنورة ، هنا عرف سعد بإسلامه ، وسعيه فى لقاء نبىّ الرحمة مع إخوانه من المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله ، فخرج مع الوفد الذى حددت أفراده فى أظهر الروايات باثنين وسبعين رجلا وامرأتين آمّين البيت الحرام مع قومهم ، وكانوا زهاء خمسمائة نسمة ، اندسوا بينهم ولم يظهروا نيتهم ، وفى مِنًى ترقب التاريخ حركة هؤلاء المؤمنين ، فوجدهم يتسللون ليلا إلى العقبة ، ثم لما تم جمعهم وافاهم رجلان أحدهما ربعة فى الرجال والآخر طويل القامة ، والأول رسول الله صلى عليه وسلم ، والآخر عمه العباس ، وسجل التاريخ معاهدة بين الرسول وهؤلاء المؤمنين الذين سموا الأنصار ، واختار الرسول من بينهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة منهم من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وكان سعد ممن وقع عليه الاختيار .

ويروى محمد بن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) فى هذا الصدد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً ، فلا يجدن منكم أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل . فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى ؟ قالوا : نعم ... ومعنى هذا : أن سعد بن

(١) لا تعد : لا تكرر النداء .

عبادة اختير نقيباً بوحى السماء .

وتعرض سعد بن عبادة لأذى قريش فى اليوم الثانى للبيعة ، فقد أحس الكفار بهؤلاء الذين بايعوا وعاهدوا ، وأحس الذين بايعوا وعاهدوا بتنبه الكفار لهم ، فعجلوا الرحيل ، ولكن الكفار خرجوا فى طلبهم ، فأدركوا سعدا بأذاخر ، والمنذر بن عمرو ، وكلاهما من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيباً ؛ فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فقبضوا عليه وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله — وهو الشراك الذى يشد به الرحل — ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة ، يضربونه ، ويجذبونه بجمته وكان ذا شعر كثير .. يقول سعد : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىّ نفر من قريش فيهم رجل وضىء أبيض شعشاع [1] حلو من الرجال ، فقلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا ! فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة ! فقلت فى نفسى : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى لى رجل ممن كان معهم ، فقال : ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى ابن نوفل بن عبد مناف تجارة وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما ؟ قال سعد : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة .. وبقية الخبر : أن الرجلين أسرعا إليه فخلصاه من أيديهم فانطلق ، والذى لكمه (سهيل بن عمرو العامرى) والذى أوى إليه وأرشده (أبو البخترى بن هشام) من بنى عبد العزى بن قصى فسعد بن عبادة كتب عليه الجهاد بمجرد أن تابع وبايع . ولم يفت شاعر قريش (ضرار بن الخطاب الفهرى) أن يسجل ما وقع لسعد ، فقال :

تداركت سعدا عنوة فأخذته
وكان شفاء لو تداركت منذراً
ولو نلته طُلّتْ هناك جراحه
وكان حرياً أن يهان ويُهْدَرا

وائتمرت الأنصار حين تفقدوا سعد ابن عبادة أن يكروا إليه ، فإذا سعد قد طلع عليهم ، وما درت قريش أن سعدا سيكون لها بالمرصاد !؟

من هذا الخبر ، نعلم أن سعدا ذو جمة

---
(١) شعشاع طويل .

وشعر كثير ، ولكنا بعد ذلك لا نعرف شيئاً عن صفاته الجسمية ، وقد يكون ضعيف الجسم لما سنذكره بعدُ ، لكن الكتب التى بين أيدينا تذكر سجاياه وما تحلى به من خلال جميلة ؛ فقد كان يكتب فى الجاهلية ، وتلك ميزة فذة فى أمة أمية ، وكان يحسن العوم والرمى ، وكان من يحسن ذلك يسمى (الكامل) ، فهو إذن رجل كامل ، وكان سخياً مثل أجداده والسخىّ بالمال سخى بالروح فهو إذن شجاع ، ويذكرون عن كرمه وكرم أجداده : أنه كان ينادى على أُطمهم — أى منزلهم — : من أحب الشحم واللحم فليأت أطم (دليم بن حارثة) وكان سعد يفعل ذلك مثل جده فى الجاهلية والإسلام ، وكان يبعث إلى رسول الله عند قدومه إلى يثرب كل يوم جفنة فيها ثريد بلحم أو ثريد بلبن ، وأكثر ذلك اللحم ، فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله فى بيوت أزواجه . ومن دعائه : اللهم هب لى حمدا ، وهب لى مجدا ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم لا يصلحنى القليل . ولا أصلح له ، فهو رجل يحب أن يحمد بما يفعل ، ويمجد بما يصنع ، يجير على بنى مناف والشريف يجير الشريف ، وكل قرين بالمقارن ينسب ، وقد وجد فى صحبة رسول الله مبتغاه ، فصار رفيع المنزلة مثل سميه (سعد بن معاذ الأوسى) فكان السعدان يستشيرهما الرسول كما يستشير أبا بكر وعمر ، وإن كانت كتب السيرة لم تذكر له بطولة حربية مثل (أبى دُجانة) من الأنصار ، وعلى ابن أبى طالب من المهاجرين ، فقد كان سيدا من سادة المسلمين يسمع رأيه وتقبل مشورته ، وليس معنى هذا أنه نأى بجانبه عن الحرب ضد أعداء الإسلام ، فقد حضر أُحداً والخندق والمشاهد كلها ، وفى بدر كان فى المدينة يحرض على القتال ويدعو إلى مناصرة رسول الله ضد قريش ولولا مرضه المفاجئ لأبلى بلاء حسناً . ولذا قال رسول الله : لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً ، وكفى بذلك تنويهاً وتنبيهاً ! أما فى فتح مكة فكان الفارس العنيف المخيف ، ويذكر الرواة أن نبى الله بلغ (ذا طُوى) ففرق جيشه : أمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كُدَى من ناحية عرفة ، وكان الزبير على المجنبة اليسرى وأمر سعد بن عبادة أن يدخل فى بعض الناس من كَدَاء بأعلى مكة ، واتجه سعد بجيشه متوعدا قائلا : « اليوم

يوم الملحمة ، اليوم تستحل المحرمة » فسمعها عمر بن الخطاب فهرع إلى الرسول يقول له : اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها.

وفى رواية أخرى: أن المأمور بأخذها قيس بن سعد ، وأنا أميل للرواية الأخيرة ، لأن النبى يحرص على ألا يؤلم أصحابه ، واختيار ابن سعد لأخذ الراية من أبيه إصلاح الأمر من طرفيه ، فمن جهة يحول بين سعد وما نوى ، ومن جهة تبقى الراية فى الأنصار وفى يد ابن صاحب الراية .

لماذا وقف عمر منه ذلك الموقف ؟

لقد كانت مكة مدينة مفتوحة ، كما نقول اليوم ، وليس لازماً أن يعنف على أهلها ، ومن الجائز — وهو استنتاج أعتذر إلى سعد منه — أن يكون عمر رأى فيه عصبية لمسها منه حين خطب رسول الله فى حادث الإفك فقال : أيها الناس ما بال قوم يؤذوننى فى أهلى (عائشة) ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل (صفوان بن المعطل) والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى . فقال أسيد ابن حضير الأوسى : يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم (الذين جاءوا بالإفك) لأهل أن تضرب أعناقهم! هنا قام سعد بن عبادة — وكان يرى قبل ذلك رجلا صالحاً — هكذا جاء فى الرواية فقال : كذبت لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ! فقال أسيد : كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ! وتساور الناس حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر ، ولكن الله سلم ، نزل رسول الله ودخل بيته ، هكذا حدثت السيدة عائشة رضى الله عنها . وسعد لم ينافق ولم يرتب منذ دخل فى الإسلام وجاهد فى سبيله ولكنه يحمل بقايا عصبية لم يتخلص منها ، ألا تراه يغلظ على أسيد بن حضير لأنه يقف ضد أهل الإفك وكان رأس الفتنة عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى؟ فما بالك إذا كان الأمر خاصاً بقريش الذين حاربوا الدعوة ؟

ويحكى أسامة بن زيد أن سعدا مرض فذهب رسول الله لعيادته فأردفنى وراءه ، فمر بعبد الله بن أبى وهو فى ظل بيته وحوله رجال من قومه فلما رآه رسول الله

رأى أن يجامله فنزل فسلم ثم جلس قليلا، فتلا القرآن ودعا إلى الله عزّ وجلّ، وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر، وابن أبيّ زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله من مقالته قال — وقد ظهر نفاقه — يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تَبْغَتَهْ ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه، فقال عبد الله بن رواحة (خزرجى من النقباء) بلى، فاغشنا به، وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله مما نحب وبما أكرمنا الله به وهدانا له! فقال ابن أُبيّ حين رأى من خلاف قومه :

متى ما يكن مولاك[1] خصمك لا تزل
تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه
وإن جُذّ يوماً ريشه فهو واقع ؟

وقام رسول الله وتركه فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدو الله (عبد الله بن أبيّ) فقال : والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً تكرهه. قال : أجل، ثم أخبره بما قال ابن أُبيّ. فقال سعد : يا رسول الله أرفق به، والله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجَهُ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً — وهذا الكلام يدل على رفقه بابن أبى ولا يخلو هذا من عصبية، وقد يكون أراد أن يجنب النبى والمسلمين الفتنة من جهة أخرى، والأقرب إلى قلب المؤمن أن يكون أراد الأخيرة.

وأغلب ظنى أن سعدا كان عاطفياً له حنان الأمومة على أسرته وقومه، وإلا فبم نفسر ما كان منه نحو أمه بعد وفاتها ؟ كانت أمه (عمرة بنت مسعود) من المبايعات وقد توفيت بالمدينة وسعد غائب عنها : لأنه كان فى غزوة تحت راية رسول الله سنة خمس من الهجرة فلما عادوا من الغزوة قال سعد لرسول الله : إن أم سعد ماتت وإنى أحب أن تصلى عليها وقد أتى على وفاتها شهر، وعن ابن عباس قال : استفتى سعد بن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فقال رسول الله اقضه عنها، ويروى الرواة أن سعداً أتى رسول الله فقال له : إنّ أمى توفيت وأنا غائب عنها أفينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : نعم، قال : فإنى أشهدك أن حائطى (بستانى) المخراف (المثمر) صدقة عنها.. ولم يسكت.. بل قال :

(١) مولاك : ذو قرابتك.

أى الصدقة أفضل؟ قال: اسق الماء، فأقام سقاية فى المسجد شرب منها أبوبكر وعمر مع أنها صدقة ، ويدور فى خلدى أن سنة (السبل) التى انتشرت فى ديار الإسلام ترجع إلى الاقتداء بسقاية سعد وما زلنا إلى اليوم نرى الناس يتبرعون بمثل هذا تقرباً إلى الله وزلفى. ولم نجد أحداً ممن له سيرة فعل ما فعل سعد ، وهذا يدل على عاطفة جياشة ، وحنان لا نعرفه إلا من الأمهات نحو الأبناء ، وسعد يعلم أن أمه من المبايعات والرسول راض عنها وسعد يومئذ له بنون بلغوا مبلغ الرجال وله من الزوجة الثانية قيس وأمامة وسدوس ، فرجل فى مثل سنه وبين ولده يغشى قلبه القلق والارتياع والأسى على أمه إلى درجة تكرار سؤال الرسول عما ينفعها سواء أكان نذراً أم صدقة ؟ بل يسأله عن أفضل الصدقات لها ؟ إنه رجل فى عروقه عاطفة ملتهبة نحو أسرته ولا غرو إذا رأينا تلك العاطفة تتجلى فى الحرب على قومه من الخزرج ، ويقف فى جانبهم ولو كان الحق ليس معهم ، يضاف إلى ذلك : أنه كثير التوعك ، فقد زاره النبى حين حل بالمدينة فى حكاية أسامة بن زيد ، ولم يشهد بدراً لمرضه ، وها هو ذا مزمل تحت سقيفة بنى ساعدة وهو مرشح لخلافة الإسلام بعد أن انتقل نبى الإسلام إلى الرفيق الأعلى ، من كل ماقدمنا نصفه برهافة الحس ورقة القلب وكلفه بالأسرة والقبيلة ، ولا يغض هذا من مكانته ، فهو سيد الخزرج بعد استشهاد المنذر بن عمرو فى بئر معونة ، وموت رأس النفاق عبد الله بن أبىّ ، وله زعامة ترضاها الخزرج ولا تأباها الأوس ، وتوفى رسول الله وهو عنه راض لما قدم فى سبيل الله من جهاد ونفقات .

ويسوقنا هذا إلى حديث سقيفة بنى ساعدة وما جرى فيها لنرى ألسعد قضية أم لا قضية له ؟ أله حق فى ميراث محمد صلى الله عليه وسلم أم أن غيره أولى منه ؟

أعلن أبو بكر رضى الله عنه : أن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت تأكد الأنصار أن الرسول قد مات فاجتمعوا للتشاور فى سقيفة بنى ساعدة ورشحوا للخلافة سعد بن عبادة ولم ينتظروا رأى المهاجرين ، لأنه قرّ فى أذهانهم : أنهم آووا ونصروا ، وأن المهاجرين وافدون إليهم فى مدينتهم فيجب أن تكون خلافة محمد فيهم ، والأوس والخزرج يقبلون سعدا خليفة رسول الله .

وبلغ الخبر أبا بكر وعمر ، فأسرعا إلى القوم ، وفى طريقهما التقيا بأبى عبيدة بن الجراح ، وساروا ولم يسمعوا لنصح عويم بن ساعدة ومعن بن عدى اللذين أشارا بأن يقضى المهاجرون بينهم أمرهم ، وأبوا إلا الاجتماع بالأنصار وهناك وجدوا رجلا مزملا فسألوا عنه ؟ فقالوا : إنه سعد بن عبادة وهو وَجع ، وبدأ الحوار ، فقام خطيب الأنصار فبين حق الأنصار فى الخلافة ، وأراد عمر أن يتكلم فأسكته أبو بكر ، فأدلى بحجج ملكت ناصية الأمر ، أثنى على الأنصار بما هم له أهل وبيّن حق المهاجرين وحسم الأمر بقوله « لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش » وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين : وأخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة . فقال قائل من الأنصار : منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش! فكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات حتى خيف الاختلاف ، فقال عمر لأبى بكر : ابسط يدك ؟ فبسط يده ، فبايعه عمر فبايع المهاجرون ، ثم بايع الأنصار وتزاحموا حتى كادوا يطئون سعدا ! قال قائل : قتلتم سعدا ! قال عمر : قتل الله سعدا ؟ وماتت الفتنة فى مهدها : لأنها ولدت بعلة الموت ! وما من شك فى أن أبا بكر هو الشخصية المفروضة على الاختيار — وإن لم يعين بالاسم — فعلى طول الأيام منذ بدأ فجر الإسلام : وهو المنظور إليه ، المقدم على غيره ، وقد أحسنوا القياس حين قالوا ارتضاه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ، إشارة إلى تعيينه لإمامة الصلاة بأمر رسول الله.

وإذا نظرت إلى ما جرى فى ذلك اليوم عرفت أن الرئيس هو أبو بكر ، كان عمر يخطب نافياً أن يكون رسول الله قد مات ، فلما قدم أبو بكر . قال لعمر ، على رسلك ، فلما لم يسكت عمر أخذ أبو بكر يخطب ، وهنا انحاز إليه الناس وتركوا عمر .

وفى سقيفة بنى ساعدة أراد عمر أن يتكلم — وقد زوّر فى نفسه كلاماً — فلما دعاه أبو بكر إلى السكوت سكت ، وهم يعرفون فضله وسابقته ، وأنه رفيق رسول الله فى الهجرة ، وأنه أول من أسلم من الرجال ، ولا تثبت الموازنة بينه وبين سعد بن عبادة : فسعد مريض لا يقوم بحجته وينقلها عنه غيره ، وأبو بكر يتحدث فيقنع ويمتع ، وله ذخيرة من الأعمال السابقة ، والإقبال عليه جِد ، والإقبال على سعد مجاملة ، يعرف الأنصار والمهاجرون هذا منه كما يعرفه هو عن نفسه ، يقول — وقد

استاء بعد مبايعة السقيفة أن ينقبض أناس عن بيعته: « أيها الناس ، ألست أحق الناس بها ! ألست أول من أسلم؟»

لقد تم الأمر .. فماذا كان من سعد بن عبادة ؟ يقول الدكتور طه حسين فى كتابه « الشيخان » الرواة هنا يضطربون اضطراباً شديداً . . فبعضهم يرى أنه بايع أبا بكر ، وبعضهم يرى أنه امتنع عن المبايعة ، ويرى أنه بايع أخذا بالرواية الأولى — وهو رأى مقبول ومعقول — فقد يكون سعد تأخر عن البيعة لمرضه — وقد رأيناه مريضاً حين الحوار — وقد يكون داخله شىء من الأنصار ، لأنهم خذلوه فتريث ثم أقبل على أبى بكر مبايعاً ، وهذا هو المعهود فيه وفى سائر الأنصار ، فقد أدوا ما أدوا رغبة فى رضا الله ورسوله !؟

أغفل ابن هشام فى السيرة النبوية: الحديث عن موقف سعد بعد مبايعة أبى بكر بالخلافة ، لكن صاحب الطبقات الكبرى ذكر: أن سعدا امتنع عن المبايعة وقال لأبى بكر: لا أبايعكم حتى أراميكم بما فى كنانتى ، وأقاتلكم!؟ فلما جاء الخبر إلى أبى بكر قال بشير ابن سعد : يا خليفة رسول الله إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل ولن يقتل حتى يُقتل معه ولده وعشيرته وكذلك الخزرج والأوس ، فلا تحركوه وقد استقام لكم الأمر ، فإنه ليس بضاركم إنما هو رجل وحده ما ترك !؟ فقبل أبو بكر نصيحة بشير !

وهذا الكلام روّجه أناس أرادوا أن يقطعوا الصلة بين المهاجرين والأنصار ، وأن يضربوا الوحدة فى سوائها ، فالأمة الإسلامية أمة محسودة لها خصوم يتربصون بها الدوائر ! وأنكى دائرة هى دائرة الاختلاف .. مكث سعد مدة خلافة أبى بكر لم يبرح المدينة !؟

وفى عهد عمر جعل الشام موطناً له ، وفى حوران نفسها ، فجعلوا من هذا قصصاً بينه وبين عمر ، ثم قصصاً لموته!؟

يذكر ابن سعد: أن سعد بن عبادة لقى عمر بعد أن ولى الخلافة فى طريق المدينة فقال عمر : إيه يا سعد ، فقال سعد : إيه يا عمر — أهذا يكون منهما ؟ — فقال عمر : أنت صاحب ما أنت صاحبه ؟ فقال سعد : نعم .. أنا ذاك وقد أفضى إليك الأمر ، كان والله صاحبك أحب إلينا منك ، وقد أصبحت كارها لجوارك ! فقال عمر : إنه من كره جوار جاره تحول عنه ؟ قال سعد : أنا متحول إلى جوار من

هو خير منك — مَنْ الراوى الذى روى عنه ابن سعد ؟ وكيف رآهما وحفظ ما دار بينهما وأداه إلينا كما هو ؟

رحل سعد إلى حوران من أعمال الشام ثم وافاه أجله لسنتين ونصف من خلافة عمر.. سنة خمس عشرة من الهجرة، فراحوا ينسجون حول وفاته الأقاصيص إلى أن جعلوه قتيل الجن! مرة يقولون: جلس لقضاء الحاجة فى نفق له فاقتتل! ومرة يقولون: كان واقفاً لقضاء الحاجة فأحس دبيباً .. وهذا كله لضرب وحدة المهاجرين والأنصار ، انظر إلى الرواية؟ إنها تقول عن موته : ما علم موته بالمدينة حتى سمع غلمان فى بئر منبه أو سكن وهم يقتحمون نصف النهار فى حر شديد . . قائلا يقول من البئر :

قتلنا سيد الخز رج سعدبن عباده
رميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

فذعر الغلمان ، فحفظوا ذلك اليوم فوجدوه اليوم الذى مات فيه سعد !

مَنْ الذى قام بهذا التحقيق؟ إن هذا إشارة من بعيد لاتهام المهاجرين بقتل سعد ، فاخترعوا تلك الحكاية . .

ولا نشك فى أن سعدا عاش وحده وهو كثير التوعك — كما قدمت — فرض، فمات ولم يكن هناك قتل لا من الجن ولا من الناس ! ؟

لقد نال سعد الرحمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جمع إليه الأنصار بعد غزوة حنين فقال لهم : اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ! ؟

السيد حسن قرون

فى الصبر

قال صلى الله عليه سلم: الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو . فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . . » ، وقال : عجبًا لأمر المؤمن . . إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن إصابته سراء شكر فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

قضايا لغوية ..

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

دكتور / توفيق محمد شاهين

اللغة ظاهرة اجتماعية غير مادية . . وتحتاج لذلك عند تحديد عناصرها ، ومعرفة ماهيتها إلى عمليات متعددة غاية فى التعقيد والتداخل ، لتشعب عناصرها بين الإرسال والاستقبال والتداعى والترجمة ، ويسبق كل ذلك تفكير وتقدير وتدبير : (فتبارك الله أحسن الخالقين ٢٣ : ١٤) .

فهى أكثر من أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة للفكر وأكثر من أن تكون تعبيراً عن الأغراض لجماعة ما . ولذا صدق أن يقال : إن الإنسان صار باللغة إنساناً ، وبلغ بها العقل منتهاه ، وأخذت بها الحضارة أوجها ذروة واتساعاً .

وحين ترقى اللغة يرقى أهلها ، تأخذ حيزاً من القداسة ، يرفع شأنها ، ويدفع استمرار وجودها ، ويتيه بها أهلها .

وليس بغريب — إذن — أن يكلف بأبحاثها الملوك والرؤساء والمفكرون والفلاسفة فضلا عن سدنتها وعلمائها ، فأبحاث تأصيلها وإدراك كنهها لم تنقطع منذ فجر التفكير حتى الآن ، لما لها من أهمية وغرابة . . إذ أنها فى الواقع جزء من كيانها النفسى والروحى .

ودارت الأبحاث اللغوية — وتدور — حول التطور الخارجى للغة ، وحول التطوير — الداخلى لها : أى فى مجال البنية والطبيعة الصوتية من جهة ، وفى مجال الوظيفة الاجتماعية استعمالا واستمتاعاً من جهة أخرى .

وعلى كثرة الأبحاث المتتابعة والمستمرة فى ماهية اللغة ، فإن نتائج الأبحاث لم تأخذ — غالباً — صفة التعقيد الجامع المانع ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بعض الأبحاث ذات الصلة الوثيقة باللغة ما زالت تحبو فى دنيا الكشف والمعرفة كتشريح المخ البشرى ، وتصنيف وظائفه وكشف مخبوئه ، وديناميكية عمله المبهر المثير .

ورحم الله علماءنا القدامى ، فقد

أسهموا بجدية وأصالة فى هذه الأبحاث اللغوية بما أسعفتهم الوسائل وتيسرت لهم السبل . فاكتشفوا طرقاً ، وأرسوا قواعد ، وأضافوا ورجحوا . . فهم لم يكونوا عالة ، كما لم يكونوا حملة بريد ، ولا ناقلى رسائل . كما يرميهم خصومهم وشانئوهم .

ومنذ القرن الثانى الهجرى كان كتاب سيبويه أشهر كتاب يصف ميادين الأصوات والصيغ والتراكيب وتتابعت الكتب القيمة بعده .

وخير من يكفينا مؤنة النزال عند التحدى بتفصيل أدق وأشمل وأعمق ، وأخص علامتنا : أبو الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢ هـ) طيب الله ثراه بما قدم من بحوث مبتكرة فى فكر ثاقب فرض نفسه على الزمن بالدقة والأصالة والخلود ولعله خير من عرف اللغة الإنسانية الأولى بأنها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » فأشار إلى الطبيعة الرمزية الصوتية للغة من جهة وإلى وظيفتها الاجتماعية بين ناطقيها من جانب آخر ، وإن كان التعريف غير مانع ولا جامع كما يقول علماء المنطق ، وشرط التعريف .

* * *

ولغتنا العربية أصيلة ، تنتمى إلى عائلة لغوية كبيرة عريقة عراقة التاريخ ، تعرف : « باللغات السامية » كما أطلق عليها (شلوتزر) العالم الألمانى وزميله (ايكهورن) .

وقد لعبت الشعوب التى تكلمت مجموعة هذه اللغات على مسرح الحضارة العالمية دوراً حضارياً رئيسياً خلد على الزمن .

والعربية غنية ثرة ، حملت فى ثناياها عوامل تزكيتها ونمائها ، ومن ثم سايرت التطور الحضارى والفكرى ، وعبرت فى يسر عن الفكر الأصيل بكل أبعاده حين أضحت لسان القرآن الكريم ووعاءه ، ووسعت الفكر الدخيل حين مست الحاجة إلى التطلع إليه والاستعانة به .

* * *

وقد قطعت الأبحاث اللغوية — اليوم — شأواً بعيداً فى العديد من مجالاته ، بفضل ما تهيأ للباحثين من وسائل التقنية والتكنولوجيا الحديثة ، فكان الجديد والمفيد والمثير ، ثمرة لعاملين متكاملين ، هما علم (الفونتيك Phonetique وعلم (الفونولوجيا Phonologie) بما أسدى للدراسات اللغوية خدمات جُلَّى وكشف إبهام كثير من أمور اللغة ومشاكلها التى كانت تدور فى تجويفات غير علمية وفى توهمات وتهويمات

لا يتقبلها العقل الحصيف ولاتثبت أمام النقد على أسسه وتحت مقاييسه .

ولم يعد بعض العلماء اليوم أسرى تعلم لغة واحدة — كالسمك — يحيا بالماء وتقتله البرمائية — فعرف كثير منهم أكثر من لغة ، لتتضح أمامه الرؤية ، وتزول عنه حواجز القصور ، والحيز الضيق ، والأفق المحدود .

ولغتنا العربية — كغيرها من اللغات — قضايا ومشاكل ، منها ما هو خاص بها ، ومنها ما هو مشترك بينها وبين أخواتها الساميات ، مع ما يلحق بكل منها من لهجات ، مما أوجب اعتبار المجموع كلغة واحدة تفرقت خواصها وأسرارها فى مختلف اللغات الأخوات ، ويقتضينا ذلك البحث والاستعانة بميزات لغة لفائدة شقيقتها ، فى إنارة غامض ، وتوضيح مشكل ، فى لغة بما هو واضح وصريح فى لغة أخرى . وبذلك يتم إيضاح التناسق المعنوى والمنطقى ، وإزالة ما قد يبدو متضارباً ومتناقضاً بين أخوات السامية ، كما يزيل أخطاء ما وقع فيه الأقدمون من خلط وقصور نتيجة الجهل بلغة أخرى ، أو القصور فى معرفة مميزات وتشابهات المجموعات اللغوية كل على حدة .

* * *

وللغتنا العربية قضية خلافية ، طال عليها الأبد ، ولم يتضح وجه الحق فيها حتى الآن ألا وهى قضية الأصل الثلاثى أو الثنائى لها .

وذلك لأن الساميات عموماً تنفرد بميزة ظاهرة ألا وهى الاعتماد على الجزر والاشتقاق ، مما يوجب دراسة النشوء والارتقاء للأصول عسى أن تحل مشاكل الاضطراب فى القواعد أو الضوابط اللغوية بمعنى أصح وتزول نقاط الخلاف فى الشذوذ والاضطراب ، وتخف مشاكل القاموس من النزعات والمتناقضات .

وفى هذه العجالة — سنحاول — بفضل الله — رسم القسمات والسمات البارزة فى هذا البحث الشائك والزاخر ، والصعاب المنهجية لهذه القضية العلمية ، عبر القرون . عله يسد ثغرة شاغرة ويجبر جانب قصور فى قلة الأبحاث العلمية للثنائية والثلاثية .

ومبدئياً — يلاحظ أن بعض الباحثين اللغويين يعد مرحلة « الاشتراك فى الحرفين — أو فى غير الثلاثية — مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجدياً إلا ضمن البحث التاريخى ، لأنها بدء مرحلة غير ثابتة ، أى غير مبنى على

بحث واستقراء واسعين للغة العرب التى تبلغ موادها : زهاء ثمانين ألف مادة ، كما ذكر فى لسان العرب[١] وأكثر كما فى غيره .

ولكننا ندعو إلى مزيد من البحث فهذه القضية ، للبت فيها ، إذ هى وسيلة للتأصيل ، وبخاصة لجلاء الطور الذى سبق التصريف ، وبيان أواصر العربية بأخواتها الساميات ، واستخراج النتائج التى من شأنها بيان التلاحق والتناسق المنطقى والمعقول ، فى سير توقع الألفاظ وتطور مداليلها[٢] .

* * *

وكثرة من علماء اللغة أن الرس والأصل للغتنا العربية هو الثلاثى : إذ لا بد من حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه ، وثالث هو الواسطة بينهما وتلك نظرة الصرفيين أيضاً . . وإذا ثبت أن البحوث النحوية والصرفية فى اللغة العربية قد تأثرت إلى حد كبير بالفكر اليونانى الإغريقى : فلا غرابة فى أن يركن فريق من الباحثين فى هذه القضية إلى القول بالرس الثلاثى ، ومن هنا يريحون ويستريحون على قياس من المنطق الصورى .

على أن من علمائنا القدامى والمحدثين من بحث أمر الثنائية أصالة أو عرضاً أو افترضوا . . وجودها فى مصنفاتهم .

ويصف الأب مرمرجى الدومنكى — سادن الثنائية — العلماء الذين طرقوا باب الثنائية عرضاً أو افترضوا وجودها فى مصنفاتهم بأنهم : « معتقلون فى سجن النظرية التصريفية العتيقة ، القائلة : بأن أصول الكلام أسماء وأفعالا مركبة من ثلاثة أحرف لا أقل » .

وعد الأب مرمرجى — تحت عنوان — ثنائيون أجانب ومصنفاتهم[٣] من العلماء الأجانب الذين بحثوا أمر الثنائية فى لغتنا العربية وأيدوها زهاء الخمسين عالماً ، ابتداء من أوائل القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين الميلادى . . بعضهم بحث أمر الثنائية فى إيجاز على صورة أبحاث ومقالات ، وبعضهم توسع فى بحثها فأخرج مؤلفات ومصنفات خاصة[٤] فأمرها لم يقتصر على العلماء العرب وإنما أسهم العلماء الأجانب بسهم وافر فى بحث الثنائية فى أسس لغتنا العربية !؟

(١) فقه اللغة العربية — د. إبراهيم نجا ص ٨٩ .

(٢) معجميات عربية سامية : للأب مرمرجى الدومنكى ١١٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ٥ — ١١ .

ومن أشهر علمائنا العرب الذين بحثوا أمر الثنائية عرضاً، أو افترضوا وجودها :

— ابن جنى (٣٢٠ — ٣٩٢هـ) فى « الخصائص » .

— وابن فارس فى « مقاييس اللغة » .

— والراغب الصفهانى فى « غريب القرآن » .

— والبيضاوى فى « أنوار التنزيل » .

— وابن منظور الإفريقى المصرى (٦٣٠ — ٧١١هـ) فى « لسان العرب » .

— ومحب الدين الزبيدى (١١٤٥— ١٢٠٥هـ فى « تاج العروس » .

وأشهر من بحث أمر الثنائية من علمائنا العرب صراحة :

— أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧ م) فى « سِرّ الليال فى القلب والإبدال » .

— وجورجى زيدان فى « الفلسفة اللغوية » .

— وإبراهيم اليازجى فى « مجلة الطبيب » اللبنانية .

— والأب أنستاس الكرملى فى « نشوء اللغة العربية » .

— وعبد الله العلايلى ، فى « مقدمة لدرس اللغة العرب » .

— وعبد الله أمين ، فى كتابه « الاشتقاق » .

— وبطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣م) فى مقدمة معجمه « البستان ».

— والشيخ طاهر الجزائرى ، فى كتابه (الكافى فى اللغة) .

— ومنصور بوصالح فى مجلة (الميناء) اللبنانية .

— والأب. أ. س. مرمرجى الدومنكى — مزاول الثنائية فى كتبه العديدة .

ومن هؤلاء العصريين من ينقل عن المستشرقين ، أو يستلهمهم رأساً كما فعل جورجى زيدان .

أو لاحقاً بواسطة سابق .

ومن الطريف : أن من العلماء من يقول بأن أصل العربية — أحادية . . قبل أن يكون ثنائية —

وتفصيل ذلك فى المقال القادم بإذن الله.

[الحديث موصول] .

دكتور توفيق محمد شاهين

مواكبة الشعر الجاهلي لأحداث الأيام

الدكتور عفيف عبد الرحمن

جامعة اليرموك — الأردن

لعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن أخبار الأيام لم تصل إلينا إلا عن طريق الشعر ، سواء أكان شعر هذه الأيام الذى رواه الرواة كجزء من شعر الشعراء الذين رووا شعرهم ، أم الشعر الذى نظمه شعراء العصر الأموى ذلك العصر الذى احتدمت فيه العصبيات القبلية وبعثت من مرقدها بعد أن كاد الإسلام يطمسها ويستبدل بها العصبية للدين الجديد . وعلى وجه التحديد ذلك الثالوث الشعرى الممثل فى جرير والفرزدق والأخطل ، فقد أثاروا من خلال تراشقهم بالهجاء والتفاخر أحاديث عن أيام قبائلهم وحروبها ، وكان لتيم نصيب الأسد من تلك الأيام ، وحينما شرح أبو عبيدة نقائض جرير والفرزدق أسهب فى الحديث عن تلك الأيام التى وردت فى شعرهما .

أما رواة الشعر الذين رووا دواوين الشعراء فقد حملوا بالإضافة إلى الشعر مناسبة هذا الشعر وإطاره التاريخى ، ودعاهم ذلك إلى التحدث عن اليوم الذى قيل فيه هذا الشعر بإيجاز .

وعندما عرض المؤرخون لتلك الأيام استعانوا ببعض هذا الشعر الذى وجدوه فى متناول أيديهم ليدللوا على صحة ما يقولون ، فعلوا ذلك لما للشعر من منزلة فى نفوس الناس ، ولما له من أثر فى تزيين الخبر ، ودعاهم هذا الأثر إلى إيراد الشعر دونما تحقيق فيه ، أو فى مصادره أو رواته .

ونود أن نورد عقبات تعترض الطريق قبل المضى قدماً ، منها أن القسم الأكبر من شعر الأيام ليس بين أيدينا ، وهو موزع بين مفقود لم يصل إلينا ولن يصل ، وبين دفين فى بطون المخطوطات من تراثنا ولم تر النور بعد ، كما أن مؤلفات بأكملها قد ضاعت خصصها مؤلفوها للحديث عن الأيام ، ككتابى : أبى عبيدة ، وأبى الفرج . ومن المشكلات أيضاً : أن شعر الأيام ممثلا فى قصائده لم

لم يكن هدفًا فى حد ذاته ، بل كان وسيلة يقتطف منه المؤرخ أو الأديب ما يناسبه ليستشهد به . وقد نتج عن هذه العملية تقطيع أوصال الشعر وتناثره . ومما يؤكد زعمنا هذا أن تميما هى أكثر القبائل حظاً فى بقاء قسم كبير من أيامها ومن شعر تلك الأيام ، كما أن تلك الأبيات المفردة التى تطالعنا فى شعر الأيام الذى بين أيدينا أكبر دليل على ما نذهب إليه ، فقد حُفظت تلك الأبيات المفردة لأن مؤلفًا نحويًّا أو عالماً من علماء العربية قد احتاج إليها فدونها ، وذكر مناسبتها وأسقط باقى القصيدة لأنها لا تعنيه . ففى يوم غول الثانى : عيَّر سُحيم بن وثيل الرياحى طارقًا اليربوعى بقتل جاريه ، ولا نجد فى العقد الفريد إلا بيتا من الشعر ذكره صاحب العقد :

لقد كنت جار ابنىْ هجيعة قبلها
فلم تغنِ شيئاً غير قتل المجاور[(١)] .

فهل نتصور أن يكون ذلك الموقف ممثلاً فى بيت واحد من الشعر نظمه على بحر من بحور الشعر التى عرف أنها تستخدم فى الموضوعات التى تستغرق أبياتًا عدة ؟

ومما يدعم وجهة نظرنا هذه أن القصائد التى وردت فى مجموعة المفضليات ، وفى دواوين الشعراء الذين قدر لدواوينهم أن تصل إلينا كانت طويلة ،مكتملة البناء ، فى حين نجد نسبة المقطوعات كبيرة فى الشعر الذى ورد فى غير الدواوين والمفضليات ، ويزداد الأمر وضوحًا بشكل عملى إذا قارنا بين نص لشاعر ورد فى ديوانه وبين ذلك النص الذى أورده كتاب فى التاريخ أو فى الأدب . ففى يوم الفجار الأول للأنصار ، وهو يوم من حروب الأوس والخزرج ، يقول عبد الله بن رواحة حينما جرح قيس بن الخطيم :

رميناك أيام الفجار فلم تزل
حميًّا فمن يشرب فلست بشارب[(٢)]

ونجد النص يربو على خمسة عشر بيتاً حينما نطالعه فى الديوان[(٣)] .

ومن العقبات أيضًا ذلك العبث الكثير والتحريف عن قصد أو جهل من النساخ والرواة ، وأحيانًا من المشتغلين بتحقيق التراث ونشره . فإن نظرة فاحصة فى نص فى مصادر مختلفة عرضت أجزاء منه تكفينا لملاحظة التحريف الذى قد

---

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ٢٣٩/٥ .

(٢) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ٦٧٦/١ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٣٥ .

يصل إلى درجة تغيير المعنى أو نتيجة المعركة التى يتحدث عنها ذلك النص . ومن المضاعفات التى يحدثها ذلك التحريف تغيير بعض الأعلام فيه ، والتى لها أهمية بالغة فى رصد أحداث تلك الأيام .

ولقد ضاعت مقدمات الكثير من قصائد شعر الأيام ، وعلى الرغم من الاعتقاد السائد لدى كثير من الباحثين بأن المقدمة قد تبدو غير ذات أهمية ، إلا أنها قد تكشف لنا أموراً تتصل باليوم أو بطبيعة الغرض ، أو تكشف لنا عن نفسية صاحب النص . ولقد رأينا بعض شعراء الأيام من فرسان تلك الحروب يتحدث فى مقدمة قصائده عن فرسه أو مما يتصل بالحرب مستعيضاً بذلك عن تلك المقدمة الطللية أو الغزلية التى ألفها الشعر الجاهلى كما فعل عنترة وغيره .

هذا عامر بن الطفيل العامرى يفتخر بيوم عكاظ من أيام الفِجار الآخر ، ويبدأ قصيدته بمقدمة يضمنها حديثاً عاماً عن الحرب والفرسان ويفخر بفرسان قومه وبحمايتهم للذمار ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى موضوع الشعر الرئيسى :

ألسنا نقود الخيل قبًّا عوابساً
ونخضب يوم الروع أسيافنا دما
ونحمى الذمار حين يشتجر القنا
ونثنى عن السرب الرعيل والمسوما
ونستلب الحوَّ العوابس كالقنـــا
سواهم يحملن الوشيح المقوما[1]

وأخيراً : فإن من المشكلات المهمة اختلاف المؤرخين والرواة فى إسناد الشعر إلى خبره ، وهم يفعلون ذلك حينما لا يرد ذكر اليوم فى الشعر الذى يوردونه ، فيجتهد كل منهم أو يفتعل قصة لهذا الشعر . . يحدث هذا إذا لم يجدوا مناسبة الشعر من راوية الشعر ، لأننا لو سلمنا بأن كل شعر خلا من ذكر اليوم : مختلق موضوع : لألغينا شعراً كثيراً ، ولأضفنا خللا جديداً يقوِّض بنيانـاً تعاورته عوامل هدم كثيرة من داخله وخارجه .

ويتصل بالإسناد أيضاً : اختلافهم فى إسناد الشعر إلى صاحبه ، لأن ذلك يضيف اضطرابـاً جديداً إلى الصورة العامة لأحداث تلك الأيام ، وبخاصة أن معظم الشعراء اشتركوا فى الحديث عن تلك الأيام، وبعضهم أسهم فيها مقاتلا . وفرق بين أن يسند هذا الشعر إلى الحوْفزان ابن شريك أو أن يسند إلى غيره ، لأن معناه أن الحوفزان عاش حتى شهد يوم

(١) ديوانه ١٢٨ .

ذى قار ، وتتغير الصورة إذا أثبتنا أنه مات قبل حدوث ذلك اليوم :

ولما رأيت الخيل شك نحورها
حراب ونشاب صبرتُ جناحا
على الموت حتى أنزل الله نصره
وود جناح لو قضى فاستراحا (١)

* * *

نحن لا نملك تغيير حقائق وصلت إلينا ، ولا نملك أن نضيف إليها عوضاً عن ذلك الذى ضاع ، كما أننا لا نملك أن نصحح ما نستطيع تصحيحه بالنقد والتمحيص والمقارنة ومن ثم ترجيح الروايات الموثقة ، فبين أيدينا مجموعة ضخمة من شعر الأيام بلغت نيفاً وستمائة قصيدة ومقطوعة ، ومطلوب منا أن نقرر مدى قدرة هذا الشعر على رصد أحداث تلك الأيام وتغطيتها .

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نود أن نوضح المقصود بأحداث تلك الأيام وحيثياتها ، فالحرب تنشب بين قبيلتين أو أكثر ، ولابد من سبب لنشوب تلك الحرب ، وقد تطول تلك الحرب فتستمر أكثر من لقاء كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب الفجار ، وحروب الأوس والخزرج ، وللحرب قادة يقودون فرسان قبيلتهم ومقاتليها ويوجهونهم . وفى الحرب يلتقى الطرفان فيقتتلان ، ويسقط قتلى وجرحى من الطرفين ، ويقع أسرى ، وتسبى سبايا ، وتساق أنعام كغنائم . وفى الحرب تُحاك الدسائس وتُدبر الحيل كوسائل للتغلب على الأعداء . وترتفع أصوات خافتة تدعو للسلام ووقف الاقتتال بين المتحاربين أو تدعو إلى الصلح وسط ذلك الصخب وقعقعة السيوف .

تلك هى أبرز الأحداث والتفاصيل المتصلة بالحرب ، ولنحاول أن نتصل بالشعر المتاح لنا لنرى مدى تغطيته لتلك الأحداث . ولنأخذ مثالا لما سنثبته يوماً مهما من أيام العرب ، وننظر فى شعره الذى وصل إلينا لنرى مدى مواكبة هذا الشعر لأحداث ذلك اليوم ، وهو يوم ذى قار .

بين أيدينا من الشعر الذى قيل فيه قرابة أربعين قصيدة ومقطوعة ، وحتى تكون الصورة واضحة فإننا ننبه إلى أنه لابد من أن نستعين بالنثر لتكوين صورة واضحة المعالم

وأسباب هذا اليوم كثيرة ولكننا نرى الشعراء يعرضون لنا سببين : الأول أدرع النعمان التى أودعها عندما أحس باحتمال

(١) النقائض ٢/٦٤٦ وجناح : اسم فرسه .

بطش الفرس به . يقول بعض شعراء بنى ربيعة مفتخراً بأنهم منعوا أدرع النعمان :

ألا من لليل لا تغور كواكبه
وهمٍّ سرى بين الجوانح جانبهْ
ألا هل أتاها أن جيشًا عرمرمًا
بأسفل ذى قار أُبيدتْ كتائبهْ
فما حلقة النعمان يـــوم طلبتها
بأقرب من نجم السماء تراقبه[1]

وذكر قيس بن مسعود السبب الآخر ، وهو اعتداء قومه بكر على سواد العراق الذى يحميه كسرى ، فقد تعهد قيس بن مسعود أمام كسرى بمنع قومه من الاعتداء عليه مقابل منحة سنوية ، ولكنه لم يستطع فحبسه كسرى ، بسبب تغريره به فقال وهو رهين الحبس :

ألا أبلغ بنى ذهـــل رســـولا
فمن هـــذا يكون لكم مكانى
أيأكلها ابن وعلة فى ظلـــيف
ويأمن هيثم وابنا سنـــان ؟
ويأمن فيكم الذهلى بعـــدى
وقـــد وسموكم سمـــة البيان
ألا من مبلغ قومى ومنْ ذا
يبلغ عن أسير فى الأوانى[2]

ويقول الأعشى أيضًا مصراً على عدم التفريط بأدرع النعمان :

حلفتُ بالملح والرماد وبالعزَّ
ى وباللات تُسْلمُ الحلقهْ
حتى يظلَّ الهامُ مُنْجدِلاً
ويقرع النبْلُ طُرة الدرَقةْ[3]

أما القبائل المشتركة فى ذلك اليوم فقد تضاربت الأقوال حولها ، فشعراء شيبان يدعون أن شيبان وحدها هى التى حاربت الفرس ، بينما ادعى آخرون أن آخرين اشتركوا معها . ولكن عمرو بن الأسود حدد لنا المشتركين فى ذلك اليوم فقال من أصمعيته :

لما سمعتُ نداءَ مُرَّةَ قد علا
وابنىْ ربيعةَ فى الغبار الأقتم
ومُحلِّمًا يمشون تحت لوائهم
والموتُ تحت لواء آل مُحلِّمِ
وسمعت يشكر تدعى بِحُبَيِّبٍ
تحت العجاجة وهى تقطر بالدم
وحُبَيِّبٌ يُزْجون كلَّ طمرَّة
ومن اللهازم شَخْتُ غيرِ مُصرَّمِ
والجمعُ من ذُهْل كأنَّ زهاءَهم
جُرْبُ الجمال يقودها ابنا شَعْثَمِ
قذفوا الرماحَ وباشروا بنحورهم
عند الضرابِ بكل ليث ضيغمِ

(١) الأغانى (طبعة دار الثقافة — بيروت) ٢٣٩/٢٣ .

(٢) الأغانى (دار الثقافة) ٢٢٢/٢٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٣٩/٢٣ .

وكان واضحاً فى هذا اليوم أن العرب يقاتلون عدوا من خارج الجزيرة، ولم يكن قتالا بين قبائل عربية ، ويبدو أن ذلك كان واضحاً لدى بعضهم ، فهذا حنظلة بن ثعلبة يقول محرضاً ومبينا شرف القتال فى ذلك اليوم :

يا قوم طيبوا بالقتال نفسا
أجْدَرُ يوم أن تفلُّوا الفرسا(١)

وترتجز امرأة من عجل، وقومها يقاتلون الفرس، فتقول محذرة من مغبة الهزيمة :

إن يظفروا يحرِّزوا فينا الغُرُل
إيه فدىً أبى لكم بنى عِجِل(٢)

وهى بذلك تؤكد اشتراك بنى عجل فى هذا اليوم .

ويقف أبو كلبة ، أحد بنى قيس ابن ثعلبة، مؤنباً الأعشى والأصم لمدحهما شيبان خاصة فيقول مشيراً إلى اشتراك اللهازم وبنى عجل ، ومعترفًا باشتراك شيبان :

لولا فوارسُ لا ميل ولا عُزُلٌ
من اللهازم ما قاظوا بذى قار
إن الفوارسَ من عجلٍ هُمُ أنفوا
من أن يُخَلُّوا لكسرى عرْصَةَ الدار

(١) الأصمعية رقم ٢١ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٠٩ النقائض ٦٤٢/٢ .

قد أحسنتْ ذهلُ شيبان وما عدلتْ
فى يوم ذى قار فرسان ابنِ سيَّارِ
هم الذين أتوهم عن شمائلهم
كما تلبَّسَ وُرَّادٌ بِصُدَّارِ(٣)

وقد أغضب شيبان تقاعس بعض القبائل العربية عن نصرتها خوفاً من بطش كسرى ، وظهر هذا الغضب والعتاب لقبائل معد على لسان الأعشى إذ قال :

لو أنَّ كلَّ مَعَدٍّ كان شاركنا
فى يوم ذى قار ما أخطاهُمُ الشرَفُ(٤)

أما اسم اليوم ومكان اللقاء فقد حدده الأعشى حين قال :

هم ضربوا بالحنو حنو قُراقر
مُقدَّمة الهامُرز حتى تولَّتِ
فصحهُمْ بالحنو حنو قُراقر
وذى قارها منها الجنود فَفُلَّتِ(٥)

وذكر أعشى ربيعة اليوم فيقول :

ونحن غداةَ ذى قار أقمنا
وقد شهد القبائل مُحْلِبينا(٦)

ويقول العُدَيْل العجلى مبيِّنا أهمية ذلك اليوم :

(٣) النقائض ٢٤٢/٢ .
(٤) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣ / ٢٣٧ تاريخ الطبرى ٢١١/٢ .
(٥) ديوان الأعشى ٣٠٩ ، الأغانى (دار الثقافة) ٢٤٠/٢٣ .
(٦) ديوان الأعشى ٢٥٩ .

وما يُعدُّون من يوم سمعتُ به
للناس أفضلَ من يوم بذى قار[١]

ويسمى ابن قرد الخنزير التيمى هذا اليوم بيوم كسرى ، فيقول متحدثاً عن بنى لجيم :

هُمُ ضربوا الكتائب يوم كسرى
أمام الناس إذ كرهوا الجلادا[٢]

ويسمى عمرو بن الأسود هذا اليوم بأحد أسمائه وهو ذات العُجْرُم :

ولقد أَمرتُ أخاكَ عمراً أمرَه
فَعَصَى وضَيَّعه بُذاتِ العُجْرُمِ[٣]

ولقد حدد أحد شعراء هذا اليوم عدد الجيوش المتحاربة ، هذا أصم بنى الحارث بن عباد يقول :

زحفوا بجمع لا تُرَى أقطارُه
لقحتْ به حرب لغيرِ تمامِ
عربًا ثلاثة آلُف وكتيبة
ألفين أعجمَ من بنى الفَدامِ[٤]

ويبدو أن البعض قد علم باستعدادات الفرس ، وأنهم على وشك الزحف للقضاء على بكر ، فلم يضن هؤلاء على بكر بالتحذير لكى تستعد ، ومن هؤلاء مرداس أو عباس بن مرداس السلمى الذى كان مجاورا فيهم ، ورأى الجيوش مقبلة نحوهم فقال :

أبلغ سراة بنى بكر مغلغلة
إنى أخاف عليكم سربة الدار
إنى أرى الملك الهامرز منصلتا
يزجى جياداً وركبًا غير أبرار[٥]

وكان قيس بن مسعود سجينا عند كسرى ومع ذلك بعث يحذرهم ، ويحدد لهم الأماكن التى عليهم تجنبها :

وصاة امرئ لو كان فيكم أعانكم
على الدهر والأيام فيها الغوائلُ
فإياكم والطف لا تقْرَبُنَّه
ولا البحر إن الماء للهجر واصلُ[٦]

أما لقيط الإيادى — وكانت إياد قد حاربت إلى جانب الفرس — فقد كتب إليهم يحذرهم ويحثهم على تسليم القيادة إلى قائد كفء ليحقق لهزيمة الفرس فقال :

قوموا قيامًا على أمشاط أرجلكم
ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا

(١) تاريخ الطبرى ٢/٢١٢ .
(٢) النقائض ٢/٦٤٦ العقد الفريد ٥/٢٦٦.
(٣) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٣٩ .
(٤) الأصمعية رقم ٢١ .
(٥) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٣٨ تاريخ الطبرى ٢/٢١١ النقائض ٢/٦٤٤ .
(٦) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٢٨ .

وقلّدوا أمـــركم لله دركم
رحبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعا (١)

ولقد أحس بعض المقاتلين والقادة برهبة من لقاء تلك الجيوش التى لا قبل لهم بها ، وأدرك الشعراء القادة ذلك فهبوا يهونون من أمرهم ، هذا عمرو بن جبلة اليشكرى يقول مرتجزاً :

يا قوم لا تغرركم هذى الخـــرق
ولا وميض البيض فى الشمس برقْ
من لم يقاتل منكم هذى العنق
فجنبوه الراح واسقوه المرقْ (٢)

ويحدثنا المؤرخون أن فكرة اللجوء إلى الصحراء وعدم ملاقاة جيش الفرس قد راودت بعض القادة ، وأن الفريق المعارض لجأ إلى قطع وضن النساء ليدافع كل عن حريمه ، ووقف يزيد المكسر ابن حنظلة مرتجزاً :

من فر منـــكم عن حريمـــه
وجاره وفـــرَّ عنْ نديمـــه (٣)

أما الأبطال والفرسان الذين أبلوا فى ذلك اليوم فقد أغفل الشعراء بعضهم ، وذكروا بعضهم ، يقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى مفتخراً بيزيد بن حارثة اليشكرى الذى حمل على المرزبان فقتله :

منا يزيد إذ تحـــدى جموعكم
فلم تقربوه المرزبان المُسودا (٤)

وتحدث أبو كلبة عن ابن ســـيار وبطولته وبطولة فرسانه فقال :

قد أحسنتْ ذهل شيبان وما عدلتْ
فى يوم ذى قار فرسانُ ابن سيار
هم الذين أتوهم عن شمائلهـــم
كما تلبس وراد بصـــدار (٥)

وذكر بُكيْر ، أَصمّ بن الحارث بن عباد ، بطولة أبى قيس فقال :

شدّ ابنُ قيس شدة ذهبتْ لها
ذكرى له فى مُعْرِق وشآمِ (٦)

ويشير حنظلة بن ثعلبة إلى أحد الفرسان فى ذلك اليوم وهو عمير فيقول :

هذا عمير تحتـــه أَلَـــدُّ
يقدمه ليس لـــه مـــردُّ (٧)

وكان نصيب قادة كل من الطرفين من الاهتمام قليلا ، فلم يذكروا من جانب الفرس إلا الهامرز والمرزبان ، ومن

---

(١) الأغانى (دار الثقافة ٢٣/٢٢٤ .
(٢) العقد الفريد ٥/٢٦٨ ، الحماسة البصرية ١/٨٩ .
(٣) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣ / ٢٣٢ .
(٤) النقائض ٢/٦٤٣ .
(٥) النقائض ٢/٦٤٣ .
(٦) النقائض ٢/٦٤٥ ، تاريخ الطبرى ٢/٢١١ .
(٧) نفس المصدرين السابقين .

الجانب العربى النعمان بن زرعة الذى حارب إلى جانب الفرس ، وابن سيار الذى حارب الفرس ، يقول أعشى ربيعة :

فولونا الدوابر واتقونـــا
بنعمان زرعة اكتعينا (١)

ويقول عباس بن مرداس السلمى :

إنى أرى الملك الهامرز منصلتا
يزجى جياداً وركبا غير أبرار (٢)

أما جيوش الفريقين فقد أسهبوا فى وصفها وبخاصة جيش الفرس، ولعلهم فعلوا ذلك للمبالغة فى تصوير انتصارهم على جيش دولة لم يفكروا أنهم سيهزمونها ويعتبر وصف الأعشى للجيش وللقاء الفريقين من أدق الوصف وأجمله حيث يقول مصوراً جيش الأعداء :

لما أتونا كأن الليـــل يقدمهم
مطبق الأرض تغشاهم بهم سدف
بطارق وبنو ملك مرازبة
من الأعاجم فى آذانها النطف
من كل مرجانة فى البحر أحرزها
تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل فى حافات جمعهم
والبيض برق بدا فى عارض يكف

(١) تاريخ الطبرى ٢/٢٠٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٢١٢ النقائض ٢/٦٤٦ .

ويتحدث عن جيش قومه فيقول :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
منا غطاريف تزجى الموت فانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها
للموت لا عاجز فيها ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصـــة
موفق حازم فى أمره أنــف
فيها فوارس محمـــود لقاؤهم
مثل الأسنة لا ميل ولا كشف
بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم
جنان عبس عليها البيض والزغف

ويصور لنا الأعشى نتجة المعركة فى أبيات قليلة فيقول :

لما التقينا كشفنا عن جماجمنا
ليعلموا أننـــا بكر فينصرفوا
لما أمالوا إلى النشاب أيديهم
ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تحصدهم
حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف
قالوا البقية والهندى يحصدهم
ولا بقية إلا السيف فانكشفوا (٣)

وتحدث شعراء آخرون عن نتيجة المعركة ، فهذا ضرار العجلى يخبرنا بفرار ضبة الجعراء بعد أسر تسعين كهلا منهم كما أنهم قتلوا سيدهم لأضجم الضبى :

(٣) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٢٨ .

كسونا الأضجم الضبي لما
أتانا حد مصقول رقيق
وفرت ضبة الجعراء لما
أجد بهن إتعاب الوسيق
أسرنا منهم تسعين كهلا
نقودهم إلى وضح الطريق[(١)]

ويخبرنا العديل بن الفرخ العجلى بما استلبوه من القوم المنهزمين فيقول :

جئنا بأسلابهم والخيل عابسة
يوم استلبنا لكسرى كل إسوار[(٢)]

وأفلت فى هذا اليوم النعمان بن زرعة التغلبى ، وأخبرنا بذلك مرثد بن الحارث الشيبانى حيث يقول :

وأفلتنى النعمان قاب رماحنا
وفوق قطاة المهر أزرق لهذم[(٣)]

وقتل الهامرز فى هذا اليوم ، يقول الأعشى :

فجاء القيل هامرز
عليهم يقسم القسما
يذوق مشعشعا حتى
وذهلا دون ما زعما[(٤)]

وبالغ الشعراء فى تصوير كثرة عدد القتلى من الفرس زهواً بذلك النصر الذى حققوه على الفرس ، فقال الأعشى :

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم
ملنا ببيض فظل الهام يقتطف[(٥)]

ويقول فى قصيدة أخرى مصوراً ما كانت عليه حالهم وما آلت إليه :

أذاقوهمو كأسا من الموت مُرةً
وقد بذخت فرسانهم وأدلتِ[(٦)]

وحدثنا الأعشى عن هزيمة الفرس ومصير نسائهم فقال :

فما برحوا حتى استحثت نساؤهم
وأجروا عليها بالسهام فذلتِ[(٧)]

ويبدو أن قيس بن مسعود وفد على كسرى بعد يوم ذى قار ، فهب الأعشى يلومه ويذكره بيوم ذى قار وبحاجة بكر إليه وبمنزلته :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد
وأنت امرؤ ترجو شبابك وائلُ
أطورين فى عام: غزاة ورحلة
ألا ليت قيساً غرَّقتْهُ القوابلُ[(٨)]

---

(١) ديوان الأعشى ٣٠٩ ، العقد الفريد ٢٦٦/٥ .
(٢) النقائض ٦٤٨/٢ .
(٣) العقد الفريد ٢٦٦/٥ النقائض ٦٤٨/٢ .
(٤) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣٣/٢٣ .
(٥) ديوان الأعشى ٢٩٩ ، تاريخ الطبرى ٢١٢/٢ .
(٦) ديوانه ٢٠٩ .
(٧،٨) ديوانه ٢٥٩ .

ثم يذكره بذلك اليوم وبالقتلى فيقول :

كأنك لم تشهد قرابين جمة
تعيث ضباع فيهم وعواسلُ
تركتهم صرعى لدى كل منهل
وأقبلت تبغى الصلح أملك هابلُ(١)

بعد هذا العرض المفصل لشعر يوم ذى‌قار ، فإننا ، بمقارنة ما أورده هذا الشعر بما ذكره المؤرخون من أحداث ذلك اليوم ، نرى أن هذا الشعر قد غطى معظم أحداث اليوم ، ولئن قصر فى تغطية بقية الأحداث فإن له فضلا كبيراً وهو أنه رصد لنا بعض الأحداث التى أغفلتها المصادر الأخرى غير الشعر . أما تعليل ذلك التقصير الذى بدا فإما أن يكون متصلا بالرواة وإهمالهم أو نسيانهم بعض الشعر ، وإما أن تكون تلك الأحداث لم تثر اهتمامهم .

وهكذا ففى زعمنا نستطيع تطبيق هذا المنهج الذى استخدمناه فى يوم ذى قار على الأيام التى وصلنا قدر كاف من شعرها . أما الأيام غير المحظوظة التى فقد الكثير من شعرها فإننا نقف عاجزين ونستطيع تطبيق ذلك على مجموعات الأيام التى تربط بينها رابطة مّا ، كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب الفجار وحروب الأوس والخزرج .

* * *

ونختتم مقالتنا هذه بالإشارة إلى نقطتين هامتين : الأولى : أن الرواة والمؤرخين اتُهموا ، أواتهم بعضهم بمحاولة المطابقة بين الحادثة والشعر ، ولكن ذلك لا يؤثر على مضمون الشعر إلا إذا كان منحولا ، فنحن درسنا الشعر ولم ندرس إشارات الرواة وربطهم الشعر بحادثة مّا إلا نادراً .

والنقطة الثانية : أن الشعر قصر عن تحديد الأحداث بصورة ثابتة تاريخيًّا ، وهذا ليس من وظيفة الشعر ، بل يكفى أنه نقل إلينا صورة حية واضحة محددة عن أحداث اليوم . أما التحديد التاريخى وباقى التفاصيل المتصلة بذلك فقد عجزت كتب التاريخ عن ذلك فكيف بالشعر ! ؟

(١) ديوانه ١٨٣ .

هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق فماذا بعد إظهار الحق .

أضيفت إلى المكتبة الإسلامية طبعة جديدة من كتاب إظهار الحق للشيخ رحمت الله العثمانى الكيراونى الهندى بعد التعريف بها تعريفاً جديداً وتحقيقها تدقيقاً وقدم لها فضيلة الأمام الأكبر شيخ الأزهر . وألحق بالكتاب بجزأيه ستة ملاحق هى :

١ ـ مناظرة الشيخ القسيس بفندر .

٢ ـ مناظرة الشيخ القسيس كئى .

٣ ـ رسالة « التنبيهات فى إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر » .

٤ ـ رسالة « خلاصة الترجيح للدين الصحيح » .

٥ ـ مختصر الأجوبة الجلية فى دحض الدعوات النصرانية .

٦ ـ رسالة الفاتيكان (٢) فى شأن الديانات غير المسيحية .

وانتخب المحقق بعضا من المخطوط الأصلى للمؤلف « إظهار الحق » أضاف صورها بالطبعة .

ومن تقديم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر .

« أرأيت إلى هذا التكريم الذى أحاط الإسلام به مريم عليها السلام ، وعيسى عليه السلام ؟ .

إنهما فى التكريم السامى الذى أنزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين . وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه ، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة ويتهمونها بالزنى ، إذا بالقرآن ، وبالجو الإسلامى كله قديمه وحديثه ، يعتبرها قديسة صديقة .

وبينما ينكر اليهود على عيسى عليه السلام ، نبوته ، ويرمونه بالكذب ، إذا بالإسلام يعترف بنبوته ، وبأنه عبد الله ورسوله ، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة .

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان ، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده ، وعللوا المسيح والمسيحية بأنهما من اختراع

القديس بولس ، وأن المسيح ليس إلا أسطورة لم يقع لها وجود إلا فى خيال القديس بولس ، إذ بالإسلام يوجب على أتباعه وجوباً حتمياً : الإيمان بعيسى عليه السلام ، نبياً ، ورسولا ، ومباركا ، ووجيها : فى الدنيا والآخرة .

عيسى ؟

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين : نبى ، معصوم ، مبرأ من المعصية وأمه صديقة ، اصطفاها الله ، وطهرها على نساء بنى إسرائيل .

من هذا الأساس ينطلق الكتاب المسلمون : القدماء منهم والمحدثون حينما يكتبون عن المسيحية ، ومن الكتاب العلماء المفكرين « رحمت الله الهندى » ، إنه عالم ثبت واسع الثقافة دقيق التعبير ، مترو .

وقد كتب هذا الكتاب الذى نقدم له ، وهو « إظهار الحق » بعد أن جال جولات واسعة متعمقة فى مختلف الكتب التى تحدثت عن الأديان بصفة عامة ، أو تحدثت عن دين معين بصفة خاصة .

ولقد وفقه الله سبحانه وتعالى توفيقاً كبيراً فى « إظهار الحق » وكان كتابه صورة دقيقة للعنوان الذى وضعه للكتاب .

ولقد طبع الكتاب من قبل ، ثم أحب السيد المستشار محمد كمال فراج أن يعرف به تعريفاً جديداً وأن يحققه تحقيقاً دقيقاً فرجع إلى أقدم المخطوطات وراجعها وقارنها ببعضها فجزاه الله خير الجزاء وأحسن إليه إحساناً جميلا .

ونرجو الله أن يهدى للكتاب وأن يهدى به ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

ويعرف المحقق بالكتاب فيقول :

قرأت « ميزان الحق » للقسيس بفندر وقرأت « ميزان الحق » للمبشر سنكلر تسدل منقحاً طبعة فندر فلم أجد مناصاً من دراسة كتاب « إظهار الحق » للشيخ رحمت الله الهندى فبدت الحاجة إلى إعادة طبعه فاعتمدت على النسخة المطبوعة بالمطبعة العلمية بمصر ، وزكى الحاجة إلى غايتى أننى عندما توليت إعادة كتابته قبل طبعه شدتنى الحاجة إلى مطالعة الكثير من آثار شيخنا المطبوعة والمخطوطة وأقربها إلى موضوع الكتاب ذلك المخطوط المسمى « إظهار الحق وإخفاء الباطل » وقدمه بعبارة ومقابلة فى رد الإسلام والمجلد مخطوط فى أول شهر محرم سنة ١٢٨٤ هـ لمؤلفه الشيخ الحاج رحمت الله الهندى وقد اخترنا من أبواب الكتاب الفصل السادس فى الكلام على محمد

ونبوته والأجزاء الخاصة فى حدوث القرآن وفى الناسخ والمنسوخ – ومن الباب الرابع فيما يجب على المسلمين دينا أن يفعلوه بمن يخالف مقالته .

وكلما توغلت فى فكره وذلك أجدى سبل التحقيق : تأكد لى تماسكه وتناغمه وتوافقه وانسجامه وأفصحت عن رغبتى لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر لما استقرأت حاجة المسلمين إلى هذا المؤلف فزكاها فلما نقلتها إلى المعنيين أعربوا عن حماس أشد : أضاف إليه لدىّ تربص الاستعمار الإلحادى والتفافه بل توغله فى بلاد المسلمين ولا جدوى من التصدى له طالما اكتنف الغموض عقيدة المؤمنين ، والتاريخ يؤكد أن تنكر الناس للدين جاء أثراً لتورط رجال الدين فى أمور أساءت إلى الدين لأنهم جعلوا من أنفسهم مصدراً للدين مما أشعل الصراعات بين فرقهم فساقوا الناس إلى نبذ الدين . . (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ١٠ : ٧، ٨) والتناقض هو الذى يستقطب اتجاهات الاستعمار الإلحادى ولا سبيل إلى إزالة التناقض بغير إظهار الحق وبيان الحقيقة .

والشيخ رحمت الله ولد فى قرية كيرانة بالهند عام ١٢٣٣ هجريه وتوافق مارس عام ١٨١٨ ميلادية فى مجتمع حرص فيه السلاطين على تكريم العلم والعلماء فى التعليم والطب والقضاء وقد أتاح المجتمع للشيخ رحمت الله أن يدرس شتى المعارف فى الدين والطب والهندسة والرياضيات حتى عين سكرتيراً أولا فى الحكومة ثم تركها وانصرف إلى التدريس ، وفى تلك الحقبة كانت بعثة المبشرين تؤدى مهامها تحت رئاسة القسيس بفندر فتنبه الشيخ إلى الخطر الداهم ، فعكف على دراسة النصرانية لمحاجاة المبشرين ، وبعدها تلقى دعوة من ذلك القسيس للمناظرة العلنية إحقاقا للحق وإزهاقاً للباطل التى انعقدت فى ١ /٤/ ١٨٥٤ م فى خان عبد المسيح فى حى أكبر أباد فى مدينة أغرة ، وشارك فى الحضور جمهور غفير من الحكوميين والدبلوماسيين ، وعلماء الدين والصحفيين واستقر الحوار حول مسائل النسخ والتحريف وألوهية المسيح ، والتثليث ، ووحى القرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام وفى موضوع التحريف : سلم القسيس بوقوعه فى بعض مواضع فكان ذلك حجة عليه لم يقبل الحاضرون دفاعه عنها مما أثار الغضب والحدة واحتدام المناقشة والاستفزاز .

ورؤى إتمام الحوار بمساجلات كتابية زاد من أهميتها التزام الشيخ بقبول النصرانية إن هو أخفق فى الرد على أجزائها

وبعد ما علم الإنجليز بنتيجة المناظرة أمرت باستدعاء القسيس بفندر ثم كلف مبشراً بالقسطنطينية فاتصل بالسلطان عبد العزيز خان بالقسطنطينية وقص عليه كذباً وقائع المناظرة فأرسل السلطان يستدعى الشيخ الذى ما إن علم بوصوله حتى مضى القسيس زائغا فلما اطمأن السلطان إلى كلام الشيخ كلفه بطبع المناظرة وشرحها فبدأ تحت اسم « إظهار الحق » عام ١٢٨٠ هـ وبعدها ترجم إلى لغات شتى وطبع فى مصر مرات عديدة بعضها باسم « إبرار الحق » وبعضها باسم « تأييد الحق برحمت الله » .

واستقر مقام الشيخ فى مكة ليدرس فى المسجد الحرام علوم الفلسفة والرياضة والدين واللغة حتى قدمت السيدة صولت النساء بيغم فعاونته على إنشاء المدرسة الصولتية كمدرسة نظامية لخدمة الوافدين وتعليمهم وإعانتهم على كسب عيشهم .

وتبعاً لنشاطه كثرت رحلاته نشراً لمعلوماته ولعلومه ومعارفه فى درء الفتن والمحن حتى أفل راجعاً إلى مكة فغلبه المرض حتى قبضه الرفيق الأعلى فى رمضان عام ١٣٠٨ هجرية رحمه الله ونفعنا بعامه .

موضوعات الكتاب إجمالا :

أظهر المؤلف فى الباب الأول والثانى أن اليهود حرفوا التوراة عمداً وذكر أمثلة من أسفار موسى الخمسة وأسفار الأنبياء على التحريف اللفظى والمعنوى بالتبديل والزيادة والنقصان . وأظهر أن النصارى قد ضاع إنجيلهم النازل من السماء والموجود الآن بأيديهم أناجيل منسوبة إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا وفى الأناجيل أخبار متناقضة وأقوال غير متطابقة !؟

وأظهر فى الباب الثالث : أن الله ينسخ الشرائع لمصالح المكلفين ، فقد كانت أحكام فى شريعة نوح نسخت فى شريعة موسى ، والقديس بولس ادعى فى رسائله : أن الإنجيل ناسخ للتوراة فى حين أن المسيح صرح بأنه غير ناسخ للتوراة . وذلك فى قوله « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » (متى ٥ : ١٧ إلخ) .

والإسلام قد نسخ الشريعة السابقة عليه لمصالح المكلفين ، حيث نزل خاتم الرسالات ومهيمنا عليها .

وأظهر فى الباب الرابع : أن « الله واحد » ونقد التثليث بأدلة عقلية ونقلية من التوراة والإنجيل وذكر اعتراضات النصارى

على المسلمين فى مثل ما جاء فى القرآن أن المسيح « روح الله » ورد على كل اعتراض بأدلة مقنعة . وناقش النصارى فى قولهم إن المسيح « ابن الله » وبين أن هذا اللفظ على المجاز تنقصه القرائن وأنه يطلق فى عرف اليهود والنصارى على كل عبد من عباد الله .

وفى الباب الخامس : أثبت إعجاز القرآن وصحة الأحاديث النبوية الواردة فى كتب أهل السنة والجماعة .

وفى الباب السادس : أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بآيات من التوراة كتبها موسى عن محمد إذا كان هو الكاتب . وبآيات من الإنجيل كتبها المسيح عن محمد إذا كان هو الكاتب .

ثم ذكر مطاعن المبشرين والقساوسة على نبى الإسلام والقرآن ، ورد على هذه المطاعن .

بين عالم . . وملك

دخل عمرو بن عبيد على أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وكان أعظم ملوك الدنيا فى عصره فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يقفك ، ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وأن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وأن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ؟ ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك ، وأن الله جل وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية .

يا أمير المؤمنين : إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور ، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟ قال : فبكى المنصور ؟ فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور :

— ياعمرو ، قد شققت على أمير المؤمنين .

فقال عمرو : يا أمير المؤمنين من هذا ؟

قال : أخوك سليمان بن مجالد !؟

باب الفتاوى [1]

الأستاذ عبد الحميد شاهين

س ١ – الرجل الذى يختزن المخدرات للغير مقابل عمولة معينة يأخذها ، فهل ما يأخذ يكون حراماً أم حلالاً ؟ .

(ج) إننا نحب أن نوجه إلى معنى كل من الحلال والحرام ، لتكون الأمور واضحة الحدود بينة المعالم ، فنقول: إن الحلال هو ذلكم الأمر المباح الذى انحلت فيه عقدة المنع والحظر، وأذن لنا الشارع فى فعله ، لأنه لا يؤذى فرداً ولا جماعة ، ولأنه بعد مما يحقق بناء مجتمع نظيف على أساس من الخير للجميع .

وأما الحرام: فهو ما ينهى عنه الشارع نهياً جازماً بحيث يكون لفاعله عقوبة فى الآخرة وقد يتعرض فاعله ومرتكبه لعقوبة شرعية فى الدنيا . والله سبحانه وتعالى جعل التحريم والتحليل لعلل معقولة ترجع لمصلحة البشر أنفسهم ، وللمجتمع الذى يعيشون فيه ، حتى يتم الترابط على أساس صحيح من الخير والمنفعة ، والمخدرات جميعها حرام لا يجوز تعاطيها ، لأنها أمام هذه الكلمة الجامعة التى قالها عمر رضى الله عنه مبيناً للناس مفهوم الخمر التى جاء تحريمها بنص القرآن الكريم فى قوله تعالى (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) فقال الخمر كل ما خامر العقل ، وهذه الأنواع كلها تخرج العقل عن طبيعته فى الحكم على الأشياء إلى غير ما أثبته الطب

(١) الإجابة للمرحوم الإمام الشيخ محمود شلتوت .

الحديث من فساد فى الصحة وانحراف فى الفكر ، وما عرفه متناولوها وعرفه المتصلون بهم من خنوع وتبلد فى الرأى وتبلد فى الطبع ، وتميع فى الخلق، وتحلل فى الخلق ، وعدم القدرة على الإحساس أو الشعور بالواجب إلى غير ذلك ، وحيثما ثبتت حرمتها بالنسبة للتعاطى فإن الشريعة تحرم كل ما يؤدى إلى التمكين منها بالاتجار أو بالاختزان أوغير ذلك ، وتحرم كذلك كل ما يأتى عن طريقها من مال ، فإن الله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وقد جاء فى الحديث الشريف «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه ومن أكل ثمنها». ولاشك أن التحريم يتبع الخبث والضرر فكلما وجد ذلك وجد بجواره التحريم الذى يحفظ الفرد والجماعة — وبذا تكون العمولة على هذا النحو حراماً ، ولا يحل ما يأتى من هذا الباب مطلقاً .

س٢ — البقال الذى يزور بطاقات تموينية بأسماء وهمية بقصد الاستيلاء على مواد التموين عن هذا الطريق ، فما حكم المال الذى يدخل يده عن هذا الطريق ؟ .

(ج) إن حرمة مثل هذا العمل ظاهرة واضحة فكم مخالفة ارتكبت فى هذه العملية ، إنه فوق ما ارتكب من غش وتحايل احتجز هذا المال لنفسه واحتكره ليعلى به الأسعار ويحرم منه من هو فى أمس الحاجة إليه (والمحتكر ملعون) كما جاء فى الحديث ، وللحاكم أن يتخذ من الأحكام ما يضمن به للمجتمع سعادة ويسار وهناءة فى العيش .

س ٣ — الحارس على أموال القصر إذا اضطر إلى ترميم البناء أو إصلاحه وتقدم له من سيعمل وقد قدر سعراً رضى به ثم وصل باجتهاده إلى سعر أقل فما حكم هذا الفرق ، هل هو حرام أم حلال ؟.

(ج) إن هذا العمل يعتبر عدوانا على كيان الأمة لأن هؤلاء اليتامى القصر هم اللبنات الرطبة التى يشاد على كاهلها فى المستقبل بناء المجتمع والتلاعب فى

أموالهم: دروس تسيء إلى نفوسهم وتقف بأموالهم عن الإنماء والتقدم ، والحارس مطالب بكل ما ينمى مال القاصر ، ومطالب باستثماره استثماراً طيباً، والحارس كالولى لا يجوز له أن يأخذ من مال اليتيم أو يتلاعب فيه ، وإنما أذن له إن كان فقيراً أن يأخذ منه ما يكفيه بالمعروف ، يقول الله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النكاح فإن آنسّم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) . ويقول تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) .

ويقول تعالى : (ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنيًّا فليستعف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) .

ولنتذكر جميعاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » .

س ٤ — موظف يأخذ بدل الانتقال فى داخل المدينة ، ثم لا يستخدم هذه المواصلات ، ويمشى على قدميه ويأخذ النقود لنفسه : حرام هذا أم حلال ؟ .

(ج) الدولة أعطته هذه النقود لاعتبارات . أولاً : للإسراع فى إنجاز العمل، وعدم إستعماله المواصلات إرهاق لجسده وبدنه، وتأخير للعمل عن وقته ، وهو بعد تكريم للموظف ، وجدير بمن يهدد كرامته مقابل دراهم معدودة جدير به ألا تسند إليه أعمال الدولة ، ثم لو علم رئيسه بهذا فهل كان يقبل منه هذا العمل؟ لا شك أنه لا يقبل، فكل هذه الاعتبارات تجعلنا : لا نستحسن مثل هذا العمل ولا نقره، وأخيراً: فإن البر ما اطمأن إليه القلب والإثم ما حاك فى الصدر وخفت أن يطلع عليه الناس، وإن الضمير الدينى الذى يستمد رقابته من خشية الله ومراقبته وعلمه بالسر والنجوى ليأبى مثل هذا العمل ويرفضه حتّى لا يجر صاحبه إلى ما هو شر من ذلك، فيكون قضاء مبرماً وشرًّا مستطيراً ، وفى الحديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

تواضع عمر

خرج عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ويده على المعلى بن الجارود العبدى ، فلقيته امرأة من قريش فقالت له : يا عمر ، فوقف لها ، فقالت : كنا نعرفك مدة : عميرا ، ثم صرت من بعد عمر ، ثم صرت من بعد عمر : أمير المؤمنين ، فاتق الله يا ابن الخطاب وانظر فى أمور الناس ، فإنه من خاف الوعيد : قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت : خشى الفوت ؟

فقال المعلى : إيهاً يا أمة الله فقد أبكيت أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اسكت . . أتدرى من هذه ويحك ؟ هذه خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها من سمائه ! ؟ فعمر أحرى بأن يسمع قولها ويقتدى به !

وخولة . . هى التى نزلت فيها (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ٥٨ : ١ — ٢٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنقاذ الإسلامى اليمنى

يناشد الرأى العام اليمنى والعربى والإسلامى والعالمى
أن يهب لإنقاذ اليمن من الكارثة والحروب الأهلية

الأستاذ محمد عبد الهادى العجيلى

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. هذا بيان إلى الشعب اليمنى وإلى الرأى العام العربى والإسلامى والعالمى : أن يهبوا جميعاً وبوازع من الإسلام والإنسانية لإنقاذ اليمن الطبيعية من الكارثة الهوجاء والفتنة العمياء قبل وقوعها وانفجار أخطارها واندلاع لهيبها وأضرارها وأوضارها .

إن الإنقاذ الإسلامى اليمنى يلفت أنظار المجتمع العربى والإسلامى والإنسانى إلى ما ينتظر اليمن من شرور وكوارث وإلى ما هى مقدمة عليه من حروب أهلية وحوادث لا يعلم مدى ما تنتهى إليه إلا الله سبحانه وتعالى !

أيها العرب أيها المسلم أيها الإنسان فى كل مكان إننا نستثير فيكم الغيرة والنجدة والشهامة والكرامة : لكى تعملوا وبأسرع ما يمكن لإنقاذ اليمن من المحن والإحن والفتن التى تحدق بها من كل جانب وتبرز أنيابها لتفترس اليمن بشطريها وبأقوى الشراسة والمخالب .

إنكم أيها الإخوة قد سمعتم وعلمتم ماحاق باليمن من دسائس وبلاء وما هو آت أخطر ، وأشد وأكبر . وإن الإنقاذ

الإسلامى اليمنى الذى حمل على عاتقه لواء إنقاذ اليمن الطبيعية منذ ثلاثين عاماً ليصرخ وبكل صوته وإيمانه وكفاحه وجراحه مذكراً الأمة الإسلامية إلى واجبها نحو اليمن. اليمن هذا البلد الإسلامى العربى الذى أسهم وقدم للعالم كله أعظم حضارة ومدنية منذ فجر التاريخ — إنه اليوم يواجه امتحاناً خطيراً وشراً مستطيراً فوق أرضه الطاهرة الطيبة — إن هناك عوامل خارجية وأصابع أجنبية وقوى عالمية تحرك خيوط تلك المآسى وتوجهها وتدير معاركها وتفتك بشعبها المسلم المسالم، وهذه القوى أصبحت اليوم معروفة ومكشوفة وقد أرادت أن تجعل من اليمن بشطريها مسرحاً للمجازر وسفك الدماء وميداناً للصراع العالمى الرهيب وإننى هنا باسم (الإنقاذ الإسلامى اليمنى) أوجه هذه الصرخة المدوية إلى العالم بأسره معلنا للدنيا كلها: أن الشعب اليمنى بجنوبه وشماله شعب واحد، ويمنه واحد، وهدفه هدف واحد — وأنه لا حدود ولا قيود بين أبناء هذا الشعب منذ أن خلق الله هذا الكون وفطره — وقد ظل شعب اليمن يجاهد ويكافح كل الدخلاء الذين إرادوا تفريقه وتمزيقه ! وإذا كنا قد كافحنا الاستعمار البريطانى وقدمنا التضحيات الغالية من رجالنا وأموالنا وأعمارنا وانتصرنا عليه وطهرنا اليمن منه ومن احتلاله ، أقول : إذا كان الأمر كذلك، فإننا اليوم لن نرضى أن نستبدل استعماراً باستعمار ، واحتلالاً باحتلال لبلادنا ووطننا ، ولن نقبل بأى تدخل أجنبى فى اليمن مهما كانت هويته ومهما كانت أغراضه وأحابيله ، وإننا إذ نشجب تلك الحدود التى يرددها الببغاوات والإمعات بين أبناء اليمن الطبيعية : إلا أنه لا حدود ولا قيود : إلا فى منطق العملاء والقرود ! وإلا أين تلك الحدود التى لم يعرفها الآباء والجدود ، منذ فجر الوجود ، — إلا أننا نسمع اليوم ونضحك ، بل ونبكى لما يراد باليمن الطبيعية — أجل أيها العالم شاركنا فى الضحك أو فى البكاء — وشر البلاء ما يضحك عن (سياسة الأطفال ولعب العيال) فى يمننا المفدى إن كل فريق فى الشمال اليمنى وجنوبه يصرح أنه حشد الحشود

وجند الجنود على حدود بلاده — أى والله — على حدود بلاده — وأى بلاد هذه — إنها اليمن — وأبناؤها أبناء اليمن لا فرق بين شمال وجنوب ، وبرهاننا على ذلك ، والله شاهد على من يصطنع للشعب المهالك : أن ابن الشمال يحكم الجنوب وابن الجنوب يحكم الشمال — أى أن عبد الفتاح إسماعيل : يحكم عدن ، وعبد الله الأصنج : يحكم صنعاء — يا للمهازل يا للمعاضل التى نكبت بها اليمن من أبناء اليمن — :

أمور يضحك العقــلاء منها
ويخشى من عواقبها اللبيب

وأخيراً وليس آخراً طلعت علينا السياسة العربية بوضع آخر وسام فى دولة الانفصالية والردة الذى صنعه الاستعمار وأراد تنفيذه العملاء البلهاء لتقسيم اليمن إلى يمنين ، والقطر إلى قطرين ، والشعب اليمنى — الواحد المتحد — إلى شعبين بواسطة الجامعة العربية التى كان من واجبها وهى تحمل شعار وحدة الأمة العربية أن تنصح أبناء اليمن بعد خروج الاستعمار البريطانى من بلادهم منذ عشر سنوات ، وتقول للعملاء والأذناب والأوشاب الذين يريدون تمزيق وحدة اليمن وتفريقها (عيب عليكم يا أطفال وعار عليكم ياعيال) وحدوا جهودكم وللموا صفوفكم ، وحافظوا على وحدة ترابكم وبلادكم ، وشكلوا نظاماً واحداً وحكومة متحدة لليمن بشطريها ، فقد زالت العوائق ، ويجب أن تعودوا إلى الحقائق ، والوثائق ، وتنقضوا على كل انفصالى خائن ومتاجر ومارق — :

إلى الماء يسعى من يغص بريقه !
فقل : أين يسعى من يغص بماء؟

حقـًّا : أيها العرب والمسلمون وعشاق الحرية فى كل مكان : إن اليمن اليوم فى مهب الريح وإنها على مفترق الطرق وعلى شفا جرف من الجحيم ، والعذاب الأليم ، والمستقبل الوخيم : إذا لم يتداركها المصلحون ويسعى لإنقاذها المجاهدون المؤمنون .

أيها الشعب اليمنى المكافح : لقد ضحيت ، وجاهدت ، وبذلت فى

سبيل وطنك وشعبك ، ووحدة تراب يمنك : يجب عليك اليوم أن تواصل الجهاد والجلاد ، لتطهر اليمن من الاحتلال والفساد والإلحاد ، والخونة الأوغاد ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . يا شعب اليمن العريق الموحد : إن عليك اليوم مسئولية عظمى لإنقاذ اليمن الطبيعية ، من النزعات الانفصالية ، والنعرات الجاهلية ، والأفكار الصبيانية والمسالك الحيوانية : إن اليمن الذى حكمه الرشاش والحشاش والأوباش سيبقى موحداً بترابه وأحسابه وأنسابه ووشائجه وأرحامه : رغم القوى الأجنبية التى تعربد وتصول ، وتجول فى الساحة اليمنية والجزيرة العربية ، لتحولها إلى فيتنام أخرى ، ومجزرة جديدة فى الشرق الأوسط عن طريق كراكيسها ونسانيسها فى المنطقة : إننا يا شعب اليمن الطبيعية قد عاهدنا الله وعاهدناك ، وعاهدنا الوطن المفدى : أن نبقى فى صف الجهاد والاستشهاد حتى نوحد البلاد ، ونعيد الأمجاد للآباء والأجداد أو نلقى رب العباد بغير نكوص أو تبديل أو ارتداد ! وأن الإنقاذ الإسلامى ليهيب بأبنائه وطلابه أينما كانوا ، وحيثما وجدوا فى الوطن ، أو فى المهجر : أن يلبوا نداء الإنقاذ ! يا شعب اليمن الطبيعية إنك تعلم أن اليمن اليوم تعانى من أمراضها وجروحها وحروبها وليس أمامك إلا أن تتقدم وتقدم الرجال العلماء والقادة الزعماء الذين يعرفون الله تبارك وتعالى ويخافونه ويخشون عقابه فى حمل الأمانة .

إن الأمانة اليوم محتاجة إلى العقول لا إلى العجول ، أما إذا فقدت الأمة الزعامة الرشيدة والقيادة السديدة : فإنها تكون قد فقدت كل مقوماتها ، بل وخسرت فى حاضرها ومستقبلها ، والحكيم الإسلامى يقول : (إذا هزلت الشياه حكمتها العنز الجرباء) والشاعر العربى يقول :

ولكن البلاد إذا اقشعرت
وصوح نبتها رعى الهشيم

فإلى الجهاد وإلى الجلاد وإلى الوحدة والاتحاد يا شعب اليمن الطبيعية !!

وللأوطـــان فى دم كل حر
يد سلفت ودين مستحـــق
وللحـــرية الحمــراء بـــاب
بكل يـــد مضرجة يدق

فانصروا الله ينصركم أيها الإخوة المجاهدون، وارفعوا راية الإسلام فى يمنكم كما رفعها آباؤكم، وأجدادكم، وانتظروا بعد ذلك فوزكم ونجاحكم وانتصاركم . .

قال الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ٤٧ : ٨) . صدق الله العظيم

(محمد عبد الهادى العجيل)
رئيس الإنقاذ الإسلامى لليمن الطبيعية

فى التوبة

قال عليه الصلاة والسلام :

« يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة .

وقال : لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة . فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه . فأيس منها . فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده . فأخذ بخطامها . ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » .

وقال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . حتى تطلع الشمس من مغربها !؟ »

في مراقبة الله

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان » ثم انطلق فلبثت ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم .

ومعنى « تلد الأمة ربتها » : أى سيدتها . ومعناه : أن تكثر السرارى حتى تلد الأمة السرية بنتا لسيدها وبنت السيد فى معنى السيد . وقيل غير ذلك و « العالة » : الفقراء . وقوله « ملياً » أى زماناً طويلا ، وكان ذلك ثلاثاً . .

كتاب الشهر

سرى لانكا

SRI LANKA — CEYLON

الحديقة العائمة فوق مياه المحيط الهندى

بمناسبة انعقاد الندوة الإسلامية الدولية فى كولومبو العاصمة

International Muslim Seminar

٢٣ – ٢٦ رجب ١٣٩٨ هـ = ٣٠ يونيو – ٣ يوليو ١٩٧٨ م

الدكتور عبد الودود شلبى

ألا فامطرى جبال « سرنديب »
وأبـــار تكرور تـــبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
أنا إن مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى
نفس حرٍّ ترى المذلة كفرا

* * *

أبيات قديمة للشاعر محمود سامى باشا البارودى أذكر يوم قرأتها . . والمكتبة التى اشتريت ديوانه منها . .

كنت متجهاً إلى حارة « عبد الباقى » فى حى درب الجماميز عقب صلاة الجمعة فى مسجد فاضل باشا أو جامع الشيخ رفعت كما يسميه الناس فى هذا الوقت . وقد تأبطت ذراع أخى المرحوم عبد العزيز شريت تلبية لدعوة كريمة منه بتناول الغذاء فى بيت أسرته الشهير بهذه الحارة العتيقة .

لقد توقفنا أمام مكتبة من تلك المكتبات المنتشرة فى هذا الشارع العريق الذى لم أعرف سر تسميته بهذا الاسم حتى هذا اليوم ، ثم تناولنا مجموعة من الكتب وبخاصة ما يتصل منها بالأدب والشعر . لقد كنت فى هذه المرحلة المتقدمة من سنى الدراسة مغرماً بالأدب والفكر . ولم يكن يفوتنى كتاب من هذه الكتب التى تنسب قارئها إلى زمرة الأدباء فى هذا العصر . ومن غير قصد بدأت أقلب صفحات هذا الديوان الملتهب بأهازيج البطولة والإباء والفخر .

لكن . . ما « سرنديب » هذه التى يتحدى الشاعر جبالها أن تمطر تبراً ؟ لابد أن تكون قريبة من « المقطم » أو واقعة فى سفح من سفوح جبال مصر على الأكثر . . لم تكن ثقافتى الجغرافية تسمح بأكثر من هذا الخيال والتصور . كنت طالباً فى الثانية الابتدائية بالأزهـــر ، ولم يكن — لـ « سرنديب » هذه فى دراستنا أثر يذكر .

* * *

وبمحض الصدفة وقعت عيناى على كتاب مع أحد الوراقين الذين عرف بهم حى الأزهر . . لم يكن لهذا الكتاب « عنوان » يعرف به . كان غلافه ممزقاً وأكثر أجزائه ضائعاً . ولفت نظرى من بين فصوله « فصل خاص » عن الثورة العرابية . زعيمها . . ورجالها . . والمصير الذى انتهى إليه أبطالها .

وتوقفت ثانية أمام صفحة يتحدث

فيها البارودى عن رحلته من أرض الوطن إلى المنفى .

إنى لما أفضت بى غوائل الزمن [١] إلى مفارقة الأهل والوطن . . سارت بأشباحنا الفلك ، بتقدير من مالك الملك ، فلما توسطنا لجة اليم ، وتغشتنا ضبابة الهمّ أخذ البحر يهدر ويموج ، والريح تعصف وتروج [٢] والدجن يبرق ويرعد [٣] ، والموت يقرب ويبعد ، والفلك بين صعود وهبوط والناس بين رجاء وقنوط ، فشخصت الأبصار [٤] ، وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع ، واستولى الجزع فلم يزل يتخبطنا اليم ويأخذ بأكظامنا الغم [٥] حتّى كادت الأنفس تزهق ، وأظفار المنية ترهق وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص ، فبعد لأى [٦] ما سكنت فورة الريح ، وهدأت ثورة ابن بريح [٧] وتجلت بنورها السماء ، واصطلح الماء والهواء ، فقرت الأنفس فى الصدور ، وتنفس كل مصدور ، ولم يبق إلا سوق الحديث من قديم وحديث ، والفلك يمخر البحر بجؤجؤه [٨] ونحن من الشهر فى دؤدؤه [٩] حتّى انتهى بنا الدبيب ، ولاحت عين « سرنديب » .

منازل لم تألف بها النفس مألفاً
على أن فيها كل ما تشتهى النفس
ولا عيب فيها غير أن ليس لى بها
أنيس وفقد الخل فى غربة حبس

إذن . . فإن « سرنديب » هذه بلاد يركب إليها البحر ، وتستغرق الرحلة إليها أكثر من شهر . .

ولكن أين تكون ؟ وفى أى قارة من العالم تقع ؟ إننى لا أزال أكتب بروح طالب الابتدائى الصغير فى معهد القاهرة ، ولم تزل ثقافتى عن الدنيا محدودة ، وأحلامى المرهفة ، لم تكن تتجاوز حدود الوطن أو القاهرة .

* * *

ولفت نظرى ذات يوم طالب غريب السحنة كان اسمه « الزبير » أو . . « الزبير باشا » كما قدم إلى نفسه .. قال : أنا من سيلان . . ومن خريجى كلية

(١) أفضت : أوصلتنى إلى دواهى الزمن .
(٢) راجت الريح : اختلطت فلا يدرى من أين تجىء .
(٣) الدجن : الغمام المتكاثف .
(٤) شخصت الأبصار : أدامت النظر .
(٥) أكظام : جمع كظم . وهو مخرج النفس .
(٦) فبعد لأى : بعد بطء وشدة . .
(٧) ابن بريح : هو الغراب .
(٨) جؤجؤ السفينة : مقدمها .
(٩) دؤدؤ الشهر : آخره . .

الزاهرة التى أنشأها عرابى باشا فى بلدنا أيام المنفى . . ولم أدع هذه الفرصة تفلت . . لقد دعوته إلى جلسة هادئة فى « صحن الأزهر » وجلست أمامه كمحقق يسأل ويستفسر .

س : لقد نفى عرابى إلى « سرنديب » لا إلى « سيلان » فكيف توفق بين ما تقول وما تعرف ؟

ج : سرنديب هى سيلان وقد عرفت بهذا الاسم قديماً عند العرب .

س : عرابى باشا إذن من الشخصيات المعروفة فى تاريخ بلادكم ؟

ج : أقول لك شيئاً سمعته من أجدادنا وهم يتحدثون عن قصة وصول عرابى باشا وزملائه إلى كولمبو Colombo

— لقد خرج الناس جميعاً مسلمون وغير مسلمين يستقبلون هذا البطل ورفاقه قبل نزولهم من المركب إلى البر .. مئات الزوارق والسفن الصغيرة خرجت إلى عرض البحر تهتف بمن فيها لأبطال مصر .

لقد اشترك المسلمون فى هذه المظاهرة بعاطفة دينية وعاطفة وطنية وشارك غير المسلمين فى استقبال هؤلاء الأبطال تقديراً لدفاعهم عن الحرية .

ولقد حمل الناس العربة التى استقلها عرابى على أكتافهم تحدياً لقوى البغى التى نفتهم إلى هذه الجزيرة . وكان يوم وصولهم إلى « كولمبو » من أيام — التاريخ الخالدة فى تاريخ أمتنا ومنذ ذلك اليوم والمسلمون يرتدون « الطربوش » تقليداً لهؤلاء الزعماء الذين شرفت بهم بلادنا ..

لقد عرفت «سرى لانكا» بأسماء مختلفة عبر التاريخ . فاليونانيون أطلقوا عليها اسم « تابروبين » (Tapreban) وسماها البحارة العرب « سرنديب » (Serendib) وقد أطلق عليها الإسبان والبرتغاليون اسم سيلان (Ceylan) بينما أطلق عليها البريطانيون اسم (Ceylon) وقد عرفت بهذا الاسم طوال حكم الإنجليز حتى حصلت على الاستقلال والحرية ١٩٤٨م فاشتهرت باسمها القديم سرى لانكا .

يبلغ عدد السكان ١٣ مليوناً ١٠٪ فقط منهم مسلمون ، أما الأغلبية الساحقة من السكان فهم بوذيون ، وهناك أقليات أخرى من الهنادك والمسيحيين .

ويقول تقرير رسمى — :

١ — إن التجار العرب عرفوا سرى لانكا من قبل ظهور الإسلام وقد استقر بعضهم فى سرى لانكا بعد أن حضروا إليها للتجارة ، إذ أن سرى لانكا كانت فى طريقهم إلى جنوب شرق

آسيا والصين . ويطلق على المسلمين من أصل عربى اسم (المور) نسبة إلى مسلمى المغرب .

٢ — وينقسم المسلمون حسب أصولهم إلى ثلاثة أقسام .

— المنحدرون من أصل عربى .

— المسلمون من أصل ملاوى .

— المسلمون من أصل سيلانى واعتنقوا الإسلام .

وبالرغم من انتشار التعليم الحديث بين المسلمين إلا أنه لا يزال نظام « الكتاب » مطبقاً حتى الآن فى بعض المناطق . ويلاحظ أن المسلمين قد أحجموا فى الماضى عن التعليم اهتماماً بالتجارة ، وقد أدركوا الآن أهمية التعليم وأقبلوا عليه بشدة خاصة تعليم اللغة العربية !؟

الوضع السياسى للمسلمين :

يتمتع المسلمون بمركز اجتماعى وسياسى مرموق ويوزعون أنفسهم بين الأحزاب السياسية الرئيسية ويلاحظ أن غالبية المسلمين أعضاء فى الحزب الحاكم الحالى « الحزب الوطنى المتحد » .

— ومن أهم الشخصيات الإسلامية فى سرى لانكا :

— السيد / محمد حنيفة محمد
وزير المواصلات

— السيد / حميد
وزير الخارجية

— السيد / نابنا ماريكار
نائب وزير المالية

— السيد / عبد المجيد
نائب وزير الزراعة

— السيد / باكير ماركار
نائب رئيس البرلمان

هذا : بالإضافة إلى اثنى عشر عضواً فى البرلمان من بين ١٦٨ عضوا وهم بالإضافة إلى الوزراء ونواب الوزراء ونائب رئيس البرلمان .

— أبوسالى عن دائرة بالنجودا

— أحمد فارس عن دائرة باتيكولا

— جابر قادر عن دائرة وسط كولومبو

— إسحق حاليم عن دائرة وسط كولومبو

— الدكتور ، جلال الدين عن دائرة بوتوفيل

— ماروف عن دائرة موتور

— منصور عن دائرة كالمونانى

ومن أهم قادة المسلمين فى هذه الجزيرة :

— السير. / رازق فريد :

ويمثل المسلمين العرب (المور)

ويبلغ من العمر حوالى ٩٠ عاماً وقد أنفق جميع أمواله على المسلمين وإنشاء الكثير من المدارس والملاجئ حتى أنه وهب منزلا للسكرتارية الإسلامية كما وهب منزلا آخر إلى مدرسة البنات المسلمات .

– الدكتور /خليل

– من زعماء المسلمين وينتمى إلى الحزب الحاكم وكان وزيراً للعمل والشئون الداخلية ، وقد أنشأ منظمة تسمى الرابطة الإسلامية .

– السيد / بديع الدين محمود

رئيس الحزب الاشتراكى الإسلامى وهو فى الوقت نفسه نائب رئيس حزب الحرية السرىلانكى التى ترأسه السيدة بندرانيكه وكان وزيراً للتعليم .

– السيد / محمد حنيفة محمد

من زعماء المسلمين المستقلين وينتمى للحزب الحاكم وله شعبية بين المسلمين .

أهم المؤسسات الإسلامية :

– المؤسسات المورية بما فى ذلك المؤسسة الثقافية للمورية ومن أقطابها السير رازق فريد .

– السكرتارية الإسلامية ومؤسسها السير رازق فريد وأمينها العام السيد/ أمين ، ومهمتها نشر الدعوة الإسلامية .

– الرابطة الإسلامية ويرأسها الدكتور خليل .

ويتبع كلا من هذه المؤسسات الكثير من المدارس والملاجئ ، كما تقوم بالأعمال الخيرية وبناء المساجد وإصلاحها ونشر الدعوة الإسلامية وطبع وتوزيع المصاحف والاحتفال بالمناسبات الدينية.

ولقد زار ابن بطوطة هذه البلاد سنة ١٣٤٥م وقابل ملكها « ابرى شكروتى » ولن نجد وصفاً أجمل مما كتبه هذا الرحالة المغربى فى وصفه للناس والحياة والجزيرة التى يقال : إنها أول بقعة هبط عليها أبونا آدم من السماء إلى الأرض :

يقول ابن بطوطة — :

وقد قابلت سلطانها ، وهو سلطان قوى فى البحر ، رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت هنالك ، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن .

فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : إنما جئتنا فى حماية مراكب لنا تسير أيضاً إلى اليمن

ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام إلى وأجلسنى إلى جانبه وكلمنى

بأحسن كلام وقال : ينزل أصحابك على الأمان ويكونون فى ضيافتى إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر بينى وبينه الصحبة ثم أمر بإنزالى فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد فى كل يوم وكان يفهم اللسان الفارسى ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوماً وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذى ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال لى : هل رأيت مغاص الجوهر فى البلاد التى كنت فيها ؟ فقلت له : نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التى لابن السواملى فقال: سمعت بها ثم أخذ حبات منه فقال: أيكون فى تلك الجزيرة مثال هذه ؟ فقلت له: ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة، قدم آدم — عليه السلام — وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) فقال : هذا هين نبعث معك من يوصلك ثم قلت له : وهذا المركب الذى جئت به يسافر آمنا إلى المعبر ، وإذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك ؟ فقال : نعم، فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب — قال لى: لا أسافر حتى تعود ولو أقمت سنة بسببك، فأخبرت السلطان بذلك فقال— يقيم فى ضيافتى حتى تعود فأعطانى دولة يحملها عبيده على أعناقهم وبعث معى أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد ، وأما الماء فهو فى تلك الطريق كثير ، ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى معدية مصنوعة من قضب الخيرزان ثم رحلنا من هنالك إلى منار مندلى . مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان ، أضافنا أهلها ضيافة حسنة — وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هناك ويأتون بها أحياء ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن ولم نر بهذه المدينة مسلماً غير رجل خراسانى انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا إلى بندر سلاوات . وهى بلدة صغيرة وسافرنا منها فى أوعار كثيرة المياه ، وبها الفيلة الكثيرة، إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء ، وذلك ببركة الشيخ أبى عبد الله بن خفيف رحمه الله وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم . وهى حاضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وقد بنيت فى خندق بين جبلين على خور كبير مسمى خور الياقوت ،لأن الياقوت يوجد به، وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى المعروف بشاوش وسلطان هذه المدينة

وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلى القدم، فلما قطعت يده ورجله سار الأدلاء أولاده وغلمانه، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ! وحكم كفار الهنود : أنه من ذبح بقرة ذبح مثلها ، أو جعل فى جلدها وحرق ! ؟

(ذكر جبل سرنديب)

وهو من أعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله ، وفيه كثير من الأشجار التى لا يسقط لها ورق، والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكف ، ويزعمون : أن فى ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله — عليه الصلاة والسلام — وبالجبل طريقان إلى القدم : أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام ، فأما طريق ماما فسهل ، وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى وفى أسفل الجبل حيث دروازنه مغارة تنسب أيضاً للإسكندر وعين ماء ونحت الأولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا فيها السلاسل ليتمسك بها من يصعده وهى عشر سلاسل ثنتان فى أسفل الجبل ، حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هى سلسلة الشهادة لأن الإنسان إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقاً مهملا ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة القبر سبعة أميال وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب إليه أيضاً ملىء بالحوت ولا يصطاده أحد وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة على جنبتى الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم .

(ذكر القدم)

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة فى موضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً وطولها أحد عشر شبراً وأتى إليها أهل الصين قديماً فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه وجعلوه كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد وفى الصخر حيث القدم — تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون

منها لأخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها إلا بعض حجيرات ذهب أعطيناها الدليل والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا، ولما تمت الأيام الثلاثة عدنا على طريق ماما، ثم إلى قرين جبر كاوان . وهنالك كان يشتى الشيخ أبوعبد الله بن خفيف ، وكل هذه القرى والمنازل هى بالجبل ، وفى هذا الطريق درخت روان وهى شجرة عادية لا يسقط لها ورق ولم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضاً بالماشية لأن الناظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهى بحيث لا يمكن التوصل إليها ألبتة ولهم كلام طيب فى شأنها من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخاً وذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور « مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمية والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة كلها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد إليها يأكلون من ذلك والصنم على قدر الآدمى فى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين ثم رحلنا إلى مدينة قالى وهى صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخوذة إبراهيم أضافنا بموضعه ورحلنا إلى مدينة كلنبو (Colombo) وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر ومعه نحو خمسمائة من الحبشة .

* * *

لندع ابن بطوطة وذكرياته ومذكراته. فقد سافر وفد مصر لحضور الندوة العالمية الإسلامية تلبية لدعوة مسلمى سرى لانكا برئاسة الوزير العالم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف ووزير الدولة لشئون الأزهر وعضوية كل من :

الدكتور الحسينى هاشم
أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

الدكتور توفيق شاهين
الأستاذ بجامعة الأزهر

الدكتور عبد الودود شلبى
مدير مجلة الأزهر

وها نحن فى طريقنا إلى «سرنديب» أو «سيلان» أو «سرى لانكا» ولم يبق غير قليل حتى تهبط بنا الطائرة فى «كولومبو».

أى خيال يعيش فيه الإنسان وهو يحلق فى أجواء هذه البلاد النائية لقد أقلعت بنا الطائرة من مطار «كراتشى» قبل الفجر . . وها هى تشق طريقها عبر الوديان والجبال والصحارى الممتدة من الغرب إلى الشرق . . ثم تنحرف قليلا إلى اليمين لتعبر المضيق الفاصل بين سرى لانكا والهند . .

هنا يولد النهار ويجاهد الليل ممسكاً بتلافيف الظلام لقد ظهرت الجزيرة . . سرى لانكا تحتنا الآن .. ولكنك لا ترى أرضاً . . اختفى الطين والتراب فى أعماق البحر . . وبقيت الخضرة اليانعة وحدها فوق السطح . إن الطائرة تعلو . . ثم تهبط . . متحسسة طريقها وسط طبقات السحاب ، وخلجان الضباب . فى ثانية ترتفع فترى الشمس من بعيد متوهجة فى كبد السماء . . ثم تهبط ثانية وتختفى فى سجف العتمة والظلام . . إنها تشبه النفس فى صراعها بين الخير والشر وتبدو فى عين البصير معركة بين الباطل والحق . .

وفى لحظة ترقب وقلق تلمس عجلاتها المدرج الناعم الأملس على الأرض . . نحن الآن فى «كولمبو Colombo . . أو البوابة الجوية لسرى لانكا . . مطار متواضع» ولكنه نظيف وجميل . . وقد احتشد فى ساحة المطار أعضاء سفارتنا يتقدمهم السفير وبجوار السفير يقف الوزير محمد حنيفة محمد الزعيم الإسلامى الكبير . .

هنا الإسلام يتحرك ويتكلم . . لم يعد لفوارق اللون أو الجنس أو الطبقة أى مظهر . . اختفت الأسماء والألقاب وبقيت العقيدة . . كل من هنا يصافحك بشوق وحرارة وحب . . حتى أعضاء السفارة المصرية وجدناهم نوعاً آخر من الرجال الذين لا يوجدون فى أية سفارة أخرى . . أهو الطبع ؟ أم التطبع ؟ أم الطبيعة ؟ إنها الحقيقة التى لا تكتسب بأى عامل آخر من خارج النفس . .

الساعة السادسة صباحاً بتوقيت كولومبو . . وقد بدأ المطر ينهمر بغزارة فى هذه المنطقة البعيدة عن العاصمة . . فلننتظر قليلا ريثما يهدأ الجو ، وتشرق الشمس ويعود الضياء والنور إلى الطريق الممتد بين أشجار النارجيل والموز . .

ولفت نظرى جندى فارع الطول ضخم الجثة . . من أين أتى هذا العملاق

وما المناسبة ؟ ومال على أذنى الدكتور توفيق ليقول معلقاً على هذه الظاهرة . أغلب الظن أن هذا الجندى من أحفاد الذين سجنوا (عرابى) باشا وتولوا حراسته. ولولا الحياء لذهبت إلى هذا الحارس أسأله عن قصة حياته ونشأته . . !

إن المسافة بين المطار والعاصمة تستغرق نصف ساعة . . ولكن الوقت والزمان لا وجود لهما فى هذه الرحلة . . إلا عند بعض الناس — على الأقل . . ففى مثل هذه الأماكن يسيطر على الإنسان شعور غريب يفقد معه الإحساس بالزمن والوقت . هنا الشرق كما يقول الشاعر الألمانى الفيلسوف جوته . .

تطيب لى الرجعى إلى نشأة الإنسانية الأولى . . إلى الأزمان التى تلقى فيها بنو الإنسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض .

أريد التملى من عصور الفطرة بأفقها المحدود الممدود . أريد معاشرة الرعاة فى المنتجعات ، والاسترواح فى ظلال الواحات ، والارتحال مع القوافل متجرا فى الشيلان . والبن والمسك . . طارقاً كل درب من البوادى والحضر . الشمال والغرب والجنوب . .

أقطارها تتناثر بددا . . وعروشها وممالكها تنهار . . . فهاجر .

وأمضى إلى الشرق الطهور تستروح الطيب من الآباء الأوائل الطيبين وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك « الخضر » القائم على — عين الحياة — ريعان صباك . .

أدينا صلاة الجمعة فى أحد مساجد « كولومبو » وألقى فضيلة الشيخ الوزير كلمة لخص فيها مبادئ الإسلام وكان ظهورنا فى هذا المسجد ، ومعنا بقية الوفود المدعوة إلى هذا المؤتمر مهرجاناً دينيًّا أشعر المسلمين بأهميتهم فى هذه الجزيرة ، وربط بينهم وبين إخوانهم فى العقيدة ، وأثار فى الأنفس لواعج الشوق والإيمان والأخوة ، وفى اعتقادى وتصورى أن الفائدة الأولى من عقد مثل هذه المؤتمرات لا تتجاوز هذه الدائرة . . فالمسلمون فى مثل هذه الأقطار فى شبه عزلة ، وفى وحدة قاسية مرة . . ويزيد من قسوة هذه الوحدة ومرارتها عند الناس ما يرونه من تعاون الآخرين وتعاطفهم . . إن الأغلبية هنا بوذية فى الكثرة ، وفى النشاط والحركة ، وفى الاجتماعات الدائمة لكل أمر ومناسبة ومن وراء هذا كله تخطيط عالمى يدرس ومنظمات دولية ترسم وتستعد . .

فى دكان صغير بجوار الفندق الذى

كنا ننزل فيه التقيت برجل عجوز اسمه محيي الدين . . لقد دخلت دكانه عرضاً . كان معه صبيان يساعدانه فى العمل . . ومن كلمة إلى أخرى عرف أننى مصرى.. ومن الأزهر . . لقد أصابت الرجل وولديه نوبة عاطفية . . واستمر فى حاله هذا أكثر من خمس دقائق يرفع يديه بالتحية . . اللهم صلى على محمد . الله أكبر . الله أكبر . .

* * *

لقد كنت حريصاً فى زيارتى هذه على لقاء الناس فى أماكنهم أن أتعرف على المسلمين فى منازلهم وحوانيتهم وقراهم .. إن مثل هذه الزيارة لا يتكرر كثيراً .. وخسارة كبرى أن نسافر آلاف الأميال لنقول كلمتين أو كلمات ثم نعود بعد ذلك إلى القاهرة ..

إن العبرة فى مثل هذه المؤتمرات ليست فى اتخاذ قرارات جميلة تنسى بعد انفضاض المؤتمر . . فقد عقدت مؤتمرات كثيرة تجاوزت الحصر ، وصدرت عنها قرارات أكثر لم تر النور ، ومأساة العالم الإسلامى أنه يقول . ولا يفعل . . إن اليهود حين عقدوا مؤتمرهم الأول ١٨٩٨م ، قرروا قيام دولتهم اللقيطة بعد خمسين سنة ، وقرروا دخول بيت المقدس بعد سبعين سنة . وفى سنة ١٩٤٨ م قامت الدولة المغتصبة ، وفى سنة ١٩٦٧ م سقطت القدس الحبيبة . .

قلت للدكتور الحسينى هاشم فى مناقشة حول القرارات المزمع إعلانها بعد انتهاء المؤتمر : لقد نسيت أن أحمل معى من القاهرة مجموعة من القرارات التى صدرت فى المؤتمرات السابقة فى مصر والسعودية ، والكويت . والجزائر ، وليبيا فأى مؤتمر كبير أو صغير ، وفى أى مكان يعقد لن تخرج قراراته عن قرارات أى مؤتمر من هذه المؤتمرات السابقة . . ؟ !

ولقد قلت للسفير أكثر من مرة . .

أريد أن أرى الناس . فى الشوارع والأسواق . فى المساجد والمعابد فى الحوانيت والدكاكين . .

دعنى أحقق رسالتى الحقيقية بحضورى إلى هنا . .

ولم تتح لى فرصة لتحقيق هذا الهدف إلا فى زيارتين خاطفتين لكلية الزاهرة.. والجامعة النظيمية .

* * *

ذهبنا إلى قاعدة بندرنيكه

Bandaranaike Memorial international Conference Hall.

لحضور جلسة افتتاح المؤتمر فى الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم الجمعة ٢٣ رجب ١٣٩٨ هـ الموافق ٣٠ يونيو ١٩٧٨م . كان وفد مصر هو أكبر الوفود وأهمها تمثيلا وحركة . . وقد دعى ممثلو الأديان جميعاً لحضور حفل الافتتاح الذى شهده ممثلو عشرين دولة فى آسيا وإفريقيا وأوربا .

إن الصورة التى لم تغب عنى حتى هذه اللحظة هى موقف الرهبان البوذيين من رئيس الجمهورية . فى صدر القاعة ومن فوق المنصة الرئيسية جلس ممثلو الديانتين الإسلام والمسيحية على يمين الداخل إلى القاعة ، وعلى اليسار جلس ممثلو الديانة البوذية بثيابهم الصفراء البسيطة ورءوسهم الحليقة اللامعة . . وعندما حضر رئيس الجمهورية وقف الجميع تحية لرئيس الدولة . . أما الرهبان البوذيون فقد بقوا فى أماكنهم بدون أية حركة ، وعندما صعد رئيس الجمهورية الدرج إلى المنصة توقف أمام هؤلاء الرهبان الجالسين وركع أمامهم فى خشوع وتقوى . . ! !

* * *

وقد بدأ رئيس الجمهورية حديثه عن المساواة والتسامح الدينى فى سرى لانكا وأثنى على المسلمين ودورهم البارز فى الحركة الوطنية وأشاد بروح الأخوة والعدالة التى تشمل الجميع دون تفرقة ، وتمنى للمسلمين كل نجاح وتوفيق فى هذه الندوة ، وقد اتفقت كلمة الوفود بعد ذلك على اختيار فضيلة الشيخ الشعراوى لإلقاء كلمتها فى هذا المؤتمر .

وقد استهل فضيلة الوزير كلمته بشكر رئيس الجمهورية والإشادة بروح التسامح والإخاء بين مختلف الطوائف الدينية ثم عقب بعد ذلك على الموضوع الرئيسى لهذا المؤتمر وهو حقوق الإنسان ومسئولياته فى الإسلام ، وكيف أن الإسلام أعطى الإنسان حقه فى الحرية والمساواة والعدالة ، وحقه فى التملك ، وحقه فى أن يعيش كريماً ، وحقه فى أن يتدين ، وحقه فى أن يعبر عن فكره ، وأن هذه الحقوق تقابلها مسئوليات يفرضها الخالق عز وجل شأنه ، وهو الذى خلق الإنسان ويعلم أين يوجد الخير له ، وهو أعلم بما يصلح له .

ثم أضاف فضيلته قائلا :

إن خصوم الإسلام وخصوم الأديان يدعون أنها سبب التخلف ولكن ذلك خطأ فالإسلام مثلا نزل منذ أربعة عشر قرناً ، وساس الدنيا وسادها ألف عام

وظلت دولته فى العالم هى الدولة الأولى . ومع ذلك ما اشتكى إنسان فى عصر تخلف بل أخذ التقدم بجميع ألوانه وصوره ، وربما كانت الحياة التى نعيشها اليوم مأخوذة من الإسلام . .

* * *

فى إحدى الجلسات . تعرض الدكتور الحسينى هاشم للرد على سؤال عن « السنة النبوية » وحجيتها . فقد أثير هذا الموضوع إثر نقاش عن الحملات المسعورة التى يقودها أناس باعوا ضمائرهم لحساب المنظمات التبشيرية والاستشراقية ومما يزيد النفس أسى ومرارة أن رئيس دولة عربية — نصب نفسه أخيراً إماماً شرعيًّا يرجع إليه أمر الدين والدنيا — قد تعرض لهذا الموضوع مردداً كلام من سبقه من الأدعياء والمشبوهين حول الأحاديث النبوية والالتزام بها فى تقرير الأحكام الشرعية ولا يستحى هذا الزعيم الذى يخرج على شعبه كل يوم ببائقه وحالقه تذهب بما بقى عنده من دين وعقيدة ، وكأنما أراد أن يتوج فشله السياسى بفشل آخر لا تنفع فيه حجة ولا شفاعة إلا شفاعة هذا « النبى » الذى يتطاول على مقامه وقوله بأقوال قوم غرباء عن الأمة ، وأعداء للحق والشريعة.

وفى جلسة أخرى تكلم الدكتور توفيق شاهين عن الأخطار التى تهدد العالم الإسلامى بأسره . من الشيوعية الملحدة ، إلى العلمانية الجاحدة وغيرهما من المذاهب والنحل الفاسدة وقد تساءل الدكتور توفيق قائلا . .

هنا ممثلون عن عشرين دولة إسلامية ولكن أين مكان أفغانستان واليمن الجنوبية ؟ إننى أخشى أن نلتقى فى هذا المكان مرة ثانية ولا نرى وفود بعض الدول الحاضرة فى هذه القاعة ؟ . .

لقد ثار جدال ونقاش حول إمكانية قيام « هيئة أمم إسلامية » وعن الترابط والتكامل بين هذه الدول فى مجالات الفكر والاقتصاد والتربية وارتفعت حرارة النقاش والجدل حين تعرض أحد المتحدثين لدولة إسلامية تحول البلايين من رصيدها لسد عجز المدفوعات فى دولة أوربية بينما شقيقاتها المسلمات يتضورن جوعاً فى متاهات آسيا وإفريقيا.

إن العالم الإسلامى غنى بموارده المختلفة . ولا ينقص شعوبه إلا « رأس المال » المدخر فى بنوك أوربا لحساب دول إسلامية أخرى .

إن السودان يمكن أن يغطى احتياجات العالم الإسلامى من الحبوب والقمح .

ولكن المال اللازم لتحقيق ذلك مدفون فى سراديب الأنانية والجهالة حرصاً على تنميته بالفوائد المحرمة لا بالوسائل المشروعه . .

كم كنت أود . . أن نستغنى عن القرارات التى أصدرها المؤتمر بقرار واحد يصدر من دولة واحدة . فالمسلمون فى سرى لانكا فى حاجة إلى المدارس وفى حاجة إلى المستشفيات ، وفى حاجة إلى التنمية الاقتصادية التى بدونها يتحولون إلى خدم وأشباح تائهة فى دروب الحياة القاسية . إن مأساة . . « أفغانستان » نذير وعبرة ، ومالم يترابط المسلمون ترابطاً حقيقياً ، ويتكاملون تكاملا اقتصادياً ، ويتعاونون بمبادئ الإسلام روحاً ونصاً فلسوف تختفى من « الخريطة الإسلامية » أسماء دول تنتسب إليه اسما . . ويعبث إبليس وجنوده فى أرضهم فساداً وتخريباً .

* * *

والمأساة الدامية حقاً .. إن من حضروا باسم مسلمى الفليبين تكلموا أكثر من مرة ، وكانت كلماتهم غصة فى الحلق مرة .

إن « ماركوس » السفاح — كما تحدث المأجورون — هو رمز النهضة ومصدر البركة . وإن جهاد الشهداء فى الجنوب يمثل حركة عصيان وثورة .

لقد أصيب الحاضرون بوجوم مذهل . وضربت العاطفة الإسلامية فى مقتل .. ولم يكد ينتهى العميل المأجور من كلامه حتى ضجت القاعة بالسخط والاستنكار لموقفه المخجل .

وفى غمرة الذهول والدهشة سألنى أحد الحاضرين عن السبب فى هذا الموقف قلت باسما للأخ المستنكر . . انظر إلى بزته الناصعة . ونظارته اللامعة ، وخاتمه الماسى الذى يتألق بين أصابعه ! !

إنها دمى تتحرك بخيوط غير منظورة ، وآلات تتحرك وتتكلم وهى فى شبه غيبوبة . .

* * *

فى فترة الاستراحة بين جلستى الصباح التقيت بالأخ الأستاذ إبراهيم شهاب وزير الزراعة فى جمهورية مالديف . . لقد فاجأنى الوزير أنه من خريجى الأزهر . واستمرت المفاجأة فى حديثه حين أخبرنى بوجود ثلاثة وزراء أيضاً من خريجى الأزهر . . وبلغت المفاجأة ذروتها وهو يقول : إن المرشح الجديد لرئاسة الجمهورية أيضاً من خريجى الأزهر . .

لقد أنسيت آلامى كلها فى هذه اللحظة . . دولة كاملة يحكمها علماء

الأزهر ما أروع هذه المفاجأة . . وما أسعدنى بتلك الأنباء السارة . . لقد رجعت بى الذكرى إلى عام ١٩٥٩ م على ما أذكر . . فنى هذا العام تم افتتاح مدينة البعوث الإسلامية كنت قد اشتركت فى كتابة تقرير عن نظام العمل فى هذه المدينة . والطريقة التى يعامل بها الطلبة ، والنظام الذى تسير عليه الأجهزة . .

وأذكر مما قلته بهذه المناسبة :

إنه يجب التدقيق فى اختيار كل موظف ، حتى العمال يجب أن تتوفر فيهم صفات خاصة . إن مستقبل العالم الإسلامى يصنع هنا فى هذه المدينة ، وبقدر ما نحسن التربية والرعاية والمعاملة فإن آثار ذلك كله ستكون بعيدة وخطرة . . ونتائج ذلك لمصر والأزهر محققة وأكيدة . .

لقد ضاع كل ذلك فيما مضى . . والأمل فى القائمين بالأمر فى المدينة تدارك ما بقى . .

* * *

المؤتمر يوشك على الانتهاء . . وقد اتخذت الوفود أماكنها فى انتظار إعلان القرارات والتوصيات .

* * *

« بناء على الدعوة التى وجهتها اللجنة التنظيمية لمسلمى سرى لانكا برئاسة معالى السيد ، محمد حنيف محمد — وزير النقل فى حكومة سرى لانكا إلى عدد من المفكرين والمنظمات والجمعيات فى البلاد الإسلامية وغيرها من البلدان التى يشكل فيها المسلمون أقلية وذلك للاشتراك فى الندوة التى تقرر انعقادها فى كولومبو خلال الفترة من ٢٦ رجب إلى ٢٩ رجب سنة ١٣٩٨ هـ ، الموافق ٣٠ / ٦ / ١٩٧٨ إلى ٣ / ٧ / ١٩٧٨ م والتى تضمنت الموضوعات الآتية :

١ — بعض الجوانب القانونية فى النظام الإسلامى .

٢ — بعض الجوانب الاجتماعية فى النظام الإسلامى .

٣ — التعليم فى الإسلام .

٤ — الإسلام كنظام متكامل .

حضر الندوة المذكورة الوفود التالية :

١ — جمهورية مصر العربية .

٢ — أستراليا .

٣ — بنجلادش .

٤ — الهند .

٥ — إندونيسيا .

٦ — اليابان .

٧ — ليبيا .

٨ – ماليزيا .

٩ – جزر المالديف .

١٠ – مؤتمر العالم الإسلامى .

١١ – باكستان .

١٢ – الفلبين .

١٣ – السعودية .

١٤ – السنغال .

١٥ – السودان .

١٦ – سوريا .

١٧ – الاتحاد السوفييتى .

وقد افتتح الندوة فى الموعد المحدد لها فخامة السيد / ج . ر . جيا واردنا رئيس جمهورية سرى لانكا بكلمة أوضح فيها ما تتمتع به هذه البلاد من عدالة اجتماعية وتسامح دينى وتعايش سلمى أخوى بين الفئات والطوائف المختلفة لسكان الجزيرة وقد قوبلت كلمة فخامة رئيس الجمهورية بترحاب وتقدير كبيرين من المشتركين فى الندوة وعبر عن ذلك نيابة عنهم معالى وزير الأوقاف وشئون الأزهر بجمهورية مصر العربية فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بخطاب شامل أعرب فيه لفخامة الرئيس عن تقدير المؤتمر لبعد نظر فخامته وحكمته فى معالجة مشاكل سكان الجزيرة مما أوجد فيها نظاماً اجتماعياً يسوده التسامح الدينى والتعايش السلمى والتعاون الأخوى ، كما عبر فضيلة الوزير نيابة عن أعضاء الندوة عن شكر وتقدير الجميع لحكومة وشعب جمهورية سرى لانكا على الترحيب والحفاوة التى قوبلوا بها وعلى التسهيلات والمساعدات التى قدمت لهم وعلى الأخص تلك الخدمات المقدمة إلى اللجنة التحضيرية للمؤتمر .

وبعد أن استمع المشتركون فى الندوة إلى الكلمات والبحوث المقدمة وما دار حولها من مناقشات ، تم التوصل إلى التوصيات التالية .

أولاً : تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لأنها شريعة إنسانية خالدة تتفق أحكامها وحكم العلم والعقل وثبت من الممارسة العملية لها فى الدول المطبقة لهذه المبادئ أنها أفضل وأشمل وأضمن لرفاهية وأمن الشعوب من أية أنظمة أخرى .

ثانياً : التركيز بقدر الإمكان على التعليم الدينى جنباً إلى جنب مع برامج التعليم المختلفة للدول وبحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، إذ أن – التعليم المبنى على النواحى المادية وحدها لا ينشئ إنساناً متكاملا من الناحية العقائدية والدنيوية .

ثالثاً : تطبيق النظم الاجتماعية الإسلامية المبنية على مبادئ التكافل والتراحم والإيثار بين أبناء المجتمع مما يؤدى إلى مجتمع متوازن ماديًّا وأدبيًّا .

رابعاً : العمل على تطبيق مبدأ التضامن والتعاون بين الدول والمنظمات الإسلامية والأفراد بها وبين مجتمعات الأقليات الإسلامية وذلك بتقديم المساعدات – العادية والأدبية والعلمية الممكنة فى مختلف المجالات .

خامساً : يرى المؤتمر على ضوء ما رآه من حضانة وتمكين دولة سرى لانكا للأقلية الإسلامية ورعاية شئونها والعمل على إسهام جميع الطوائف فى المشاركة فى هذه المناسبة الإسلامية . . على ضوء هذا يهيب المؤتمر بجميع الحكومات التى توجد بها أقليات إسلامية أن تحذو حذو هذه الدولة لترعى شئون الأقليات الإسلامية رعاية تعطيها حقوقا كاملة فى مزاولة ما تتطلبه عقائدها وأحكام شريعتها

سادساً : ويرى أن فى قيام الحكومات التى تحت رعايتها أقليات إسلامية لهذا العمل الإنسانى ما يثبت للدنيا عدالة الحاكمين فى رعاية كل مواطنيهم رعاية لا تتميز طائفة مهما كثرت ولا تحرم منها طائفة مهما قلت .

سابعاً : ويرى المؤتمر أن تعاون الأديان فى هذا اللقاء مما يطمئن على أن تقف الأديان كلها موقفاً موحـــداً يحول دون سيطرة الإلحاد والمادية وكل ما يخضع لأهواء البشر .

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل . .

وفى صوت واحد وقفت الوفود المشتركة فى هذا المؤتمر تردد مع المنشدين هذا الدعاء الذى تعود المسلمون فى هذه الجزيرة إنهاء اجتماعاتهم به فى كل مناسبة . .

صلى الله على محمد
صلى الله عليه وسلم
يارب صل على محمد
صلى الله عليه وسلم

* * *

فى كلية الزاهرة أو Zahira College كما يسمونها هنا فى كولومبو أقيم حفل تكريمى لأعضاء الوفود المدعوة إلى المؤتمر . . لقد ذهبت إلى هناك ونفسى مفعمة بذكريات الماضى الحزينة لقد تخيلت عرابى باشا واقفاً ينتظر قدومنا إلى هذه الساحة . . ! لقد مضى حوالى مائة عام على هذه الواقعة . . غير أن التاريخ لا يضيع بمضى المدة . . بل تبقى ذكراه وتتجدد أمام كل حادثة ،

ويخرج أبطاله إلى الحياة بأعمالهم الطيبة، ويغلب عليك الإحساس بالحب فتتخيل شخوصهم حية وباقية . . !

من القاهرة إلى كولومبو جيء بعرابى ورفاقه إلى هذه الجزيرة كانت الخيانة قد فجرت ، والمحاكمة قد انتهت. . أترى اين كان يجلس عرابى وأين مكان البارودى وعبد العال حلمى ؟

لقد غبت تماماً فى أعماق ذكرياتى الدفينة «كنت مهتماً بالبحث عن عرابى باشا . . أردت أن أساله هنا وقد عز اللقاء بيننا وبينه بحكم الزمن والتاريخ

يا ابن الأزهر العظيم . . .

إننا فى هذا المكان من أجلك . . فلولاك ما بنيت هذه الكلية وما اجتمع الناس فى هذه القاعة . .

وبدأت الكلمـــات . . ووزعت الحلوى . . ولكن أية كلمات هذه التى تستطيع إيقاظى من ذكريات الحزن . لقد وقف « البارودى باشا » يخاطبنى بحديث « الغربة » المر .

كفى بمقامى فى « سرنديب » غربة
نزعت بها عنى ثياب العلائق
ومن رام نيل العز فليصطبر على
لقاء المنايا واقتحام المضايق
يقول أناس إننى ثرت خالعاً
وتلك هنات لم تكن من خلائقى
ولكننى ناديت بالعدل طالباً
رضا الله واستهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً
وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فإن كان عصيانا قيامى فإننى
أردت بعصيانى إطاعة خالقى
وكيف يكون المرء حراً مهذباً
ويرضى بما يرضى به كل فاسق
فإن نافق الأقوام فى الدين غدرة
فإنى بحمد الله غير منافق

* * *

لقد انتهى الحفل وانتهت الكلمات وبقيت نفسى غائبة فى أعماق هذه الذكريات ، وبحركة لا شعورية وجدتنى أنشد مع المنشدين .

صلى الله على محمد
صلى الله عليه وسلم

* * *

ركبنا السيارة لزيارة الجامعة التنظيمية فى مدينة « بيرويلا » على بعد سبعة وثلاثين ميلا من العاصمة كولومبو .

ما أجملك أيها الشرق . . . لقد كان « جوته » على حق فى عشقه لهذه الحياة الغنية بالجمال والفتنة .

هذه الطيور المغردة فوق أشجار — النارجيل . . وخرير المياه المتدفقة من المحيط إلى الأرخبيل . . والناس الودعاء الطيبون يقفون بأسمالهم البالية يحيون قافلة المسافرين . .

ما هذا الذى يتراءى هناك مبرقشا منمنما وكأنه يصل الربى بالسماء . . وما تلك الأهازيج القادمة من بعيد تخفق بها الأجواء ألا أيتها الرياح السوافى أغيثينى بغيثك . .

ولا بأس بالرعود كلها ترعد ، وبالسماء تتجاوب أقطارها بالبرق . فسرعان ما تنبعث الحياة . . وتشع روح خفية السر مباركة الأثر فإذا كل شىء ، فى كل ناحية ينتعش ويترعرع ، وإذا كل شىء يخضر وينضر . إن الحياة هنا تولد فى كل لحظة والجمال والفتنة يفيضان فى كل صورة . .

* * *

وصلنا إلى « بيرويلا » لنجد فى انتظارنا حشداً من المسلمين سكان المدينة وفى الطريق إلى الجامعة وقف الطلاب صفوفاً متراصة بملابس بيضاء ناصعة وبإشارة خاطفة استدار هؤلاء الطلاب فى حركة سريعة وبدءوا — يمشون بخطوات منتظمة وانطلقوا جميعاً يرددون هذه الأنشودة . .

الله أكبر . . . الله أكبر
نحن طالبو سيلان
نحن مسلمو سيلان
كتابنا القرآن . . . وديننا الإسلام
حمداً لربنا . . . شكراً لربنا
الله ربنا

واغرورقت عيون أكثرنا بالدموع فى هذا البلد الأعجمى ووسط هذه الغابات العذرية الكثيفة . . وعلى بعد آلاف الأميال من مكة أو القاهرة ينشد هـؤلاء الطلاب بلغة عربية فصيحة ، وعاطفة دينية عميقة وبروح صافية شفافة . . .

ما أجحدنا نحن العرب . . .

ولكن مصر المعطاء لم تبخل على هؤلاء الإخوة . فقد اتخذ فضيلة الوزير قراره واتفق مع الدكتور الحسينى هاشم على ما يجب عمله .

* * *

رجعنا إلى كولومبو استعداداً لرحلة العودة . . . ولكن عودتنا إليها تختلف عن قدومنا إليها أول مرة .

إحساس لا يمكن تفسيره باللفظ والكلمة . . . شىء غامض يجذبنا إلى تلك الأماكن التى شهدناها فى

هذه الرحلة . . . إلى الناس الذين عرفناهم فى هذه المدينة . . . إلى الذكريات التاريخية التى تجسدت أمامنا فى كل حركة وصورة . . .

طوفان من المشاعر يتأجج به القلب ونداء بعيد يتسلل إلى الآذان من وراء الغيب . .

لقد آن الأوان يا جزيرة الشاى والنرجيل .. أن نبحر من شواطئك إلى أرض الوطن .. ونغادر آفاقك المعطرة إلى مصر . . فاحفظى عهدك الجميل مع كل مسلم تظله سماؤك الصافية . . .

وكونى كما تركناك واحة للإخاء والمساواة والحرية . . .

واذكرى ياسرى لانكا . . .

إن أحفاد « عرابى » لا ينسون الجميل وإن قدم العهد . . .

وأن ذكرى زيارتنا لك ستبقى ما بقيت الحياة والوفاء والحب . . .

* * *

فى التوكل على الله

قال صلى الله عليه وسلم :

لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً[1] » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

من قال « يعنى إذا خرج من بيته بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان وكان إذا خرج من بيته يقول أيضاً : بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أُضل ، أو أزل أو أُزل ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يجهل على » .

---

(١) أى ضامرة البطون من الجوع ، بطانا : أى ممتلئة البطن .

فهرس العدد

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

In the choice between paganism and the worship of one Almighty God. he never hesitated for a single moment to choose the latter. His conviction never faltered throughout, and his zeal never showed signs of abatement from beginning to end.

He was averse to the amassing of wealth and whenever he had a little thereof, he straightway spent it in charity.

On one occasion, he gave his wife Aysha a small sum of money to keep. When he was taken ill, he directed that it should be given to the poor and when this was done, he exclaimed, "Now I am at peace for verily it behoves me not to meet my Lord with this money still in my possession."

In his last address to the people, he said :

"O ye who hearken unto me, if I have smitten any of you, there is my back for him to smite; if I have besmirched any one's reputation let him wreak his vengeance on mine; if I have robbed anyone's property let him exact it out of mine; for verily this day he is secure and my heart beareth no malice."

When he finished his address and made to depart, a man siezed him by his clothes and demanded the settlement of three Dirhams which Muhammad owed him. The debt was discharged on the spot the Prophet saying : "Better the shame of this world than that of the hereafter".

(*To be Continued*)

unfounded for Muhammad embarked on his mission after the fortieth year and never before in his life did he show signs of ill-health to justify this assumption. Very few people indeed could be so well-known throughout the span of their lives as Muhammad was and so thoroughly indeed was his life treated, that even such details as the number of grey hairs in his beard ded not escape the traditionists' attention.

Had Muhammad been suffering from ill-health or fits as it is nowadays often alleged, it would have been impossible to hide the fact and one or two of his biographers would have at least referred to it. Muhammqd's states of unconsciousness were not due to fits or any other natural paroxysms. They were essentially the manifestations of an awe-inspiring experience under which he laboured when the Word of God was revealed to him.

Muhammad was not an innovator nor did he profess to be a writer. Indeed, we find some similarity between the Qoran and the Law (Old Testament) in a few places but the reason for this is not hard to find. The Qoran was revealed to set the seal to previous Scriptures just as Muhammad was sent as the last of the prophets. His mind and soul came under the same influence which affected the minds and souls of other Prophets; he worshipped the same God as they worshipped. Little wonder therefore that words should be similar or even identical in some cases despite the fact that the Lord's dispensations had been given unto mankind through the media of different Prophets. For did they not proceed from one and the same source ?

(9) Muhammad was definitely averse to all pomp and luxury. He was not haughty nor was he covetous of wealth or wordly power. He used to milk his own ewes, sit on the ground, mend his own clothes and cobble his own shoes. Contentment pervaded his whole character for never did he complain of his lot. He left this world, never once in his life having had his fill of barley-bread.

He never maintained a court or permitted a retinue to attend him. His, was a spiritual authority which aspired to no wordly pomp; neither did he seek the aid of a vizier to administer it.

He despised money and hated to have any of it left on his hands. During his life he attained to the highest pinnacle of authority and virtually exercised absolute power, yet never did he abuse it or go beyond the limits of equity. Of this power he had only one symbol— a staff; where no king was more entitled to a sceptre than he.

(10) Muhammad resolutely set himself to exterminate paganism.

and eloquence that he straightway embraced Islam.

Not less impressed was the Negus of Ethiopia whose eyes overflowed with tears when the Chapter of Zachariah and the verses regarding John were recited to him by Jafar Ibn Abi Taleb. In this connection it is recorded that on the following day, the Negus requested Jafar to recite the story of Jesus from the Qoran, which he did. The Negus was surprised to hear that Jesus was the servant and Apostle of The Lord and that he proceeded from the spirit of God. He took up a thin rod that was lyin in front of him and said to Jafar :

"The difference between what I have just heard from you and that which our religion saith is no more than the thickness of this rod."

This rod has however become stronger in that it stood between Ethiopia and Islam and rendered it a Christian country up to the present day.

(5) It is hard to believe that human eloquence could produce such effect, but the eloquence of the Qoran is so positively flawless and inimitable that no man on earth or angel in heaven could produce anything like it and its origin is therefore unquestionably Divine.

(6) The Qoran constitutes in itself a proof of Muhammad's prophethood. Up to the present day it still remains one of the mysteries which no one could solve or fathom save those who implicitly believe in the authenticity of its revelation and are convinced of its Divine origin. But even then it is questionable whether they fully understand its intricacies.

(7) No one can deny that Muhammad displayed all the signs of true prophethood in so far as he delivered a message at the behest of his Lord — a message which he wholly believed to be true.

Muhammad believed that his mind was so completely influenced by a Divine spirit that he no longer exercised any control over it. He was merely the instrument of God and the medium through which the word of Gdd was conveyed to mankind.

His ego completely disappeard and was sunk deep in the idea of the all-pervading Providence in which he implicitly believed.

Whether the revelation came to him in his dreams or at times of unconsciousness, it is difficult to say, but in either case, the genuininess of these revelations can not be gainsaid.

(8) Emotions used to show clearly on his face; some thought that he was subject to fits, a conjecture which proved totally

CONCLUSION

In concluding this series of articles on the Prophet Muhammad, we summarise in the following pages the views expressed by Count Henry, the great French orientalist, when dealing with the same subject.

He classified his views into ten arguments :

(1) In establishing the truth of Muhammad's prophethood we need only point out his own conviction that his mission was a true and a real one and that his ultimate object was to extirpate idol worship and substitute God's worship in lieu thereof.

(2) Muhammad's faith was inborn in him. It grew within his conscience into an all-prevading belief which no other soul prior to him had ever conceived.

This unwavering faith revolutionised the thoughts of men and was directly responsible for the change that took place in the destinies of mankind over a large area of the globe. Muhammad could neither read nor write. He was, as he repeatedly described himself, an illiterate Prophet. It is significant that no one of his contemporaries ever denied this assertion.

He never read a book nor did he seek guidance from any of his predecessors in the matter of religion.

(3) We all know of the great hardships which Muhammad endured and the mental agonies which he suffered in silence. The secret of his fortitude lay in the fact that The Lord caused his soul to be open only for the reception of the true faith. It is for this reason that he frequently sought solitude to escape the scenes of idolatry and polytheism which acted as thorns in his side whenever he came across them.

The oneness and unity of God had so pervaded his soul that he used to seek the solitude of Mount Hera to hold communion with and give prayers to The Lord.

(4) It is indeed baffiling to the human mind how such verses (of the Qoran) came to be uttered by an illiterate person like Muhammad, verses whose equivalent the master minds of mankind utterly fail to produce in both words and meaning. The failure of the Arabs themselves who were the acclaimed masters of eloquence and oratory and who were intent on the refutation of Muhammad's claims, points conclusively to its Divine origin.

It is related that when the Qoran was recited to Ukba Ibn Rabieh, he was so impressed by its beauty

of the purity of this great soul and the support given thereto by The Lord ?

An illiterate person, yet despite his illiteracy calls the master writers of the day to the intelligent understanding of their own texts! He, who had never been tutored, yet calls upon the learne people to rectify their pnowledge ! He who was born and bred far away from learning and erudition yet had come to guide the master minds of his time ! He who was reared among a back ward people, yet had come to correct the corrupted beliefs of philosophers ! He who was an orphan among a primitive race to whom nature and the universe were beyond comprehension, vet had prescribed for the benefit of the world at large the principles of an efficient law whereby the salvation of mankind is assured. Those who aspired to blessedness, had only tc follow his example to attain to eternal salvation.

Indeed Muhammad's character combined such noble traits as to offer to all man of all kinds a perfect pattern for imitation. This itself constitutes a miracle which no man of sound reason can deny. Muhammad's character did not only offer one phase to be judged by, but combined very, very many phases at one and the same time. As a teacher, guide, preacher, warrior, leader, legislator, judge, philosopher, chieftain, politician, ruler, party to a treaty, combatant, worshipper and a prophet, he was a model of perfection. And just as history and tradition record him thus, they are both agreed that such combination could not possibly be displayed by one single ordinary individual. But Muhammad was indeed no ordinary person. If we will but contemplate his life-story, his traditions and the tenets of his religion, we will be convinced beyond doubt that his life offers a guiding light to mankind and endows men with a spirit of power and vigour to aid them in the exercise of their vocations; and above all a law which warrants the realisation of men's aspirations.

Nay, history as well as reason points out that such great achievements could never have been realised without Divine favour and support.

CHAPTER 8

That Muhammad met with stubborn opposition on the part of his people is a fact well established by both history and tradition. They left no stone unturned in their desire to refute his claims and did all that lay in their power to prejudice his cause. Proud kings and princes, great poets and orators have all taken their stand against Muhammad and united in a joint effort to rebut his pretensions rather than follow him or submit to his claims. Their vanity and their zeal for their beliefs and time-worn dogmas of their forefathers stood an unsurmountable barrier between them and the admission of Muhammad's teachings. Yet, in face of retentless persecution, he never ceased to call them unto the very reverse of their beliefs and to point out fearlessly the fully of deifying their wooden idols.

Alone and unaided, he delivered his message and was heedless of the spirit of antagonism which he evoked in an altogether conservative people; small wonder that this should have been the case for men are apt to cherish what they are used to, harmful though it may be, and are averse to anything new, no matter how advantageous it may prove.

Notwithstanding his weak position and the apparently hopeless end he had set himself to achieve, he patienly reasoned with them and advanced proofs of his claims. Through repeated exhortations and admonitions, a feeling of anxiety was engendered in their hearts; yet withal, he proffered them goodly counsel even as a king whose word is law unto his people and whose commandments are just and equitable, or even as a wise father who is solicitous for his children's welfare and whose severity is tempered with mercy and kindness.

But what astounded them most of all was the fact that Muhammad who was humble and illiterate and far below them in station and knowledge yet dared to condemn and to criticise their actions. Yet his cause prevailed in the end and in wonderment they stood at such might coupled with humility, such power where disability was thought to dwell such knowledge despite illiteracy and such wisdom in an age of ignorance and idolatry !

Could there be a greater evidence

With all these successes, Muhammad never lost an iota of the initial purity of his soul and remained throughout his life, unaffected by successes which would have rendered others the most conceited and vain - glorious of men.

He continued to be the same kindly, modest and contented person that he always had been. In all his actions he offered a living example of equity and perfection.

He was kindliness incarnate; the little urchins of Medina would confidently take him by the hand and lead him round the town on an errand. So great was his kindness and love for children that he disdained not to converse with and accompany them; nay he evinced great pleasure to do so.

Would not the total disregard of material success which Muhammad had shown throughout be considered a mighty proof of his greatness and rectitude ?

Kings, legislators, philosophers, leaders have all succumbed to the temptation of but a raction o this success.

But the power which Muhammad enjoyed was a spiritual one and proceeded from on high. He was not therefore amenable to the baneful influence of temptation and his thoughts were far removed from the material successes the world offered.

It is noteworthy that all chroniclers agree that the great soul of Muhammad is unique and singular. Environment and consuetudinary usages exercised no influence over it — which fact reveals a surprising phenomenon in human nature for how indeed could Muhammad, who was born and bred among a heathen and ignorant people be immune from the effects of customs, morals and beliefs which had prevailed for generation in that part of the world ? How is it that herrdity so failed to function in his case that his character showed no trace of the peculiar traits of his people ?

How could he overcome single-handed those unsurmountable difficulties and emerge from the mighty struggle in which he was engaged, unscathed and unaffected?

How could he achieve success in face of overwhelming odds and embark as he did on what was seemingly a hopeless quest ?

How could he win those millions of people to his cause and bend their wills to his own?

Would not such a soul be justly termed the greatest in the world ? and would not its will be regarded as the most indomitable ever known ?

Could its opposers account for such unprecedented influence which was the lot of Islam to exercise over the world ?

lined; I may go hungry one day and eat my fill another, on the former, I would humbly pray to The Lord and on the latter I would glorify and praise Him'."

In concluding this article, we give in the following pages the views of some modern writers on Muhammad. A modern writer says : "Virtue, as all moralists agree, and as reason points out, could not be associated with vice, for should that ever take place, one of them will inevitably dominate the other and once it had become dominant, it will exercise its peculiar influence over men. Vice and virtue are dimetrically opposed and their respective influence, as established by intuitive and empirical knowledge, is well-defined in each case and admits of no confusion.

Should I claim, therefore, that the spirit of Muhammad was the greatest spirit that has ever been known since the creation of the world, no one would hesitate to admit the truth of this statement : should he do so, I would simply ask him to point out, if he can, a single individual who achieved success in one of the following three objects :

Firstly, the unification of a people who were divided into hostile tribes and among whom blood-feuds had never ceased from time immemorial; and the stamping out entailed by such unification, of the prevailing vices of those dark ages and the institution of virtue and goodliness in lieu thereof.

Secondly, the prescription of a law that gave them power and made possible their ascendancy and expansion after having practically been unheard-of.

Thirdly, the extirpation of false beliefs and the institution of a religion inculcating such high ideals as to admit of its growth and development in a most surprising manner up to the present day. Many people embrace this religion of their own accord and through no missionary propaganda. Little wonder therefore that this religion is confidently expected to supersede all other religions on some future day."

Thus with no human aid or counsel to direct it, had this great soul accomplished those three gigantic tasks. So complete indeed was the success it achieved that leading men of learning in the West unanimously recognise itsc sucess as a signal event in the history of the world.

With its mission accomplished, this great spirt rose in satisfaction to where it belonged. The name of Muhammad has been deeply engraved on the pages of history leaving an indelible mark on the minds of men and endowing its followers with its invigorating and uplifting influence.

mad. He ordered them to be laid on a mat in front of him and started on the spot to distribute this huge sum, and never did he refuse a petitioner until the whole ninety thousands were exhausted.

His Modesty and Urbanity

"The Prophet" says Aysha, "was, by nature, the least disposed to vile words or deeds nor did he ever wilfully have recourse thereto." ,,He never returned evil for evil but he was always prone to pass over the offence and forgive the offender."

In referring to anything distasreful, he was wont to express it euphemistically to spare his hearers' susceptibilities.

His, was a company of modesty, goodlineess and righteousness.

So highly indeed did his people hold him in esteem that they conferred upon him the epithet of "the Faithful the Trustworthy' long before his prophetic mission.

In this connection, Al-Nadr Ibn Al-Harith who was a swarn enemy of Muhammad, thus addressed Qoreish:

"When a youth, Muhammad was in character the best among you, the most honest and true yet when grey hairs glistened on his temples and he announced unto you his mission, you said, 'a sorcerer for sooth !' Nay by Allah, he is no sorcerer."

His Humility and Self - Abnegation

We have already alluded in these articles to the Prophet's complete indifference to the world, Suffice it to point out in this connection how little indeed he cared for it and how unheedful he was of the joys and luxury it offered; yet the world lay at his feet and the dominion of Islam extended far and wide beyond the Peninsula. Yet Muhammad died in poor circumstances and his shield was already in pledge to provide the wherewithal for his family.

A month or even two might elapse and no fire would be kindled on Muhammad's hearth. To quote Aysha, "Never did the family of Muhammad eat their fill of barley bread for three full days in succession." "The Apostle of Allah left not a single Dinar(1) or Dirham nor a sheep or a camel." "On his death there was nothing eatable in my house save half a loaf of barley bread left over on a shelf."

"Once" Aysha goes on to say, "the Prophet told me : 'the world had been offered me but I dec-

(1) A Dinar is an ancient Arab gold coin of 65 grains weight.

hammad's prophethood except as regards to two which I have yet to know : "whether his temper is not outstripped by his forbearance and whether his tolerance is not increased by insolence."

He put him to the test and found him not wanting in this respect.

The books of Traditions abound in such instances which we could scarcely deal with in this short treatise. It is sufficient to point out, in testimony of Muhammad's forbearance and forgivenness, the tolerant attitude which he always maintained in the face of the ever-increasing persecution by the Qoreish. When, however, he triumphed over them and entered Mecca, the scene of his sorest sufferings and persecutions, he nobly forgave them and granted them full amnesty.

"How do ye think I shall treat you ?" inquired Muhammad of the Qoreish on the surrender of Mecca.

"We hope for good" said they, "a noble brother and the son of a noble brother". Where upon he said, ,,I say even as my brother Joseph said : 'There shall be no reproach against you this day; may Allah forgive you for He is the Most Merciful'; go, ye are free".

His Liberality and Magnamity

In the exercise of charity Muhammad was unique and incomparable. No one ever petitioned Muhammad in vain. Always ready to help and give his all to the first petitioner who came to his door, he retained naught of the affluence that came to him and lived, throughout his life, even as the humblest live.

It is related on the authority of Anas, one of his Companions, that a man once petitioned Muhammad for a living and received all the sheep that were grazing between two mountains near by.

On returning to his people, the man called them to Islam and announced unto them that "Muhammad giveth even as him who hath no fear of the onset of poverty."

More than one person received the bounty of one hundred camels. One, Safwan, had on one occasion received three hundred, a hundred, then another hundred then yet another hundred.

Al-Abbas was once given such a quantity of gold that he could not carry it all and had to abandon the attempt.

On one occasion, ninety thousand Dirhams[1] were sent to Muham-

(1) A Dirham is a silver coin equivalent to nearly sixpence.

so infuriated at the Arab's insolence that they wanted to kill him were it not for the Prophet forbiddin them and had done so.

On another occasion when Ibn-Al-Harith resolved to slay Muhammad, he came upon him, in one of the expeditions, while he was having his midday sleep in the shade of a lone tree at a good distance from his Componions.

Muhammad had just awakened from his sleep to find Al-Harith standing at his head with a drawn sword in his hand. "What protects you from me ?" said Al-Harith. "Allah protecteth me from you" said Muhammad. The sword fell from the hand of Al-Harith whereupon the Prophet picked it up and said to him, "What protecteth you from me now." "Be thou the best of forgivers" said Al-Harith, which plea the Prophet granted on the spot and set him free. On returning to his tribe, Al-Harith is related to have said, "I have come from the presence of the best and most noble of men."

Nor was this the only instance in which he forgave the assailant who attempted his life. He forgave the jewess who administered poison to him in a lamb of which he had partaken. She confessed her evil deed and was forgiven and set free.

"Never was the Prophet" says Aysha, "inclined to retribution for any harm done him unless the Lord's Law be violated; neither did he smite anything save in the cause of Allah nor strike a woman or a servant all his life."

A man was once brought before him for intending to kill him; "Fear thou not ! Fear thou not!" said the Prophet, "for even hadst thou intended it, thou wouldst not have been able to do it."

Before his adoption of Islam, Zeid the jew, once came to demand of the Prophet the settlement of a debt. He grabbed him by his clothes and harshly spoke thus to him, "Verily, ye sons of Abdul-Muttalib are a recalcitrant lot." Omar who was present at the time, severely chided the jew for his insolence but the Prophet who stood smiling said "Verily, he and I are more in need of a different treatment from thee O Omar; thou shouldst have bidden me be prompt in settlement of the debt and him to be more courteous in demand thereof. Three days yet remain ere the debt falleth due." He then bade Omar discharge the debt and to give his creditor twenty handfuls more for the treatment he had received at Omar's hands.

Muhammad's behaviour on this occasion, so favourably impressed Zeid that he adopted Islam soon after.

"I have" says Zeid "satisfied myself as to all the signs of Mu-

Muhammad's humility and unworldliness, that when he died his shield was already in pledge to provide the wherewithal for his family.

During his lifetime he contented himself with the minimum of necessities as regards food, clothing and habitation and renounced all else though he could have lived in state and luxury had he but desired to do so.

Such was Muhammad the Prophet of Islam, humble in life and humble in death, but withal blessed and exalted by The Lord on High.

CHAPTER 7

His Tolerance and Forgiveness

The most tolerant and indulgent of men are sometimes apt to lose their patience and be roused to anger when their patience is sorely tried.

Not so Muhammad, for his was the patience that grew with persecution and increased in the face of insolence and revilement.

"Never did the Prophet have recourse to retribution save when the Lord's Law was violated," says Aysha.

It is related that when the Prophet's eye-tooth was broken and his face lacerated at Uhod, his Companions were so deeply chagrined that they asked, "Wouldst thou not invoke the Lord's wrath against the unbelievers?" to which he replied, "I have not been sent to invoke evil upon men but to pray for the Lord's favour and mercy unto them." "Forgive O Lord my people for they know not what they do."

Such unparalleled display of tolerance and magnanimity, gives an insight into the Prophet's character and the momentous natur of his mission; for not only did he refrain from retaliation for the physical injury and humiliation afflicted upon him, but he also forgave his assailants, nay even took pity on them so that he prayed for them and interceded with The Lord on their behalf; their ignorance was to him a sufficient excuse, and hence he prayed The Lord for them for, "they know not what they do."

On one occasion when the process of the distribution of spoils was in progress, the Prophet was harshly interrupted by an Arab who said "Observe thou justice in dealing out the spoils for this is no fair division." Muhammad no more than calmly explained the reason why such division was made. But his Companions were

inquire after him; shoued he happen to be absent he would pray for his safe return; if at home, he wduld visit him or ill, he would inquire after his health.

On bidding anyone farewell, he was wont to grasp him by the hand and never did he withdraw his own hand until the other withdrew his.

He never turned down the plea of whosoever solicited his help; should he be in a position to give it at the time, he never hesitated in doing so straightway but if he lacked the substance whereby to alleviate the straitened circumstances of his petitioner, he promised to come to his aid as soon as such was available.

Unstinted weie his bounties; in giving he never had a thought for himself and saved nought for the morrow.

On rising, after seated, he was wont to say : "Praise be to the Lord, all thanks are due unto Thee, there is no God worthy of worship but Thee; I pray for Thy forgiveness and am penitent unto Thee."

He hardly ever said "No" in response to his petitioner. If he was asked to do something to which he took no exception, prompt came his reply "Yea," but if he cared not to do it, he relapsed into silence.

His whole existence was so bound up with thoughts of The Lord that he gave mention to His Hallowed Name on all occasions.

He made place for the weary wayfarer to mount behind him on his steed. He ate from off the ground; nay, he never declined the invitation of the slave.

He used to incline the pitcher for the thirsty cat to drink therefrom; and he so admired the man who would wait upon his friends that he praised and prayed for him.

He milked his own ewe and attended to his own personal needs. He used to wake up during the night and stand for hours in worship of the Lord, so much so that his feet became swollen on more than one occasion.

The best meal for him was that in which many participated. He never reserved aught to himself of the affluence that came his way and used to say in this connection : "It pleaseth me not have I a mountain (like Ohod) of gold to retain a single Dinar there of unless it be devoted to the cause of my Faith."

On one occasion he received several Dinars which he distributed among those present. Six Dinars were left over and he gave them to one of his womenfolk. That night he lay sleepless in his bed and was restless until he had dicided those, as well, among his household "Now my mind is at rest !" he said.

Suffice it to say in testimony of

He never returned evil for evil but was always prone to pass over the offence and forgive the offender. Love and compassion were characteristic of Muhammad; no one was more concerned than he to seek the interest and welfare of the people.

Voices, were not raised in his presence, he inspired awe and reverence in the hearts of those with whom he came into contact. He was open-banded and his forbearance knew no bounds even on occasions when it was most severely taxed.

His manner and tone were sincere and reassuring; he inspired leverence in whosoever chanced to see him and deep affection in whosoever knew him.

He was wont to say unto his disciples : "Let no one from among you bear ill tidings regarding others unto me for I desire to come unto you clear without prejudice."

He used to inquire of people after those they knew and never failed to praise the good and to condemn the evil.

He was pleasant to his companions and kindly disposed towards them. He was never known to be rude or impertinent, nor did he ever speak disparagingly of any one or seek the faults and failings of others.

When he spoke, his companions used to be hushed and hang breathlessly on his words and it was only when he relapsed into silence that did speak, so weighty indeed was his counsel and so grave were his words.

"Announce ye glad tidings and alienate not the people but make easy the way unto them and constrain them not unto narrow straits," he used to counsel his messengers.

He ate but little and is related to have said in this connection :

"A few morsels may well suffice man to sustain his body." On coming home he used to inquire : "Have you aught of food ?" and should there be none which was not an infrequent occurrence, he was wont to say: "I fast this day."

"Help ye fulfil the object of him who cannot attain it," says Muhammad "for whose fulfileth his object will The Lord vouchsafe him security on the Day of Great Terror (Judgment Day).

On setting out to defend the Faith he prayed to The Lord "O Lord, of thee do I seek aid, and in Thy Hallowed Name do I go forth and fight in Thy cause."

On occasions when he was roused to anger while standing, he used to sit down and if he was sitting, he used to assume a reclining position to restrain his feeling thereby.

If he missed one of his companions three days, he was wont to

used often to reiterate. "Nay! By Him who wields the hearts of men."

He was taciturn and laughed on rare occasions. His liberality and kindliness won the hearts of all those around him. He used to inquire of the servant if he was in need of anything and never did he, by word or deed, cause distress to his pepole. Unto no one would he break bad news. He gave freely unto the poor, visited them, came to their sick-beds and gave them of his unbounded sympathy and attended their funerals when death claimed a dear one from their midst.

Pleasant of face and amiable was he to the sinner of the deepest dye that mayhap he win him over thereby.

Oftimes The Lord engaged his thoughts. In vain discourse never did he indulge and long indeed did he pray to The Lord.

The widow, the poor and even the slave never sought his help in vain for never did he refuse to give it or disdain to accompany any of them and help accomplish his object.

He was the most indulgent, equitable and virtuous of all men. His hand never touched a woman's unless she was his wife or a near kinswoman.

He was most modest and unassuming; he was serene without being haughty, eloquent without being loquacious and above all most pleasant of mien and completely indifferent to all worldly affairs.

He sat in the company of the poor and shared his food with the needy and wayfarer. The goodly he honoured, and the noble he sought to attach to him in friendship.

He gave unto his kindred but never did he give them priority over the more deserving ones among others.

He was equanimous of temper; anger never ruffled his serenity. The plea of the penitent he was never loth to accept.

He jested, yet never did he utter but a truth. Neither did he roar with laughter nor look disapprovingly upon innocent play.

Nothing ever engaged his attention so much as the worship of God or an indispensable occupation whereby to sustain himself and his own.

He never looked down on the poor for their penury or feared a king for his might and dominion.

He forbore from retribution for anything done save the breaking of the Lord's law; and never did he have the choice of two ways but he chose the easier of the two unless he feared to commit a sin or to alienate his kindred thereby.

and he shall give you another Paraclete that he may abide with you for ever."

"And now I have told you before it came to pass, that, when it comes to pass, ye might believe."

The other "Paraclete" in whom Christ bade them believe and who was to abide with them for ever is no other than Muhammad for no other prophet came after Jesus, and it is not conceivable that he has not come until now as Christ very often told his advent was near at hand.

It is easy to draw inferences from such saying as : "Abide with you for ever" and "It is expedient for you that I go away : for if I go not away, the Paraclete will not come unto you."

In pages 63 and 64 of his book "Saiful-Muslimeen," Hyder Ali Al-Korashy mentions that the Armenian priests have translated the book of Isaiah from the original into the armenian language in 1666 A.D. and the translation was published in 1733 A.D. by Anthony Bortelly. In Chapter XLII of this translation a verse is given wherein the qualities of the prophet who will preach a new law and assume great power and authority under the name of Ahmed,(1) were detailed.

This translation is still retained by the Armenians and it could easily be verified by seekers of truth.

So much then for tangible proofs quoted from the Scriptures. Muhammad did not lack such qualities as could only pertain to true prophets. In this connection, it would be fitting to record in the following pages some of his personal traits and actions which will shed light on a phase of his life hitherto neglected by most biographers. The importance of such an account cannot be overestimated, for indeed man's personal character provides a clear indication of his true nature and the state of his mind and soul.

It was not by accident that Muhammad was acclaimed the best of men, the most generous and brave. He was most tolerant and suffered patiently the persecution of his enemies.

Lying was most abominable to him; he used to avoid and completely ignore anyone of his own folk who told a lie and it was not until the delinquent showed true penitence that he spoke to him again.

When he gazed up into heaven, he was wont to say : "O Wielder of hearts ! confirm thou my heart in thy obedience." But knowing as he did of the oscillation and inconsistency of men's hearts, he

---

(1) One of the names of the Prophet Mohammad is Ahmed.

the assignation of the Law to Moses, the rising up frcm Seir implies the assignation of the Gospel to Jesus and the shining forth from Mount Paran implies the revelation of the Qoran to Muhammad as Paran is a mountain of Mecca.

The following quotation from the Book of Genesis, Chapter XXI. 21, in connection with the story of Ishmael fully substantiates this view :

"And he dwelt in the wilderness of Paran : and his mother took him a wife out of the land of Egypt."

According to an Arabic translation published in 1844 A.D. Book of Genesis Chapter XVII. 20, a covenant was made with Abraham regarding his son Ishmael that one of his progeny will be followed by a great people. None of Ishmael's descendants became the chieftan of a great people except our Prophet Muhammad.

Again in the Book of Genesis, Chapter XLIX, 10, of the Arabic translation of the Biole published in 1722, 1831 and 1844 A.D., the following verses are significant :

"The sceptre shall not depart from Judah until he cometh who claimeth all and is waited for by the people."

And in the Book of Psalms, Chapter XLV, 2, 3, 5 and 9 addressing a future prophet :

"Grace is poured into thy lips : therefore God hath blessed thee for ever."

"Gird thy sword upon thy thigh, O most mighty."

"Thine arrows are sharp in the heart of the King's enemies; whereby the people fall under thee."

"King's daughters were among thy honourable women."

This address could only be meant for Muhammad as Jesus was not the prophet who resorted to arms in defence of religion, nor indeed did any people fall under him. He sought refuge in vain to escape the persecution of the Jews and was made the object of insult and derision and was even put to a violent death as the Christians allege.

No less significant are the following verses Chapter XVI. 7 of the Gospel of St. John :

"Nevertheless I tell you the truth; It is expedient for you that I go away : for if I go not away, the Paraclete(1) will not come unto you."

And Chapter XIV. 15, 16 and 29 of St. John :

"If you love me, keep my commandments."

"And I will pray the Father,

(1) In the new version of the Gospel "Comforter" is substituted for "Paraclete."

It would be fitting in concluding this article, to give in the folowing pages some instances of the announcement by prophets of the advent of Muhammad and reference thereto in the Scriptures.

Much could be written should we wish to give all the announcements made by prophets, priests and monks regarding the advent of Muhammad. It would indeed be an endless task to undertake, before such evidence of Sateih, Wahb Ibn Monabbeh, Kaabul-Ahbar, Al-Mukaukis, Heraclius, the Negus of Ethiopia, Tobbah, Ommiah Ibn Abil-Sult and others could be exhausted.

Such announcements were so widely spread and repeated over and over again by the Prdphets, that no Scripture of Jews or Christians lacked reference thereto, despite the fact that many verses have been misconstrued and corrupted by them. Nevertheless such corruption did not prejudice the true meaning of the verses as is conveyed for instance by the substitution of "Comforter" for "Paraclete" in chapters XVI and XVII of the Gospel of St. John. It was due to Divine providence that such verses retained their original meaning. For indeed, had Muhammad not been the promised prophet whose advent Christ had announced and said was near at hand, we would wonder who could that prophet be and why was his advent so long delayed.

We will give in the following pages a short account of such Scriptural references to Muhammad as will leave no room for doubt to rankle in the minds of seekers of truth and will, at the same time render clear the Lord's saying in the Qoran that the people of the Scriptures will find his name and qualities clearly given in their books, the Law and the Gospel, and that they know him even as they know their own children.

The name of Muhammad was clearly given in several chapters of the Gospel of Barnabas as well as in the Books of Isaiah, Daniel, Ezekiel and others. It is evident that such lofty sayings, great knowledge and spiritual attainments given in the Gospel of Barnabas could only refer to a great and a holy prophet. The contents of this Gospel present a striking comparison to the modern ideals of present day thinkers and philosophers.

Among other scriptural quotations alluding to the advent of Muhammed the following from the book of Deuteronomy XXXIII, 2 is significant :

"And he said: "The Lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them, and shined forth from Mount Paran, and he came with thousands of saints."

The coming from Sinai implies

إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » .

"This (the story of Joseph) is one of the unknown histories which We reveal unto thee. Thou wert not present with Joseph's brethren when they resolved to cast him down to the bottom of the well and plotted his destruction."

(*Alucy's Commentary.*)

It was because of this knowledge that the well-versed among the people of the Scriptures did not doubt the prophethood of Muhammad as signified by the following verses :

« إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » .

"When the Qoran is recited to the learned people who have read the books of old prior to the revelation of the Qoran, and recognised its genuineness, they fall down upon their faces, prostrate in glorification of The Lord and say "Our Lord is far above breaking His promise for whatever He promiseth is surely accomplished." And they fall down upon their faces weeping, deeply touched by the exhortations of the Qoran which intensify their humility."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » .

"The learned ones among the people of the Scriptures unto whom knowledge was given, and who believed in the Qoran, know that it is the true Word of The Lord and that it leadeth unto the way of Allah, The Mighty, The Praise worthy."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » .

"When those who declare they are Christians hear the Qoran recited, thou shalt see their eyes overflow with tears, on knowing the truth. They would say 'O Lord ! We believe in what was revealed, pray count us among those who bear witness to the truth'."

(*Alucy's Commentary.*)

Muhammad was brought up, were not only unacquainted with the history of the prophets and their mission, but they were hopelessly steeped in ignorance and polytheistic beliefs and believed not in the life to come. Monotheism was completely unknown to them and the idea of the unity of the Godhead never presented itself to their minds. They believed in a plurality of gods and the association of others with the Almighty Lord.

An examination of the Qoran and the Law (Old Testament) will reveal their total agreement in regard to the fundamental precepts such as that of the unity of God, the prophetic attributes and the injunctions ordained by the Lord. Once this conclusion is reached, it would be easy to recognise the truth of the comment made by the Negus of Ethiopia who, on hearing the Qoran recited exclaimed, "Verily this and that which was revealed unto Moses issue from the one and the same source"; as also of the remark volunteered by Waraka Ibn Nowfal who said regarding the revelation of the Qoran to Muhammad "This is the Nomos that was wont to descend upon Moses."

«قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» .

"Say, Muhammad ! Suffice Allah unto me who hath made manifest the truth of my mission and is the best of witnesses. Also those who are given the knowledge of the Scriptures can testify thereto."

(*Alucy's Commentary.*)

This is one of the greatest proofs of the prophethood of Muhammad. He announced unto his people such precepts and injunctions as were enjoined by other prophets; yet this knowledge was conveyed to him by no living creature. It had long been forgotten and was within the region of the unknown to which no one could penetrate except through Divine Revelation as saith the Lord in the following verses :

«تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ
مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ
هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» .

"This (the story of Noah) is one of the unknown histories which We reveal unto thee. Neither thou nor thy people were given knowledge there of before its revelation. Therefore suffer thou patiently the afflictions and persecutions which befall thee; for verily a happy ending shall attend the pious."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

«ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

afterwards, Arabia is a Grenada on this hand, at Delhi on that; — glancing in valour and splendour and the light of genuine, Arabia shines through long ages over a great section of the world. Belife is great, life-giving. Is it not as if a spark had fallen, one spark, on a world of what seemed black unnoticeable sand. I said, the Great Man was always as lightning out of Heaven; the rest of men waited for him like fuel, and then they too would flame."

CHAPTER 6

Among other proofs testifying to the genuineness of a claimant to prophethood, is the announcement by former Prophets of his advent. Such, indeed, was the case with Muhammad whose advent was announced by Christ and the Prophets prior to him.

The genuineness of the climant to prophethood could be further attested to by his inculcating some certain precepts such as were ordained by other Prophets. For as the ignorant and iniquitous judge is liable, in his judgment, to go contrary to the established rules followed by learned and righteous judges, and as the ignorant jurisconsults or quacks are liable, in their practices, to go off the beaten track of their respective professions, so is it with the lying impostor who claims prophethood; he is bound to deviate from the fundamental principles on which all true prophets concur as regards, for instance, the unity of God, the prophetic attributes and the life to come.

The ignorance and imposture of all such claimants are bound to be exposed on account of their contradiction to the established rule of learning and truth.

It is an established fact that Muhammad was illiterate and that he was brought up among an altogether illiterate people. Indeed, he had never read a book nor had he penned a single letter with his own hand and in this connection the Lord saith :

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »

"Thou couldst not recite any book before the revelation of the Qoran unto thee, neither couldst thou transcribe one with thine own right hand, for hadst thou been able to read and write, the unbelievers would have doubted the divine origin thereof".

(*Alucy's Commentary.*)

The people among whom

Universe an awful Fact and Reality."

"Sincerity, in all senses, seems to me the merit of the Qoran; what had rendered it precious to the wild Arab men. It is, after all, the first and last merit in a book; gives rise to merits of all kinds,—nay, at bottom, it alone can give rise to merit of any kind."

Speaking of Muhammad's character Carlyle remarks :

"Traits of that kind show us the genuine man, the brother of us all, brought visible through twelve centuries, — the veritable Son of our common Mother.

Withal I like Mohamet for his total freedom from cant. He is a rough self-helping son of the wilderness; does not pretend to be what he is not. There is no ostentatious pride in him; but neithr does he go much upon humility : he is there as he can be, in cloak and shoes of his own clouting; speaks plainly to all manner of Persian Kings, Greek Emperors, what it is they are bound to do; knows well enough, about himself, 'the respect due unto thee.' In a life-and-death war with the Bedouins, cruel things could not fail; but neither are acts of mercy, of noble natural pity and generosity wanting. Mohamet makes no apology for the one, no boast of other".

"No *Dilettantism* in this Mahomet; it is a business of Reprobation and Salvation with him, of Time and Eternity : he is in deadly earnest about it ! Dilettantism, hypothesis, speculation, a kind of amateurscarch for Truth, toying and coquetting with Truth : this is the sorest sin. It consists in the heart and soul of the man never having been *open* to Truth ; — 'living in a vain show'."

"On the other hand, Islam, like any great Faith, and insight into the essence of man, is a perfect equaliser of men : the soul of one believer outweighs all earthly kingships; all men, according to Islam too, are equal."

Finally Carlyle observes :

"These Arabs believe their religion, and try to live by it ! No Christians, since the early ages, or only perhaps the English Puritans in modern times, have ever stood by their Faith as the Moslems do by theirs, — believing it wholly, fronting Time with it, and Eternity with it"

"To the Arab Nation it was as a birth from darkness into light; Arabia first became alive by means of it. A poor shepherd people, roaming unnoticed in its deserts since the creation of the world : a Hero-Prophet was sent down to them with a word they could believe : see, the unnoticed becomes world notable, the small has grown world-great; within one century

hitherto. Not till he was already getting old, the pururient heat of his life all burnt out, and *peace* growing to be the chief thing this world could give him, did he start on the 'career of ambition'; and, belying all his past character and existence, set up as a wretched empty charlatan to acquire what he could no longer enjoy ! For my share, I have no faith whatever in that.

Ah no : this deep-hearted Son on the Wilderness, with his beaming black eyes and open social deep soul, had other thoughts in him than ambition. A silent great soul; he was one of those who cannot *but* be in earnest; whom Nature herself has appointed to be sincere. While others walk in formulas and hearsays, contented enough to dwell there, this man could not screen himself in formulas; he was alone with his own soul and the reality of things. The great Mystery of Existence, as I said, glared-in upon him, with its terrors, with its splendours; no hearsays could hide that unspeakable fact, 'Here am I !' Such *sincerity* as we named it, has in very truth something of divine. The word of such a man is a Voice direct from Nature's own Heart. Men do and must listen to that as to nothing else;—all else is wind in comparison."

"We will leave it altogether, this impostor hypothesis, as not credible; not very tolerable even, worthy chiefly of dismissal by us."

"Such light had come, as it could, to illuminate the darkness of this wild Arab soul. A confused dazzling splendour as of life and Heaven, in the great darkness which threatened to be death."

Carlyle then goes on to say :

"And now if the wild idolatrous men did believe this, and with their fiery hearts lay hold of it to do it, in what form soever it came to them, I say it was well worthy of being believed. In one form or the other, I say it is still the one thing worthy of being believed by all men. Man does hereby become the high-priest of this Temple of a World. He is in harmony with the Decrees of the Author of this World; cooperating with them, not vainly with standing them."

"Islam devoured all these vain jangling Sects; and I think had right to do so. It was a Reality, direct from the great Heart of Nature once more. Arab idolatries, Syrian formulas, what soever was not equally real, had to go up in flame,—mere dead *fuel*, in various senses, for this which was *fire*."

"Forger and juggler ! No, no! This great fiery heart, seething, simmering like a great furnace of thoughts, was not a juggler's. His life was a Fact to him; this God's

do prosper by their quackery, for a day."

"But of a Great Man especially, of him I will venture to assert that it is incredible he should have been other than true. It seems to me the primary foundation of him, and of all that can lie in him, this. No man adequate to do anything, but is first of all in right earnest about it; what I call a sincere man."

"This Mohamet, then, we will in no wise consider as an Inanity and Theatricality, a poor conscious ambitious schemer; we cannot conceive him so. The rude message he delivered was a real one withal; an earnest confused voice from the unknown Deep. The man's words were not false, nor his workings here below; no Inanity and Simulacrum; a fiery mass of Life cast-up from the great bosom of Nature herself. To *kindle* the world; the world's Maker had ordered it so."

"One other circumstance we must not forget : that he had no school-learning; of the thing we call school-learning none at all. The art of writing was but just introduced into Arabia; it seems to be the opinion that Mohamet never could write."

"Curious, if we will reflect on it, this of having no books. The wisdom that had been before him or at a distance from him in the world, was in a manner as good as not there for him. Of the great souls, flamebeacons through so many lands and times, no one directly communicates with this great soul. He is alone there, deep down in the bosom of wilderness; has to grow up so, — alone with Nature and his own Thoughts.

But, from an early age, he had been remarked as a thoughtful man. His Companions named him "Al-Amin" The Faithful. A man of truth and fidelity; true in what he did, in what he spoke and thought. They noted that *he* always meant something. A man rather taciturn in speech; silent when there was nothing to be said; but pertinent, wise, sincere, when he did speak; always throwing light on the matter. This is the only sort of speech *worth* speaking ! Through life we find him to have been regarded as an altogether solid, brotherly, genuine man. A serious, sincere character; yet amiable, cordial, companionnable, jocose even; — a good laugh in him withal : there are men whose laugh is as untrue as anything about them; who cannot laugh. A spontaneous, passionate, yet just, true-meaning man !"

"All his 'ambition,' seemingly, had been, hitherto, to live an honest life; his 'fame,' the mere good opinion of neighbours that knew him, had been sufficient

It was in this same vein of argument that Carlyle the great English writer and philosopher addressed his fellow-Christians in his lectures on heroes when speaking of Muhammad.

The following are a few quotations of his discoures :

"Our current hypothesis about Mahomet, that he was a scheming Impostor, a falsehood incarnate, that his religion is a mere mass of quackery and fatuity, begins really to be now untenable to any one. The lies, which well-meaning zeal has heaped round this man, are disgraceful to ourselves only."

"The word this man spoke has been the life-guidance now of a hundred-and-eighty millions[1] of men these twelve-hundred years. These hundred-and-eighty millidns were made by God as well as we. A greater number of God's creaturs believe in Mahomet's word at this hour than in any other word whatever. Are we to suppose that it was a miserable piece of spiritual legerdemain, this which so many creatures of the Almighty have lived by and died by ? I, for my part, cannot form any such supposition. I will believe most things sooner than that. One would be entirely at a loss what to think of this world at all, if quackery so grew and were sanctioned here.

Alas, such theories are very lamentable. If we would attain to knowledge of anything in God's true Creation, let us disbelieve them wholly ! They are the product of an Age of Scepticism; they indicate the saddest spiritual paralysis, and mere deathlife of the souls of men; more godless theory, I think, was neverpromulgated in this earth. A false man found a religion ? Why, a false man cannot build a brick house ! If he do not know and follow *truly* the properties of mortar, burnt clay and what else he works in, it is no house that he makes, but a rubbishheap. It will not stand for twelve centuries, to lodge a hundred-and-eighty millions; it will fall straightway. A man must conform himself to Nature's laws, *be* verily in communion with Nature and the truth of things, or nature will answer him, No, not at all ! Speciosities are specious—ah me!—a Cagliostro[1], many Cagliostros, prominent world-leaders

(1) This was written in 1840, *i.e.* more than a century ago. The number of Moslems throughout the world is at present seven hundred millions at a very odest estimation.

(1) Cagliostro (1743-1795 A.D.), Italian alchemist, and impostor. was born at Palermo. His real name was Giuseppe Balamo. He perpetrated a series of ingenious crimes and fled from Sicily to escape punishment. He visited Greece, Egypt, Arabia, Persia, Rhodes (where he studied Alchemy) and practised his quackeries in many Furopean countries.

"There is surely a sign in what had befallen those people who have gainsaid their Prophet for most of them believed not; verily thy Lord is mighty in dealing with those who disobeyed His injunctions, and merciful to those who obeyed."

(*Baidawy Commentary.*)

The Lord hath shown that knowledge of such endings is reached through the medium of seeing and hearing or both together. The former applies to those who have witnessed the destruction of the unbelievers or the traces thereof, as the annihilation of the Army of the Elephant lead by Abraha or the relics which tell of the peoples of Syria, Yemen and Hedjaz. As to the atter, knowledge thereof is derived from authentic history which is very often established by constant corroboration, as the story of Moses and Pharaoh, the drowning of Pharaoh and his host in the Red Sea, the story of Abraham and Nimrod, Noah and the Deluge and many other such stories acknowledged by all religions.

The narration of these stories is indeed more reliable than any other story, be it of kings or of great men — as for instance, the stories of Persian kings, Arabs in the pre-Islamic era or Greece with its learned men of medicine, astronomy and philosophy among whom Hippocrates(1), Galen(2), Ptolemy(3), Socrates(4), Plato(5) and Aristotle(6) figure prominently.

It is evident that the stories of Prophets, their people and enemies are, by far, of greater import than the stories of all those others mentioned before.

---

(1) Hippocrates (460 B.C.), Greek physician, was born on the Island of Cos off-the Coast of Asia Minor. He is regarded as the "Father of Medicine" and is famous for his great Collection on Medicine.

(2) Galen (130-200 A.D.), Greek physician, was born in Pergamum' the capital of Mysia in Asia Minor· He was the auther of some 500 treatises on medicine and philosophy.

(3) Ptolemy, celebrated Greek mathema tician, astronomer and geographer, was brn born at Ptolemais Hermii a Grecian city of the Thebaid in the 2nd century of the Chritian era. He devoted his life to the study of astronomy and kindred subjects and is the author of the Ptolemaie System pertaining to the structure of the heavens and the motions of heavenly bodies.

(4) Socrates celebrated Greek philosophe r(469-399 B.C.), was born in Athens. He wrote nothing himself but his doctrine were expounded chiefly in the Dialogue of Plato and the Memorabilia of Xenophon.

(5) Plato, Greek philosopher (428-348 B. C.), author of the "Republic" "Gorgias", "Phaedo" etc.

(6) Aristotle, Greek philosopher 384-322 B.C.), was born at Stagira. a Greek colonial town on the north-western shores of the Aegaean. He was the founder of literary criticism.

لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ
تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا
فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

"Have the unbelievers not journeyed in the earth and witnessed the sad ending of those who charged their Prophets with imposture before them and taken warning thereby ! Those past people were far mightier than the Meccans, and their castles and strongholds more enduring than theirs; yet the Lord hath destroyed them because of their sins and there was no one to prevent this fate befalling them. This, because they disbelieved the miracles of the Prophets who were sent unto them; and the Lord hath therefore destroyed them for He is Mighty and Severe of punishment."

(*Baidawy's Commentary.*)

And :

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

"Verily we shall render support to our Apostles and to those who believed, in this world and in the hereafter when Prophets, angels and true believers shall be called to bear witness on the Judgment Day."

(*Baidawy's Commentary.*)

And :

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ
مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ
قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » .

"And We have sent Apostles before thee; the story of some of whom We have told thee; and the story of others We have told thee not.

No apostle hath the power to work a miracle unless the Lord so wills it; but when the Lord ordaineth punishment in this world or the hereafter, everyone will be accorded his just deserts, and then those who challenged the Prophets to work further miracles, will perish for their disbelief."

(*Baidawy's Commentary.*)

Warning against the sad ending and the punishment inflicted upon those who evoked God's wrath, is reiterated in the Chapter of the Poets after the stories of Moses, Abraham, Noah and other Prophets and is given thus :

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

MESSAGE OF PEACE
A TREATISE ON ISLAM

By

The late Prof. **Sheikh Youssof El - Degwy**
of Al-Azhar University and member of the Body of Grand Ulama·

(**Translated From the Arabic**)

By

Aly Z. Husny M.A.

Part : 2

The Prophet Muhammad

« *Continued* »

CHAPTER 5

We have already referred to the punishment which the Lord inflicted upon those who denied the truth of the Prophets sent to them. Such punishment is referred to in the Qoran as in the following verses :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ »

"The unbelievers of Mecca were not the only people who charged their Prophet with imposture; the people of Noah and the people of Ad and Themoud and other people who confederated against their Prophets have also done so before the Meccans. Each of those people schemed against their particular prophet and strove to inflict harm and torture upon him; they disputed with vain words to refute the truth he was sent with whereupon the Lord hath destroyed them; and lo, how severe His punishment was!"

(*Baidawy's Commentary.*)

And :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ

mad Shaheen of Al-Azhar University.

Thence, it could be said that this magazine was represented by its Editor-in-chief Dr. A. I. Shalaby who particularized the details of the conference in a report published in Arabic in this Volume.

The Seminar was conducted in three Languages : Arabic, English and Tamil with which the delegates deliverd their speeches and researches and proceeded their discussions through the four sub-Commitees that sprang up from the conference to discuss the main aspects of the subject.

These aspects are :

1 — Islam and features of its legal system.

2 — Islam and Education.

3 — Islam and features of Sociology.

4 — Islam as a total system.

The result of this Seminar was of prudent and vigilant decisions that are amongst Dr. A. Shalaby's Arabic report published in this volume.

«Yet, if ye obey ALLAH and»
«His messenger, He will not withhold»
«from you aught of (the reward of) Your»
«deeds. Lo ! ALLAH is Forgiving, Merciful.»
«The (true) believers are those only»
«Who believe in Allah and His Messenger»
«and afterward doubt not, but strive»
«with their wealth and their lives for»
«the couse of ALLAH. Such are the sincere».

(*Surah* 49 : 14/15)

Zaher A. El-Zoghby

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

The fiftieth Volame No. 6 Shawwal 1398 H. — September 1978 A.D

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

INTERNATIONAL MUSLEM SEMINAR IN SRI LANKA

By

Zaher A. EL - Zoghby

«Those are they whom Allah guideth»,

«So follow their guidance»

The splendowrous city of Colombo; the capital of the noble, invetrate and beautiful island : «Srilanka» had witnessed a momentous and important incident during four days — from Friday, the 24th until Monday, The 27th of Jumadah Al-Akhirah 1398 H. (the 30th of June/the 3rd of July 1978) — when The International Muslem Seminar was held there.

Delegations representing all muslems of the world were invited by The Muslem Scholars of Ceylon and Al-Azhar was represented with a delegation of four members hedead by His Eminence Shaikh Mohammad Motawally Sha'arawy, The Minister of wakfs and The affairs of Al-Azhar, the other three were : His Eminence Dr. Al-Hussainy Hashim — The Secretary General of The Islamic Researches Academy — His Eminence Dr. Abd-ul-Wadoud I. Shalaby — The General Director and Editor - in-chief of Al-Azhar Magezine — and His Eminence Dr. Tawfik Moham-

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء السابع والثامن — السنة الخمسون — ذى القعدة / ذى الحجة ١٣٩٨هـ أكتوبر / نوفمبر ١٩٧٨م



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام هو التوحيد

لفضيلة الامام الاكبر شيخ الازهر
الدكتور عبد الحليم محمود

والإسلام — كما كانت الأديان فى نقائها ، وصفائها من قبل — إنما هو التوحيد ، وهو دعوة إلى التوحيد .

فالتوحيد — أى إسلام الوجه لله — جوهره ، وأساسه . وكل تعاليمه ، ومبادئه : إنما هو توحيد .

وهى وسائل ومناهج للوصول بالإنسان إلى التوحيد .

و « أشهد أن لا إله إلا الله » ، إنها رسالة السماء الخالدة . . « وأشهد أن محمداً رسول الله » . . . الذى بلّغ الرسالة ، فأدّى — بهذا التبليغ الصادق — الأمانة ، التى وكلت إليه ، وهى التوحيد .

التوحيد : هو مبدأ الإسلام وجوهره ، ولكن التوحيد ، ليس مجرد قول ، وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور .

وإذا لم يؤمن الإنسان بالتوحيد إيمانًا يملك عليه جميع أقطاره ، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه ، ويغمر قلبه ونفسه ، ويكيّف جسمه ، ويوجهه الوجهة السليمة . . . فإنه لا يكون كامل الإيمان .

ومن أجل إيجاد الإنسان الموحد فى صورة واقعية ... كانت تعاليم الإسلام .

فالصلاة : إنما هى انفصال عن كل ما سوى الله ، من أجل الاتصال بالله ، فهى توحيد .

ومن هنا كان بدؤها « الله أكبر » لتشعر الإنسان من المبدأ أن جميع ما فى العالم من سادة ، وجميع ما فى العالم من بشر — تتعلق بهم الآمال ، أو يناط بهم الرجاء — فإن الله أكبر منهم ، وأجل وأعظم ، فيجب أن تتعلق الآمال به وحده ، وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه .

ثم تتوالى جميع الأوضاع فى الصلاة ؛ من قراءة ، وركوع ، وسجود ، وتشهـّد ، لتعلن — بكل حركة ، وبكل وضع — الانفصال عما سوى الله ، من أجل الاتجاه إلى الله وحده : ومن أجل إسلام الوجه إليه سبحانه .

والصوم : إنما هو تنزه عن المادة ، وعن السوء فى القول ، والعمل فترة من الزمن ، من أجل مرضاة الله ، إنه تنزه عن نقص البشرية ، الذى يتمثل فى شهوات المعدة ، لتخلص الروح فترة إلى التأمل فى كمال الله . إنه محاولة للتخلق بأخلاق الله ، لأنه — سبحانه — الكمال المطلق ، الذى لا يحتاج إلى شىء ، والذى لا بد لمن يأمل فى شىء من الكمال ، من أن يتحلى بما أراده — سبحانه — منه ، إنه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد .

والزكاة : إنما هى بذل المادة فى سبيل الله ، إنها بذل المادة ، التى يجرى وراءها البشر ، ويكادون يعبدونها ، بذلها بعد امتلاكها ، بذلها وقد كان فيها — لو أراد — الوسيلة للملاذ ، والشهوات ، إنها تجرد عن المادة ، توحيدا لله سبحانه .

وأما الحج — والله نسأل أن يكتبه لنا كل عام — فإنه تجريد كله ، إنه تجرد عن الماضى ، فهو فى بدايته التوبة عن الذنوب ، والآثام — أى عن الفترات التى غفل الإنسان فيها عن ذكر الله — فأشرك معه غيره ، واتخذ إلهه هواه ، فنسى الله ، فوقع فى المعصية ، والإثم .

هو تجرد ، حتى عن ملابس الماضى ،

وهو تلبية من أول لحظاته ، تلبية هى استجابة لله — وحده — أو هى توحيد خالص ، إنها استجابة كاملة للأمر بنفى الشريك .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك ، لا شريك لك » .

إن هذا النداء الذى يتعالى — وله عبير طيب ، وله سناء متألق . فيصعد إلى السماء ، فتفتح له أبوابها ، إن هذا النداء إنما هو الانطواء الكامل تحت راية التوحيد .

وتتوالى أعمال الحج كلها ، واضحة سافرة ، أو رمزية مستعلية ، معلنة التوحيد ، منادية به ، طائفة وراءه ، ساعية من أجله ، واقفة تستشرفه ، راجية من الله — سبحانه وتعالى — أن يقبل أصحابها فى زمرة الموحدين . يقول الله تعالى :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى إليه ، أنه لا إلٓه إلا أنا فاعبدون)[1] .

هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة .

ومعالم التوحيد فى الأخلاق ألا يصدر عن الإنسان ، ولا يرد فى سلوكه الشخصى ، أو فى سلوكه الاجتماعى أمر إلا عن توجيه إلٓهى .

ومعالم التوحيد فى « النية » أن يكون الإنسان — فى كل ما يأتى ، وما يدع — قاصداً وجه الله تعالى ، هو أن تكون حياته كلها لله ، وليست الحياة وحدها ، وإنما الممات أيضا .

والتوحيد — على العموم — هو أن يهب الإنسان نفسه لله ، فى قيامه ، وجلوسه ، فى نومه ، ويقظته ، فى حديثه وصمته ، فى غضبه ، ورضاه ، فى صداقته ، وعداوته ، فى بيعه وشرائه ، فى عمله وراحته ، فى أفكاره وآرائه ، فى توجيهه وإشاراته ، فى نصائحه ، وتحذيراته ، فى كل نفس يتنفسه ، أو طرفة عين يطرفها .

ونعود فنذكر — كقانون جامع — أن توحيد الإنسان : هو أن تكون صلاته ، ونسكه ، ومحياه ، ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له .

ويقترب الإنسان من المثل الأعلى الإسلامى بمقدار قربه من هذه المعانى :

عقيدة ، وأخلاقـًا ، ونية .

وقوله تعالى :

(ألا لله الدين الخالص)[2] .

إنما يشير بها إلى خلوصه من كل شائبة شرك . سواء أكان الشرك فى العقيدة ، أم كان فى الأخلاق والنية .

---

(١) سورة الأنبياء (٢٥) .

(٢) سورة الزمر (٣) .

والله — سبحانه — أغنى الشركاء ، فمن عمل عملا لله ولغيره ، فإن الله — سبحانه — برىء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكًا لله ، فالله برىء منه .

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وذلك كله يسلمنا إلى أن المعنى الحقيقى للإسلام هو كما ذكرنا :

إسلام الوجه لله .

ويعبر عن هذا فى وضوح جميل الحديث الشريف الذى رواه الصحابى الجليل عمرو بن عبسة قال :

قال رجل : يا رسول الله . ما الإسلام ؟

قال صلوات الله وسلامه عليه : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » وما من شك فى أن سلامة المسلمين من لسان الإنسان ويده إنما ترجع إلى إسلام قلبه لله ، وإنها على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

إسلام الوجه لله

وقد يتساءل إنسان : وما كيفية إسلام الوجه لله ؟

— ما هى الوسائل لذلك ؟

— ما الطريق ؟

أما الوسائل : فإنها المبادئ الإلهية ، التى قررها الله — سبحانه — على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : قرآنًا كانت ، أو سنة : قولية أو عملية ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله — سبحانه — من أن يرجع فى ذلك إلى القرآن ، ومن أن يرجع فى ذلك إلى السنة . أى أنه لا مناص لكل من يريد الهداية ، أو التدين ، أو الحق ، من أن يلجأ إلى القرآن ، والسنة . وذلك أن القرآن الكريم ، إنما هو النص الوحيد فى العالم الآن الذى احتفظ — بحفظ الله له — بالتعبير الإلهى ، الذى يشرح الدين ، ويوضحه ، دون تحريف ، بزيادة أو نقص ، والقرآن لم يحتفظ — بما أوحاه الله — بالمعنى فحسب ، وإنما احتفظ بالتعبير نفسه ، وهذه منزلة ، لا تدانيها منزلة ، ودرجة فى

الدقة والصدق لا يضارعها غيرها حتى ولا من قرب . وإنها لمفخرة – للمسلمين كبرى ، أن يكون الدين الذى يدينون به ، إنما يرجعون فيه إلى النص الإلهى نفسه ، فى دقته ، وفى نضارته ، وفى بركته ، وفى سنائه ، ولألائه .

وإنها لمفخرة للغة العربية ، أن تحتفظ بالنص الإلهى الوحيد فى العالم ، أن تحتفظ بالكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

أما النتيجة الأولى التى نريد أن نصل إليها ، فهى أن الدين ، وإسلام الوجه لله ، والتوحيد ، والإسلام كلها بمعنى واحد ، يفسر بعضها بعضا . ويشرح بعضها بعضا ، وكلها مطلقة عامة ، لا يحدها زمان ولا مكان . وكلمة « الإسلام » خير ما يعبر عنها فى جرسها ، وفى كمالها :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا)[1] .

والنتيجة الثانية : هى أن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم ، إنما هى إسلام الوجه لله ، أو التوحيد ، أو التدين الصادق ، أو الإسلام .

وبمقدار قرب المسلم من الإسلام يكون كمال شخصيته .

---

(١) سورة المائدة (٣) .

د . عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

فى الإخلاص والنيـــة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها . فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وقال : « إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

دراسات إسلامية

لا تحل مسلمة لمن يكفر بالإسلام

فضيلة الشيخ
مصطفى محمد الحديدى الطير

قال الله تعالى فى سورة الممتحنة :

(يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولاهم يحلون لهن)(1) .

لم يكن زواج المسلمة بالكافر أول الإسلام محرماً ، بل كان جائزاً ، ولهذا زوج النبي صلى الله عليه وسلم كبرى بناته (زينب) بابن خالتها (أبى العاص بن الربيع) وهو مشرك ، كما زوج ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدى عمه أبى لهب وهما مشركان ، ولما شرفه الله بالنبوة لم يفرق بين بناته وبين أزواجهن المشركين ، ولما اشتدت العداوة بين أبى لهب وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، بسبب تعصبه لأصنامه وتقليده للآباء ، وعماه عن الحق المبين ، أمر ولديه أن يطلقا رقية وأم كلثوم ، فأطاعاه ، فتزوج إحداهما عثمان بن عفان ، وبعد وفاتها تزوج الأخرى ، وكان لهذا يلقب بذى النورين .

ولقد سعى المشركون لدى أبى العاص ابن الربيع لكى يطلق زينب لأنه على دينهم وليس على دين أبيها فرفض ما عرضوه ، وأصر على مصاهرة النبى صلى الله عليه وسلم . وإن كان على غير دينه ، ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ، ترك زينب مع أبى العاص بمكة مع أنه لا يزال مشركاً .

ولما خرجت قريش فى غزوة بدر

(1) من الآية رقم ١٠ .

لقتال النبي صلى الله عليه وسلم ، خرج أبو العاص معهم ليسترد ماله الذى كان مع أبى سفيان وتعرض له المسلمون فى جملة ما تعرضوا له فى عير قريش ، إنتقاماً منهم لأنهم أخرجوهم من ديارهم واستولوا على أموالهم ، ثم انتصر المسلمون عليهم ، وقتلوا منهم سبعين وأسروا مثلهم ، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما قَبِل النبي مفاداة الأسارى أرسلت زينب قلادتها لتفتدى بها زوجها أبا العاص ، وكانت هذه القلادة لأمها السيدة خديجة ، وقد أهدتها إياها فى زفافها ، فأبى المسلمون أن يأخذوها إكراماً للنبى وآل بيته ، وأطلقوا لزينب أسيرها .

ولما أنزل الله تعالى من الآيات ما يحرم على المسلمين موالاة الكافرين ، كقوله فى أول سورة الممتحنة : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)[١] الآيات : اقتضى ذلك وجوب مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى لا يتحقق فيهم قوله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً)[٢] فلهذا شرط الرسول على أبى العاص زوج ابنته زينب حين أطلق سراحه ، أن يرد إليه زينب إذا جاءه رسوله زيد بن حارثة ، فوفى أبو العاص بشرطه ، وأعاد زينب مع زيد بن حارثة ، وكان لإعادتها قصة طويلة ليس هذا المقال موضعاً لها ، ولما أسلم أبو العاص ردها النبى إليه بعقد جديد ، وكان صلح الحديبية يقتضى أن من جاء من الكافرين مسلماً يلزم المسلمون برده إلى المشركين ، فجاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة مسلمة ، ومعها أخواها عمارة والوليد ، وكانت زوجة لعمرو بن العاص ، فجاء أهلها يسألون ردها وفقاً لصلح الحديبية ، حيث جاء فيه أن من جاء من المشركين إلى المسلمين مهاجراً مسلماً يلزمون برده إليهم ، فقال صلى الله عليه وسلم لأهلها : (كان الشرط فى الرجال دون النساء) ولهذا رد أخويها ولم يردها وأنزل الله تعالى هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) . . الآية تأييداً لما فعله الرسول وبياناً لما يتبع فى شأن هؤلاء المهاجرات .

---

(١) سورة الممتحنة (١) .

(٢) سورة النساء (٩٧) .

وظاهر اشتراط أن يرد المسلمون إلى قريش من أتاهم مسلماً منهم أن يردوا من جاءهم مسلماً من الرجال أو من النساء ، ولكن الرسول كان يقصد الرجال فقط ، وهو الذى كان يدور بأذهان قريش غالباً ، فإنهم كانوا لا يتصورون أن تهجر المرأة زوجها أو أهلها ، وتقطع المسافة الطويلة من مكة إلى المدينة لتعلن إسلامها ، فلهذا لم يحتاطوا بالنص على رد النساء صراحة ، وبذلك أمكن التخلص من هذا الشرط ، ولم يعتبر عدم تطبيقه فى النساء خُلْفاً يقتضى اعتباره نقضا لوثيقة الصلح وعهده .

والحكمة فى عدم رد المرأة التى أسلمت ، أنها لو رُدَّت لأرجعها أهلها إلى زوجها المشرك — إن كانت متزوجة — وهى لا تحل له ، فإن لم تكن متزوجة أمكن التأثير عليها بالوعيد والإيذاء حتى تعود إلى شركها ، كما أن المرأة رقيقة القلب بالنسبة لأهلها فيمكن تأثيرهم عليها ، وإعادتها إلى ما كانت عليه من الشرك .

امتحان المرأة المهاجرة :

العلاقات الزوجية عرضة للاختلاف والمنازعة ، وبخاصة بين أهل الجاهلية ، فلما هاجر النبى وأصحابه وعزّ الإسلام بالمدينة ، كانت المرأة بمكة تهدد زوجها بأنها ستهاجر إلى محمد ، فأمر الله نبيه أن يمتحن المهاجرة ليعلم صدقها فى إسلامها ، حتى لا تكون خطراً على المسلمين فى دينهم أو أخلاقهم أو أمْنهم وسلامتهم بهجرتها إليهم .

وطريقة امتحانها كما روى عن ابن عباس أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتستحلف بالله أنها ما خرجت بُغضاً لزوجها ، ولا رغبة فى أرض بدل أرض ، ولا التماس دنيا ، ولا عشقاً لرجل من المسلمين ، بل حباً لله ولرسوله ، فإذا حلفت كذلك أعطى النبىُّ صلى الله عليه وسلم زوجها المشرك مهرها وما أنفقه عليها ولم يردها إليه .

ومن المعلوم أن المشركين يؤمنون بالله ، ولكنهم يلوثون هذا الإيمان بزعمهم أن أصنامهم وسطاء بينهم وبينه ، ووسيلة للتقرب إليه ، كما أن العرب يغلب عليهم خلق الصدق حتى فى جاهليتهم ، وذلك حينما يحلفون بالله تعالى ، ويعتبرون الخُلْف فيما حلفوا عليه قبحاً وشيناً ، فلهذا كان تحليف المهاجرات بالله تعالى حين اختبار إيمانهن على الوجه السابق يستتبع الطمأنينة إلى صدقهن وقد عبر الله عن هذه الطمأنينة

بالعلم فى قوله : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) فالمراد بالعلم هنا الطمأنينة وغلبة الظن ، أما العلم اليقينى فهو مختص بالله تعالى ، ولهذا قال سبحانه : (الله أعلم بإيمانهن) أى أنه تعالى يختص بعلم حال إيمانهن من الصدق أو الرياء ، سواء حلفن أو لم يحلفن ، أما نحن فلا سبيل لنا إلى التحقق منه لأنه سر تنطوى عليه الأضالع ، وتطبق عليه الصدور ، ولكنه أوجب علينا هذا الامتحان ، لأنه هو وسيلتنا إلى التعرف عليه على وجه الظن لا القطع .

حرمة المسلمة على الكافر مطلقاً :

يقول الله تعالى : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) ، أى فإن ظهر لكم بهذا الامتحان أنهن مؤمنات ، فلا ترجعوهن إلى أزواجهن الكفار — إن كن متزوجات ، ويعلل هذا بقوله سبحانه : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ، فأنت ترى أن السبب فى النهى عن إرجاعهن إلى الكفار ، أنه تعالى حرم المسلمة على الكافرين مطلقاً وسيأتيك بيان حكمته .

قد يقول قائل : إن أهل مكة كانوا مشركين ، فالمقصود بالكفار هم هؤلاء دون أهل الكتاب ، فالجواب أنه لو كان المقصود بهم خصوص المشركين ، لعبر عنهم بوصف الإشراك منعاً للالتباس فى فهم الحكم ، على أن أهل الكتاب مشركون قطعاً ، فالمسيحيون يؤلهون ثلاثة (الأب والابن والروح القدس) ويزعمون أنهم إله واحد ، ويقولون : إن فهم الوحدة لهذا العدد فوق مستوى العقول ، ولله فى خلقه شئون ، كيف عقل هؤلاء أن ثلاثة آلهة لكل واحد منهم قدرات الآخر وصفاته يعتبرون إلهاً واحداً ، هل يعقل أحد ، أن ثلاثة رجال يلبسون ثوباً واحداً يعمهم ، يحولهم هذا الثوب الواحد إلى رجل واحد ، أسأل الله لهم الهداية والخروج من هذا الشرك الواضح ، والمأزق الأسيف : واليهود يزعمون أن عزيراً ابن الله — وهذا إشراك ، فإن الابن شريك أبيه .

أفكار خاطئة :

نشر بعض المثقفين فى إحدى المجلات — منذ حين — مقالا أباح فيه زواج المسلمة من الكتابى ، واستدل على ذلك — كما توهم — بدليلين ، أحدهما من الكتاب الكريم ، وثانيهما استتباع الأصل فأما دليله من القرآن فهو قوله تعالى : (اليوم أحل لكم

الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن)[١] وطريقته فى الاستدلال بها على ما زعم أن الآية تخاطب الرجال ، ولكنها تقصد بالحكم الشرعى الرجال والنساء على السواء ، فالطيبات[٢] فى الآية حلال للرجل والمرأة ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حلال للرجل والمرأة ، المؤمنين ، وطعامكم أيها المؤمنون حل لهم — أى حلال لأهل الكتاب ، وزواج المحصنات[٣] من المؤمنات ومن الكتابيات حلال لكم أيها الرجال المؤمنون إذا أتيتموهن مهورهن — ثم قال هذا الزاعم : فلو أمضينا القياس على هذا النمط ، لتبين لنا أن زواج المسلمة حلال للرجل الكتابى ، فكأنه قال على سبيل التقابل والمحصنات من المؤمنات والكتابيات حِلٌّ لهم — وهكذا دلل هذا المدعى على فراغه العلمى وقيام دعواه على غير أساس وسنبين ذلك فيما يلى :

عقم الدليل :

من شأن الدليل الصحيح أنه ينتج صحة الدعوى ، فإن لم يكن صحيحاً سقطت الدعوى لعقم الدليل ، وهذا الذى استدل به المثقف استنباطاً من النص القرآنى دليل عقيم لا يحقق مدعاه ، فهذه الآية والتى قبلها نزلتا فى مسلمين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أحل لهم ، ولم تنزل فيهم وفى أهل الكتاب لا نصاً ولا استنباطاً ، حتى يقال إن الكتابى تحل له المسلمة .

فالمعنى : يسألك المسلمون ماذا أحل الله لهم ، قل لهم أيها الرسول فى إجابتك على هذا السؤال : أُحِلَّ الله لكم أيها المسلمون الطيبات من المطاعم والأرزاق ، والحيوانات الصحراوية التى اصطدتموها مستعينين على صيدها بما علّمتموه من الكلاب وجوارح الطير المدربة ثم قال فى الآية التالية ما معناه : اليوم أحل لكم الطيبات أيها السائلون المسلمون وطعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى حلال لكم ، وطعامكم حلال لهم ، والعفيفات من النساء المؤمنات والعفيفات من النساء الكتابيات حلال لكم أيضاً إذا أتيتموهن مهورهن ... إلخ

فأنت ترى أن الكتابى لادخل له فى هذا الحكم ، لأنه وارد فى جواب سؤال خاص بالمؤمنين ، ومن القواعد المقررة

(١) سورة المائدة (٥) .

(٢) المراد بها مالذ وطاب عند النفوس المستقيمة والطبائع السليمة .

(٣) أى الحرائر العفيفات .

فى علم الأصول ، أن الاقتصار فى مقام البيان يفيد الحصر ، ولو كان الكتابى يصح له الزواج من المسلمة ، لنص عليه فى الآية لخطورته ، فإنه قد نص فى الكتابى على ما هــو أدنى من ذلك وأقل شأناً ، حيث قال الله تعالى فيهم : (وطعامكم حل لهم) بعد قوله : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم) فلو كان زواجهم من المؤمنات يصح شرعاً ، لقال على نمط ذلك ونكاح نساء الذين أوتوا الكتاب ونسائكم حِلٌّ لكم ، ونكاح نسائكم ونسائهم حلٌّ لهم ، لشدة الحاجة إلى بيان هذا الحكم ، ليعلم المسلم ما يحل له فى حق نفسه وحق بنات جنسه من جهة أهل الكتاب وبما تقدم علم أن قياس الكتابى على المسلم فى حل زواج المسلمة مفقود التكافؤ فلا يصح .

ولو سلمنا القاعدة التى قالها هذا المدعى ، وهى أن الأحكام التى يخاطب بها الرجال المسلمون تكون دائماً لنسائهم ، لصح أن يفهم من قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أن الحكم فى النساء كذلك ، بأن تنكح المرأة ما طاب لها من الرجال مثنى وثلاث ورباع ، ولا يسمح بذلك مَنْ به ومضة من عقل ، أو ذرة من خلق كريم ، فتبين أن الأحكام التى يخاطب بها الرجال ليست دائماً مشتركة بينهم وبين النساء ، فقد يمنع من اشتراكهما ما يقتضى المنع أمَّا (الدليل الثانى) الذى أبداه هذا المثقف (وهو أن الأصل فى الأشياء الحل ، فلا تحرم إلا بدليل ، ولما كان نكاح المسلمة للكتابى لم يرد فيه دليل ، فيكون حلالا على الأصل) أمَّا هذا الدليل الثانى — فلنا عليه ردّان ، أحدهما : أن فيه اعترافاً منه بأنه لم يرد فى نكاح المسلمة للكتابى دليل ، ويتبع هذا الاعتراف اعترافٌ ضمنى بفساد استدلاله السابق بالقياس على صحة نكاح المسلم للكتابية ، حيث سلب عنه الدلالة الشرعية على الحل ، ومن المعلوم أن القياس من الأدلة الشرعية ، بشرط أن يكون قياس أوْلى على مادونه أو قياس مُسَاوٍ على ما يساويه ، وكلا الأمرين غير موجود فى هذه القضية . لأن فيها قياس أدنى على أعْلى وهو واضح الفساد .

وثانيهما : أن القاعدة الشرعية القائلة بأن الأصل فى الأشياء الحل ليست على إطلاقها ، بل هى فى نحو ما تملكه أنت ، أو أنواع الطعام والشراب وما إلى ذلك ، أما ما يملكه غيرك فالأصل فيه

شرعًا التحريم — كما جاء فى خطبة الوداع « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم » . الحديث فلا يحل لك شيء مما يملكه غيرك إلا بضوابط شرعية وردت فى كتاب الله وسنة رسوله ، فمثلا إذا كان غيرك يملك سلعة فلك الحق فيها بنحو شراء أو هبة أو غيرهما من أسباب الحل المنصوصة فى كتاب الله أو سنة رسوله .

ومن البدهيات أن أبْضَاعَ النساء مِلْك لهن فلا تحل للرجال إلا بدليل ، وقد جاء الدليل بأنها تباح للمسلمين بعقود عليهن ومهور لهن وشهود على تلك العقود ، سواء أكانت المرأة مسلمة أم كتابية ، ولم يأت الدليل بإباحة أبضاع المسلمات لأهل الكتاب بذلك فتبقى حرامًا على أهل الكتاب .

وليعلم أى مكابر فى حرمة زواج المسلمة من الكافر ، أنه قد مرّ على الإسلام بعد الهجرة ونزول تحريم المسلمة على الكافر ، أربعة عشر قرنًا تقريبًا ، لم يثبت أن كتابيًا تزوج مسلمة زواجًا مفتى به ، وأنه لم يقل أحد من علماء المسلمين بجوازه ، لعدم صلاحيته للحل لا نصًا ولا استنباطًا ، ولم نقرأ عن الأولين إلا غُلُوًّا من بعض الطوائف فى تفسير قوله تعالى : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) فالإمامية يمنعون نكاح الكتابيات على الدوام ، لقوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وقوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) وأولوا الآية بأن المراد من المحصنات الكتابيات من أسلم منهن ، لأن قومًا كانوا يتحرجون من العقد على مَنْ أسلمت عن كفر ، فبيَّن الله الجواز ، وإلى مثل ذلك الرأى ذهب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

ومنهم من ذهب إلى أن نكاح الكتابيات منسوخ بمنع نكاح الكوافر فى الآيتين السابقتين فإنهن كوافر ، لقوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وهن مشركات أيضًا لقوله سبحانه : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم) .

وسئل جابر بن عبد الله عن نكاح الكتابيات فقال : « تزوجناهن زمن الفتح ونحن لانكاد نجد المسلمات كثيراً ، فلما رجعنا طلقناهن » والراجح عند الجمهور جواز نكاح المسلم للكتابية

لظاهر الآية ، أما نكاح الكتابى للمسلمة فلم يقل بجوازه أحد من المسلمين كما تقدم بيانه .

وكما لا تحل المسلمة لواحد من أهل الكتاب ، فإنها لا تحل لمن أنكر وجود الله سبحانه وتعالى كالشيوعيين أو اعتقد وجوده وأشرك معه غيره كعباد الكواكب والأصنام والبوذيين والبراهمة .

زواج المسلمة بالكافر سفاح :

وحيث عرفت أن المسلمة لا تحل لكافر مطلقًا ، فعليك أن تعرف أن أية امرأة مسلمة تتزوج كافراً زواجًا مدنيًا فى مكاتب التوثيق المدنى الموجودة فى غير بلاد الإسلام ، أو تتزوجه بعقد عرفى أو بغير وثيقة ، فزواجها به باطل ، ولقاؤها به جنسيًا لا يحـل ، وهو سفاح تستحق عليـه أن يقام عليها حد الزنا ، وهو الرجم إن سبق لها الزواج من مسلم ، والجلد مائة جلدة إن لم يسبق لها الزواج من مسلم وفرق بينهما ، فإن اعتقدت أن زواجها بالكافر حلال اعتبرت مرتدة عن الإسلام ، لأنها أنكرت حكم التحريم المعلوم من الدين بالضرورة ، وحكمتْ بسواه ، فصدق فيها قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هُمُ الكافرون) ، وحُكْمُ المرتدة أن يطلب منها التوبة ، فإن تابت قبلت توبتها ، وأقيم عليها حد الزنا الذى سبق بيانه ، وإن لم تتب قتلت كفراً كما يقتل المرتدون عن الإسلام .

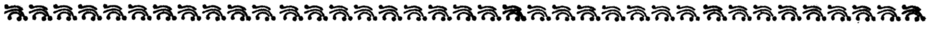
وبعد فلعلى بذلك أكون قد أزلت الغشاء عن القلوب التى ران عليها الهوى ، فعاد إليها نور الهُدَى ، ونبذت بهذا الحق الواضح أوهامها ، وكبحتْ به ميلها إلى تيسير النزوات ، واختلاق الشبهات : (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) .

الحكمة فى تحريم المسلمة على الكتابى :

والحكمة فى حل الكتابية للمسلم وحرمة المسلمة على الكافر ، أن المسلم يعترف بنبوة موسى ، وبأن التوراة الأصلية أنزلها الله عليـه ، ويعترف بنبوة عيسى وبأن الإنجيل الأصلى أنزله الله عليه ، ومع أن التوراة والإنجيل الأصليين فقدا ، وأن الإسلام جاء ناسخًا لما فى أيدى اليهود والنصارى منهما ، ومبينًا للعقائد الحقة ، فإنه يدعو المسلم إلى أن لا يكره غـيره على الإسلام بقوله تعالى: (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) فإن تزَوج كتابية ، فسوف تكون حرة الرأى معه ، فإن شاءت بقيت على دينها ، وإن شاءت أسلمت .

أما الكتابى فإنه لا يعترف بالإسلام ورسوله وكتابه ، ولهذا فإن زواجه بالمسلمة نزوة وشهوة ، وسوف يحملها على ترك دينها الذى يكرهه ولا يعترف به ، أو يطلقها إن لم توافقه ، وسوف تستجيب له لضعف دينها ، واستجابة لشهوتها ونزوتها ، فكان من الحكمة أن يحمى الإسلام المرأة المسلمة من هذا المصير أو ذاك ، وأن يطلب لها العزة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

مصطفى محمد الحديدى الطير



عزة إمام

يروى أن المهدى قدم إلى المدينة فجاءه الناس مسلمين عليه ، فلما أخذوا مجالسهم استأذن الإمام مالك فقال الناس : اليوم يجلس مالك آخر الناس . فلما دنا ونظر إلى ازدحام الناس ، قال : يا أمير المؤمنين أين يجلس شيخك مالك .. ؟ فقال : عندى يا أبا عبد الله فتخطى الناس حتى وصل إليه ، فرفع المهدى ركبته اليمنى وأجلسه بجواره .

ويروى أن الوالى كان مرة عند مالك فأثنى عليه بعض الحاضرين فغضب مالك وقال : إياك أن يضرك هؤلاء بثنائهم عليك ، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك . فاتق الله فى التزكية منك لنفسك ، أو ترضى بها من أحد بقولة يقولها لك فى وجهك . فإنك أنت أعرف بنفسك منهم ، فإنه بلغنى أن رجلا مدح عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قطعتم ظهره أو عنقه لو سمعها ما أفلح . وقال صلى الله عليه وسلم :

(احثوا التراب فى وجوه المداحين . .)



واقعية الفقه الإسلامى

فضيلة الأستاذ
الدكتور محمد مصطفى شلبى

(٢)

إن الفقه الإسلامى بعيد كل البعد عن الواقعية بالمعنى الأول ، وهو الخضوع للواقع فى كل شىء ، وتجرده عن المثل العليا ، ولم يقل أحد عنه إنه واقعى بهذا المعنى ، لا من أنصاره ، لأنها تباين حقيقته ، مع أنها لا تشرفه حتى يدعيها أنصاره ترويجاً له ، ولا من أعدائه ، لأنهم متفقون على وصفه بالمثالية المضادة لتلك الواقعية ، والقرآن الكريم نفى هذا النوع من الواقعية نفياً صريحاً فى كثير من آياته التى تحارب الأهواء واتباعها ، وتجعل السلطان لما أنزله الله ، وتتوعد المتبع لهواه ، أو لهوى الناس بالعقاب الشديد .

فالله سبحانه يأمر رسوله بأن يحكم بين الناس بما أنزله إليه ولا يتبع أهواءهم فيقول :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[1] .

ويحذره فى غير آية من عاقبة اتباع أهوائهم فيقول :

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير)[2] .

وفى أخرى يقول :

---

(١) المائدة : ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) البقرة : ٢٠ .

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين)[١] .

وفى ثالثة يقول :

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق)[٢]

وصرح بأن اتباع الأهواء يؤدى إلى فساد العالم (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)[٣]

وينعى على الذين يشرعون بأهوائهم ، فيحلون ويحرمون ، ويتوعدهم بالعقاب . (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل : آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون)[٤] .

ثم بين أن هذه سنته فى شرائعه السابقة مخاطباً نبيه داود عليه السلام (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[٥] .

تلك آيات من كتاب الله — وغيرها كثير — بينت فى وضوح أن التشريع الإسلامى لا يخضع للأهواء والرغبات ، وما واقع الناس فى أغلب صوره إلا مزيج من الأهواء والشهوات تثيرها وتبرزها إلى عالم الوجود ما خفى من الرغبات ، فالقول بأنه يتبع الواقع ويسير وراءه فى كل شىء مخالف للواقع . ويدل لذلك من جهة المعقول[٦] أمران :

أولهما : أن هذه الشريعة جاءت لإخراج المكلفين عن دواعى أهوائهم (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)[٧] .

فكيف يتبع واقعهم المملوء بالأهواء ، وهل هذا إلا تهافت ؟

---

(١) البقرة : ١٤٥ .

(٢) الرعد : ٣٧ .

(٣) المؤمنون : ٧١ قيل إن المراد بالحق هو الله عز وجل ، والمعنى لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد . وقيل المراد به القرآن والمعنى لو نزل القرآن بما يحبون ويشتهون لفسدت السموات والأرض ، راجع تفسير القرطبى ج١٢ ص ١٤٠ وتفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٥٠ والبحر المحيط ج ٦ ص ٤١٤ .

(٤) يونس : ٥٩ ، ٦٠ .

(٥) ص — ٢٦ .

(٦) راجع الموافقات للشاطبى ج ٢ ص ٣٧ وما بعدها ، ج ٤ ص ١٣١ .

(٧) إبراهيم الآية ١ .

وثانيهما : أن منافع الناس ومضارهم فى غالب أمرها إضافية لا حقيقية لأن الشيء قد يكون نافعاً فى وقت دون آخر ، وفى حال دون حال ، وبالنسبة إلى شخص دون سواه ، فالمنفعة بالنسبة لجماعة قد تكون ضرراً عند آخرين .

ويتبع ذلك أن الأغراض فى الأمر الواحد تختلف بحيث إذا نفذ غرض بعض تضرر آخر لمخالفة غرضه ، فحصول الاختلاف فى أكثر الأحوال يمنع أن تكون الشريعة فى ملاحظتها المصالح تلاحظ الغرض أو الهوى ، لأنه لا تستقر أحكامها ، ولا تضبط قواعدها إلا بملاحظة المصالح مطلقة عن ملاحظة الأغراض والأهواء .

ومن هنا كان لابد فيها من تقدير واقع الناس وتقويمه بميزان العدل بعيداً عن أغراضهم . وهذا ما سلكه التشريع فى واقع الناس عند مجيئه ، فقد أقر منه الصالح وألغى الفاسد[1] وتوعد بالعقاب على فعله ، ولو كان يخضع للواقع لما كان له وجه فى التفرقة ، بل لما كان هناك داع لمجيئه أصلا ، ومن يتتبع نصوص الشريعة يجد فيها مجموعة نصوص ناهية تنهى عن كثير مما كان يفعله الناس حين نزولها ، والقرآن وضع الأساس للمأمورات والمنهيات فى قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء

---

(١) ولقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية فى مسائل كثيرة ابتدعوها من غير أن يكون لها أصل فى دين من الأديان السماوية ، وإنما مبعثها هوى النفوس وشهواتها . أشار إلى ذلك ولى الله الدهلوى فى كتابه حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٢٤ وما بعدها فقد كتب فصلا بعنوان : بيان ما كان = عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبى صلى الله عليه وسلم تكلم فيه عما كان لدى العرب عند بعثة الرسول من أحكام باقية من الشرائع السابقة كشريعة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام وعد منها أشياء كثيرة وبين متى دخل الفساد عليهم وأن أول من أدخله عليهم بعقله الكاسد عمرو بن لحى ، فهو الذى أدخل عليهم عبادة الأوثان وسيب السوائب وبحر البحائر ، قبل مبعث الرسول بما يقرب من ثلثمائة سنة ، وأن الرسول بعد بعثته نظر فيها عندهم ، فما كان من بقايا الملة الصحيحة أبقاه وأمر بالأخذ به ، وما كان من تحريفاتهم نفاه وأكد نفيه ، ثم ضبط لهم العبادات ورسم لهم الطرق الصحيحة لمعاملتهم وغيرها ، هذا وقد عد الإمام محمد بن عبد الوهاب من هذه المسائل مائة مسألة فى كتيب بعنوان « مسائل الجاهلية التى خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية » وقام بشرح هذه المسائل علامة العراق السيد محمود شكرى الألوسى . والمسائل بشرحها مطبوعة فى كتاب زاد على المائة والخمسين صفحة من نشر المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة .

والمنكر والبغى)[١] .

وقوله (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث)[٢] .

وفى شأن تبادل الأموال يقول (وأحل الله البيع وحرم الربا) رداً عليهم فى قولهم : (إنما البيع مثل الربا)[٣] ، ثم يرسم لهم طريقه مهدراً الكثير مما كانوا يفعلونه بقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)[٤] ويجىء رسول الله فيبين هذا الإجمال الرابض وراء كلمة الباطل ، فينهى عن أنواع من البيوع كثيرة ملأت واقع الناس حين بعثته وقبلها عد منها ابن العربى فى تفسيره[٥] خمسة وخمسين وجهاً . فنهى عن بيع الملامسة والمنابذة وإلقاء الحصاة ، كما نهى عن بيع المعدوم ، والغرر ، وبيع ما لم يقبض ، وبيع المضطر ، والمضامين والملاقيح ، وقال لا يبعْ أحدكم على بيع أخيه ، ولا يبع حاضر لباد وغير ذلك . وفعل مثل هذا فى بقية المعاملات والنكاح مما كان موضع اختلاف بين الفقهاء فى مدى تأثير النهى فيه فيما بعد.

هذا هو موقف الفقه الإسلامى من الواقعية بالمعنى الأول لا يقرها بل يعاديها ويرفضها فى صراحة .

أما واقعيته بالمعنى الثانى فالناس إزاءها صنفان :

صنف يجرده منها ويلحقه بالمثالية المجردة التى تنفر من الواقع وتعاديه وصنف آخر يعترف له بتلك الواقعية ، ولا يعيب عليه إلا دعوى قفل باب الاجتهاد فيه التى سببت له التوقف عن التقدم فى بعض موضوعاته حتى زاحمته القوانين الوضعية فى كثير من بلدان الإسلام .

ولعل نفاة الواقعية عن هذا الفقه نظروا إلى ما لعنصرى الأخلاق والدين فيه من أثر ، فحسبوه أحكاماً أخلاقية دينية جاءت لتهذيب النفوس والسمو بها فى مدارج الكمال ، لا صلة لها بالمجتمع ونظامه ، لأن الأخلاق فى نظرهم صفات كمالية ترتفع بالنفس إلى عالم المثال والروحانية البعيدة عن الواقع وعالم المادة .

والدين الذى عرفوه هو فى أصله عبارة عن وصايا خلقية . جاءت لمجرد تهذيب النفوس – لا لتنظيم المجتمع – اختلط بها على مر السنين بعض تعاليم شاقة فيها

---

(١) النحل : الآية ٩٠ .
(٢) الأعراف : الآية ١٥٧ .
(٣) البقرة : ٢٧٥ .
(٤) النساء : ٢٩ .
(٥) أحكام القرآن جـ ١ ص ١٠٢ .

غموض من وضع رجال الكنيسة تمنع الناس من التمتع بما فى الحياة من متاع ، وتأمرهم بالانقطاع عن الدنيا والزهد فيها[١] فأنى لفقه تأثر بهذا وذلك أن يساير الحياة ويلائمها ؟

ثم تأكد ذلك لديهم لما وجدوه يحارب الواقع فى نطاق رفضه الكثير مما تعارفه الناس وعملوا به .

ومن هنا نستطيع أن نحصر شُبههم التى منها خرجت دعواهم فى أمور ثلاثة :

١ – تأثره بالعنصر الأخلاقى .
٢ – تأثره بالعنصر الدينى .
٣ – موقفه من العرف .

وسنعرض هذه الشبه على بساط البحث ليتبين للناس ما فيها من زيف وبعد عن الحقيقة ، وأنها نشأت من عدم العلم بما فى هذا الفقه من مبادىء وأسس تلتئم مع الواقع وتسايره .

أثر العنصر الأخلاقى فى فقه الإسلام :

أما أثر العنصر الأخلاقى : فمن الناس من يجعل للأخلاق أثراً بينا فى أحكام هذا الفقه يسمو به عن واقع الناس حيث يغلب عليه عنصر التهذيب بل أبعد بعضهم وجعله والأخلاق شيئاً واحداً يقابل القانون ، لا أثر له فى التنظيم . ولنترك الكلام لزميلنا الدكتور حسن كيره ليحدثنا عن موقف بعض رجال القانون من هذه المسألة .

وها هو ذا يتكلم فى مدخله[٢] تحت عنوان « القانون والأخــلاق » فيقول ما ملخصه :

أما التفرقة بين القانون والأخلاق فهى تفرقة عريقة فى القدم وإن اختلفت إليها السبل ، وتباينت بشأنها المعايير ، ويجدر قبل بيان أوجه هذه التفرقة وأساسها التنبيه إلى أن القانون يلتقى مع الأخلاق فى كثير من قواعدها كتلك التى تحرم الاعتداء على النفس أو المال أو العرض ، والتى تدعو إلى الوفاء بالعهود دون أن يجر ذلك الالتقاء إلى الاختلاط بين الأخلاق والقانون ، بل يظل لكل منهما نطاقه ، وغايته .

وبعد أن بين أن القانون قد ينزل عن بعض المثل الأخلاقية فى سبيل تحقيق الاستقرار والأمن تساءل : عن مناط التفرقة بينهما ، ثم أجاب : بأن بعض الفقهاء يرون أن الأخلاق تقتصر على حكم الحياة الباطنة فى الضمير التى

(١) سنوضح ذلك عند الكلام على أثر الدين فيه.

(٢) وكذلك فى كتابه أصول القانون ص ٣٨ وما بعدها مع زيادة تفصيل .

ما زالت فى النفس مجرد مقاصد ونوايا لم تخرج إلى الوجود بعد فى صورة أفعال ، والقانون يقتصر على الأفعال المحسوسة دون ما وراءها من دوافع خفية .

ثم رد ذلك . بأن الأخلاق وإن كانت تعنى بمحض المقاصد والنوايا الباطنة فهى لا تقتصر على ذلك ، بل تمتد إلى كثير من الأفعال الخارجية لأنها لا تقتصر على بيان واجبات الفرد قبل ربه ، وواجباته قبل نفسه فحسب ، ولكنها تجاوز ذلك إلى بيان واجباته قبل غيره من الأفراد ، وهو ما يتناول عالم النية وعالم المحسوس من الأفعال على حد سواء ، وكذلك القانون لا يقتصر على الأفعال المحسوسة بل يتعدى ذلك إلى ما وراء الأفعال من دوافع ، ففى نظرية التعسف فى استعمال الحق وغيرها خير دليل على ذلك .

ثم قال : ويرجع فقهاء آخرون مناط التفرقة إلى الجزاء ، فجزاء مخالفة القانون مادى توقعه السلطة الحارسة للقانون ، وجزاء مخالفة الأخلاق معنوى ، وهو تأنيب الضمير أو استنكار الناس .

ومع أن هذا الفرق صحيح فى نظره إلا أنه لم يعترف بكفايته فيلجأ إلى التفرقة بينهما من جهة أخرى وهى الغاية والهدف ، فغاية الأخلاق غاية مثالية ، هى السمو بالإنسان نحو الكمال ، وغاية القانون واقعية نفعية هى إقامة نظام المجتمع ليحقق الأمن والاستقرار فيه ، فقواعد الأخلاق منبعثة من الضمير ومتوجهة إلى الفرد بقصد تطهير نفسه وروحه ، وقواعد القانون متجهة إليه بقصد تحقيق صالح الجماعة ، فالأخلاق تحدد سلوك الفرد بالنظر لذاته فتخضعه لضميره ، والقانون يحدد سلوكه بالنظر للمجتمع .

ومن هنا قالوا : إن القانون نظام المجتمع والأخلاق نظام الفرد ، فهما نظامان مختلفان فى الغاية والهدف حتى فى بعض الأحكام التى يختلطان فيها فى الظاهر . فمثلا القانون والأخلاق يتفقان على تحريم القتل إلا أن القانون يحرمه لما يترتب عليه من آثار تضر بالمجتمع ، والأخلاق تحرمه لما له من آثار سيئة فى نفس القاتل من انغماسها فى الرذيلة وانطباعها على الشر .

فمحكمة الأخلاق هى الضمير حيث تدور معركة الخير والشر فى ذاته ومحكمة القانون هى محكمة المجتمع حيث يصطرع النفع والضر الاجتماعى .

وإذا اختلفا فى الغاية اختلفا فى نطاق العمل بكل منهما ، فيحلل القانون بعض ما تحرم الأخلاق كالربا[١] وتبع ذلك الاختلاف فى الجزاء .

وفوق ذلك فإن الأخلاق تقتصر على بيان الواجبات دون تقرير الحقوق فهى حين توجب على القادرين مساعدة المحتاجين لا تنشىء بذلك حقاً للمحتاجين على القادرين[٢].

(١) وهنا نتسائل عن أباحة الربا فى القانون ، هل أدت هذه الإباحة إلى الاستقرار والأمن فى المجتمع الذى ينشده القانون ، أم الأمر بالعكس ؟

إن أضرار الربا لا تحتاج إلى بيان ، فقد اعترف بها العقلاء فى كل عصر ، بل إن رجال الاقتصاد فى الأمم الغربية التى لا تدين بالإسلام اعترفوا بما فيه من أضرار ومساوئ خطيرة . كما يقول الدكتور عبد الله العربى فى مقال له عن فكرة الدولة فى الإسلام المنشور فى مجلة القانون والاقتصاد بالعددين الثالث والرابع من السنة السادسة والعشرين .

(٢) إذا كان يقصد بالأخلاق ما يرادف الفقه الإسلامى فهذه الدعوى غير صحيحة ، لأن الفقه لم يقتصر على بيان الواجبات بل بين معها الحقوق أجلى بيان ، وهذا المثال الذى مثلوا به وهو مساعدة المحتاج لا يثبت تلك الدعوى . حيث إنه مجرد تبرع وإحسان لا يترتب عليه حق لأحد ، والقرآن يقول (ما على المحسنين من سبيل) .

وكيف نوفق بين هذا وبين ما فى نظرية التعسف فى استعمال الحق ، ونظرية الظروف الطارئة من حقوق وواجبات وهى عندهم من القضايا الأخلاقية ؟ .

تلك هى الفروق التى اختارها وأصر عليها . بدليل أنه عندما وجد بعض الفقهاء الغربيين كالفقيه الفرنسى « ريبير » يعترف بأن القانون آخذ فى الاصطباغ بصبغة أخلاقية حتى ليكاد القانون عنده يختلط ويتحد بالأخلاق مستنداً إلى أن القانون أخذ بنظرية التعسف فى استعمال الحق ، ونظرية الظروف الطارئة ، لما وجد هذا الاعتراف يقرب الاتحاد أبى إلا التفرقة وتثبيت البعد بينهما[٣] — موجهاً ذلك بأن القانون حينما يأخذ بنظرية أخلاقية لم يأخذها لأنها مثل أخلاقى سام ، بل أخذها لما فيها من نفع للمجتمع .

فهذا كلام صريح فى أنهم لم يقصدوا بالأخلاق مدلولها الاصطلاحى[٤]

(٣) ويود أن يرجع ذلك الفقيه عن رأيه ؛ بل يميل إلى تسجيل رجوعه عنه فى كتاب آخر فيقول فى هامش ص ٤٠ من كتابه «أصول القانون» : يبدو أن ريبير قد غير هذه النظرية ، فهو فى كتابه الأخير عن « القوى الخلاقة للقانون » يسجل ما شهدته السنوات الأخيرة من كثرة انحراف القانون عن قواعد الأخلاق ، ويحذر من هذه الظاهرة الخطيرة ، ويؤكد استمساكه بالأخلاق كأساس للقانون وكعاصم مما يتهدد المدنية من خطر انتشار هذه الظاهرة .

(٤) هذا وإن كان بعض شراح القانون كالدكتور محمد عرفة فى « مبادئ العلوم القانونية » ص ٣٨ من الطبعة الثالثة ، والدكتور جمال —

وهى الصفات التى يجب أن يتحلى بها الإنسان إذا كانت حميدة ، كالصدق والأمانة والوفاء بالوعد وما شابهها ، والتى يجب عليه أن يتخلى عنها إذا كانت غير ذلك ، كالكذب والخيانة وخلف الوعد وغيرها . . بل أرادوا بها ما يرادف الفقه الإسلامى ، بدليل تمثيلهم بأحكامه من تحريم القتل والربا ، وعدم ثبوت الملك بالحيازة وعدم سقوط الدّين بالتقادم ونظرية التعسف فى استعمال الحق ، والظروف الطارئة وغيرها ، وقولهم إن الأخلاق لا تقتصر على واجبات الإنسان نحو ربه ونفسه ، بل تتجاوزها إلى واجبات الشخص نحو غيره .

وهى محاولة لنفى فائدته فى تنظيم المجتمع وقصرها على تهذيب النفس ، الأمر الذى يجعل من الفقه الإسلامى فقهاً غير صالح للعمل ولا للتقنين (١) .

ولا أدل على ذلك من قولهم « فغاية الأخلاق غاية مثالية هى السمو بالإنسان نحو الكمال ، وغاية القانون غاية واقعية نفعية هى إقامة نظام المجتمع وتحقيق الأمن والاستقرار فيه » .

وهذا التصوير جانبه الصواب من وجهين :

أولهما : جعلهم أحكام الفقه كلها أحكاماً خلقية ليسهل عليهم إبعادها عن دائرة التشريع والتقنين لما هو

=الدين زكى فى كتاب «نظرية القاعدة القانونية» عرفا الأخلاق بما يقرب من معناها الاصطلاحى إلا أنهما عند التمثيل لها مثلا بأحكام فقهية كتحريم الربا ولعب الميسر .

(١) ألا ترى أنه يقلل من أهمية جعل الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر القانون بعد العرف والتشريع فيقول فى « أصول القانون » ص ٣٦٦ وما بعدها . وإذا كان المشرع المصرى فى التقنين المدنى الجديد قد جعل من مبادئ الشريعة الإسلامية مصدراً رسمياً احتياطياً يجب على القاضى=

=الرجوع إليه بعد العرف وقبل الالتجاء إلى مبادئ القانون الطبيعى وقواعد العدالة ، وكان ذلك حقيقاً بإيجاد مجال لتطبيق الشريعة الإسلامية مما قد يكون له أثره فى إنهاض الفقه الاسلامى وإحيائه بعد أن طال سباته منذ إقفال باب الاجتهاد فينبغى أن يراعى — برغم ذلك — أن الالتجاء إلى الشريعة لن يتأتى فى العمل إلا نادراً نظراً لأن التشريع — وهو المصدر الرسمى الأول للقانون المصرى — قد غدا فى العصر الحديث غزير الإنتاج وسريعه على السواء مما لا يدع مجالا كبيراً للالتجاء إلى العرف ، وهو المصدر الذى يليه فى الترتيب مع أنه مصدر حى معاصر للجماعة ومتجاوب مع تطورها وبالتالى ومن باب أولى لا يكاد يترك فرصة للمصدر الذى يلى العرف فى المرتبة وهو مبادئ الشريعة الإسلامية ، وخاصة فى وضعها الراهن الذى ثبتت عليه دون تطور منذ قرون عديدة نتيجة إقفال باب الاجتهاد فيها فضلا عما يكون هناك من تعارض بين مبادئ هذه الشريعة وبين المبادئ العامة الأساسية للقانون الوضعى المصرى الحالى .

مركوز فى أذهان الناس أن القانون شىء والأخلاق شىء آخر .

وثانيهما : نفى تأثير الأخلاق فى المجتمع وقصر تأثيرها على نفوس الأفراد .

وأكبر الظن عندى أنهم قالوا ذلك تقليداً لرجال القانون الغربيين فى هذا الموضع بدليل أن كلامهم فى موضع آخر جاء متفقاً مع الحقيقة أو هو عينها[١] .

والكتاب الأجانب حينما يكتبون عن الإسلام تتحكم فيهم روح التعصب فتحيد بهم أقلامهم عن الصواب كما يقرر ذلك الدكتور محمد حسين هيكل .

فى مقدمة كتابه «حياة محمد»[٢] والدكتور حسن سعفان فى كتابه «الدين والمجتمع»[٣] وغيرهما . ونحن نتكلم معهم فى الأمرين .

أما الأول :

فمن المعلوم لدى كل من عرف مبادئ الإسلام الأولية أن له ثلاث شعب : شعبة العقيدة ، وشعبة الأخلاق ، وشعبة الأحكام العملية .

أما العقيدة فتقوم على الإيمان بالله وتوحيده بالعبادة والتقديس والخضوع له والرجوع إليه فى كل ما يعنّ للإنسان ، لأنه واهب الوجود ومصدر كل خير ونعمة ، والإيمان برسله وكتبه التى أنزلها عليهم وملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والإيمان بالغيب وما فيه من أسرار لا يعلمها إلا الله ، ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء .

فإذا آمن المرء بذلك كله وُجد عنده رقيب فى نفسه يراقبه فى سره وعلانيته ، ذلك الرقيب هو الضمير الحى الذى يولد مع الإيمان بما سبق .

وأما شعبة الأخلاق فتقوم على تحلية النفس بجميل الصفات بعد تجريدها من قبيحها ، فبين الإسلام الصفات المرذولة ، وحتم على العبد التخلى عنها وتطهير نفسه منها ، والصفات

(١) فى الكلام على مصادر القانون عرفوا الدين أنه : القواعد والأحكام التى ينزلها الله بوحى من عنده على الناس وهى تنظم وتحكم عادة — العبادات أى علاقة المرء بربه والأخلاقيات . أى علاقة المرء بنفسه . وقوا له المعاملات بالمعنى الواسع . أى القواعد التى تحكم علاقة المرء بغيره « أصول القانون » ص ٢٥٦ وفى ص ٢٦٠ أما الدين الإسلامى فقد نزل به الوحى ديناً وقانوناً فى آن واحد إلخ .

(٢) ص ٢٨ الطبعة الثانية .

(٣) يقول فى أول صفحة من هذا الكتاب : إن الكتب الأجنبية التى تتعرض للكتابة عن مبادئ الإسلام كثيراً ما نجد روح التعصب الوبيل بادية فى أسلوب مؤلفيها وطريقة عرضهم للمبادئ الإسلامية .

الفاضلة ، وطلب منه أن يتخلق بها ، وأن يجعل لنفسه حلية منها .

فالكذب وخلف الوعد والغيبة والنميمة والحقد والحسد والغش والخداع والجبن والخور والخيانة وما شاكلها صفات مرذولة أفسدت على الناس حياتهم وأثارت العداوة والبغضاء بينهم ، فوق أن العقول السليمة تمجها وتنفر منها ، لذا أوجب الشارع على المرء أن يتخلى عنها حتى لا تكون معولا يهدم صرح العلاقة بينه وبين أخيه الإنسان .

والصدق والوفاء بالعهد والإخلاص فى العمل والرحمة والتعاون والصبر والعزيمة والشجاعة والإقدام والكرم والإحسان وحب الخير للناس والعفو والصفح عن مسيئهم والحياء صفات فاضلة تكمل النفوس وتسمو بها فى مدارج الإنسانية المهذبة وتعين على إحكام الروابط بينهم (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)[1] (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)[2] ، (فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)[3] ، (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونـًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)[4]

وهاتان الشعبتان تتعاونان على إصلاح الباطن ليكون أساسـًا سليمـًا يرتكز عليه الظاهر ، فإن كل محاولة لإصلاح الظاهر قبل إصلاح الباطن تذهب سدى ، وتجعل من القوانين العملية أداة للتخويف والإرهاب لا يمتثلها شخص إلا تحت سوط التهديد .

وهذا هو السر فى عناية القرآن بإصلاح العقيدة وتهذيب النفوس وصرفه أكثر آياته إلى الأمرين قبل أن يبدأ فى تشريع الأحكام العملية التى تنظم الظاهر ، وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه المشهور :

« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

أما الشعبة الثالثة فهى شعبة التنظيمات العملية ، وقوامها تنظيم الحياة العملية والروابط بين الناس أفراداً وجماعات ، وهى التى تسمى فى الاصطلاح الشرعى بالفقه الإسلامى ، وتقابل القوانين وتقوم بمهمتها ، غير أن تنظيمها أدق وأحكم ، لأنها نظمت الظاهر بعد

---

(١) الشورى : ٤٣ .
(٢) فصلت : ٣٤ .
(٣) آل عمران : ١٥٩ .
(٤) الفرقان : ٦٣ .

تنظيم الباطن ، فهى تتساند مع الشعبتين السابقتين فى التنظيم الحقيقى ، فيلتقى تنظيم الباطن مع تنظيم الظاهر وحينئذ يصدر الإنسان فى امتثالها غالباً عن رغبة فى النظام وانقياد للأحكام الشرعية بقوة الإيمان وغلبة حب الخير لا عن خوف من سلطان القانون وبطشه .

ولعل فيما أخرجه أبو داود والترمذى فى صحيحيهما عن أبى برزة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر يوماً فنادى بصوت رفيع : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته » لعل فى ذلك ما يرشد إلى أثر الإيمان فى امتثال التكاليف .

ولكن القوانين الوضعية التى تنظم الظاهر دون أن تعرض للباطن فلن تستطيع حمل الناس على امتثالها إلا تحت تأثير التخويف والإرهاب مما تفرضه من جزاء على المخالفة ، فإذا أمنوا العقاب لم يكن فى نفوسهم أثر لهيبة ولا احترام ، فهى إذاً ليست مانعة من المخالفة ، وإنما تمنع من الظهور بها فقط .

فكم من المخالفات ترتكب على حين غفلة من القانون ؟

وما تعرض له فى بعض الأحيان مما يدخل فيه العنصر الأخلاقى لا تعرض له من ناحية أنه مهذب للنفوس بل من ناحية ما فيه من نفع المجتمع . كما سبق تصريحهم بذلك ، أو يقولون : إنه من قبيل الآداب العامة والسلوك العام الذى لا يستغنى عنه المجتمع .

وإذا ظهر لنا أن الأخلاق شىء ، والفقه الإسلامى شىء آخر كان إطلاق كلمة الأخلاق على أحكام الفقه إطلاقاً غير حقيقى ، وإن صح هذا الإطلاق يكون لما بينهما من التعاون والتساند على تحقيق هدف المشرع من تشريعه ، وهو تنظيم المجتمع تنظيماً حقيقياً .

د. محمد مصطفى شلبى

دعوة للبحث والدراسة

القرآن والسنة

الفارق بينهما هو فى مدى الثبوت

بقلم :
الأستاذ أحمد حسين

كان الأزهر وسيبقى ، أحد دعائم الإسلام الكبرى ، وقد جاء وقت دوى الإسلام فى كل مكان ، ولكنه ظل يأوى فى الأزهر إلى ركن ركين .

واليوم والعالم الإسلامى فى نهضة كبرى ، تحدثت عنها كثيراً ، فالأزهر بشيوخه وعلمائه وأساتذته وطلابه مدعوون لإثراء هذه النهضة بالأبحاث والدراسات والاجتهادات التى ارتفع بها الإسلام مكاناً علياً ، وجعل للباحث والدارس أجرين إذا اجتهد ، أجراً على عنائه فى البحث والدرس ، أياً كانت النتيجة التى انتهى إليها ، ما دام لم يقصد من وراء الوصول إليها ، إلا وجه الله ، ثم جعل له أجراً ثانياً ، إن هو أصاب فى اجتهاده .

دعوة للبحث والدرس :

وهذا المقال هو دعوة للبحث والدرس ، أى أننى لا أقرر فيه أمراً ، ولا أدعو لتغليب نظرية فقهية على أخرى ، والسبب فى ذلك هو حالتى الصحية التى لا تمكننى من مراجعة كتب العلم ، ونقل النصوص منها ، وهو ما لابد منه فى أى بحث علمى ، فدورى فى هذه المقالة لا يعدو دور المفكر الإسلامى الذى يطرح أفكاراً وقضايا للبحث ، ويدع للباحثين والمتخصصين استكمال البحث وإصدار القرارات .

وأنا أعتبر قضية القرآن والسنة ومدى ارتباطهما ، والعلاقة بينهما ، هى أخطر ما نحتاج الوصول فيه إلى رأى واضح محقق ، فدنيا المسلمين يراد

إقامتها من جديد على أسس من الشريعة الغراء ، وأنا من القائلين إن ذلك آت لا ريب فيه ، بعد أن زالت الغواشى التى كانت تحجب عنهم نور الشريعة ، وأعنى بالغواشى فقدانهم استقلالهم السياسى ، واليوم وقد أصبحوا أحراراً ، فسوف تفرض الشريعة الإسلامية نفسها فرضًا ، نتيجة تفوقها الساحق على كل ما عرفت البشرية ، أو يمكن أن تعرف من أفكار ومذاهب من ناحية ، ولأنها من الناحية الأخرى تقدم للإنسانية ، ما أصبحت تفتقر إليه من التوازن بين الروح والمادة ، ومن هنا قلنا بوجوب مضاعفة البحث والدرس ، وأن يقود الأزهر ، بكلياته ، ومعاهده ، وأعمدته المسيرة .

وفى مقدمة ذلك ، العلاقة بين القرآن والسنة ، وإلى أى مدى يمكن الاستناد إلى أى منهما .

المسلم يصل إلى الله من خلال سيدنا محمد :

وأول فكرة نعرضها ، والكثيرون قد لا يقفون أمامها ، إن الإنسانية بعامة ، قد عرفت الله ، مذ كان الإنسان إنسانًا ، ولكن الله كما يؤمن به المسلم من أنه واحد أحد ، لا إله غيره ، ليس كمثله شىء ، إلى آخر العقيدة الإسلامية ، أقول إننا كمسلمين ، لم نعرف ذلك إلا من خلال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان أول أركان الإسلام وأخطرها على الإطلاق ، لأنها الأساس الذى يقوم عليها البناء كله ، هو الشهادتان ، وفى رأيى ، أن الشهادة بوحدانية الألوهية ، قد تقدمت فى اللفظ ، إظهاراً لأنها هى غاية الغايات ، التى ينتهى عندها الإسلام وينفرد بها ، ولكننا ماكنا نعرف ذلك إلا بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإيماننا به ، وتصديقنا له ، هو سبيلنا إلى الإيمان بوحدانية الله ، فليس مسلمًا من لم يشهد بأن سيدنا محمدا هو رسول الله ، وإن آمن بالله ، وإن صلى وصام ، وزكى وحج ، وإن كان هذا الفرض مستحيلا ، لأن سيدنا محمدا هو الذى جاء بهذه الأركان ، فيستحيل أن يقوم بها ، من لا يؤمن به أولا وقبل كل شىء .

والخلاصة ، أن إيماننا بالله ، وأن القرآن كتابه المنزل عن طريق الوحى ينبنى على إيماننا بشخص سيدنا محمد ، وهو الذى قال لنا : إن هذا قرآن ، وهذا غير قرآن ، أى أن أمر الإسلام

كله يقوم على قوله والالتزام بهذا القول ، سواء كان قرآنًا أو سنة .

فإذا قلنا ، إن القرآن أولى بالاتباع ، فما ذلك إلا لأن سيدنا محمدا قال ذلك ، والذين قالوا ، إن السنة لا تنسخ القرآن ، استندوا على قول الرسول ، والذين قالوا بعكس ذلك من أن السنة قد تنسخ القرآن ، ما كانوا ليقولوا ذلك ، لولا استنادهم لقول الرسول أو فعله فى بعض المسائل ، فالمرجع فى كل ما يتصل بالإسلام ، هو قول الرسول أو فعله ، أو سكوته عن أمر كان يقع أمام نظره ، أو يصل إلى علمـــه ، فيسكت ، أى لا ينهى ولا يأمر فشخص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الكل فى الكل فى الإسلام ومن هنا كانت آية صدقه ، ودليل رسالته القاطع ، هو نجاحه الذى لم يسبقه إليه سابق ، فى منع المسلمين من عبادته ، وتعميق هذا المعنى فى نفس أتباعه إلى درجة مذهلة ، ولاعجب فى ذلك ، فقد كان يصر على أنه عبد الله ، وفى القرآن : (قل إنما أنا بشر مثلكم) ولخص الفارق فى أنه (يوحى إلىّ) فهذا الوحى هو الذى عرفنا طريق الله فى المفهوم الإسلامى ، وقد قرر لنا هذا الوحى أن سيدنا محمدا (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) فكل نطق يخرج من فم سيدنا محمد هو وحى ، إلا أن يقول سيدنا محمد نفسه غير ذلك ، هذه مسألة محل اتفاق وإجماع ، ولا يمكن أن يوصف إنسان بأنه مسلم إذا كانت هذه الحقيقة محل شك عنده .

سيدنا محمد هو الذى فرق بين القرآن والسنة :

فنحن مأمورون أمراً بأن نصدع بأى قول ينطق به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان هو الذى حدد لنا حدوداً يبين لنا ما هو قرآن ، وما هو سنة ، وحدثنا دائمًا عن القرآن والسنة ، وكان يعلّم كل من حوله عما هو قرآن وعما هو غير قرآن ، فلقن أتباعه ودعاهم إلى حفظ وكتابة ما هو قرآن ، ونهاهم عن خلطه بأى قول آخر ، حتّى قيل إن شيئًا غير القرآن لم يكتب طول عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان عبد الله ابن عمرو بن العاص ، يحدثنا أنه كتب بعض الأحاديث ، والاستثناء دائمًا يؤكد القاعدة ، وقد كانت القاعدة ألا يكتب شىء فى عهد النبى سوى القرآن ، وما ذلك إلا لشدة حرص سيدنا محمد ، ألا يختلط بالقرآن

شىء آخر ، حتى ولو كان من قوله هو ، فدل ذلك على أنه بتوجيه من الله ، شاء أن يخص القرآن بأنه هو مرجع المراجع الباقية للمسلمين إلى الأبد وأصبح عمل الرسول وقوله هو تبيان لكتاب الله وهو « القرآن » .

جمع القرآن وحفظه :

والقرآن يحدثنا عن شدة لهفة سيدنا محمد ، على حفظ ما يوحى إليه من نصوص القرآن ، فطمأنه القرآن إلى أن تلك مهمة سيحققها الله ، فلا يشغلن بها نفسه :

(لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . . .) الآية .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . . .) الآية .

ثم كان الوعد الإلهى القاطع :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وهكذا وعدالله سبحانه وتعالى: بأنه سيجمع القرآن وسوف يحفظه ، ومات رسول الله قبل أن يأمر بجمع القرآن ، أو حتى يوصى بذلك ، إلى الحد الذى جعل أبا بكر وهو من هو يتردد فى أمر جمع القرآن ، وكانت حجته « أأفعل أمراً لم يفعله رسول الله » ؟

فإذا رأينا القرآن اليوم بعد ألف وأربعمائة سنة ، مجموعاً ، محفوظاً بنصه كما أوحى به إلى سيدنا رسول الله ، وقد اختلف المسلمون حول كل شىء ، حتى تقاتلوا فيما بينهم ، ولكن الشىء الوحيد الذى أجمعوا عليه هو نص القرآن ، ولقد انقسم المسلمون إلى شيعة وسنة ، ومع ذلك فالقرآن واحد ، ولقد ذبح الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان الذى أمر بنسخ المصحف وإرساله إلى الأمصار ، وقد قال خصوم سيدنا عثمان فيه ما قالوا حتى بالغ بعضهم وانحرف فرموه بالكفر ، ومع ذلك فلم يرتفع صوت واحد عبر التاريخ كله يتهمه بأنه أضاف أو أنقص ، فضلا عن أن يكون قد عدّل وغيّر ، فى بعض آياته ، والحق أننا فى غنى عن كل هذه الأبحاث ، فنحن إزاء وعد قاطع من الله سبحانه وتعالى ، أنه سيحافظ على كتابه إلى أبد الآبدين .

فالقرآن الموجود بين أيدينا ، هو عين النص الذى نزل من السماء على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن تشكك فى ذلك ، مرق من دين الإسلام .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للسنة غير المتواترة :

ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لما يروى عن رسول الله ، لا من ناحية مكانته ، فالمكانة واحدة لا تتجزأ ، ولكن من ناحية نسبة صدوره من رسول الله .

ولقد أسرف بعض المسلمين على أنفسهم ، فقالوا : إن كل ما ورد فى كتب الصحاح فهو ثابت مائة فى المائة ، وهذا قول فيه تجوز ، فليس هناك سوى كتاب واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم فأصبح من قبيل الإسراف والتجوز خلع هذه الصفة على كتاب آخر فضلا عن كتب يقولون إن هذه الكتب تتضمن أحاديث رسول الله وهو لا ينطق عن الهوى ، وليست هذه هى القضية ، إنما القضية هى صحة نسبة هذا القول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن الذين قاموا بجمع الصحاح ، كانوا رجالا عظاماً ، بل وممعنين فى العظمة العلمية والورع والتقوى ، وكانت لديهم قدرات فائقة فى الحفظ والاستيعاب والقدرة على النقد والتمحيص ، وهو ما يتجلى فى العدد الضئيل نسبياً الذى أثبتوه فى كتبهم ، بالنسبة لما أهملوه ، فقرر بعضهم أنه اختار البضعة الألوف من الأحاديث التى أثبتها فى صحيحه ، من ثلثمائة ألف حديث ، أو من أكثر من ذلك بكثير ، ولقد وضع كل جامع للأحاديث الصحيحة لنفسه مقياساً ، يستدل به على صدق الحديث ، كاشتراط المعاصرة لرواة الأحاديث ، وزاد البعض فاشترط ثبوت المقابلة الشخصية بين رواة الأحاديث ، وبهذه الضوابط لم يخلص للبعض إلا هذا العدد القليل نسبياً من هذه الأحاديث ، وأقصى ما يقال فى وصف هذه الجهود إنها اجتهادات جديرة بكل إجلال وإكرام ، ورضى الله عمن قاموا بها .

ولكن ذلك لا يخرجها بحال من الأحوال عن كونها اجتهادات ، وهو ما فهمه منها معاصروهم ، أو من جاءوا بعدهم ، فراحوا يضيفون وينقصون ويجمعون ، ولا يجب أن ننسى أن عملية جمع الأحاديث تلت عملية الفقه التى كانت فى القرنين الثانى والثالث للإسلام .

وقد كان من أطرف ما سمعنا من أحد علماء الحديث ، أنه لا يؤخذ بفقه الأئمة الأربعة ، لأن الأحاديث

جمعت بعدهم ، وإذا كان هذا الشيء أو ذاك مما أفتى به إمام كالشافعى مثلا ، يخالف حديثاً مما ورد فى بعض الصحاح ، فهم يردون قول الشافعى استناداً لهذا الحديث ، بمقولة أن الشافعى كان يجهله ، ثم يعززون ذلك بقول الإمام الشافعى نفسه من أن الحديث الشريف مذهبه ، فيجب إهدار قوله أمام نص الحديث .

وما كان للشافعى ، أو لأى مسلم آخر أن يقول غير ذلك فقول الرسول عندما يثبت صدوره منه هو القول الفصل ، والقضية تتلخص فى هذا الثبوت ، ومجرد روايتها فى هذا الكتاب أو ذاك لا يقطع بثبوتها ، بدليل أنها قد تذكر فى كتاب ثم لا تذكر فى كتاب آخر .

وقد اعتمد الأئمة الأربعة ، وهم فى الصدر الأول للإسلام ، وقد عاصروا التابعين ، الذين تلقوا مباشرة عن صحابة رسول الله وتابعيهم ولكن مصدرهم الأساسى ، كان هو عمل الصحابة الذى تواتر ، أى تناقله الخلف عن السلف بكل تفاصيله كهيئة الصلاة ، ومناسك الحج وأنصبة الزكاة ، فقد كانت هذه العبادات كلها تمارس بدون انقطاع منذ أيام الرسول صلوات الله عليه ، حتى وصلت إلى الفقهاء الأئمة الأربعة ، فراحوا يقننونها ويؤصلونها ، استناداً على القرآن والسنة المؤكدة ، والتى كان يؤكدها جريان العمل عليها ، ومن هنا فنحن لا نعتد بقول من قال : إن كتب الأحاديث التى جمعت فى عصر لاحق ، تعلو أقوال الأئمة الأربعة ، إذا خالفت ما جاءوا به ، بمقولة أنهم كانوا يجهلون هذا الحديث أو ذاك ولو عرفوه لغيروا حكمهم .

وعندنا أن مجرد إغفال أى إمام من الأئمة الأربعة ، لأى حديث من أحاديث رسول الله ، كاف لكى نتحفظ كثيراً بصدد هذا الحديث ، فما كان هؤلاء الأعلام الورعين ، ليصلوا إلى ما وصلوا إليه ، لولا أن معاصريهم والأجيال المتعاقبة رأوا فيهم ذروة العلم الإسلامى المستند إلى القرآن والسنة .

ومجمل ما يقال عن كتب الأحاديث التى دونت فى عصور متأخرة ، إن ورود الحديث فى أكثر من واحد منها ، هو قرينة على صحتها ، ولكن هذه القرينة لا يمكن أن تكون قاطعة ، إلا بعد استخدام المقياس الذى زودنا به رسول الله نفسه .

اعرضوه على كتاب الله :

فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه القضية ، قضية الأحاديث التى تروى عنه ، فأجاب بالرد المنطقى الوحيد الذى لارد غيره ، وهو أن يعرض الحديث على كتاب الله ، فما وافقه فهذا هو قرينة الصحة ، التى تكملها الأدلة الأخرى على ثبوت صدور القول من رسول الله .

ولقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها وهى من هى من حيث قربها ومكانتها من رسول الله ، تأخذ بهذا المقياس ، فكانت ترد أى حديث يتعارض مع نص القرآن ، وما كانت لتفعل ذلك بطبيعة الحال لولا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد غرس ذلك فى نفسها غرساً .

هذه هى قضية القرآن والسنة فى إطارها الصحيح ، فالقرآن ثابت ومحقق بعهد إلاهى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وليس كذلك الشأن بالنسبة لما روى عن سيدنا محمد ، وقد أثبت العمل والواقع والتاريخ هذه الحقيقة ، فحيث لا يوجد سوى نص قرآنى واحد ، فقد وجد الكذابون الذين كذبوا على رسول الله فنسبوا إليه أقوالا لم يقلها ، وفى فترة امتلأت بالخلافات والصراعات والفتن ، حاول كل فريق أن يؤيد دعواه بحديث ينسبه إلى رسول الله ، فكان هذا السيل الجارف من الأحاديث الموضوعة ، ولا ننسى دور اليهود ومحاولتهم تخريب الإسلام من الداخل فكانت هذه « الإسرائيليات » .

ابحثوا وادرسوا :

وأعود بتكرار ما بدأت به ، من أننى لا أقرر ، ولا أغلب فكرة على فكرة وإنما هى أفكار أعرضها ، وأدع للمختصين نفيها أو إثباتها ، أو تعديلها ، فالعالم الإسلامى فى أمس الحاجة إلى تحقيقها فى يقظته ونهضته الحالية .

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الخير والرشاد .

أحمد حسين

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

العقليون يقودون الفكر الأوربى إلى مأزق الإلحاد

للدكتور يحيى هاشم

تمهيد* :

يعتقد كثير ممن لهم اطلاع على أحوال الديانات أن المأزق الإلحادى الذى وقع فيه الفكر الأوربى الحديث يرجع إلى احتواء الديانة المسيحية على أمور تتعارض مع العقل .

ومع تسليمنا بصحة هذه القضية جزئيًا ، إلا أننا نرى أن الذين يعرضونها على هذا النحو المطلق ينحرفون بها إلى تقرير موقف آخر يدعون فيه أن العقل « المستقل » هو ما يجب أن يكون أساساً للدين ، وهو الذى يحفظه من الإلحاد .

والحقيقة أن العقل « المستقل » ليس أقل اندفاعًا إلى الإلحاد وارتكاسًا فيه ، من احتواء الدين على بعض الأمور التى يعجز العقل عن قبولها .

* انظر عدد شوال السابق ص ١٢٧٤ — ١٢٧٨ منه .

وإليك ذلك من تجربة الفكر الإنسانى فى أوربا الحديثة :

* * *

كان من نتيجة العلم النيوتونى فى القرن السابع عشر الميلادى : أن أصبح الناس يرون الكون آلة عقلية ، متسقة كل الاتساق ، وأن الطبيعة من صنع كائن كامل . وأن القوانين الطبيعية أوامر يصدرها الله فتطاع دون تمرد .

هذا ما أثبته نيوتن . .

ولقد وصل تقدير المفكرين لنيوتن إلى الحد الذى جعل شاعراً من شعراء ذلك العصر يقول :

« الطبيعة وقوانين الطبيعة كانت مختبئة فى الظلام .

قال الله : ليكن نيوتن : [فكان نيوتن] ، فأصبح كل شىء نوراً » .

والخلاصة : أن العلم النيوتونى أجبر الناس على الاعتقاد بخالق ، باعتبار ذلك ضرورة علمية وأخذ الناس يطابقون بين ما هو طبيعى وما هو عقلى ، وأصبح ما يبدو معقولا يعتبر طبيعيًا ، والعكس أيضًا صحيح .

أما فى مجال الدين فقد تعرض الفكر المسيحى التقليدى للنقد على ضوء هذا المثل الأعلى ، وأصبحت فكرة « الديانة العقلية » أو « الديانة الطبيعية » هى الفكرة السائدة ، التى تقاس إليها العقائد الدينية ، وما إن أشرف القرن السابع عشر الميلادى على نهايته حتى ساد المفكرين والقادة الدينيين اعتقاد بأن جوهر الدين إنما هو مجموعة من العقائد يمكن إثباتها بالعقل المستقل . وقبل المحافظون والمجددون على السواء ديانة الطبيعة أو العقل كحقيقة أساسية .

١ — لكن المحافظين شددوا على أهمية الوحى بالإضافة إلى ما تقدم فكانوا بذلك عقليين — سماويين — ميزوا بين ما يمكن إثباته عقليا ومالا يمكن إثباته وقبلوا هذين العنصرين من العناصر المكونة للدين .

٢ — أما المجددون الجذريون — الراديكاليون — فقد اختلفوا عن الفريق الأول فى أنهم — مع أقرارهم بوجود الله — أنكروا الوحى ، وشددوا على كفاية الدين الطبيعى والعقلى . .

واستمر الجدل جيلا بكامله حول ضرورة الوحى بالإضافة إلى هذا الدين العقلى :

٣ — ثم ظهر نقاد أكثر تشككا فتساءلوا عن صحة المقدمات التى تقوم عليها الديانة الطبيعية ولم يكد ينتصف القرن الثامن عشر الميلادى حتى ظهر مذهب ريبى كامل ما لبث أن انتشر فى فرنسا وانتهى إلى إلحاد شامل .

وإليك شىء من التفصيل لهذا الإجمال

* * *

أولاً — المحافظون فى نطاق ديانة العقل :

كان الزعماء البارزون بين العقليين الإلهيين المحافظين هم :

١ — جون لوك ، الفليسوف الإنجليزى المعروف .

٢ — جون تللوتسون رئيس أساقفة كنتربورى .

٣ — صامويل كلارك ، أبرز اللاهوتيين ، وأشهر فيلسوف فى انجلترا بعد لوك .

وكان هؤلاء مقتنعين بالعلم النيوتونى، وبالمناهج العقلية العلمية «وبالعالم الآلة» الذى كان نتيجة لهذه المناهج .

واتفقوا جميعاً على :

أن الدين ليس حاجة غريزيّة فى النفس البشرية ، وإنما هو علم كعلم الفيزياء . أى إنه نظام من القضايا العقلية يستدل عليه كما يستدل على أية قضايا أخرى ببراهين العقل الإنسانى !

وأن القضايا التى يضمها الدين العقلى أو الطبيعى يقبلها عقل كل إنسان وهى :

١ – الإيمان بإله تام القدرة .

٢ – وأن الله يطلب من الإنسان حياة فاضلة بأن يطيع إرادته الإلهية .

٣ – وأن هناك حياة أخرى يكافئ الله فيها الأبرار ويعاقب الأشرار .

أدلة الديانة الطبيعية على وجود الله :

يمكن إرجاع هذه الأدلة إلى نوعين :

الأول : دليل العلة الأولى .

والثانى : دليل هندسة العالم .

وقد بسط نيوتن –نفسه– هذين الدليلين ضمن توضيحه للفيزياء الرياضية .

وشرح فولتير هذين الدليلين على وجود الله شرحا وافياً . وكان معروفاً بتمسكه الشديد بالديانة الطبيعية حتى آخر حياته عام ١٧٧٨م .

يقول فولتير فى دليل العلة الأولى :

«إن كل ما يوجد لابد أن يكون وجوده :

إما بذاته ، أو بغيره . . .

وإذا كان وجوده بذاته ، فهو موجود منذ القدم ، وهو الله . .

أما إذا كان وجوده من غيره ، وكان ذلك الغير من ثالث ، فإن ذلك الذى يتلقى منه الأخير وجوده : هو الله . . »

ويستدل فولتير على أن الموجود القديم ليس هو المادة بقوله :

«الذكاء ليس ضرورياً للمادة ، لأن الصخرة أو الحبة لا يفكران . . فمن أين تلقت الإحساس والتفكير ؟

إذن : أجزاء المادة التى تفكر وتحس لا يمكن أن تتلقى ذلك من ذواتها ، إذ أنها تفكر بالرغم من ذاتها .

ولا يمكن أن تتلقاه من المادة بصورة عامة . . .

ومن هنا : كان لابد من أن تتلقى ذلك من كائن أسمى ، ذكى ، لامتناه هو العلة الأولى لجميع الأشياء . . »

ويقرّ فولتير : بوجود صعوبات فى مثل

هذا التفكير لكنه يقرر : « أن الرأى المعاكس ينطوى على أمور مستحيلة..»

ويشدد فولتير على دليل هندسة العالم فيقول :

«حين أرى ساعة يدل عقرباها على الزمن أستنتج أن كائنا قد رتب أجزاءها المحركة بحيث تدل عقاربها على الزمن..

وكذلك عندما أرى أعضاء الجسم البشرى أستنتج : أن كائنا ذكيًا قد رتب هذه الأعضاء بحيث تنشأ فى الرحم وتتغذى فيه تسعة أشهر ، وأن العيون رتبت لترى والآذان لتسمع . »

وكانت العين بما تقوم به من تكيف دقيق تعتبر من الأدلة القوية على وجود الله .

هذا ما استقر عليه الأمر فى الديانة الطبيعية ، أو العقلية ! ؟

وأضاف العقليون الإلهيون إلى هذه الأمور الثلاثة : الوحى ، واعتبروه متمما لها ، وهاديا إليها بصورة أوضح .

وحدد لوك المبادئ التى يجب أن يقبل الوحى على أساسها . . ! ؟

فالحقائق الدينية عنده تنقسم إلى أصناف ثلاثة .:

قال : « نستطيع . . . التمييز بين ما يوافق العقل ، وما يعلو عليه ، وما يناقضه . .

فما يوافق العقل هو القضايا التى نستطيع كشف حقائقها بالفحص والاستقصاء والتأمل والاستنتاج . . كالقول بوجود الله . .

وما يعلو على العقل : هو القضايا التى لا نستطيع استنتاج صحتها أو رجحانها من تلك المبادئ كالقول بالبعث .

أما القضايا التى تناقض العقل فهى التى تناقض أفكارنا البينة الواضحة أو لا تتفق معها كالقول بإله آخر .

والمجموعة الأولى : تكون الدين الطبيعى أو العقلى . .

والثانية : تكون الوحى . .

والثالثة : تكون الأوهام . .

ويقول جون لوك :

« . . . ليس بوسعنا إطلاقا أن نتقبل أى شىء يضاد معرفتنا الواضحة بشكل مباشر . .

ولا يمكن إقامة دليل على أن أية ديانة تقليدية هى من أصل إلهى أوضح وأصدق من الدليل المرتكز إلى مبادئ العقل .

وما من معجزة تقيم الدليل على وحى إلهى سوى المعجزة التى تشهد بأن الرسالة ذات مصدر إلهى » :

ويذهب لوك إلى أن الوحى المسيحى فى شكله الإنكليكانى « الأسقفى » يمكن إثباته على أساس هذه المقاييس! ؟

* * *

ويذهب جون تللتسون إلى أن الديانة الطبيعية — العقلية — ليست كافية وأنه لابد لها من الوحى والوحى لايعدل الديانة الطبيعية ، بل يجعلها . . أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً فحسب ! ؟

فالديانة الطبيعية هى الأساس لكل ديانة سماوية والوحى السماوى لم يقصد منه سوى توطيد واجباتها . والوحى لا يأتى بأية ملكة جديدة لإدراك الحقيقة ولا بأى مقياس جديد ، بل يقدم حافزاً إضافياً يدفعنا إلى أن نعمل ما نعتقده صحيحاً . ونحن لو تساءلنا لماذا نقبل ما جاء به الوحى ؟ لقيل :

أولا : لأنه يتفق اتفاقاً تاماً مع الديانة الطبيعية والطبيعة ، الإنسانية .

ثانيا : لأن العهد القديم تنبأ به وأيده العهد الجديد بالمعجزات ...

يقول تللتسون :

« هناك أمران يجب أن يتفقا ليقتنع عقل الإنسان اقتناعاً كليا بأن ديناً ما من عند الله ، وهما :

أولا : أن يستطيع الشخص الذى يدعو إلى هذا الدين أن يقيم البرهان على أنه يرتكز إلى سلطة إلهية أى إن الله هو الذى أرسله وأمره بأن يدعو لهذا الدين .

وثانياً : ألا يكون فى الدين الذى يدعو إليه شىء ينافى طبيعة الله بشكل صريح ... »

* * *

ويقول صمويل كلارك :

«لقد كان ينقص الناس وحى إلهى لينقذ البشرية من فسادها . . .

وكان يستحيل ذلك بدون هذا الوحى ..

لأنه إذا كانت الجهالة العمياء ، أو الأفكار الموروثة والآراء الباطلة التى توجه باستمرار أفعال عامة الجنس البشرى ، تخلق صعوبة بالغة امام جميع الناس فى أن يكشف كل لنفسه — بمجرد الاعتماد على العقل — جميع جزئيات الواجبات الإنسانية ، فمن الواضح أنه كانت هنالك ضرورة لنوع خاص من الوحى »! ؟

* * *

هكذا بدأ العقليون منتصرين للدين ، معترفين بالوحى ، حاكمين عليه بالعقل المستقل ، يستبعدون منه ما يناقض العقل ، ويقبلون ما يعلو عليه ؟

وإلى هذا الحد فقد كان هذا الاتجاه جديراً بتنقية المسيحية مما يتعارض مع العقل ، وكان جديراً بأن يقوم

بعملية غربلة للأخبار الواردة فيها — مما لا يتفق مع العقل — فيؤوّل بعضها تأويلا عقليًّا ، ويذهب إلى تبرئة الوحى من بعضها الآخر»(١) .

وأن يقف بذلك سدًّا منيعًا ضد الإلحاد ، لو أن منبع الإلحاد كان هو هذا التعارض . إلا أن بذرة الإلحاد كانت فى واقع الأمر كامنة فى هذا المقياس العقلى « المستقل » لا فى الأخبار المخالفة له كما يظن الكثيرون ! ؟

إذ ما دام المرجع إلى العقل المستقل الحاكم فلا يأتى من يزعم أن العقل فيه الكفاية ، وأن الوحى لا ضرورة له ؟

هذا ما ظهر بعد ذلك . .

ثانياً — الراديكاليون (الجذريون) فى نطاق ديانة العقل :

بعد أن ساق القائلون بالوحى — فى نطاق ديانة العقل — أدلتهم فى تأييده على النحو السالف ، ظهر المفكرون الذين لم يجدوا ضرورة للاحتفاظ به .

وكان موقفهم يتلخص فى أن الله لم يضف شيئًا إلى قائمة الواجبات التى تستلزمها الديانة الطبيعية أو العقلية .

وأن الله الذى خلق آلة العالم النيوتونية والذى يتصرف دائما وفقاً ، لقوانين كلية لا يفعل أمراً كهذا : (أى الوحى) .

وذهب هريرت أوف شربورى إلى :

أن كمال الله يقضى بوجود طريق للخلاص متيسر لجميع الناس ، أما رسالات الوحى ، أو الديانات الخاصة — فهى بالضرورة — جزئية وتفضيلية ، والله الكلى لا يفعل ذلك . . .

وأن ما هو ضرورى يجب أن يكون الله قد غرسه فى عقل الإنسان الطبيعى وجعله متيسراً فى جميع العصور ، وفى جميع الأمكنة .

وقدم « ماثيوتندال » فى كتابه « المسيحية قديمة كالخليقة » شرحًا وافيًا لفكرته القائلة : بأن الديانة الطبيعية وجدت كاملة منذ القدم ولا يستطيع الوحى أن يضيف شيئًا إليها . ويقول : « إن الواجبات لاتحتاج إلى دليل أقوى مما سبق أن تلقته من بينة العقل السليم » وينتهى إلى أن العجائب والنبوات وجميع الطقوس الدينية الجزئية — والاعتقادات : إنما هى خرافات .

وأعلن شوب أن المسيح كان مؤمنًا بالله منكراً للوحى . . وعارض بين « ديانة يسوع » و « المسيحية » .

---

(١) بل كان جديراً بأن يتقبل كل دين سماوى بعرض نفسه فى إطار لا يتعارض مع العقل : « الإسلام » .

وتحت تأثير المنهج العقلي أعلن ديدرو :

« . . أن مذهب لوثر أفضل من الكاثوليكية ومذهب كالفان أفضل من مذهب لوثر — والفرقة السوشيانية[1] أفضل من البرتستانية ، وعبادة الله فقط أفضل من السوشيانية » .

ثم يقول : (إن المسيحية باطلة فى عقائدها وهى أكثر الديانات غموضا وتخيلا وتقيداً وأكثرها تعرضًا للانقسام والفرق والأحزاب والشيع ، وأكثرها خطراً على الأمن العام . . وهى كئيبة فى طقوسها ، غير اجتماعية فى أخلاقها — من حيث أخلاقها الخاصة لا ما تشترك به مع الأخلاق الكلية . . » .

وذهب فولتير إلى « أن يسوع الناصرى كان ذا أخلاق بالغة النبل فلا يصح تسميته (بالمسيحى) قال :

« كل رجل عاقل صالح يجب أن يتجنب الفرقة المسيحية ! ؟

إن اسم المؤمن بالله المنكر للوحى — وهو اسم كبير لا نحيطه بمقدار كاف من الاحترام — هو الاسم الوحيد الذى يجب أن نتخذه تسمية لنا . .

والإنجيل الوحيد الذى يجب أن نقرأه هو كتاب الطبيعة الكبير الذى كتبته يد الله ، وختمته بخاتمها .

والديانة الوحيدة التى يجب التبشير بها هى عبادة الله والسعى إلى الخير .

وإنه ليستحيل أن تنتج هذه الديانة الصافية الخالدة شرًّا قدر ما يستحيل على التعصب المسيحى ألاّ ينتجه » .

وبدأت السهام توجه إلى المعجزات كدليل على الوحى . .

فادعى وولستون أن المعجزات التى ورد ذكرها فى العهد الجديد كانت فى معظم الأحيان تافهة متناقضة باطلة غير معقولة وغير جديرة بمعلم يحمل رسالة إلهية ..

وكتب هيوم فى كتابه « بحث فى المعجزات » الذى نشره عام ١٧٤٨م : أن المعجزة بمعنى كونها حادثًا خارقًا للطبيعة من الأمور التى لا يمكن إثباتها قطعًا ، وأنه يستحيل على من يقبـــل الفيزياء النيوتونى أن يثبت وقوع أى حادث معين بشكل خارق للطبيعة مالم يفترض أن له معرفة كاملة بأعمال الطبيعة بحيث يتمكن من أن ينفى عن المعجزة كل علة طبيعية وهو أمر بين الاستحالة ! ؟

(١) فرقة مسيحية موحدة — منكرة — للتثليث ، والألوهية عيسى ، ظهرت فى القرن السادس عشر الميلادى فى إيطاليا وبولونيا ، واستئصلت فى عام ١٦٦١م .

ومهما تكن علة المعجزة ، فإنه من الأسهل بكثير أن نعتقد فى وقوعها كنتيجة لبعض العوامل الطبيعية . . »

ويقول : « إن حماقة الناس وخداعهم هما من الظواهر العامة ، حتى إننى أفضل الاعتقاد بإمكان اتفاقهم — مخدوعين — على أن أكثر الحوادث شذوذاً قد وقعت من أن أسلم بخرق واحد واضح لقوانين الطبيعة . .

ولو نسبت هذه المعجزة لأى نظام دينى جديد لرأيت الناس — وهم الذين فرضت عليهم فى جميع العصور أشياء مضحكة من هذا القبيل — يجدون فى هذا الزعم بالمعجزة برهاناً كاملا على الكذب وكافياً لأن يحدو بجميع ذوى العقول لا لأن — يرفضوا هذه المعجزة فحسب ، بل أن يرفضوها دون المزيد من التمحيص . . . » .

هكذا آل الأمر فى مسيرة العقل « إلى إنكار الوحى » : لفضوليته من جانب ، وعدم إمكان إثباته من ناحية أخرى — ذلك فى نظر العقليين . .

وإلى هذا الحد كان ما يزال فى هذه المسيرة احتفاظ بالإيمان بالله — إلا أن الأمر كان لابد أن يؤول إلى خطوة أبعد . .

* * *

ثالثاً : إنه بتأثير نيوتن كان العصر يرى العالم كآلة لا يسبب الزمن أى تغير فى تركيبها ، وفى مثل هذا التصور النيوتونى كانت أدلة دعاة الديانة الطبيعية معقولة ، بل فرضيات علمية أصيلة . .

وقد بسط نيوتن نفسه أدلته فى مفهومه الذى قدمه للعالم كآلة . .

إذ أن هذا المفهوم يتضمن فكرة وجود صانع يبنى الآلة ويخطط اتساقها ونظامها الدقيق فالساعات والآلات لا توجد صدفة وإنما هى مصنوعة بذكاء لتحقق غاية معينة فلقد كان الله فى هذا التصور كصانع ساعة ، مستقلا تمام الاستقلال عن عالمه المخلوق.

إلا أنه فى تصور نيوتن كان ما يزال لله نوع « من التدخل . . » إذ كان نيوتن يظن أن بعض المفارقات فى حركة الكواكب والمذنبات تستوجب من الخالق تصحيحات دورية !

أى إن ساعة الكون لا بد من إرسالها بين حين وآخر لصانع الساعة من أجل إصلاحها .

إلا أن أتباع الديانة الطبيعية — ومنهم كبار العلمــاء كلابلاس — رفضوا القول بتدخل إلهى فى نظام الطبيعة طالما قد ثبتت صحته وكماله ! ؟

وقـــدم لابلاس فرضه بأن تلك المفارقات التى تحدث فى الطبيعة تحدث بصفة دورية وتصحح الواحدة منها الأخرى .

وأصبحت وظيفة الله بالنسبة لهؤلاء أنه أدار تلك الآلة فى البدء ومنذ ذلك الحين لم تعد ثمة حاجة لله لأن يشغل نفسه بأعمال خليقته التى حباها بالكمال.

وهكذا نشتم أول خطوة فى عملية التراجع عن الإيمان بالله . .

* * *

ثم وجد التصور النيوتونى ، وأتباع الديانة الطبيعية صعوبة فى إثبات الحياة الأخرى والنظام الأخلاقى فى العالم .

ذلك أن العالم وفقاً لهذا التصور يكون على درجة من الكمال لا تدعو إلى افتراض حياة أخرى . .

وهذا فى حد ذاته له تأثيره الواضح فى النظام الأخلاقى .

وهذا ما جعل الفيلسوف ليبنتر — مثلا— يكتب الكثير « ليثبت أن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة » .

وكان من المحتم بعد أن ازداد توحيد المفكرين بين الله ونظام الطبيعة الرياضى الكامل أن استبعدت المقاييس الأخلاقية بالنسبة لله أو للنظام الكونى . .

وهذه النتائج كانت قد اتضحت لسبينوزا قبل ذلك بقرن من الزمان ، فنفى وجود أية صلة بين الطبيعة والمقاييس الإنسانية فى الخطأ والصواب .

يقول فولتير : « يمكن القول بأن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بخلود الكائن الذى يفكر قدر مالدينا للاعتقاد بعكس ذلك . . » .

وهذا يمثل تراجعاً آخر ، أدت إليه النتائج المنطقية للديانة العقلية .

* * *

وإذا أخذت مسيرة العقل هذه تتخلص من حقائق الدين واحدة بعد أخرى : الوحى ، العناية الإلهية ، الآخرة . . إلخ .

فإن رجال الدين أنفسهم ، أو كبار المدافعين عن المسيحية . . ساعدوا هذه المسيرة فى إكمال شوطها ، ودفعوها دفعاً حثيثاً — من حيث لا يريدون — إلى الوصول إلى نهايتها المنطقية .

وذلك إذ عرضوا القضية على أنها اختيار حاسم نهائى بين الدين والعقل . .

فأعلن ويليام لو — وكان متصوفاً شهيراً — أن الدين ليس بحاجة لأن يخضع ذاته لأى مقياس عقلى . وكان دليله الوحيد قائماً على المعجزة . يقول

« إن المعجزات تقرر ذاتها بذاتها ولا يمكن أن يحكمها ما هو بعيد عنها » .

وقد عرض العالم بيير بايل هذا الخيار بين الدين والعقل — على الفرنسيين فقال للعلماء والفلاسفة :

« لا تحاولوا أن تفهموا الأسرار ، لأنكم لو استطعتم فهمها لخرجت عن كونها أسراراً » .

ولا تحاولوا أن تخففوا من ظاهر استحالتها فعقلكم هنا فاقد القوة تماما ..

اعتقدوا كمسيحين ، ولكن امتنعوا عن الاعتقاد كفلاسفة » .

وقال للاهوتيين المعتمدين على العقل :

« ستضطرون للرجوع إلى السبب الأول الذى تعتمدون عليه : التقليد والسلطة وأفضل استعمال للعقل فى هذه الحالة هو ألا يستعمل العقل . . » .

أما الدفاع الآخر الكبير عن الدين — الذى أدى عملياً بعقليى القرن الثامن عشر إلى الريبة والإلحاد — فقد كان هو الكتاب الكبير الذى نشره الأسقف بتلر وعنوانه « قياس الديانة الطبيعية والسماوية » ..

وقد ذهب فيه إلى أن الديانة الطبيعية مساوية للوحى المسيحى ذاته فى لاعقليتها ومعتمدة على الإيمان بمقدار اعتماده عليه .

ويبدو أنه لم يخطر للأسقف أن القول بأن الديانة الطبيعية لا ترتكز فى عرف العقل إلى أُسس أقوى وأثبت من الأسس التى يرتكز إليها الوحى السماوى ، قد يؤدى إلى ظهور من ينادى برفضهما معا .

* * *

إنه قبل أن يفرغ أتباع الدين العقلى من حملتهم على الوحى ظهر التيار العقلى المتجهم الذى أخذ يوجه سهامه ضد الديانة العقلية (الطبيعية) ذاتها . ولم يعد الجدل الدينى العقلى فى القرن الثامن عشر فى مرحلته هذه يدور حول ما إذا كان ينبغى على الرجل العاقل أن يؤمن بالوحى بالإضافة إلى الديانة الطبيعية بل أصبحت المسألة هى ما إذا كان يجب على رجل كهذا أن يعتقد بالديانة العقلية أو الطبيعية ذاتها ، أولا يعتقد بها . .

إنه إذا كان « لُو » الصوفى الشهير والأساقفة يختارون طريق إهمال العقل فإن عقليى القرن الثامن عشر كان من الطبيعى أن يختاروا طريق إهمال الدين.

وظهرت الكتب الكبيرة القاطعة فيما يمكن أن يقال ضد الديانة الطبيعية لكل من :

هيوم الإنجليزى .

وهولباخ الفرنسى .

وكانط الألمانى .

وهى كتب يقول عنها هرمان راندال :

« أصبح يستحيل بعدها على أى عقل نافذ محاولة الدفاع لا عن المسيحية فقط بل عن الديانة العقلية أيضاً — بالاعتماد على الأدلة المألوفة فى ذلك العصر » .

ضمن هيوم حملته على الديانة الطبيعية كتابيه (بحث فى العناية الإلهية والحياة المقبلة) المنشور عام ١٧٤٨م .

و (محاورات حول الديانة الطبيعية) الذى ألفه عام ١٧٥١م والذى لم ينشر إلا بعد موته عام ١٧٧٩م ، وقد ترجم الأخير إلى اللغة العربية .

وكان فى هذه الحملة مثالا للريبة : إذ رفض أن يستنتج أية مواقف نهائية من نقده الهدام .

وانتهى كانط فى نقد العقل النظرى إلى التأكيد بأن جميع المحاولات لاستعمال العقل استعمالا فكرياً فى حقل اللاهوت لا فائدة منها مطلقاً .

وهى بطبيعتها الذاتية باطلة وفارغة ..

وهذا موقف ريبى أيضاً إلا أنه كان يرى أنه :

خارج هذا الحقل — حقل العقل النظرى — يحصل الإيمان عن طريق « العقل العملى » الذى كان يراه كانط قادراً على أن يثبت قواعد الديانة الطبيعية وهى : الله ، الحرية ، الخلود .

وبدت أدلة كانط فاصلة فى تاريخ الفكر . .

أما هولباخ : فقد حمل على الديانة الطبيعية — العقلية — فى كتابيه :

« نظام الطبيعة » الذى صدر عام ١٧٧٠م

و « الحس العام للطبيعة » الذى صدر عام ١٧٧٢ م .

وقد أنكر هولباخ فى كتابيه هذين بصورة دوجماطيقية — قطعية — :

الله .

والحرية .

والخلود .

ووصل إلى إلحاد مادى كامل . .

يقول هرمان راندال :

«إن عصر العقل الذى كانت نقطة ابتدائه الافتراضات الدينية الطبيعية فى العلم النيوتونى . . لم يكن له مفر عن الانتهاء إلى مثل هذا الإنكار الكامل لكل قاعدة من قواعد المسيحية التقليدية . بل للديانة العقلية نفسها » .

ووصل انهيار الديانة المسيحية والطبيعية — العقلية ، إلى حد يصوره ما حدث

فى يوم من أيام عام ١٧٩٨م، حيث كان أحد أتباع الديانة الطبيعية يحاضر فى المعهد الفرنسى حول اعتقاداته الدينية. فأخذت صيحات الغضب تتعالى من الحضور ونادى أحدهم :

« أقسم أن الله غير موجود ، وأطلب ألا يلفظ اسمه فى هذا المكان » .

ولم يسع المحاضر المسكين إلا أن ينسحب حين أخذ الحضور يتناقشون فيما إذا كان يجب أن يلفظ اسمه بين جدران المعهد النير ؟ ! !

(تعالى الله علواً كبيراً) . .

تعقيب هام :

هؤلاء هم العقليون فى أوربا :

بدأوا مدافعين عن الوحى المسيحى

وتوسطوا منكرين له مكتفين بالديانة العقلية ـ الطبيعية .

وانتهوا إلى اللاأدرية .

أو إلى الإلحاد المادى .

وقد أردنا بهذا المقال أن نؤكد أن العقل المستقل يلهث وراء سراب ، وأنه يفتقد القدرة على الوصول إلى حقيقة ما : مالم يرتكز منذ خطوته الأولى على إيمان تسليمى سابق .

ـ وقد بينا فى مقال سابق[1] كيف يقوم هذا « الإيمان التسليمى » السابق على ما سميناه « الضرورة العملية » .

وأن هذه الضرورة المؤسسة للإيمان « تبرز لنا شامخة فى منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وفى الفكر الإسلامى على السواء .

وبينا أيضاً أن اللاأدريين ـ كهيوم وكانط ـ لم يفقدوا إيمانهم بالله تأسيساً على هذه الضرورة نفسها .

والأمر الذى نراه جديراً بالذكر هو أن إلحاد هؤلاء ـ اللاأدريين يجرى فى نطاق نظرية المعرفة ، فهو إن أردنا الدقة إلحاد « بالعقل » وإنكار لقدرته ، وإن كان له أثر « نظرى » على « نظرية الوجود » وعلى الإيمان بالله ، لولا أن أصحابه كما قلنا خضعوا للإيمان من باب آخر هو الضرورة العملية التى أشرنا إليها .

أما مادية هولباخ الدجماطقية « القطعية » فسوف نناقشها فى بحوثنا عن الإلحاد المادى وعلاقته بالعلم التجريبى .

إلا أننا هنا نسارع إلى القول بأن هذه المادية تؤول حتما إلى الدخول فى

---

(١) انظر هامش صفحة ١٤٢٩ الماضية .

حظيرة اللاأدرية وينطبق عليها ما ينطبق على تلك .

وذلك لأن القول بالمادية ينطبق على (الوعى) والإدراك ، فيصبح من ثم اسما لحالة توافقية من حالات تشكل المادة ، وتصبح المعرفة الناتجة عن هذه الحالة التوافقية حالة عرضية مفتقرة إلى أى مبرر يدعونا إلى اتخاذها حكماً على حقيقة الوجود ، ومن ثم تصبح المادية بالرغم من أصحابها نوعاً من اللاأدرية فلا تجد ملجأ إلا فى الاستناد إلى الضرورة العملية ، وهذه الضرورة كما قلنا سند للإيمان بالله والدين .

وبالله التوفيق . .

دكتور يحيى هاشم حسن فرغل

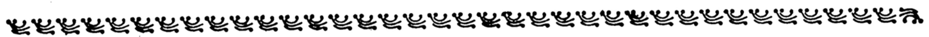


مما قيل فى حفظ اللسان

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى
وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرىء
فكلك عورات وللناس ألسن

فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
وفارق ولكن بالتى هى أحسن



لماذا يُقتل المسلمون

دكتور عبد الودود شلبي

أحياناً يتبلد عقل الإنسان ويتوقف عن العمل ، أبحث عن سبب كامن يعلل هذه الظاهرة فلا أجد شيئاً أستند إليه فى تعليل هذا الموقف .. فالإنسان هو الإنسان . يسمو أحياناً إلى درجة من الصفاء والشفافية حتى ليرى كل ما حوله من الدنيا هباء لايوزن بكلمة ، وأحياناً يهبط إلى درك من الضياع والخمول حتى ليكاد يفقد الإحساس بذاته ونفسه وكثيراً ما أمر بهذه الظاهرة من غير سبب واضح لحدوث هذه الظاهرة ! أو ربما لأحداث مسبقة استنفذت منى كل جهد وطاقة ثم أطلقتنى إلى الحياة أتيه فى دروبها الموحلة بحثاً عن الحقيقة الضائعة ، وكم عانيت كثيراً قبل أن أكتب هذا المقال الذى يجىء عرضاً بغير قصد ولا إرادة ، وأذكر فى صباح هذا اليوم أننى سألت صديقاً أن يعيرنى عقله — لفترة قصيرة — أستأنف فيها رحلة البحث عن السر فى هذا التبلد الكثيف فى العقل والعاطفة —!

كانت دعابة — أردت بها تصوير واقعى فى قصة طريفة غير أن هذا الصديق لم يأخذ حديثى مأخذ الجد الذى يفرض عليه مناقشة هذه القصة . . وحملنى هو الآخر هموم نفسه التى لا تقل عن همومى كثافة وغلظة . . ! .

إنها مأساة يمر بها الفكر فى عالمنا العربى الملىء بالغرابة ، وهى مأساة تفرض نفسها على كل ذى إحساس من الناس يعيش هذه الفترة من تاريخ الإسلام والعروبة .

غير أنى تعودت فى ساعات الضيق والشدة أن أعيش مع الكتب بعد اللجوء إلى الله بالضراعة والتوبة . . فكثيراً ما سمعت عن أتقياء شيوخنا أن المعصية تذهب بعقل الحكيم حتى لا يكاد يفرق بين النار والجنة ! ! !

ومن هنا يسوء خلق الإنسان وتتغلب

عليه الأنانية والشراهة . . ويتحول إلى كائن غريب عن الإنسان والإنسانية . .

حتى الكتب . . تحولت فى عينى إلى كتل من الورق جامدة . . ما هذا الذى يجوس فى حناياى هذه اللحظة ؟ . . أمسك بالكتاب فلا يكاد يستقر بين يدى إلا ويعود ثانية إلى مكانه فى المكتبة . . وأقلب بصرى هنا وهناك فلا يستقر هذا البصر على أمر يوحى بالأمن والطمأنينة ومن جديد . . أعود إلى أوراقى القديمة فتصادفنى قصاصة من تلك القصاصات التى أحتفظ بها دائماً لوقت الحاجة

لقد لفت نظرى عنوانها المثير وموضوعها الأكثر فزعاً وإثارة .

كانت هذه القصاصة صورة لمقال نشرته مجلة « درشبيجل » الألمانية عن الحرب الأهلية اللبنانية وما يتعرض له المسلمون فى هذا البلد من قتل وإبادة وكما يقول محرر مجلة « درشبيجل » :

لو استطلعنا الواقع اللبنانى واقتربنا من دور المسيحيين اللبنانيين ودوافعهم فى الحرب الأهلية التى تدور رحاها الآن على أرض لبنان . وعدنا إلى الوراء قليلا لوجدناهم حاربوا إلى جانب الجنود الصليبيين ضد جيرانهم المسلمين .

ولكن أثناء الاستعمار الفرنسى بعد الحرب العالمية الأولى ، تصاعد نجمهم حتى صاروا من الطبقة الحاكمة فى البلاد . والآن يريدون أن يدافعوا عن سلطانهم بكل الوسائل الممكنة . .

إن أطفالهم يرددون وهم يشيرون إلى مئذنة مسجد قرية « لاسا » : « (انهم هناك لديهم مدافع . ولكننا لن نرحمهم إذا فكروا فى إطلاق النار علينا . . فالسلطة والقوة هنا . .) . . وهنا . . تعنى عندهم قرية قرطبا التى تقع على ارتفاع ١٢٠٠ م فوق جبال لبنان ، وتبعد عن بيروت حوالى ساعتين بالسيارة : وعدد سكانها فى الأوقات العادية حوالى ألف نسمة . . ويزيد عددهم إلى أكثر من ألفين فى العطلات الصيفية حيث يهاجر بعضهم إلى المدن الدافئة شتاءاً ويعودون إليها صيفاً مع أطفالهم ولكن الآن من خلال ظروف هذه الحرب الأهلية الطاحنة وصل عدد سكانها إلى ما بين أربعة آلاف أو خمسة آلاف نسمة ، لأن عدداً كثيراً منهم قد هاجر من بيروت وطرابلس ولجأ إلى القرية . فجميع سكان قرطبا حيث ترتفع تسع كنائس للمارونيين أكبر الفئات المسيحية اللبنانية نفوذاً . . وهؤلاء اللاجئون ليسوا من الفقراء . إذ أنهم منذ أن أقفرت شوارع الحمراء من روادها

اكتظت شوارع قرطبا بسياراتهم الفخمة يجوبون الشوارع سيارة تلو الأخرى وبجوارهم الفتيات الجميلات المتحليات بأغلى الجواهر والرافلات بأحدث الموديلات .

والشباب قليل فى هذه القرية . . فمعظمهم الآن يحارب مع الميليشيا المسيحية فى بيروت ، والبعض الآخر يتلقى التدريبات فى الجبال استعداداً للانضمام لصفوف ميلشيا الكتائب ، ذلك الحزب الذى تأسس سنة ١٩٣٦ على النمط الإسبانى .

ومما يلفت النظر . . منظر فتاتين بملابسهما الخضراء الداكنة « اللون المميز للكتائب » تجوبان شوارع القرية فى سيارتى (جيب) جديدتين لا تحملان أرقاماً وتتنقلان من بيت إلى بيت تجمعان التبرعات لمحاربى الكتائب .

والجميع يعطى بسخاء . . فواكه . . بيضاً . . بصلاً . . لحوماً . . وأيضاً الكثير من النقود . وعلى الرغم من كل ذلك تصرخ الفتاتان فيهم : إنكم بخلاء . .

اللعب بالرشاشات :

ومن عادات سكان الجبال عندما يبلغ أطفالهم تلك السن التى تخول لهم تناول العشاء (سن العاشرة) تهدى إليهم المدافع الرشاشة بدلا من لعب الأطفال — والزهور . . وهؤلاء الأطفال بدورهم يطالبون بإلحاح بالاشتراك فى الحرب الأهلية ولكن بيير الجميل يعدهم قائلا : « انتظروا فسوف نستدعيكم عندما نحتاج إليكم » .

وهذا قد يحدث قريباً لأن تلك الحرب الأهلية التى اندلعت نيرانها يتضاعف عدد ضحاياها بسرعة مذهلة . ففى خلال ستة شهور سقط حوالى ستة آلاف قتيل وثمانية عشر ألف جريح . . ولو دققنا النظر فى هذا العدد الهائل من القتلى والجرحى بالنسبة لعدد سكان لبنان البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة لكانت نسبة عدد القتلى والجرحى فى هذه الشهور الستة تفوق أضعاف ما فقدته أمريكا بالنسبة لعدد سكانها طوال سنوات الحرب فى فيتنام . . إن حياة الكلب فى لبنان أكثر قيمة من حياة الإنسان لأن الكلب يستطيع أن يجوب شوارع بيروت دون أن يصاب بالرصاص . أما الإنسان فلا يستطيع ذلك . .

شعب ينتحر :

وفى غمرة الحرب الطاحنة يحطم اللبنانيون مقومات حياتهم . . المحلات التجارية . . الأسواق . . البنوك . . المصانع . . الفنادق . . وسائل النقل

وقد بلغت الخسائر حتى الآن ستة مليارات ليرة . إن هذا الشعب ينتحر! . . وكل ما تستطيع الحكومة عمله هو حصر الجثث والضحايا . . ومعظم الضحايا من المسلمين ! . . الطبقة المغلوبة على أمرها فى لبنان إذ أن الميليشيا المسيحية أحسن تنظيماً وتدريباً وقوة . ولكن المستقبل للمسلمين لأنهم مرتبطون بلا شك بالعالم العربى حولهم ، وهذا ما يعلمه المسيحيون ، ولذا فهم يتذكرون دائماً البيض فى جنوب أفريقيا فبرغم أقليتهم ، فهم الطبقة الحاكمة والمسيطرة فى البلاد ، وكما حدث فى أفريقيا فيبدو أن التطور التاريخى سوف ينتصر فى النهاية . .

وقد اتهم المطران « غريغوار حداد » مطران بيروت الطائفة الكاثوليكية إخوانه فى الدين المارونيين بأن لديهم عقدة القتل بالجملة . . وعقدة القتل بالجملة هذه لها أسبابها . . فقد جمع مسيحيو لبنان أنفسهم ما بين القرن الخامس والسابع الميلادى فى المكان المعروف الآن بلبنان . وأثناء التوسع الإسلامى انسحبوا إلى جبال لبنان وحافظوا على شخصيتهم وأطلقوا على أنفسهم لقب المارونيين نسبة إلى القديس « مارون » ولكن الجبل أصبح سجناً كبيراً لهم . وفى أثناء الحروب الصليبية انضموا إلى صفوف الجيوش الصليبية وحاربوا معهم ضد جيرانهم المسلمين وقدموا للغزاة شتى أنواع المعونة ، ومكافأة على خدماتهم أعلن القديس « لودفيج » الفرنسى حمايته لهم ١٢٥٠ وأعطاهم نفس حقوق أتباعه .

وقد تغير حال المسيحيين بعد الحرب العالمية الأولى عندما هزم الفرنسيون الأتراك وحلوا محلهم فى إدارة لبنان . إذ أنهم رأوا فى المسيحيين إخواناً لهم فى الدين وعوناً لهم فى الحرب ضد القومية العربية . وأصبح المسلمون هم الذين يتضورون جوعاً فى شوارع طرابلس . وصارت تفرض ضرائب باهظة على المدن الإسلامية . . فى حين شيدت مدارس الإرساليات فى « زغرتا » وأصبح معظم أفراد الجيش اللبنانى من المسيحيين ، وقد استغل المسيحيون هذه الظروف وصاروا يرسلون أولادهم إلى المدارس العليا فى أوروبا والغرب وأصبح لهم اتصالات بالدول الصناعية الغربية المتقدمة وصار لهم متاجر ومحلات عديدة وسبقوا مواطنيهم المسلمين فى التعليم وطريقة الإنتاج . وارتفع مستوى حياتهم كثيراً. والآن وبعد بضع عشرات من السنين

صارت المعادلة السارية المفعول هى :

مسيحى + تعليم = رخاء . .

مسلم + جهل = فقر . .

لقد أظهر الميثاق الوطنى سنة ١٩٤٣ والذى تم بين المجموعات المختلفة ما لتلك المجموعات من سلطان وقوة . . فالمسيحيون الذين كانوا يتمتعون بأغلبية طفيفة فى ذلك الوقت أسند إليهم منصب رئيس الدولة وقائد الجيش وصار لهم ٥٤ مقعداً فى البرلمان من أصل ٩٩ مقعداً وأصبح لبنان هو البلد العربى الوحيد الذى ليس الإسلام فيه دين الدولة الرسمى .

ولقد عبر الشاعر المسيحى « سعيد عقل » عن هذا بقوله : « إن لبنان هو قلعة أوربا فى آسيا . . والواحة الغربية وسط الصحراء الشرقية والأفريقية » . .

وبينما كانت أنظار مسيحي لبنان موجهة ناحية الغرب ، وكانوا يحلمون بحرب صليبية أخرى .

كانت أنظار المسلمين متجهة نحو الشرق وكان مثلهم الأعلى هم أبطال العرب المسلمين .

إن لبنان يجرى تقسيمه اليوم إلى أقسام للمسلمين وأخرى للمسيحيين . . والبعض يحلم بنظام المقاطعات كما فى سويسرا . . أما أعداء فكرة التقسيم فإنهم يهددون كل من يحاول تقسيم البلاد بالموت « الموت لكل من يريد تجزئة بلادنا » . . ولقد أخذت الطبقة المسيطرة المسيحية مواقع دفاعية . . وفى نهاية سبتمبر عندما تشكلت لجنة مصالحة من جميع الأحزاب واجتمعت هذه اللجنة صمتت الأسلحة فى بيروت وفى أحياء المسلمين ترك المسلحون أماكنهم خلف الحواجز وتدفق الناس من مساكنهم وفجأة أقيم السوق واكتظ بالناس . . أما فى الأشرفية فلم يترك المسيحيون أماكنهم خلف التحصينات وأخذ ينظر الكتائبيون إلى كل حركة تحدث فى قطاع المسلمين بنظرة من الشك والريبة متخيلين أنها فخ نصب لهم . . وعندما اتجهت لجنة المصالحة إلى أحد الأحياء انهمر الرصاص على أفرادها من كل صوب وسقط أحد أعضائها قتيلا . . وفى إحدى القرى المارونية فى الجبال سأل أحد الفلاحين زواره من الأوربيين « إذا أطبق المسلمون على رقابنا فهل ستمدون إلينا يد العون والمساعدة كما قدمناها لكم أيام الحروب الصليبية ؟ ! »

لقد كتب جوردن جاسكيل — فى مجلة « ريدرز دايجست » : تحت عنوان « لبنان واحة الشرق الأوسط » — يقول :

« يقول المثل : ألق حجراً على أى حشد لبنانى وستكون واثقًا من أنك ستصيب أسقفًا واحداً على الأقل ..!

إن بيروت تزخر بالأساقفة ، وبها اثنان من الكرادلة الكاثوليك ، وهى المدينة الوحيدة التى تجمع مثل هذا العدد فيما عدا روما ، وذلك فضلا عن جيش ضخم من البطاركة والكهنة والأرشمندريت . .

ولم كل هذه المحاولة . . ؟ من أجل تنصير لبنان وإنشاء وطن قومى مسيحى يكمل الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

فإذا لم ينجح هذا الأسلوب فليس هناك إلا الذبح والاستئصال للتغلب على المسلمين[1] » . .

لقد اتضح من وثيقة عثر عليها بأحد الأديرة منـــذ خمسين عامًا أن الذى يحدث للمسلمين اليوم جزء من خطة إجرامية تستهدف تصفية الإسلام والمسلمين فى لبنان الشقيقة ! ! !

وتنفيذ هذه الخطة يعتمد أولا وبالدرجة الأولى على القوى الخارجية التى تساند القتلة والخونة فى أرجاء العالم الإسلامى والعربى مستغلة ظروف القهر والتخلف التى فرضت على المسلمين نتيجة تخليهم عن مصدر القوة والعزة فى دينهم . وهذه الوثيقة السوداء يتكرر صدورها وظهورها فى أنحاء مختلفة من الوطن العربى بصيغ جديدة — وأسلوب أكثر وضوحًا ووقاحة . . ! ! !

ومهما كانت هذه القوى التى يعتمد عليها الموتورون والخونة فإن مصيرها إلى زوال قريب جدا . . وكما انتهى « المعلم يعقوب » الذى شكل من أبناء « جلدته » كتيبة لضرب الشعب المصرى أثناء ثورته ضد الفرنسيين . . فلسوف تنتهى هذه القوى الشريرة نهاية « المعلم » الذى هلك على ظهر بارجة حربية فرنسية ، ثم ألقى به إلى البحر فى برميل خمر فارغ حتى لاينجس أرض فرنسا بأدران الخيانة وميكروب العار والكراهية . .

ولقد أثبت التاريخ أن المسلمين بالرغم مما أصابهم ، وبالرغم من الجحود والعقوق الذى يكافأون به من مواطنيهم كانوا أكثر الناس سماحة ، وأرحمهم قلبًا فى مواقف القصاص والعقوبة ، وكما يقول (جوستاف لوبون) لم يعرف التـــاريخ فاتحين كانوا مثل العرب وما أصيب العرب والمسلمون إلا من هذه

(١) انظر كفاح دين : ص ٤٣ — الطبعة الأولى للشيخ محمد الغزالى .

السماحة التى جرأت شراذم « الشعوب التى عاشت تحت حكم الرومان عدة قرون أهدرت فيها قيمة الإنسان ، وقيمة الحياة ، وقيمة الشرف والعرض وحين دخلوا تحت حكم الإسلام ردوا من جديد إلى الحياة ، ودبت فيهم الروح فلم يحفظوا جميله ولم يرعوا عهده ، وكانوا حرباً عليه وعلى أهله . .

يقول التاريخ :

لقد ثار بعض سكان لبنان على عاملها « على بن عبد الله بن عباس » فحاربهم وانتصر عليهم ، ثم رأى من الحكمة أن يفرقهم ويقضى فريقاً منهم — إلى أماكن أخرى وهذا ما يفعله اليوم أى حاكم فى أرقى الأمم — فما كان من الإمام الأوزاعى . إمام أهل الشام إلا أن كتب إلى والى لبنان ينكر عليه ما فعل من إجلاء بعض الناس عن قراهم ومعاقبة من لم يشترك فى الثورة كمن اشترك فيها وكان مما كتب إليه فى ذلك قوله :

« كيف تؤخذ عامة الناس بذنوب بعض الناس . . . وحكم الله (ألا تزر وازرة وزر أخرى) . . وهو — أى حكم الله — أحق ما وقف عنده واقتدى به . . وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فإنى خصمه يوم القيامة » .

فما كان من والى لبنان إلا أن ردهم إلى قراهم معززين مكرمين .

فهل يعى هذا « بيير » و « شمعون » وأشباههما فى الوطن العربى من الأبالسة والشياطين ! ! .

د . عبد الودود شلبى

قال تعالى :

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم
من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .

الحج

بين الفورية والتراخي

الدكتور محمد محمد الشرقاوي

فرضيته ووجوبه :

جاء الأمر بالحج إلى البيت الحرام على المستطيع القادر المستجمع لشرائطه المقررة ، وذلك فى الآية الكريمة (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) فصار بها الحج فرضا مقدساً ، وواجباً محتوماً ، وركنا أساسياً من أركان الإسلام الخمسة المحكمة التى لم ولن يلحقها نسخ أو تعديل أو تأويل : وهى الشهادتان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج ، ومعنى الآية : إن الحج حق واجب لله تعالى فى رقاب الناس لا ينفكون عنه إلا بالآداء ، والآية الكريمة تشعر المتمعن فى أعماقها بمؤكدات ثلاثة :

١ – إبدال كلمة (من استطاع) من كلمة (الناس) مما يفيد ذكر الشىء مرتين : مرة بطريق العموم وأخرى بطريق الخصوص وهو ضرب من التوكيد .

٢ – ما اشتملت عليه من إبهام يعقبه إيضاح حيث قد ذكرت الحج فى صورتين مختلفتين صورة مبهمة فى الناس كل الناس ، وصورة موضحة فى المستطيع منهم دون غيره وهو لون من ألوان التفخيم المفيد للأهمية والتأكد

٣ – وضع كلمة (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) موضع (ومن لم يحج فإن الله غنى عنه) للإغلاظ على تارك الحج بغير عذر .

ويرى الجمهور من الفقهاء أن الحج فرض فى السنة السادسة من الهجرة . . وقد تأخر حج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السنة العاشرة لحكم ملحوظة : منها أن الطريق إلى الحج لم يكن ميسوراً ممهداً لإعاقة المشركين له . . ومنها

أن يوم عرفة لم يكن قد استقر فى وضعه الطبيعى الذى فطره الله عليه يوم خلق السماوات والأرض . . إذ كان توقيته مضطرباً بسبب النسىء الجاهلى للأشهر الحرم . . ومنها علمـه بأنه سيبقى حتى يحج بالناس فى الوقت المناسب إتماماً للبلاغ ، وتعليماً للمناسك . . فلم يكن التأخير فيه تعريض لفوات الحج ، وقيل شرع سنة خمس من الهجرة . . روى الإمام أحمـد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال (بعثت بنو سعد ضمام بن ثعلبة — وافداً فى شهر رجب سنة خمس — وقيل ست — فذكر له صلى الله عليه وسلم فرائض الإسلام : الصلاة ، والصوم والحج) ويرى ابن القيم فى — الهـدى أنه فرض سنة تسع أو عشر على الخلاف فى ذلك .

وقد فرض الحج مرة واحـدة فى العمر . . وما زاد فهو نفل وتطوع . . لأن النص القرآنى السابق لا يفيد تكراراً . . إذ مطلق الأمر لا يدل على حتمية التكرار لعدم الدليل على ذلك ، وعدم الدليل يفيد عدم الحكم بوجوب التكرار ، ويجعل الحج فى عدد مراته على الإباحة الأصلية ، وإن كان مأموراً به فى الجملة . . وكان من الممكن أن يفهم هذا من إطلاق النص القرآنى ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزلت تلك الآية : (يأيها الناس حجوا البيت) . إلا أن صحابياً سأله صلى الله عليه وسلم قائلا : (الحج فى كل عام أم مرة واحدة ؟ . . فقال صلى الله عليه وسلم : لا . . بل مرة واحدة . . فما زاد فهو تطوع) فأفاد ذلك الحوار التنصيص على عدم وجوب التكرار . . فكان السؤال حسناً ، والجواب أحسن لأن إثبات النفْى بعبارة النص . . أقوى من إفادته بمضمون العبارة . . لأنه يبدد كل احتمال فى وجوب التكرار . . روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يأيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل — هو الأقرع بن حابس كما فى مسند أحمد وسنن الدارقطنى والمستدرك للحاكم — أكل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . . ثم قال : ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . . فما أمرتكم بشىء

فاتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) .

وهذه الحجة الواحدة المفروضة فى العمر كله يجب الوفاء بها على الفور وبدون إبطاء أو تأجيل ، ولا مماطلة أو تسويف . . فمتى توفرت شروط وجوبها وصحتها أصبح وجوبها وجوباً مضيقاً احتياطاً ، وتأخيرها عن أول سنوات إمكانها وتيسرها يوجب إثم التأخير وهذا الإثم يستتبع الفسق ورد الشهادة عند أبى يوسف لأنه يعرض الفريضة فى حال التسويف والتريث إلى الفوات والضياع إذ لا يدرى . . أيعيش إلى حين إدراكها مرة ثانية فى وقتها المحدد . . أم يسرع إليه الموت قبل أن يقضى أربه . . ؟ فشهور الحج الذى لا يصح إلا فيها محدودة بشوال وذى القعدة وعشر من ذى الحجة وهذه فترة مقيدة بنص الشارع الحكيم (الحج أشهر معلومات) واحتمالات الموت متساوية مع احتمالات الحياة فيما وراء هذه الأشهر من سائر السنة ذات الفصول الأربعة . . والأمزجة المتخالفة ، والتقلبات الخطرة ، فاحتمال الموت فى أثنائها وارد لانادر ، ويجب الاحتياط له ، والحذر منه ، وذلك بتقديم الطاعة والمبادرة بالعمل . . والمسارعة إلى الحج قبل أن تخلفه المقادير فيذهب إلى غير رجعة . .

وشرائط الحج فى جملتها : (الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والوقت المخصوص والقدرة على الزاد والمواصلة لغير أهل مكة زائدة عن نفقة عياله إلى أن يعود وأمن الطريق ووجود الزوج أو المحرم أو الرفقة المأمونة بالنسبة للمرأة إذا بلغ سفرها ٩٠ كيلومتراً تقريباً) ، والأمر بالحج فى حد ذاته لا يفيد إشعاراً بالفورية ولا بالتراخى كما يقول علماء أصول الفقه — لأن مطلق الأمر لا دليل فيه على شيء من ذلك ، وإنما تستفاد الفورية أو التراخى من دليل أو قرينة مصاحبة ، وهذه القرينة هى الاحتياط فى أداء الواجبات وهى أمر ظنى مجتهد فيه يكفى فى إثبات الوجوب لا الفرضية . . فيكون الحج فريضة ، والتعجيل به واجباً ، وخلو العمر منه يوجب إثماً . . وهذا الإثم يظهر عقيب السنة الأولى من الاستطاعة على الرأى الصحيح المروى عن أبى يوسف رحمه الله تعالى وهو المذهب الراجح عند المالكية والحنابلة ونقل عن أبى حنيفة ما يفيد ذلك . . فقد ذكر ابن شجاع عنه : أنه سُئل عمن له مال أيحج به أم يتزوج ؟ فقال : بل يحج . . وذلك

دليل على أن الوجوب عنده على الفورية ووجه دلالته : أن التزوج تحصين للنفس عن الحرام الذى قد يتعرض له غير المتزوج أحيانًا ، فإذا اشتغل بالحج عن الزواج فقد فوّت هذا التحصين الواجب ، ولا يفوت الواجب إلا بواجب أقوى منه فلو لم يكن الحج فوريًا لما أمر به مع إمكان أدائه فى وقت آخر لأن المال غاد ورائح ، فإطلاق الجواب عن أبى حنيفة بتقديم الحج على الزواج الذى قد يجب فى بعض الأحيان دليل على أن الحج لا يجوز تأخيره عند اكتمال شروطه . . ويزيد صاحب التجنيس الأمر وضوحًا فيقول : (إذ كان له مال يكفى للحج وأراد صرفه فى شراء ما يحتاج إليه من مسكن أو خادم أو خاف العزوبة فأراد أن يتزوج به . . إن كان قبل خروج أهل بلده إلى الحج يجوز لأنه لم يجب الأداء بعد ، وإن كان وقت الخروج فليس له ذلك لأنه قد وجب عليه) .

ويرى الشافعى ومحمد من الحنفية : أن الحج فرض على التراخى وأن من حق كل مكلف به أن يؤجله إلى أىّ سنة شاء بحيث لا يخلو منه العمر فى النهاية، وليس فى التأخير إثم والشافعى يشترط لجواز التأجيل للحج شرطين :

١ — ألا تخاف فوت الحج لكبر السن .

٢ — ألا يخاف فوته لضياع المال ، أما محمد فيرى أن له أن يؤخره إلى ما قبل موته فإن أدركه الموت قبل الحج ظهر أنه كان آثمًا منذ تأخيره عن السنة الأولى من الاستطاعة — على الرأى الراجح .

ويحتج أبو يوسف ومن ذهب مذهبه على فورية الحج ووجوب التعجيل به ووقوع الإثم بالتأخير . . فإن حج بعد ذلك ارتفع الإثم السابق بما يلى :

١ — بحديث رواه الخمسة وحسنه الترمذى : عن عكرمة عن الحجاج ابن عمرو الأنصارى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كُسِر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل ، قال عكرمة فسألت ابن عباس وأبا هريرة رضى الله عنهما عن ذلك فقالا : صدق) والمتعارف أن لفظ قابل يفيد السنة التالية وهو يدل على فوريّة الأداء .

٢ — وجوب الاحتيـــاط فى أداء التكاليف الشرعية على وجه لا يفوت معه أداؤها ما دام عرضة للفوت .

ويحتج الشافعى ومن لف لفّه : بأن العمر كله وقت لأداء الحج فلا يختص بسنة دون أخرى ، وأن مثل الحج فى

وقته كمثل الصلاة فى وقتها . . فكما أن للمصلى إيقاع صلاته فى أول الوقت وفى آخره بدون إثم يلحقه فى التأخير . . فكذلك الحج .

وبعد ، فقد ظهر من العرض السابق أن الحج فريضة بلا خلاف ، وأن الخلاف وقع فى فورية الحج ، وأن أبا يوسف وراجح المذهب عند المالكية والحنابلة وما أفاده قول أبى حنيفة يجنحون إلى وجوب أداء الحج فوراً ، وأن التراخى فى أدائه يوجب إثماً يرتفع إذا أداه فيما بعد ، وأن أبا يوسف يجعل هذا الإثم موجباً للفسق ولرد الشهادة . . حتى يحج ، وأنه لو مات بدون حج كان آثماً ، وأن إثمه يبدأ بعد أول سنة أمكنه فيها الحج ولجأ فيها إلى التسويف ، وأن الشافعى ومحمداً يريان أن الحج واجب على التراخى ، وإن كان التعجيل أفضل .

وإذا أنعمنا النظر فى أدلة الطرفين وجدنا أن رأى أبى يوسف ومن معه أرجح دليلا ، وأكثر احتياطاً ، وأقرب إلى الفقه . . فالحج ركن أساسى فى الإسلام ، وله وقته المحدد فيجب الاحتياط فى أدائه فى أول فرصة تسنح للمكلف لأن التأجيل غير مأمون العواقب ، والسنة طويلة المدى ، بعيدة الأطراف وليست كوقت الصلاة القصير الذى لا ينتابه الموت إلا نادراً . . أما السنة المتعددة الفصول ، المتناقضة الأحوال . . فهى أكثر تعرضاً لمصيبة الموت من وقت الصلاة فقياس أحدهما على الآخر قياس مع الفارق ، والقرآن الكريم يحذرنا من عاقبة التسويف فى أعمال الطاعة ولا سيما المفروضة منها فى آيات كثيرة (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) ومنها (سـابقوا إلى مغفرة من ربكم) (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) ومنها (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون) .

والشاعر الحكيم يقول :

كل امرئ مصبحٌ فى أهله
والموت أدنى من شراك نعله

ويقول آخر :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

فلو فاجأ الموت المسوفين فى الحج فما عذرهم عند ربهم ؟ وهل تنفعهم

النية على الحج بدون عمله ؟ أم هل تنفعهم الوصية بالحج عنهم حين موتهم ؟ مع أن الحج عن الغير مشروط بالعجز الدائم أو المرض المزمن أو الشيخوخة الفانية التى لا تمكن صاحبها من الحج فى وقت الحج . . والحج هنا يخالف كلا من الزكاة وقضاء الصوم الواجب حيث يجوز التعجيل بهما كما يجوز التراخى فيهما لأن كلا منهما غير مؤقت بميقات زمنى ثابت فالعمر كله وقت لأدائهما وإن كان الأفضل الإسراع بهما خوف الفوت . . أما الحج فله وقت معين لا يجوز أداؤه قبله ولا بعده فى غير أشهره . . فكيف يأمن من يؤخره الفوات، أو يُمنِّى النفس بالعيش دون ممات .

إحرامه وفلسفته :

يعتبر الإحرام فاتحة أعمال كل من الحج أو العمرة .. أو هما معًا .. بحيث لا يصح شرعًا الشروع فى النسك المذكور إلا بعد أن يحرم المحرم . . فهو بالنسبة للنسك كتكبيرة الإحرام مع النية للصلاة . . فكما أن الصلاة لايصح انعقادها شرعًا إلا بمجموع النية القلبية ، والتحريمة الظاهرية . . فكذلك الإحرام فى الحج والعمرة لا يتم فيه العمل . . ولا ينعقد به النسك إلا بمجموع أمرين : النية بالقلب . . والتلبية باللسان التى تقوم مقام التحريمة فى الصلاة . . وقد يقوم مقام التلبية أى ذكر آخر للتعظيم عند الحنفية وإن كانت التلبية أفضل(ولفظها الأصح : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) . . ولا مانع من الزيادة عليها ببعض المأثورات خلافًا للشافعى فى رواية الربيع عنه حيث اعتبره شبيهًا بالأذان والتشهد . . إلا أنه ثبتت الزيادة على هذه الصيغة . . فابن مسعود رضى الله عنه زاد : لبيك عدد التراب لبيك ، وزاد أبو هريرة وغيره فى رواية النسائى عنه : لبيك إلاه الخلق لبيك ، والرغباء إليك لبيك ، لبيك من عبد آبق لبيك ، وفى رواية أثبتت زيادة : لبيك حقًا حقاً تعبداً ورقًا : إلا أن الصيغة الأولى أولى لأنها محل إجماع الرواة ولذا لاينبغى النقصان منها وزاد ابن عمر : لبيك وسعديك والخير بيديك . . وذكر التلبية إجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقد روى أنه لما فرغ من بناء البيت أمر بأن يدعو الناس إلى الحج فصعد أبا قبيس وقال : ألا إن الله تعالى قد أمر ببناء بيت له

وقد بنى . . ألا فحجوه . . فبلّغ الله صوته الناس فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم فمنهم من أجاب مرة ومرتين وأكثر من ذلك على حسب جوابهم يحجون . . ويؤيد هذا قوله تعالى : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا . . وقد يقوم مقام الذكر ما يفيد حصول المقصود ، وهو إظهار الإجابة للدعوة وذلك مثل تقليد الهدى ، وكان الشافعى فى رأيه الأول يرى أن النية وحدها كافية فى انعقاد الاحرام قياساً على الصوم ، لأن كلا منهما يقصد به الكف عن ارتكاب المحظورات ، وقد ردّ عليه بأن إحرام الحج والعمرة يخالف الصوم . . فالصوم ركنه الأساسى الكف عن المباحات الخاصة ، فكان الكف فيه ركناً أساسياً مقصوداً بالذات . . أما فى الحج والعمرة فالإحرام التزام بأعمال معينة كالطواف والسعى والوقوف والرمى وفى ضمنها الكف عن ارتكاب المحظورات فلم يكن الكف مطلباً أساسياً مقصوداً . . وفى رأى الشافعى الأخير أنه لابد مع النية من حصول التلبية ولا يجزىء عنها أى ذكر آخر لقول عائشة رضى الله عنها : (لا إحرام إلا لمن أهل ولبّى) — والحنفية يرون أن كل ثناء وتسبيح يقوم مقام التلبية فى ظاهر المذهب وإن كان يحسن التلبية ولو بغير العربية لحصول المقصود وهو إجابة الدعوة ، وباب الحج أوسع من باب الصلاة حتى قام غير الذكر فى الحج مقام الذكر كتقليد الهدى . . فكذا يقوم غير التلبية مقامها ، ويقوم غير العربية مقامها ، وحديث عائشة موقوف عليها .

مفهوم الإحرام :

هو الدخول فى شىء محرم بعد الإحرام كان حلالا قبله ، وهذا الشىء المحرم على من شرع فى أداء أحد النسكين أو كليهما محصور فيما يأتى :

١ — الجماع ودواعيه للرجال والنساء .

٢ — إزالة الشعر بأى صورة كانت وفى أى موضع كان للرجال والنساء .

٣ — لبس المخيط على وجه لبسه المعتاد ويشمل الخفين ومثله العمامة والعصابة للرجال فقط أما النساء فيجوز لهن لبس ذلك من سائر الثياب التى لا تنفض طيباً ولا عطراً .

ولا بد فى الخفين بالنسبة للرجال أن يستر ما دون الكعب ، والكعب هنا هو المفصل الذى فى ظاهر أعلى القدم ويسمى بالشراك . . وهو غير الكعب

فى باب الوضوء لأنه العظم الناتئ على جانب القدم ويعفى عن أحزمة حفظ النقود وما لا بد من حفظه كما يجوز التمنطق بالسيف ونحوه ويكره شد الإزار والرداء بحبل ونحوه .

٤ – التطيب للرجال والنساء .

٥ – تقليم الأظفار للرجال والنساء .

٦ – الاصطياد فى البر لما يؤكل لحمه وما لا يؤكل للرجال والنساء وكذا الإشارة إلى الصيد أو الدلالة عليه .

٧ – الادهان للرجال والنساء .

٨ – المرأة لا تضع ساتراً على وجهها والرجل لا يضع ساتراً على رأسه ولا وجهه وفى الوجه خلاف الشافعى لما روى عن ابن عمر موقوفاً – كما عند البيهقى والدارقطنى – : (إحرام الرجل فى رأسه وإحرام المرأة فى وجهها) وقول الصحابى حجة فيما لم يخالف فيه وخصوصاً فيما لم يدرك بالرأى ، وللمرأة أن تلبس حليها وسائر أنواع الملابس والخفاف وألوانها .. وهناك مطلب عام : وهو التقوى ومجانبة الرفث والفسوق والجدال فى الحج .

والعبادات منها ما له تحليل وتحريم كالصلاة والحج ، وما ليس كذلك كالزكاة والصوم ، فتحريم الصلاة بالنية مع التكبيرة وتحليلها بالسلام ، وتحريم الحج والعمرة بالنية مع التلبية أو ما يقوم مقامها ، وتحليلهما بواحد من ثلاث :

١ – الفراغ من أعمال النسك الذى أحرم به .

٢ – أعمال العمرة لمن فاته الحج بعد الإحرام به .

٣ – ذبح الهدى فى حال الإحصار .. وفى الأحوال الثلاث لا بد من القضاء .

وظاهر كلام جمهور الفقهاء أنه يشترط التلفظ بنية النسك ، وإن كان لم يسمع ولم يرو أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بلسانه حجاً أو عمرة حين أهل . . مما دعا صاحب المحيط من الحنفية إلى القول بأن التلفظ باللسان حين الإحرام بالحج أو العمرة مستحب ، ونص محمد على أنه شرط وهو الراجح بخلاف الصلاة فإن وقتها يحددها فى الإرادة . . أما وقت الحج فهو وعاء له أو للعمرة أو لهما فلا بد من التحديد باللفظ الذى تنعقد به العقود .

من حكمة الإحرام :

قال فى النهاية : (اعلم أن البيت لما كان معظماً جعل له حصن هو مكة ، وجعل للحصن حمى هو الحرم ،

وجعل للحرم حرماً هى المواقيت . . حتى لا يجوز لمن دونه أن يتجاوزه إلا بالإحرام تعظيماً للبيت الحرام) . .

وفى فتح القدير ج ٢ : ١٣١ : (وذلك كما تراه فى المشاهد من ترجل الراكب القاصد إلى عظيم من الخلق ، إذا قرب من ساحته خضوعاً له . . فكذا لزم القاصد إلى بيت الله تعالى أن يحرم قبل الحلول بحضرته إجلالا ، فإن فى الإحرام تشبهاً بالأموات ، وفى ضمن جعل نفسه كالميت سلب اختياره ، وإلقاء قياده متخلياً عن نفسه ، فارغاً عن اعتبارها شيئاً من الأشياء فسبحان العزيز الحكيم) .

فالمقصد الظاهر لنا هو تعظيم تلك البقعة الشريفة ، ومن وراء ذلك حكم وأهداف عليا قد لا تصل إليها مداركنا المحدودة .. ولذا كان من الواجب الحتمى على من دخل مكة حاجاً أو معتمراً أو لغير حج أو عمرة كما يرى الحنفية تعظيم هذه البقعة على التفصيل الآتى :

١ ــ من جاء من خارج المواقيت المكانية المحددة ــ وهى لأهل المدينة ومن سلك مسلكهم ذو الحليفة ولأهل الشام الجحفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ، ولأهل اليمن يلملم ، ولأهل العراق ذات عرق وكذا لكل من مرّ بها من سائر الخلق ــ لا يجوز له مجاوزتها إذا انتهى إليها إلا محرماً ، وله أن يقدم الإحرام عليها من أماكن نائية وفى ذلك زيادة أجر ومثوبة ، فقد ثبت أن ابن عمر رضى الله عنهما أحرم من بيت المقدس ، وعمران بن حصين رضى الله عنه أهلّ من البصرة ، وابن عباس من الشام ، وابن مسعود من القادسية . . وكل من تنكب مساراتها فعليه أن يحرم إذا حاذاها أى كان على مستوى خط عرضها . . وهذا يعرف بالاجتهاد ، فإن لم يعرف فعلى مرحلتين من مكة أى حوالى ستين كيلومتراً .

٢ ــ من سكن هذه المواقيت أو سكن فى الأراضى الواقعة بعدها إلى حدود الحرم يجوز دخولهم مكة بدون إحرام إذا لم يقصدوا نسكاً ــ لكثرة ترددهم وحاجتهم إلى ذلك ودفعاً للحرج عنهم ــ أما إذا قصدوا نسكاً فلا بد أن يحرموا به من حيث أقاموا فى دويرة أهلهم.

٣ ــ من سكن داخل الحرم بما فى ذلك مكة جاز دخولهم مكة بدون إحرام أيضاً إذا لم يقصدوا نسكاً فإن قصدوا الحج أحرموا من دويرة أهلهم أى من مواضع سكنهم ، وإن

قصدوا عمرة خرجوا إلى الحل كالتنعيم مثلا وأحرموا بها منه ، وساكن مكة إذا خرج فى حاجة إلى ميقات من المواقيت ودخله ولم يجاوزه جاز رجوعه إلى مكة بدون إحرام دفعًا للحرج . . فإن جاوز الميقات لم يكن له أن يدخل مكة إلا بإحرام .

ويرى الشافعى أن الإحرام لا يجب إلا على من دخل مكة ماراً بالميقات وهو يقصد نسكًا .. أما إذا قصد قتالا فليس عليه إحرام، وإن قصد عملا آخر فعنه روايتان مستدلا بما رواه مسلم والنسائى (أنه صلى الله عليه وسلم دخل يوم الفتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام)، وقد رد عليه بأن هذه خصوصية بدليل ما رواه الشافعى نفسه فى ذلك اليوم من خطبته يوم فتح مكة : (مكة حرام لم تحل لأحد قبلى ولا لأحد بعدى، وإنما حلت لى ساعة من نهار ثم عادت حرامًا إلى يوم القيامة) .

وإذا وجد ميقات متقدم وآخر متأخر فالعبرة بما قرب من مكة ، ومن ركب الطائرة التى تمر على المواقيت أو بإزائها . . فإن أمكنة خلع ملابسه وإتمام إحرامه قبل مجاوزته آخر الميقات فعل ذلك فى الطائرة ، وإن لم يتسع له الوقت لعامل السرعة أو لأى عامل آخر وجب عليه أن يبدأ الإحرام قبل إقلاع الطائرة أو فيها ما دامت فى أوائل الرحلة . . .

د . محمد محمد الشرقاوى

قال تعالى :

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير .

صدق الله العظيم

التربية السلوكية في المدرسة العسكرية الإسلامية

للواء محمد جمال الدين محفوظ

لكل جيش من جيوش العالم نظمه الخاصة به فى التربية السلوكية لرجاله ، والتى تستهدف تحويل المواطن الذى ينخرط فى سلك القوات المسلحة من شخص «مدنى» إلى شخص «عسكرى».. فالمجتمع العسكرى له طابعه الخاص ويتميز بتقاليد خاصة يلتزم بها كل أفراده فى سلوكهم سواء داخل ثكناتهم أو خارجها ، وسواء فى السلم أم فى الحرب . وأهم ما تستهدفه التربية السلوكية عند طبع المواطن المدنى بالطابع العسكرى هو أن يصبح المواطن منضبطاً فى سلوكه ، منظماً فى عمله ، مطيعاً لأوامر قادته ، نظيفاً وحسن المظهر ، وأخيراً أن يصبح مقاتلا شجاعاً ذا إرادة قتالية صلبة .

والجيوش عندما تضع نظمها ودساتيرها فى التربية السلوكية لرجالها نراها تعتمد إما على دوافع سياسية أو أيديولوجية أو مادية أو على قوة القانون .

لكن أغلب هذه النظم التى صب فيها الخبراء والمربون والقادة كل علمهم وخبراتهم ما زالت قاصرة عن تحقيق أهدافها على الوجه الأكمل ، فما زالت الدول تواجه كثيراً من مشكلة الجندية مثل التهرب من الجندية لأداء الواجب الوطنى ، ومشكلات الغياب عن الثكنات بغير إذن ، والتمارض بعد التهرب من التدريب أو أداء الواجبات ، والهرب من الجيش أثناء الحرب إلى غير ذلك من المشكلات .

ونسمع كثيراً عن لجان عليا من أكبر الخبراء فى العلوم السلوكية والقيادة العسكرية تشكل لبحث هذه المشكلات ومحاولة علاجها والقضاء عليها ، لكن ، مهما أجهد الخبراء والعلماء أنفسهم

وفكرهم فى وضع نظم التربية السلوكية أصلا أو فى البحث عن حلول لمشكلات الجندية . فإن الطريق الذى يؤخذ من توجيهات الإسلام هو أمثل الطرق ، وأضمنها وأحكمها على الإطلاق .

والسر فى تفوق المنهج الإسلامى للتربية السلوكية العسكرية هو أنه لا يعتمد على دوافع سياسة أو مذهبية أو مادية أو على قوة القانون كما هو الحال فى المناهج الأخرى ، بل يعتمد على دوافع أكثر عمقاً وأقوى أثراً من تلك الدوافع ، لأن جذورها تنبت فى التكوين النفسى والاجتماعى للمسلم ، وترسخ فى وجدانه عن اقتناع وإيمان لأنها وسيلة إلى مرضاة الله .

فهناك — على سبيل المثال — كثير من الدول تعتمد فى دعوة أبنائها إلى الانخراط فى سلك الجندية على « الدافع الوطنى » ونراها تعمل بكل اهتمام على تنمية حب الوطن وغرس الروح الوطنية فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم .

لكن : ما « الوطنية » وما « الدافع الوطنى » إلى جانب « إعلاء كلمة الله » أو « الجهاد فى سبيل الله » وهو الدافع الإسلامى؟؟

لا شك فى أن « الدافع الإسلامى» أكثر عمقاً وأقوى أثراً . . لأنه إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن كله من قوة ، فما أكثر ما يزيدها الإيمان بالوجود كله ، وبخالق الوجود كله من قوة .

ولعل أكبر دليل على قوة الدافع الإسلامى وتميزه وتفوقه ، شدة إقبال المسلمين الأوائل على الانخراط فى الجندية ملبين لداعى الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فكانوا فى المعركة مقاتلين لا يقهرون ، ولا يهابون الموت ، بل لقد كانت الشهادة عندهم أملا يسعون إلى الظفر به ، وشرفاً يتوقون إلى نيله .

أخرج ابن سعد عن سعد رضى الله عنه قال : رأيت أخى عمير بن أبى وقاص رضى الله عنه قبل أن يعرضنا (يستعرضنا) رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، يتوارى ، فقلت ما لك يا أخى ؟ قال : إنى أخاف أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى فيردنى (أى يعيدنى إلى المدينة) وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقنى الشهادة ، قال : فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرده ، فبكى ، فأجازه . . فكان سعد رضى الله عنه يقول : فكنت أعقد حمائل سيفه من

صغره (أى أعقد حمالات سيفه ، لتقصيرها حتى تناسب سنه الصغير) . فقتل وهو ابن ست عشرة سنة ؟؟

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : عرضت على رسول الله يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى ، ثم عرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى !

ورد الرسول يوم أحد ، زيد بن ثابت والبراء بن عازب وعمرو بن حزم وأسيد بن ظهير ، ثم أجازهم يوم الخندق وهم فى الخامسة عشرة . . !

ومنع الرسول صلى الله عليه وسلم شابين وهما ابنا خمسة عشر عاماً من الخروج للقتال وهما سمرة بن جندب الفزارى ، ورافع بن خديج أخا بنى حارثه ، فقيل للرسول إن رافعاً رام (أى يجيد الرمى) فسمح له[1] ، ثم قيل له إن سمرة يصرع رافعاً فسمح له كذلك .

فماذا دعا أولئك الشبان وهم فى تلك السن (الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) إلى الانخراط فى سلك الجندية والقوات المحاربة إلا حبهم للجندية ، وفهم أهدافها النبيلة ؟

ويقول عبد الرحمن بن عوف : « إنى لنى الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال له أحدهما سراً عن صاحبه : ياعم ، أرنى أبا جهل . فقلت : يا ابن أخى ، ما تصنع به ؟ فقال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونة . . . . . وقال لى الآخر سراً من صاحبه مثله ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتى قتلاه » . . وقد استشهد هذان البطلان فى بدر وهما عوف ومعوذ ابنا الحارث الخزرجى الأنصارى .

وهذا هو حنظلة بن أبى عامر ، الذى زفت إليه عروسه ، ثم سمع المنادى يقول : يا خيل الله اركبى (يعنى يأيها المجاهدون اركبوا خيولكم للخروج للقتال) فانتزع نفسه من الفراش وقام معجلا ليأخذ مكانه فى صفوف المجاهدين ، وقضى الله أن يستشهد، فلما انتهت المعركة ، طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه وقال لها :

---

(١) وقد ورد أن رافعاً أخذ يتطاول على أطراف أصابع قدميه ليوهم الرسول أنه بلغ مبلغ الرجال فيسمح له بالقتال بعد أن قيل له إنه رام .

حدثيني عن آخر عهدك بحنظلة ، فأجابت المرأة : كان بيني وبين حنظلة ما يكون بين الرجل وزوجه ، ولكنه سمع الهيعة (أى النداء للحرب) فنهض مسرعاً قبل أن يغتسل . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيت الملائكة تغسله بالأمس فى صحاف من فضة بماء المزن بين السماء والأرض » .

هكذا تكون التضحية والإرادة القتالية ، وهكذا تكون التربية التى تصنع الشباب المؤمن القوى القادر على مواجهة التحديات الجسام ، فلا غرابة فى أن نرى الصبيان يسارعون فى الجهاد حماية للدين وحمية للوطن واقتداء بآبائهم وذويهم .

والتاريخ الإسلامى يشهد بأن جيش الإسلام لم يصادف ما صادفته جيوش العالم قديماً وحديثاً من مشكلات تتعلق بالجندية كالتهرب منها أو التمارض أو الفرار من المعركة ، ولم يرد فى تاريخ هذا الجيش العظيم أن جندياً من جنوده قد أفشى سراً حربياً أو لجأ إلى العدو أو والاه سراً أو جهراً .

كل ذلك يشهد على أن منهج الإسلام فى التربية السلوكية لرجال الجيش لا يتسامى إليه أى منهج موضوع مما أنتجته وتنتجه عقول الخبراء والعلماء ، ولعل أهم ما يميز منهج الإسلام الخصائص التالية :

١ – ارتباطه بالدين وبمبادئه وذلك يوفر للمنهج ثباتاً واستقراراً لأن الدين دائماً أثبت وأدوم من السياسة أو المذهب.

٢ – النبل والشرف والعدل فى الغايات والوسائل لأن المنهج الذى يرتبط بغير الدين معرض دائماً للخضوع للمصالح والأهواء والأطماع .

٣ – احترام حرية الفرد وكرامته ، فهو منهج يقوم على الإقناع والاقتناع ولا يقوم على القهر والإرغام ، وذلك لأنه مستمد من مبادئ الدين نفسه (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)[1] – (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)[2]– (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[3].

وإن من أهم المعايير التى يقاس بها

---

(١) البقرة ٢٥٦ .
(٢) النحل ١٢٥ .
(٣) الأسراء ٧٠ .

مدى نجاح الأنظمة والدساتير ، نظرة كل منها إلى « الحرية » باعتبارها من أهم القضايا التى تمس الفرد والمجتمع إن لم تكن أهمها على الإطلاق . . إن الذين يساقون لا يمكنهم يوماً من الأيام أن يكونوا قادة فكر ، ولا أبطال جهاد ، كيف لفاقد الشيء أن يعطيه؟

لقد كتب الجنرال چان بيريه[1] يقول : « إن العنصر الأول للتربية العسكرية هو تطبيق انضباط حازم وعادل ودائم ، إذ يتطور هذا التطبيق بعد مدة ليصبح فى أول الأمر عادة ، ثم يتحول إلى تذوق . . ولكن هذا الانضباط يفقد قيمته ويغدو معيقاً مذلا إذا كانت نتيجته تحطيم إرادة المرءوسين وإذابة شخصيتهم ، لأننا لا نحارب مع نفوس ضعيفة ، أو مع عبيد أو آلات ، ولكننا نقاتل مع رجال بكل فى هذه الكلمة من معان نبيلة ، وكلما صعدنا على سلم التسلسل تزايد ضرر وخطر الانضباط الذى يؤدى إلى قتل كل فكرة مستقلة ، ودفن كل مبادأة » .

٤ — ومما يتميز به أيضاً منهج الإسلام فى التربية السلوكية تنزيه المسلم عن دوافع المفاخرة أو حسب الظهور أو الرغبة فى الثناء ، فهو لا يستحق الجنة ولا يجد ريحها إلا إذا كان جهاده خالصاً من أجل إعلاء كلمة الله . فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل للشجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ ، فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

٥ — وكذلك يتميز المنهج الإسلامى بأنه ينمى فى الفرد ضميره الدينى ، فيولد لديه بذلك « الدوافع الذاتية » للطاعة والسلوك السليم ولأداء الواجب على أكمل وجه دون انتظار لرقيب يراقب عمله ويدفعه إليه لأن الله هو الرقيب المطلع ، ونراه لا يبتغى غير مرضاة الله .

٦ — واخيراً وليست آخراً فإن منهج الإسلام فى التربية السلوكية لا ينحصر فى الإطار العسكرى فحسب ، بل يمتد ليشمل الأمة بأسرها ، وذلك بمقتضى عقيدة «الجهاد » التى هى تكليف للامة بأسرها .

لواء . محمد جمال الدين محفوظ

(١) فى كتابه بعنوان « الذكاء والقيم المعنوية فى الحرب » .

من المثل التى درست ..

الفتوة الصوفية

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلى القرنى

حين تصطرع المطامع تصطبغ الحياة بلون أرجوانى قاتم ، وتسود الأنانية فى الناس فتملى عليهم إرادتها ؛ فلا يتحدثون إلا بلغة « الأنا » ولا ينظرون إلا بمنظار النفعية ، ولا يتصرفون إلا بمنطق الانتهازية والوصولية . عند ذلك نترحّم على أيامنا الخوالى حيث كانت المثل العليا طبيعة النفوس وغاية الحياة ومسلك الغالبية العظمى من الناس ، كانت الأخلاق الإسلامية التى اعتنى بها الصوفية هى القاعدة والتخلى عنها هو الاستثناء .

الفتوة الصوفية :

ولقد ضرب الصوفية المثل الأعلى فى التفانى والإخلاص ونكران الذات حتى تفردوا بخلق من أخلاق الأنبياء : هو الفتوة .

والفتوة : لفظ يهدى إلى معناه ، فهو يعنى القوة الحقيقية التى تضمحل أمامها أهواء النفس ونزعات الشيطان وصغائر الأمور ، وتمكن الإنسان من أن يقف مع الحق مهما تكبد فى سبيل ذلك من مشاق أو صادف من عقبات ، ولذلك وصف الله بها سيدنا إبراهيم — عليه السلام — حين كسر الأصنام فى قوله تعالى : « قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له : إبراهيم » فقد تحدى جموع الكفر ولم يثنه عن عزمه ضلالهم وبهتانهم . وقد فهم الصوفية من ذلك إشارة لطيفة فقالوا — كما ورد فى الرسالة القشيرية — : الفتى من كسر الصنم ، وصنم كل إنسان نفسه اقتداء بسيدنا إبراهيم الذى جعل الأصنام جذاذاً ، فمن خالف هواه فهو فتى حقيقة .

ووصف الله « أهل الكهف » بهذه الصفة : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » لأنهم هجروا الكفر إلى الإيمان ، واختاروا الخمول على السلطان ،

ونأوا بجانبهم عن الدنيا الفانية رغبة فى الأخرى الباقية .

ووصف النبى — صلى الله عليه وسلم — بها أخاه ووصيه الإمام عليا — كرم الله وجهه — فقال : لا فتى إلا علىّ . لأنه افتداه بنفسه ووضع فى سبيل الحق روحه على كفه ، بل لأنه استطاع أن ينتصر على نفسه حين كان يمكنه القضاء على عدوه بأدنى خطة ، ولكنه كان يعذره دائماً ويهيىء له سبل الدفاع عن نفسه حتى لا يغلبه عن عجز ، وكان فى الإمكان أن يعامله بمثل معاملته ، ولكنه أبت نفسه الفتية إلا أن تعلو وترتفع حتى لا يساميها فى ذلك عـدو أو قريب ، ومن أمثلة ذلك ما يقصه العقاد فى عبقرية الإمام : من أن معاوية غلب على الماء فحال بين أصحاب علىّ وبينه . فغالبهم علىّ حتى غلب ، فلم يكن كمعاوية بل كان كأنما هو سفير معاوية وجنده يتشفع لهم ، وصاح بأصحابه : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » فكم من الناس تسنح له فرصة الانتقام من عـدوه ولا يهتبلها ؟ ولكنها الفتوة الحقيقية والفروسية الكاملة التى كانت مفتاح شخصية الإمام رضى الله عنه .

الفتوة صفة جامعة :

والفتوة صفة جامعة لكل فضيلة ، فأساسها معرفة الله — عز وجل — وإيثار رضوانه على كل ما عـداه ، وهى إلى جانب ذلك تعنى العزم والإقدام وإفناء الذات فى سبيل المجموع ، وتتطلب الإيثار والبذل والمحبة والتغاضى عن السيئات والهفوات ورد العدوان والمظالم والتحلى بالكرامة والعزة والبعد عن مواطن الشبهات والرذائل .

ومن أقوالهم الرائدة فى ذلك ما أُثر عن الفضيل بن عياض : « لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة ، وإنما أدرك بسخاء النفس وسلامة الصدر والنصح للأمة » .

والسرى السقطى رضى الله عنه يقول : « أربع من أخلاق الأبدال : استقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة الصدر للخلق والنصيحة لهم » ويقول : « حسن الخلق : كف الأذى عن الناس واحتمال الأذى منهم بلا حقد ولا مكافأة » .

والحارث المحاسبى يقول فى المعنى نفسه : « حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب وبسط الوجه وطيب الكلام » .

ومن أقوال الكرخى : «السخاء إيثار ما يحتاج إليه عند الإعسار» .

وسئل أبو حفص النيسابورى : هل للفتى علامة ؟ فقال : نعم ، من يرى الفتيان ولا يستحى منهم فى شمائله وأعماله فهو فتى . ومعنى لا يستحى منهم : أى لا يكون فى أخلاقه أو سلوكه ما يوجب الاستحياء ، بل دأبه الكمال وتقصى جميع أسباب الفضائل .

والفتوة كما يقول شاه الكرمانى : هى من طباع الأحرار ، ويقابلها — فى رأيه — اللؤم الذى يعده من شيم الأنذال .

ومن تمام الفتوة : صيانة السر وخاصة مع الله سبحانه وتعالى — سئل البلخى عن الفتوة ؟ فقال : حفظ السر مع الله على الموافقة وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة واستعمال الخلُق .

ويقول علىّ بن أبى بكر الأهوازى : إن أصل الفتوة ألاّ ترى لنفسك فضلاً واحداً .

ومما يرويه القشيرى فى رسالته : أن شفيقاً البلخى سأل جعفر بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شفيق : إن أعطينا شكرنا وإن مُنعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل : فقال شفيق : يا بن بنت رسول الله : ما الفتوة عندكم ؟ فقال جعفر : إن أُعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا .

الفتوة والمروءة :

وتقترن الفتوة بالمروءة ، والمروءة تقضى كما يقول الجنيد : أن لا تُنافر فقيراً ولا تعارض غنيًّا ، بل المروءة شعبة من الفتوة كما يقول النصرأباذى .

ولكن البيرونى يرى : أن الفتوة أعم من المروءة ، فالمروءة تقتصر على الرجل فى نفسه وذويه وماله ، أما الفتوة فأعم من ذلك .

والفتوة تعنى فى نظر سهل بن عبد الله اتباع السنة ، وهى الوفاء والحفاظ ، وهى كما يقول غيره : صفة تأتيها ولا ترى نفسك فيها . وهذا المعنى قمة إنكار الذات .

من أقاصيص الفتوة :

ومن أقاصيص الصوفية التى تضرب المثل الكامل فى الفتوة ما يرويه القشيرى فى رسالته عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه . قال : قيل : إن رجلا نام بالمدينة من الحاج فتوهم أن هميانه سُرق ، فخرج فرأى جعفراً الصادق فتعلق به وقال : أخذت هميانى ؟ فقال

له جعفر : ماذا كان فيه ؟ فقال : ألف دينار ، فأدخله داره ووزن له ألف دينار ، فخرج الرجل إلى منزله ودخل بيته فرأى هميانه فيه . فعاد إلى جعفر معتذراً ورد الدنانير . فأبى جعفر أن يقبلها وقال له : ليس من الفتوة أن أسترد شيئاً أخرجته من يدى .

ومما يرويه الغزالى فى « إحيائه » أن بعضهم تزوج امرأة ذات جمال ، فلما قرب زفافها أصابها الجدرى ، فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها .

فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب ، حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن فبقيت عنده عشرين سنة ، ثم توفيت .

وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الطبع فكان يصبر عليها . فقيل له : لم لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها .

فهذه أمثلة نادرة من الفتوة تحكى كيف توصل أصحابها إلى سياسة نفوسهم وحملها على ما تكره فى الدنيا لتصفو لهم آخرتهم من كل كدر.

وليست هذه مغالاة ولكنها عادة تعودوها بالممارسة حتى أصبحت طبيعة وسجية وهم فى ذلك سائرون على قدم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم .

سَبَّ رجل ابن عباس — رضى الله عنهما — فلما فرغ قال : يا عكرمة ، هل للرجل حاجة فنقضيها ؟

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فرد عليه بكل هدوء : ليس نقبل شهادتك ، ولو أن شخصاً غير عمر سمع ذلك كيف كان يرد ؟

وسبّ رجل علىّ بن الحسين بن علىّ الملقب بزين العابدين ، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد عن الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى المدح بعد الندم . اشترى جميع ذلك بشىء يسير .

فانظر كيف فعلت الفتوة بأصحابها، بل انظر إلى هذه القصة التى رواها صاحب اللمع : مر على بعض المشايخ أيام ولم يأكل شيئاً ، وكان فى بلد غريب

حتى كاد يتلف ولم يسأل ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : منعنى من السؤال قول النبى صلى الله عليه وسلم : لو صدق السائل ما أفلح مَنْ رده ، وكرهت أن يردنى مسلم فلا يفلح لقول النبى صلى الله عليه وسلم !

فقد منعته الفتوة عن معالجة نفسه بطلب لقمة خوفاً من أن يترتب على ذلك بوار مَنْ يرده ، وهذه ملاحظة دقيقة لا يفطن إليها إلا من أدب نفسه بأدب الرسول صلى الله عليه وسلم وأشرب قلبه حب حديثه والتمسك بسنته وإحياء آدابه .

وهذه القصة توضح لنا صفة الفتوة فى حال الفقد ، فكيف يكون حالها فى الوجد ؟ ؟

حكى أبو عبد الله الحصرى رحمه الله تعالى قال : مكث أبو حفص الحداد رحمه الله بالرملة وعليه خرقتان وفى وسطه ألف دينار وهو يمكث اليومين والثلاثة والأربعة ، وأبى أن يأكل منها وهو يواسى الفقراء منها إلى أن فنيت عن آخرها !

وحكى جعفر الخلدى رحمه الله تعالى قال : كان ابن زيرى من أصحاب الجنيد رحمهما الله تعالى ، وكان قد فتح عليه شىء من الدنيا فانقطع من الفقراء ، فاستقبلنا يوماً فى كمه منديل فيه دراهم كثيرة ، فلما رآنا من بعيد قال : يا أصحابنا إذا كنتم أنتم ، متعززين بالفقر ونحن متعززون بالغنى فمتى نلتقى ؟ قال : ثم رمى إلينا بجميع ما كان فى كمه !

وقال الحصرى : خرجت مع الشبلى فى أيام القحط نطلب شيئاً لصبيانه ، فدخل على إنسان فأعطاه دراهم كثيرة ، قال : فخرجنا من عنده وكمى ملأى من الدراهم ، فكلما لقينا إنساناً من الفقراء أعطاه منه ، حتى لم يبق إلا القليل فقلت له : يا سيدى ، الصبيان فى البيت جياع فقال لى : ماذا أصنع ؟ فبعد الجهد اشتريت شيئاً من الخبز والجزر بما بقى من الدراهم وحملته إلى صبيانه .

إن هذا ليذكرنا بأم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها حين حمل إليها مال ، وكانت صائمة فجعلت تتصدق به حتى أفنته ! فقالت لها خادمتها : لم يبق شىء نشترى به ما نفطر عليه ، فقالت السيدة عائشة : لو ذكرتنى لفعلت .

من آداب الفتوة :

ومن تمام الفتوة : مراعاة الصداقة والإخلاص للرفقاء والأصحاب ، حكى

عن الجنيد أنه كان يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

وإذا كان أحد الصاحبين تاجراً فليس من الفتوة أن يأخذ كسباً لما يشتريه صديقه منه — : ورد فى الرسالة القشيرية : كان فتى يسمى أحمد بن سهل التاجر وقد اشتريت منه خرقة فأخذ رأس المال، فقلت له : ألا تأخذ ربحا ؟ فقال : ليس من الفتوة أن تربح على صديقك .

ومما يقصه ذو النون فى أخلاق المتصوفة : لما حُملت إلى الخليفة فيما نسب إلىّ من الزندقة رأيت سقاء عليه عمامة وهو متّرد بمنديل مصرى وبيده كيزان خزف رقاق ، فقلت : هذا ساقى السلطان ؟ فقالوا : لا ، هذا ساقى العامة ، فأخذت الكوز وشربت ، وقلت لمن معى : أعطه دينارا ؟ فلم يأخذه وقال : أنت أسير ، وليس من الفتوة أن نأخذ منك شيئاً !

ويدور الزمن دورته ، وتبتلى الأمة الإسلامية بمناوئيها : فتجد من أصحاب النجدة والفتوة الصوفية من يلبى نداءها فى محنتها — ومما يرويه صاحب كتاب أعلام التصوف فى ذلك : أن القاضى الفاضل صفى صـــلاح الدين الأيوبى ومؤرخه يقول : إن صلاح الدين كان إذا مالت به موازين النصر فى ساحات القتال أمر بالأبواق أن تضرب وأمر المنادين أن يصيحوا أهل الفتوة ؟

ويذكر ابن بطوطة فى رحلتـــه بالأناضول : أنه قابل جماعة من أهل الفتوة كانوا يقيمون فيما يشبه التكايا ، وشعارهم الكرم والحدب على الغريب ونصرة الضعيف والأخذ على يد الظالم !

الفتوة واجب دينى :

وتمسك الصوفية بالفتوة تنفيذ عملى لما يمليه عليهم واجبهم الدينى الذى استقوه من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فهو إمامهم الذى على نهجه يسيرون وبهديه يقتدون . فمن الإسلام كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم « أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك، وأن تفرج ضائقته وأن تواسيه فى شدته وأن تؤثره على نفسك » وقد ضرب بالأنصار المثل الكامل ، فى الإيثار ، وكرّمهم القرآن الكريم بقوله : « يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ٥٩ : ٩ » .

ولأن الفتوة من أخص صفات

الإسلام التى تحلى بها الصوفية لم يستطع أحد من خصومهم أن ينكرها عليهم ، بل امتدحها فيهم دون أن يسميهم ، ومن ذلك قول ابن تيمية فيما ذكره المرحوم طه عبد الباقى سرور فى كتابه أعلام التصوف جـ١ : « صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ الفتوة عن مكارم الأخلاق كقول بعضهم : الفتوة أن تقرب من يعصيك وتكرم من يؤذيك وتحسن إلى من يسيء إليك سماحة لا كظماً ومودة لا مسايرة ، وقول بعضهم : الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى وإظهار النعمة وإسرار المحنة ، وأمثال ذلك، فهذه أمور حسنة مطلوبة سميت فتوة أم لم تسم » .

حاجتنا إلى الفتوة :

لقد استهوت الفتوة الصوفية بمبادئها الكريمة السمحة طوائف مختلفة من الأمة فتجاذبت هذه المبادئ ، ولكنها بكل أسف أصبحت الآن مجرد — شعارات جوفاء لا تطبيقاً عملياً كما كان الصوفية يفعلون ، ويا حبذا لو نفذت هذه المبادئ إلى شغاف القلوب وأصبحت حقيقة واقعة فى حياة الناس بمختلف مهنهم وطوائفهم ومراتبهم ، إذن لتغير وجه الأرض ولأصبح الحال غير الحال .

نحن فى حاجة إلى التاجر الفتى الذى لا يكون الربح من حله وحرامه هو هدفه الأسمى ولا الاستغلال الجشع رائده الأعلى .

ونحن فى حاجة إلى الموظف الفتى الذى لا يحاول المراوغة فى عمله أو التهرب من مسئوليته .

ونحن فى حاجة إلى العالم الفتى الذى تكون الحقيقة الخالصة نصب عينيه ، يطلب العلم لوجه العلم ولا يخشى فى سبيل ذلك عنتاً ولا بطشاً ولا يكون مقصده من ورائه جاهاً أو غنى أو منصباً ورحم الله الجرجانى الذى يقول :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعُظِّما
ولكن أذلوه جهاراً وسودوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

والحديث عن فتوة الصوفية يطول ، هؤلاء الذين ثبتوا أقدامهم فى طريقها وصححوا قصدهم عليها والتزموا بآدابها فكشفت لهم عن مكنون سرها وأوصلتهم إلى غاية الغايات وهى معرفة الله تعالى . فقد هانت عن طريقها متاعبهم وصغرت فى أعينهم تضحياتهم ، وعظم قدر الناس جميعاً فى أنظارهم لأنهم مظهر قدرة الواحد . فعظموهم إعظاماً لله وخدموهم

إكراماً له واعتدوا هذه الأعمال منة من الله عليهم ، يقول أبو عبد الله محمد ابن أحمد المقرى : الفتوة حسن الخلق مع من تبغضه وبذل المال لمن تكرهه وحسن الصحبة مع من ينفر قلبك منه . وهل هناك أشق من هذا ؟

أما حسن الخلق مع من نحب وبذل المال لمن نصافى وحسن الصحبة مع من نقبل عليه فليس بمستغرب بل هو الحاصل والمفروض ، ولكن الغريب العجيب الذى يحتاج إلى قوة الإرادة وكمال العزيمة فهو الإحسان إلى المسيء وإكرام العدو ومباركة الذى لا تحبه عن سماحة وقدرة ، تلك دعوة نجد صداها فى القرآن الكريم حين يدعونا إلى حسن الخلق « ادفع بالتى هى أحسن السيئة ٢٣ : ٩٦ » .

وهذا من تمام الفتوة ..

وأبو القاسم المقرئ يقول : الفتوة رؤية فضل الناس ونقصانك . وذلك تصور شريف لا يقل روعة عن كلام شقيقه السابق[١] فهو يستل داء الأنانية من النفوس ويقضى على شهوة التسلط والأثرة والرغبة فى الشهرة الزائفة وبعد الصيت الزائل .

أثر الفتوة :

والفتوة لها أثر كبير فى الطريق الصوفى فهى تعمل على إحياء المراقبة وتحرى الصدق ومحاسبة النفس أولا بأول . سئل أبو الحسن البوشنجى عن الفتوة ، فقال : حسن المراعاة ودوام المراقبة وألا ترى من نفسك ظاهراً يخالف باطنك . وهى من أجل ذلك كان لها أثر فى ارتياد المقامات الصوفية والتحقق بها ، فقد ورد عن أبى الحسن النيسابورى : أصل الفتوة خمس خصال : أولها الحفاظ ، الثانى الوفاء ، الثالث الشكر والرابع الصبر ، والخامس الرضا .

* * *

ما أجدر مجتمعنا اليوم بأن يتلفت إلى هذه الفضيلة ليقتبس من نورها عله يجد فى ذلك راحة له من عناء وهداية له من ضلال وسكينة له من اضطراب ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل . . .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

(١) انظر صفحة ١٤٦٦ الماضية .

ابن الحنفية والأحزاب المتصارعة

الأستاذ / السيد حسن قرون

كان يتوضأ حين بلغه مقتل أخيه الحسين بن على رضى الله عنهما ، فبكى بكاء مراً ، فتساقطت دموعه فى الماء حتى كان لها صوت يسمع ، ولم يدر فى خلده أنه من اليوم مسئول عن الشيعة وبنى هاشم معاً . إنه محمد بن على بن أبى طالب المشهور بابن الحنفية . نسبة إلى أمه فهى من بنى حنيفة ، وقد تفتحت عينا محمد منذ عقل على مجد أثيل ، ومحتد أصيل ، وأب له فى الجهاد عن الإسلام بذل كبير ، فشب بين أخويه الحسن والحسين ، ولقى من العناية ما لقيا ، فكان قوى الجسم ذكى الفؤاد أهلا لقيادة الجيوش وتحمل التبعات ، وإنْ فضل أبوه عليه أخويه لأنهما لفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان يأمرهما برعاية حقه ، وعرفان فضله .

شارك محمد أباه فى جميع شئونه وحروبه — وأبوه خليفة المسلمين يومئذ فكان على رايته فى موقعة الجمل ، وكان معه فى صفين ، وكان قريباً منه حين قتل ، واشترك مع الحسن والحسين — وعبد الله بن جعفر فى محاكمة (ابن ملجم) قاتل أبيه ، وها هو ذا يمتحن بزعامة الشيعة ورياسة بنى هاشم ، وكان يود من صميم قلبه لو سبق الحسين ولم يعش بعده ، فلا تزال الأرض فى زلزال عنيف منذ معركة كربلاء : المدينة ثائرة وجيوش يزيد تدمرها ، ومكة غاضبة والجيوش تحاصرها ، والفتنة نار لا يخمد أوارها ، والصيحات فى جميع الأنحاء تصلك أُذنه وتملأ الجو حوله ، يريدون منه أن يقول كلمته فيها ، فمثله يجب ألاّ تُقضى الأمور دونه ، كأنه غائب وهو حاضر ، ويُسأل : ماذا تكون العواقب ؟ فيقول كلاماً لا يقرّب ولا يبعّد ، ويتكلم عن الخلافة بكلام ينفرد به ، ويختص بكلماته ، يقول للشيعة « زعمت العرب أن لها فضلا على العجم ؟ فقالت العجم : ولم ذاك ؟ قالوا :

كان محمد عربياً ؟ قالوا : صدقتم . قالوا : وزعمت قريش: أن لها فضلا على العرب ؟ فقالت العرب : وبم ذا ؟ قالوا : قد كان محمد قرشياً .. فإن كان القوم قد صدقوا فلنا الفضل على الناس» .

ومعنى هذا: أنه يؤمن بأن الخلافة من حق الهاشميين من دون قريش والناس جميعاً وكان هذا يقتضى: أن يعلن الثورة على منافسيهم ، ويقود الشيعة لحرب ضروس ، ويستغل مقتل أخيه (الحسين) كما استغل معاوية مقتل عثمان ، ويملأ الدنيا بكاء ونداء .. ويسيل الوادى بجنوده وبنوده ، ولكنه استدعى لدمشق؟ فأجاب ، ورجع منها يذكر يزيد بن معاوية بالعبادة والتقوى ، ويخيل إلىّ أن يزيد أظهر نسكاً ولزوماً للمسجد مدة ضيافته ، وصدّق ابن الحنيفة ما رأى ، فأنكر عليه عبد الله ابن عباس..أن يصف يزيد بما ليس فيه ، وبإيمان عميق يتحدث عن الخلافة كثيراً ، فتارة يقول لبعض أتباعه : إلزم هذا المكان ، وكن حمامة من حمام الحرم حتى يأتى أمرنا ، فإنّ أمرنا إذا جاء فليس به خفاء ، كما ليس بالشمس إذا طلعت خفاء، وما يدريك إن قال لك الناس: تأتى من المشرق ويأتى بها الله من المغرب؟ وما يدريك إن قال لك الناس: تأتى من المغرب ويأتى الله بها من المشرق ؟ وما يدريك لعلنا سنؤتى بها كما يؤتى بالعروس ؟ من أحبنا نفعه الله وإن كان فى الديلم ! وتارة يقول : رحم الله امرأ أغنى نفسه ، وكف يده ، وأمسك لسانه ، وجلس فى بيته : له ما احتسب ، وهو مع من أحب ؟ ألا إن أعمال بنى أمية أسرع فيهم من سيوف المسلمين ؟ ألا إن لأهل الحق دولة يأتى بها الله إذا شاء ، فمن أدرك ذلك منكم ومِنّا كان عندنا فى السنام الأعلى ، ومن يمت فما عند الله خير وأبقى .

ولو كنت ممن يفسرون الإشارات ، ويؤمنون بالمهمات لقلت : إنه يشير إلى المستقبل حيث تقوم شيعة العباسيين من خراسان وتقوض ملك بنى مروان ، وحيث تقوم دولة الأدارسة والفاطميين فى المغرب . أكان ذلك منه ضرباً من الأمانى الحسان ؟ وكيف تأتى ؟ هل سأل هذا السؤال وفكر فى جوابه ؟ لو فكر لعلم أن أخاه الحسين كان على حق فى ثورته وخروجه فلا يمكن أن تجىء إليه الخلافة منقادة بالأحاديث المهومة والأمانى الحالمة !؟

أنسى ما جرى فى سقيفة بنى ساعدة فلو خرج إلى الأنصار: (على) ما جرؤ أحد على تخطيه ! ولكنه لم يخرج ؟ ولو

صنع عبد الله بن الزبير صنيعه لما اهتز الكرسى تحت يزيد ومن بعده مروان وعبد الملك، ولما تعرض للمحن التى تؤرقه وتعذب أصحابه . ويمتحن بعبد الله بن الزبير، فابن الزبير يريد بيعته ليقوى مركزه على بنى أمية ، ويكثر عدد جنوده بانضمام الشيعة إليه، لكن ابن الحنيفة لا يستجيب ولا يبايع ، ويصر ابن الزبير على مبايعته ويصر هو على الامتناع ، فيقسو ابن الزبير فيتخذ إجراءات مشددة ضده .

وكانت سنة ٦٤ ﻫ سنة ميمونة على ابن الزبير ، مات يزيد ومات معاوية بن يزيد وأصبحت الدولة الإسلامية فى قبضة يده ما عدا الأردن ففيها بنو أمية وأتباعهم ولو استجاب لقائد جيش الشام فخرج معه إلى دمشق لقضى على بنى أمية واستوى عبد الله بن الزبير على دست الخلافة ، وكان دعاته يعلنون أنه اختيار عثمان رضى الله عنه يوم الدار . والنجاح يجلب الأنصار ، صار ابن الزبير مقصد الناس لماله وجاهه ، وممن جاءه ليكون له عضدا (المختار بن أبى عبيد الثقفى) وكان فتى طموحاً ، يختلف إلى ابن الحنفية تارة وإلى ابن الزبير تارة أخرى . أما ابن الحنفية فيراه امرأ سوء ، وأما ابن الزبير فقد عرف فيه جهده معه فى الدفاع عن مكة حين حصارها من جيش الشام — جاء المختار إلى ابن الزبير يستأذنه فى الخروج إلى العراق ، وبيّن له أنه أنفع له هناك ، وأن مكة الآن فى يده وفعل ذلك مع ابن الحنفية فاستأذنه فى الخروج إلى العراق ، وبيّن له أنه أنفع له هناك، وأن مكة الآن فى يده، وفعل ذلك مع ابن الحنفية ، فاستأذنه فى الخروج إلى العراق ؟ ووافقه ابن الحنفية وأرسل معه رجلا من ثقاته هو (عبد الله بن كامل الهمدانى) وأسر إليه أن يتحرز من المختار ، فخرج المختار والهمدانى يؤمان العراق، ولقيهما رجل فى الطريق فقال المختار له: أخبرنا عن الناس. قال الرجل: تركت الناس كالسفينة تجول لا ملاح لها . فقال المختار: فأنا ملاحها الذى يقيمها .

لعب المختار لعبته الناجحة فاحتال على الأمر بشتى الطرق، وباسم محمد بن الحنفية استولى على الكوفة وضم إليه الفارس الذائع الصيت (إبراهيم بن الأشتر) وكان إبراهيم من أكثر الناس حباً لعلى وبنيه ورث الحب عن أبيه وحافظ عليه، من هذه الناحية جاءه المختار ، فأحضر له رسالة قال إنها من عند المهدى، والمهدى لقب ابن الحنفية ، وأتى بشهود شهدوا بذلك كذباً، وصدق إبراهيم .

تم للمختار أمره ، فنشط نشاطاً لا نظير له فى تتبع قتلة الحسين رضى الله

عنه ، وسمى نفسه ومن معه بالتوابين فانطلقت فى أنحاء الكوفة صرخات ضارية « ياثارات الحسين » فسالت الدماء وأزهقت الأرواح وامتلأت الطرقات بجثث القتلى ، ولما علم أن (عبيد الله بن زياد) قادم من الشام والياً على الكوفة من قبل عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشاً قوامه عشرون ألفاً بقيادة البطل إبراهيم ابن الاشتر فالتقى إبراهيم بعبيد الله ودارت المعركة ودارت الدائرة على ابن زياد فقتله وأرسل برأسه إلى المختار بن أبى عبيد ، فعمد إليه المختار فوضعه فى جونة ، ثم بعث به إلى ابن الحنفية ، فوصل إليه وحوله جلة بنى هاشم ، منهم على بن الحسين وعبد الله بن عباس ، فلما رأى على رأس ابن زياد ترحم على أبيه الحسين ، وقال ، أتى عبيد الله ابن زياد برأس الحسين وهو يتغدى ، وأُتينا برأس عبيد الله ونحن نتغدى ! وأثنى بنو هاشم على المختار ثناء طيباً ودعوا له بالتوفيق . وقال ابن عباس : « أصاب بثأرنا وآثرنا ووصلنا » وسكت ابن الحنفية وكان يعتقد فيه أنه يصنع لنفسه ، وقرأ كتاب المختار إليه فإذا فيه : « من المختار ابن عبيد الطالب بثأر آل محمد أما بعد : فإن الله تبارك وتعالى لم ينتقم من قوم حتى يعذر إليهم ، وإن الله قد أهلك الفسقة وأشياع الفسقة ، وقد بقيت بقايا أرجو أن يلحق الله أولهم بآخرهم . وكان تعليق ابن الحنفية على ذلك : « يجلس المختار مع عمر بن سعد ويتحدث عن الفسقة ؟ » [عمر بن سعد بن أبى وقاص كان قائد جيش عبيد الله بن زياد الذى قتل الحسين] فبلغ هذا القول المختار فما كان منه إلا أنه استدعى عمر بن سعد وابنه وقتلهما أخذاً بثأر الحسين . وجاءت الأنباء تترى إلى ابن الزبير تتحدث عن المختار وسوء نيته وأنه يعمل لغيره وخاف الهاشميين على منصبه ولا سيما وعبد الملك بن مروان قام بالأمر فى الشام ودخلت مصر فى ملكه فعمد إلى بنى هاشم يطلب إليهم أن يبايعوه ، فأبى ابن الحنفية وأبوا جميعاً ، إن ابن الزبير فى نظرهم قد خالف ما دعا إليه وهو أن يكون الأمر شورى بين المسلمين فلما مات يزيد وابنه دعا لنفسه وسمى نفسه أمير المؤمنين تماماً كما فعل معاوية مع على دعا إلى تسليم قتلة عثمان وأن يترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين فلما جاء التحكيم فى صالحه بايعه أهل الشام بالخلافة ونظرة ابن الحنفية إلى المختار نظرته إلى ابن الزبير فهو يعرف رأى الرجال وما يتطلعون إليه من تحقيق الآمال فلما اشتد عليه ابن الزبير وأنذره

بإحراقه وإحراق بنى هاشم معه رام الخروج إلى الكوفة حيث شيعته والمختار يتولى أمرها أعلن المختار كلاماً من جنس كلامه الذى تعود أن يخدع به الجماهير ، وليحول بين ابن الحنفية والقدوم على الكوفة ، فقال : إن فى المهدى علامة يقدم بلدكم هذا ، فيضربه رجل فى السوق بالسيف لا تضره ولا تحيك فيه ؟ فعدل ابن الحنفية عن الخروج والذهاب إلى الكوفة ، وابن الزبير جاد فى تهديده يريد إرغامه على أن يبايعه بالخلافة واستشار ابن عباس ؟ فقال له : استمر على رأيك ، وأقدم ابن الزبير على ما عزم عليه : جمع بنى هاشم وعددهم خمسة عشر رجلا ، ووضعهم فى « سجن عارم » ووضع الحطب حولهم حتى بلغ رءوس الجدران — لو أن ناراً تقع فيه ما رؤى أحد منهم حتى تقوم الساعة — وتسامعت الشيعة بالعراق بما يجرى بنى هاشم على يد عبد الله ابن الزبير فزحف إلى مكة أربعة آلاف جندى على رأسهم (أبو عبد الله الجدلى) وشيعهم المختار بقوله على طريقته فى الكلام : ياشرطة الله ، لقد أكرمكم الله بهذا المسير ، ولكم بهذا الوجه عشر حج ، وعشر عُمر وانطلق القوم حتى أشرفوا على مكة ، فجاء المستغيث : أسرعوا ، فما أراكم تدركونهم فانتدب القائد ثمانمائة من أهل القوة والنجدة انطلقوا حتى دخلوا مكة ، فكبروا تكبيرة سمعها ابن الزبير ، فهرب مسرعاً حتى تعلق بأستار الكعبة وقال : أنا عائذ الله ؟ فقال كثير عزة :

تخبّر من لاقيت أنك عائذ! بل العائذ المحبوس فى سجن عارم
وصىّ النبى المصطفى ، وابن عمه وفكّاك أعناق وقاضى مغارم

ووصل الجيش إلى سجن عارم فأزال الحطب ، فخرج المسجونون ، وعجل على بن عبد الله بن عباس — وهو يومئذ رجل — فأسرع فى الحطب يريد الخروج فأدمى ساقيه ، وقدم القائد أبو عبد الله الجدلى فقال لابن الحنفية ولابن عباس : ذرونا نريح الناس من ابن الزبير فقال هذا بلد حرمه الله ، ما أحله لأحد إلا للنبى — عليه السلام — ساعة ما أحله لأحد قبله ولا يحله لأحد بعده ، فامنعونا ، وأجيرونا فتحملوا وإن منادياً لينادى فى الجبل : ما غنمت سرية بعد نبيها ما غنمت هذه السرية : إن السرايا تغنم الذهب والفضة ، وإنّ ما غنمتم : دماءنا ، وخرجوا إلى مِنًى فأقاموا بها ثم توجهوا إلى الطائف والجيش معهم يحرسهم وفى الطائف توفى عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ وصلى عليه محمد بن الحنفية . ثم جاء موسم

الحج، فخرج محمد بن الحنفية وآله وجيشه ووجهتهم بيت الله الحرام، وإذا الحج - فى هذا العام - يختلف عما سبقه اجتمعت الأحزاب كلها من : أربعة ألوية : لواء ابن الحنفية، ولواء ابن الزبير، ولواء بنى أمية، ولواء الخوارج، لقد صار المسلمون أحزاباً وشيعة ما أمرّ هذا على اللسان وما أقسى وقعه على الجنان، لقد خالفوا أمر رسول الله فقد قال فى حجة الوداع : «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» لكنهم فعلوا ما فعلوا وكثيراً ما قال ابن الحنفية : ما أشهد على أحد بالنجاة ، ولا أنه من أهل الجنة : بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا على أبى الذى ولدنى - والناس حوله يقولون : من كان فى الناس مثل علىّ : سبق له كذا - لقد كانت الفرقة تؤرقه وتحمقه وتدفعه إلى مثل هذا الكلام، ونحن اليوم لا نقول قوله، ونقول : إنهم اختلفوا واجتهدوا، والمصيب له أجران ، والمخطئ له أجر واحد !؟

كانت الجيوش فى مكة تحدث الاضطراب فى الحجاج، فهم يخافون الاشتباك وانتهاك حرمة مكة وإفساد الحج على الناس، وجاء رجل من بنى نوفل ابن عبد مناف يسعى، وجعل من نفسه حمامة سلام يسعى بين أصحاب هذه الألوية داعياً : إلى السلام، ورعاية مكة وبيت الله الحرام، إنه : محمد بن جبير ، بدأ بمحمد بن الحنفية وهو فى سبعة آلاف من جنوده فقال له : يا أبا القاسم اتق الله إننا فى مشعر حرام، وبلد حرام ، والناس وفد الله إلى هذا البيت، فلا تفسد عليهم حجهم؟ فقال : ما أريد ذلك، وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ، ولا يؤتى أحد من قبلى، ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير وما يريد منى ما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف علىّ فيه اثنان ، ولكن ائت ابن الزبير ، فكلمه ؟ وعليك بنجدة ابن عامر الخارجى فكلمه.

وسعى ابن جبير إلى ابن الزبير فحدثه حديث ابن الحنفية، وطلب إليه : أن يرعى حرمة مكة ؟ فقال ابن الزبير : أنا رجل قد اجتمع علىّ وبايعنى الناس وهؤلاء أهل خلاف؟ فقال ابن جبير : إن خيراً لك الكف؟ فقال : أفعل، وجاء نجدة ابن عامر رأس الخوارج فكلمه بما كلم به الرجلين ؟ فقال نجدة : أما أن ابتدأ أحداً بقتال فلا؟ ولكن من بدأنا بقتال قاتلناه، ثم جاء شيعة بنى أمية فأفضى إليهم بما جرى بينه وبين أصحاب الألوية، فقالوا : نحن على لوائنا ، لا نقاتل أحداً إلا أن يقاتلنا ؟ وهكذا نجح ابن جبير فى مسعاه

واندفعت الجيوش والحجاج يؤدون فريضة الله ويلبون معاً ويدعون دعاء واحداً ولو فكروا قليلا لاهتدوا ولما استطاع ملك الروم أن يهدد عبد الملك وينذره بالحرب .

انتهت أعمال الحج بسلام وأراد ابن الحنفية العودة إلى داره بمكة فوقف بين أصحابه وخطب فيهم وأمرهم بالرحيل ونصحهم قائلا : عليكم بخاصة أنفسكم ودَعُوا أمر العامة ، واستقروا عن أمرنا كما استقرت السماء والأرض فإن أمرنا إذا جاء كان كالشمس الضاحية ثم وزع عليهم شيئاً من ماله . سار إلى مكة وسار بعضهم إلى العراق ووافاه عروة بن الزبير ينهى إليه قرار عبد الله أخيه وهو الحرب حتى يبايع له فقال له ابن الحنفية : ما أسرع أخاك إلى قطع الرحم والاستخفاف بالحق ليس عندى خلاف إن أخاك له قرين كلاهما يقاتلان على الدنيا وإنى لأحسب أن جوار عبد الملك خير لى من جوار أخيك . وقد كتب إلى فقال بعض أصحابه والله لو أطعتنا لضربنا عنقه فلم يقبل وسمى هذا غدراً وخلا عروة بأخيه ونصحه بأن يتركه يذهب لعبد الملك وقد يكون حتفه على يديه فتكون قد برئت من دمه فاستراح لذلك عبد الله بن الزبير وجاء كتاب عبد الملك لابن الحنفية وفيه : هذا الشام فانزل منه حيث شئت فنحن مكرموك وواصلوا رحمك وعارفوا حقك فقال ابن الحنفية لأصحابه هذا وجه نخرج إليه فنهض ونهض جنوده معه وكثير عزة ينشده شعراً :

أنت إمام الحــق لسنا نمترى
أنت الذى نرضى به ونرتجى
أنت ابن خير الناس من بعد النبى
يا بن على سر ومن مثل على ؟
حتى تحل أرض كلب وبلى

وساروا حتى نزلوا (أيلة) فلقوا ترحيباً ، وجواراً حسناً وأحبوه حباً شديداً وعظموه هو وأصحابه وقام بشعائر الدين ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبلغ عبد الملك ذلك فشق عليه ، وخاف عاقبة أمره ، فاستشار وزيريه : قبيصة ابن ذؤيب ، وروح بن زنباع ، فأشارا عليه قائلين : ما ترى أن تدعه يقيم قريباً منك ، وسيرته سيرته حتى يبايع لك أو تصرفه إلى الحجاز . فكتب إليه عبد الملك : « إنك قدمت بلادى فنزلت فى طرف منها وهذه الحرب بينى بين ابن الزبير كما تعلم ، وأنت لك ذكر ومكان وقد رأيت ألا تقيم فى سلطانى إلا أن

تبايع لى ، فإن بايعتنى فخذ السفن التى قدمت علينا من القلزم (البحر الأحمر) وهى مائة مركب فهى لك وما فيها ، ولك ألفا ألف درهم أعجل لك منها خمسمائة ألف وألف ألف وخمسمائة آتيتك مع ما أردت من فريضة لك ولولدك ولقرابتك ومواليك ومن معك ، فإن أبيت فتحول عن بلدى إلى موضع لا يكون لى فيه سلطان . فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن على إلى عبد الملك بن مروان سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد : فقد عرفت رأيى فى هذا الأمر قديماً ، وإنى لست أسفهه على أحد والله لو اجتمعت هذه الأمة على إلا أهل الزرقاء ما قاتلتهم أبداً ولا اعتزلتهم حتى يجتمعوا ، نزلت مكة فراراً مما كان بالمدينة (واقعة الحرة) فجاورت ابن الزبير فأساء جوارى وأراد منى أن أبايعه فأبيت ذلك حتى يجتمع الناس عليك أو عليه ، ثم أدخل فيما دخل فيه الناس فأكون كرجل منهم ثم كتبت إلى تدعونى إلى ما قبلك ، فأقبلت سائراً فنزلت فى طرف من أطرافك ، والله ما عندى خلاف ومعى أصحابى ، فقلنا : بلاد رخيصة الأسعار ، وندنو من جوارك ، ونتعرض صلتك ، فكتبت ما كتبت به ونحن منصرفون عنك إن شاء الله . كان ذلك سنة ٦٩هـ.

وأنت ترى حيرة الرجل بين عبد الملك وابن الزبير ، رجل من قرابة رسول الله ، لا يجد له مقاماً آمنا فى أرض الشام وما وراءه لعبد الملك والحجاز والعراق لابن الزبير ، فكيف يعيش هو إذن ؟ إن معه جنوده ، وهم أشداء على القتال صبر عند اللقاء ولكن كره الدماء من يوم صاح المسلمون فى صفين : يا معشر المسلمين : الله الله ، من للنســاء والولدان ؟ من للروم؟ ومن للترك؟ من للديلم ؟ الله الله والبقيا . وأبوه على يقول له : يا بنى الزم رايتك فإنى متقدم فى القوم ، ويضرب بسيفه حتى يفرج له ، والقتلى على جانبيه ، والدماء تجرى على أرض المعركة فماذا فعل والموقف عصيب والمأزق رهيب خطب أصحابه ، وبين لهم أننا تعجلنا الأمر ، فمن أحب منكم أن يأتى مأمنه فليفعل ، فبقى معه تسعمائة رجل ، ودخل مكة فتلقاه ابن الزبير يمنعه فجعل وجهه شطر المدينة وقلبه متعلق بمكة وقد تعود أن يحج كل عام ، ستنجلى الغمة ولو بعد حين والله مع الصابرين .

وترجح كفة عبد الملك بسوء تصرف ابن الزبير الذى أساء استقبال وفد العراق

حين قدم عليه" فَسبّ أهل العراق ومدح أهل الشام: ففسدت القلوب ، وحدث اتصال بين أهل العراق وعبد الملك سرًّا وانتهى الأمر بقتل مصعب بن الزبير بمسكن بأرض العراق !

وحَنّ قلبه إلى مكة فأعدّ رواحله واتجه إلى الطائف وما لبث أن تحول إلى مكة، ودخل شعب بنى هاشم سنة اثنين وسبعين من الهجرة والحجاج يحاصر مكة ويضربها بالمنجنيق، وابن الزبير لم يُقتل بعد فأرسل إليه الحجاج: أن يبايع لعبد الملك؟ فقال ابن الحنفية .. الكلام الذى ردده كثيراً: أنا رجل ليس عندى خلاف لما رأيت الناس اختلوا اعتزلتهم حتى يجتمعوا، فإن يُقتل ابن الزبير ويجتمع الناس على عبد الملك أبايعه فأبى الحجاج أن يوافقه على رأيه وطالت المفاوضات بينهما، فلم يزل محمد يدافع حتى قتل ابن الزبير فلما اجتمع الناس على عبد الملك قال عبدالله ابن عمر بن الخطاب له: ما بقى شىء فبايع؟

ولم يكن محمد ليبايع لعبد الملك ما لم يأخذ عليه المواثيق، فراسله فى هذا الشأن وحذره من الغدر ! واستشار عبد الملك وزيريه فقالا ما لك عليه سبيل ولو أراد فتقاً لقدر عليه ، لقد سلم وبايع فنرى أن تكتب إليه بالعهد والمثياق بالأمان له والتعهد لأصحابه ففعل وكتب إليه اذهب حيث شئت فلست أدع صلتك وعونك ما حييت كما كتب إلى الحجاج يأمره بحسن جواره وإكرامه فرجع ابن الحنفية إلى المدينة، وهناك بنى داره وصارت الشيعة تختلف إليه فيعطيها علمه وورعه وبشائره بدولة بنى هاشم — وفى سنة ٧٨هـ قدم على عبد الملك بدمشق فاستقبل استقبالا رائعـًا وأنزله عبد الملك بمنزل قريب منه ، وأجرى عليه من الأموال واللطائف والخدمات ما يكفيه ويكفى من معه . ومضى شهر على ذلك والتقى بعبد الملك فجرى بينهما حديث كان على أثره أن قضى عبد الملك دينه ، وفرض له أموالا طائلة له ولأولاده وخاصته ومواليه فلم يبق له مطلب إلا قضاه واستأذنه فى الانصراف؟ فأذن له، ثم رحل إلى مدينة الرسول فلما حط رحاله أقبل عليه أصحابه من كل صوب متحلقين حوله يأخذون منه علمه وتجاربه — وفى المحرم سنة ٨١هـ — أسلم الروح لبارئها . . وكان مولده فى أوائل عهد عمر بن الخطاب بعد أن أدى واجبه نحو الشيعة وآل البيت ، وصلى عليه والى المدينة: أبان بن عثمان بن عفان ودفن بالبقيع — ومن سيرة محمد بن على يتبين لنا : أنه كان رجلا صالحـًا قوى الجسم والعقل يحب وحدة المسلمين

ويبذل فى سبيلها رغباته الشخصية وإن كان يرى أن بنى هاشم هم أصحاب الحق بالخلافة وأن الخلافة لهم وستأتيهم كالشمس الضاحية ومن ذلك كان موقفه مع الشيعة فهو يحوطهم بعنايته ويرعاهم بعطفه وجاهه وماله ويتعرف مواطنهم ويضع أمامهم الخطط التى تنفعهم فى مستقبل أيامهم وكانت عقيدته أن لا تفرقه بين علوى وعباسى وقد حافظ على (على بن عبد الله بن عباس) فكان له والداً بعد فقد والده ونبراساً ينير له سبيل الحياة .

أعجبت الشيعة بمحمد إعجاباً شديداً يخالط الإيمان فى القلوب والدم فى الشرايين وبلغ حبهم له أنهم جعلوه يعيش فى السحاب وأنه ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا بعد أن ملئت جوراً فهو المهدى المنتظر عندهم يحمل اسم النبى وكنيته أليس اسمه وكنيته (أبو القاسم محمد بن على المهدى) .

قال شاعر الشيعة كثير عزة :

ألا إن الأئمة من قريش
ولاة العدل أربعة سواء
علىّ والثلاثة من بنيه
هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر
وسبط غيّبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى
يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيّب لا يرى عنهم زماناً
برضوى عنده عسل وماء

فالسبط ذو الإيمان والبر الحسن ابن على ، والسبط الذى غيبته كربلاء الشهيد الحسين بن على ، والبيتان الأخيران يتحدثان عن محمد بن الحنفية الذى يعود ويقود الخيل بعد غَيْبَة فيها حياة « عنده عسل وماء » وهو كلام شاعر يؤمن بمبادىء الشيعة التى لا أصل لها عند جمهور المسلمين .

لقد أنجب محمد بن على أبناء أشهرهم أبو هاشم عبد الله والحسن ابن محمد ، وبأبى هاشم رجع الأمر إلى العباسيين حيث تسلموا الشيعة بخراسان ، فكانت لهم الدولة والسلطان .

رحم الله ابن الحنفية وألهمنا الله نهجه ، فكنّا من دعاة الوحدة والتوحيد .

سيد حسن قرون

تدريس الأديان فى الجامعة

بقلم :
دكتور محمد شامة

يدور نقاش حاد فى جامعاتنا الإسلامية حول مادة الأديان ، إذ يرى فريق أن الجامعة بمفهومها الاصطلاحى ، ينبغى أن تهيىء الفرصة لأبناء المجتمع لدراسة جميع فروع المعرفة ، سواء كان أساس هذه المعرفة وحيًا سماويًا ، أو من إنتاج العقل البشرى ، ثم تستخلص منها ما يعود على المجتمع بالخير ، داخل إطار العقيدة والتقاليد الدينية ، وتركز عليه لتبنى الفرد الصالح للنهوض بالإمامة ، وإن لم تقم الجامعة بهذا الواجب ، أصبحت اسمًا على غير مسمى ، وصار الادعاء بأنها جامعة ، لا يخرج عن كونه « يافطة » ، لا فائدة منها ، إلا التأثير النفسى على المنتسبين إليها ، إذ يعتقدون أنهم متساوون مع المنتسبين للجامعات الأخرى ، فى المنهج ، وفى أسلوب التفكير الأكاديمى ، وأيضاً فى المعاملات المالية من رواتب ، ومكافآت ، واستحقاقات .

ويرى فريق آخر ، أن الجامعة الإسلامية — على الرغم من أنها تحمل الاسم الحديث — ينبغى أن تعنى بتدريس المواد الدينية فقط ، أو ما يتعلق بها من قريب أو بعيد ، كعلوم التربية والاجتماع ، وما عدا ذلك ، فلا يجوز أن تتضمنه خطة الدراسة ، وخاصة إذا كانت له صلة بعقائد الشعوب الأخرى ، لأن تدريسها خطر على عقيدة الطالب .

فهل يكون تدريس الأديان خطراً يجب اتقاؤه ؟ وما مدى هذه الخطورة ؟ ومن أى نوع هى ؟

لن أجيب على هذه الأسئلة بادىء ذى بدء بالإيجاب أو بالنفى ، وإنما سأعرض على القارئ بعض الجوانب التى ستوحى له بالإجابة .

١ — العقل :

إن قضية العقل هى قضية الإنسان ،

فأينما وجد الإنسان ، وحيثما وجد ، ظهر أثر العقل واضحاً ، ولذا عرّف علماء المنطق الإنسان ، بأنه حيوان ناطق . وليس مرادهم بالناطق ، أنه يصدر أصواتاً خالية من المضمون الفكرى ، الدالة على وجود عقل — أياً كان درجة تطوره ، وإلا دخل فى الحد حيوانات أخرى ، تصدر أصواتاً ، ذات دلالة حسية مفهومة بين بنى جنسها ، فمقصود علماء المنطق بهذا التعبير ، أن هذا الكائن الحى — وهو الإنسان — تفوق على الكائنات الحية الأخرى ، بعقله الكامل ، الذى مكنه من التلفظ بألفاظ ، ذات دلالة على أنه ذو قوة مفكرة ، أى أن الإنسان : حيوان مفكر ، وما الكلام إلا تعبير عما لديه من أفكار ، كما قال الشاعر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالتفكير هو إحدى النواحى ، التى ميزت الإنسان عن الحيوان ، إذ منحه الله له تكريماً وتفضيلا على سائر الكائنات الحية ، ولا يعادله تكريم على الإطلاق ، فليس هناك من الخصائص الإنسانية ، ما يعادل نعمة العقل ، الذى هو أداة التفكير ، فهى مدار التكريم فى قوله تعالى :

(ولقد كرّمنا بنى آدم ... وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) « الإسراء ٧٠ » .

ولذا كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم ، موجهة إلى العقل ، تخاطبه ، وتحثه على التفكير فى نفسه ، وفى كيفية خلقه ، وفى وظيفة العقل فى تحصيل المعلومات : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » (العلق ١) .

ولا يمكن أن يدرك ذلك ، إلا كائن حى ، له عقل يفكر به .

« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (العلق ٣ — ٥) فالعقل الذى لا يستخدم فى التعليم ، وتحصيل المعرفة ، والتفكير فى البحث عما ينفع ، هو أداة معطلة ، مثل الآلة ، التى لا تستعمل فى الأغراض التى صنعت من أجلها ، فالسيارة التى تقف عن السير لا قيمة لها ، فكذلك العقل ، الذى لا يفكر ، ولا يستخدم فى تحصيل المعرفة ، لا وجود له ، وقد حث القرآن الكريم فى كثير من آياته على استخدام العقل ، لأن استخدامه ، يقود صاحبه إلى الهداية ، وإلى معرفة الواحد القهار ، يقول الله تعالى :

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (البقرة ٢١٩) .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الأنعام ٥٠) .

« أو لم يتفكَّروا فى أنفسهم .... » (الروم ٨)

« فاقْصُص القَصَصَ لعلهم يتفكرون » (الأعراف ١٧٦) .

« كذلك نُفَصِّلُ الآيات لقوم يتفكرون .. » (يونس ٢٤) .

وقد تكررت فى القرآن الكريم ، كلمات مرادفة للفكر ، مثل :

يفقهون :

قال تعالى :

« قد فصَّلنا الآيات لقوم يَفقهون » (الأنعام ٩٨) .

بل ذم القرآن من لم يفقه ، وتوعده بسوء المصير ، قال تعالى :

« فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا . . » (النساء ٧٨) .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها . . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . . » (الأعراف ١٧٦) .

« قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون » (التوبة ٨٧) .

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون » . (المنافقون ٧) .

ومثل : يعقلون :

قال تعالى :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعلقون » (البقرة ٢٤٢) .

« . . . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعلقون » (الأنبياء ٦٦ — ٦٧) .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (العنكبوت ٤٣) .

ولو أحصينا الآيات ، التى ورد فيها ذكر الفكر ومرادفاته . لضاقت بها المساحة المخصصة لهذا المقال ، وفى هذا دليل ، على أن الفكر — المتطور — خاصية من خواص الجنس البشرى ، بل هو أهم ما يميزه عن غيره من الكائنات الحية ، فلا يمكن أن يوجد إنسان سوىّ سليم بدون فكر ، فالفكر عصب حياة الإنسان ، وأثره واضح ، فى جميع

مجالات الحياة الإنسانية ، غير أنه يختلف من مجتمع لآخر ، فى المضمون ، والقيمة ، وفى قوة التأثير فى حياة الفرد ، وقدرته على التغيير فى النظم الاجتماعية ، فتفكير الإنسان فى المجتمعات البدائية كان بسيطًا ، يكاد ينحصر – علاوة على المعتقدات الدينية – فى الصيد ، أو الرعى أو الزراعة ، لتحصيل ما يقتات به ، وكلما اتسعت دائرة نشاط الفكر ، كلما ازدادت معلومات الإنسان ، فازدادت ثقافته ، التى يستخدمها فى تحسين وسائل الحياة ، فيتقدم المجتمع .

وحرية الفكر شرط أساسى لتقدم المجتمع ، لأنها البوتقة ، التى تنصهر فيها الآراء المختلفة ، فتعزل الأفكار الهزيلة ، والمبادئ الهدامة ، وتخرج الآراء الصحيحة صافية نقية ، تنير الطريق أمام مسيرة التقدم . ولا ينبغى تقييد هذه الحرية ، بحجة المحافظة على وحدة الأمة ، أو الحيلولة دون وقوعها فى حلبة صراع فكرى ، لأن اختلاف الآراء دليل على حيوية المجتمع ، ومقدمة حتمية لتطوره ، إذا أراد كل طرف الوصول إلى الحق ، حيثما كان .

أما التقليد ، وكذلك حمل الناس على أن يعتقدوا بقدسية رأى بشرى عن طريق كبت المعارضة ، تارة بقوة الحديد والنار ، وأخرى بالإرهاب الفكرى ، فهو نذير بانهيار المجتمع ، لأنه يقضى على البراعم الفكرية فيه ، ويوقف قلبه النابض .

وقد ذم الإسلام التقليد ، الذى يصرف الإنسان عن التفكير ، فيما يعرض عليه من أفكار ، قال تعالى :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل ، التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » . (الأنبياء ٥١ – ٥٤) .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل » . (المائدة ٧٧) .

ويحكى القرآن مشهد عتاب بين المقلدين والمقلدين فيقول :

« وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنتم

لَكُنَّا مؤمنين ، قال الذين استكبروا ، للذين استضعفوا ، أنحن صَدَدْناكم عن الهُدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ». (سبأ ٣١ — ٣٢) .

وإذا كان الإسلام قد ذم التقليد ، فيما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان ، ومجال التفكير فيه محدود ؛ إذ لاينبغى أن يخرج عن الإطار ، الذى حددته العقيدة ، فمن الأولى أن يُذم التقليد ، أو التحجر على القديم ، فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيوية ، السريعة التغير والتطور ، فهو يدفع المسلم دفعًا ، إلى البحث فى الظواهر الكونية المحيطة به ، سعيًا وراء تحسين مستوى الحياة فى المجتمع الإسلامى :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (الجمعة ١٠) .

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . (الملك ١٥) .

« قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » . (يونس ١٠١) .

ولا يقتصر النظر على التأمل فقط ، بل يشمل البحث أيضاً ، بدليل قوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبوت ٢٠) .

ولا يعرف الإنسان كيفية بدء الخلق ، إلا بعد أن يعرف طبيعة المخلوقات ، من أنها لا يمكن أن تكون قد خلقت عن طريق الصدفة ، بل لها خالق عليم حكيم ، ولا يتأتى هذا إلا بعد البحث والتفكير والتجربة .

فهم المسلمون الأوائل هذه الروح الإسلامية ، فقادوا حركة عقلية فى صدر الإسلام ، استهدفت شرح قضايا الإسلام من مصادره الأصلية : القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكان استخدامهم للفكر :

— إما تفقهاً واستنباطاً للأحكام الدينية ، التى تنظم سلوك المسلم نحو خالقه فى العبادات ، ونحو أخيه المسلم فى المعاملات ، أومعالجة أحداث جدت فى المجتمع الإسلامى ، وبالتالى لم تعرف أحكامها من قبل .

— وإما توفيقًا بين مبادئ الدين وتعاليمه من جانب ، وفكر أجنبية دخلت الجماعة الإسلامية من جانب آخر .

— أو دفاعا عن العقائد ، التى وردت فيه ، أو رداً لعقائد أخرى مناوئة لها ، حاولت أن تحتل منزلة فى الحياة الإسلامية العامة لسبب أو لآخر .

لم تكن هذه المحاولات موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الوحى لم يكن قد انقطع بعد ، فلا مجال لرأى بشرى ما دام الوحى يجيب على كل سؤال ، ولا فى عهد الخلفاء الراشدين ؛ فقد كان المسلمون مشغولين آنذاك بنشر الدعوة ، وتمكن الجماعة ، والاستقرار ، وإرساء الحياة الإسلامية فيها على مبادئ القرآن والسنة الصحيحة بالتطبيق العلمى لوصايا الإسلام ، وعدم الانفكاك عن الأسلوب ، الذى ألزم به الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه فى تصرفاته. ولكنها — أى هذه المحاولة — وضحت كظاهرة عامة ، يوم أن خف الإيمان . يوم أن دخلت أساليب للحياة ، لم تكن معروفة من قبل فى المجتمع الإسلامى ، إذ عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ورفرفت راية الإسلام على مملكتى كسرى وقيصر ، دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، يحملون معهم أفكارهم ، وعقائدهم السابقة ، لأنهم لم يعيشوا قبل الإسلام فى فراغ عقلى ، فقد كان لهم تراث دينى — أيًّا كانت قيمته فى نظر الإسلام — وأفكار فلسفية حول طبيعة الوجود ، لا تتفق مع تعاليم الإسلام .

لم تختف هذه الأفكار الدينية والفلسفية عقب الفتح مباشرة ، ولو حدث لكان ذلك نقضًا لسنة التطور ، والتحول الفكرى فى المجتمعات الإنسانية بل كانت وقوداً للمعارك الفكرية التى اشتعلت فى المجتمع الإسلامى ، وظلت متأججة شرقًا وغرباً عدة قرون ، مما دفع كثيراً من العلماء آنذاك ، إلى دراسة الفكر الأجنبى واستيعابه ، ليكونوا أكثر قدرة على الدفاع عن الإسلام ، ضد الفكر الدخيل . إذ كلما ازدادت معرفة العالم بما عند الخصم من أفكار وحجج وبراهين ، كان دفاعه مقبولا عقليًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا ، فالغزالى — على سبيل المثال — لم يكن ليستطيع أن يكتب تهافت الفلاسفة — وهو كتاب له وزنه فى الأوساط الفكرية — لو لم يدرس الفلسفة دراسة فهم واستيعاب وإحاطة .

فالصراع الفكرى هو إحدى ظواهر المجتمع الإنسانى ، وعامل من عوامل تقدمه ورقيه ، لو اتجه وجهة بناءة ، ولم ينحرف إلى حافة التدمير والتخريب .

ولا يخلو منه مجتمع بشرى ، لأنه عصب وجوده ، والقلب الذى يدفع بدم الحياة فى شرايينه ، ولذا ينبغى ألا يقابل بالاستنكار ، والوعيد بكبته ، والقضاء على من يحمل رايته ، بل بمحاولة فهم

آراء المخالفين ، والرد عليها بهدوء ، وتبصير من خُدع بالشعارات البراقة ، والعبارات الرنانة والأخذ بيدهم إلى الصراط المستقيم .

عندما واجه المسلمون التيارات الفكرية الأجنبية ، (وثَنية ودينية : البوذى والبرهمى والزرادشتى والمانوى والمسيحى واليهودى والفلسفى الإغريقى) ، هبوا للدفاع عن العقيدة ، وعندما جدت فى المجتمع الإسلامى أحداث ، لم تكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، اجتهد المسلمون فى البحث عن أحكام لها ، داخل إطار التشريع الإسلامى ، كذلك عندما اختلف المسلمون (خوارج وشيعة ، ومرجئة ، ومعتزلة وصفاتية) ، حاول كل فريق الاستدلال على صحة رأيه من الكتاب والسنة ، وفى كل هذا استخدم العقل ، فأنتج فكراً ، وكان من نتيجة هذا ، ظهور المدارس المختلفة ، فى المجتمع الإسلامى ، فتكونت : المدارس الكلامية ، ومذاهب الفقه ، ومدارس الصوفية ، ومدارس الفلسفة ، ومدارس تفسير القرآن الكريم ، ومدارس الحديث وعلومه . .

حقًّا : لقد كانت نهضة علمية ، لم تقتصر على العلوم الإنسانية ، بل تجاوزتها إلى كل المجالات الثقافية ، التى يمكن للعقل أن يدلى بدلوه فيها ، ولو لم يقم علماؤنا — طيب الله ثراهم — بهذا المجهود الضخم ، لكنا اليوم أمة ، لا ماضى لها فى مجال الإبداع البشرى ، ولست مبخساً أحداً حقه ، إذا قلت : إننا لا نملك الحاضر ، بل هو فى يد من أطلق عنان الفكر ، فسيطر على تسيير دفة السياسة الدولية ، وتحكم فى مجالات كثيرة ، فى مصائر الشعوب الإسلامية . . ولن يكون لنا مستقبل ، إلا إذا اقتفينا أثر علمائنا الأمجاد .

٢ — الثقافة :

إن من أكثر الكلمات شيوعاً فى هذا العصر هى :.

ثقافة — حضارة — مدنية

إذ ليس من النادر ، أن تسمع كل يوم فى الأحاديث ، التى تدور بين الناس ، فى المكتب والشارع ، وفى البيت ، هذه الجمل : (هو إنسان مثقف ، يعامل الناس بأسلوب حضارى ، هو على درجة كبيرة من التمدن فى الملبس والمسكن) .

أتدل هذه الكلمات على معنى واحد ، فتكون مترادفة ، أم أن لكل منها معنى

مستقلاً عن الأخرى ، أم أن معانيها متداخلة ؟

تطلق كلمة (الثقافة) ، ويراد بها التراث الحضارى الفكرى فى جميع جوانبه النظرية والعلمية ، الذى أنتجته الأمة ، وتميزت به عن غيرها فهو ينتسب إليها ، وهى تعرف به، وتُقيَّمُ بين الأمم على أساسه ، ولذا ينبغى على أبنائها ، أن يتفهموا هذا التراث ، وأن يبذلوا قصارى جهدهم ، لتنميته كى يصلوا به إلى المستوى الأسمى ، وأن يستمروا فى العطاء للمحافظة على المستوى ، الذى يليق بواقع الأمة بين شعوب العالم فى مجالات التطور الحضارى، والنمو الفكرى .

غير أن بعض الباحثين ، يطلق كلمة (الثقافة) على الجانب الروحى والمعنوى ، وكلمة الحضارة على الجانب المادى . لكن هذا التفريق فى الاستعمال ، يخالف الواقع الملموس ، لأن الحضارة المادية ، لا تنفصل عن الجانب المعنوى ، الذى يمثل التراث العلمى بقسميه : **النظرى والعلمى :**

وبعضهم يطلق كلمة (المدنية) على الجانب المادى المظهرى ، من حيث أنماط المعيشة ، التى تتصل بحياة المجتمعات ، والثقافة على الجانب المعنوى ، الذى يقابل الجانب المادى ، ويتدرج تحته، كل ما له صلة بالروح، والفكر ، والعقل من حيث أسلوب الجماعة فى حياتها الروحية، والفكرية ، والأدبية ، ويجعلون كلمة (الحضارة)، شاملة لكل من المعنيين :

المادى والمعنوى :

أى شاملة لكل من (المدنية) (والثقافة) .

وبناء على هذا التفسير ، تكون معانى الكلمات الثلاث (الثقافة والحضارة والمدنية) ، متداخلة أو باصطلاح علم المنطق ، بينهما عموم وخصوص وجهى ، تجتمع كلها عند إطلاق كلمة (الحضارة) ، وتنفرد (المدنية) بالجانب المادى المظهرى و (الثقافة) بالجانب المعنوى ، الذى يشمل كل ما له صلة بالروح، والفكر، والعقل :

كذلك نلاحظ أن معانيها تكاد تكون واحدة فى لغة التخاطب فى المجتمع ، إذ كثيراً ما يوصف الشخص ، الذى يعتنى بمظهره ، بأنه متمدن ، أو متحضر ، كما أن الرأى السائد أن (المثقف) ، يعتنى بحسن مظهره لأن

كثرة اضطلاعه على ثقافة وعادات الشعوب الأخرى ، يرهف حسه ، ويوقظ فيه غالباً غريزة حب الجمال ، سواء كان سلوكاً أو مظهراً .

فإذا تجاوزنا عن الجانب المظهرى المادى ، وجدنا أن كلمتى (الحضارة والثقافة) تدلان على مجموع ما خلفته الأمة من آثار حضارية ، وفكرية ، وفنية ، وأدبية فى جميع المجالات المادية والمعنوية .

فكيف تستطيع أمة ما أن تكون هذا التراث ؟ وما هى العوامل الأساسية ، التى تتيح لها التفوق على غيرها فى هذا المجال ؟

إن أسباب قيام حضارات الأمم كثيرة ومعقدة ، إذ يؤثر فيها — بجانب عوامل أخرى ، اختلاف الزمان ، وتفاوت المكان ، وخصائص الطقس السائد فى المنطقة ، وطبيعة اتصال الأمة بالحضارات الأخرى ، ونوع علاقتها بمن جاورها من الأمم والشعوب ، ولكن هناك أسساً عامة ، قامت عليها جميع الحضارات الإنسانية ، وسوف تحتاج إليها أية أمة ، تريد أن تبنى حضارة ، ومن أهم هذه الأسس :

(ا) الأخلاق :

ينطوى ميدان الأخلاق على تعقيدات ملحوظة ، فهى لا تقتصر على وجود وجهات نظر متعارضة عديدة ، بل إننا نجد أيضاً فئات كثيرة مختلفة ، وخطوط تقسيم متقاطعة ، ونقاط ارتكاز تبدو منعدمة الصلة بعضها ببعض ، فالمذهبان الرئيسيان فى علم الأخلاق — وهما المذهب الطبيعى والمذهب المثالى مختلفان فى تحديد معنى الخير والشر ، ولا يلتقيان فى تحديد مصدر الإلزام ، ولا فى طبيعته ، وليس بينهما تطابق فى أسلوب تقييم السلوك البشرى . ورغم هذا كله ، فقد استطاعت الشعوب ، حتى قبل أن تظهر المذاهب الأخلاقية فى المجال العلمى — أن تلتزم بمبادئ أخلاقية ، مكنتها بالإضافة إلى الأسس الأخرى من صنع حضارة رفعت مكانتها بين الأمم ، فكثيراً ماحدثنا التاريخ ، أن نظماً أخلاقية متعددة المناحى والاتجاهات ، بعضها مصدره الوحى السماوى وبعضها الآخر تستقى تشريعاتها للفضائل من قوانين العقل ، أو وحى الضمير ، أو سلطان المجتمع ، أو حساب المصالح والمنافع أو غير ذلك — لعبت دوراً كبيراً فى بناء الحضارات ،

غير أن من المسلم به ، أنه كلما كان للمصدر الرئيسى للنزعة الأخلاقية سلطاناً على النفوس ، اكتسبت الفضائل الأخلاقية عمقاً فى ضمير الفرد ، واتسعت رقعتها فى المجتمع ، ورسخت فى النفوس رسوخاً ، لا تهزه أزمات طارئة ، ولا تزعزعه كوارث عارضة ، مهما كان نوعها ومصدرها .

ولو تصفحنا المعايير الأخلاقية ، المطروحة على بساط البحث أمام علماء الأخلاق ، لوجدنا أن أشدها سلطاناً على النفوس ، هى تلك التى تقوم على عقيدة دينية ؛ لأن المؤمن يرى أن التزامه بهذه المبادئ واجب ، لأنها أوامر الله* ، وأداء المرء لواجبه ، يعنى الامتثال للإرادة الإلهية ، ونحن — المؤمنين — ملزمون بأداء الواجب على هذا النحو ، بحكم نفس طبيعة علاقتنا بالله ، إذ أننا مخلوقاته وعبيده ، ومن البدهى أن تطيع المخلوقات خالقها ، وأن يطيع العبد ربه .

وطبقاً لهذا المفهوم ، فقد غير الدين المفهوم الأساسى للأخلاق السائدة فى مجتمعات لا دينية ، ذلك أن الفكرة الأساسية للأخلاق تعتمد فى هذه المجتمعات ، على المذهب القائل ، بأن قوام الحياة الأخلاقية ، هو طاعة القانون . غيَّر الدين هذا المفهوم ، فألبس الأخلاق ثوباً جديداً ، ألا وهو أن القانون الأخلاقى ، ليس قانوناً يكتشفه العقل البشرى ، وإنما هو قانون صادر من الوحى الالهى ، الذى لا يكون أمامنا إلا أن نطيعه ، سواء أكان يبدو لنا — فى الظاهر — معقولا أم غير معقول ، منطقياً أم تعسفياً ، عادلاً أم ظالماً ، فمن الواجب إطاعته لمجرد كونه ، تعبيراً عن الإرادة الإلهية ، لا لأننا نرى فيه وسيلة لتحقيق سعادتنا البشرية ، وبطبيعة الحال فنحن نفترض ، أنه لما كانت القوة ، التى تسهر على تنفيذ هذا القانون الآلهى ، هى ألوهية خيرة ، فسوف يكون ذلك قانوناً خيراً ، يعبر عن حكمة عليا ، كذلك لما كانت مصلحتنا — فى الدنيا والآخرة — تتوقف مباشرة ، على إطاعتنا لهذا القانون ، فمن الواضح أن المطلوب منا ، هو أداء أية واجبات ، يحددها ، بغض النظر عن رأينا البشرى فى هذه الأوامر .

* تنحصر أوامر الله ، الواجب اتباعها دون شرط فى القرآن والسنة ، أما فهم العالم، لهذين المصدرين ، فهو من قبيل الاجتهاد، وهو لا يلزم مجتهداً آخر به ، أما غير المجتهد فهو مخير ، بين آراء العلماء المختلفة ؛ إلا أن من المستحسن أن يلتزم برأى الجمهور .

فالمؤمن — الصادق فى إيمانه — لا يؤدى واجبه الأخلاقى ، سعياً إلى إرضاء المجتمع ، أو ابتغاء الحصول على مركز أدبى ، أو منفعة مالية ، بل ابتغاء وجه الله « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (الإنسان ٩) ، فهو يلتزم بالمبادئ الأخلاقية لمجرد كونها متعلقة بالتزام دينى ، بغض النظر عن أية منافع ، أو أضرار شخصية ، قد تنجم عن هذا الالتزام .

سادت المبادئ الأخلاقية الإلهية مجتمعات لم تؤمن بالتوحيد ، وسيطرت على عقول لم تؤمن بوجود الله ، ويرجع ذلك إلى أمرين :

أولهما : أن الله خلق الإنسان ، وأودع فيه حب الخير والفضيلة ، فإذا انحرف — فكرياً أو سلوكياً — فمن الممكن أن يهتدى إلى طريق الخير ، إذا وجد المناخ الذى يوقظ فيه غريزة حب الخير .

ثانيهما : إذا قامت علاقة ما — ثقافية أو اجتماعية — بين المؤمنين وغير المؤمنين ، فستتاح الفرصة لكلا الفريقين ، للعمل على سيادة المبادئ الأخلاقية فى المجتمع ، إذ يتعرف المؤمن على ما لدى الآخر ، فيحاول بالحسنى — امتثالا لقوله تعالى « ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (سورة النحل ١٢٥) — بيان جوانبها السلبية ، فيجد غير المؤمن نفسه مضطراً ، إلى الاضطلاع على ما عند المؤمن ، وقد ينتج من هذا التبادل ، إيقاظ حب الفضيلة فى المجتمع ، وذلك ما تنشده الأديان .

خطت أمم كثيرة خطوات واسعة نحونا ، على الرغم من جمودنا ، وخشونتنا فى مجال الدعوة الإسلامية ، فاقتبسوا كثيراً من مبادئنا ، وألبسوها ثيابهم ، فخرجت إلهية الجوهر ، إنسانية المظهر ، ويكفى للتدليل على هذا ، أن تقرأ معى هذا النص ، الذى كتبه (برتراندرسل) : « الأخلاق كالعلم ، ينبغى أن تكون عامة ومترفعة جهد طاقة الإنسان عن تسلط الأنا والآن . وهناك قاعدة جديدة تصلح محكاً للمبادئ الأخلاقية هى : (يجب ألا يحتوى أى مبدأ على اسم علم ، واسم العلم فيما أعنيه ، هو كل تحديد لشىء جزئى تحديداً زمانياً مكانياً ، فهو يشمل أسماء الأفراد من البشر ، ويشمل أيضاً أسماء الأقاليم ، والبلاد وفترات التاريخ ، وحينما أقول ، إن المبادئ الأخلاقية ، يجب أن تكون على هذه الصفة ، فإنى

أعنى شيئًا ، يزيد على مجرد الموافقة العقلية الباردة ، لأن المبدأ الأخلاقى ، إذا لم يزد عليها فلا أثر له على السلوك إلا قليلا . إنما الذى أعنيه شيء أكثر فاعلية، شيء من طبيعة الرغبة الفعالة ، أو الحافز الفعال ، شيء تضرب جذوره فى الخيال الودود ، فما كان للمجتمع من تقدم ، إلا من مثل هذه المشاعر العامة ، فلو اقتصرت آمالك ورغباتك على نفسك، أو أسرتك، أو أمتك، أو طبقتك أو أبناء ملتك ، فستجد أن كل موادتك ومشاعرك الطيبة ، تقابلها كراهات ، ومشاعر عدائية ، وهذه هى الثنائية فى مشاعر الناس ، التى تتجسم فيها الشرور الكبرى فى حياة البشر ، شرور القسوة والظلم والاضطهاد والحروب ، فإذا كان للعالم أن يسلم من الكوارث ، التى تهدده، فليتعلم الناس عدم الانحصار فى عواطفهم » .

فهو يدعو إلى عدم الأنانية ، أى إلى حب الغير ، والتمنى للغير ، بمثل ما يتمناه المرء لنفسه ، وهو ما جاء فى الحديث الشريف :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وتلمح أيضًا دعوته إلى عدم الشعور بالعداء نحو الأجناس الأخرى ، حتى لا تتجسم الشرور لتندلع الحروب ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا أصدق تعبير فى قوله :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (الممتحنة ٨) .

فالمبادئ الأخلاقية ، التى تسود المجتمعات البشرية ، تخضع لآراء واتجاهات شتى ، بعضها يتفق مع ما جاء به الإسلام ، والبعض الآخر يخالفه ، وواجبنا نحن المسلمين دراستها ، حتى نرفض ما نرفض ، ونقبل ما نقبل عن بينة ، لا عن جهل ، وإلا كانت خسارتنا فادحة فى هذا المجال !!!

(ب) العلم :

من القضايا المسلم بها أن الطفل يولد صفحة بيضاء ، لا يملك سوى الغرائز الطبيعية التى تساعده على — البقاء ، والتكيف مع الظروف المحيطة به ، ثم يتدرج فى معرفة ما حوله عن طريق التقليد ، والمحاكاة فى محيط الأسرة والمجتمع ، فإذا استوى

على عوده ، تعددت مصادر معرفته ، وتختلف درجة الخضوع لواحد منها ، أو أكثر ، إلى الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد ، وهى كما ذكرها (هنترميد) فى كتابه (الفلسفة أنواعها ومشكلاتها) أربعة :

السلطة :

يذهب بعض العلمــاء إلى أن ــ المصدر النهائى للمعرفة ، هو سلطة من نوع ما ، كالدولة ، أو التراث أو الخبير ، (هناك سلطة دينية ، لا تخضع للبحث ، لأن الخضوع لنصوص الوحى ، خضوع مطلق ، لا مجال للعقل فيه) ، وذلك لاعتبارات منها القدم ، إذ يقال ، إن أقدم مصادر المعرفة ، هو أكثرها يقيناً ، فإن أقدم نظم الحكم ، وأقدم العادات هى على الأرجح تلك التى تمثل الحقيقة والصواب ، وقد شاع بين الناس أن « أقدم الطرق أفضلها » و « الذى تعرفه خير من الذى لا تعرفه ».

بنى هذا الرأى على مسلمتين ، إحداهما صحيحة ، والأخرى واضحة البطلان ، فالمسلمة المقبولة ، هى أن المذهب أو النظام ، كلما كان أقدم ، كان قد اجتاز اختيار الزمن أكثر من غيره ، وكان عمره ذاته دليلا على أنه قد اجتاز هذا الاختبار بنجاح ، فلما كانت أجيال متعاقبة من الناس ، قد وجدته صحيحاً ، فإن احتمال أن يكون صحيحاً بالفعل ، أقوى من احتمال صحة ما لم يمر إلا بفترة اختبار قصيرة ، ومن الممكن أن تعد هذه القاعدة فرعاً من قاعدة بقاء الأصلح . . . أما المسلمة الأخرى ، التى ترتكز عليها حجة القدم ، فسرعان ما يتضح لنا بطــلانها ، بمجرد أن نركز انتباهنا عليها ، فكثيراً ما يقول أنصار مذهب السلطة ، إنه لما كانت السن الكبيرة أحكم من الشباب ، فمن الواجب أن نبجل آراء أجدادنا ، وكما قال « و. ب مونتاجيو » ، فإن هذه مغالطة ، تتعرض لها الأذهان المحافظة بوجه خاص ، ولنقتبس هنا جزءاً من تحليله لهذا الخطأ :

« لو كان أجدادنا أحياء الآن ، لكانوا مسنين جداً ، ولكانت آراؤهم بوصفها نتيجة أجيال من الخبرة ، جديرة بالتبجيل حقاً . ولكن فى الوقت الذى صرح فيه أجدادنا بالآراء ، التى أصبحت الآن موغلة فى القدم ، والتى يطلب إلينا تبجيلها ، كانوا

صغاراً فى السن مثلنا ، وكان العالم الذى يعيشون فيه أصغر بكثير من حيث خبرة النوع ، فمهما يكن قدم آرائهم ، فإنها تعبر عن طفولة الجنس البشرى ، لا عن نضجه. ومن هنا فإن قدم الرأى هو فى واقع الأمر قرينة تنقص من حقيقته ، ولا تزيدها .

ومنها العدد :

فالمعيار الثانى الخارج عن نطاق السلطة للمفاضلة بين الادعاءات المتعارضة ، هو معيار العدد ، فالرأى الذى يقبله أكبر عدد من الأشخاص هو الصحيح ، وذلك باطل من الوجهة الدينية لقوله تعالى :

« وإن تُطِعْ أكثرَ مَنْ فى الأرض يُضِلوك عن سبيل الله » (الأنعام١١٦) .

وهذا أيضاً ما علمنا إياه التاريخ ، الذى يحفل بآراء للأغلبية ، ثبت بطلانها ، وأوضح مثل على ذلك هو حقيقة أن الأرض مسطحة ، وهى حقيقة كانت فى وقت من الأوقات اعتقاداً ، يقول به الجميع ولا يتشكك فيه أحد .

ومنها النفوذ .

هذا المعيار ينطوى على مشكلة ضمنية ، هى رأى الخبراء ، ما دام الخبير فى أى ميدان ، هو ذلك الذى اكتسب بوسيلة ما ، من النفوذ ما يكفى للنظر إليه ، على أنه سلطة ، أو حجة . ولعل هذا المعيار ، هو أقوى المعايير كلها تأثيراً ، لأن كل ذهن ، يتأثر بالنفوذ ، أو الهيبة ، مهما يكن محصناً ضد معيارى القدم والعدد . والمشكلة العملية التى تواجهنا ، ليست هى كيفية إزالة تأثير النفوذ من تفكيرنا ، ما دام ذلك يكون مستحيلا ، وإنما هى كيفية استخدامنا له بطريقة ذكية مشروعة .

إن الخطر الأكبر فى هذا الصدد ، هو الميل الطبيعى إلى تحويل النفوذ من ميدان إلى آخر ، وعلى حين أنه لا يوجد ميدان من ميادين الشئون البشرية ، يظل بمنأى عن هذه الإغارة الفاسدة ، فإن أوضح الحالات فى أيامنا هذه ، تظهر عادة بالنسبة إلى العلوم . فسلطة الخبير العلمى ، بين زملائه من العلماء ، وبين عامة الجمهور ، تبلغ من الضخامة حداً ، يجعلنا كلنا نتأثر على الأرجح ، بأى رأى يبديه فى أى موضوع .

ليس هناك شخص محصن ضد تأثير النفوذ ، فكلنا تقريباً لنا مفكر معين ، يؤثر فى تفكيرنا وحياتنا ، ونميل إلى الاقتداء به ، حتى فى الأمور التافهة

أو فى القرارات ، التى لا يكون للمفكر فيها مؤهلات خاصة ، قد تقدم توجيهـًا نافعـًا ، وقد يتركز هذا النفوذ حول مذهب ، أو اتجاه ، بحيث يصبح متحكمـًا فى تحديد التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية .

والمشكلة هنا ، ليست فى كيفية التخلص من كل سلطة ، فذلك محال ، ولكن فى طريقة اختيار الأصلح دينيـًّا واجتماعيـًّا . وطريق ذلك مزيد من القراءة ، والاضطلاع غير المحدود بجنس أو وطن أو مذهب ، حتى يزداد المرء علمـًا ، فيكون قادراً على الحكم ، وبالتالى على اختيار الأصلح .

التصوف :

يرى البعض أن أفضل مصدر للمعرفة ، هو ملكة فوق الحس ، وفوق العقل ، تـُحدَّد أحيانـًا بأنها (الحدس) .

فما هى هذه الملكة ؟

يقولون : إنها تجربة باطنية ، يحياها المتصوف ، فيكتسب منها أهم معرفة له ، وعلى الرغم من أن كثيراً من الصوفية ، قد حاولوا وصف هذه التجربة ، فمن سوء الحظ أنهم يؤكدون أنها فى أساسها تجل عن الوصف ، ويبدو أن إخفاق الجهود ، التى يبذلونها فى هذا الوصف ، هو دليل على رأيهم هذا . ومن أسباب ذلك ، أن التجربة مختلفة عن كل التجارب الأخرى ، إلى حد بعيد ، كما أن من أسبابه أنها تستحوذ تمامـًا على المرء ، عندما تحدث . وبناء عليه فعلى الرغم من كثرة الكتابات الصوفية ، فإنا لا نعرف بالفعل إلا القليل جداً ، عن التجربة الرئيسية ، التى كانت مصدراً لهذه الكتابات . ويمكن القول بأن معظم الناس ، قد مروا بتجربة شبيهة ، بتلك التجربة ، التى يتحدث عنها الصوفيون ، وذلك فى اللحظات ، التى يتأملون فيها الطبيعة ، أو عندما يكونون إزاء أعمال فنية عظيمة ، أو عندما يستمعون إلى موسيقى معينة ، وقد تحدث أيضاً لغير الصوفيين ، على أثر تجربة انفعالية معينة ، تتعلق بأشخاص آخرين كرؤية طفل ، أو محبوب نائم .

ومهما قيل فى التجربة الصوفية ، فواقعها لا يفهم إلا بطريق فردى مباشر ، وهو فى أساسه تجربة خاصة ، لا توصف ، ولا تقبل المشاركة ، فلا تعد أساسـًا لنقل المعرفة ، إلى الغير ، حتى على فرض التسليم ، بأنها مصدر من مصادر المعرفة لمن يمر بها .

العقل :

سبق الكلام على أن العقل وسيلة الفكر ، التى ميز الله به الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، فهو مصدر من مصادر المعرفة ، لأن الإنسان يعرف بواسطته الحقائق الأولية ، فقد أثبتت التجارب أن الذهن البشرى ، يستطيع بشىء من التدريب أن يصل إلى مستوى رفيع من الدقة فى استخدام الاستدلال للوصول إلى حقائق الأشياء . وهناك نماذج كثيرة ، استخدم فيها العقل للوصول إلى المعرفة اليقينية ، منها الدليل المشهور على وجود الله (تصور الله ، هو تصور كائن كامل — بل أكمل كائن نستطيع تصوره . مثل هذا الكائن ، إذا كان كاملا إلى هذا الحد ، لا ينبغى أن يكون مفتقراً إلى صفة من صفات الكمال ، فهو إذا كان مثلا يفتقر إلى الوجود ، فإن الكائنات الأخرى ، التى تتصف بالوجود ، تكون أكمل منه . ومن هنا فلما كانت قوانين الفكر ، تقضى بألا يكون هناك سوى كائن واحد ، هو (الأكمل) فلا بد أن يكون الله موجوداً) .

ومنها ما قاله (باسكال) حول ضرورة الاعتقاد فى وجود الله :

« نستطيع أن نقول : « إما أن يكون الله موجوداً وإما ألا يكون » ، ولكن إلى أى جانب ننحاز ! فلننظر فى الأمر : إنك لما كنت مضطراً إلى الاختيار ، فإن عقلك لن يشعر بإهانة ، إذا اختار أحد الأمرين ، أو الآخر ، فتلك نقطة واضحة . ولكن ماذا نقول عن سعادتك ؟ لنقارن الكسب والخسارة فى حالة المراهنة على أن الله موجود بالفعل . إنك إذا راهنت على أنه موجود وكان موجوداً ، فأنت الرابح . ولو راهنت على أنه موجود ، ولم يكن موجوداً ، فلن تخسر شيئاً ، فإذا كسبت ، ربحت كل شىء وإذا خسرت ، لم تخسر شيئاً .

فلتراهن إذن بلا تردد ، على أنه موجود بالفعل » .

كانت الوسيلة ، التى استعملت فى إنتاج الدليل الأول ، وفيما قاله (باسكال) ، هو العقل . فهو أساس المعرفة ، وإن ساعده الوحى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة . ولا يستطيع العقل القيام بهذه المهمة الفكرية ، إلا إذا تدرب ، ولن يتحقق تدريبه — فى عصرنا الحاضر — إلا بمطالعة ما أنتجه الفكر البشرى .

قد يقال : إننا لو تركنا مجال

(الميتافيزيقيا) — لأن الوحى قد قال فيه الكلمة الفاصلة — فإننا نجد أن العقول لم تتفق إلا على المبادئ الأولية الشاملة ، مثل « قانون عدم التناقص » وما عداها ، فلا نجد سوى آراء متعددة ، ومذاهب متطاحنة ، فكيف نعتمد على العقل كمصدر للمعرفة ؟ والحقيقة أن الخلاف ، هو جوهر المعرفة ، وقد عبر عن ذلك أحد أنصار المذهب العقلى ، حين وصفه بأنه : (النظرية القائلة ، إن المعرفة تكتسب بمقارنة الأفكار بأفكار أخرى) .

فالمعرفة الحقة ، تأتى من قدح فكرتين ، أو أكثر سويًّا ، وإلا جمد الفكر ، وتخلف المجتمع عن السير فى ركب الحضارة .

التجربة :

يقول (جورج ب — كونجر) : « إن الخصم المألوف للمذهب العقلى فى المعركة الدائرة بين النظريات المختلفة للمعرفة ، هو المذهب التجريبى ، القائل بأن المصدر النهائى لكل معرفة ، هو التجربة أو الإحساس ، ولا يلغى المذهب أهمية العقل ، والإحساس فى الوصول إلى المعرفة ، عن طريق التجربة ، فالعلم يبدأ من المعطيات الحسية ويصوغ (العقل) فرضاً تفسيريًّا ، وبعد ذلك يستنبط بالعقل أيضًا ، تلك النتائج ، التى يمكن توقعها ، عندما يجرى تجربة فاصلة (يستخدم فى وضعها العقل والإدراك الحسى معًا) ، وهذه التجربة ، هى التى تؤدى إلى تأييد فرضه ، أو تنفيذه على نحو قاطع ، وبعد ذلك يقوم بإجراء التجربة . وهذا معناه ، القيام بتحديد تجريبى لنتائج العمليات العقلية ، التى توسطت بين الملاحظة الأصلية ، وبين التجربة . وهكذا يكون لدينا فى العلم مزيج رائع من المنهجين ، العقلى والتجريبى . فكل منهما يقوم بما هو أهل للقيام به ، ويترك المنهج الآخر ما يكون هذا الأخير أقدر عليه » .

تشترك الشعوب كلها — رغم اختلاف عقائدها وظروفها البيئية — فى الحصول على ثقافتها ، عن طريق هذه المصادر الأربعة للمعرفة ، غير أنها تتفاوت فى نسبة اعتمادها على واحد أكثر من الآخر ، وتختلف تبعًا لذلك معالم الثقافة ، ودرجة الحضارة ، ونوعيتها وغير أن الاتصال بين الحضارات المتنوعة ، يؤدى إلى تبادل الأفكار ، والخبرات ، ويدفع عجلة التطور إلى الأمام . ولولا ذلك لكان على كل أمة أن تقطع

الطريق وحدها ، من أوله إلى آخره ، وفى ذلك إرهاق وعنت وإعاقة للتقدم الحضارى .

إذاً فالاتصال أمر حتمته ظروف الحياة ، وطبيعة التطور ، ولا يستطيع مجتمع ما ، أن يقصره على جانب ، دون آخر ، لأن الإنسان مشاعر وعقائد، كما أن له إنجازات حضارية ، ولا يمكن أن يحدث الاتصال ، لتبادل الإنجازات المادية للحضارة ، دون أن يصحب ذلك تعبير عن المشاعر ، والعقائد ، بطريقة أو بأخرى . ولذا ينبغى أن ندرس أفكاره وعقائده ، حتى نكون على بينة من طبيعته ، إذا اضطرتنا ظروفنا الحضارية أن نقيم معه علاقة .

عرفت شعوب كثيرة هذه الحقيقة ، فعقدت لأبنائها — قبل أن ترسلهم إلى الخارج — دورات دراسية للتعرف على عقيدة وعادات الشعب الذى سيرسلون إليه ، حتى يمكنهم التعامل معه بأسلوب يحقق أهدافهم .

ما أحوجنا نحن المسلمين ، إلى أن ندرس لدعاتنا ، أديان وعقائد الآخرين ، حتى يؤدوا مهمتهم — فى حالة إرسالهم إلى تلك البلاد — على أكمل وجه ! ! !

(حـ) الثروة :

لا أريد الدخول هنا فى متاهات الحديث عن مصادر الثروة ، ولا أرغب فى الكلام عن النظريات الاقتصادية ، فى توزيع الثروة ، بل أحب أن أشير إلى شىء معروف للجميع ، وهو ما تعبر عنه العبارة الشائعة : « المال عصب الحياة » ، وما عبر عنه الشاعر بقوله :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم
لم يبن ملك على جهل وإقلال

فالمال عنصر أساسى لا غنى عنه فى بناء الحضارات ، وقد قامت على أساسه منذ فجر التاريخ أنظمة كثيرة ، تمحضت فى العصر الحديث عن :

الرأسمالية — الاشتراكية — الشيوعية

ولكى نقيم النظام الإسلامى فى عصرنا الحاضر ، ينبغى أن ندرس هذه الأنظمة الأخرى ، كى نبين ، للعالم ، ولشبابنا أيضًا — لأنه واقع (أردنا أم لم نرد) تحت تأثير أجهزة دعاية هذه الأنظمة — جوانبها السلبية فى بناء علاقات إنسانية ، كتلك التى يتمتع بها النظام الإسلامى ، وتحتم علينا دراستنا لهذه الأنظمة ، بيان الجوانب العقدية ، التى بنيت عليها ، وهذا يقودنا إلى ضرورة دراسة الأديان والعقائد الأخرى .

٣ ــ الماضى :

إن دراسة التاريخ باستثناء دراسة تتابع الأسر الحاكمة ــ هى لون حديث من ألوان الفكر البشرى ، دُفع إليها الإنسان ، عندما تبين له أن معرفة الحوادث الماضية قوة دافعة تدفعه إلى الأمام ، فهو يهدى بالماضى ، ليعيش الحاضر ويبنى المستقبل .

فإذا بحثنا مشكلتنا داخل هذا الإطار فهل نجد بين طيات تاريخنا ، أن المسلمين درسوا الأديان الأخرى ؟

ينبئنا التاريخ أن المسلمين بدءوا فى دراسة الملل والنحل المختلفة ، فى وقت مبكر جداً ، إذ ظهرت أول دراسة لهذه الملل فى المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، فقد ترجم أحمد بن عبدالله ابن سلام التوراة والإنجيل للخليفة هارون الرشيد ، كما ذكر اليعقوبى المتوفى بعد سنة ٢٩٢ ﻫ فى تاريخه ، بيانات عن الأناجيل الأربعة ، واستشهادات دقيقة منها ، تدل على اضطلاعه عليها. وأورد المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ ﻫ فى « مروج الذهب » لمعًا عن أخبار الملوك المنتصرة ، ذكر فيها المجامع الدينية . وفى موضع آخر من الكتاب (جـ ١ ص ١٧٠) ، فى سياق حديثه ، عن النحل المختلفة ، أحال المسعودى القارىء ، على كتابه « أصول الديانات » ، وذكر ابن النديم فى « الفهرست » مقالات عن المذاهب والاعتقادات ، فيما يزيد على ستين صفحة .

ومن الكتب التى ألفها علماء مسلمون فى الأديان الأخرى :

ــ « الرد على النصارى » للجاحظ المتوفى ٢٥٥ ﻫ .

ــ « مقالات غير الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ ﻫ (ومن كتبه المفقودة كتاب الفصول الذى وصفه ابن عساكر ، بأنه يشتمل على اثنى عشر كتابًا ، رد فيه الأشعرى على البراهمة ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، كما ألف كتابًا آخر فيه بيان مذهب النصارى وكتابًا ثالثًا ، يحتج فيه عليهم من سائر الكتب) .

ــ « أصول الديانات » للمسعودى المتوفى ٣٤٦ ﻫ .

ــ « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » للبيرونى المتوفى سنة ٤٤٨ ﻫ .

ــ « الفصل فى الملل والنحل » لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ ﻫ .

— « الرد الجميل لإلٰهية عيسى بصريح الإنجيل » للإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ .

— « الملل والنحل » للشهرستانى — المتوفى سنة ٥٤٨ هـ .

— « مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان » لأبى عبيدة الخزرجى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ حققنا هذا الكتاب ونشرناه تحت عنوان : (بين الإسلام والمسيحية) .

— « اعتقادات المسلمين والمشركين » للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ، أن المسلمين كانوا أول من وضع بعض القواعد المنهجية ، فى دراسة الملل والنحل ، وذلك قبل أن يظهر عند الغربيين فى العصر الحديث ما يعرف باسم الأديان المقارن .

٤ — الحاضر :

يقف العالم الإسلامى اليوم على مفترق الطرق ، تتنازعه تيارات واتجاهات متعددة ، أصابت شبابه بحيرة فكرية فهو يسائل نفسه :

أيلبى نداء الماركسية ، الداعية إلى الحرية ، ومحاربة الاستعمار ، وبالمساواة بين الطبقات والمبشرة بغد أفضل ؟ ... لا . . . لا . . . ، فواقعها يكذب ما تقوله ، إذ لا توجد حرية فى المناطق ، التى تسيطر عليها ولم تتخل عن ممارسة أساليب الاستعمار مع الشعوب ، التى تقع فى دائرة نفوذها ، وفضلا عن ذلك ، فقد تمركزت مميزات الطبقات كلها فى طبقة واحدة ، ألا وهى طبقة زعماء الحزب الحاكم ، فهم يعيشون عيشة قياصرة القرون الوسطى ، بينما الشعب يقاسى من ألم الحرمان والجوع ، وفوق هذا كله فهى قائمة على الإلحاد وتلك هى الطامة الكبرى ! ! ! أم يسير فى فلك الرأسمالية ، ليتمتع بما تملك من انجازات حضارية ، فهى تقدم له وسائل الراحة ، فى جميع نشاطات الحياة وفضلا عن ذلك ، فهى تدعو إلى الديمقراطية ، وتحترم ، بل تقدس حياة الفرد ؟ . . . لا . . . لا . . . فماضيها المؤلم مع الشعوب الإسلامية ولا زال ماثلا فى الأذهان ، وهى لم تتخل عن محاولة السيطرة على الشعوب — وإن تغير الأسلوب القديم — التى تسير فى فلكها ، ولن تسمح يومًا ما — إن استطاعت — بأن يسود الإسلام ويقوى فى أى بقعة من بقاع العالم ! ! !

أم يطبق النظام الإسلامى ، فهو

الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد أثبتت التجارب صلاحيته، فحين طبق فى الماضى ، كانت الحرية حقاً لكل الناس ، والحياة الكريمة مكفولة للجميع ، والناس فى المجتمع سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟ . .

ولكن صورة الماضى القريب ، وما يسمعه من بعض المتحدثين باسم الدين ، يثبط همته ، ويوهن عزيمته ، فيَفْتُر حماسه ، وتهدأ ثورته ، ويبدو وكأنه قد صب عليه ماء بارد ، ذلك أنه قرأ فى تاريخ العالم الإسلامى فى القرون المتأخرة ، أن أصواتًا نادت آنذاك ، ومعظمها من المتحدثين باسم الإسلام ، بعدم الإتصال بأوربا ، التى كانت تبنى نهضتها فى ذلك الوقت ، . . . فانقطعت الاتصالات ، وانعدم الاهتمام بسبل الحياة فى العالم الخارجى ، وصار تتبع الأحداث العالمية ، لا وجود له ، فلا يعرف شىء عن مدى التقدم ، الذى تحرزه المجموعات البشرية الأخرى ، فى عالم الحضارة ، ولا تسمع أخبار الاكتشافات العلمية . . . إلى أن جاء الوقت ، الذى اضطر فيه العالم الإسلامى ، إلى فتح أبوابه على العالم الخارجى ، فوجد نفسه متخلفاً قرونًا طويلة ، ولم يستطع الوقوف أمام تيارات التقدم الهائل ، فقد أظهرت حملة نابليون « أن الصراع بين الشرق والغرب ، يدار بأسلحة غير متساوية ، فالمعركة بين طرفين غير متكافئين ، لأن تقدم البلاد الغربية منحها تفوقاً حضاريًّا ، ومكنها من أن تكون سيدة المعركة ، ولم يستطع العالم الإسلامى الصمود أمام هذا التفوق الحضارى ، لأنه عاش منطويًّا على نفسه حقبة طويلة ، أضعفته وأنهكته ، بحيث سقط أمام الزحف الغربى سياسيًّا واقتصاديًّا ويبدو أن الزمن قد وقف بالشرق قرونا طويلة ، فظل ثابتاً مجمداً ، لم يطرأ عليه جديد ، وبدا وكأنه لم ير هذه القرون ولم يعشها ، ولم يكن لما طرأ عليه من تغيير داخلى — فى نوع الحكم وتعدد الأحكام — أى تأثير إطلاقاً ، وبالتالى لم يكن له أى نوع من التطور السياسى والاقتصادى .

فإذا تلاشت هذه الصورة التاريخية من ذهن الشباب ، وأقبل على الإسلام محاولاً تطبيق تعاليمه فى مجالات الحياة المتعددة ، اعترضته عقبات ، إذ لم يقم المختصون بصياغة تعاليمه بأسلوب عصرى ، وبعضهم لم يفهم متطلبات العصر ، فأفتى بتحريم أشياء لا صلة

لها بالدين ، بل هى تدخل فى إطار ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بشئون دنياكم) . وتصدى لتيارات فكرية حديثة ، دون أن يعرف عنها ، إلا النذر اليسير — وأحياناً لا يعرف عنها إلا الاسم فقط ، فجاء حديثه عنها مثاراً للسخرية والاستهزاء .

ماذا تقدم الجامعة لهذا الشباب الحائر ؟ أتفرض عليه النظام الإسلامى ، دون أن تبين مزاياه ، وتوضح الجوانب السلبية ، فى النظم الفكرية الأخرى ؟

قد يقبله بدافع العقيدة ، ولكنه سيظل معرضاً للإصابة بأى تيار فكرى آخر — لأن الجامعة لم تسهم فى بناء فكر على أساس سليم ، ويومها لن يستطيع الخلاص إلا إذا سمع الداعية القادر على إقناعه بأن المذاهب الفكرية الحديثة ، لا تخلو من جوانب سلبية ، قد تكون خطراً على المجتمع ، ولا يمكن أن يقوم أى داعية بهذه المهمة ، إلا إذا درس تلك المذاهب دراسة وافية ، فعرف جذورها العقدية ، واتجاهاتها المادية والروحية .

٥ — المستقبل :

سوف يتحدد مستقبل الدعوة الإسلامية على ضوء مقدار فهم الدعاة لمتطلبات العصر ، فإدراكهم لعقلية الشباب عامل مهم جداً ، فى تأدية واجب الدعوة ، ودراستهم للتيارات الفكرية المعاصرة عنصراً أساسى فى نجاح مهمتهم ، ومعرفتهم للأديان الأخرى أمر حتمى ، فهم فى حاجة إلى ذلك ، سواء قاموا بالدعوة داخل المجتمعات الإسلامية ، أو فى خارجها لأن انتشار الأفكار ، لا تحده اليوم حدود جغرافية ، فالإذاعات تقتحم كل بيت ، كما أن للشباب — وخاصة المثقفين منهم — وسائل أخرى متعددة ، فى الاضطلاع على ثقافة ، ومعتقدات الآخرين . فإذا لم يكن الداعية على علم بها ، لا يستطيع التفاهم معهم . كذلك لا يمكنه القيام بمهمته خارج المجتمع الإسلامى ، على أكمل وجه ، إذا لم يعرف عقيدة من يخاطبهم .

دكتور / محمد شامة

نبيًا من وسط إخوتهم مثلك

كتاب التوراة يبشر برسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم

بقلم المستشار
محمد عزت الطهطاوى

فى مقال نشرته جريدة الأهرام القاهرية فى أحد أعدادها الماضية للدكتور طه عبد السلام خضير أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين التابعة لجامعة الأزهر أورد فيه بشارة من أحد كتب توراة موسى عليه السلام وهو سفر التثنية إصحاح ١٨ عدد ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ تشير فى معناها إلى مقدم الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ونصها كالآتى :

« قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا سوف أقيم لهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك – أما النبى الذى يجترىء بالكبرياء ويتكلم باسمى ما لم آمره به أن يقول أو بإسم آلهة غيرى فليقتل) .

لكن الأنبا غريقوريوس أسقف الثقافة القبطية والبحث العلمى حرر مقالا بعد ذلك فى جريدة الأهرام يرد فيه على مقال الدكتور طه عبد السلام خضير أورد به النقاط الآتية :

أولا : إن النص كما جاء فى التوراة هو كما يلى : والمتكلم هو النبى موسى إلى بنى إسرائيل (يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلبت من الرب إلهك فى حوريب فى يوم الاجتماع قائلا لا أعـود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا لئلا أموت – فقال لى الرب قد أحسنوا فيما قالوا – أقيم لهم نبيًّا من بين إخوتهم مثلك – وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به وبكون أن الإنسان الذى لم يطع كلامى الذى يتكلم به باسمى

فإنى أطالبه وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم آمره أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أُخرى فيموت ذلك النبى — وإن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب — فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصرفوا الكلام — الذى لم يتكلم به الرب بل يطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه) سفر التثنيه ١٨ عدد ١٥ — ٢٢ .

ثانياً : بالتأمل ملياً فى هذا النص القدسى يتضح : أَن موسى النبى هنا بناء على مكاشفة الرب الإلٰه له يعد بنى اسرائيل بأن الرب سوف لا يهملهم بل سيتعهدهم بالرعاية والاهتمام وما داموا قد ارتعدوا ارتعاداً شديداً من مظاهر التجلى الإلهى على جبل حوريب فى سيناء بالرعود والبروق والسحاب الثقيل على الجبل فإن الرب سوف لا يكلمهم من خلال تلك المناظر الرهيبة التى لم يتحملوها — وإنما سيكتفى مستقبلا بأن يكلمهم فى هدوء من خلال الأنبياء الذين سيرسلهم نبياً فى أثر نبى على غرار نبيه موسى الكليم — فالنبى يتلقى الرسالة من الرب الإلٰه ثم يبلغها إلى شعب بنى إسرائيل كما تلقاها من الله تعالى وبكل أمانة — وانتهى الأنبا غريقوريوس بعد تلك المقدمة الطويلة إلى الهدف الذى يرمى إليه أَلا وهو أن النبى المقصود فى النص المشار إليه هو كل نبى يرسله الله إلى شعبه بنى إسرائيل مما يعنى أن — النص لا يشير إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يصرح بذلك علناً فى مقاله

ثالثاً : وأما قوله (نبياً من وسطك من إخـــوتك مثلى) فالمقصود به كما هو واضح من النص أن يكون من بين بنى إسرائيل وليس من شعوب أخرى هو من أمثال النبى موسى — فصموئيل النبى وداود وسليمان وأشعيا وأرميا وحزقيـــال ودانيال وميخا ويونان وزكريا وغيرهم من الأنبياء الكثيرين الذين جاءوا بعد موسى كلهم كانوا من بين بنى اسرائيل ومن وسطهم — وإذن فالنبى المشار إليه فى نص سفر التثنية هو كل نبى أرسله الله من بعد موسى إلى بنى اسرائيل ، والكلام ينطبق لا على نبى بالذات بل الكلام كلام عام يشمل جميع الأنبياء الذين ظهروا من بين بنى إسرائيل — ويهدف الأنبا غريقوريوس من ذلك إلى إبعاد البشارة المذكورة عن شعب العرب أبناء اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

رابعاً : كذلك قول الله تعالى (واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به ويكون أن الإنسان الذى لم يطع كلامى

الذى يتكلم به باسمى فإنى أطالبه) — كلام عام لا يخص نبياً بعينه بل يشمل كل نبى لله — فإن ما يقوله النبى ليس منه بل من الله يتكلم به على فمه — ولذلك يوصف الروح القدس بأنه «الناطق فى الأنبياء) وقال الكتاب المقدس (عالمين هذا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون محمولين بالروح القدس) ٢ بطرس ص ١ عدد ٢٠ — ٢١ .

هذا ما ذكره الأنبا غريقوريوس فى رده على الدكتور طه عبد السلام خضير أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين .

وفى ردنا على ما أثاره الأنبا غريقوريوس نشير إلى ما يلى :

أولاً : أن النص الذى أورده الأنبا غريقوريوس يختلف عن النص الوارد فى الكتاب المقدس والذى تنشره دار الكتاب المقدس حالياً والمطبوع بدار حلمى للطباعة وهو على سبيل المثال قد ابتدأ به من عدد ١٥ بدلا من عدد ١٧ الذى ابتدأ به الدكتور طه عبد السلام خضير (يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلبته من الرب إلهك فى حوريب — يوم الاجتماع قائلا : لا أعود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا — أقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك — وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به . . إلخ . . ما جاء بالنص) فقد زاد الأنبا غريقوريوس كلمة (فى) قبل يوم الاجتماع — وزاد فى النص أيضاً حرف (الفاء) على جملة قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا واستبدل كلمة (قالوا) بدلا من كلمة تكلموا السابقة .

ومعلوم أن سبب تلك الاختلافات بالزيادة أو بالنقص فى الحروف والكلمات وفى تقديم بعضها وتأخير البعض الآخر وكذا استبدال بعض الكلمات راجع إلى أن المتداول بالأيدى هو ترجمات الكتاب المقدس وليست هى ذات الأصل — والترجمة الحرفية التى يتفق — فيها نص أى كتاب مقدس فى لغته التى أنزل بها مع الترجمة يستحيل تحقيقها فى الواقع مهما كانت قوة المترجم أو الهيئة التى قامت بتلك الترجمة — ولعل هذا هو السر فى أن علماء الإسلام قد حسموا ذلك الأمر بالنسبة للقرآن الكريم فقرروا بمنتهى الحزم عدم إمكان ترجمته بأى حال من الأحوال

وكل ما يباح هو ترجمة معانيه إلى اللغة المطلوب إجراء تلك— الترجمة إليها — وفى بداية النص فإن المتكلم حقيقة هو النبى موسى وذلك فى عدد ١٥ ، ١٦ لكن باقى النص وهو ابتداء من عدد ١٧ هو من كلام الله حتى عدد ٢٢ .

ثانياً : إن ما ذهب إليه الأنبا غريقوريوس من أن المقصود بالنص المشار إليه هم الأنبياء الذين سيرسلهم الله نبياً فى إثر نبى على غرار نبيه موسى قول يجانبه الصواب لأنه :

١ — ينقضه صريح قول بطرس فى سفر أعمال الرسل فى الإصحاح الثالث عدد ١٩ إلى عدد ٢٤ — وهو (فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ويرسل يسوع المسيح المبشر به لكم قبل — الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شىء التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر — فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون فى كل ما يكلمكم به — ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب) .

٢ — وشبيه بقول بطرس قول استفانوس الذى اختاره تلاميذ المسيح لما كان مشهوداً له بالإيمان وذلك فى الإصحاح السابع من سفر أعمال الرسل عدد ٢٧ ، ٢٨ وهو (هذا هو موسى الذى قال لبنى إسرائيل نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون هذا هو الذى كان فى الكنيسة فى البرية مع الملاك الذى كان يكلمه فى جبل سيناء ومع آبائنا الذى قبل أقوالا حية ليعطينا إياها) . . ففى هذين النصين لم يذكر بطرس و استفانوس أن هذا الذى بشر به موسى النبى هم الأنبياء الذين سيرسلهم الله نبياً فى إثر نبى كما يذهب إلى ذلك الأنبا غريقوريوس — لذلك كان تفسيره المشار إليه للنص محل البحث تفسيراً لا أساس له بل ويناقضه صريح نصوص الكتاب المقدس والتى تجمع على أن النبى الذى بشر به موسى نبى معين بذاته وأن صرفوا النص إلى المسيح عليه السلام تعصباً .

ثالثاً : إن المتدبر لهذه البشارة يتبين له أن هذا النبى المعين الذى بشر به النبى موسى لا يخرج من بين بنى إسرائيل مطلقاً وذلك للأسباب الآتية :

١ — أن النص يشير إلى أن الرب يقيم لشعب بنى إسرائيل هذا النبى (من إخوتهم) وهؤلاء الإخوة لشعب بنى اسرائيل هم العرب أبناء اسماعيل

ابن إبراهيم عليهما السلام ويشير الكتاب المقدس إلى استعمال لفظ الأخوة بين أبناء العم طبقاً لما جاء فى سفر التكوين عن أبناء اسماعيل فى قوله (هؤلاء هم بنو إسماعيل وهـــذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم إثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم — وهذه سنو حياة إسماعيل مائة وسبع وثلاثون سنة وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه وسكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو أشور أمام جميع إخوته نزل) — سفر التكوين الإصحاح ٢٥ عدد ١٦—١٨ .

وشبيه بذلك ما ورد بسفر العدد فى قوله (وأرسل موسى رسلا من قادش إلى ملك أدوم هكذا يقول أخوك اسرائيل قد عرفت كل المشقة التى أصابتنا) انظر الإصحاح العشرين عدد ١٤ من سفر العدد .

ومثله أيضاً قوله الوارد فى سفر التثنية (وأوصى الشعب قائـــلا أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير فيخافون منكم فاحترزوا جداً لا تهجموا عليهم) انظر سفر التثنية اصحاح ٢ عدد ٤ ، ٥ .

فبنو إسماعيل وملك أدوم وبنو عيسو كانوا أبناء عمومة لبنى إسرائيل ولم يكونوا إخوتهم ومع ذلك ورد بالنص أنهم إخوتهم .

٢ — إن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام الله فى عدد ١٧ ، ١٨ من سفر التثنية لم يورد لفظ (من وسطك) المذكورة فى بداية النص بل جاء بالنص (قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا — أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك) ولا يجوز أن يكون ما قاله موسى مخالفاً لما قاله الله .

٣ — إن القديس بطرس فى الاصحاح الثالث عدد ١٩ — ٢٤ من سفر أعمال الرسل لم يورد لفظ (من وسطك) فيما ذكره عن هذه البشارة — وكذلك الحال بالنسبة للقديس استفانوس فلم يذكر لفظ (من وسطك) فى الإصحاح السابع عدد ٢٧ ، ٢٨ من سفر أعمال الرسل .

٤ — وحتى مع التسليم بوجود لفظ (من وسطك) فى بداية النص وتعارضه مع باقى النص فإنه يمكن التوفيق بينهما إذ النبى محمد صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة المنورة وبها تكامل أمره كان يحيط بالمدينة كثير من قرى بنى إسرائيل وقبائلهم كخيبر وبنى قينقاع والنضير وغيرهم لذلك يمكن القول بأنه قام بدعوته (وسطهم) رغم أنه من العرب أبناء إسماعيل بن إبراهيم وهم إخوتهم كما وضحنا سابقاً .

٥ — إن صرف هذه البشارة إلى

المسيح عليه السلام أو إلى أحد أنبياء بنى إسرائيل قول لا يحتمله النص من عدة وجوه :

(ا) إن المسيح ينتسب إلى بنى إسرائيل وصراحة النص محل البحث كما أشرنا تشير إلى أن هذا النبى الذى بشر بمجيئه موسى النبى لا يكون من بنى إسرائيل بل يكون من بين بنى إخوتهم أى من بنى عمومتهم .

(ب) إن هذا النبى المبشر به ويكون مثل موسى — لا يجوز بأى حال أن يكون من بين بنى إسرائيل طبقاً لما ورد فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنيه عدد ١٠ قوله (ولم يقم بعد نبى فى اسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه) فان قام أحد مثل موسى بعده من بنى اسرائيل يلزم تكذيب هذا النص .

(ﺣ) لا توجد مماثلة تامة بين النبى موسى والمسيح لأن المسيح صار فى عقيدة النصارى إلهاً أما موسى فلم يكن إلهاً بل كان عبداً لله .

(د) فى اعتقاد النصارى أن المسيح مات مصلوباً وصار لعنة (انظر رسالة بولس فى الإصحاح الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية عدد ١ ، عدد ١٣ — أما النبى موسى فلم يمت مصلوباً لم يصر لعنة .

(ﻫ) إن المسيح فى عقيدة النصارى دخل الجحيم (انظر رسالة بطرس الأولى ص ٣ عدد ١٩) لكن موسى لم يدخل الجحيم .

(و) إن النبى موسى كان رجل حروب لكن المسيح لم يكن كذلك .

(ز) إن شريعة موسى تشتمل على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة المسيح فهى خالية منها طبقاً لما تشهد به الأناجيل المتداولة والرسائل الملحقة بها لأنه لم يأت بشريعة مستقلة بل كانت مكملة لشريعة التوراة . .

(ح) وكيف نصدق المماثلة بين النبى موسى والمسيح وهم ينسبون إلى المسيح قولا فى الإصحاح العاشر عدد ٨ من إنجيل يوحنا عن الأنبياء الذين أتوا قبله ومنهم موسى النبى (جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص) .

رابعاً : إن المتأمل فى جملة (واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به) يجدها تختلف فى مبناها ومعناها عن الجملة التى تصف الروح القدس بأنه (الناطق فى الأنبياء) — كما تختلف الجملة الأولى المشار إليها عن تلك التى

وردت برسالة بطرس الثانية إصحاح ١ عدد ٢٠ ، ٢١ فى قوله (عالمين هذا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون محمولين بالروح القدس) . فإن جملة (واجعل كلامى فى فمه إلخ) تعنى أن ذلك النبى المبشر به يكون أمياً لا يقرأ ولا يكتب لكن يوحى إليه بكلام الله فينساب بنصه ولفظه على فمه ويكون أميناً على كتاب الله بحفظه فلم ينخرم فيه لفظ ولا اختل فيه معنى ولا تغير له ترتيب ودون أن يزيد عليه أو ينقص منه حرفاً واحداً فإذا سئل من قومه عن مسألة ما فإنه لا يجيب عليها من عند نفسه بل ينتظر ما ينزل عليه فيها — من الآيات ولو تضمنت الآية لفظ (قل) ذكره أيضاً بنصه مثل قوله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) سورة البقرة ٢٢٢ — وكقوله (ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن) سورة النساء ١٢٧ .

فالكلام والكتاب على هذا النبى من الله وليس من الروح القدس — الذى هو ملك الوحى — ودور ملك الوحى لا يخرج عن كونه سفيراً بين السماء وبين هذا النبى لنقل كلام الله بنصه فى ألفاظه وحروفه ثم النزول به على قلب ذلك النبى وبناء على ما سبق إيضاحه فإن النص المشار إليه لا يشير إلى كلام عام ولا يشمل كل نبى لله — بل يشمل ويخص نبياً بعينه — له صفة الأمية — لا يقرأ ولا يكتب بل يبلغ كلام الله الذى أنزل عليه ومنها أمور غيبية وقعت كما أخبر عنها طبقاً لما احتوته صحاح السنة المطهرة . .

أما ما أورده الأنبا غريقريوس من أقوال عن روح القدس فهى لا تخرج عن كونها أوصافاً خلعها النصارى على روح القدس فيقولون عنه (الناطق فى الأنبياء) فتعينهم فى أمر التفسير للنصوص مثلا مثل قول القديس بطرس (عالمين هذا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص — لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون محمولين بالروح القدس) .

ويبدو أن سبب الخلط عند النصارى فيما هو منسوب إلى الله وبين ما هو منسوب إلى روح القدس هو أنهم يعتقدون أن الروح القدس هو الله نفسه لكنه اتصف باقنوم الروح القدس مثلما اتصف باقنوم الإبن أو الكلمة وهذه هى الأقانيم الثلاثة أو التثليث كعقيدة عند النصارى الأرثوذكس (الأقباط) .

مع أن روح القدس هو كما وضحه النبى إشعيا فى سفره الملحق بكتاب التوراة فى الإصحاح ١١ عدد ١ وما بعده هو أنه (روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب ولذته تكون فى مخافة الرب فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه بل يقضى بالعدل للمساكين . . . إلخ .

ويوضح ذلك العالم المسيحى سبينوزا فى كتابه رسالة اللاهوت والسياسة فى الفصل الأول وذلك بقوله أن روح القدس لا يعنى سوى أنه كانت للأنبياء فضيلة خاصة فوق المعتاد وأنهم كانوا يثابرون على التقوى دوماً وكانوا بالإضافة إلى ذلك قادرين على إدراك فكر الله أو حكمه .

إذاً على من تصدق بشارة النبى موسى المشار اليها فى صدر هذا المقال ؟

لا شك أن هذه البشارة لا تصدق إلا على النبى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه خرج من العرب أحفاد اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فهم إخوة لبنى إسرائيل لأن اسحق الذى ينتسب إليه الإسرائيليون هو أخ لإسماعيل وإبراهيم الخليل هو والدهما . . وقد ذكرت التوراة طرفاً من شرف إسماعيل عليه السلام : وقد باركه الله سبحانه وتعالى كما بارك على اسحق جد بنى إسرائيل .

١ — فقد ورد بالاصحاح السادس عشر من سفر التكوين عدد ١٠، ١١، ١٢ قول ملاك الله لهاجر أم اسماعيل (وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة — وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين إبنا وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن) .

٢ — وكقوله فى الإصحاح السابع عشر من السفر المذكور عدد ٢٠ (وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً إثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة) وهذه أمة الإسلام فى الوقت الحاضر أبناء وأحفاد اسماعيل أمة كبيرة . وهناك وجه تماثل بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم وبين موسى عليه السلام فى أمور كثيرة منها على سبيل المثال :

(ا) دعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد الخالص مثل موسى فى دعوته إلى التوحيد .

(ب) انكاره من يدعو إلى غير الله

وكذلك كان موسى النبى .

(جـ) كونه عبداً لله — ورسول من عند الله وكذلك موسى عليه السلام .

(د) إن له والدين كما لموسى عليه السلام .

(هـ) أمره لامته أن تدعوه عبد الله ورسوله .

(و) كونه قد تزوج النساء وأنجب الأولاد .

(ز) كان كل منهما رجل حروب إذ جاهدا وحاربـا أعداء الله .

(ح) لم يقتل أى منهما بل مات على فراشه وكونه صلى الله عليه وسلم مدفونا فى الأرض مثل موسى .

(ط) إن الكتاب الذى أنزل عليه اشتمل هو والسنة النبوية المطهرة على العقيدة والشريعة بأقسامها المختلفة وأحكام تلائم الناس الذين بعث إليهم فى المسائل المدنية والجنائية وأحكام الزواج والطلاق والمواريث وذلك مثلما أنزل كتاب موسى فى زمانه ملائمـا لحال من أنزل إليهم .

(ى) اشتمال القرآن الكريم مثلما اشتمل كتاب موسى على أحكام الطهارات والاغتسال والوضوء وفرائض الصلاة والزكاة وباقى العبادات .

ما هو رأى الأسرائيليين أنفسهم فى هذه البشارة الواردة فى أحد أسفار التوراة ؟

لا شك أن الاسرائيليين هم أقدر الناس على فهم كتابهم وبيان المقصود من بشارة أنبيائهم — وقد تأكد من أقوال من برأه الله من التعصب الذميم منهم أن هذه البشارة لا تتعلق إلا بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم — فهذا هو شموائيل بن يهوذا بن أيوب كان من الإسرائيليين فى مدينة فاس بأقصى المغرب اشتغل بالكتابة بالقلم العبرى ثم بعلوم التوراة وتفاسيرها ثم اطلع على سائر العلوم المختلفة وقد توفى سنة ٥٧٠ هـ يقول فى رسالته (بذل المجهود فى إفحام اليهود) عن هذه البشارة إنها دالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا يستطيع كائن من كان أن يجحد تعلقها بنبى الإسلام .

مما تقدم تبين بوضوح أن كتاب التوراة وهو كتاب موسى عليه السلام بشر ببعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم — وصدق الله إذ يقول فى محكم آياته (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) سورة المزمل ١٥ .

المستشار محمد عزت الطهطاوى

قضايا لغوية ..

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

٢

فى عصر التقدم العلمى استفادت العلوم كثيراً ، واستفاد بالتالى (علم اللغة) فدخل مجال التصوير والتسجيل والتحليل ، وعند رصد النتائج كان التقدم ملموساً ومرضياً * .

وعلوم اللغة متشابكة مع غيرها متداخلة فى ارتباط وتأثير وتأثر ، فلم يبق المجال للغويين وحدهم ، بل حتم عليهم العلم الحديث أن يفسحوا مجالاً لغيرهم من علماء : الأصوات ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، ومبادىء علم

* والأزهر حامى تراث العربية والإسلام رأى فى عام ١٩٦١ ألا يتخلف عن الركب الحضارى فى مضماره وحتى يكون عطاؤه أوفى وأكثر حداثة ، وحتى لا يفوته القطار ، فخطط لمنح وابتعاث إلى دول لها شأو فى مضمار التقدم . . إلا أن هذه الخطط تعثرت حينا ، ثم بذلت إلى دول تلهث لتلحق بعصر التكنولوجيا لأسباب ليس هنا مجال سردها . . فكان الأمل سراباً واهياً لا يبشر بنهضة ، ولا يعد لثمرة ، والأمل كبير اليوم فى بعث ونهضة تعيد للأمر سواءه واستواءه ، فتكون الإفادة والاستفادة . .

الاجتماع . . . ليقولوا كلمتهم ، فيتكامل بحث المقدمات على أسس منهجية ، ومن ثم تكون النتائج مرضية :: هذه ملاحظة .

وعمل اللغويين — عموماً — فى الحقيقة — كما يرى أصحاب المنهج الوصفى هو تقرير واقع ، لا تعليل لنشأة هذا الواقع ، وتفسير الأسباب التى أدت إليه لأن اللغة قديمة جداً ، ولم يأتنا خبر نشأتها الأولى ، ونشأت مع الانفعالات والعواطف فى جوانبها المتعددة وسايرت الفكر فى أدواره وتطوره .

ومن ثم تحدرت جميع اللغات إلى شعوبها ممزوجة بانعدام المنطق ، فهى ليست منطقية ولا قياسية تخضع لقوانين صارمة كما يقول أرسطو ، وكما يبالغ أصحاب المنهج الفلسفى . . وحسبنا اذن أن نقترب من الحقائق فى احتفاء ويقظة ، ونفترض ونقيس فى إطار الاشباه والنظائر ، وما تسفر عنه

الحفريات ، وما تسديه المقارنات .

وموقف أصحاب المنهج الوصفى — إذن — كموقف [1] ، « أصحاب الفقه عندما يقولون : « ما جاء على أصله لا يسأل عن علته » . وابن جنى يقول :

« العلل فى جوهرها تعود إلى المتكلم العربى ، لا إلى عوامل لفظية » ويقول ابن مضاء القرطبى : (لو أن العرب قالوا : إنّ زيد، بتشديد النون وجر زيد، أو أن زيد ، برفع زيد ، لقبلنا قولهم على أنه الفصيح .

ولكننا نعلم أولادنا ألا يقولوا : أن زيد ، أو أن زيدٌ ، بالجر أو بالرفع » .

ومعنى ذلك أن علوم اللغة لا تخدم بالمنهج الفلسفى الصارم ، لانبهام تاريخها القديم ، وندرة شواهدها . وإنما نستفيد ويفيدها المنهج الوصفى ، الذى يصف الواقع ، ويسأل الشقائق ، ويفرض المقبول ، ويقيس الغائب على الشاهد . . وتلك ملاحظة أخرى .

وحين نفكر فى حال اللغة العربية قبل ظهور المسيحية (أى قبل ظهور الإسلام بسبعة قرون » نجد أنفسنا فى ظلام دامس . . فليس بين أيدينا نصوص عربية ترجع إلى تلك العهود : فاقدم ما عثر عليه لا يكاد يجاوز القرن الثالث الميلادى وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة قبل المسيحية ، أو أنها أحدث من شقيقاتها السامية ، كالعبرية مثلا . بل يؤكد لنا المستشرقون أن اللغة العربية المألوفة لنا ، قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم ، أكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى »[2] .

ومعنى هذا أننا فقدنا نقطة البدء التى ننطلق منها لدراسة لغتنا . . ولكن أبحاث النحو المقارن للغات السامية كشف كثيراً من سمات وعلاقات الملامح والوشائج اللغوية لهذه المجموعة . . ومن هنا تحتم أن تتم دراسة العربية وتطورها وتاريخها فى ضوء الساميات ، وقد توافرت وتضافرت نواح عديدة لتلك الدراسات فى الحقبة الأخيرة من العصر الحديث .

وإذا نادى البعض بدراسة المجموعة السامية فى ضوء المجموعة الحامية ، لتجاور المجال الجغرافى للمجموعتين ، فهو جد مصيب ، لمظنة التأثير والتأثر كدأب اللغات حين تتجاور وتحتك .

وتتسع الدائرة الدراسية عند الأب

(١) نظريات فى اللغة ، للأستاذ أنيس فريحة ٨٤ .

(٢) اللهجات العربية ا.د. إبراهيم أنيس ٣٣.

أنستاس الكرملي ، حين يقرر بأن العربية قد أثرت حتى فى مجموعة اللغات الهندية والأوربية يقول: «كل كلمة ذات هجاء – مقطع – أو هجاءين ، فى الرومية أو اليونانية ،ولم تكن من أصل منحوت ، بل من وضع أصيل ، أو توقيفى ، فلا بد من أن يكون لها مقابل فى لغتنا المضرية » [١] .

ويستشهد لرأيه بأمثلة كثيرة .

ومعنى ذلك أن عبئًا جديداً سيضاف على عاتقى باحثى اللغات بعامة ، ولغتنا العربية بخاصة » غير أن المشتقات تهون . بجانب إزاحة السجف ، وتبديد الأوهام عن حقبة موغلة فى القدم من تاريخ لغتنا العزيزة ، بقيت حينا من الدهر فى حجاب مستور .

وبعد هذه الملاحظة الثالثة ، نسلم فكرنا للمنهج الوصفى فيقودنا عبر رحلة مضنية ومثيرة فى تتبع جانب لغوى للغتنا العربية ، يتطلب مزيداً من البحث لمزيد من النور ،

ونقف الآن وقفة بين يدى « الأحاوية فى اللغات بعامة، وفى العربية بخاصة ».

يرى بعض العلماء أن كل لغات العالم القديم تعاقبت عليها أطوار وأدوار ، وأن طورها الأول ، جعل من كل كلمة من كلماتها (هجاء واحداً ، فتوضع الكلمة إحداها بعد الأخرى ، بحسب نظامها النطقى لتأدية المعنى المقصود ، ولغة الصين إلى الآن على هذا الوضع) .

ويؤيد ذلك الشيخ [٢] العلايلى للغات كلها [٣] – وأن دورها الأول : (ذو المقطع البسيط ، أى أدنى المقاطع ، مثل (au) وهذا هو الدور الذى ولد المقاطع الأحادية ، والتى هى الجدول الهجائى الفينيقى المتخيل ، وسنذكره فيما بعد ، ويرى أن هذا الجدول يحدد المعانى الكلية التى صاحبت نشأة الحرف فى ألسنة الناطقين الأوائل باللغة .

وهذه المرحلة قديمة قدم التاريخ ، تربط بين اللغة والانسان الفطرى الذى (لا يكاد يرتفع عن مستوى النوع ، الذى هو فصيلة من فصائله المشاكلة) .

(١) نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ، للاب انستاس مارى الكرملى ١٥٨ .

(٢) الشيخ العلايلى دائب النظر فى اللغة العربية ، بفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ويجيد عدة لغات ، وشرح فى محاولة جريئة لوضع (المعجم العربى) وحده لوثوقه من نفسه فجاءت محاولة فذة ، حبذا لو تبنتها المعاجم اللغوية ، لتتم ما بدأ . . وما رأيته فى (بيروت) – أمد الله فى عمره – الا عاكفاً على قاموس قديم يراجعه ، أو فكرة لغوية يحللها ، أو شاردة وواردة يقيدها .

(٣) مقدمة لدراسة لغة العرب. للشيخ عبد الله العلايلى ٢٣ .

ويرى الشيخ أن هذه الأصوات لم تنطبع بطابع خاص يميزها ، بل كانت جارية مجرى الأصوات الاضطرارية ، التى تولدت عن الانفعالات ، ولم تتشكل فيها الأصوات ولم تتميز فيها المقاطع : (كالانين ، والعنين ، والأحيح والهمهمة ، والزحير ، والنحيم ... وضرب لذلك مثلا بالمقطع (عو) بضم العين ، الذى يدل على الحيوانات الزئيرية و (وا) الذى يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، وعنه نشأ الفعل (وو) بمعنى وصل فى العبرية .

ثم تطورت هذه الأصوات حتى أصبحت ذات أغراض ثابتة ، بعد تولد المقاطع الأحادية ، ومنها تكون الجدول الهجائى ، والذى أخذت منه كل لغة ما يناسبها من أصوات ، وكل حرف صامت ، أو مصوت (حركة) فى هذا الجدول له دلالة مستقلةو « من الممكن جداً تعيين دلالات هذه الحروف بأصواتها حين كانت لغة . . على شىء من الافتراض المقلوب ، وسبيل هذا التعيين المعلات (أى الأفعال المعتلة) مطلقاً وبالأخص اللفيف مطلقاً فى العربية وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد وإنما تنتقل فيها بالمقارنة إلى ما هو الأدخل فى تفكير الساذجين واعتباراتهم » .

وأحال الشيخ العلايلى على لغات سامية ، للحصول على نماذج تقرب الدلالة الأصلية للحرف أو الصوت :

فاللغة (الفينيقية) استخدمت فى رسم مقطع الألف شكل رأس الثور ، ومعنى هذا المقطع أيضاً هو رأس الثور .

ومثل هذه الحروف كانت تدل على أجناس معانيها الفينيقية فى العهود الأولى .

فبداية استعمال الإنسان اللغة كانت أحادية ، فى صورة أصوات وحروف منفصلة ذات دلالات قديمة ، ثم تطورت هذه المقاطع الأحادية إلى ثنائية وثلاثية . . كما صورها الشيخ العلايلى فى افتراضاته وتصوراته المبنية على الشواهد وسنة الرقى ، وإرتقاء الأدوار . .

ونثبت هنا نص الجدول الهجائى[1] ، الذى رآه الشيخ العلايلى نواة للغة فى دورها القديم :

١ ــ الهمزة : تدل على الجوفية ، وما هو وعاء للمعنى ، وتدل على الصفة غالباً .

٢ ــ الباء : تدل على بلوغ المعنى فى الشىء بلوغاً تاماً ، وعلى القوام الصلب بالتفعل .

٣ ــ التاء : تدل على الاضطراب فى الطبيعة ، أو الملابس للطبيعة فى غير ما يكون شديداً .

---

(١) السابق ٣١٠ .

٤ ــ الثاء : تدل على التعلق بالشيء تعلقاً له علامته الظاهرة ، سواء فى الحس أو فى المعنى .

٥ ــ الجيم : تدل على العظم مطلقاً .

٦ ــ الحاء : تدل على التماسك البالغ ، وبالأخص فى الخفيات ، وتدل على المائية .

٧ ــ الخاء : تدل على المطاوعة والانتشار ، وعلى التلاشى مطلقاً .

٨ ــ الدال : تدل على التصلب ، وعلى التغير المتوزع .

٩ ــ الذال : تدل على التفرد .

١٠ ــ الراء : تدل على الملكة ، وعلى شيوع الوصف .

١١ ــ الزاى : تدل على التقلع القوى .

١٢ ــ السين : تدل على السعة والبسطة من غير تخصيص .

١٣ ــ الشين : تدل على التفشى بغير نظام .

١٤ ــ الصاد : تدل على المعالجة الشديدة .

١٥ ــ الضاد : تدل على الغلبة تحت الثقل .

١٦ ــ الطاء : تدل على الملكة فى الصفة ، وعلى الانطواء والانكسار .

١٧ ــ الظاء : تدل على التمكن فى الغؤور .

١٨ ــ العين : تدل على الخلو الباطن أو الخلو مطلقاً .

١٩ ــ الغين : تدل على كمال المعنى فى الشيء .

٢٠ ــ الفاء : تدل على لازم المعنى (أى الوضع فى المعنى الكنائى) .

٢١ ــ القاف : تدل على المفاجأة التى تحدث صوتاً .

٢٢ ــ الكاف : تدل على الشيء نتج عن الشيء فى احتكاك .

٢٣ ــ اللام : تدل على الانطباع بالشيء بعد تكلفه .

٢٤ ــ الميم : تدل على الانجماع .

٢٥ ــ النون : تدل على البطون فى الشيء أو على تمكن المعنى تمكناً تظهر أعراضه .

٢٦ ــ الهاء : تدل على التلاشى .

٢٧ ــ الواو : تدل على الانفعال المؤثر فى الظواهر .

٢٨ ــ الياء : تدل على الانفعال المؤثر فى البواطن .

وفى نظرة سريعة للمعانى التى أثبتها الشيخ للجدول الهجائى ، نجد تمكنه

وإحاطته اللغوية ، لطول معاناته وكلفه بها ، كما نجد أن المعانى تحيط بحاجيات الإنسان الأول ، بل وتفوقها ، ففيها :

الشىء وصفته ، واللين والصلابة ، والاستقرار والقلق ، والتماسك والتلاشى ، والتفرد والانجماع ، والغلبة والانكسار ، والتوقع والمفاجأة ، والطبع والتطبع . .

ولذا يدعونا الشيخ العلايلى واضع اللغة الجديدة إلى الاقدام على الوضع ، لتفى لغتنا بما نطلبه منها ، بدون تردد أو خوف ، لأنه : « بتقرير هذه القواعد للاشتقاق أصبح الوضع معبَّداً جداً : فهو من موقع المادة فى التفريع ، ومن هيئة — اجتماع الحروف يعين الخصوصية فى غير تكلف .

« . . فروح الشيخ الثائرة تدعونا للوضع الجديد ، وهى دعوة حرية بالنظر والتفهم والتنفيذ ، حتى لا تتهم لغتنا بالعقم أو القصور والجمود .

والشيخ فى تصوره السالف يصور مرحلة هو رائداها وحاديها ومنشدها ، ولا دليل فيها ينير الطريق ، وجاءت — مع ذلك — افتراضاته مرضية ومقبولة ، ونرجو أن تتقبل .

ومن ثم فلا نرى الاعتراض عليه بأنه يضرب فى (ميتافيزيقا التاريخ)[١] ، أو أنه يخلط بين مراحل النشاط اللغوى ونشأة اللغة ذاتها[٢] ، وأن التمثيل من لغات أخرى هروبا من انعدام امكانية التطبيق على اغتنا فهن شقيقات يسرن الطريق فى الدراسة جنباً إلى جنب ، أو أن الدعوة للوضع الجديد ربما تنقلب إلى عملية اختراع عربية أخرى ، أو إقحام اشتقاقات أخرى مخترعة تبعدنا عن مألوف لغتنا ، [٣] أو أن الدعوة ربما تتطور من تطوير بناء نافع إلى عملية تدمير وإعصار لتدمير لغوى خطير[٤] ، فالأمن متوفر ، والحماية مضمونة لأننا نسير على أسس ، ولا نبنى من فراغ ولا فى هواء . . والشيخ العلايلى مجتهد . ورائد يؤسس لمرحلة يقوم فيها الافتراض والتصور ، ومراعاة سنة التطور بدور كبير . . وهى على كل مرحلة تصورية إن كان فيها وهم قليل ، ففيها خيال خصيب ، وارهاص بأن فى لغتنا غناء ، وأنها لا تمد يدها كثيراً للاقتراض .

فالاحادية كانت مرحلة تخطتها

---

(١) فى التطور اللغوى ا . د . عبد الصبور شاهين ١١٣ . (٢) السابق ٩٥ .
(٣) السابق ٩٧ . (٤) السابق ١١٤ .

البشرية عندما سنحت لها فرصة تطور ، وظرف رقى وترق .

* * *

وما فتئت لغات فى مجموعة الهند وأوربة (كالهندية الصينية) تضع عدداً كبيراً من مفردات معجمها من حرف صامت واحد ، تؤثر فيه النبرات الصوتية (Tons) ينتقل بفضلها إلى مفاهيم كثيرة ومختلفة ، كما فى (Fan)[1] ،

فالكلمة الصينية تتكون من مقطع واحد مفتوح أو مغلق يدل على معنى عام يحدده السياق .

ويذكر الدكتور محمد مصطفى رضوان ، فى مقاله القيم ، وذلك مثل : (ت Ta) فهو يفيد معنى عظيم ، أو كثير ، أو يعظم ، أو عظم . والطريقة التى تتبع فى ترتيب الألفاظ تحدد المعنى المراد ، فإذا قيل : (ت كوك Ta Kuok) . كان المعنى : الدولة العظيمة ، وإن عكسنا الترتيب ، وقلنا : (كوك ت Kuok Ta) كان المعنى : الدولة عظيمة ولعل اللغات السامية — ومنها العربية — انتهجت هذا المنهج فى بداية أمرها .

أو قريباً من هذا المنهج ، بالرغم من أنه ليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يفيد الجزم واليقين .

لكن غالب الظن أنها سارت ذات المسرب ، ثم انتقلت فى مرحلة ثانية إلى الثنائية والثلاثية عبر آلاف السنين[2] .

وقد آمن بالتطور كثير من الباحثين فى تاريخ اللغات الآرية ، ومن أشهرهم : (بب Bopp) من القدماء ، و (ود Wod) و (وتنى whitney) وجيرسبيرسين Jerspersen) من المتآخرين .

* * *

وقد أشار علماؤنا العرب إلى أن للحرف فى اللغة العربية قيمة تعبيرية . وقد أفاض فى ذلك العالم اللغوى مجد الدين فيروز ابادى ، فى مفتتح كل فصل وباب من كتابه[3] .

وذكر بعض المحدثين أن حرف الحاء فى العربية يدل على : الانبساط والسعة والراحة أما حرف الغين ، فيدل على الظلمة والانطباق والخفاء ، والحزن ، ومثل لذلك بالكلمات : (غيم ، غم ، غبن ، غبطة . .) وقد تساءل بعضهم بقوله : وكيف نفسر : (غنى ، وغنج ، وغـــلام)[4] ؟ وأقول : بقليل من التأمل ترد إلى الخفاء والغبطة .

واحتفى الأستاذ محمد المبارك بظاهرة

---

(١) الأصوات ا . د . إبراهيم نجا ٦٠ ، والالسينةللعربية للاستاذ ريمون طحان٧٧ .

(٢) مجلة كلية الآداب الليبية ع٤-١٣٩٢هـ

(٣) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب للعزيز للعلامة الفيروز آبادى .

(٤) نظريات فى اللغة ١٩ .

اشتراك ألفاظ من مواد مختلفة فى حرف واحد وفى جزء من معناها : فالألفاظ التالية ، وفيها كلها حرف الغين تدل على الغموض والاستتار ، وهى (غاب ، غار ، غاص ، غاض ، غام ، غرب ، غمض ، غم ، غش ، غز ، غص ، غط ، غبر ، غبش ، غبن ، غبق ، غفا ، غطى ، غفر ، غمر ، غرق ...)

والنون فى الألفاظ التالية ، وفيها معنى الخروج أو الظهور : « نبع ، نبر ، نبت ، نبز ، نبه ، نبأ ، نجم ، نطق ، نفث . . . » .

ولذلك يدعو الأستاذ المبارك إلى البحث فى الصلات بين الحروف والمجموعات اللغوية مشيراً إلى أن ذلك سيكون كاشفاً عن أصول العربية وتاريخها الطويل ، وميزتها على أخواتها الساميات وإلى قياسياتها المطردة ، يقول :

« واعتقد أن البحث فى الصلة بين المجموعات الثلاثية وفيما يمكن أن أسميه (التركيب الذرى) للكلمة ، هو بحث تاريخى يرجع بنا إلى عهود قديمة للغة العربية ، استقر فى نهايتها على شكل هذه المجموعات الثلاثية الرائعة ، التى كانت نتيجة تطور لمراحل تكوينية سبقتها ، تحتاج معرفتها إلى بحوث تاريخية واسعة تتناول اللغات السامية جميعاً ، وتنتهى إلى تعليل بقاء العربية وحدها دون غيرها من الساميات . وتوحى هذه الأمثلة إلى أن تركيب الكلمة العربية يشبه كثيراً تركيب المواد الطبيعية المؤلفة من ذرات متفاوتة التركيب »[1] .

ويعطينا الشيخ العلايلى تصوراً مقبولا للقيمة التعبيرية للحرف المفرد ، لدور سابق ومرحلة موغلة فى قدم التاريخ البشرى : فيرى مثلا ، أن حروف (ج ب ل) تعطى تصوراً صحيحاً عن الجبل فى ارتفاعه وشموخه ، واتصاله وتمكنه ، يقول : (الجيم) معناه الارتفاع ، وحرف (الباء) معناه البيت وحرف (اللام) يرمز إلى الملاصقة . والمعنى المؤلف من الحروف مجتمعة : (بيت مرتفع ملاصق للسحاب أو للأرض) ، وهو تصور صحيح ومقبول عن (جبل) .

ويحل كلمة (سمك) إلى (كف الماء القوى) ، هكذا : (السين) معناه الدعامة وهو يرمز إلى مطلق القوى . و (الميم) ترمز إلى المياه . (الكاف) بمعنى الكف وهو يرمز إلى مطلق التبسيط فى صغر . وهذا أيضاً تصور مقبول وصحيح عن (سمك) .

---

(١) عبقرية اللغة العربية ، للأستاذ محمد المبارك ٢٢ ، ٢٣ .

ومن الباحثين المعاصرين من ينكر ذلك على الشيخ العلايلى (١) ، ويرى أن الحرف وإن أوحى بجزء من المعنى ، إلا أنه لا يملك التعبير عنه بانفراده ، ومعنى ذلك أن الحرف بمفرده تنعدم قيمته التعبيرية ، وأن أوحى جرسة بشىء قريب من المعنى .

ومن علماء اللغة من أنكر القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، صراحة ، ويرى : « أن الطبيعة عينها ميالة إلى الثنائية » ، لا إلى الأحادية » كما يتوهم بعضهم أن الإنسان الأول بدأ يتكلم بحروف منفصلة ، لأن الحروف المنفصلة لا وجود لها إلا فى جدول الأبجدية ، أى فى الكتابة لا فى اللفظ ، والسبب : أن أعضاء النطق عينها لا تخرج للتكلم (حروفاً صامتة متفرقة) بل مقاطع مركبة من الصامتات ، تحركها الصائتات »(٢) .

وهذا الرفض المطلق لا نوافق عليه ، إذ أن لغتنا قد عرفت فعلا قيمة تعبيرية للحرف الواحد ، كما أوحت بفروق دقيقة بين حرف وآخر ، قرب مخرجهما أو اتحد . . كالفرق بين حروف (الحلق) الستة — الهمز والهاء ، والعين والحاء ، والغين والخاء — وتفاوت المعنى بين التعبير بالحاء أو الخاء ، كما فى قوله تعالى : (فيهما عينان نضاختان) وفى الأثر « كل إناء بما فيه ينضح » ففى الخاء شدة وقوة ، وفى الحاء ضعف ورخاوة ، مع أنهما (الخاء والحاء) حلقيان إلا أن الآية عبرت عن شدة النضخ وأفاد الأثر رخاوته . . فضلا عن أن هناك من الحروف . ما زال أمره محيراً : افرغ من محتواه أم وضعته العرب كذلك كحروف العطف (الواو والفاء) وحرف الجر (الباء) . . فنحن نؤيد أن الحرف استعمل واستقل بقيمة تعبيرية فى مرحلة معينة ، حتى واكبته أسباب حياتية ومعيشية أخرى ، فنقلته مع صاحبه والمعنى إلى دور أرقى من أدوار الحياة على سنة التدرج الطبيعى ، وأحياناً إلى العكس .

وأحدث الآراء اليوم هو القائل : بأن اللغة نشأت كغيرها من الظواهر الاجتماعية نشأة ساذجة .

ثم تطورت بمرور الزمن وتتابع التجارب ، وقد أدى تباين المشاهدات والتجارب وتنوعاتها ، واختلاف البيئات والأوساط والطبائع إلى اختلاف اللغات .

[الحديث موصول]

دكتور توفيق محمد شاهين

---

(١) فى التطور اللغوى ٩٨ .

(٢) معجميات عربية سامية ، للأب مرمرجى الدومنكى ٩٨ .

حول مفهوم الذكر و الحركة السلوكية فى الحياة

الأستاذ / إبراهيم أبو محمد

إن معرفة الله كامنة فى وجدان المؤمنين وحناياهم . وهذه المعرفة تدفعهم حينا إلى ساحات المعابد وتحجبهم حينا عن محارم الله فى دروب الحياة . .

وهذه المعرفة مع الجهد المبذول فى ميدان الحياة حول حاجات النفس ومطالب العيش وأسباب البقاء قلما تبقى وضاءة الأثر . . .

والمرء بطبعه مجبول على حب المنفعة لذاته . والبحث عنها ومحاولة الوصول إليها من أهم سماته كبشر خلق من الأرض وعليها يعيش .

وحين يقف بالإنسان تصوره عند مطالب الحس وحده ويتحدد هدفه من الحياة فى عملية الإشباع المادى وترتكز آماله على الوجود الأرضى وحده وإغفال ما عدا ذلك من مطالب الروح يتحول المرء إلى مصارع يتصارع مع غيره حول الكلأ والمرعى حين يجتمع البشر على المبادئ والقيم .

وهنا تكمن الخطورة ويخبو الضوء المشرق داخل النفس وهو الذى يحدد مسيرة الإنسان ومسراه . . . وقد استجابت وانسجمت تعاليم الإسلام مع فطرة الإنسان واحتياجاته من ناحيتى المادة والروح معاً . .

والمتأمل فى تعاليم الإسلام يجدها لا تصادر فى الإنسان غرائزه وإنما تضبطها وتنظمها فى إطار مشروع من حيث المنبع والمصب حتى لا يطغى المرء على غيره أو يأخذ ما ليس له . . . ولكن فى غمرة البحث عن ضرورات الحياة قد يخبو فى النفس ضوء الإيمان أو تعتريها غيبوبة المادة فتجرها حينا إلى الغفلة أو تخلد بها حينا إلى الأرض . .

ومن هنا حث الله عباده أن يقاوموا هذه الغفلة وأن يتخلصوا مما قد يعلق بالنفس من منسيات وأن يستجيبوا لله ورسوله الكريم حين يدعوهم لما يحييهم (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) (الأنفال ٢٤) .

وطبيعى ليست هذه دعوة للبحث عن الضرورات أو المرفهات فى حركة الحياة . . فالناس ليسوا بحاجة إلى ما يذكرهم بهذا بل هم فى حاجة إلى من يوقظهم من غفلتهم ويحررهم من أسار المادة وضغطها . .

إنها بالطبع دعوة لبعث جديد فى حياة جديدة ملؤها العقل الذى عرف الحقيقة والضمير الذى تعشقها وهفا إليها . . . ولما كانت النفس البشرية تخضع لمجموعة من المؤثرات فى سلوكها فإن المؤمن وفق منهج مولاه جل جلاله يرتبط بربه فى كل حين ويصبغ حياته بصبغة الإيمان فى كل عمل .

وهنا تأتى أهمية الذكر كعامل مؤثر فى سلوك المؤمن ينتظم مع الحياة ويرتقى بالمسلم إلى أعلى أفق فى العقيدة والأخلاق .

وقد يسأل سائل . وما هو مفهوم الذكر ؟ وهل هو تلك الحركات التى يأتيها البعض يميناً أو يساراً ؟

ونبادر فنقول : إن الذكر بمفهوم القرآن الكريم أوسع دائرة وأشمل معنى ومكان الذكر ليست صومعة ينحسر فيها المؤمن ويترك الحياة ! إنما صومعة المؤمن هذه الأرض بطولها وعرضها يوظف كل شىء فيها لغاية نبيلة ويسخر طاقاتها لخدمة الإنسان وترقية الحياة .

ومن هنا تعددت معانى الذكر فى القرآن الكريم لتصبغ جوانب الحياة بصبغة الإيمان وتطبع الأرض بطابع الوحى الأعلى وتجعل المسلم مرتبطاً بربه فى كل حركة وسكنة بل تجعله معلق القلب والوجدان بربه فى كل حال .

فهو مع الله حين ينطق وهو مع الله حين يصمت وهو مع الله فى الرخاء والضيق واليسر والعسر ، إنه يرتبط بربه فى النوايا حين يضمرها وفى الكلمة حين ينطقها وفى الحركة حين يأتيها . . والمذكور جل جلاله لا يغيب عنا . إنه معنا فى كل وقت ومعنا فى كل حين . (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) (المجادلة ٧) . . (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) (الأعراف ٢٧) .. (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) (المؤمنون ١٧) . (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من

ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) (يونس ٦١) .

ومن كان هذا شأنه فمن الحق أن يحس وجوده وأن يتصرف الناس على أساس أنهم فى قبضته جل جلاله . . ومن هنا كان ارتباط منطوق اللفظ « لفظ الجلالة» بحركة سلوكية تحول بين الإنسان وبين ما يغضب الله رب العالمين . . . من أجل ذلك كثرت الآيات تحض المؤمن على ذكر الله تعالى فى كل وقت وتجنبه الغفلة التى يسترسل فيها مع النفس وهواجسها(واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) (الأعراف ٢٥) .

من معانى الذكر فى القرن الكريم :

١ ــ فعندما يوقن الإنسان بأن ما عند الله خير وأبقى ويترفع عن الإغراء المادى الرخيص ويرفض قبول الرشوة المقنعة التى تأتيه فى صورة الهدية يكون ذاكرا لله وأى ذكر . ولقد ضرب القرآن الكريم مثلا بنبى الله سليمان حين أرسلت إليه ملكة سبأ بهدية وانتظرت ماذا عساه ، أن يقول . . فردها نبى الله سليمان . يقول القرآن الكريم (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم) (النمل٣٦ ، ٣٧) . . .

٢ ــ وعندما يترفع الإنسان عن الإغراء الجنسى الرخيص ويستعلى بدينه على رغبات النفس ونزواتها يكون ذاكراً لله وأى ذكر . ولقد ضرب القرآن الكريم مثلا بنبى الله يوسف :

(وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) (يوسف ٢٣) وفى الآيتين السابقتين نجد أن لفظ الجلالة لم يكن مجرد كلمة تقال إنما هو منطوق ارتبط بحركة سلوكية أحالت بين الإنسان وبين ما يغضب الله تعالى .

٣ ــ وعندما يحاول الإنسان أن ينتصر على ضعفه ويعتصم بربه ويتخلص من خواطر الشيطان وهواجس النفس يكون ذاكرا لله وأى ذكر . قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) الأعراف ٢٠١ .

٤ ــ وقد يكون الذكر إعترافاً بتقصير وإعتذاراً عن ذنب حين يقف الإنسان فى ساحة الرحمن معتذراً ومنكسراً ومنتظراً رضاه . قال تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا

الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) آل عمران ١٣٥ .

٥ — وقد يكون الذكر زيادة فى التأسى بالقدوة الحسنة والأسوة الطيبة من خلال شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب ٢١ .

٦ — وقد يكون الذكر تعبيراً عن صدق الإيمان داخل النفس البشرية . . قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) الأنفال ٢ .

٧ — وقد يكون الذكر سياجاً يحمى ما فى المؤمن من فضائل وتسام يرد عوادى الدهر ويحطم غرور الشيطان ويقرب الهدف المنشود دون مبالاة بالعوائق التى يبعثرها من يملكون المال والجاه ولا يملكون الضمير والخلق . قال تعالى : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا) المزمل ٨ ، ٩ .

(فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا) .

٨ — وتطواف العقول الذكية بين فجاج الأرض وأقطار السماء ذكر لله وأى ذكر قال تعالى :

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

٩ — ودعوة الناس إلى التحرر من وساوس الأرض وأحوالها والانقياد لأوامر الله والخشوع له وترقيق المشاعر وإرهاف الأحاسيس ذكر لله وأى ذكر قال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) الحديد ١٦ . .

وهكذا تتعدد مفاهيم الذكر لتشمل آفاق الحياة كلها . وهكذا أيضاً يرتبط الذكر بحركة سلوكية تنبع من قلب يدين بالعبودية لله وحده .

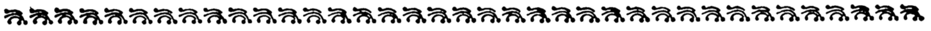
وهى حركة تحركها يد ماهرة تقيم أحكام الله فى الأرض وتعمرها بالحب والإخاء وترتفع بصاحبها فوق متع الحياة وفوق دوافع النصر أو الهزيمة .

إن الذكر بهذا المفهوم إضفاء لصبغة السماء على أهل الأرض وهو ترقية لكل عمل بذكر اسم الله قبله وبذكر اسم الله بعده وبذكر اسم الله عليه وبذكر اسم الله فيه .

وبهذا يكون الذكر معايشة تامة لمبادئ الدعوة وإمتثالا لصدق التعاليم واقتداء بعظمة المعلم وإنتفاعاً بنور الرسالة ورحمة الرسول . وصدق الصديق أبو بكر حين قال : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده وما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه من غير حل ولامزج ولا انفصال ولا اتصال .

وإلى اللقاء فى مقال تال إن شاء الله

إبراهيم أبو محمد



قال تعالى :

ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق . ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

صدق الله العظيم



إلى الشباب المسلم

دكتور / رءوف شلبي

* إن للإسلام تصوره المستقل للوجود والحياة ، ومن ثم فإنه ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها بكل مقوماتها وإرتباطاتها .

ووظيفة التربية الإسلامية هي أن تنشئ حياة إنسانية للأمة الإسلامية توافق هذا التصور وتتمثله في صورة واقعية يشهد فيها الناس معالم الإسلام شامخة . .

والإسلام بهذا المعنى قد قامت عليه دولته الأولى ، فلقد أقامها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على مبادئه ومحجته البيضاء النقية ، ثم حافظ على قيم هذه الدولة من بعده الخليفة الرزين الصديق القوى أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

ثم وسع رقعتها وبسط لدين الله فى أرضه الخليفتان من بعده عمر وعثمان . . . ثم كانت النكبة والنكسة التى ما زال المسلمون حتى اليوم يعانون من جرائها : فرقة وتحزباً ، وإنحرافاً فى الفهم ، وعندية فى الأدلة ، وعنادية فى السلوك . .

ونحن هنا فى قلب العالم الإسلامى ماذا نريد لأنفسنا وماذا يراد منا ؟

إن القيادة الشرقية بمفاهيمها ، والقيادة الغربية بتكأكئها لم تقدم للإنسان فى العصر الحديث إلا الموت والدمار والهدم والتخريب .

والأمة الإسلامية رغم كثرة عددها ، وكثرة ممتلكاتها ، وثروتها الطبيعية والاستراتيجية : ممزقة ، تعانى من الاستعمار ، والفتن الداخلية والخارجية ما لا تقدر على التخلص منه ، وصدق الرسول الأمين فيما يروى عنه : ما معناه : (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أمن قلة نحن يارسول الله ؟ قال : بلى ، ولكنكم كثير ! قالوا : أمن وهن يا رسول الله ؟

قال : نعم . أحببتم الدنيا وكرهتم الموت . . .) .

إذن لا بد من قيادة إسلامية جديدة تملك زمام الحياة حتى تعيد للدنيا السلام . . والأمن . . والطمانينة والرخاء . وليس غير القرآن وحده مصدر يملك هذه القدرة ، فتلك رسالته .

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) الإسراء ٩ .

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً .. ونحشره يوم القيامة أعمى) . . . . طه ١٢٤ .

والإسلام لا يملك إعادة دولته إلا بمنهجه هو الذى بنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمع الإسلامى الأول .

نعم . . إن المسافة بعيدة . . بين بعث هذا المجتمع من جديد . . . وبين تملكه زمام قيادة الحياة . . ولكن مع هذا لابد من البدء ؟ ؟

فكم كانت المسافة بعيدة يوم أن جاء الوحى فى غار حراء بقوله تعالى : (اقرأ) بمكة المكرمة . . ويوم أن قالها أخيرة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) . . المائدة ٣ .

لابد من البعث لجيل قرآنى جديد .. كالجيل الذى رباه محمد صلى الله عليه وسلم .

والظاهرة التاريخية الوحيدة فى طول عمر الحياة أن الدولة الوحيدة التى قامت على منهج هى الدولة الإسلامية . . وأن هذا المنهج بدا بإعداد جيل استطاع أن ينهى دولتى الفرس والروم . . وكان هذا الجيل خليطاً من العبيد والأحرار والأغنياء والفقراء ، والرجال والنساء والمثقفين وغير المثقفين . . . والعرب والحبش والروم والفرس . . ومع هذا فقد تكوّن من هذا كله جيل استطاع أن يبنى دولة الإسلام الأولى .. أول دولة قامت على منهج الفطرة الإنسانية الذى يحقق للإنسان كمال كرامته وإتزان وظيفته ، إن قرآن هذه الدعوة وحديث نبيها الأمين وهديه وتعاليمه ، وسيرته الكريمة ، بين أيدينا كما كانت بين أيديهم .

وما غاب عنا رسول الله إلا بمثل ما كان يغيب عن القبيلة البعيدة التى أسلمت ولكنها كانت تعيش مع سنته وهديه .

إذن لماذا استطاع الجيل الأول أن يبنى دولة الإسلام وعجز الجيل المعاصر عن الحفاظ عليها أو إعادتها ؟

المنبع الأول :

لا بد وأن هناك عاملا أساسياً كان هو حجر الزاوية فى بناء هذا الرعيل الفذ طوال عمر الدنيا وذلك العامل هو مستوى تلقى القرآن الكريم .

كان النبع الأول الذى استقى منه ذلك الجيل هو القرآن وحده .. وكانت أحاديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هى إشعاعات من النبع ، فقد كان خلقه القرآن . . لقد كان فى كل شىء يأتيه أو يدعه قرآنياً ... كما تصورلنا ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم فقالت : (كان خلقه القرآن) .

كان القرآن وحده إذن هو النبع الذى تخرج عليه هذا الرعيل الأول بدءاً من النبي الكريم .. حتى آخر واحد فى القوم .

ولم يكن ذلك لفقر فى الثقافة العالمية آنذاك . . فلقد كانت هناك حضارة فارس .. والروم .. والهند .. والصين . .
وكان بين العرب والهند لقاءات فى التجارة . . وكان للعرب أنفسهم أسواق للشعر والقضاء .

لكن ذلك كله (حصاد) من صنع البشر ، لا يصلح لإعداد جيل لبناء دولة الإسلام . . الدولة ذات المنهج العالمى ، فكان القرآن وحده إذن : هو النبع الذى يجب إن يتخرج عليه هذا الرعيل ، لأنه وحده الحبل المتين الذى يصل البشر بالله سبحانه وتعالى . . البشر كله .. لأن منهج الدولة ليس بفكر واحد من الناس . . ولكنه من الوحى الإلهى لكل الناس .

ولذا : فقد كان هناك قصد من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتخرج هذا الجيل على ثقافة القرآن فقط ، ولهذا نهى صلى الله عليه وسلم عن كتابة شىء سوى القرآن . . حتى يتفرغ العصر كله . . وتتجرد العقول والقلوب والمشاعر من كل لون ثقافى إلا من القرآن الكريم . . ففى الحديث الشريف : (لا تكتبوا عنى . . ومن كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأْ مقعده من النار) .

ويؤكد هذا القصد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — رأى فى يد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — صحيفة من التوراة فغضب وقال : إنه والله : لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا إن يتبعنى .

وإذن : فقد كان هناك قصد أكيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقصر

النبع الذى يستقى منه ذلك الرعيل الأول على القرآن الكريم وحده . . لأنه النبع الذى تصح به جميع الأجناس والطوائف البشرية . . .

وكان هناك قصد أكيد من هذا الجيل الأول أن يستعذب القرآن وحده كمنبع رائق حبيب . . ليكون وحده مصدر التخرج والتربية :

ـ فعن ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ـ وقال عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

لقد اتحد حصر القصد فى النبع الذى يستقى منه الرعيل الأول من القرآن الكريم : من القائد والجماعة التى تربى لتأدية دور يتيم فى عمر الحياة وهو بناء دولة الإسلام على المنهج العلمى السديد القائم على الفطرة واحترام كرامة الإنسان .

التطبيق والأخلاص :

* وثمة : أساس آخر انضم مع النبع الصافى الرائق ـ القرآن الكريم ـ الذى أخرجه ذلكم الرعيل الأول . . ذلك الأساس هو التطبيق والإخلاص لمبادئ القرآن الكريم .

إن الرعيل الأول . . لم يكن يقرأ بقصد التفكه والثقافة ، ولا بقصد إدعاء العلم والمعرفة .

لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستزيد من الثقافة لمجرد الثقافية ليكون (دكتوراً) أو (بروفيسوراً) أو (إماماً) أو (حجة) كما نجد كثيراً فى عصرنا الحاضر من هذه الأمثال .. إنما كان يتلقى القرآن ليتصل بالله ويربط شئون حياته وشئون أسرته وشئون الجماعة التى يعيش فيها بما يتلقاه عن ربه من أوامر وتعاليم ... إنه يتلقى القرآن ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى العسكرى المخلص الأمر اليومى من قائده فى لحظة القتال . . إنه يندفع منفذاً للأمر دون تفلسف بِلِمَ ؟ . أو بلماذا ؟

وقد سبق قريباً فى هذا الحديث أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يحفظوها ... ويعملوا بما فيها ... فتعلموا القرآن والعمل والتطبيق معاً . . ومن هنا : كانت الصلة المباركة التى ارتبط بها الرعيل الأول بالملأ الأعلى .

لقد كانوا وهم مصممون على أن يكون

القرآن دستورهم ويخلصون فى تطبيقه عملياً يصلون أرواحهم بخالقهم ، فكانت تحفهم الملائكة وتتنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة ، ويأتيهم نعم الله ومدده (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) آل عمران ٣ : ١٢٥ .

ولأن هذا كان هو القصد . . ولأن التربية والإعداد تحتاج إلى زمن ولأن منهج القرآن منها تربوى عملى فإنه يحنو تارة ويقسو أخرى ويردع الفؤاد مرة ، ويهدهد عليه ثانية . . . فقد شاء الله أن ينزل القرآن منجماً ، يقول الله تعالى : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) الإسراء ١٠٦ .

لقد نزل القرآن تدريجياً كما تتلقون مناهجكم الدراسى لكل عام تدريجياً . .

ولعله من أكبر الأخطاء علمياً أن يقدم عميد الكلية المنهج والكتب إلى الطلاب دفعة واحدة ليقرؤها فى ساعة أو فى يوم أو فى سبوع أو فى شهر . .

ولعله من الخطأ الأكبر طبياً أن ينصح الطبيب مريضه أن يتجرع كمية الدواء التى يعالج بهامرة واحدة . . إنه إذا أخذها بالتدرج كل ثلاث مرات لمدة أسبوع كان من الممكن تقريب الشفاء . .

. . . أما إذا تناول الكمية كلها فسوف يكون ذلك خطراً يقرب المريض من الموت حسب التقدير العرفى . . . . . والآجال بيد الله تعالى . . إن التدرج فى التربية . . . وفى المعالجة هو طبيعة الأشياء . . . وقد سبق الإسلام إلى ذلك . . . وقرره منهجاً . . وربى به ذلك الرعيل الأول الذى حقق أول دولة بنيت على تقوى من الله ورضوانه. (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) النساء آية ٢٦ .

ولقد كان الرعيل الأول مخلصاً لدينه وإسلامه . .

لقد كان معنى دخول الواحد منهم فى الإسلام أن يخلع ملابس الشرك .

كان يفهم أن شهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» :

نُقلة من الكفر إلى الإيمان .

نُقلة من الأرض إلى رضوان الله . .

نُقلة من الظلمات إلى النور . .

فكان ينخلع من كل ثياب لبسها قبل الإسلام .

وكان ينخلع من ثياب القومية والمسيحية واليهودية ..

وكان ينخلع من ثياب القومية والوطنية والإقليمية . .

وكان ينخلع من ثياب التقاليد والعادات والتبعية . .

فماذا كان يريد بلال عندما دخل الإسلام ؟

وماذا كان يرغب النجاشي عندما دخل الإسلام ؟ .

وماذا كان يهوى عمر بن الخطاب عندما دخل الإسلام ؟ .

وماذا كان يريد سلمان الفارسى بدخوله فى الإسلام ؟ .

وماذا كان يريده صهيب الرومى لما دخل فى الإسلام ؟ .

إنهم لا يريدون إلا أن يتقبل الله أعمالهم فى الصالحين . .

لقد أدركوا أن معنى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حياة جديدة حياة سعادة والنور والأُنس والرجاء فى رحمة الله .

* **إسلامية منذ فجرها :**

لقد بُعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبلاد العرب : مكة والحجاز فى أمسّ العوز لعون اقتصادى وكانت أخصب بلاد العرب : المناذرة والغساسنة فى يد حكم فارسى وروماني .

كانت بلاد اليمن كلها فى الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أُمراء من العرب لكسرى الفارسى .

وكانت بلاد الشام كلها فى الشمال خاضعة لقيصر الروم ، وكلاهما بيت القصيد فى رحلتى الشتاء والصيف للتجارة العربية أيام الجاهلية الأولى ، كما تحدثنا عن ذلك سورة قريش .

فلم يكن لدى العرب إلا مكة والحجاز ونجد وتهامة ، وهى فقر مجدب فيا ربما لو أن محمداً يومها أعلن — وهو الصادق الأمين — دعوة قومية تحرر البلاد العربية فى الشمال وفى الجنوب ، لتقوم راية القومية العربية ، وتتحد بلاد العرب تحت ملك واحد ، وتتبدل الأحوال الاقتصادية ، يا ربما وجدت استجابة قاطبة من العرب كلها غنيها وفقيرها . . . فقد كانت العرب كلها تدين لقريش وكان محمد صلى الله عليه وسلم فى الذؤابة من بنى هاشم أعلى قريش نسباً وأسماها حسباً ، بل إن القوم قد عرضوا عليه ذلك بالفعل ، يقول ابن كثير راوياً عن عتبة :

« يا معشر قريش » : ألا أقوم إلى

محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه وكلمه ؟

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخى : إنك منا حيث قد علمت من السلطة : فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ؟

قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الوليد .. أسمع ؟ » قال : با ابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه أو كما قال له ؟

حتى إذا فرغ عتبة قال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« افرغت يا أبا الوليد » ؟

قال : نعم .

قال : « اسمع منى » .

قال : أفعل ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون» فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فلما سمع عتبة انصت لها ، وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه ، حتى انتهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى السجدة فسجدها ثم قال : أسمعت يا أبا الوليد » ؟

قال : سمعت .. قال : فأنت وذاك » .

إذن العرض من أوله ظاهر فى التجرد لله . . ظاهر فى أن المراد أن يحقق كل فرد فى كل جزء على وجه هذه الأرض المنهج الإسلامى .

«قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. الأنعام ١٦٢ .

ويا ربما لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلن أنها دعوة للإصلاح

الاجتماعى والسمو الأخلاقى وتطهير المجتمع من الفسق والظلم ، يا ربما وجد وقتها جماعة كبيرة من محبى الأخلاق والفضائل ووجهاء القوم يتبعونه ، فقد كان فى العرب حُمس وحنفاء وحكماء .

ولكن الله لم يشأ أن تكون الدعوة التى يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم إلا — (الإسلامية) . وهى إسلام وجهه إلى الله فى كل صغيرة وكبيرة .

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور) . لقمان ٢٢

وكان أساس هذا كله هو شهادة التوحيد . « لا إله إلا الله محمد رسول الله » لقد حققها الرعيل الأول . . ودارت معارك العقيدة بين المسلمين والمشركين فبدأ بذلك الجهاد فى سبيل الله بالاستعلاء فوق آلام التعذيب (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . آل عمران ٢٠٠ .

فى هذا الجو الإيمانى تتطهر النفوس من العبودية للبشر ، وتخلص لعبودية الله ، وتزكو الأرواح ، وتتصفى المشاعر من كل غلس شيطان ، وتقبل على الله مشرقة نورانية .

(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) الأنفال ٢٩

فأساس المعاملات كلها وأساس الحياة كلها فى نظر الإسلام هو (لا إله إلا الله) .

وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة الظلال لا بد لها أن تضرب جذورها فى التربة على أَعماق بعيدة ، وفى مساحاة واسعة تتناسب مع ضخامتها وارتفاعها فى الهواء فكذلك الدِّين . إن نظامه يتناول الحياة كلها ويتولى شئونه البشرية جميعاً كبيرها وصغيرها أَسودها وأَبيضها أَحمرها وأَصغرها ، فلا بد إذن له من أساس متين يسع العالم كله ، وكان ذلك الأساس هو (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وقامت الجماعة الأولى على هذه القاعدة واستمرت تربيتها ثلاثة عشر عاماً صفى القرآن الكريم تصورها من كل ثقافة أرضية ، وارتفع بها فوق محيط السلوك البشرى كله ، وعاصر جيل الشباب الذى نشأ بين أحضان الشيوخ توجيه المنهج فزاده ذلك بالله إيماناً وبالإسلام ديناً .

لقد تربّت هذه الجماعة بعد الإيمان العميق بالله على :

* أن الرزق لكل من يدب على هذه الأرض قد تكفل الله به .

* (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌ فى كتاب مبين) هود ٦ .

* وأن العمر مقدر لا يؤخر ولا يقدم ، فقد تقررت لحظة الموت وأنه لا مهرب منه أبداً .

* (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) الجمعة ٨ .

(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) الأعراف ٣٤ .

* وأن الذرية هدية من الله :

(يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً) الشورى ٤٢ : ٥٠

ــ وربط لهم الآخرة بالدنيا :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل ٩٧

(كل نفس بما كسبت رهينة) المدثر ٣٨

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) الزلزلة ٧ ، ٨ .

ــ وذلل لهم الأرض ليكونوا خلفاء لله فيها :

(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك ١٥ .

ــ فاتسعت عقولهم وأرواحهم لهذه التربية واتصلوا بالله . . فكانوا وحدهم على مدى عمر الحياة هم الرعيل الذى شاهد اتصال الأرض بالسماء زهاء ثلاثة وعشرين عاماً . ففتحوا بلاد الله لدينه لا لشهرة الملك ولا لانتعاش اقتصادى ولا لتمدد سياسى ، بل حتى تكون كلمة الله هى العليا .

** واليوم : ما هو واجبنا وطريقنا !؟

أيها الشباب المسلم :

نحن مطالبون بإعادة هذا الدستور حتى يؤدى القرآن دوره من جديد فى علان كرامة البشر جميعاً تحت لواء (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . . فكيف تسير . . إلى الطريق . .

لا بد من التجرد فى التربية ، ولا يتحقق هذا إلا بالعودة إلى النبع الأول ، الخالص الذى استمد منه الرعيل الأول ونشأ عليه وتخرج على أسسه ومبادئه .

* لا بد من العودة إلى هذا النبع

فى صورة مماثلة لصورة بلال وأبو بكر وسعد بن أبى وقاص ، وسمية ، وعمار ابن ياسر ، لابد من عودة مع تطبيق تسلم فيه الوجه لله تعالى ، وهذه العودة لا بد أن تكون صريحة فى الإجابة على هذا السؤال . .

هل نحن مسلمون حقاً ؟

إذا أجبنا بنعم . . فلا بد أن نقبل نظام الإسلام كما جاء به القرآن . . ولا بد أن نبدأ من جديد . . من بناء العقيدة أولا . . كما يقول أصحاب التجربة الرائدة :

« ينبغى أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية .. أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين . . يجب عليهم أن يدعوهم أولا : إلى اعتناق العقيدة — حتى لو كانوا مسلمين —

يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو : إقرار « لا إله إلا الله » بمدلولها الحقيقى وهو رد الحاكمية إلى الله فى أمرهم كله .

إقرارهم فى ضمائرهم وشعائرهم وإقرارهم فى أوضاعهم وواقعهم .

ولتكن هذه القضية هى أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هى أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة .

— وبناء هذه الجماعة لا يمكن أن يكون داخل حزب سياسى ، أو جمعية ثقافية أو نادى رياضى ، ولكنها — يجب أن تكون داخل الإسلام نفسه — وهنا تأتى الشعرة الدقيقة التى لا يدركها كثير من الناس حتى المثقفين والسياسيين كيف تعيش الجماعة الإسلامية فى وسط ضجيج الحياة :

هل تنعزل ؟

هل تندمج ؟

لا تنعزل !

ولا تندمج !

ولكنها تعيش كما عاشت فى بدئها . تعيش كما عاشت فى مكة لها أخلاقها وارتباطاتها ، وعلاقتها الطيبة بالتى هى أحسن حتى إذا تكونت هذه الجماعة وصفت نفسها من حب الدنيا وأقبلت على الله كان عليها أن تمشى الهوينى فى عملية بناء المحتمع الإسلامى وسط هذه الجاهلية الشيوعية والمادية والفردية . وسط ضجيج الشرق .

وضجيج الغرب . .

* وعليها أن تبنى المجتمع الإسلامى لا بالكلام والتأليف بل بالعمل والسلوك وهى إذ تريد أن تتحرك لا بد أن تتبع خطوات الرسول — صلى الله عليه وسلم —

وقد رحمنا الله تعالى فسجل القرآن الكريم جميع تحركات الدعوة فيما يتعلق بالعلاقة مع الكافرين .

على الجماعة الإسلامية التى تتصدى للدعوة الإسلامية :

أن توائم فى تربية الدعاة الذين نيط بهم إعادة بناء المجتمع الإسلامى وعلى الجمعيات — ولا أقول الأحزاب السياسية — التى تعمل لنشر الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى عليها أن توائم بين سياسة اللين والمهادنة التى انتهجتها الدعوة الإسلامية فى السنين الأولى من العهد المدنى .

* ثم سياسة المنهج العسكرى بعد أن تمت للإسلام دولته فى السنة الأخيرة بعد أن هذبت دولة الروم وصالح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صاحب « أيلة » وضمن حدود الشمال والشرق من الإغارة على دولة الإسلام .

* لا بد من إدراك الظروف والملابسات بين قوله تعالى :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) الممتحنة ٨ .

وبين قوله تعالى :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) التوبة ٢٩ .

* ولابد من الموازنة بين :

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) آل عمران ٢٨

وبين قوله تعالى :

(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) المجادلة ٢٢

إن الواجب المقدس الذى نحمله اليوم هو :

أن نعيد بناء القرآن فى قلوبنا أولاً .

ثم ندعو الناس بالحسنى .

ثم نبني المجتمع الإسلامي بالهوينى دون التعصب أو التحمس السياسي الذى يقلب العمل للإسلام ارتزاقاً يشوه الإسلام ويضيع الثواب ويقرب الناس من الشيطان ويحدث من الفتن ما جرها حزب الشيعة والخوارج وعلماء الكلام من التفرقة والخصومة التى ضيعت ميزة الأخوة الإسلامية ووحدتها وتضامنها أو يقع العمل الإسلامى فى مخلب القط المتنمر .

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) التوبة ٧١ .

(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) الحجرات ١٠ .

وبعد : أيها الشباب المسلم :

فإن الجماعة التى تريد أن تعيد بناء المجتمع الإسلامى من جديد عليها :

• أن تلتزم بالمنهج الإسلامى . . فقد جرب هذا المنهج ونجح فى تكوين أول دولة فى التاريخ على أساس منهج القرآن الكريم .

• ونجح هذا المنهج فى خلق الجماعة الإسلامية من وسط ركام الجاهلية الفارسية والرومانية قديماً . . وقدم للتاريخ دولة قائمة على أساس واحد هو العقيدة التى كانت وطناً وقومية وأباً وأخاً . . كانت هى الأسرة والقرابة بين المسلمين أجمعين .

وفى الحديث الشريف :

« ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه البخارى .

• نريد من الشباب الذى ينتسب إلى هذه الدعوة . . ويتشرف بالعمل فيها أن يكون على مستوى الوضوح والأدب والجرأة .. مثل سيدنا رَبْعِي ابن عامر وحذيفة بن مُحيصن ، والمغيرة بن شعبة ، يوم أن سألهم رستم أكبر قائد عسكرى قهر جيوش الرومان فى العصر الأول أيام الدعوة لما سألهم : ما الذى جاء بكم ؟ .

فقالوا له : **الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله**

منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر . .

نريدهم على هذا المستوى من العمل والخلق ، نريدهم يعلمون فى البحبوحة الهنيئة بعيداً عن مخالف النمر الكاسر الذى لا يعرف إلا الغدر .

أيها الشباب المسلم :

ذلكم هو حظكم أن أردتم . . وهذا هو واجبكم وإن لم تريدوا . .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

« والله غالب على أمره » .

« وإلى الله عاقبة الأمور » .

دكتور رءوف شلبى



قال تعالى :

نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذا سططا .

صدق الله العظيم



الشريعة الإسلامية و القانون الإنجليزى

المستشار حسن حسب الله

(١٣)

الزنى والقذف

انتهينا فى عدد سابق من الكلام عن حد السرقة ونتكلم فى هذا العدد عن حدى الزنى والقذف .

لا يعرف الإسلام الرهبانية ولا الزهد ولا يفصل بين الروح والجسد ، ولذلك رسم التشريع الإسلامى طريق إشباع الحاجات الإنسانية — بما فيها حاجة الإنسان إلى الجنس — حيث قال تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » — المؤمنون ٥ و٦ و٧ .

فهناك طريقان لا ثالث لهما لإشباع الشهوة الجنسية هما الزواج وملك — اليمين ، وحتى لا يكون هناك أى عذر لأى فرد أباح الإسلام تعدد الزوجات كما أباح الطلاق ، وأجاز للمرأة أن تطلب الطلاق لعيب فى زوجها يمنعه من الاتصال الجنسى بها ، ولا حياء فى الدين .

وعقوبة جريمة الزنى فى التشريع الإسلامى حددت بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» — النور ٢ ، وقوله صلى الله عليه وسلم « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب رجم بالحجارة » .

ومن ذلك يتبين أن حد الزنى بالنسبة

لمن لم يسبق له الزواج إطلاقاً هو الجلد مائة جلدة وهذا الحد ثابت بالقرآن الكريم.

أما بالنسبة لمن سبق له الزواج زواجاً صحيحاً تم الدخول فيه دخولا فعلياً وحقيقياً — ولو لم يستمر هذا الزواج ولم يكن قائماً وقت ارتكاب الجريمة — وهو ما يعبر عنه فى — الاصطلاح الشرعى « بالإحصان » — فإن العقوبة هى الرجم بالحجارة حتى الموت ، وهذا الحد ثابت للمحصن بالسنة النبوية قولا بالحديث المذكور وفعلا بما تم من تنفيذ هذه العقوبة فى الزناة المحصنين من الرجال والنساء بأمره صلى الله عليه وسلم .

والزنى هو المباشرة التامة من رجل لامرأة لا تحل له شرعاً أى ليست زوجة له ولا جارية مملوكة له وهو ما يعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى بملك اليمين .

وتتم هذه المباشرة الموجبة لإقامة الحد بمجرد إيلاج عضو التذكير من الرجل أو جزء منه فى المكان المعد له من الأنثى بطبيعته ولو لم يصاحب هذا الإيلاج إنزال لماء الرجل ، وبذلك لا تعتبر المباشرة الفاحشة بين رجل وامرأة فى غير هذا المكان زنى موجباً لإقامة الحد ، كما لا تعتبر المباشرة الفاحشة بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة أو إتيان الرجل للبهيمة أو تمكين المرأة للحيوان من نفسها ، فكل هذه الصور من المباشرة الفاحشة لا تعتبر زنى موجباً لإقامة الحد وإن كان لا يفلت مرتكبوها من العقاب الشديد كما سيجىء فى الكلام عن جرائم التعزير .

ويختلف التشريع الإسلامى عن الشرائع الوضعية جميعها فى عدة نواح : فالشرائع الوضعية تفرق بين الزنى الذى يتم برضا الطرفين والزنى الذى لا يتم برضائهما ، وتحدد سناً معينة لوقوع هذا الرضا صحيحاً من صاحبه ، فلا تعاقب إلا على جريمة الزنى التى تقع بالإكراه أو بالرضاء الصادر ممن لم يبلغ السن المحددة لأهلية الرضا ، كما أنها تفرق بين مرتكبى الزنى من حيث الزواج وعدمه ، فإن كان الرجل متزوجاً فلا يعاقب على جريمة الزنى إلا إذا ارتكب الجريمة فى منزل الزوجية ، أما إذا ارتكبها فى مكان آخر فلا عقاب عليه ، وإذا كان مرتكب الجريمة امرأة متزوجة فهى تعاقب على جريمة الزنى إذا ارتكبتها فى أى مكان ، كذلك تفرق هذه

الشرائع بين عقوبة الزوج الزانى – والزوجة الزانية ، فتجعل عقوبة الرجل أقل من عقوبة المرأة ، كما تقضى بألا ترفع دعوى الزنى إلا بناء على طلب الزوج الذى زنت زوجته أو الزوجة التى زنى زوجها ، وإذا سبق لأحدهما ارتكاب هذه الجريمة فإنه يمتنع عليه رفع دعوى الزنى على الآخر متى ارتكبها ، فالزوج الذى سبق ارتكابه لهذه – الجريمة تستطيع زوجته أن ترتكبها بعد ذلك دون أى عقاب عليها ، كما تجيز هذه الشرائع إيقاف نظر دعوى الزنى بناء على طلب الزوج أو الزوجة فلا يحكم بالعقوبة ، وكذلك يجوز وقف تنفيذ العقوبة بعد الحكم بها بناء على طلب الزوج أو الزوجة ، ويستفيد من كل ذلك فى جميع الحالات الزوج الزانى وشريكته فى الزنى والزوجة الزانية وشريكها ، وتأخذ الشرائع الوضعية بجواز إثبات جريمة الزنى بكافة طرق الإثبات كما إذا ما قورنت بعقوبات الجرائم الأخرى المنصوص عليها فى قوانين العقوبات فى مختلف الشرائع الوضعية .

وللأسف الشديد فقد أخذت تشريعات معظم الدول الإسلامية ومنها مصر بالمعايير السالفة الذكر . فهذه الشرائع الوضعية تفرق بين زنى معاقب عليه وزنى مباح لا عقاب عليه على الإطلاق كما تفتح الباب على مصراعيه دائماً لإفلات الزناة من العقاب .

أما التشريع الإسلامى فلا يقيم مثل هذه التفرقة فكل زنى معاقب عليه ، والتفرقة لا تكون فى أصل العقاب ، وإنما تكون فى مقدار العقوبة متى ثبتت الجريمة وتوافرت كل أركانها المادية والمعنوية « وهى : بالنسبة للمحصن الرجم بالحجارة حتى الموت ، ولغير المحصن الجلد مائة جلدة .

ويجب لإقامة حدى الجلد أو – الرجم أن تتوافر الشروط الآتية فى الزانى أو الزانية :

١ – أن يتم ارتكاب الفعل المادى المكون لجريمة الزنى بالكيفية التى شرحناها سابقاً .

٢ – أن يكون مرتكب الفعل عاقلا وليس مجنوناً : وبالغاً وليس صبياً .

٣ – أن يكون مختاراً لأنه لا حد على صغير ولا مجنون ولا مكره . وعلى ذلك فإذا أكره رجل امرأة على الزنى معه فلا حد عليها ويقام الحد عليه وحده وإذا ارتكب رجل أو امرأة الفعل المادى للزنى مع شخص نائم

فلا حد على هذا النائم وذلك لما روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل » .

وقد أضاف بعض الفقهاء شرطاً رابعاً نراه مهما فى هذا العصر وهو العلم بالتحريم أى ارتكاب الزانى للفعل المادى وهو عالم بأن ما يفعله يكون جريمة الزنى المعاقب عليها بالجلد أو الرجم ونرى أن هذا الشرط يجب أن يؤخذ به وأن يكون محلا للاعتبار خاصة فى مثل هذه الأزمان التى اعتبرت فيها الشرائع الوضعية مباشرة الجنس أمراً عادياً شأنه شأن الطعام والشراب ولم تعتبره جريمة إلا فى حالتى الزواج وانعدام الرضا ، ذلك لأن الشريعة الإسلامية لا يقتصر تطبيقها على المسلمين فقط بل يمتد تطبيقها إلى المسلم وغير المسلم من الكفار وأهل الكتاب وبالتالى فإن الحاكم المسلم ملزم بالحكم بحد الزنى وتنفيذه فى الزناة من غير المسلمين أيضاً متى وقعت الجريمة فى البلاد الخاضعة لحكم المسلمين ، ويقتضى العدل أن يكونوا عالمين بذلك ، فلو قدم بعض الأجانب من غير المسلمين إلى أحد الأقطار الإسلامية وارتكبوا هذه الجريمة فيما بينهم ولم يكونوا عالمين بحكم الاسلام فيها فلا يقام عليهم حد الزنى ، ومسألة العلم من عدمه مسألة وقائع تدخل فى التقدير المطلق للقاضى ، والأصل فيها — العلم خاصة بالنسبة للمسلمين ، وعلى من يدعى عكس ذلك عبء إثبات عدم علمه بحكم الإسلام فى هذه الجريمة .

ونظراً للعقوبة القاسية لجريمة الزنى والتى تصل إلى الحد الأقصى بالنسبة لعقوبة الجلد بوصول العدد إلى مائة وطريقة تنفيذ عقوبة الموت حيث يتم رجماً بالحجارة والنهى عن أخذ الزناة بالرأفة أو الرحمة فإن التشريع الأسلامى أفرد هذه الجريمة بطرق إثبات خاصة بها لا تشاركها فيها أية جريمة أخرى فلا تثبت جريمة الزنى إلا بأحد طريقين لا ثالث لهما الشهادة والإقرار .

وانفردت الشهادة فى هذه الجريمة ، بأحكام خاصة تختلف عن أحكام الشهادة فى باقى الجرائم فبينما يكتفى فى الشهادة بشاهدين اثنين فقط فإن الشهود فى هذه الجريمة يجب الا يقل عددهم عن اربعة وبينما يمكن أن يكون الشهود فى الجرائم الأخرى من

النساء فإنه في هذه الجريمة لا تقبل شهادة النساء ويتعين أن يكون جميع الشهود من الذكور ويشترط في الشاهد أن يكون بالغاً وعاقلا وعدلا ومسلما حتى لو كان يشهد على غير مسلم .

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعـــة منكم » النساء ١٥ .

وبينما لا يتعين عقاب الشاهد فى الجرائم الأخرى إذا تضاربت شهادته مع باقى الشهود أو لم يؤخذ بشهادته فإنه فى هذه الجريمة يعاقب الشهود إذا تضاربت أقوالهم أو لم يؤخذ بشهادتهم ويحدون حد القذف وهو حد يقترب فى عقوبته من عقوبة جريمة الزنى ذاتها حيث يصل إلى ثمانين جلدة .

ويراعى عند سماع القاضى للشهود أن يسمع كل شاهد على انفراد وأن يسأله عن ماهية الزنى الذى شهده وكيفيته ومكانه وزمانه وهل تم عن طواعية واختيار أو باكراه ولا تثبت الجريمة إلا إذا اتفقت أقوال جميع الشهود الأربعة بأنهم شهدوا فرج الزانى فى فرج الزانية أو المزنى بها كالمرود فى المكحلة ولا عقاب عليهم ولا حرج فى هذه الرؤية لأنها لازمة لإثبات حد من حدود الله كما يشترط اتفاق أقوالهم فى كل ما يتعلق بالجريمة من أشخاص وزمان ومكان وكيفية وقوعها فإذا اختلفوا فى شىء من ذلك بطلت شهادتهم واعتبروا مرتكبين لجريمة القذف وحكم عليهم بعقوبتها كما سيجىء .

أما الإقرار بالزنى فهو الاعتراف به ولا يؤخذ بالإقرار إلا إذا كان صادراً من شخص بالغ عاقل ولا يسرى الإقرار بالزنى إلا على المقر وحده فلو أقر رجل بأنه زنى بامرأة معينة ولم تقر هى بذلك ولم يتوافر الشهود بالشروط التى سبق أن ذكرناها أقيم حد الزنى عليه وحده دونها وأقيم عليه إلى جانب ذلك حد القذف أيضاً .

وقد اختلف الفقهاء فيما إذا كان يكفى الإقرار مرة واحدة أم أنه يجب أن يكون أربع مرات قياساً على عدد الشهود فذهب بعضهم ومنهم الحنفية والامام أحمد إلى ضرورة الإقرار أربع مرات بل ذهب الحنفية إلى أن يكون الإقرار أربع مرات فى أربعة مجالس متفرقة وذهب البعض الآخر إلى أنه يكفى أن يكون الأقرار مرة واحدة ومن هذا الرأى مالك والشافعى وغيرهم وهذا هو الرأى الأرجح .

وقد ذهب الامام مالك والإمام أحمد والشافعية والحنفية إلى جواز الرجوع عن الإقرار بالزنى وسقوط الحد تبعاً لذلك ولا ينفذ .

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز ثبوت الحد بظهور الحمل على امرأة غير متزوجة وإن ذلك يعتبر دليلا على زناها ولكن جمهور الفقهاء ذهب إلى أن مجرد الحمل لا يثبت به الحد وأنه لا بد من الإقرار أو الشهادة وهذا الرأى يؤيده العلم الحديث ذلك أنه قد ثبت إمكان حمل المرأة ولو لم تصل المباشرة الفاحشة بها إلى مرتبة الفعل المادى المكون لجريمة الزنى .

وعلى ذلك فإن جريمة الزنى لا تثبت إطلاقاً ولا يطبق عليها حد الزنى من جلد أو رجم إلا بطريقين اثنين فقط وهما : الشهادة والإقرار .

إذا كان الأمر كذلك فما هو الحكم لو شاهد رجل زوجته مع رجل آخر يرتكبان جريمة الزنى ولم يكن معه شهود آخرون . هل يتركهما فى هذا الوضع ويذهب للنداء على أناس يروا هذا الفعل ويشهدوا معه وهل سيظل الجانيان على وضع الزنى حتى يحضر الشهود .

عالج التشريع الإسلامى هذا الفرض بما يعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى « باللعان » وذلك بقوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين » — النور ٦ و٧ و٨ و٩ .

ومقتضى هذه الآيات أن الرجل إذا رأى زوجته فى وضع الزنى وطلب إقامة الحد عليها ولم يكن هناك شهود غيره ولم تعترف زوجته بالزنى فإنه يشهد أربع مرات أنه صادق فى ادعائه وفى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان كاذباً فى ادعائه ثم تسمع شهادة الزوجة بعد سماع شهادته فإن امتنعت أقيم عليها الحد أما إن شهدت أربع شهادات بأنه كاذب فى ادعائه وفى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان صادقاً فى هذا الادعاء فإنه يترتب على ذلك نفى الاتهام عنها وبالتالى عدم إيقاع الحد عليها . ويجرى اللعان أمام القاضى ويترتب عليه إن أنكرت الزوجة صحة اتهام الزوج

الحكم بالتفريق بينهما نهائياً ولا يجوز لهما العودة إلى الحياة الزوجية بعد ذلك مرة أخرى حيث تصبح هذه الزوجة محرمة عليه حرمة مؤبدة .

ويشترط لصحة اللعان أن يكون — كلا من الزوجين بالغاً وعاقلا لأن الصبى والمجنون ليسا بأهل للشهادة أو اليمين كذلك يشترط أن يتم اللعان بين زوجين مسلمين فلا تسرى أحكام اللعان ولا يستفيد بها غير المسلمين .

كذلك لا تسرى أحكام اللعان إلا فى حالة اتهام الرجل لزوجته بالزنى ولا تسرى فى الفرض العكسى وهو اتهام المرأة لزوجها بالزنى فلا تثبت عليه جريمة الزنى فى هذه الحالة إلا باعترافه بارتكابها أو بشهادة أربع شهود له بالشروط السابق ذكرها .

ومن كل ما تقدم يتضح الفارق الكبير بين حكم التشريع الاسلامى وحكم الشرائع الوضعية فى جريمة الزنا فالتشريع الإسلامى بقدر ما أغلظ فى العقاب على هذه الجريمة ولم يسمح بالعفو فيها تشدد فى طرق إثباتها حتى يكاد يفلت الزناة من العقاب إذا ارتكبوا هذه الجريمة فى ستر عن الناس ولم يقروا بارتكابهم لها ذلك الإقرار الذى لا يصدر إلا عن نفس قاربت الكمال فى درجة الإيمان ففضلت عذاب الدنيا على عذاب الآخرة فقدمت نفسها عن طواعية واختيار لتنفيذ حكم الله فى مرتكب هذه الجريمة لتضمن إسقاطها من كشف حسابها فى اليوم الآخر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

فالتشريع الاسلامى فى هذه الجريمة لا يبغى مجرد العقاب وانما يبغى حماية المجتمع من الفساد وأن تسود الفضيلة وتختفى الرذيلة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد » — ولذلك إذا بلغت الجرأة والاستهتار بالزانى أن يفعل هذه الجريمة بحيث يشاهده أربع رجال متلبساً بفعله الشائن فإنه لا بد وأن يلقى الجزاء الرادع له ولمن تسول له نفسه أن يفعل مثل فعلته حتى لا تشيع الفاحشة فى المجتمع ويستمر ظاهره نظيفاً وإذا ما وقعت هذه الجريمة فى الظلام ولم تبلغ حد الذيوع والمجاهرة أمكن للمجرم التوبة والرجوع إلى الله وساعد ذلك على تنقية الجو الخلقى العام بإختفاء مثل هذه الجريمة

فى الظلام فلا يظهر للناس الا البراءة والفضيلة وقد ترك الله باب التوبة مفتوحاً فللمجرم فرصة التوبة والتكفير عن خطيئته .

هذا هو نظر التشريع الإسلامى لجريمة الزنى وحكمته من التشديد فى طريق الإثبات والتغليظ فى العقاب بينما جعلت الشرائع الوضعية الزنى فى حكم المباح أصلا إلا إذا وقع من زوج أو زوجة أو وقع بالإكراه أو برضا من لم تبلغ السن القانونية وهذه السن فى بعض الشرائع ثمانية عشر عاماً وبعضها ستة عشر عاماً فقط وجعلت هذه الشرائع إثبات الزنى جائزاً بكافة طرق الإثبات وخففت العقاب فجعلته مجرد جنحة بسيطة عقوبتها الحبس مدة لا تزيد على السنتين بالنسبة للزوجة الزانية ولا تزيد على الستة الشهور بالنسبة للزوج الزانى بلى وأباحت للزوج الزنى فى أى مكان غير بيت الزوجية وفتحت الباب على مصراعيه لإيقاف تنفيذ العقوبة بعد صدور الحكم بها وبذلك ساعدت هذه الشرائع على انتشار هذه الجريمة واعتبارها شيئاً مألوفاً لاغضاضة فيه ولا استنكار له ولا احتقار لمرتكبه وأصبح بعض الزناة نجوماً فى المجتمعات يحظون بكل تكريم وتشريف وأصبح من يسرق رغيف العيش ينظر إليه ويعامل على أنه مجرم خطر على المجتمع يجب ألا يؤخذ بأية رحمة بينما الزانى المجاهر والمفاخر بفسقه لايؤاخذ بحجة أن ذلك « مسألة شخصية » ولا يحول زناه بينه وبين المناصب الكبرى ولا بينه وبين احترام الناس وامتدت إباحة الزنى فى هذه الشرائع إلى إباحة الشذوذ الجنسى بين الرجال ولم تقف موجة الانحلال إلى هذا الحد بل أصبح الجنس تجارة وفنا ومهنة لا عيب إطلاقاً على من يمارسها حتى ارتفعت الأصوات فى الولايات المتحدة الأمريكية غير مكتفية بإباحة الشذوذ الجنسى بين الرجال بل تطالب بتنظيم عقود زواج بينهم تحدد علاقتهم ببعضهم على نسق ما هو محدد فى علاقة الرجل بزوجته فى النفقة والميراث فانظر أى مستوى منحط وصلت اليه الرجولة والإنسانية بفضل هذه الشرائح الوضعية التى اقتبس منها المسلمون أحكامهم والتى جعلت جرائم الزنى مثل مخالفات المرور التى تحرر ضد سائقى السيارات .

وتتصل بجريمة الزنى اتصالا وثيقاً جريمة

القذف ذلك أن القذف الموجب لايقاع الحد البالغ ثمانين جلدة يقتصر فى التشريع الإسلامى على الرمى بالزنى لقوله تعالى :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » — النور ٤ . فهذا الحد ثابت بنص قرآنى فرمى النساء المحصنات بالزنى أى اتهامهن بارتكاب الزنى جريمة عقوبتها الجلد ثمانون جلدة ولا يعفى القاذف من هذه العقوبة إلا أن يثبت صحة ما يدعيه ولا يتأتى ذلك إلا إذا أقر بالزنى الشخص المقذوف أو انضم للقاذف ثلاثة شهود آخرون ليكمل نصاب الشهود إلى أربعة يشهدون — بارتكاب المقذوف للزنى بالكيفية التى سبق لنا الكلام عنها فى إثبات جريمة الزنى بشهادة الشهود فإن قل عدد الشهود عن أربعة واختلفت شهادة أحدهم عن شهادة الباقين اعتبروا جميعاً مرتكبين لجريمة القذف وحوكموا عليها ونفذت فى كل منهم عقوبتها .

وظاهر الآية قد يفهم منه أن حد القذف لا يقام الا فى حالة قذف الرجال للنساء المتزوجات ولكن المتفق عليه بين الفقهاء هو إقامة الحد فى جميع حالات القذف سواء كان القاذف رجلا أو امرأة وسواء كان المقذوف من الرجال المحصنين أو النساء المحصنات فالحكم القرآنى فى هذه الآية لا يخص أحد الجنسين دون الآخر وذلك بمقتضى قانون — التساوى فى الأحكام إلا إذا ثبت ، تخصيص النص بأحد الجنسين دون الآخر ولا يوجد فى هذا النص ما يوجب التخصيص كذلك فإن الحكمة من حد القذف وهو الرمى بالزنى هو منع إشاعة الفاحشة فى المجتمع — الإسلامى بكثرة الاتهام بها واستسهال قولها فى حالة عدم العقاب عليها بمثل هذه العقوبة الرادعة وذلك لقوله تعالى :

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) النور ١٩ وذلك حتى يبقى للمجتمع الإسلامى مظهره النظيف وهى الحكمة التى من أجلها شرع حد الزنى وشدد فى طريقة إثباته .

والإحصان فى جريمة القذف يختلف فى معناة عن الإحصان فى جريمة الزنى فبينما يكتفى لتحقق الإحصان الموجب

للرجم فى حد الزنى أن يكون الزانى حراً بالغاً عاقلا قد تزوج زواجاً صحيحاً ودخل بزوجته دخولا حقيقياً فإن هذه الشروط لا تكفى لتحقق الإحصان فى جريمة القذف حيث يشترط وقوعها فى الشخص المقذوف رجلا أو امرأة أن يكون مسلماً وأن يكون عفيفاً .

والعفة تتحقق بعدم سبق ارتكاب المقذوف لجريمة الزنى فمن زنى فى أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف فإنه لا يقام الحد على هذا القاذف وإنما يعاقب تعزيراً كما سيجىء عند الكلام عن جرائم التعزير .

كذلك لا يقام حد القذف إذا كان المقذوف غير مسلم أو كان المقذوف غير محصن بشروط الإحصان السالفة الذكر .

أما شخص القاذف سواء كان رجلا أو امرأة فلا يشترط فيه سوى أن يكون عاقلا بالغاً مختاراً وهى شروط التكليف فقط فلا يشترط فيه أن يكون حراً أو مسلماً أو محصناً أو عفيفاً .

ويجب أن يكون القذف الموجب للحد بصريح الزنى لا بأى شىء آخر سواء تم ذلك قولا أو كتابة .

ومتى توفرت الشروط المتقدمة فى شخص القاذف وشخص المقذوف وموضوع القذف وهو الرمى بالزنى عوقب القاذف بعقوبتين : الأولى مادية وهى إقامة حد القذف بجلده ثمانين جلدة والثانية أدبية بمنع قبول شهادته والحكم بفسقه لقوله تعالى :

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) وإذا صدر القذف من زوج لزوجته وتوافرت شروط إقامة الحد عليه فإنه لا يدرأ الحد عنه إلا إقرارها بالزنى أو إجراء اللعان بينهما كما سبق أن ذكرنا ، أما إذا قذفت المرأة زوجها فإنه يقام عليها الحد ولا يتم إجراء اللعان فى هذه الحالة ولا يدرأ عنها الحد إلا إقراره بالزنى .

وتثبت جريمة القذف إما بإقرار القاذف نفسه بالقذف أو بشهادة رجلين عدلين فلا تقبل فى إثباته شهادة النساء كذلك تثبت جريمة القذف ويقام الحد إذا صدر فى مجلس القضاء أمام القاضى فللقاضى فى هذه الحالة أن يقيم الحد على القاذف وإن لم يشهد بالقذف أحد غيره متى طلب المقذوف ذلك .

ولا يسقط الحد عن القاذف إلا إذا جاء بأربعة شهود لأنه بشهادة الأربعة بالزنى تثبت جريمة الزنا على المقذوف

ويقام عليه حد الزنى وتنتفى صفة القذف عن القاذف ونفس الحال إذا أقر المقذوف بالزنى واعترف بما رماه به القاذف ولا يسقط الحد برجوع القاذف عن قذفه أو اعتذاره أو تكذيبه نفسه أو تقديم مبلغ من المال كتعويض للمقذوف .

وقد اختلف الفقهاء فيما إذا كانت دعوى القذف لا تقام إلا بناء على طلب المقذوف أو ورثته ، أم لا تتوقف على طلب أحد منهم وكذلك اختلفوا فى أثر عفو المقذوف عن القاذف بعد صدور الحكم بإقامة حد القذف عليه وهل هذا العفو يوقف تنفيذ الحد أم لا أثر له فى ذلك .

ومنشأ هذا الخلاف هو اختلافهم فيما إذا كان حد القذف حق خالص لله أم أنه حق خالص للعباد أم أنه حق خالص لله وللعباد معاً .

فمن قال بأنه حق خالص لله ذهب إلى مساواته بحد الزنى من حيث إقامة الحد ولو لم يطلبه المقذوف ولا أثر للعفو فى إقامة الحد . ومن قال بأنه حق خالص للعباد ذهب إلى أن حد القذف لا يقام إلا بناء على طلب المقذوف لأن الاعتداء إنما تم على عرضه وشرفه هو وأن له حق العفو سواء عند الترافع قبل صدور الحكم أو بعد صدور الحكم فيمنع بذلك إقامة الحد على القاذف ومن هذا الرأى الإمام الشافعى . ومن قال بأنه حق لله وحق للعباد ذهب إلى أن الحد لا يقام إلا بناء على طلب المقذوف ولا أثر لعفو المقذوف عن القاذف سواء صدر هذا العفو عند الترافع أم بعد صدور الحكم ومن هذا الرأى الإمام أبو حنيفة وهو ما نرى الأخذ به حيث يتمشى مع الهدف من حد القذف وهو عدم إشاعة الفاحشة فى المجتمع الإسلامى وعدم التعرض لأعراض الناس وشرفهم والتدخل بالوساطة والشفاعة والرشوة فى إيقاف الحدود خاصة فى هذه الأزمان التى ساد فيها الفساد .

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن حدى الزنى والقذف وسنتكلم فى عدد قادم إن شاء الله عن باقى جرائم الحدود.

حسن حسب الله

مصر فى غربة البارودى ..

للدكتور سعد ظلام

للبارودى فى مصر شعر كثير ، وهو متنوع بتنوع حياته وذكرياته ، فمن ذلك الشعر الذى قاله فى وصف طبيعتها الساحرة الخلابة ونيلها الخالد ، وحدائقها الغن ، ونخيلها السامق ، وما وصف به جزيرة الروضة والمقياس ، تلك الجزيرة التى حفظت ذكرياته ومرابع صباه ، وأيام لهوه ومرحه ، وغزله وتشبيبه ، وحبه وحبيبه ، وكل عمره المنضر على صفحتها والمضوّأ بالشوق والوفاء ، والنابض بالحب والحنين .

ولكن الذى يعنينا هنا ونود الحديث عنه هو شعره الذى قاله فى مصر وهو مغترب عنها ، يصور فيه حنينه الدائب وشوقه المتصل .

وإذا كنا قد سمعناه يقول فى روضة المقياس قبل غربته :

هل فى الخلاعة والصِّبا من باس
بين الخليج وروضة المقياس

أرض كساها النيل من إبداعه
ولباسه الموشىِّ أىَّ لباس

فكأنما هـوَتِ المجرة بينها
فتشكلت فى جُملة الأغراس

بتلهب النَّوارُ فى أطرافها
فتخالهُ قبَساً من الأقباس (١)

إلى أن يقول :

ملهى أخى طرب وملعب صبوة
وثَرى بُلَهْنِيةٍ ودار أناس

إذا كنا قد سمعناه يقول ذلك مصوراً روضة المقياس وغيرها على هذا النحو الجميل من التصوير الشائق الحى النابض بالحرارة فإن هذا السحر ما يزال يداعب أحضانه ويملك عليه أقطار نفسه وهو ناءٍ بعيد الدار .

والقارئ شعر البارودى يمكن أن يقسم الغربة إلى غربتين : غربة إرادية وغربة غير إرادية .

---

(١) الديوان ج ٢ ص ١٣٠ وما بعدها .

والغربة الإرادية تضم شعره الذى قاله وهو بعيد عن مصر قبل نفيه عنها ، والغربة الثانية تضم شعره الذى قاله فى شوقه اللهيف إليها وهو فى منفاه ، وللبارودى فى الغربتين شعر فى غاية الروعة والإبداع . ولنبدأ بغربته الإرادية وهو بحكم طبيعة عمله كضابط بالجيش كان كثير الارتحال عن مصر للاشتراك فى الحروب وإخماد الثورات خارج البلاد ، وكان يتشوق إليها ويراسل أحبابه وأهله ، سائلا عنهم وعن مصر ، شارحاً شوقه الدافق وشعوره الوامق واصفاً ما يحس به(١) ، ونفسه الموارة بالشوق تحلق عليها ، وتصافح كل بسمة على شفاه ذويها وكل خفقة من نسيمها الوادع المواج بالألق والعبير ، وأمواج نيلها المتألقة المترقرقة ، يقول وهو فى جزيرة « كريت » التى كانت تابعة آنذاك للدولة العثمانية ، وأعلنت الثورة والعصيان سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) تقريباً فأرسل إليها الخديوى نجدة عسكرية كان البارودى أحد ضباطها يقول البارودى متشوقا إلى مصر وأهلها :

سرى البرق مصريًّا فأرّقنى وحدى
وأذكرنى ما لست أنساه من عهد
فيابرق حدّثْنى وأنتَ مصدّقٌ
عن الآل والأصحاب ما فعلوا بعدى
وعن روضة المقياس تجرى خلالها
جداول يسديها الغمام بما يسدى
إذا صافحتها الريح رهواً تجعّدت
حبائلهـُا مثل المقدّرة السرد
وإن ضاحكتْها الشمس رفّت كأنها
مناصل سلّت للضِّراب من الغمْد
نعمت بها دهْراً وما كلٌّ نعمة
حبتْكَ بها الأيام إلاّ إلى الرد

ونلاحظ أنه فى هذه الأبيات تقتبس تشبيهاته من أدوات الحرب التى يخوضها أو يضفى على ألفاظه أردية حربية كما نلاحظ نفسيته الفرحة وتفاؤله وشموخه العظيم .

ويقول أيضًا من قصيدة أخرى قالها وهو فى حرب الروس مع الدولة العثمانية من قصيدة أرسلها إلى أستاذه الشيخ حسين المرصفى مصوراً ما يحس به من الشوق والنزوع الوجدانى :

هو النار فى الأحشاء لكن لوقْعها
على كبـــدى مما ألذ به برد
لَعَمْرُ المغانى وهى عندى عـَزيزَةٌ
بساكنها ما شاقنى بـَعْدَها عهد(٢)

فهو يعتبر الشوق ناراً ، ولكنها نار

(١) جـ ١ ص ٢٠٤ وما بعدها .

(٢) جـ ١ ص ٢١٠ .

لذيذة تقع على فؤاده برداً وسلاماً ثم نراه يعتب على إخوانه الذين لم يراسلوه لأنهم بتجاهلهم له ، وعدم مراسلتهم إياه يشعرونه بغربته أشد ما تكون وطأة وألما.

والبارودى قصيدة من الحنان الدائم والشوق الموصول بمصر ، يقول فى قصيدته التى قالها فى يوم عيد الفطر وهو فى تلك الحرب :

أراكَ الحِمَى شوقى إليك شديدُ
وصبرى ونومى فى هواك شريد
مضى زمن لم يأتنى عنك قادم
ببُشرَى ولم يعطف على بريد
وحيد من الخلان فى أرض غربة
ألا كلُّ منَ يبغى الوفاءَ وحيد
فهل لغريب طَوَّحَتْهُ يد النَّوى
رجوعٌ وهل للحائمات ورود
وهل زمن ولَّى وعيش تقيَّضَتْ
غَضَارَتُهُ بعدَ الذهاب يعود
أعلل نفسى بالقديم وإنما
يلذُّ اقتبال الشىء وهو جديد
وما ذكْرىَ الأيّام إلاّ لأنَّها
ذمام لعرفان الصِّبا وعهود
فليس بمفقود فتى ضمَّه الثرى
ولكن من غالَ البُعاد فقيد(١)

وتراه فى هذه القصيدة يتألم للفراق ونفسه المائرة بالحب والحنين مطحونة بين الغربة والفراق متألمة معذبة .

وهو لا يحس بالعيد ولا يستقبله ببهجة ، لأن البهجة إنما تكون باجتماع الأحباب وهو بعيد عنهم ، حتى إن إحساسه بالغربة يسلب عنه طعم الحياة ذاتها .

ونكتفى بما ذكرنا للغربة الإرادية ونلاحظ على شعره فيها ملامح الصدق فى الإحساس والصدق فى التعبير كما نلاحظ جلال العبارات وشموخها ، وسمات الشجاعة وقد كسا الألفاظ بأدوات الحرب ولم ينحن لفراق مصر وغربته عنها ، ولم يزلزل كيانه عظمة حضورها فى ذهنه فهو يحس بأنه مصرى حالت ظروف عمله وطبيعته دون رؤيته لها ، وأنه عائد إليها متى انتهت الحرب وخمدَ أوارها .

وشعره فى الغربة غير الإرادية يصور نزوعه وشوقه إلى مصر ، وهو منفى عنها ، بعد أن فعلت به الأحداث فعلتها ، يقول وهو فى سرنديب :

ترحَّلَ من وادى الأراكة بالوجد
فبات سقيما لا يعيد ولا يُبْدى
سقيما تظلُّ العائدات حوانياً
عليه بإشفاق وإن كان لا يُجْدى

(١) جـ ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها .

يخلْن به مسًّا أصاب فـؤادَه
وليس به مسٌّ سوى حرقة الوجد
به علَّة إن لم تُصبْها سلامةٌ
من الله كادَت نفس حاملها تُردى
ومن عجب الأيام أنىَ مُولع
بمن ليس يعنيه بكائى ولا سهدى
أبيت عليلا فى « سرنديب » ساهراً
أعالج ما ألقاه من لوْعتى وحدى
أدور بعيْنى لا أرى وَجْه صاحب
يريعُ لصَوْتى أو يرقُّ لما أبْدى

ثم يذكر المقياس فى نزوع شديد وعبير عاطفى خالد :

خليلىَّ هذا الشوقُ لا شك قاتلى
فميلا إلى المقياس إنخفتُما فقْدى
ففى ذلك الوادى الذى أنْبت الهوى
شفائى من سقمى و بُرئى من وَجدى
ملاعبُ لهو طالما سرْت بينْها
على أثر اللذات فى عيشه رَغْد
إذا ذكرتها النفس سالتْ من الأسى
مع الدمع حتى لا تُنَهْنَهُ بالرد
فيا منزلا رقرقت ماءَ شبيبتى
بأفنائه بين الأرَاكةِ والرنـد
سرَت سحراً فاستقبلتْك يد الصبا
بأنفاسها وانشق فجرُكَ بالحمْدِ
وزرَّ عليك الأفقُ طوْق غمامة
خضيبة كف البرقِ حنَّانة الرعد

فلست بناسى ليلة سلفت لنا
بواديه والدنيا تغرُّ بما تُسْدى
إذ العيشُ ريَّانُ الأماليدِ والهوَى
جديدٌ . وإذ لمياءُ صافيةُ الوُد[1]

ونلاحظ أن شموخ الشاعر بدأ يضمحل ، وإباءه بدأ يتهاوى ونفسيته الحزينة الداكنة تكسو الألفاظ وهنًا وضعفًا وسقمًا وعلة .

وتطالعنا هذه النبرة الحزينة فى كل قصائد الغربة التى قالها وهو فى منفاه فهو يحس بوطأة الزمن وتثاقله ، ويرى الليل وكأنه قد تقيدت كواكبه — وكأن المستقبل والأمل والغد ضلت الطريق إليه يقول :

خليلىَّ هل طال الدجى أم تقيَّدَتْ
كواكبه — أم ضلَّ عن نهجه الغدُ
أبيت حزيناً فى « سرنديب » ساهراً
طوَالَ الليالى والخليُّونَ هُجَّد
أحاول ما لا أستطيعُ طلابه
كذا النفس تهوى غيرَ ما تملك اليدُ
إذا خطرت من نحو «حُلوانَ» نسمةٌ
نزَتْ بينَ قلبى شعْلةٌ تتوقَّد[2]

أرأيت ثقل الحياة على فؤاده ، وكيف تقيدت الكواكب وضل الغد الطريق

(١) جـ ١ ص ٢٥٢ وما بعدها .
(٢) جـ ١ ص ٢٦٣ وما بعدها .

إليه ، وما الذى لا يستطيع طلابه ؟ إنه مصر بكل ما يعج بها من مباهج الحياة وأفراحها ، ويظل فى هذه المعايشة الواعية لمصر وكأنه فى حلم شاعرى حتى يذكر أنه إذا هبت نسمة من حلوان أذكت قلبه شعلة تؤجج خاطره وتدميه .

وإذا كنا قد وجدناه فى القصيدة السابقة يذكر الروضة والمقياس فهو هنا يذكر « حلوان » وهو يتمثل النيل يتدفق جمالا وخيراً :

طال شوقى إلى الديار ولكن
أين من مصر من أقام « بكَنْدى »
حبذا النيل حين يجرى فيُبْدى
رَونقَ السيفِ واهتزازَ الفرنْدِ
تتثنى الغصون فى حافتيْه
كالعذارى يسحبن ذيل الفرند
هُوَ مَرْقَى نَبْلى ومَلْعب خيلى
وحِمَى أسْرَتى ومركز بَنْدِى[1]

أرأيت الفارس ينقل حبه من المعارك إلى النيل فيصفه بأنه مرمى نبله وملعب خيله ، وحمى أسرته ومركز لوائه ، ونلاحظ هنا أنه ذكر الفرند ولكنه ذكره مهتزاً باهتزاز نفسه الباكية الحزينة .

وإذا كان قد ذكر الروضة والمقياس والمنيل وحلوان فلنستمع إليه فى خشوع وجلال وهو يذكر الفسطاط يقول البارودى :

يا نديمى فى « سرنديب » كُفُاًّ
عن ملامى ، فليس يُغْنى الملام
أنا فى هذه الديار غريب
وغريبُ الديار ليس يُلاَمُ
واذكُرا لى « فسطاط » مصر فإنى
بهواها متيَّم مستهام[2]

إنه محب لمصر ، مقيم بكل شئ فيها وإذا تذكرها دمعت عيناه :

أصبو إليها على بعد ويعجبنى
أنى أعيش بها فى ثوْبِ إمْلاقِ
وكيف أنسى دياراً قد تركت بها
أهلاً كراماً لهم ودى وإشفاقى
إذا تذكرت أياماً بهم سلفت
تحدرت بغروب الدمع آماقى[3]

فهو مشتاق يتمنى لو يعيش فى مصر فقيراً ، وهو لا ينساها ، ولا ينسى أهلها الذين محضهم ودّه وحبَّه ، ولا ينسى أيامه وذكرياته التى إذا تذكرها فاضت دموع عينيه منه صبابة وشوقاً .

وهو لم يتخذ بعدها داراً يقول :

لم أتخذ بعدها داراً أقيم بها
إلا تذكرتُ أيامى بذى سلم

(١) جـ ٢ ص ٢٦١ وما بعدها .
(٢) ص ٢٦٣ وما بعدها .
(٣) جـ ٢ ص ٢٨٣ .

وكيف أنسى دياراً قد نشأت بها
في مَنْبَتِ العز بين الأهْلِ والحَشَمِ
يا منزلا لم يَدَعْ وَشْكُ الفراق به
إلا رُسُوماً كوَحْيِ الخَطِّ بالقَلَمِ
أين الذين بهم كانت نواظرُنا
ترعى المحاسن من فَرْعٍ إلى قَدَمِ
ودعتُ شطْرَ حياتي حين فُرْقتهم
وصافحتني يدُ الأحزان والهرَمِ (١)

لقد ودع شطر حياته بوداع مصر وأهلها واستسلم لخريف الأحزان القاتل أرأيت هذه الصوفية فى الحب .

لقد كان البارودى قلباً مُحبا لمصر، وقيثارة عزف عليها أنبل اللحون وأرق العواطف وارفا المشاعر — حبًّا لمصر ونزوعًا وجدانيا إليها ، وذلك الحب الذى لم يدع خواطره ولم يفارق وجدانه بل ظل مزلزلا لصميمه يعيشه فى كل هتفة خاطر وكل همسة فكر شرود .

د. سعد ظلام

(١) جـ ٣ ص ٥٧٨ وما بعدها .

مما قيل فى حب الوطن :

ولى وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

اليهودية :
عقيدة ابتدعوها .. وتوراة حرَّفوها

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

لقد لمعت شعلة اليهودية أول ما لمعت على يد موسى . . ذات يوم فى أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد . . حينما وقف أمام فرعون مصر ليعلن أنه مبعوث من قبل الإله . . وليعلن أن أغلال العبودية التى تطوق أعناق بنى إسرائيل فى مصر قد آن الأوان لتحطيمها . . ويسرد الإصحاح الخامس من سفر الخروج — ثانى أسفار التوراة — وقائع هذه اللحظة الحاسمة فيقول : « . . . وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب — إله إسرائيل — : أطلق شعبى ليعبدوا لى فى البرية . . فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطْلق بنى إسرائيل . . لا أعرف الرب — وإسرائيل لا أطلقه . . فقالا : إله العبرانيين قد التقانا ، فنذهب لنسفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف » .

ولقد ظلت اليهودية على الدوام مبعث اهتمام الباحثين والعلماء بصفتها أقدم تجربة دينية إنسانية استطاعت أن تصمد مدة طويلة أمام تيارات من المبادئ الدينية أعلى منها ارتقاء فى سلم التطور وأكثر ملاءمة مع الأفكار التقدمية المنبثقة عن الانتفاضات الحضارية التى جرت خلال تلك المدة ، وأوسع شمولا لكل ما يلبى احتياجات الإنسان ويحقق ضروراته الروحية والدنيوية . . . وكانت التوراة — فى كل مرة تعرضت فيها اليهودية للبحث والدراسة — هى المصدر الأهم — وربما الوحيد — للتعرف على أصول وتفاصيل هذه الديانة بجميع وجوهها ، سواء فى ذلك عقيدتها وشريعتها وطقوسها ونظام المجتمع الذى شكلته وصاغته مبادؤها وأفكارها .

ومع ما للتوراة من أهميتها الكبرى فى هذا المجال — فإنها نفسها لا تحظى

باهتمام معظم الباحثين والنقاد إلا بعد أن يستنفدوا جميع أوجه الديانة اليهودية بالبحث والتمحيص . . ولا جدال فى أن النهج العلمى الصحيح يقتضى أن نتلمس سلامة مصدر الخبر قبل أن نحكم على مادته .

وجمهور العلماء الذين تعرضوا للديانة اليهودية بالبحث قد أجمعوا على أنها ديانة قومية موقوتة وأنها بطبيعتها لا تعدو أن تكون طوراً راقياً من الأشكال الدينية القديمة ، ضم أخلاطاً من المعالم البارزة لأنماط شتى من الوثنية التقليدية ، وأن اليهودية من الأديان التى ولدت لكى تموت حينما انقضت وتفككت ظروف وأسباب قيامها . . ولكنهم قد اختلفت آراؤهم فى أسباب بقائها وصمودها .

وصحيح كل الصحة ما ذهب إليه الأكثرون من أن صفات التعصب والصلف والغرور والعناد التى اشتهر بها الاسرائيليون كانت من الأسباب القوية التى حفظت للشخصية الاسرائيلية كيانها وسماتها وعقيدتها وحالت دون تلاشيها وذوبانها فى المجموعات والأجناس البشرية الأخرى التى عاش بينها اليهود خلال الأزمات والمحن التى مرت بهم والتى حكمت عليهم بالتشتت والتشرد فى جميع مسالك الأرض وبقاعها عبر الدهور والأزمان . . ولكنه صحيح أيضاً أن تلك الظروف العصيبة التى رزح تحت أثقالها اليهود قروناً كثيرة كانت أقوى من إرادة الإنسان وأكبر بكثير من طاقة احتماله . . وظروفٌ أقل من هذه قوة وشدة قد قضت على كيان شعوب عرفت بشدة المراس وقوة الشكيمة أو أذابتها فى شعوب أخرى .

فالهجرات الواسعة النطاق التى قامت بها القبائل الآرية من أواسط آسيا وجنوبها إلى سهول أوربا قد أسفرت بعد أجيال قليلة عن انفصال هؤلاء المهاجرين عن أصولهم الآسيويين ، انفصالا جعلهم على مر العصور يكونون مجتمعات لا تمت بصلة إلى أبناء عمومتهم فى الموطن الأصلى ، ويختلفون عنهم اختلافاً كلياً سواء فى ذلك اللغة أو اللون وأساليب المعيشة ومناحى التفكير . . وكذلك القبائل التركية التى وفدت إلى آسيا الصغرى من مشارف الصين ، فحالها الآن لا ينبئ أصلا عن القرابة التى تربطها ببقايا جنسهم الأصيل . . والأمثلة على ذلك كثيرة فى علوم التاريخ وأصول الإنسان . . بحيث أصبحت تأثيرات البيئة وعوامل التأقلم سنة مطردة

فى تغيير أى إنسان من حال إلى حال .. ولكن اليهود وبقاءهم دهوراً طويلة على ولاء لجنسهم الإسرائيلى ودينهم وتقاليدهم يمثلون شذوذاً خرق تلك السنن الوطيدة من سنن الوجود، مع أنهم — كما سنرى — شعب لم تكن من صفاته أبداً الصلابة أو الشجاعة أو قوة الاحتمال أو الصبر على النضال ولكن السر يكمن فى التوراة التى ظل كتبتها طوال أربعة عشر قرناً من الزمان يعملون بكل نشاط ، ويبذلون أقصى مالديهم من جهد وطاقة فى سبيل أن يجمعوا فيها أعز وأثمن مالدى أبناء إسرائيل — شعب يهوه المختار — من معتقدات ومعارف وأفكار ومبادئ وتقاليد وقواعد أخلاقية .. فجاءت فى النهاية موسوعة إنسانية ، فيها على الأقل غناء وتحقيق لجل ضرورات الإنسان الروحية والفكرية .. ولأنها فى المقال الأول كتاب دينى ظلت على الدوام فى نظر اليهودى مقدسة وأثيرة لديه من كل كتاب أو مصدر آخر من مصادر الفكر والمعرفة . . فكانت دائماً العامل الأهم فى تكوين شخصيته وعقليته والإلهام الذى يقود خطواته ويوجهه فى تصريف شئون حياته ، والقوة التى تلهب خياله وتؤجج مشاعرهُ وعواطفهُ ووجدانهُ .. ولا زال اليهودى ، بسبب ذلك — فى كل وقت وفى أى مكان وتحت أى ظروف عاش فيها — يختار مثاله من بين أبطال قصته : يشوع بن نون ، أو كالب اليهودى أو عبدون ابن هليل ، أو شاول بن قيس ، أو سرايا بن نيويا ، كما كان يتصور بخياله مسارح روايته بين ربوع مملكتى يهوذا وأورشليم حيث كانت أيام المجد والسؤدد والسعادة ، فلم ينس أبداً أنه واحد من الرعايا الذين اختارهم ومجدهم « يهوه الإله » ، وأنه أحد أبناء إسرائيل الذين هم خلاصة البشرية — كما تصورهم التوراة — والذين يجب أن تعنو لهم جباه كافة أجناس البشر فى جميع الأزمان والأحوال .

وبهذه الأفكار وتلك الروح حل اليهودى فى أى مكان وضرب فى أى مسلك . . وسواء أكان تاجراً فى باريس أم سمساراً فى لندن ، أم مزارعاً فى اليمن فإن بصره وفكره لا يلمحان من دنياه أية بارقة من العواطف الإنسانية ولا يستجيب لأية لمحة عاطفية . . بل يظل فى فقر مجدب ، ليس فيه إلا بؤس وكآبة الانفراد والعزلة ، وخيالات من سراب ووهْمىّ تخدّر آلام نفسه الكئيبة باعتقاد خاطئ عن انتمائه إلى العنصر الأسمى الذى يقف على قمة

التفوق وعلى أعلى مستوى من أى جنس إنسانى آخر . . وهذا الاعتقاد الخاطئ قد أفاد الشخصية اليهودية حتى فى أحط مستوى إنسانى عاشت فيه . . فكان اليهودى يرسف فى أغلال العبودية ويزاول بارتياح أو على الرغم منه (ولكن على خير وجه) مهنة الرقيق ، ولكنه فى قرارة نفسه يؤمن بأن سيده أحط منه عنصراً .. وهذا الاعتقاد لا بد وأن يظهر على صورة التذمر أو عدم الرضا ، وأحياناً التمرد . . والعلاج الوحيد لمثل هذا العبد هو القسوة واستعمال السوط حتى يعود إلى صوابه . ولكنه يظل يتوقع لحظة الخلاص التى هى بلا ريب آتية ويحلم بما سيتحقق له بعدها من سعادة وسيادة . ويظل يرتب — فى ذهنه السقيم — خططاً لانتهال موارد السعادة فى ذلك المستقبل البهيج . . وبالنسبة للعبد فإن مثل هذه الأحلام لا تكمل بهجتها إلا إذا أمسكت يده بنفس السوط الذى ألهب ظهره ليجلد به سيده .

وعلى هذا فحياة اليهود يسيطر عليها ويسيرها الإيمان بالتفوق العنصرى والشعور بالازدراء والكراهية لكل سائر أجناس البشر ، وحب الانتقام من كل إنسان .

وهذه العناصر الثلاثة التى كانت على الدوام أساس مقومات الشخصية اليهودية هى التى جعلت اليهودى لا يستطيع أن يقف على قدميه إذا ملك زمام نفسة وتمتع — ولو على نطاق ضيق — بحقوق الإنسان الحر ، وتحجب عن بصره المسلك الصحيح نحو الكرامة الإنسانية فلا يستشعرها فى نفسه ولا يقدرها فى غيره . . ويتخبط فى كل تصرفاته فيسيء إلى نفسه وإلى مجتمعه . . والخلاصة أن العوامل التى أبقت للشخصية اليهودية كيانها هى نفس الأسباب التى جعلت منهم عنصراً شاذاً لا يتفاعل ولا يتلاءم مع أى مجتمع إنسانى . . وعنصر كهذا إن لم يُكبح جماحه ظل دائماً مصدراً لا ينضب لإثارة القلق والفوضى والشغب فى المجتمع الذى يحل فيه .. ولهذا ظل اليهود طوال التاريخ مشكلة مستعصية .

ولقد بدئ فى كتابة هذه الموسوعة اليهودية — التوراة — فى أيام موسى ، فقد كان موسى نفسه كاتباً : « وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع إسرائيل . . فكتبت على اللوحتين كلمات العهد .. الكلمات العشر » . (خروج ٣٤ : ٣٨) . . وهــذه هى الوصايا العشر التى كتبها موسى وأودعها

تابوت العهد وجعل للتابوت مكاناً خاصًّا فى الهيكل .

وعندما أحس موسى بدنو أجله جمع كل وصايا الإله . ودونها فى كتاب . . فكان هذا هو التوراة . . بل إن التسمية نفسها ومعناها « الهدى أو الإرشاد » من وضع موسى نفسه . . الذى قام بتسليمها إلى الكهنة وأمرهم بالمحافظة عليها وحفظها فى الهيكل بجانب تابوت عهد الرب الذى يضم كلمات الوصايا العشر التى تؤلف الأصول الأساسية للعقيدة والشريعة الموسوية . ولم يشأ موسى أن يسلم للكهنة توراته إلا فى ملأ من زعماء ورؤساء الأسباط ليكونوا شهوداً على الكهنة بتسلمهم كتاب الوصايا . وقد قرأ موسى نصوص التوراة على الملأ كى يعوا ما فيها ويعملوا بمقتضاها ، وحتى يقطع الطريق على الكهنة إذا ما أرادوا أن يستأثروا بهذا التراث لأنفسهم ويحجبوه عن الشعب ، أو إذا ما أرادوا أن يضللوا الناس ويحرفوا تعاليم الله .

« فعندما كمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب (الكهنة) قائلا : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم . لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . . هـُوذَا وأنا بعد حىٌّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى ؟ . . اجمعوا إلىَّ كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم ، لأنطق فى مسامعهم بهذه الكلمات ، وأشهد عليهم السماء والأرض ، لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به ، ويصيبكم الشر فى آخر الأيام ، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم » (تثنية ٣١ / ٢٤ / ٢٩) .

وقد تحقق ظن موسى بهؤلاء الكهنة .. فإنه بدون أن يمنحهم تفويضاً من نوع ما بأن يتصرفوا فى توراته بالحذف أو الإضافة فإنهم قد منحوا أنفسهم حق الاستمرار فى كتابة القصة الإسرائيلية وإضافتها إلى التوراة كأجزاء أصيلة فيها . ومنذ أن استودع موسى كهنة الهيكل توراته لم يتوقف هؤلاء عن تحرير الأسفار والأمثال والأناشيد والمزامير وإضافتها إلى هذه التوراة . . بل خصصوا وظائف رسمية فى الهيكل لجماعة من الكتبة مهمتهم تدوين ما يمليه الكهنة ويلقنونه للناس ضمن ما يذيعون عليهم من نصوص تعاليم الرب ووصاياه .

كانت هذه العملية يقوم بها تحت إشراف الكهنة وتحت سلطانهم وفى كنفهم موظفون يعرفون بالكتبة يتقاضون أجورهم من أموال الهيكل التى تجمع باسمه كضريبة من الشعب — وكان لابد وأن تتخذ هذه العملية طابعاً يحقق أطماع الكهنة ومآربهم ، ويوثق ارتباط الشعب بالهيكل على نحو يكفل لسدنته الجاه والثروة . .

ومن البدهى أن أسفاراً برمتها عددها ٣٤ ابتداء من سفر يشوع حتى نهاية التوراة من وضع وصنع الكهنة وحدهم لأنها تؤرخ لفترة ما بعد موسى . . وهذا الجزء وحده يؤلف أكثر من تسعة أعشار التوراة . . أما سفر التكوين —أول أسفارها— فليس هناك ما يقطع بأنه من عمل الكهنة ، ولكن بالتالى قد وصفت توراة موسى بأنها مجموع الوصايا والأحاديث الآ تلقاها عن ربه . . وهذه تنبئ عنها طبيعة مادتها فى فقرات وإصحاحات متناثرة فى كل من أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية . وبذلك لا تكون مأثورات موسى سوى جزء ضئيل جداً غارق فى محيط خضم من أعمال الكهنة وتحريراتهم . . حتى هذا المأثور الموسوى على ضآلته قد استحل الكهنة لأنفسهم أن يعملوا فيه أقلام كتابهم بالحذف والتعديل حتى شوهوا معالمه أو طمسوها ، ففقد الشعب مصادر الاهتداء بوحى ربه وشرع يرتد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية . . ولما كانت هيبة الكهنة تتأثر لا محالة بانصراف الناس عن عبادة يهوه — وبالتالى يقل نفوذهم وتتضاءل ثرواتهم — فإن هذا وحده كان سبباً كافياً لكى يسارعوا إلى البحث عن إيجاد حل لهذا الموقف الصعب الذى وصلوا إليه برعونة وعدم تبصر متأثرين بدوافع الجشع والأطماع الشخصية .

وإذا أضفنا إلى ذلك الحملات التى كان يشنها — على فساد الكهنوت — الأنبياء (وكانوا يمثلون قوة الضمير ومثاليته فى الشعب الإسرائيلى) من أمثال صموئيل واشعياء وارميا بسبب التدهور الدينى والأخلاقى الذى وصل إليه الشعب ، وإلقاء اللوم فى ذلك كله على الكهنة وحدهم ، لأنهم باندفاعهم المتهور نحو السلطان والأبهة والرفاهية ، قد أضلوا الشعب وأضاعوه . وإذا نحن أخذنا فى اعتبارنا هذه الحملات أيضاً تصورنا موقف الكهنة العصيب . وأنهم قد وقعوا فى أزمة حقيقية تجعلهم على شفا

هاوية الضياع النهائى . . وبذلك كان لابد لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية وبالتالى يمنعون هبوب العاصفة التى توشك أن تثور لتدميرهم .. ورأوا أن أحسن وسيلة لإنقاذ الموقف هى إبلاغ الناس رسالة من الله نفسه (ممثلة فى وصاياه التى تتضمن سنته الإلهية) لتبعث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية . . وبهذا أيضاً يضمنون معونة الأنبياء بدلا من موقف العداء الذى يقضون به مضاجعهم .. وقد كان ذلك إبان حكم الملك يوشيا الذى اعتلى عرش أورشليم طفلا فى الثامنة من عمره فسرعان ما سيطروا عليه وضمنوه إلى جانبهم .

ولم يمض وقت طويل حتى كان هذا الملك قد صار حليفاً للكهنة وواحداً من رواد الهيكل الأتقياء . . ولكن هذا الهيكل كان قد أصبح فى عهده مباءة للرجس ومسرحاً للشرك بسبب ما صار إليه الإسرائيليون من فساد فى العقيدة وانحلال فى الخلق .

ويصف سفر الملوك الثانى (فى إصحاحه الثانى والعشرين ، والثالث والعشرين) مدى ما وصلت إليه حالة الديانة اليهودية والمجتمع اليهودى من سوء وفساد وضلال وانحراف ، فيبين أن هيكل الإله يهوه قد صار متحفاً تتنافس فيه أصنام الآلهة وتماثيلهم ، وأن بنى إسرائيل قد آل أمرهم إلى أن أصبحوا جماعة من المشركين الذين نسوا إلههم يهوه ، وصاروا يعبدون عدداً من الأوثان ويقدمون القربان لكثير من الآلهة بأسماء مختلفة — كالبعل والسارية وعشتروت وبعض الكواكب كالشمس والقمر وفينوس — وكذلك النار . . كما صارت ساحة هذا الهيكل ماخوراً للدعارة بنيت على جوانبها أكنان يقصدها كل ذى غلمة ليقضى شهوة الجنس مع بائعات الجسد من النساء الزوانى ، أو مع الشواذ من الرجال المأبونين » .

وفى السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الملك أجرى عمارة فى الهيكل وأرسل من قبله رسولا إلى حلقيا الكاهن الأعظم يكلفه بأن ينفق على أعمال الترميم من حصيلة الفضة التى يدفعها الشعب ضريبة للهيكل . . فلما وصل رسول الملك أخبره الكاهن أنه عثر بين الأنقاض على كنز خطير . . ولم يكن هذا الكنز سوى « سفر الشريعة » . حسبما أسمته نصوص التوراة .

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا يكون

سفر الشريعة هذا ؟ ؟ . ولكن روى أنه عندما أحس يشوع بن نون – خليفة موسى – يدنو أجله جمع شيوخ شعب إسرائيل ورؤساءه وقضاته وعرفاءه وأوصاهم بقوله : « تشددوا جداً لتحفظوا وتعلموا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى ، حتى لا تحيدوا عنها يميناً أو شمالا » . (سفر يشوع ٢٣ / ٥) .

وهذه الإشارة العابرة إلى سفر الشريعة فى خطبة يشوع – ولم يكن قد مضى طويل وقت بعد وفاة موسى – تجعل الفرض الوحيد المعقول أنه هو نفس وصايا الله التى جمعها موسى ودونها فى كتاب سماه التوراة وسلمه إلى الكهنة بعد أن قرأه عليهم وأمرهم بأن يحفظوه ويعلموه للناس . . ويؤكد هذا الافتراض أنه لم يودع بالهيكل سوى الوصايا العشر فى تابوت العهد وتوراة موسى بجوار هذا التابوت . . والوصايا العشر لا تؤلف سفراً ولا تشمل كل الوصايا التى تؤلف الشريعة الموسوية ، وبالتالى لا تشمل التعليمات الإلهية التى نفذها الملك يوشيا بعد أن قرأ سفر الشريعة وأمر الشعب بتنفيذها ومن بينها إقامة أعياد الفصح وغير ذلك من الأوامر والنواهى الإلهية . . ومهما كان نوع هذا السفر فإن الملك يوشيا حينما قرئ أمامه ظهر عليه تأثره وتقواه فمزق ثيابه من شدة الوجد والإعجاب : « وأرسل الملك فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم . وصعد الملك بيت الرب (الهيكل) وجميع رجال يهوذا ، وكل سكان أورشليم معه ، وكل الشعب من الصغير إلى الكبير ، وقرأ فى آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذى وجد فى بيت الرب . ووقف الملك على المنبر وقطع عهداً أمام الرب للذهاب وراء الرب ، ولحفظ وصاياه وشهاداته وفرائضه بكل القلب وكل النفس ، لإقامة كلام هذا العهد المكتوب فى هذا السفر . . ووقف جميع الشعب عند العهد. وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يُخْرِجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية (إلهين) ولكل أجناد السماء وأحرقها خارج أورشليم فى حقول قدرون وحمل رمادها إلى بيت ايل .. ولاشى (عـزَل) كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات فى مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم ، والذين يوقدون للبعل وللشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء ، وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادى قدرون ، وأحرقها فى وادى

قدرون ودقها إلى أن صارت غباراً وذرى الغبار على قبور عامة الشعب . وهدم بيوت المأبونين التى عند بيت الرب — حيث كانت النساء ينسجن بيوتاً للسارية (الملوك الثانى ٢٣ : ١ / ٧) .

وإذا كان من المسلم به أن كتاب التوراة قد ظلوا يدونون ما يمليه عليهم الكهنة طوال الوقت منذ أن سلمهم موسى توراته وأمرهم بالمحافظة عليها ومداومة تعليمها للناس . . فإنه لم يحن عهد الملك يوشيا فى القرن السابع قبل الميلاد — أى بعد وفاة موسى بأقل من خمسة قرون — حتى كانت التعاليم والنصوص الدينية التى يتلقاها الشعب من الكهنة خالية تماماً من وصايا الله وشريعته التى أوحاها إلى نبيه موسى عليه السلام ، بحيث كانت شيئاً جديداً — عندما عثر عليها — على الملك التقى يوشيا ، وعلى شعب إسرائيل الذين تأثروا بها أشد التأثر ، وبحيث كان الهيكل نفسه قد أصبح مستودعاً لأوثان الشرك ، وساحته مباءة للرذيلة والفساد .

ومن البدهى أن الزعامة الدينية ممثلة فى الكهانة (التى كانت وقفاً على أبناء هرون يتوارثونها أبا عن جد) قد لعبت فى التوراة الموسوية وحرفتها بحيث شوهت السمات الأصلية للديانة اليهودية سواء فى العقيدة عن الإله وصفاته أم فى طقوس العبادة أم فى الشريعة والقوانين .

ولقد أهمل كل العلماء والباحثين التعرض للصورة التى آلت إليها التوراة قبل أن يعثر حلقيا على سفر الشريعة ، ولكنهم استشفوا من واقع الحادثة تلك الصورة المهينة التى آلت إليها الديانة والمجتمع اليهودى . . ويعتبرون أن ظهور هذا السفر هو البداية الحقيقية لتدوين التوراة ، وإن لحظة العثور . عليه هى لحظة مولدها ، ولكن أى توراة ! ؟ . . هى ليست إلا التوراة التى بأيدينا على كل حال . . وهم أيضاً على حق حين ينكرون أو يتشككون فى نسبة هذا السفر إلى موسى كما ادعى حلقيا كبير الكهان . . بل إنه — فى رأيهم — حيلة لجأ إليها هذا الكاهن لكى يبعث الحياة فى ديانة ماتت على يد كهنتها ودفنت منذ زمان طويل ، وانصرف عنها الناس انصرافاً كلياً وكفروا بإلهها واستبدلوه أصناماً وأوثاناً اخترعوها ، واضطر الهيكل لأن يستضيف هذه الأوثان حتى يضمن كهنته دخلا من النذور والقربان ، فلما تأصلت الوثنية فى نفوس الناس ، وتضاءل

ماللهيكل وكهنته من جلال رمزى ، وازدادت ضراوة وعنفاً حملات الأنبياء والمصلحين على انحراف الكهنة — وفساد الشعب . . كان ظهور هذا السفر المزعوم على يد حلقيا عظيم الكهان وشيخ الأحبار . . وإذا ضربنا صفحا عن كل ما قيل بصدد القيمة الحقيقية لهذا السفر فإن العقل المنصف لا يمكن أن ينظر إليه إلا على أنه قد ظهر فى نفس الوكر الذى منه تسلل الانحراف والفساد إلى بنى إسرائيل . . ذلك الفساد الذى جعل من هؤلاء القوم مصدراً دائماً من مصادر القلق والاضطراب لكل منطقة الشرق الأدنى فى ذلك الوقت من الزمان . . فبعد أن عجزوا تماماً عن أن ينتزعوا فلسطين من يد الكنعانيين (أهلها الأصلاء) ، وبعد أن وجدوا أنه من المستحيل عليهم أن يحتفظوا برقعة الأرض الضيقة التى فنى فى سبيل استخلاصها — لتكون مستقراً لهم وملاذاً من ظلم وعنت سادتهم القدامى : المصريين — موسى ويشوع ويهوذا وشاؤل وغيرهم من القادة الذين تصورهم التوراة على هيئة الأبطال المغاوير . . وبعد أن عجزوا عن تحمل الحملات القاسية التى كان يشنها عليهم الكنعانيون من وقت لآخر لاسترداد الأرض وطردهم منها راح هؤلاء الاسرائيليون يستعدون الأجنبى ويطلبون العون من الجيران الأقوياء . ولم يكن المصريون أو الفينيقيون — على ما يبدو — فى أى وقت على استعداد لمساعدة اليهود المعتدين الذين وجدوا هذا النصير فى قبائل الهمج الذين كانوا يقطنون آسيا الصغرى فأغروهم بالمغامرة وقادوهم كأدلاء وجواسيس عبر الطريق حتى وصل هؤلاء الغزاة إلى دلتا النيل . . ولكن رعمسيس الثالث ردهم إلى خارج الحدود مدحورين . . ثم تعقبهم بعد فترة وجيزة فأجلاهم عن فلسطين . . ومنذ هذه الفترة الدامية فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد لم تنعم فلسطين كلها — إلا فى فترات قصيرة — لا يحسب لها حساب — بالأمان أو الاستقلال ، فهى فى معظم الأوقات ، إما تحت حكم المصريين أو الفينيقيين أو الأشوريين أو البابليين أو الفرس أو الإغريق أو الرومان . . ولكن مع هذا فقد كان ذلك خيراً وبركة على اليهود الذين أمنوا شر الحملات التى كان يشنها عليهم — لطردهم — الكنعانيون الذين تفرغوا لمقاومة المحتل الجديد بينما كان اليهود يتعاونون معه ويقومون — على أحسن وجه — بدور العملاء والجواسيس . .

وهكذا فعلوا مع كل محتل جديد لكى يضمنوا البقاء فى الرقعة التى اغتصبوها ولكى يستطيعوا بمساعدة المحتلين أن يتوسعوا فى أملاك الكنعانيين ، وقد احترفوا وأجادوا مهنة التجسس لجميع القوى المتنافسة فى تلك المنطقة فى كل الأوقات وفى جميع الأحوال . . وكانوا يبيعون خدماتهم هذه لمن يدفع أكبر الثمن أو لمن يتعهد سلفاً بتحقيق قدر من الحرية أو بعض الميزات لشعب إسرائيل . وبلغ خطرهم فى هذا المجال أقصى مداه، حينما سقطت نينوى وأصبح التنافس الاستعمارى فى المنطقة محصوراً على أشده بين نخاو ملك مصر ونبوخد نصر ملك بابل فى حوالى القرن السابع قبل الميلاد . . إبان حكم الملك يوشيا الذى ظهر فى عهده سفر الشريعة المزعوم . . فقد حاول نخاو أن يمر بفلسطين فى زحفه متوغلا إلى الشمال فوقف يوشيا فى وجهه عند مجدّو حيث كانت الواقعة القديمة المشهورة التى فيها لقى يوشيا حتفه ، وبعد بضع سنين من ذلك الوقت انتصر نبوخد نصر على نخاو فى قرقميش واستولى على يهوذا وجعلها ولاية تابعة لبابل ، وحاول خلفاء يوشيا — بالوسائل السرية التى أجادوها — أن يلقوا عن كاهلهم نير بابل وأرادوا أن يستعينوا فى سعيهم هذا بمصر . ولكن نبوخد نصر علم بالأمر فزحف بجيوشه على فلسطين واستولى على أورشليم وأسر الملك يهوياقيم ، وأقام صدقيا على عرش يهوذا ، ثم عاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود . ولكن صدقيا كان أيضاً إسرائيلياً فى روحه وفى أساليبه ، فتآمر ضد بابل مما جعل نبوخد نصر يعقد العزم على أن يحل المشكلة اليهودية حلا نهائياً ، فقدم مرة أخرى إلى أورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان ، وقتل أبناء صدقيا أمام عينيه ، ثم سمل عينيه هو نفسه وأسر جميع السكان اليهود ، وساقهم أمامه إلى بابل أسرى ، حيث عاشوا فى ظروف مماثلة تماماً لما كانوا عليه فى مصر قبل ظهور موسى . وحيث ظلوا طوال ما يزيد على ثلاثة قرون بضاعة رائجة فى أسواق النخاسة بالمدن البابلية .

وفى خلال مدة الأسر هذه التى استمرت زهاء قرنين من الزمان أضيفت إلى التوراة ثلاثة من أروع أسفارها وأبدعها فى صدق التعبير ورصانته وقوته . . فقد ظل أرميا أفصح الأنبياء طوال هذه الأزمة يدافع عن بابل ويعلن فى الملأ أنها سوط عذاب فى يد الله ،

ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى نبوخذ نصر حتى إن بعض المؤرخين قد اتهم أرميا هذا بأنه أحد صنائع بابل المأجورين . ويبدو أن هذا الاتهام غير جائز إذا نظرنا إلى قول أرميا على لسان ربه : « إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوتى العظيمة وبذراعى الممدودة وأعطيتها لمن حسن فى عينى ، والآن وقد وقعت كل هذه الأرض لنبوخذ نصر ملك بابل عبدى فتخدمه كل الشعوب . . ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل انى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده » . (أرميا ٢٧ : ٥ / ٨) .

ويقول ديورانت :

وسواء أكان هذا الرجل خائناً أم غير خائن فإن السفر الذى سجله عنه كتبة التوراة ونسبوه إليه يعد من أبلغ كتب الأدب ومن أعظمها قوة ، حيث هو ملىء بالصور الحية الواضحة والتأنيب الشديد الذى لا رحمة فيه ولا هوادة ، وفيه فوق ذلك إخلاص صادق يبدأ بسؤال الرجل نفسه ثم يختتم بارتياب فى خطته وفى حياته كلها . « ويل لى يا أمى لأنك ولدتنى إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض لم أقرض ولم يقرضونى ، وكل واحد يلعننى . . ملعون اليوم الذى ولدت فيه (أرميا ١٥ : ١٠ ، ٢٠ : ١٤) .

وحملاته على فساد اليهود من أقوى الحملات وأعتاها « طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا فى ساحاتها — هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالبَ بالحق فأصفح عنها . . لقد ساد الظلم فى كل مكان وعم الفسق والفجور » ، « ولما أشبعتهم زنوا . . فى بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصناً ملعونة سائبة صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه » (أرميا ٥ : ١/٨) .

ومن أجل هذا الفساد فإن « يهوه » الرب سيمحق بغضبه شعب إسرائيل ، وسيريهم ألواناً من الذل وصنوفاً من الأهوال والشدائد جزاء لما اقترفوه .

وفى هذه الفترة أيضاً كان خطيب آخر فى بابل يشن حملات شعواء — مماثلة لتلك التى يشنها أرميا — على فساد الشعب الإسرائيلى . . لما شاع فيهم من وثنية فى الدين وانحلال فى الأخلاق .

ولم يكن هذا الخطيب سوى حزقيال

الذى كان أحد رجال الكهنوت وسبق سبيًا إلى بابل .

وبدأ حزقيال خطبه كما بدأها أشعيا الأول وأرميا منددًا أشد التنديد بما شاع فى أورشليم من فجور ، وشبه تلك المدينة بالزانية لأنها باعت عبادتها للآلهة الغرباء ، ووضع ثبتًا طويلاً بذنوب أورشليم ثم تنبأ لها بالتخريب والدمار .

ورغم أن حزقيال لم يكن أقل من أرميا عنفًا وضراوة فى تنديده القاسى بإسرائيل . . ذلك الشعب الفاجر الفاسد .. ورغم أن عباراته لم تكن أقل صرامة من تلك التى وصف بها البلاط الفرنسى أيام الملكة مارى أنتوانيت رغم هذا فإن حزقيال كان على عكس أرميا . . لم يكن يائسًا مثله بل كان متفائلا — فقد تنبأ بأن الله سينجى بعثته من اليهود ، وتنبأ بأن المدينة ستبعث حية . وأخذ يصف ما يراه بعين الخيال من بناء المعبد الجديد فيها ، وتصور قيام مدينة فاضلة للكهنة فيها الكلمة العليا والمقام الأعظم يقيم فيها « يهوه » مع شعبه أبد الدهر .

ولم يكن قد انقضى أكثر من عمر جيلين منذ بدأ الأسر الإسرائيلى فى بابل حتى كانت ذكرى إسرائيل — الأرض الموعودة — قد انمحت من أذهان اليهود أو كادت . . ولكن مؤلفًا مجهولاً أخذ على عاتقه أن يكمل سفر أشعيا فأضاف إلى إصحاحاته الثمانى والأربعين ثمانية عشر إصحاحًا أخرى ليكتمل بست وستين منها » وقد أخذ هذا المؤلف المجهول على عاتقه أن يعيد ذلك القطيع المرتد إلى دين إسرائيل . . وكان ما يمتاز به هذا المؤلف أنه وهو يعمل على إعادتهم إلى دينهم القديم عمل أيضًا على أن يرقى بهذا الدين إلى مستوى رفيع فلم تقتصر مهمته على إحياء التراث الدينى القديم فحسب ولكنه أحدث تطوراً فى الدين اليهودى نفسه وسنوضح طبيعة هذا التطور وكيفيته حين نتكلم عن العقيدة اليهودية نفسها .

وجل المؤرخين والباحثين قد اعتبروا هذه التكملة التى أضيفت على سفر أشعيا بمثابة سفر كامل متميز هو الثالث فى عداد الأسفار التى أنشئت فى عهد الأسر الإسرائيلى لدى البابليين .

ولعل أروع الساعات فى تاريخ اليهود تلك التى دخلت فيها قوات قورش الفارسية أرض بابل وقضت على مملكة بابل قضاء نهائيًا .

ولقد عرف قورش لليهود صنيعهم فى المساعدات التى قدموها له فى حملته الحربية هذه والمعلومات التى زودوه بها والتى ساعدته على فتح تلك البلاد الحصينة بلامشقة تذكر ، فكافأهم بأن حررهم من الرق الذى كانوا يرسفون فيه، وأباح لهم أن يعودوا إلى أورشليم بكامل حريتهم . . ولكن شباب اليهود لم يتحمسوا لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم كانوا قد تأقلموا فى الأرض البابلية واعتادوا نهج الحياة فيها ففضلوا القناعة بالواقع على المخاطرة فى المجهول الذى ينتظرهم فى الأرض المقدسة . وقد مرت سنتان بعد مجىء قورش قبل أن يبدأ الفوج الأول من اليهود المتحمسين رحلته الطويلة التى دامت ثلاثة أشهر إلى الأرض الموعودة . التى خرج منها آباؤهم قبل ذلك بنحو من مائتى عام .

وعندما عاد هؤلاء وجدوا أن الأرض قد عاد إليها ملاكها الأصلاء . . والكنعانيون . . وانه يستحيل على أقدامهم أن تطأ ثراها إلا إذا سالت الدماء . . وقد كان العائدون فى هذه المرة أضعف من أسلافهم وليسوا أكفاء لأن يشنوا حربا أو يدخلوا معركة . . إذن كيف السبيل وما هو المصير ! ! ؟

ولقد تكفل الفرس بحل هذه المشكلة . فقد مكنوا اليهود العائدين من أن يتوطنوا فى الأرض من جديد ، كما أذن دارا الأول ملك الفرس للأمير زربابل أن يعيد بناء الهيكل — وعادت أورشليم كما كانت شيئاً فشيئاً مدينة يهودية ، وترددت فى الهيكل أصداء الأناشيد التى كانت تتغنى بها بقيَّة منهم آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق عهدها وازدهارها .

ومنذ عودة اليهود إلى أورشليم شرع الكهنة فى وضع قواعد حكم دينى يقوم — كما كان الحال فى عهد يوشيا — على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم وعلى أوامر الله . . وفى عام ٤٤٤ ق . م دعا عزرا — وهو كاهن عالم — اليهود إلى اجتماع عام خطير ، وشرع يقرأ عليهم « سفر شريعة موسى » وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرأون ما تحتويه ملفات هذا السفر . . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم وقانوناً يتصرفون بمقتضاه ويسيرون على هداه .

ولا يمكن أن يكون سفر الشريعة هذا الذى قرأه عزرا هو نفس سفر الشريعة الذى عثر عليه الكاهن حلقيا فى

الهيكل فى عهد الملك يوشيا . لأن الأول قد قرئ مرتين فى يوم واحد بينما هذا الأخير ظل الكهنة يتناوبون قراءته سبعة أيام كاملة حتى انتهوا منه .. ولا يهمنا معرفة ماهية الكتابين ولا أن نحقق مضمونيهما . . ولكن الذى يعنينا أولا وقبل كل شىء هو أن شريعة موسى كانت قد نسيت أو اندثرت تماماً مرتين فى تاريخ اليهود . . وكانت فى كل مرة — بعد ضياع كامل — تبعث على يد الكهنة وهم نفس الطائفة التى تلاعبت فيها وأخلت بأمانتها تجاه وديعة موسى بكل ما فيها من وصايا وتعاليم إلهية . . ولا ريب فى أن كل باحث محقق لا يمكن أن ينصف عقله إذا سلم تسليماً مطلقاً بصحة نسبة سفر الشريعة إلى موسى . . وبالتالى إلى الوحى الإلهى على الصورة التى ظهر بها فى كل مرة على يد هؤلاء الكهنة . . فإن العوامل التى حجبت هذا السفر الإلهى عن اليهود مدة طويلة ترجع فى معظمها إلى المصالح الخاصة للكهنوت . . وهذا وحده كاف لأن يجعل كل عقل مفكر يميل إلى أن هذه العوامل نفسها قد لعبت دورها فى الصورة التى بعثت فيها من جديد قواعد الشريعة وقوانينها .

وأقصى ما يمكن هنا هو أن نعتبر التوراة التى بأيدينا نتاجاً خالصاً للكهنوت اليهودى ، وأنها من عمل أيدى الكهنة وحدهم . وأن الوحى الإلهى (على فرض وجوده فيها بلا تحريف أو تبديل أو نقص) لا يمكن الاستدلال عليه أو تمييزه وسط خضم من أسفار وإصحاحات دوَّنها كتبة التوراة بإملاء الكهنة داخل الهيكل . . فإن سفر الشريعة الذى ذكر فى مناسبتين حاسمتين فى تاريخ اليهودية ليس له فى التوراة اليهودية كيان مستقل . . وليس بين أسفارها التسع والثلاثين ما يسمى بسفر الشريعة . . فأين يا ترى يكون هذا السفر من بين كل أسفار العهد القديم ؟ ؟ . . وأغلب الظن أن كتبة التوراة قد فرقوا إصحاحاته وآياته ونثروها فى كلٍّ من أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية . . ففى ثنايا هذه الأسفار كثير من الوصايا والإرشادات والأحاديث التى يمكن نسبتها مباشرة إلى الله . .

« يتبع »

زاهر عزب الزغبى

الأزهر جامعاً وجامعة
أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

٤

الأزهر فى عهد العثمانيين :

لمحة تاريخية :

فى سنة ٩٢٣هـ دخل مصرَ سليمُ الأول سلطان بنى عثمان بعد أن هزم السلطان الأشرف قانصوه الغورى فى معركة مرج دابق بالقرب من حلب سنة ٩٢٢هـ . وقابلته فى مصر مقاومة يائسة — وإن كانت باسلة — من الأشرف طومان باى خليفة الغورى بما يشبه حرب العصابات . وانتهت بأسر طومان باى وشنقه على باب زويلة (بوابة المتولى) فى ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ = ١٢ أبريل سنة ١٥١٧م .

وسقطت الإمبراطورية المصرية التى كانت فى عهد السلاطين المماليك . وأصبحت مصر ولاية تابعة . بعد أن كانت دولة تسود وتحكم كثيراً من الأقطار الإسلامية .

وانتقلت الخلافة الإسلامية . من عباسية عربية فى القاهرة . إلى تركية عثمانية فى إستانبول . واستلم العثمانيون الأمانة التى حملتها مصر ستة قرون فى الذود عن الإسلام والحضارة الإسلامية .

ومكّن نقل الخلافة إلى إستانبول العثمانيين أن يقيموا إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف من شتى الأجناس . وأهمها الأمة العربية . فلم تكن شعوب الأمة العربية لتخضع لهم القرون العديدة لولا وجود الخلافة فيهم . فالولاء لخليفة المسلمين طبيعى ومن الدين . مما جعلهم لا ينظرون إليه نظرة المستعمر . ولم يكن الشعور بالقومية الخاصة قد وُجد بمفهومه الحالى . فكانت الرابطة بين المسلمين هى الإسلام .

ولم يكن الأتراك أصحاب حضارة علمية كالعرب . فلم يضيفوا شيئاً يذكر على علوم العرب . ولكن كانت لهم ملكة عسكرية مكنتهم من الدفاع عن البلاد الإسلامية ضد المطامع الصليبية . بل ومكّنتهم من التوغل فى

قلب أوربا حتى حاصروا فيينا . واستولوا على اليونان وكثير من دول البلقان .

وما بدأ القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) حتى كان ملك آل عثمان يمتد من اليمن جنوباً إلى النمسا شمالا . ومن البحر الأسود شرقاً إلى المغرب غرباً . طولا وعرضاً . وكان للأسطول العثمانى السيادة فى البحرين الأبيض والأحمر . وأصبح الساحل الأفريقى والأسيوى من البحر الأبيض أرضاً عثمانية . كما أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية .

ولم تكن أوربا لترضى عن هذا التوسع الإسلامى . كما أنها لم تنس هزائمها على يد صلاح الدين وبيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون . فتضافرت جهودها ضد هذه الدولة الإسلامية . وساعدها ما شاب الحكم التركى من فساد . وكالقاعدة أنه (ما طار طير وارتفع — إلا وهبط كما ارتفع) فقد دب الوهن والشيخوخة فى الدولة التركية . وتوالت هزائمها أمام روسيا . وترددت السياسة التركية حائرة بين فرنسا وإنجلترا . أيهما الصديق الناصح . وأيهما العدو الماكر . وكلتاهما تتربصان لترث كل منهما أكبر قدر من تركة الرجل المريض كما كانت تسمى تركيا . وكانت النهاية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . فقد هُزمت تركيا أمام الحلفاء . وبهزيمتها انتهت الإمبراطورية العثمانية . بل وحاولت اليونان احتلال الأناضول بآسيا الصغرى . فقام مصطفى كمال أتاتورك (أى أبو الأتراك) وأمكنه إجلاء اليونانيين عن الأناضول . ونقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة بآسيا الصغرى . وأصبحت تركيا الأوربية لا تعدو ولاية إستانبول التى لا تتجاوز مساحتها ٧ ٪ سبعة فى المائة من مساحة تركيا الحالية . ولا يزيد سكانها عن ٤ ٪ أربعة فى المائة من سكان تركيا . (سكان تركيا ٤٠ مليون نسمة ومساحتها ٧٨٠٠٠٠ كيلومتر مربع تقريباً) . وأعلن مصطفى كمال قيام الجمهورية التركية سنة ١٩٢٢م . ثم ألغى الخلافة الإسلامية من تركيا سنة ١٩٢٤م .

ولسنا بصدد تاريخ الدولة العثمانية . ولكن قصدنا أن نبين فضل العثمانيين ضد المطامع الأوربية . وإن كانوا قد عجزوا أخيراً . وهذا قبل أن نذكر ما جنوه على الوطن العربى — ومصر خاصة — من ضياع وفساد . وعزلة عن مسايرة ركب التقدم الذى قد بدأ فى أوربا .

ودخلت مصر أثناء حكم العثمانيين الذى قارب ثلاثة قرون حتى دخول الفرنسيين سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) فى سبات عميق لا تفيق منه إلا على كابوس من الأحداث من فتن ومجاعات وأوبئة.

وكان سوء الظن من عناصر الطبيعة التركية . حتى إنه كان تقليداً أن السلطان يوم توليته يأمر بإعدام عدد من إخوته . فمثلا السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث (١٠٠٣ – ١٠١٢هـ) اتباعاً لهذه العادة أمر بقتل ١٩ من إخوته بعد حضورهم فى تشييع جنازة والدهم بأربع وعشرين ساعة . وناط بذلك الجلادين الخرس حتى لا يعرف أحد ما قالوه عند إعدامهم (تقويم النيل جـ ٢ ص ٢٩) . وفضلا عن سوء الظن فقد كانت القسوة والتكَبُّر من طبيعتهم . فكثيراً ما أعدم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) لأتفه الأسباب وكثيراً ما تفنَّنُوا بطرق وحشية فى وسائل الإعدام .

فوضع السلطان سليم الأول نظاماً لحكم مصر يضمن بمقتضاه استمرار التبعية . وصد كل من تحدثه نفسه من الولاة من محاولة الاستقلال بها . فجعل السلطات الرئيسية فى البلاد كما يلى :

أولاً : الوالى ويلقب بالباشا . وهو عثمانى دائماً . ويعين من إستانبول . ويتجدد تعيينه غالباً فى ذى الحجة من كل سنة .

ثانياً : المماليك . وكان السلطان سليم قد وعدهم بالإبقاء على امتيازاتهم . فأنشأ لهم ٢٤ إمرة أو صنجقية كما كانت تسمى . وهذا أيضاً كان عدد أمراء المائة مقدمى الألوف غالباً فى أواخر عهد السلاطين المماليك . والصنجق يحمل لقب بك أى أمير . وكان القرار بتعيين الصناجق أول الأمر يصدر من إستانبول . ثم لما قوى شأن المماليك كانوا هم الذين يقررون الأسماء التى تحل محل من يتوفى أو يفصل من الصناجق فى حدود العدد المذكور .

وكان رئيس الأمراء المماليك يلقب بشيخ البلد . وكانت هناك وظائف كبرى يتنازعون عليها . مثل الدفتردار . وهى أقرب لوظيفة وزير الداخلية . وإمارة الحج . ففريضة الحج من أركان

الإسلام . والحج كان محفوفاً بالمخاطر من الأعراب الذين يتربصون للحجاج طول الطريق فى الذهاب والعودة . وبرغم ما كان يُبذل للأعراب من الأموال نظير تأمين الطريق وخفارة الحجاج . فكثيراً ما نكث الأعراب بالعهود . وقلما كان يسلم الحجاج من النهب والسلب . بل والقتل أحياناً . وخطف النساء وردهن لأهليهن بمقابل من المال . أو بيعهن فيما بينهم بيع الرقيق .

وكانت هناك وظيفة الكاشف لكل إقليم كالمحافظ الآن . والكاشف أقل من الصنجق .

كذلك وظيفة الكتخدا . وقد حرفها العامة إلى كخيا . فللوالى الباشا كتخدا . ولكل صنجق كتخدا . ولكل أوجاق أى فرقة من الحامية العثمانية كتخدا . ومعناها الوكيل . . وهكذا .

كذلك وظيفة والى مصر — أى المدينة وهو غير الوالى العثمانى فكان لقبه الباشا كما ذكرنا .

كذلك وظيفة المحتسب . وقد سبق ذكرها فى مقال سابق . وغير ذلك من الوظائف المختلفة .

ثالثاً : الجيش . وقد كون سليم جيش الحامية من ستة أوجاقات أى فرق . ومن رؤساء هذه الفرق يتكون مجلس الباشا الوالى . ومن حق هذا المجلس رفض أى قرار يصدره الباشا مخالفاً للمصلحة العامة .

رابعاً : الديوان الصغير ويتكون من رؤساء الفرق والصناجق . ويجتمع يومياً .

خامساً : الديوان الكبير ويتكون ممن ذكروا مضافاً إليهم العلماء . ورأيهم استشارى .

وهكذا نرى أنه ولو لم يجعل العلماء إحدى السلطات . ولكنه اعترف بهم كأحد المصادر الفكرية فى البلاد .

وأدى تكوين الحكومة بهذا الشكل إلى تنازع السلطات . وبالتالى إلى ضياع المصلحة العامة . وإهمال مرافقها من رى وتعليم وصحة وغيرها . فتكررت المجاعات . وتعقبها أو تسبقها الأوبئة . وأهمها الطاعون . فكان يفد دورياً . ولا تمر عشرون سنة إلا وينتشر الوباء ويحصد مئات الألوف .

ولم يقتصر الفتح العثمانى على إنزال مصر من سلطنة قوية ذات سيادة إلى

ولاية تابعة . فعند عودة سليم الأول إلى إستانبول — بعد أن مكث فى مصر ثمانية شهور — أخذ معه الخليفة العباسى وكثيرين من أعيان مصر كرهائن وأسرى . وحمل معه كميات هائلة من التحف والذخائر من الذهب والفضة والمصوغات والسلاح والصينى والنحاس المكفت والبلّور . وعشرات الألوف من الكتب والمخطوطات . وكل ما هو نفيس فى قيمته المادية أو الفنية . حتى إنه جرّد الكثير من القصور والمساجد من فاخر الرخام وأنواع النجارة دقيقة الصنعة محملة على ألف جمل . فضلا عن الخيول والبغال . وعلاوة على ما نهبه قواد جيشه وجنوده من كل الأنواع حتى أثرى الكثيرون منهم ثراء فاحشاً . كما حمل معه عدداً وافراً من مهرة الصناع فى كافة الصناعات . حتى بطلت بمصر أكثر من خمسين حرفة . مما كان له أكبر الأثر فى تدهور مصر اقتصادياً .

ولم يتحقق لمصر أى استقرار سياسى أثناء حكم العثمانيين . فقد كان المماليك — وقد أبقى لهم السلطان سليم امتيازاتهم — يملكون $\frac{١٠}{٢٤}$ من مساحة الأرض المنزرعة فأصبحوا أصحاب مال وثراء . ومن يطمع منهم فى التقدم يكثر من اقتناء المماليك والخيول والسلاح . ليكونوا عدة له يتفوق بها على أقرانه . وكانوا هم فى الواقع أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد .

ولعدم استقرار شؤون الدولة فى إستانبول . وتفشى الفساد . وتدخل النساء فى الحكم . كثُر تغيير الولاة حتى كانت لا تزيد ولاية بعضهم على بضعة شهور . وكان الكثيرون منهم من الخصيان وخدم السراى . فكان همُّ الوالى أن ينهب فى مدة خدمته القصيرة أكثر ما يستطيع نهبه .

فمن سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ١٢١٣هـ تاريخ دخول الفرنسيين . أى ٢٩٠ سنة . تولى ١٢٤ والياً منهم تسعة تولوا مرتين . فكأنهم ١٣٣ . وهذا بخلاف ستة ولاة من خروج الفرنسيين سنة ١٢١٦هـ لغاية سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) بدء ولاية محمد على .

وكان الوالى عند قدومه لا يجد مندوحة من الانطواء مع المماليك . فكثيراً ما قرر أمراؤهم عزل الوالى وتعيين (قائمقام) له منهم . ويطلبون من إستانبول استبدال الوالى معتمدين على فتوى أو موافقة من العلماء . ودائماً كانت ترضخ إستانبول لقرارهم وتعين بدله .

وكان المماليك دائماً فى انقسام . وكان هذا الانقسام محوراً هاماً فى سياسة مصر الداخلية تدور حوله

الأحداث . فظلوا دائماً قسمين يتنازعان ويغتال بعضهم بعضاً . ثم ينتقم البعض لمن اغتيل ، ويتنافسون على المراكز الرئيسية فى الحكم . ويصل إليها فريق منهم . فيهرب الفريق الآخر إلى الأرياف . وإلى الصعيد خاصة . فيعيثون فساداً . ويمنعون الحبوب والمؤن عن العاصمة . وتُجرَّد ضدهم التجاريد (الحملات العسكرية) . فيغلب من يغلب . ويدفع الأهلون من زراعاتهم وأقواتهم للغالب والمغلوب . فعلى كل قرية أن تقوم بلوازم من يمر بها من المتحاربين . بل المتحاربون لا يكتفون بما يقدم لهم بل يأخذون ما يريدون نهباً واغتصاباً .

وقد انقسم المماليك بادئ الأمر فى أول الحكم العثمانى إلى فقارية وقاسمية . ومبدأ هذا الانقسام غير معروف على وجه التحديد والتحقيق . فالبعض يرجعه إلى السلطان سليم العثمانى . الذى نافس بين أخوين هما ذو الفقار بك وقاسم بك ابنا الأمير سودون أحد الأمراء المصريين الذين كانوا بعيدين عن الاشتغال بالسياسة عند دخول العثمانيين . وكانت المنافسة مباراة سباق ومبارزة . وانحاز العثمانيون للأول . والمصريون للثانى . واستمر التحيز بعد هذه المباراة مع تغير الميول والأوضاع . فقد انقسم المصريون أيضاً إلى فقارية وقاسمية . وقيل إن هذا الانقسام حصل بين المماليك بعد الفتح العثمانى .

وكان شعار الفقارية اللون الأبيض وشعار القاسمية اللون الأحمر . من الثياب والخيول والسلاح وفرش المنازل وآنية الطعام . بل وألوان الطعام نفسه — وكان يرمز للفقارية بنصف سعد وللقاسمية بنصف حرام . وهما رمزان غير واضح مدلولهما . ولم أعثر على تعليل محقق لهما . غير أنه كان من قبائل العرب بمديرية الشرقية قبيلتان، هما بنو سعد وبنو حرام . فلعل الأولى كانت تناصر الفقارية . وكانت الثانية تناصر القاسمية .

واستمر التنافس بين الفريقين أكثر من قرنين حتى قضى الفقارية على القاسمية سنة ١١٤٢ هـ . ثم تفرع من الفقارية القازدوغلية . ثم تفرع من القازدوغلية القطامشة والدمايطة والجلفية . وهكذا . وقال الجبرتى إن غالب أمراء مصر فى عهده (يعنى إلى أن قضى عليهم محمد على فى مذبحة القلعة فى صفر سنة ١٢٢٦ هـ — فبراير ١٨١١ م) يرجعون إلى مصطفى كتخدا القازدوغلى أو على رضوان بك المنسوبة له قصبة رضوان خارج باب زويلة عند الخيامية والمتوفى سنة ١٠٦٥ هـ . وليس معنى هذا

أنهم من نسلهما . فالمملوك ينتسب إلى مالكه الأصلى . ويُعبر عنه بأستاذه .

وكما كان الانقسام بين المماليك . فكان الانقسام أيضًا بين فرق الجيش فكل أوجاق أى فرقة . يضم طائفة معينة تترابط مع بعضها . وكثيراً ما تتصادم الفرق لأسباب خاصة بينها . أو لمناصرة بعض المماليك ضد البعض الآخر . وكانت أحياء القاهرة وشوارعها مسرحاً لهذا الصراع فتغلق الحوانيت . وتعطل الأسواق خوفاً من النهب والسلب . ويلزم الأهلون دورهم ومساكنهم حتى تهدأ الفتنة .

وعامل آخر من عوامل الفتنة والفساد . هو الأعراب . فقد فرضوا لأنفسهم السيطرة على طرق الريف . يُغيرون على القرى ينهبون ويسلبون ويخطفون . وكان لبعضهم السيطرة الكاملة على بعض النواحى . مثل همام بن يوسف زعيم قبائل هـوَّارة بالصعيد. وسويلم بن حبيب زعيم العرب بالقليوبية الذى سيطر على الوجه البحرى تقريبًا يتحكم فى القادمين براً من الشرق . أو بحراً فى المراكب الواردة من دمياط فى النيل . وقد قضى عليهما على بك الكبير سنة ١١٨٣هـ.

فى هذا الجو القاتم المليء بالفتن والاضطراب كانت تعيش مصر .

وكانت القاهرة — والعاصمة هى القلب النابض للدولة — تئن ألمًا من هذه الأحداث . فإنها تعيشها وتكتوى بنيرانها .

ولكن كان هناك العامل المهدِّئ . أو صمام الأمان إلى حدّ ما . هم العلماء .

ونعنى بهم شيوخ الأزهر وأساتذته ونقيب الأشراف ورئيس السجادة البكرية ومشايخ الطرق الصوفية وغيرهم .

فكان للأزهر مكانته وأثره فى الرأى العام — وكان أغلب أمراء المماليك يهابون علماءه ويقدرونهم ويعملون حسابهم . إذ كانوا يعبرون عن رأى الشعب ويحاولون بتدخلهم أن يمنعوا عنه العدوان . أو يخففوا من ثقل الضرائب . وكان سلاحهم الفتاوى الشرعية . وقفل الجامع الأزهر . والامتناع عن التدريس . وتحريض الأهالى على قفل الحوانيت والمتاجر وتعطيل الأسواق .

وكان المماليك يسارعون إلى استرضائهم والوعد بالعدول عن مظالمهم . ثم سرعان ما ينكثون العهود . ويعودون إلى ما كانوا فيه .

ولم يقتصر احترام علماء الأزهر على المماليك . بل كانوا أيضًا محل تقدير من سلاطين آل عثمان . وكان بعض العلماء لا تنقصه الشجاعة الأدبية فقد

ذكر أمين باشا سامى نقلا عن صاحب الذخيرة (تقويم النيل جـ ٢ ص ١٩) فى حوادث سنة ٩٤٥ هـ أن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق شيخ الجامع قال للوالى داود باشا — وكان خصياً — : أنت لا تصلح للحكم وأنت تحت الرق . وما دمتَ غير معتوق فالأحكام باطلة . فهمّ الباشا بإعدامه . فمنعه الجند . فلما تعصب الجند للشيخ أبلغ الأمر للسلطنة . فأرسلت له ورقة بعتقه . مع الشكر لشيخ الإسلام الذى لم تكن له مرتبات فى دفاتر الحكومة والذى لم يقبل أى هبة أو هدية من الوالى . مع التشديد على الوالى بحسن السير مع الرعية والاستعانة بالعلماء فى الحكم حسب الشريعة الإسلامية ا هـ .

ومن هذا الخبر يتبين أن منصب شيخ الجامع الأزهر أقدم مما ذكره الجبرتى فى تاريخه الذى بدأ سلسلة شيوخ الأزهر بالشيخ محمد عبد الله القرشى المتوفى سنة ١١٠١ هـ . وقد ذكرنا فى مقال سابق من (صفحات من تاريخ القاهرة) أن داود باشا هذا تولى ولاية مصر من ٩٥٤ — ٩٥٦ هـ وإليه ينسب حى الداودية بجوار حى القربية غربى امتداد الشارع الأعظم خارج باب زويلة .

وكانت قد تعطلت تدريجياً أغلب المدارس التى أنشئت فى عهد الأيوبيين والسلاطين المماليك لعدم مباشرتها ونهب أوقافها بفساد ناظريها . وتحولت إلى مجرد دور للعبادة والصلاة . وكذلك كان الحال فى باقى البلاد العربية التى حكمها العثمانيون .

ولكن ظل الأزهر طوداً شامخاً . وبعد أن تعطلت هذه المدارس انفرد هو بأداء رسالة العلم والدين واللغة . وقصده الدارسون والباحثون من شتى الأقطار الإسلامية . وأصبح الجامعة الكبرى للجميع .

وكان للعلماء حرمة ومكانة عظمى بين الناس وعند الحاكمين . وكان أمل كل أسرة — وقد احتكر العسكريون والمماليك وظائف الحكومة الهامة — أن يصل أحد أبنائها إلى هذا المركز المرموق . فيرسلون أبناءهم للمجاورة بالأزهر . ويزودونه بالمؤونة التى تكفيه طول العام الدراسى من خبز مجفف وسمن وكشك ودقيق وملوخية ناشفة وعدس وفول وبصل وثوم والتقلية اللازمة لطهى الطعام وحتى الحطب وغير ذلك . مما يجعل الطالب فى غير حاجة لإنفاق غير اليسير جداً من المال .

الإصلاحات بالأزهر فى عهد العثمانيين ومن بعدهم :

ولم يخل الأمر أثناء حكم العثمانيين من وال مصلح يلتفت إلى الأزهر .

فجدده الوالى الشريف محمد باشا سنة ١٠٠٤هـ (١٥٩٥م) . ورتب فيه مقداراً من العدس يطبخ كل يوم للفقراء .

وعمر الوالى حسن باشا الدفتر دار سنة ١٠١٤هـ . مقام السادة الحنفية وبلّطه بلاطًا جديداً .

كذلك لم يخلُ الأمر من التفات بعض البكوات المماليك إليه بعين الرعاية . فقد جدّد سقفه إسماعيل بك إيواظ .

وإيواظ أصلها عوض (بكسر العين) . حرفها الترك إلى إيواظ لعدم نطقهم بالضاد . وفى القاموس المحيط أن عِوض أصلها عِواض بكسر العين . وينطقها العامة بفتح العين . وإسماعيل بك إيواظ ابن إيواظ بك الذى كان رئيسًا للمماليك القاسمية وقتله الفقارية سنة ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) . وتولى بعده إسماعيل بك المذكور وقتله الفقارية أيضًا سنة ١١٣٤ هـ وله من العمر ٢٨ سنة . وهما صاحبا الدار الكبيرة بدرب الجماميز بجوار جامع بشتاك المعروف الآن بجامع مصطفى فاضل (وهو أخو الخديو إسماعيل) . وتنقلت الدار المذكورة بين المالكين حتى آلت إلى مصطفى فاضل الذى جددها وأنشأها إنشاء آخر . ثم آلت إلى الخديو إسماعيل بتخارج من مصطفى فاضل لإسماعيل عن جميع أملاكه بمصر مقابل ٢,٨٠٠,٠٠٠ مليونين وثمانمائة ألف من الجنيهات فى آخر رجب ١٢٨٣هـ (٧ / ١٢ / ١٨٦٦م) . ثم تنازل إسماعيل عنها للحكومة فأنشأ على باشا مبارك بها ديوان الأوقاف ودار الكتب العمومية . وظلا بها حتى انتقلا إلى مكانيهما الحاليين بباب اللوق وباب الخلق . ثم كانت بها المدرسة الخديوية الثانوية ومدرسة المعلمين العليا . ولا تزال للآن فى ملكية وزارة التربية والتعليم وقد اخترقها امتداد شارع مجلس الشعب حتى ميدان مصطفى فاضل بالحلمية الجديدة . ودخلها كثير من التعمير والتجديد . وأنشئ فى فراغاتها عدداً من المبانى للمدارس المختلفة . والمدرسة الخديوية كانت جنوبى جامع مصطفى فاضل وجنوبى امتداد شارع مجلس الشعب . أما الآن فهى شمال جامع مصطفى فاضل محل المدرسة المحمدية الابتدائية .

وقد ذكرنا فى المقال السابق أن عثمان كتخدا القازدوغلى قد أنشأ زاوية العميان سنة ١١٤٨ وأن مكانها الآن إدارة الجامعة الأزهرية . ونضيف أنه أنشأ بجوار زاوية العميان رواق الحنابلة كما جدد رواق الأتراك ورحبته ورواق السليمانية . وسنذكر أروقة الأزهر فى المقال التالى بإذن الله .

ثم جاءت العمارة الكبرى على يد عبدالرحمن كتخدا القازدوغلى سنة ١١٦٧ه (١٧٥٤م) فقد أنشأه إنشاء آخر .

وقبل أن نتكلم عن هذه العمارة الكبرى فى الجامع الأزهر نذكر ترجمة للمذكور وكلمة مختصرة عن عصره : عبد الرحمن كتخذا القازدوغلى .

ذكرنا أن المماليك الفقارية قضت على القاسمية ١١٤٢ ه . (١٧٢٩ م) وأنه تفرع من الفقارية القازد وغلية كما تفرعت عصابات أخرى من المماليك مثل القطامشة والدمايطة والجلفية .

والقطامشة نسبة إلى محمد بك قيطاس المعروف بقطامش . وقيطاس اسم مالكه الأصلى أو أستاذه كما جرى التعبير . وآلت له الرئاسة بعد القضاء على القاسمية وقتل سنة ١١٤٨ ه . وبعد منازعات ومشاحنات قضى على القطامشة والدمايطة سنة ١١٦٠ ه بمؤامرة دبرها محمد باشا راغب الوالى على مصر فى ١١٥٧ — ١١٦١ ه .

وراغب باشا المذكور تقلب بعد ولايته مصر عدة مناصب فى الدولة حتى وصل إلى وظيفة الصدر الأعظم — أى رئيس الوزارة — من سنة ١١٧٠ — سنة ١١٧٦ ، وتوفى سنة ١١٨٠ . وكان من الوزراء المعدودين نشطت فى عهده الزراعة والتجارة والعلوم . كما كان عالماً محققاً له كتاب (سفينة الراغب ودفينة الطالب) فيما يقرب من الستمائة صحيفة من القطع الكبير كاملة السطور به كثير من الحقائق والمباحث التاريخية والأدبية والعلمية والدينية . فهو أشبه بالكشكول ويدل على سعة الاطلاع (مطبعة بولاق سنة ١٢٥٥ ه وسنة ١٢٨٢ه) كما له ديوان شعر اسمه (سفينة العلماء) .

والجلفية نسبة إلى حسن كتخدا غربان الجلفى (توفى سنة ١١٢٤ ه) . وسبب التسمية أن أستاذه زوجه بالست خديجة المعروفة بالجلفية نسبة إلى قرية اسمها سان جلف . وغربان نسبة إلى باب الغرب أحد أبواب القلعة وأهمها . وبعد وفاته تولى تابعه على كتخدا غربان الذى قُتل سنة ١١٥٣ ه بمؤامرة دبرها الوالى سليمان باشا العظم المعروف بالشامى .

وفى هذه الفترة كانت الرئاسة — أو مشيخة البلد كما كانت تسمى — لعثمان بك ذى الفقار . فالتزم هذا بأخذ ثأر على كتخدا الجلفى . وقلد مملوكه رضوان كتخدا الجلفى باب الغرب محل أستاذه .

وتزايد شأن عثمان بك حتى أصبح كل شىء . وشمخ على أمراء مصر — نعنى الصناجق . ونفذ أحكامه عليهم قهراً . وعمل فى بيته دواوين لحكومات العامة ولإنصاف المظلوم من الظالم . وجعل لحكومات النساء ديوانًا خاصًا . وكان لا يجرى أحكامه إلا على مقتضى الشريعة ولا يقبل الرشوة . وكان صالحًا مصلحًا . فضلا عن منافسات الرئاسة بينه وبين إبراهيم كتخدا القازدوغلى أمكن هذا الأخير أن يؤلب عليه الأمراء . واضطر عثمان بك للهرب سنة ١١٥٧ هـ إلى إستانبول حيث أقام بها ٣٣ سنة تقريبًا حتى توفى سنة ١١٩٠هـ . وحزن الناس عليه وكانوا يؤرخون حوادثهم بتاريخ خروجه من مصر .

واستقر الأمر لإبراهيم كتخدا القازدوغلى . ويقاسمه فى السلطة رضوان كتخدا الجلفى السابق ذكره .

وإبراهيم المذكور كان مملوكاً لسليمان كتخدا القازدوغلى . الذى كان مملوكًا لمصطفى كتخدا القازدوغلى . وقد ذكرنا من قبل أن هذا الأخير كان أصل القازدوغلية . وإبراهيم كتخدا هذا خشداش حسن جاوش أستاذ عثمان كتخدا منشىء زاوية العميان السابق ذكره . وحسن جاويش هو والد عبد الرحمن كتخدا المترجم له .

وخشداش المملوك هو مملوك آخر تربى ونشأ معه فى تبعية أستاذ واحد وكان المماليك يقدرون هذه الصلة كأنها إخاء .

فما ذكر إبراهيم كتخدا خصوصًا بعد القضاء على القطامشة والدمايطة سنة ١١٦٠هـ كما ذكرنا . وكانت داره بجوار جامع قوصون بشارع القلعة عند مدخل الحلمية الجديدة . وكانت لقسيمه رضوان الجلفى دار بجواره .

وكان رضوان الجلفى مترفا منهمكًا فى لهوه وملذاته تاركًا تدبير الأمور لإبراهيم القازدوغلى . وأنشأ رضوان الجلفى عدة قصور وأماكن بالغ فى زخرفتها وزينتها . منها دار الحافة الشرقية لبركة الأزبكية كانت قبله لعائلة من الأثرياء اسمها الشرايبى . وكانت الدار معروفة بين أولاد البلد باسم الثلاث ولية وباسم العتبة الزرقاء :

ثم آلت هذه الدار إلى طاهر باشا ناظر الجمارك فى عهد محمد على ثم إلى عباس حلمى الأول حفيد محمد على فهدمها وأعاد بناءها وأسماها العتبة الخضراء ثم اتخذت مقرًّا للمحكمة المختلطة . ثم هدمت لتوسعة الميدان المعروف حاليًا بهـذا الاسم . كذلك أنشأ رضوان الجلفى داراً أخرى على الحافة الشمالية الغربية لبركة الأزبكية بالجهة المعروفة الآن بقنطرة الدكة . واتخذ له فيها مجالس لهو يجتمع فيها بالخلان والندماء . وقصده الشعراء ومدحوه وأجازهم . وكان سادراً فى ملذاته يتجاهر بالمعاصى ولا يبالى بشىء تاركاً تدبير الأمور لقسيمه إبراهيم كتخذا .

واستمر حكمها سبع سنوات قال عنها الجبرتى فى تاريخه : والبلاد هادئة من الفتن والشرور والإقليم البحرى والقبلى فى أمن وأمان . والأسعار رخية والأحوال مرضية .

وأود أن أنقل هنا صورة ذكرها الجبرتى عن المجتمع المصرى فى ذلك العصر فقال :

(وكان لأهل مصر سنن وطرائق فى مكارم الأخلاق لا توجد فى غيرها . منها . أن فى كل بيت من بيوت الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالى والثانى فى الحريم . فيوضع فى بيوت الأعيان السماط فى وقتى الغذاء والعشاء . مستطيلا فى المكان الخارج . مبذولا للناس . ويجلس بصدره أمير المجلس وحوله الضيفان . ومن دونهم من مماليكه وأتباعه . ويقف الفراشون فى الوسط يفرقون على الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات . ولا يمنعون وقت الطعام من يريد الدخول أصلا . . إلخ .

وقال : ولهم صدقات وعادات فى أيام المواسم مثل أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالى رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد الشريف يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ! ! . ويملأون من ذلك قصاعـًا كبيرة ويفرقونها على من يعرفون من المحتاجين .

وقال : ويجتمع فى كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا . ولهم غير ذلك صدقات من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك على الترب فى جميع المواسم . وكذلك أهل القرى والأرياف . . إلخ .

وقال فى مكان آخر فى بعض أمراء

القازدوغلية إنه رأى فى بيته مائة قارئ من الحفظة يقرأون القرآن كل يوم فى الأوقات الخمسة . فى كل وقت عشرون قارئًا . . إلخ) ا هـ .

وتوفى إبراهيم كتخدا على فراشه سنة ١١٦٨ هـ . وقبل وفاته كان عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى صاحب الترجمة يحرض مماليكه على الجلفية الذين يتقاسمون الحكم برئاسة رضوان الجلفى . فلما مات إبراهيم أخذ أتباعه يدبرون قتل رضوان . وكان هذا سليم الطوية مسالمًا . فلم يصمد أمامهم وهرب إلى الصعيد حيث توفى بعد قسيمه ببضعة شهور .

وتولى الرئاسة بعدهما حسين بك الصابونجى المعروف بالمقتول . وأراد الاستبداد. فتآمر عليه خشداشوه يحركهم حسين بك كشكش وقتلوه سنة ١١٧١هـ وتولى مكانه على بك الغزاوى أحد مماليك إبراهيم كتخدا . وأراد على بك الغزاوى التخلص من عبد الرحمن كتخدا الذى كان فى مركز مرموق من جميع القازدوغلية . فانتهز عبد الرحمن فرصة خروج على بك الغزاوى للحج سنة ١١٧٢ . وجمع الأمراء وقرروا نفيه . فعاد إلى غزة . ثم إلى مصر بتدخل إستانبول . ولم يطل به المقام فمات سنة ١١٧٣ . وقيل مسمومًا .

وفى سنة ١١٧٤ بدأ شأن على بك بلوط قبان — الذى عرف فيما بعد بعلى بك الكبير — فى الظهور . وهو أصلا من مماليك إبراهيم كتخدا بالاحتفال الكبير الذى أقامه لزفاف هانم بنت سيدهم أى بنت إبراهيم كتخدا . فقد كان أستاذاً لأغلب الصناجق . وكان الاحتفال فوق مياه بركة الفيل بألواح من الخشب ربطت ببعضها ويمشى عليها الناس . وقد بالغ الجبرتى فى وصف هذا الحفل فى حوادث سنة ١١٧٤ . نقتطف منه قوله : (واستمر الفرح والمهم مدة شهر كامل . والبلد مفتحة والناس تغدو وتروح ليلا ونهاراً للحظ والفرجة من كل النواحى ووردت على على بك الهدايا والصلات من إخوانه الأمراء والأعيان والاختيارية والوجاقلية والتجار والمباشرين والأقباط والإفرنج والأروام واليهود . والمدينة عامرة بالخير ، والناس مطمئنة . والمكاسب كثيرة . والأسعار رخية . والقرى عامرة . وحضرت مشايخ البلدان وأكابر العربان ومقادم الأقاليم والبنادر بالهدايا والأغنام والجواميس والسمن والعسل . وكل من

الأمراء الإبراهيمية (نسبة إلى إبراهيم كتخدا) كأنه صاحب الفرح . والمشار إليه منهم صاحب الفرح على بك) اهـ.

واتحد على بك مع عبد الرحمن كتخدا حتى تم له التسلط على باقى الأمراء . فلما استتب له الأمر نفى عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز سنة ١١٧٨ حيث ظل هناك منفياً حتى عاد إلى مصر مريضاً محطماً سنة ١١٩٠ وتوفى فى نفس السنة .

وقد عين على بك خمسة من مماليكه صناجق منهم محمد بك أبو الذهب منشئ المدرسة المقابلة للجامع الأزهر . ولقب بالكبير لأنه استقل بشؤون مصر وطمع فى الاستيلاء على الشام لولا غدر مملوكه محمد أبى الذهب . ويريد البعض أن يجعل من على بك بطلا مصرياً أراد الاستقلال من التبعية العثمانية ولكننا لا نستطيع إلا أن نضعه بين طائفة المماليك بما جبلوا عليه من غدر وخيانة . وإن امتاز عنهم بالطموح وسعة الأفق مع الحزم وشدة المراس . ولو عرضنا لتاريخ حياته لوجدنا الكثير من نواحى الغدر والخيانة . ولكن ليس هنا موضوعه وقد نعرض له ثانية عند الكلام عن الشيخ الحفنى أحد شيوخ الجامع الأزهر بإذن الله . وقد استرسلنا فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر لنبين وضع عبد الرحمن كتخدا فيها .

وكان عبد الرحمن كتخدا محبًا للعمائر وفعل الخيرات . ولم يقتصر تاريخه على العمارة الكبرى فى الجامع الأزهر . ولكن له الكثير من الآثار والمنشآت . وبلغ عدد المساجد والمشاهد التى أنشأها أو جدّدها ١٨ مسجداً ومشهداً . منها مشهد السيدة زينب ، ومشهد السيدة عائشة بالقرب من باب القرافة أو باب قايتباى ، ومشهد السيدة سكينة بقسم الخليفة ، ومشهد السيدة فاطمة بالدرب الأحمر ، ومشهد السيدة رُقية بقسم الخليفة بين مشهدى السيدة سكينة والسيدة نفيسة .

والمشهور أن السيدة زينب والسيدة رقية بنتا الإمام على بن أبى طالب . وأن السيدة سكينة والسيدة فاطمة بنتا الإمام الحسين بن على بن أبى طالب . مع خلاف . أما السيدة عائشة فهى بنت الإمام جعفر الصادق سادس الأئمة عند الشيعة . والسيدة نفيسة فهى بنت حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن

ابن على بن أبى طالب . وقد تزوجت من إسحق المؤتمن بن جعفر الصادق . ولا خلاف فى أن السيدة نفيسة هى المدفونة فعلا بمقامها المعروف بقسم الخليفة .

وعمّر عبد الرحمن كتخدا مشهد أبى السعود الجارحى عند مصر القديمة . وجدد المارستان المنصورى . وعمّر المدرسة السيوفية التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى للفقه الحنفى عند مدخل الصاغة . وأنشأ عبد الرحمن كتخدا بها قبراً لوالدته . ومكان المدرسة السيوفية الآن الزاوية المعروفة بالشيخ مطهر . بالقرب من مدخل الصاغة وكان مكانها أصلا دار المأمون البطائحى وزير الآمر بأحكام الله الفاطمى . وسميت بالسيوفية لأن سوق السيوفيين كان هناك عند إنشائها . وبالمدرسة السيوفية تلقى دروسه العارف بالله عمر بن الفارض (٥٧٦ — ٦٣٢ ه) الذى اشتهر بين الصوفية بديوانه المعروف برقيق معانيه ودقيق مراميه فى التغزل ومحبة الذات الإلهية . وقبره للآن بالقرافة الصغرى يزار . والقرافة هناك معروفة باسمه . وكان عمر بن الفارض يقيم فى الأزهر .

وعمر المسجد بجوار ضريح الإمام الشافعى . ومسجد شرف الدين الكردى بالحسينية . كما عمر جامع الأمير مغلطاى الفخرى بجهة الغُرَيِّب الذى قتل مع أخيه ألماس الحاجب صاحب المسجد بشارع الحلمية سنة ٧٣٤ﻫ فى عهد الناصر محمد بن قلاوون . وكان هذا المسجد بالقرب من باب البرقية . ثم عرف باسم مسجد الغريب لضريح به صاحبه بهذا الاسم وكان من الأولياء المعتقدين عند العامة . ثم لما جدده عبد الرحمن كتخدا نُسب إليه . وموقعه بجوار كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية .

وأنشأ للشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر داراً على الخليج المصرى وقنطرة أمام الدار للوصول إليها . وكان موقعهما جنوبى تقاطع شارعى الأزهر والخليج (بور سعيد حالياً) وقد أزيلا عند ردم الخليج ليسير الترام فى مجراه السابق وعند توسيع شارع الخليج .

وأنشأ لنفسه قصراً برحبة عابدين قال عنه الجبرتى : (إنها كانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والإتقان لا تماثلها دار فى مصر فى حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقيشانى والذهب المموه واللازورد وأنواع الأصباغ

وبديع الصنعة والتأنق والبهجة وغرس فيها بستاناً بديعاً . . . إلخ) ا هـ . وقد أدخلت هذه الدار ضمن ما أدخله الخديوى إسماعيل فى قصر عابدين . كما كان لعبد الرحمن كتخدا أيضاً قصر آخر بجهة قصر النيل هُدم سنة ١٢٥٠ هـ فى عهد محمد على . وكان موقعه بجهة ميدان التحرير .

وأنشأ أيضاً برحبة عابدين جامعاً ورباطاً . كما أنشأ على الخليج هناك قنطرة ليتوصل منها إلى جامعه وقصره . أما الجامع والرباط فقد تضاءلا إلى مسجد صغير بشارع سكة رحبة عابدين معروف باسم مسجد الشيخ رمضان لأن به ضريحاً بهذا الاسم . أما القنطرة فأعتقد أنها هى القنطرة التى عُرفت باسم قنطرة الذى كفر وكان موقعها تجاه الشارع المعروف الآن بشارع مصطفى باشا عبد الرازق (سكة رحبة عابدين سابقاً) . ولم يذكرها المقريزى لأنها أنشئت بعد عصره . وقال على مبارك إنه لم يعرف لها تاريخ إنشاء . ولم توجد على الخليج قنطرة توافق الموقع الذى ذكره الجبرتى إلا هذه القنطرة . وأقول إن هذه التسمية جرت على ألسنة العامة . بعد نفى عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز إما سخرية بقرار النفى وتهكما عليه وإما لأن المسؤولين أشاعوا وقتها بعض الإشاعات لتبرير هذا النفى .

وغير هذا كثير من الزوايا والأسبلة . (وللتفصيل راجع تاريخ الجبرتى ج ٢ ص ٦) .

ولم يقتصر نشاطه على العمارات بل كان ذا بر وصدقات . فقد رتب للفقراء العميان الأكسية الصوف المسماة بالزعابيط وكذلك كساوى للمؤذنين يرتدونها وقت التسابيح فى ليالى الشتاء . ويفرق الملابس على النساء الفقيرات . ويخرج من بيته وقت الإفطار فى رمضان القصاع الكبيرة مملوءة بالثريد المسقى بمرق اللحم والسمن للفقراء . وبعد إفطارهم يعطى كلا منهم رغيفين ونصفى فضة لذمة السحور .

ولذلك لقب عبد الرحمن كتخدا عن جدارة بصاحب الخيرات والعمائر . غفر الله له .

وسنتكلم فى المقال التالى بإذن الله عن عمارته الكبرى للجامع الأزهر .

« يتبع »

محمد كمال السيد محمد

أخطاء شائعة

الأستاذ / عباس أبو السعود

٤١٨ — ويقولون : رأى الولد الأسد فاندهشُ خوفًا وذهب عقله ، فهو مندهش ، ورأى أستاذه فاندهش حياء فهو مندهش ، وهذا خطأ ، لأن المطاوع بزنة انفعل لابد أن يكون فيه علاج ككسرت الكوب فانكسر ، وجذبت الشىء فانجذب .

والفصيح أن يقال : دَهِشَ الولد دَهَشاً من باب فرح إذا تحير وذهب عقله خوفًا أو حياء فهو دَهِش ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أدهشه الخوف أو الخجل فهو مُدهَش بصيغة اسم المفعول ، وهذه هى اللغة الفصحى ، وفى لغة يتعدى بالحركة فيقال : دهشه خطب من باب نفع دَهْشًا فهو مدهوش ، ودُهِش الولدُ ببناء الفعل للمجهول فهو مدهوش أيضًا .

٤١٩ — كثيراً ما نقرأ فى صحيفة الأهرام قولها : كلما اشتريت من شهادات الاستثمار أكثر تكسب أكثر وأكثر .

وفى هذا التعبير غلطتان : إحداهما كلمة الاستثمار العامية ، إذ لم يرد عن العرب دخول الألف والسين على الفعل ثمر ، وإنما يستعمل الثلاثى فيقال : ثَمُرَ مال فلان يثمرُ إذا كثر ، وفلان محدود ما يثمرُ له مال ، وثَمَر الرجلُ إذا تمول ، وثمّر للغنم إذا جمع لها الشجن ، ومال ثَمِر وزان كتف ومثمور أى كثير ، والصواب — لتأدية المعنى الذى يبتغونه — أن يستبدل بالاستثمار كلمة التثمير ، وهى مصدر الفعل المزيد بالتضعيف فيقال : ثمّر فلان ماله تثميراً إذا نمّاه وكثره ، وعلى هذا تسمى الشهادات بشهادات التثمير .

والأخرى : كلمة تكسب الواقعة فى زعمهم جواباً لكلّما ، والحق أن كلما من أدوات الشرط غير الجازمة وأنها ظرف يفيد التكرار ، ولا يليها إلا الفعل الماضى سواء كان شرطًا أو جوابًا ، تقول : كلما زارنى

صديق" أكرمته ومن هذا قوله جل شأنه (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً) ، وقوله (كلما أضاء لهم مشوا فيه) ومثلها فى هذا الحكم (لما) وهى ظرف بمعنى حين ، تقول : لما نزل المطر ربا الزرع ، ومنها قوله تعالى : (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) ، وقوله : (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) .

٤٢٠ — وكثيراً ما نسمع أحد المذيعين أيام الصيف يقول : (الطقس) اليوم حار ، وأيام الشتاء يقول : (الطقس) اليوم بارد ، وهذا خطأ بيّن لأن كلمة (الطقس) عامية ، والفصيح أن يؤدى هذا المعنى بقولنا : الجو اليوم حار أو بارد ، جمعه جِواء بالكسر كسهم وسهام .، أو بقولنا : الهواء اليوم حار أو بارد، جمعه أهوية ككساء وأكسية ، والهواء أيضاً الشيء الخالى ، تقول : هذا منزل هواء أى خال من السكان ومن المجاز قولهم للجبان : إنه هواء أى خالى القلب عن الجرأة ، ومنه قوله تعالى : (وأفئدتهم هواء) أى خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة وقيل خالية عن الخير خاوية عن الحق .

٤٢١ — ويقولون لثمر شجرة هندية الأصل : قُرُنُفُل بثلاث ضمات قبل الأخيرة سكون والصواب أن يقال له قَرَنْفُل وقَرَنْفول بفتحتين بعدهما سكون فى كل منهما ، وهذا الثمر أفضل الأفاويه الحارة وأذكاها ، كما أنه مُصَفٍ للقلب والدماغ ، مُقَوٍّلهما ، هاضم للطعام تقول : طعام مُقَرفل ومقرنَف إذا كان مطيباً به ، وطيب مُقرفل إذا جعل فيه القَرنفُل .

٤٢٢ — ويدعون لمن يستحم فيقولون : طاب حمّامك، وهذا فاسد لأن الحمام لا يطيب ، والفصيح أن يقال : طابت حِمتك بكسر الحاء ، أو طاب حَميمك بفتحها . وكلاهما معناه الماء الحار أى طاب عَرَقُك ، لأن العرق يطيب على المعافى ، ويخبُثُ على المبتلى ، والمعنى أصح الله جسمك، وهذا من باب الكناية .

والحمام مذكر فى رأى سيبويه ، قال : وإنما جمعوه بالألف والتاء وإن كان مذكراً فقالوا : حمامات لأنه لم يكسَّر ، فجعلوا ذلك عوضاً عن التكسير .

وقال صاحب المصباح : يذكر ويؤنث ، والتأنيث أغلب فيقال : هى الحمام وجمعها حمامات على القياس ، ويذكر فيقال : هو الحمام .

وللحميم معنيان : أحدهما الماء الحار

كما قلنا آنفا ، والآخر القريب الذى تهتم بأمره ، تقول : هو حميمى ، وهى حميمتى أى وديدى ووديدتى ، والجمع أحِمَّاء كخليل وأخلاء ، وجليل وأجلاء .

وتقول المرأة : هم أحْمائى وليسو بأحمَّائى ، أى هم أقارب زوجى وليسوا بأحبائى ، وقد يستعمل الحميم للجمع وللمؤنث ، فيقال : هم حميمى ، وهى حميمى .

٤٢٣ — وينادون الله سبحانه داعين حين يشتد خوفهم فيقولون : ياساتر استر ، وهذا خطأ ، لأن كلمة ساتر لا تقال لله ، وإنما تقال للبشر ، تقول ستر فلان الشىء يستره سَتْرا من باب نصر إذا غطاه وحجبه فهو ساتر ، والشىء مستور ، ولذا لا يجوز أن يسمى إنسان بعبد الساتر ، والصواب أن يقال فى النداء المبتغى : يا ستَّار استر بصيغة المبالغة ، كما يقال : يا تواب ، ولهذا يسمى الإنسان بعبد الستار وعبد التواب .

والسِّتر بكسر السين ما يُستر به ، جمعه سُتور وأستار ، ومثله فى المعنى السِّتارة بالكسر وجمعها ستائر ، وكذا السِّتار بحذف الهاء ، جمعه سُتُر ككتب .

ومن المجاز قولك : جارية مستَّرة بتشديد التاء ، وجوار مستَّرات أى مخدرات ، وهتك الله سِتْر فلان أى أطلع الناس على عيوبه ومساويه ، وفلان لا يستتر من الله بشىء أى أنه لا يتقيه .

ويقال : رجل مستور وقوم مساتير إذا سترهم الله بأنعمه ، كما يقال : رجل مستور وسَتِير إذا كان عفيفاً ، والأنثى بهاء .

٤٢٤ — ويقولون : طبطبت المرأة على صبيها طبطبة ، يعنون أنها ضربت بيدها على جنبه قليلا قليلا لينام ، وهذا خطأ ، لأن الطبطبة — وإن كانت عربية سليمة — لها معنى آخر لا صلة له بالمعنى الذى أرادوه لها ، فهى صوت الماء ، وصوت تلاطم السيل تقول : طبطب الماء إذا صوَّت بسبب تلاطم موجه ، والطبطابة بالفتح خشبة عريضة يُلعب بها بالكرة ، والطبطاب بالفتح طائر له أذنان كبيرتان .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : ربَتت المرأة بيدها ربْتاً وزان كسبت كسباً ، وربَّتت بتثقيل الباء تربيتاً وزان كلمت تكليماً ، قال :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتن ليلةً
بحرة(١) ليلى حيث ربَّتَنِى أهلى

ومن معانى الربْت والتربيت التربية ، تقول : ربَتَ الرجل أولاده ربْتاً حسنًا ، وربَّتهم تربيتًا قويمًا إذا رباهم على هذه الحال .

٤٢٥ — ويسمون ما يفرش على الأرض كالبساط ونحوه : حصيرة ، كما يجمعون الحصيرة على حُصْر بضم فسكون ، فيقولون : المسجد مفروش بالحُصْر ، وكل هذا بعيد عن الصواب . والحق أن ما يُفْرش على الأرض للصلاة وغيرها يسمى حصيراً بدون هاء ، وسمى بذلك لأنه يحصر ما تحته من التراب ، وهذه الكلمة مفردة جمعها أحصرة كأرغفة وحُصُر ككتب ، ويسمى كذلك باريَّة بتشديد الياء ، وهى سفيفة تنسج بالأصابع من أسل أو قصب .

أما الحُصر وزان الحُمر فجمع لحصراء وهى المرأة الرَّتْقاء التى لا يستطاع جماعها ، أو لا خرق لها إلا المبال ، وقد يكون الحُصر مفرداً ومعناه حينئذ اعتقال البطن الذى يسميه العامة (بالإمساك) تقول : حُصر الرجل وأحصر بالبناء للمجهول فيهما إذا اعتُقل بطنه ، وأعوذ بالله من الحُصر والأُشر ومعنى الأخير احتباس البول ، وللحصير عدة معان زيادة على المعنى السابق .

١ — فهو المحبِس ، ومنه قوله عز شأنه (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)

٢ — وهو الملِك ، تقول : غضب الحصير على فلان أى الملك وسمى بذلك لاحتجابه ، وخلَّده الحصير فى الحصير ، أى أبقاه الملك فى المحبس .

٣ — وحصير الأرض وجهها .

٤ — وكذلك هو الجَنْب ، تقول : دابة عريضة الحصيرين أى الجنبين ، وأوجع الله حصيرى فلان أى جنبيه .

٥ — وهو الضيِّق الصدر كالحصور ومن معانى الحصور من لا يرغب فى النساء وهو قادر على ذلك ، ومنه قوله تعالى فى يحيى عليه السلام (وسيداً وحَصوراً ونبيًّا من الصالحين) .

٤٢٦ — ويقولون : نشط العامل فى عمله ينشَط فهو نشِط بكسر الشين وزان فرح ، وهذا خطأ ، لأن هذا الفعل لو كان من باب فرح لكان مصدره نَشَطا بفتحتين كفرح فرحا ،

---

(١) الحرة بالفتح : أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار ، جمعها حرار بالكسر ككلبة وكلاب .

وهذا لم يرد عن العرب ، والصواب أن نشط أكثر ما يكون من باب سمع ، تقول : نشِط العامل فى عمله ينشط نشاطًا إذا اطمأنت نفسه للعمل فخف إليه وأسرع فهو ناشط ونشيط كسامع وسميع .

وقد يأتى من باب ضرب فى معنى آخر ، تقول : نشَط الرجل الحبل ينشِطه نَشْطاً إذا عقده بأنشوطة ، ونشَط فلان من الدار ينشِط نَشْطا إذا خرج منها ، ومن هذا قوله تعالى (والناشطات نشطاً) أى النجوم تنشط وتنتقل من بُرج إلى آخر .

وقد يأتى من بابى ضرب ونصر كما فى قولك : الحية تنشِط وتنشُط إذا عَضَّت بنابها كأنشطت .

٤٢٧ — ويقولون: لا يصلح لرياسة قومه إلا من توفَّرت فيه شروط خمسة هى كذا وكذا وهذا خطأ بيّن ، والصواب أن يقال : إلا من توافرت فيه شروط خمسة ، أو إلا من اكتملت ، أو إلا من اجتمعت فيه شروط خمسة ، وبيان ذلك أن التوافر معناه الاكتمال والكثرة تقول هم متوافرون أى هم كثير مكتملون ، وفى الحديث « وكان ذلك وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون » أما التوفُّر فله معنيان لا صلة لكل منهما بالكثرة.

أحدهما : رعاية الحُرُمات ، تقول : توفَّر فلان على صديقه إذا رعى حرماته .

والآخر : العناية بالشىء وصَرفُ الهمة إليه ، تقول : توفر أخى على قرض الشعر توفراً إذا صرف همته إليه .

والوفْر وزان العدل هو الغنَى والمال الكثير ، وكذلك هو الحمد والثناء ، تقول وفَرْتُ فلاناً عرضَه إذا أثنيت عليه ولم تعبه ، ويقال : فِرْ صاحبك عِرضَه ، وفى المثل « تُوفر وتُحمد » أى يصان عرضك ويثنى عليك .

٤٢٨ — ويقولون : ينبغى لحكومتنا الرشيدة أن تُقوى جيشنا وتدعِّمه تدعيماً عظيمًا بكثير من الأسلحة الفتاكة وهذا فاسد ، لأن التدعيم لم يرد عن العرب ، وكذا ما اشتق منه .

والصواب — لتأدية المعنى الذى يبتغونه — أن يستعمل الفعل الثلاثى ومصدره ، فيقال : ينبغى لحكومتنا أن تدعَمَ جيشَنا دعْماً من باب نفع .

ويقال : مال حائط فلان فدعمه بدِعامة ودِعائم ، أو بدِعمة ودِعَم فهو حائط مدعوم ، ومن الدعم قيل على سبيل المجاز : فلان دِعامة قومه أى سيدهم وسندهم .

قال الأعشى :

كلا أبوينا كان فرعاً[1] دعامةً
ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا

وهم دعائم قومهم ، وأقام فلان دعائم الإسلام ، وتقول : دعمت فلانًا إذا أعنته وقوَّيته . ولا دعم بى أى لا قوة ولا تماسك بى .

قال :

لادعمَ بى لكن بليلى دعمُ
جاريةٌ فى وركيها شحمُ

ويقال : ادَّعم الحائط على الدعامة إذا اتكأ عليها .

٤٢٩– ويقولون : جاءنا من الأمير مرسال معه رسالة يأمرنا فيها بكذا وكذا ، وهذا خطأ مبين ، لأن كلمة مرسال بكسر الميم – على الرغم من أنها عربية سليمة – لا صلة لها بالأمير ولا بالرسالة ، وإنما لها معنيان : **أحدهما** الناقة سهلة السير ، تقول : ناقة مرسال ونوق مراسيل أى رسلات القوائم **والآخر** السهم الصغير .

والصواب أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بأن يقال : جاءنا من الأمير رسول وجمعه رُسُل بضم السين وقد تسكن ، قال تعالى (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أو يقال جاءنا من الأمير مُرسَل بصيغة اسم المفعول ، وجمعه مرسلون كما فى قوله سبحانه : (يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون) .

والرسول هو المرسل فعول بمعنى مفعول ، ويجوز استعماله بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، تقول : هو رسول ، وهى رسول لا رسولة ، وهما رسول ، وهم وهن رسول ، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء مخاطبًا موسى عليه السلام وأخيه هارون :

(فأتيا فرعون فقولا إنا رسولُ رب العالمين) ، ويجوز التثنية كما فى قوله جل شأنه فى سورة طه (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) .

وعلل بعضهم الإفراد فى آية الشعراء بقوله : لأن فعولا وفعيلا يستوى فيهما المذكر والمؤنث والواحد والمجموع ، فكلمة عدو مثلا استعملت للجمع فى قوله تعالى :

(إن الكافرين كانوا لكم عدوًّا مبيناً)
وقوله (فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين) وكلمة صديق تستعمل للمفرد وغيره مذكراً ومؤنثًا ، تقول : هو صديق ، وهى صديق وهما صديق ، وهم وهن صديق ، قال نصيِّب :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا
بأعين أعداء وهن صديقُ

---

(١) الفرع من القوم : هو الشريف .

وقال الزمخشرى فى آيتى الشعراء وطه السابق ذكرهما : إن الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة ، فجعل فى آية طه بمعنى المرسَل ، فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل فى آية الشعراء بمعنى الرسالة ، فجازت التسوية فيه إذا وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالوصف بالمصادر نحو صَوْم، وزَوْر ، ومما جاء بمعنى الرسالة قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم
بسـر ولا أرسلتهم برسـول

٤٣٠ـ ويقولون: لعل التلاميذ فهموا ما قاله أستاذهم ، ولعلهم كتبوا ما أملاه عليهم ، وهم بهذا يلفظون بما يشتمل على المناقضة ، وينبئ بالمعارضة ، ووجه الكلام أن يقال : لعل التلاميذ يفهمون ما يقوله أستاذهم ، ولعلهم يكتبون ما يُمْلِيهِ عليهم ، وبيان ذلك أن لعل معناها الترقب والتوقع لمرجو أو مخوف ، والتوقع إنما يكون لما يتجدّد ويتولد لا لما تقضّى وتصرّم ، ولا يكون ذلك إلا بالفعل الذى يشير إلى الاستقبال وهو المضارع .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وقوله حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام : (قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) .

٤٣١ـ ويقولون لمن جاوزت حد الصغر ناشئة ، قياساً على قولهم للمذكر ناشئ كما يقال عاقل وعاقلة ، وصائم وصائمة .

والصواب أن الوصف بالنشوء يستوى فيه المذكر والمؤنث فيقال : غلام ناشئ وجارية ناشئ ، كما يقال : رجل ناشز وامرأة ناشز ، ومما يؤيد ذلك قول عبد الواسع ابن أسامة الحزامى :

منازلُ من عوجاءَ إذ هى ناشئ
مؤزرة تصطادُ من لا يصيدها

وقول أبى قدامة الطائى :

قد أجلس المجلس لم يحرَّج
من ناشئ ذات شوًى خدَلَّج(١)

وتجمع كلمة الناشئ على نشء كصاحب وصحب ، كما فى قول بشر ابن أبى حازم :

سبته(٢) ولم تَخْشَ الذى فعلت به
منعمة من نشء أسلم مُعصر(٣)

وتجمع أيضاً على نشأ بالتحريك كما فى قول نصيْب .

---

(١) خدلج : ممتلء .
(٢) سبته : أسرته .
(٣) المعصر : من بلغت شبابها وأدركت .

لولا أن يقال صبا[١] نصيبٌ
لقلت بنفسيَ النَّشَأُ الصغارُ

والنشء كما يكون جمعاً لناشئ يكون مصدراً كما فى قولك: نشأت فى بنى فلان نَشْئاً حسناً إذا شببت فيهم .

أما الناشئة فهى إما جمع ناشئ وهو كل ما حدث ليلا من الطاعات ، ومنها قوله عزشأنه(إن ناشئة الليل هى أشدوطْئاً وأقوم قيلا) أى أن الطاعات التى تنشأ ليلا هى أثبت عبادة وأسد مقالا لحضور القلب وهدوء الأصوات ، وإما مصدر جاء على فاعلة كباقية بمعنى بقاء فى قوله تعالى (فهل ترى لهم من باقية) .

٤٣٢—ويقولون : بعنا ما كان عندنا من تمر ولم يبق منه إلا شُويّة بضم الشين وتشديد الياء يعنون مقداراً يسيراً ، والصواب شواية بتثليث الشين أو شَوية وزان غنية وهى بقية مال هلك ، تقول : أكلنا الشاة وما بقى منها إلا شُواية ، جمعها شَوايا ، ويقال : أشوى فلان من غدائه إذا أبقى منه بقية قليلة ، وتعشى أخى فأشوى من عشائه أى أبقى شَوًى منه أى شيئًا حقيراً ، لأن الشوى هو رذال المال ، تقول : أعطانى فلان من الشوى قال الشاعر :

أكلنا الشَّوى حتى إذا لم ندع شوًى
أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

ويقال : كل ذلك شوًى ما سلم دينى (أى هو حقير) ، قال :

وكنت إذا الأيام أحدثن هالكا
أقول شوًى ما لم يُصبنَ صميمى[٢]

وللشوى معنى آخر هو أنه جمع شواة ومعناها جلدة الرأس ، تقول : سمعت خبراً مؤلما فاقشعرت منه شَواتى ، ومن هذا قول الشاعر :

قالت قتيلةُ ماله
قد جُلِّلت[٣] شيباً شَواتُه

٤٣٣ — ويقولون لما يحلق به الشعر مُوس بالضم ، ويجمعونه على أمواس ، وهذا ضلال بعيد ، والفصيح أن يقال له المِحلق بكسر الميم اسم آلة ، أو المُوسى ، تقول : ماس رأسه مَوْساً من باب قال إذا حلقه .

وقيل الميم زائدة ووزنه مُفْعَل من أوسى رأسه بالألف ، وعلى هذا هو مصروف ينون عند التنكير ، وقيل الميم أصلية ووزنه فُعلى كحبلى، وعلى هذا لاينصرف لألف التأنيث المقصورة .

ويجمع على قول الصرف المَواسى

(١) صبا : مال إلى الجهل والفتوة .

(٢) صميم القلب : وسطه .

(٣) جللت شيباً : علاها الشيب .

بفتح الميم ، وعلى قول المنع الموسيات كَحُبْلَيَاتْ ، لكن قال ابن السكيت : الوجه الأجود وهو مفعل من أوسيت رأسه إذا حلقته ، وموسى بن عمران عليه السلام مشتق من الماء والشجر ، (مو) معناه الماء ، (وسا) معناه الشجر ، وهو فى تقدير فُعلى ، ولهذا يمال لأجل الألف ، ويؤيده قول الكسائى : ينسب إلى موسى وعيسى وشبههما مما فيه الياء زائدة فيقال : موسىّ ، وعيسىّ على لفظه فرقاً بينه وبين ما فيه الياء أصلية فى نحو مُعلى ، فإن الياء لأصالتها تقلب واواً فيقال مُعلوىّ .

٤٣٤ — ويقولون : اشترينا لقُمصنا زراير، كما يزعمون أن الواحد زُرار بالضم ، وكل من المفرد والجمع خطأ ، والصواب أن المفرد زِر بالكسر وزان سر ، والجمع أزرار وزرور بالضم ، والزِّر أيضاً عُظَيم تحت القلب وهو قوامه ، وكذا حد السيف ، وزِر الدين قوامه ، والزرير وزان أمير هو الذكى الخفيف كالزُّرازر بالضم والزّرازر بالفتح ، والزُرزور بالضم والزُرْزُر وزان هدهد ، تقول : زَرْزرَ الزُرزُر إذا صوت .

وتقول : حل أخى زِره وأزراره ، وهو لى ألزم من زرى لعروته ، وزر أقمصته شد أزرارها ، وأزر قميصه جعله ذا أزرار فتزرر ، وزرّ الرجل قمصانه زَرّاً من باب شد أدخل الأزْرَارَ فى العُرا ، وزرّرها بالتضعيف مبالغة .

ومن المجاز قولك : زرّ الرجل الشىء إذا جمعه جمعاً شديداً ، وزر الولد أخاه إذا عضّه ، والزِرة بالكسر أثر العضة ، وحمار مزرّ بالكسر إذا كان كثير العض وفلان زُرزور مال بالضم وزِره بالكسر إذا كان عالماً بمصلحته .

ويقال : أعطانى أبى الشىء بزره كما يقال برُمته ، وأتانى القوم بزِرهم أى بجمعهم ، وإن فلانا لزر من أزرار الإبل إذا كان حسن الرعية لها .

٤٣٥— ويقولون : غلط الخطيب فى منطقه فهو غلطان ، ويرى بعضهم أن يقال فهو غالط ، وكلا الرأيين فاسد ، والصواب فهو غَلِط لأنه من باب طرب ، والعرب تقول : غَلِط فى منطقه وغَلِت فى حسابه فهو غَلِت ويقال غالطه مغالطة وغلّطه تغليطا إذا قال له غَلِطت ، والأُغلوطة بالضم والمَغْلَطة بالفتح الكلام يغلط فيه ويغالط به ، والمِغلاط كثير الغلط ، وتقول لمن يغالطك : إياك والمكابرة والمغالطة ، وأنهاك عن الأغاليط ، وأربأ بلك عن التخاليط .

٤٣٦– وينكرون أن يقال: جاء راكباً رجلٌ على أن راكباً حال من رجل المنكر، محتجين بأن صاحب الحال لابد أن يكون معرفة، لأنه مخبر عنه بالحال فى المعنى، ويصرون على أنه يجب أن يقال: جاء الرجل راكباً.

والحق أن التعبير الأول سليم لاغبار عليه، لأن صاحب الحال يجوز أن يكون نكرة فى الحالات الآتية.

(ا) إذا تقدمت عليه الحال كما فى المثال الذى أنكروه، وكما فى قولك: شوهد لامعاً نجم وقول الشاعر:

وبالجسم منى بينا لو علمته
شحوب[1] وإن تستشهدى العين تشهد

فبيناً حال صاحبها شحوب المنكرِ، والأصل شحوب بين، ومن ذلك قول كثير عزة.

لعزة موحشا طللُ
يلوح كأنه خِلَلُ[2]

فموحشاً حال تقدمت على صاحبها المنكر الذى هو مبتدأ مؤخر عند سيبويه وفاعل للاستقرار المحذوف عند الأخفش والكوفيين.

وقال ابن الحاجب: يجوز أن يكون (موحشا) حالا من الضمير المستقر فى (لعزة) لأن جعل الحال من المعرفة أولى من جعلها من النكرة المتقدمة عليها، ولأن هذا هو الكثير الشائع وهى على هذا الرأى متأخرة عن صاحبها.

وقال ابن جنى فى شرح الحماسة ص ٢١٣ جزء ١ عند قوله:

وهلا أعدونى لمثلى تفاقدوا
وفى الأرض مبثوثا شجاع[3] وعقربُ

من نصب مبثوثا فلأنه وصف نكرة قدم عليها، فنصب على الحال منها.

وقال صاحب الكشاف: إن وصف النكرة إذا قدم عليها صار حالا، واستشهد بقوله تعالى: (وجعلنا فيها فجاجاً سبلا)، أى أن (فجاجا) كان وصفاً (لسبلا) فلما تقدم صار حالا.

(ب) تخصصه بوصف أو بإضافة فمن الأول قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا».

وقوله (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه) ومن الثانى قوله (فى أربعة أيام سواءً للسائلين) فسواء

(١) الشحوب: التغير من الهزال.

(٢) الخلل: جمع خلة وهى بطانة تغطى بها أجفان السيوف.

(٣) الشجاع: الحية الخبيثة، وفى هذا البيت كنى الشاعر بالشجاع والعقرب عن الأعداء فهو يقول لقد امتلأت الأرض بالأعداء فهلا أعدونى لهم؟

حال من أربعة لاختصاصها بالإضافة .

(جـ) إذا جاء بعد نفى كما فى قوله سبحانه : (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) وقولهم « لا يبغ امرؤ على امرئ مستسهلا » فمستسهلا حال من (امرؤ) لسبقه بنفى .

(د) إذا جاء بعد استفهام كما فى قولك : هل أجاب عن الأسئلة مجتهد إلا مسروراً ؟

ومن هذا قول قطرى بن الفجاءة :

يا صاح هل حُمَّ[1] عيش باقيا فترى
لنفسك العذر فى إبعادك الأملا ؟

(هـ) إذا جاء بعد نهى كما فى قولك : لا يجب أحد عن الأسئلة إلا واثقاً من صحة الإجابة ، وقول . الشاعر .

لا يركنن أحد إلى الإحجام[2]
يوم الوغى[3] متحرفاً لحمام

٤٣٧ — قرأت فى صحيفة الأهرام عنوانـًا هو .

(مؤتمر صحفى لخالد محيى الدين يدعو إليه المراسلين الأجانب ويهاجم فيه الحكومة والصحافة المصرية) وهذا العنوان يشوبه الخطأ ، لأن الفعل هاجم لم يرد عن العرب وكذا مضارعه ومصدره ولا يستعمل إلا الثلاثى لازماً ومتعدياً ، نقول من اللازم : هجم جيشنا على الأعداء هجومـًا إذا أتاهم بغتة ، ومن المتعدى تقول هجم القائد جنوده على الأعداء وهجم عليهم الخيل ، ومن المجاز قولك : هجم عليهم البيتُ إذا سقط ، وهُجم البيتُ بالبناء للمجهول فهو مهجوم إذا حُلت أطنابُه وانضمت أعمدته ، والريح تهجُم التراب على الدار إذا ألقته عليها ، ونحن فى هَجْمة الشتاء أو الصيف ، أى فى شدة برده أو حره .

والهَجوم بفتح الهاء هى الريح الشديدة تقلع البيوت .

ويقال : هجمت العينُ هجومـًا إذا غارت ، وهجمتُ الرجلَ هَجْما إذا طردتَه ، وهجمَ الرجلُ إذا سكت وأطرق فهو هاجم .

٤٣٨ — وشاع على ألسنتهم وأسلات أقلامهم قولهم : هذا الشاعر رقيق الوِجدان بكسر الواو ، وينسبون إليه فيقولون : هو شاعر وِجدانى ، وكان شعره الوِجدانى أرق شعره وأنداه وكل هذا خطأ ، لأن كلمة وِجْدان مصدر يحمل معنيين مختلفين ، **أحدهما:** إدراك الشىء والحصول عليه كما فى **قولك** :

(١) حُمَّ : قدر .
(٢) الإحجام : الكف والامتناع .
(٣) الوغى : المراد الحرب .

وجدت ضالتى وِجدانا وجدة بكسر كل منهما إذا أدركتَها .

والآخر : الغضب كما فى قولك : وجدت عليه وِجدانا بالكسر ومَوجدة بالفتح ، أما فى الحب فيقال : وَجد أخى بفلانة ، وعليها وَجْداً ، وهو واجد بفلانة وعلى فلانة ، ومتوجِّد ، ووجَّد بها وتوجّد ، وله بها وَجْدٌ ، وتواجد فلان : أرى من نفسه الوجد وهو المحبة وفى الحزن يقال وَجدَ به وَجْدا بكسر الجيم فى الماضى وفتح الواو فى المصدر .

ويقال : أوجده الله إذا أفناه ، ووجدتُ زيداً ذا الحفاظ أى علمته ، ومنه قول الشاعر :

إن الكريمَ وأبيك يعتمل[1]
إن لم يجد يوما على من يتكل

أى إن لم يعلم على من يتكل ، وقوله تعالى (ووجدك عائلا فأغنى) أى علمك فقيراً فأغناك .

ولتصوير براعة الشاعر التى عبروا عنها خطأ برقة الوجدان ينبغى أن يقال :

هذا الشاعر جَزْل[2] اللفظ ، ساحرُ العبارة ، متين النسج ، نيِّر الديباجة ، سريع الخاطر[3] حاضر البديهة ، يملك عليك لبك[4] ومشاعرك بسحر بيانه وقوة عارضته[5] ، وبما يتحفله به من نفحات العبقرية[6] فى شعره الذى أحكم فواصله ، وأصاب كلاه ومفاصله .

٤٣٩ — وهم يخطئون حين يزعمون أن الفعل كان لابد أن يكون ناقصاً محتاجاً إلى خبر ، كما يصرون على أنه من الأفعال الواوية ، إذ يقال : كان القمر طالعاً يكون كوناً وكينونة ، والكينونة مصدر أصله من ذوات الواو ، فكان حقه كونونة ، إلا أن فوعولة لما قلت فى مصادر الواوى ألحقوها بالذى هو أكثر فى مصادر اليائى وهو فيعولة بقلب الواو ياء ، ومثلها سيدودة من ساد يسود ، وديمومة من دام يدوم .

والحق أن كان قد تكون واوية ، وقد تكون يائية ، فالواوية قد تكون ناقصة تحتاج إلى خبر كما فى قوله تعالى (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض) .

(١) يعتمل : يعمل لنفسه ويُعمل رأيه .
(٢) جزل اللفظ : ضد ركيكه .

(٣) الخاطر : ما يتحرك فى القلب من رأى أو معنى .
(٤) اللب : العقل .
(٥) العارضة : البديهة وقيل الصرامة .
(٦) عبقر : موضع تنسب إليه طائفة من الجن ثم نسب إليه كل شىء تعجبوا من جودة صنعته

وقد تكون زائدة للتوكيد كما فى قولك : ما كان أحسن الصدق ، وقول بعضهم : لم يوجد كان مثلهم ، وقد تكون تامة ترفع الفاعل ولا تحتاج إلى خبر ، ولهذه ألوان كثيرة .

١ - أن تكون بمعنى جدث كما فى قولك : إنى أعرف هذا الرجل مذ كان أى مذ خلق ، وقولك : إذا كان الشتاء فأدفئونى ، أى إذا حدث أو جاء .

٢ - أن تكون بمعنى ثبت كما فى قولك : كان الله ولا شىء معه .

٣ - أن تكون بمعنى حضر كما فى قولك : إن كان الضيف فأكرمه ، ومن هذا قوله جل شأنه (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) .

٤ - أن تكون بمعنى وقع كما فى قول المؤمنين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أما اليائية فتامة دائماً ، ومعناها خضع كما فى قولك : كان الخادم لسيده يكين كَيْنة بفتح الكاف إذا ذل وخضع ، ومنه استكان استكانة كما فى قوله عز شأنه (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى ما خضعوا لخالقهم وما تضرعوا له .

ويقال : أكان الأمير أعداءه يُكينهم إكانة إذا أخضعهم وأدخل عليهم من ألوان الذل ما أكانهم ، قال الشاعر :

لعمرك[1] ما تَشفى جراح تُكينه[2]
ولكن شفائى أن تَئيم[3] حلائلُه

ويقال : أكتان فلان إذا أسر الحزن فى جوفه ، وهذا مشتق من الكَيْن ، وهو لحم باطن الفرج ، وقيل البظر لأنه فى أسفل موضع وأذله ، والكِينة بكسر الكاف الشدة المُذلة .

٤٤٠ - وهم يخطئون حين يقولون : تَعيَّن فلان وزيراً للتربية والتعليم ، والحق أن للتعيين معانى لا تمت بأى صلة إلى المعنى الذى يريدونه ، إذ يقال : تعيَّنا عيْننا يتعيَّن لنا ، أى يتبصر لنا ، ويتجسس ، وتعيَّن السقاء إذا بَلِيَ ، ورقت منه مواضع ، قال القطامى .

ولكن الأديم[4] إذا تفرَّى[5]
بِلًى وتعينا غلب الصناعا[6]

---

(١) لعمرك : يدعو الشاعر لمن يخاطبه بالبقاء وطول العمر .

(٢) تكينه : تخضعه وتذله .

(٣) تيم حلائله : يقول : إنه لا يشفينى ولا يسرنى جراح تجعله خاضعاً ذليلاً ولكن الذى يسرنى ويرضينى أن يهلك هذا العدو لتصير أزواجه أيامى .

(٤) الأديم : الجلد المدبوغ .

(٥) تفرى : تشقق :

(٦) الصناع : المرأة الحاذقة الماهرة بعمل اليدين :

ويقال : تعين فلان الإبلَ ، واعتانها إذا استشرفها ليَعينها أى ليصيبها بعينه وسقاء عيّن وزان كيِّس ومتعين إذا سال ماؤه ، وتعين الرجل واعتان عينةً إذا استسلف سلفًا ، والعِينة بكسر العين السلف .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : تقلد فلان وزارة التربية والتعليم أو تولى هذه الوزارة ، أو وليها ولاية بكسر الواو وفتحها ، أو نصبته الحكومة لوزارة التربية فانتصب لها ، أو أقيم وزيراً لهذه الوزارة ، أو أعطته الحكومة قِلْد أمور هذه الوزارة ، أى فوضته إليه من قلد الماء قال :

وأعطته بالأقلاد[1] كلُّ قبيلة
ومدت إليه بالركاب[2] الجحاجحُ[3]

ويقال أيضًا : ألقيت إليه مقاليد الأمور فى وزارة التربية .

٤٤١ — قرأت فى صحيفة الأهرام عنوانًا هو : (وزير البترول إيطاليا تهديه قلادتها) .

وفى هذا العنوان غلطتان : إحداهما كلمة (البترول) الأعجمية ، والصواب أن يقال له : النفط بكسر النون وفتحها ، والكسر أفصح ، وهو الذى يستعمل فى طهو الطعام وفيه كثير من المنافع ، والنفاط بتشديد الفاء رامى النفط لأنه حرفة كالخباز والنجار والحداد ، والجمع نفّاطه كما قيل فى جمع سائر سيارة والنفاطة أيضًا منبت النفط ومعدنه كما قيل لمنبت الملح ملاّحة ، جمعها نفاطات ، **والأخرى** : كلمة تُهديه قلادتها ، لأن هذا الفعل لا يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، وإنما يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه ، ويتعدى إلى الآخر باللام أو بإلى ، تقول : أهدى له وأهدى إليه هديَّة ، لأنها تقدم فى مهدًى أى فى إناء ، وأهدى الحاج إلى الحرم هَدْيا كما فى قوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة) ويقال له أيضًا هَدِيّ بزنة غنى ،وقول العرب : فلان يُهدِى للناس وزان يُربِى معناه أنه كثير الهدايا ، قال أبو خراش :

لقد علمت أم الأديبر أننى
أقول لها هَدِّى ولا تذخرى لحمى

ومن الثلاثى يقال : هَديتُ العروس إلى بعلها هداء بالكسر والمد فهى

---

(١) الأقلاد : جمع قِلد وهو الشرب والحظ من الماء .

(٢) الركاب : الإبل التى يسار عليها واحدتها راحلة .

(٣) الجحاجح : السادة .

هدىً وهدية بتشديد الياء فيهما، ويقال من الرباعى فى لغة قيس عَيْلان : أهديتها إلى بعلها فهى مُهداة .

والهدية وزان غنية ما أتحف به جمعها هدايا ، وهداوَى بفتح الدال وكسرها ، وهداو .

والمهداء بالكسر والمد من كان كثير الإهداء رجلا كان أوامرأة .

٤٤٢ — ويقولون فى رسائلهم لإخوانهم : لكم منا سلام عاطر ، وتحية عاطرة ، وهذا خطأ ، لأن العاطر من يحب العطر ، وكذا العاطرة ، والعطر هو الطيب ، جمعه عطور كما فى قول أبى النجم :

نومَ العروس البكر فى عُطورها
من مِسك دارين[1] ومن عبيرها[2]

والفصيح أن يقال : سلام عَطِر وتحية عَطِرة ، ورجل عَطر وامرأة عَطِرة ، كل أولئك بفتح فكسر وزان طَرِب وطَرِبة ، لأن العرب قالت : عَطِرت المرأة من باب طرب فهى عَطرة ومِعطارة ، ومُعطرةَ ، ومتعطرة أى متطيبة .

ويقال لكل من الرجل والمرأة معطير ومعطار بكسر الميم فيهما إذا كان كثير التعطر ، ونسوة عطرات ، قال :

تضوَّع[3] مسكا بطنُ نُعمان[4] أن مشت به زينبٌ فى نسوة عطرات

ويقال : ناقة مِعطار بالكسر ومُعطر بالضم إذا كانت شديدة حسنة ، ونوق عَطِرات ومعاطير إذا كن حساناً كراما ، وناقة عطَّارة وعَطِرة إذا كانت نافقةً[5] فى السوق .

ويقال : تعطرت المرأة إذا أقامت عند أبويها ولم تتزوج ، وكان صلى الله عليه وسلم يكره تعطُّر النساء وتشبهَهُن بالرجال أى تعطلهن من الحَلْى .

والعطَّار بائع العطر ، والعطارة بالكسر حرفته .

٤٤٣ — ويقولون لمن يهنئونه بالنجاح ونيل الشهادة مثلا : نجاحٌ مبروك وشهادة مبروكة ، حتى لقد سمو بعض أبنائهم بلفظ مبروك ، وبعض بناتهم بلفظ مبروكة وكل هذا خطأ صُراح ، لأن الفعل برك ليس متعدياً حتى نصوغ منه اسم المفعول ، وإنما هو لازم ،

(١) دارين : موضع بالبحرين منه المسك الدارى .

(٢) العبير : أخلاط تجمع من الطيب .

(٣) تضوع : انتشرت رائحته .

(٤) بطن نعمان : واد وراء عرفة ويسمى نعمان الأراك .

(٥) سوق نافقة : رائجة .

كما أنه لا يستعمل إلا فى معنى آخر لا صلة له بالمعنى الذى أرادوه .

تقول : برك البعير من باب دخل بركا إذا استناخ ، وأبركه صاحبه فبرك ، وهذا قليل ، والكثير أن يقال فى هذا المعنى : أناخه فاستناخ .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : نجاح مبارك كما فى قوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) وشهادة مباركة كما فى قوله : (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) وذلك مأخوذ من قول العرب : بارك الله لك ، وبارك فيك كما فى قوله سبحانه (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) وبارك عليك كما فى قوله (وباركنا عليه وعلى إسحاق) ، ويقال أيضاً : باركك الله فأنت مبارك والتبريك هو الدعاء بالبركة وهى النماء ، تقول : برّك فلان على الطعام إذا دعا له بالبركة ، وطعام بريك أى مبارك .

والتبرُّك التيمن ، تقول : تبركتُ بالكعبة الشريفة إذا تيمنتَ بها ، وما أبركَها وأيمنَها ، والعرب أطلقت كلمة المبارك على نهرين أحدهما بالبصرة والآخر بواسط .

٤٤٤ — ويقولون هؤلاء الأبناء تعودوا منذ نعومة أظفارهم على طاعة أبويهم ، وهذا التعبير يشوبه الفساد ، لأن الفعل تعود لا تستعمل معه على ، وإنما يتعدى بنفسه إلى المفعول به ، والسبب فى ذلك أنه مطاوع لفعل يتعدى إلى مفعولين ، ومن المعروف أن كل فعل يتعدى إلى مفعولين[1] ، يتعدى مطاوعه إلى مفعول واحد .

تقول : عودتُ كلبى الصيدَ فتعوده ، ولذا ينبغى — لإصلاح عبارتهم — أن يقال : الأبناء تعودوا طاعة والديهم .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قوله صلى الله عليه وسلم فى حديثه « تعودوا الخيرَ فإن الخيرَ عادةُ والشر لجاجة » أى أن الخير دُربة ، وهو أن يعوده نفسه حتى يصير سجية له ، أما الشر فالنفس تلج فى ارتكابه وتتردد .

٤٤٥ — نشر فى صحيفة الأهرام بخط عريض عنوان هو : ماذا قدم زايد خلال فترة رئاسته الأولى ، وكلمة الرئاسة لا تؤدى المعنى الذى أرادوه منها ، إذ معناها قائم السيف ومقبضه كالرئاس بدون هاء ، تقول : خذ برئاس سيفك ورئاسته .

---

(١) من هذا قول الشاعر :

أعودها الفتيان بعدى ليفعلوا كفعلى
إذا ما جار فى الحكم تابع

والفصيح أن يقال : خلال فترة رياسته بالياء بدلا من الهمزة لكسر ما قبلها، أو يقال : خلال فترة رَآسته بفتح الراء .

تقول : رأسَ فلان قومه يرأسهم رآسة إذا شرف قدره فيهم ، فهو رئيس ، وجمعه رؤساء كشريف وشرفاء، ورُئِس الرجل بالبناء للمفعول فهو مرءوس ورئِيس قال النمر بن تولب :

ويومَ الكُلاب[1] رأسنا الجموعَ
ضِراراً وجمعَ بنى مِنْقَرِ[2]

ويقال : ترأس فلان على قومه ، ورأسوه على أنفسهم ترئيساً كتأمَّر وأمروه إذا جعلوه أميراً .

والرأس سيد القوم كالريِّس والرئيس ، وهو أيضا الجيش كما فى قول عمرو بن كلثوم :

برأس من بنى جُشَم بنِ بكر
ندقُّ به السهولةَ والحزونا

ورأسُ المال أصله ، جمعه فى القلة أرؤس ، وفى الكثرة رءوس ، ومن هذا قوله تعالى (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم) ورأس الدين خشية الله سبحانه .

ويقال : شاة رئيس إذا أصيب رأسها من غنم رَآسَى ، ورجل رِئِّيس بكسر الراء وتشديد الهمزة مكسورة إذا كان كثير الترَّؤُس على الناس .

٤٤٦ـــويقولون : أعاد الأستاذ لطلابه شرح البيت مرات ، والفصيح أن يقال : كرر الأستاذ شرح البيت قال أبو هلال العسكرى فى فروقه : إن التكرار يقع على إعادة الشىء مرة وعلى إعادته مرات ، أما الإعادة فلا تكون إلا للمرة الواحدة ، فإذا قلت : كررت كذا يحتمل مرة أو أكثر بخلاف أعدت ، فلا يقال : أعاده مرات إلا من العامة .

٤٤٧ـــويقولون : تحدث إلينا فلان، وكان حديثه شيقاً يأخذ بمجامع القلوب ، والحق أن هذا التعبير يشو به الخطأ ، لأن كلمة شيق وزان كيِّس معناها المشتاق ، تقول : اشتقت إلى رؤية الكعبة المشرفة فأنا مشتاق وشيق إليها

ولإصلاح عبارتهم لتؤدى المعنى الذى يبتغونه ـــ يجب أن يقال : وكان حديثه شائقاً، إذ ورد عن العرب قولها : شاقه الحديث إذا أعجبه وهيَّجه فهو حديث شائق .

٤٤٨ـــويقولون : الجنود فى ثكناتهم بثلاث فتحات ، وعلى هذا الرأى

---

(١) الكلاب بالضم : ماء له يوم فى الحرب .

(٢) منقر وزان منبر : أبو بطن من تميم .

الخاطئ يكون المفرد ثكنة وزان سجدة ، والصواب أن المفرد ثُكنة بضم الثاء وزان غرفة والجمع ثكن كغرف ولذا يجب أن يقال : الجنود فى ثُكـَنهم ، أو فى ثُكـَناتهم بضمتين كغرفات فى قوله جل شأنه (وهم فى الغرفات آمنون) أو فى ثُكناتهم بضم فسكون على الأصل.

وللثكنة معان عدة : فهى مركز الأجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم ، كما سبق بيان ذلك ، وكذلك هى القلادة ، والراية ، والقبر ، والسرْب من الحمام .

٤٤٩ — يكتب كثير من المدرسين على السبورة مثلا ١٥ ربيع الثانى ، وفى هذه الكتابة ثلاثة أخطاء.

الأول : أنهم لم يذكروا كلمة (من) قبل اسم الشهر ، والواجب أن يكتب ١٥ من المحرم أو من صفر ، وكلمة ربيع ليست تمييزاً للعدد ١٥ ، وإنما المقصود منها اليوم الخامس عشر من الشهر.

والثانى : أنهم جعلوا ربيعـًا ثانيـًا ، والحق أنه ليس بثان ، وإنما هو الآخر بكسر الخاء ، ومثل ذلك يقال : جمادى الآخرة ، كما قيل جمادى الأولى .

والثالث : عدم ذكر كلمة شهر قبل كلمة ربيع ، إذ لا بد أن يقال شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، وذلك لأن الربيع ربيعان : أحدهما ربيع الشهور والآخر ربيع الأزمنة (الفصول) فلكيلا يلتبس أحد الربيعين بالآخر يجب أن تذكر كلمة شهر قبل ربيع الشهور .

وبعضهم زاد على شهرى ربيع شهر رمضان مستدلا بحديث « لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان » .

وقال البيهقى : لم ينقل عن أحد من العلماء أن رمضان من أسماء الله تعالى ، والظاهر جوازه من غير كراهة ، وقد ثبت فى الأحاديث ما يدل على الجواز كقوله عليه السلام « إذا جاء رمضانُ فتحت أبواب الجنة ، وغـُلقت أبواب النار ، وصُفدت[1] الشياطين » وقال القاضى عياض : وفى قوله إذا جاء رمضان دليل على جواز استعماله من غير لفظ شهر خلافـًا لمن كرهه من العلماء .

٤٥٠ — وفشا بين كثير من المثقفين

(١) صفدت الشياطين : شدت وأوثقت بالأصفاد وهى القيود ، واحدها صفد بفتحتين .

قولهُـم : فتاة غيورة وصَبورة وشَكورة وخَجولة ، وهذا خطأ ، والصواب أن يقال هى غيور ، وصبور ، وشكور ، وخجول ، بدون هاء التأنيث ، لأن فعولا الذى هو بمعنى فاعل يستوى فيه المذكر والمؤنث كالأمثلة المتقدمة وماشابهها فإن كان بمعنى مفعول وجبت الهاء نحو جمل ركوب وناقة ركوبة وأما قولهم عدوة فشاذ سوغه الحمل على صديقة ، وأما قولهم : امرأة ملولة فالهاء هنا للمبالغة لا للتأنيث إذ يقال أيضًا : رجل ملولة ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قول ابن مالك :

ولا تـلى فارقـةٌ فعـولا
أصلا ولا المِفعـال والمفعيلا

كما ذاع بينهم قولهم : هؤلاء غيورون على دينهم ، صبورون على نكبات الدهر ، والفصيح أن يجمع غيورٌ وما ماثله جمع تكسير على فعُل بضمتين فيقال : هم غُيُر على على الدين ، وصُبُر على النكبات ، وشُكُر للمعروف ، وغُفُر للهفوات ، وخُجُل من الأخطاء ، قال طرفة :

ثم زادوا أنهـم فى قومهم
غُفُـر ذنبهم غـَيرُ فخُر

٤٥١ — ويخطئ كثير منهم حين يصفون طلاب الجامعات فيقولون : هم شباب مثقف ناهض ، لأن الشباب هنا جمع شاب كشبَّان ، والشباب ليس جمعًا حقيقيًّا لشاب وإنما هو اسم للجمع ، قال ابن ميَّادة .

وكيفَ نرجِّيها وقد حال دونها
بنـو أسد كُهلانُها وشَبابُها

والصواب أن يوصف الشباب بالجمع فيقال : هم شباب ناهضون ومثقفون ، وعلى أكتاف هؤلاء الشباب تقوم نهضةُ البلاد ، قال شاعر قديم :

ولقـد غدوت بسابح[1] مرح
ومعى شبابٌ كلهمُ أخيلُ[2]

وقال شوقى :

شباب قُنَّع لا خير فيهم
وبورك فى الشباب الطامحينا

ولا يكون الشباب مفرداً إلا فى الحالات الآتية :

١ — إذا كان مصدراً بمعنى الفتاء والحداثة ، كما فى قولك لشخص حديث السن: إن فيك لشبابًا ناضراً، ووصفك لآخر : فلان يتمتع بشباب قوى أى بفتاء وحداثة .

---

(١) السابح : الحصان يسبح بيدين فى سيره ، جمعه سوابح .

(٢) الأخيل : طائر خعيف الحركة يريد أن كلهم مثل الأخيل .

٢ — إذا كان بمعنى أول الشيء كما فى قولك : لقيت فلاناً فى شباب النهار ، وقد حضر الحاج فى شباب الشهر أى فى أوله ، قال مُليحٌ الهُذلى يصف ظعائن :

مكثن على حاجاتهن وقد مضى
شباب الضحا والعيسُ[1] ما تتبرحُ

٣ — إذا كان بمعنى التشبيب وهو التعريض بالحب وقول الغزل ، تقول : هذه قصيدة حسنة الشباب ، وكان جرير أرق الشعراء شباباً أى تشبيبا بالنساء ، وهو من تشبيب النار ، قال كثير :

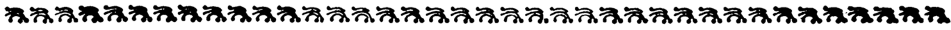
إذا شببّت فى غير ابن ليلى
عَروض[2] قصيدة بَغُض الشبابُ

ويقال : شَبت النارُ ، وشُبت بالبناء للمجهول شبا وشُبوبا لازم متعد ، ولا يقال شابة بل مشبوبة .

عباس أبو السعود

(١) العيس . الإبل البيض يخالط بياضها شقرة مفردها عيساء .

(٢) العروض : ميزان الشعر .



آداب الإحرام للحج

غسل الجسد ، ونظافة الإزارين ، وطيب الرائحة ،
وتعاهد الجياع ، والتلبية بالهيبة ، ورفع الصوت بحلاوة
الإجابة ، والطواف بتعظيم الحرمة ، والسعى
بطلب الرضا .



باب الفتاوى

الأستاذ /
عبد الحميد السيد شاهين

س : هل يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره ؟

ج : ذهب ابن عباس وابن عمر وجابر والشافعى : إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا فى أشهره ، وقالوا فيمن أحرم قبلها : أحل بعمرة ولا يجزئه عن إحرام الحج.

قال البخارى : وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج .

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : لا يصح أن يحرم أحد بالحج إلا فى أشهر الحج. ويرى الأحناف ومالك وأحمد: أن الإحرام بالحج قبل أشهره يصح مع الكراهة . . ورجح الشوكانى الرأى الأول فقال : إلا أنه يقوى المنع من الإحرام قبل أشهر الحج أن الله سبحانه ضرب لأعمال الحج أشهر معلومة والإحرام عمل من أعمال الحج فمن ادعى أنه يصح قبلها فعليه الدليل . . .

س : هل يجوز الإحرام قبل الميقات المكانى ؟

ج : قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل الميقات أنه محرم . .

وهل يكره ؟ قيل : نعم لأن قول الصحابة : وقت رسول الله لأهل المدينة ذا الحليفة . . . إلخ يقضى بالإحلال من هذه المواقيت، ويقضى بنفى النقص أو الزيادة

فإن لم تكن الزيادة محرمة فلا أقل من أن يكون تركها أفضل.

س : ما الحكم إذا نوى الحج ولكن القرعة لم تصبه ؟

ج : للنية الصادقة فى أداء العبادات ثوابها، لكن لا يكتب له الحج ولا يسقط عنه الفرض لأنه لم يؤد أركانه . ولم يقم بفروضه ، لكن عدم إصابة القرعة له يعتبر عذراً مسقطاً للحج عنه فى عامه ، لأن الاستطاعة لم تتحقق ، فإن الحج لا بدمن أدائه فى يسر ورخاء وتمكن ، وحين لم تصبه القرعة لم يتحقق السبيل الذى أشارت إليه الآية الكريمة (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) . . .

حتى إن العلماء قالوا : إن ما يفرض فى الطريق من المكوس وأجور الخدمات الباهظة يعتبر عذراً مسقطاً للحج ، بل ذهب الشافعية إلى اعتبار هذه الأجور التى تؤخذ من الحاج فوق أجر الطريق وسبيل الوصول اعتبروها عذراً وإن قل المأخوذ . جاء فى كتاب فقه السنة :

« اختلف العلماء فيما يؤخذ فى الطريق من المكس والكوشان هل يعد عذراً مسقطاً للحج أم لا ؟

ذهب الشافعى وغيره إلى اعتباره عذراً مسقطاً للحج وإن قل المأخوذ.

وعند المالكية لا يعد عذراً إلا إذا أجحف بصاحبه أو تكرر أخذه » .

فكيف بمن لم تصبه القرعة وهى أمر مشروع :

س : هل يجب الحج على المرأة إذا لم يتيسر لها اصطحاب زوج أو محرم ؟

ج : يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل سواء بسواء إذا استوفت شرائط الوجوب ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم ...[1] ، وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من جملة الاستطاعة ذهب أبو حنيفة وأصحابه ، والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحاق .

---

(١) إذا كان سفرا أى بينها وبين مكة ثلاثة أيام فأكثر عندهم .

وعن يحيى بن عباد قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها : إنك ممن لم يجعل الله له سبيلا .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم . فقام رجل فقال يا رسول الله : إن امرأتى خرجت حاجة ، وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : انطلق فحج مع امرأتك» رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم . . .

وقال المالكية : لا يجب عليها إلا إذا كان معها زوج أو محرم أو رفقة مأمونة . فإذا فقد جميع ذلك لا يجب علبها الحج . . .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المحرم أو النسوة الثقات . . ،

وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة . . ، وفى قول — نقله الكرابيسى وصححه فى المهذب تسافر وحدها إذا كان الطريق آمنا . .

وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : وقال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم .

وقد استدل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج ، إذا وجدت رفقة مأمونة أو كان الطريق آمنا بما رواه البخارى عن عدى بن حاتم : « بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها قال : فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة[١] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله » .

---

(١) الظعينة : أى الهودج فيه امرأة أم لا .

واستدلوا بأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها : وبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف . . وكان عثمان ينادى : ألا لايدنو أحد منهن ، ولا ينظر إليهن وهن فى الهوادج على الإبل . .

وإذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أو محرم صح حجها ، وفى سبل السلام « قال ابن تيمية : إنه يصح الحج من المرأة لغير محرم ومن غير المستطيع ،وحاصله: أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة مثل المريض والفقير والمعضوب والمقطوع طريقه ، والمرأة بغير محرم وغير ذلك ، إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج . .

ثم منهم من هو محسن فى ذلك ، كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مسىء ، كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم . . وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة ، والمعصية إن وقعت فهى فى الطريق لا فى نفس المقصود».

س : يحرص كثير من المسلمين على أداء العمرة فما حكمها ؟

ج : أجمع العلماء على أنها مشروعة لقول الله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله﴾ ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « عمرة فى رمضان تعدل حجة » أى تعدل ثواب حجة غير مفروضة وأداؤها لا يسقط الحج المفروض . .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . .

وذهب الأحناف ومالك إلى أن العمرة سنة . لحديث جابر رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة أواجبة هى ؟ قال : لا وأن تعتمروا هو أفضل » رواه أحمد والترمذى وقال حديث حسن صحيح . .

وعند الشافعية وأحمد : أنها فرض ، لقول الله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله) . وقد عفطت على الأول وهو فرض فهى فرض كذلك . . والأول أرجح . .

س : ينوى الحج وعنده أقارب محتاجون للقوت الضرورى فما الحكم ؟

ج : إذا كانت نفقة هؤلاء الأقارب واجبة على من يريد الحج كزوجته وأولاده الصغار أو الكبار العاجزين عن الكسب ، أو الأبوين الفقيرين . وليس عنده ما ينفقه عليهم إلا ما يريد الحج به . لا يكون الحج واجباً عليه ، لأنه غير مستطيع حينئذ ، فإذا حج والحالة هذه كان آثما فى حقهم ، وحجه صحيح ويجزئ عنه الفرض .

س : أيهما يفضل عن الآخر ويقدمه الدين : الزواج أم الحج ؟

ج : الزواج يعصم المرء عن عمل المعصية . فإذا خشى على نفسه منها فعليه أن يتزوج أولا ، وإلا قدم الحج لأنه ركن من أركان الإسلام . .[1] .

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

(١) المادة العلمية مأخوذة من كتب : « المذاهب » وكتاب « فقه السنة » للشيخ سيد سابق ، وكتاب « فى الحج والعمرة » لمحمد نعيم .

الله أعلم

سأل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — رجلاً عن شيء ، فأجابه : الله أعلم .

فقال عمر : لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم . .

ثم التفت إلى الناس وقال : إذا سئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليقل : لا أعلم !

الأزهر الكعبة العلمية للمسلمين

« وافق السيد صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، على سفر وفد من الأزهر إلى : تركيا ، يوغوسلافيا ، اليونان . وذلك لدراسة أوضاع المتخرجين في الأزهر من هذه المناطق ومدى نشاطهم في نشر الدعوة الإسلامية حتى يتمكن الأزهر من معاونتهم في نشر الدعوة الإسلامية .

كما يزور الوفد المدارس والمعاهد الدينية .

وهذا الوفد مكون من :

١ ــ السيد أحمد عصمت محمود إبراهيم	وكيل أول الوزارة والمشرف العام على مدينة البعوث الإسلامية .
٢ ــ الشيخ عبد السلام الشبراوى	الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية .
٣ ــ السيد محمد ثروت محمد حلمى	مدير إدارة المنح الدراسية مدينة ناصر للبعوث الإسلامية .

* * *

هذا وقد وجهت مراقبة البعوث الإسلامية بالأزهر الخطاب التالى :

إلى السيد الأستاذ السفير وكيل وزارة الخارجية

العلاقات الثقافية ــ اللجنة الفرعية

سلام الله عليكم ورحمته ، وبعد :

فمرافق لهذا ميزانية الطلاب الوافدين بالأزهر ، ومشروع المنح الدراسية لعام ١٩٧٩ .

رجاء التفضل بعرضه على اللجنة الفرعية :

مع رجاء التفضل بالتنبيه فى حالة الموافقة إلى إخطار السفارات العربية بالمنح الجديدة المخصصة لكل دولة . .

مع ملاحظة ما يأتى :

١ – ينبه على السفارات المصرية بموافاتنا بأسماء المرشحين على هذه المنح وفقاً للشروط المدونة أمام كل منحة – فى موعد غايته أول أكتوبر – ولن يلتفت إلى الترشيحات التى ترد بعد هذا التاريخ .

٢ – المنح التى لن يتم الترشيح عليها حتى أول أكتوبر – تشغل عن طريق لجنة شئون الطلاب الوافدين المقيدين فعلا بالأزهر .

٣ – موافاتنا بالمناهج التفصيلية للشهادات الدراسية التى يمكن معادلتها بالشهادات الأزهرية من الآن .

٤ – لا يعتمد بشهادات النقل ويعرض الحاصل عليها على لجنة الامتحان لتحديد المرحلة المناسبة لمعلوماته .

٥ – ألا يقل سن الطالب فى غير الدراسات الجامعية عن ١٢ سنة ولا يزيد عن ٢٠ سنة بالنسبة للسنة الأولى من القسم الإعدادى بمعهد البعوث الإسلامية والمعاهد الأزهرية .

٦ – يلحق بجامعة الأزهر الطلاب الحاصلون على الشهادة الثانوية الأزهرية أو ما يعادلها أما الحاصلون على شهادة الثانوية العامة أو ما يعادلها فتطبق عليهم الشروط التى يقرها مكتب تنسيق الجامعات بوزارة التعليم العالى ويتم التحاقهم بجامعة الأزهر عن طريق إدارة الوافدين بوزارة التعليم العالى .

٧ – مقدار المنحة الشاملة التى تصرف للطالب المقيد على منح الأزهر فى كل شهر هى :

٢٥ ج للطلاب المقيدين بالدراسات الخاصة أو معهد البعوث أو المعاهد الأزهرية وتصرف من تاريخ الوصول .

٢٠ ج للطلاب المقيدين بجامعة الأزهر ، وتصرف من تاريخ الوصول .

٢٥ ج للطلاب المقيدين بالدراسات العليا (بجامعة الأزهر) وتصرف من تاريخ الوصول .

٨ – يخصم من المنحة المقررة شهريًّا الرسوم المقررة للإقامة والتغذية من الطالب المقيم فى مدينة البعوث الإسلامية ، بناء على رغبته ، والإقامة مقصورة على الذكور فقط ، ولا توجد مساكن للفتيات .

٩ – نفقات السفر إلى جمهورية مصر العربية على حساب الطالب ، عدا طلاب أفريقيا فقط ، أما نفقات العودة فعلى حساب الأزهر .

١٠ – تصرف منحة شهر لكل طالب أنهى دراسته عند سفره مع تذكرة العودة .

١١ – تصرف للطالب الذى يفد من بلده على منح الأزهر عشرة جنيهات مصرية وقت وصوله إلى جمهورية مصر العربية لأول مرة كبدل استعداد .

١٢ – يصرف بدل كتب للمنح الجامعية (فقط) مقداره خمسة عشر جنيهاً مصريًّا وقت وصول الطالب لأول مرة فقط .

عبد السلام الشبراوى
الأمين المساعد
لمجمع البحوث الإسلامية

* * *

وفيما يلى إجمالى المنح الدراسية المقترحة لعام ١٩٧٩ .

المنطقة	معاهد	جامعة	دراسات عليا	المجموع
الوطن العربى	٢٠	٣٣	١٢	٦٥
أفريقيا	١٣١	—	—	١٣١
آسيا	٦٤	٢٤	٣٥	١٢٣
أوروبا	١٠	٥	٥	٢٠
أمريكا	٥	—	—	٥
المجموع	٢٦٤	٦٢	٥٢	٣٧٨

« الوطن العربى »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
السودان	١٠	٠٠	٠٠	لأبناء جنوب السودان .
(٣٠)	٠٠	١٠	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل
يتم الترشيح على هذه				الثانوية الأزهرية ويفضل
المنح عن طريق أمانة				أبناء منطقة دارفور .
مصر بالسودان	٠٠	٠٠	١٠	للحاصلين على مؤهل يعادل
				الشهادة العالية الأزهرية .
اليمن الشمالية	٠٠	١٠	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل
(١٠)				الثانوية الأزهرية .
سوريا	٠٠	٥	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل
(٥)				الثانوية الأزهرية .
لبنان	٠٠	٥	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل
(٥)				الثانوية الأزهرية .
الصومال	١٠	٠٠	٠٠	
(١٠)				
المغرب	٠٠	٣	٠٠	البرنامج الثقافى
(٣)				
تونس	٠٠	٠٠	٢	» »
(٢)				
چيبوتى	٠٥			عن طريق السفارة
(٥)				
المجموع (٧٠)	٢٥	٣٣	١٢	

« أفريقيا »

البلد	معاهد	الشروط
تنزانيا	١٠	عن طريق المركز الإسلامى بدار السلام .
(١٠)		
أوغنـــدا	١٠	عن طريق السفارة العربية .
(١٠)		
فولتا العليا	٣	عن طريق السفارة العربية .
(٣)		
نيجيريـــا	٣	للرابطة الأهلية لمؤسسة المدارس العربية النيجيرية تخصص أحداها لمحمد المدنر محمد الكبير .
(٢٥)		
	٢	لجمعية سعود الإسلام — أبادين .
	٢	لخريجى مركز التعليم العربى — أجبجى .
	٢	دار التعليم العربى فى لاجوس .
	٢	لخريجى قسم الدراسات العربية والإسلامية فى أبادين .
	٢	لخريجى مدرسة العلوم العربية أجبيو أودى .
	٢	لخريجى المدرسة العربية للرابطة الأهلية .
	٢	للمعهد العربى النيجيرى — أبادين .
	٢	لجماعة أنصار الإسلام .
	٢	معهد ألون الدينى .
	٢	معهد مركز التعليم الإسلامى .
	٢	تخصص لروضة الدراسات الإسلامية والعربية .
المجموع (٤٨)	٤٨	

« تابع أفريقيا »

البلـــد	معاهد	الشروط
ما قبلـــه	٤٨	
النيجر (١٠)	١٠	عن طريق السفارة العربية .
غانـــا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية وتخصص للمدرسة النورية لتعليم اللغة العربية شمال غانا .
غينيـــا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
سيراليون (١٠)	١٠	عن طريق السفارة العربية ويخصص منها ٤ منح تشغل بمعرفة الحاج محمود فوفانا إمام القوات المسلحة ومنحتان لتدريب اثنين من أئمة المساجد .
السنغال (١٠)	١٠	عن طريق السفارة العربية .
ساحل العاج (٥)	٥	تشغل عن طريق اتحاد طلبة ساحل العاج . وبمعرفة الشئون الأفريقية .
الكنغو برازافيل (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
الكنغو كينشاسا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
الكاميرون (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
المجموع (٩٣)	٩٣	

« تابع أفريقيا »

البلد	معاهد	الشروط
ما قبلــه	٩٣	
بورنــدى (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
سلطنة الأوما (٥)	٥	عن طريق الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية
أثيوبيــا (٥)	٥	عن طريق الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية
ناميبيا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
أريتريا (٥)	٥	عن طريق الشئون الأفريقية .
تشاد (٥)	٥	عن طريق السفارة العربية
داهومى (بنين) (٢)	٢	وتخصص للمدرسة السعيدية الإسلامية فى بيرنتونو (عن طريق السفارة العربية) .
مدغشقر (٢)	٢	للجمعية الإسلامية الملجاسية .
كينيا (٢)	٢	عن طريق المجلس الأعلى لمسلمى كينيا .
بــيرو (٣)	٣	طبقًا للاتفاقية وتشغل عن طريق السفارة العربية . أمريكا اللاتينية – احتياطى .
المجموع (١٢٦)	١٢٦	

« تابع أفريقيا »

البلد	معاهد	الشروط
ما قبـــله	١٢٦	
أفريقيا الوسطى	٣	عن طريق السفارة العربية
غينيا بيساو	٢	عن طريق السفارة العربية
غينيا الاستوائية	٢	عن طريق السفارة العربية
ليبريـــا	٣	عن طريق السفارة العربية
موريشيوس	٣	عن طريق السفارة العربية
جنوب أفريقيا	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
موزمبيق	٢	عن طريق السفارة العربية
زامبيا	٢	عن طريق السفارة العربية
بوتسوانا	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
رواندا	٢	عن طريق السفارة العربية
التوجو	٢	عن طريق السفارة العربية
الجابون	٢	عن طريق السفارة العربية
الرأس الأخضر	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
ناميبيا	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
مـــالى	٣	عن طريق السفارة العربية
المجموع (١٦٠)	١٦٠	

« آسيا »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
الفلبين (١٠)	١٠	—	—	تشغل عن طريق سفاراتنا العربية ويخصص منها منحتان لمعهد زمبونجا الإسلامى ومنحتان لمدرسة التبليغ الإسلامى ومنحتان لمعهد العلوم الدينى العربى بمدينة ماراوى .
الهنـــد (٢٠)	—	—	١٠	عن طريق سفارتنا العربية
	٥	—	—	للكلية الإسلامية كوتبادى — كيرالا — الهند .
		٥		عن طريق السفارة .
باكستان (٥)	—	—	٥	عن طريق سفارتنا العربية
أفغانستان (٥)	—	—	٥	عن طريق سفارتنا العربية
ماالديف (٢)	٢	—	—	عن طريق سفارتنا العربية
سنغافورة (٣)	٣	—	—	عن طريق جمعية الدعوة الإسلامية بسنغافورة
بنجلاديش (٥)	٥	—	—	عن طريق السفارة العربية
كمبوديا (١٠)	١٠	—	—	عن طريق اللجنة (الأزهر)
المجموع (٦٠)	٣٥	٥	٢٠	

« تابع آسيا »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
ما قبلـــه (٦٠)	٣٥	٥	٢٠	
إيـــران (٥)	—	—	٥	عن طريق السفارة .
سيرلانكا (٢)	٢	—	—	عن طريق السفارة .
الصين (٥)	٥	—	—	لأبناء المسلمين الصينيين فى منطقة جنوب شرق آسيا . (الأزهر)
أندونيسيا (٢٥)	—	—	٥	لخريجى الكلية الإسلامية فى جاكرتا .
	—	٥	—	تشغل عن طريق وزارة الشئون الدينية للسادة المدرسين لدراسة اللغة العربية .
	٢	—	—	تخصص للمدرسة الشافعية بجاكرتا .
	٣	—	—	تخصص للمدرسة الطاهرية بجاكرتا .
	٢	—	—	للمدرسة الشطورية .
	—	٨	—	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية من طريق وزارة الشئون الدينية .
المجموع (٩٧)	٤٩	١٨	٣٠	

« تابع آسيا »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
ما قبله (٩٧)	٤٩	١٨	٣٠	
ماليزيا (٢١)	—	٣	—	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانويةالأزهرية من خريجى المعهد المحمود بقدح .
	—	٢	—	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية من خريجى الجمعية الخيرية الحليمية .
	—	٥	—	لخريجى الكلية الإسلامية .
	—	—	١٠	للحاصلين على مؤهل يعادل العالية الأزهرية .
	—	١	—	للطالب مروان عبد الجليل بالسنةالثالثةبكليةأصول الدين
تايلاند (١٥)	٥	—	—	للمعهد العلمى الدينى نونج شوك .
	١٠	—	—	توزع على المعاهد الآتية : معهد رضوان الإسلام ، مدرسة مفتاح العلوم الدينية محافظة نارانبواس ، محافظة ستوك ، محافظة سونكلا ، محافظة فنانى ، ومحافظة جالا
المجموع (١٣٣)	٦٤	٢٩	٤٠	

« أوروبا وأمريكا »

البلـــد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
تركيا (٥)	—	—	٥	عن طريق سفارتنا .
روسيا (٢)	٢	—	—	عن طريق سفارتنا .
إستراليا (٢)	٢	—	—	عن طريق سفارتنا .
أمريكا (٥)	٥	—	—	لأبناء المسلمين يخصص منها ثلاث منح لجمعية بافالو والباقى عن طريق جمعية إحـيـاء التراث الإسلامى بالقاهرة .
إنجلترا (٥)	٥	—	—	لأبناء المسلمين عن طريق جمعية إحـيـاء التراث الإسلامى بالقاهرة .
يوغوسلافيا (٥)	—	٥	—	لأبناء المسلمين عن طريق جمعية إحـيـاء التراث الإسلامى بالقاهرة .
ألمانيا الغربية (١)	١	—	—	وتخصص للطالب ، محمد عاطف فيشى .
المجموع (٢٥)	١٥	٥	٥	

كتاب الشهر

مِن مشاغبات المبشرين

النشرة رقم "٢" بالسنغال

دكتور / عبد الفتاح بركة

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » .

آل عمران : ٦٩ — ٧١

«قل : ياأهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل : ياأهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداءُ وما الله بغافل عما تعملون » .

آل عمران : ٩٨ — ٩٩

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون».

الأنبياء : ١٨

تلقينا صورة من تلك النشرة التى يقوم بتوزيعها — باللغة الفرنسية على بيوت المسلمين ونسائهم فى السنغال — نساءٌ تابعات لإحدى الجمعيات التبشيرية ، وهن يحاولن بذلك إقناع السيدات المسلمات بالارتداد عن دينهن إلى دين آخر ، هو تلك المسيحية التى يدينون بها .

وليس يسوؤنا أن يدعو أهل حق إلى حقهم ، إذا كانوا يلتزمون آداب الدعوة الصحيحة ، ولكننا يسوؤنا الخلط المتعمد ، وإلباس الحق بالباطل ، والتلاعب بالألفاظ ، وتحريفها عن مواضعها ، والتطاول بغير حق على مقامات الأنبياء والرسل ، واستغلال براءة الوادعات الآمنات المطمئنات فى بيوتهن لبث مشاعر الحيرة والقلق بينهن ، وزعزعة عوامل اليقين والطمأنينة فى قلوبهن .

ولقد كنا نظن بعد أن قطعنا معظم القرن العشرين ، وكدنا نوفى على نهايته ، أن المبشرين المسيحيين قد يئسوا من استعمال تلك الأساليب البالية العتيقة التى طالما استعملوها من وسائل التضليل والمغالطة التى تصل فى كثير من الأحيان إلى حد الكذب الصريح .

وكنا نظن أن جهودهم التى يبذلونها لهدم الإسلام — وهو مصدق لدين عيسى عليه السلام — سوف يحتاجونها لمقاومة الإلحاد العالمى الذى يقرع عليهم أبوابهم صباح مساء ، حتى فى عقر ديارهم ، ومعاقل كنائسهم ، ليهدم مع ما يهدم مسيحيتهم ودينهم وكنيستهم .

وكنا نظن أنهم — كما يدعون — يطلبون وُدّ المسلمين ليتعاونوا معًا فى مقاومة هذا التيار الإلحادى الجارف .

لكن هذه الظنون الطيبة جميعها قد خابت تحت ضربات مثل هذه النشرة التبشيرية . فهذه النشرة – التى بين أيدينا – تدل على أن أسلوبهم فى تزييف الحقائق ، وتزيين الباطل ، وتحريف كلام الله ، والافتيات على أنبيائه ورسله ، وبث الشبهات والترهات بين الغافلين والغافلات ، ما يزال هذا الأسلوب هو أسلوبهم المفضل ، حتى ونحن فى نهاية القرن العشرين .

كما تدل هذه النشرة – التى بين أيدينا – على أنهم ما زالوا يرون فى عيون الآخرين ما يرونه قذًى كقذى القشة ، ولا يدركون النخلة التى تترعرع فى عيونهم ، ويعتبرون الإسلام – وهو مصدق لدين عيسى عليه السلام – هو عدوهم الأول ، فيها جمونه فى بيته ، بينما لا يكادون يعيرون التفاتًا للإلحاد العالمى وهو ينخر داخل بيوتهم ، حتى كاد أن يأتى عليها من القواعد .

وكما تدل هذه النشرة – التى بين أيدينا – على أنهم ما يزالون يتبعون أسلوب المراوغة والنفاق والكذب حين تدوى طبول دعايتهم فى كل مكان تخطب وُدّ المسلمين لكى يقفوا جنباً إلى جنب فى مقاومة الإلحاد العالمى ، ويعقدون لذلك المؤتمرات والندوات ، ويوجهون الدعوات والرحلات ، ثم يلتفون على المسلمين والمسلمات بمثل هذه النشرات ، وبغيرها من الوسائل الملتوية الآثمة .

ونحن بحكم ديننا لا نجاريهم فى مثل هذا العبث وهذا السفه ، ولذلك فسوف نناقش هذه النشرة بأسلوب هادئ ، رغم ما فيها من وقاحة وحماقة ، وجهالة لا تليق بمن يدعو إلى دين ، مهما يكن هذا الدين .

وننقل إلى قرائنا هنا نص هذه النشرة لسببين (١) :

الأول : أن يكون القارئ على بينة مما نتناقش فيه ، وأن يعلم أننا لا نفتات عليهم فى شىء ولا نسلك مسلكهم فى الالتواء والتلبيس وأننا نواجه الحقيقة مباشرة بغير لف ولا دوران .

الثانى : أن كثيراً من الكتاب الذين يكتبون هذه الأيام مطالبين صراحة أو إشارة بتطبيق الشريعة الإسلامية رجاء أن يصلح الله أحوالنا يصبحون وقد وصلتهم رسالة موقعة بتوقيع مجهول ، فيها كثير من الأفكار التى وردت فى هذه النشرة .

---

(١) وقد تحدثت عن هذه النشرة مجلة الدعوة المصرية فى عدد رمضان ١٣٩٨ هـ تحت عنوان « التبشير يتطاول على الإسلام والمسلمين » .

ترى هل هذه الرسائل المجهولة التوقيع من بعض رفاقنا فى الوطن من المسيحيين ! ؟ أم هى من دخلاء يريدون أن يفسدوا بالدس الرخيص بين أبناء الوطن الواحد ! ؟

على كلٍّ ، فإن نشر هذه النشرة والرد عليها يفيدهم ويرشدهم إلى الحقيقة إن كانوا بها جاهلين ، ويفحمهم وينبههم إن كانوا من العابثين والمفسدين.

تقول النشرة :

أىّ الاثنين أقدر ! عيسى أم محمد[1] ؟

يتفق كل من المسلم والمسيحى فى عدة نقاط مذهبية ، فيعترف الاثنان أن هناك إله واحد خالق للبشرية : خلق آدم ومن بعده حواء ، اللذان أخطآ بفعل الشيطان ، وأن الله أرسل عدة أنبياء ورسل إلى البشرية لتعليم الإنسان الفرق بين الخير والشر ، ومن بين المرسلين : نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وداود .. إلخ ، وأن الله منح البشرية من خلالهم التوراة والأسفار ، ثم أرسل عيسى الذى حمل للبشرية الإنجيل ، ويتفق المسلم والمسيحى فى كل ذلك .

ولكن إخواننا المسلمين يذهبون إلى أكثر من ذلك، فهم يضيفون : أن بعد عيسى جاء محمد ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأعظمهم ، وأن دينه هو دين الحق ، وأن من يتبعه سوف ينجو من يوم الحساب ، ويجيب المسيحيون ويقولون : لا ، لأن عيسى هو خاتم الأنبياء ، وأنه أعظمهم وأفضلهم ، وبفضله فقط تنجو البشرية .

لهذا يكون الفرق بين وجهتى النظر هو أن المسيحى يؤكد أن عيسى هو خاتم الأنبياء ، فى حين أن المسلم يصر على العكس : أنه محمد . . فلماذا لا نقارن بين وجهتى النظر ، ونتقبل أعظمهما شأناً ؟

١ — بالنظر إلى مرحلة الولادة . . نجد أن محمداً ولد عن أب اسمه : عبد الله ، وسيدة اسمها : آمنة ، ولم يكن هناك شىء عظيم يبشر بولادته ، وظل بعد ولادته عدة سنوات ، لم تحدث خلالها معجزة ، حتى بلغ من العمر الأربعين عاماً ، حيث ادعى نزول الملاك جبريل عليه ، وتحدثه معه ، ولكن حتى هذه اللحظة لم يكن هناك ما يبشر بأن محمداً سيكون نبياً من العظماء ، وصحيح أن بعض الجهلة من المسلمين يروون القصص الخرافية حول

(١) ليست الترجمة إلى العربية لكاتب هذا المقال .

ولادة النبى محمد ، ولكن المسلم الذكى لا يجهل أنه لا يوجد فى القرآن مثل هذه الخرافات ، وأن هذه الأساطير ألّفت فيما بعد . . أما عن عيسى فتأتى ولادته معجزة ، كما يعترف بذلك القرآن فى سورة مريم الآية ١٨ (عن ترجمة بمبرسكى إلى الفرنسية) فإننا نقرأ: أن جبريل ظهر لمريم التى قالت فى حالة من الرعب تبحث مأمن بجانب الرحمن فرد عليها قائلا « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً » فقالت له : كيف ذلك وإنى لم أعاشر رجلا وما زلت عذراء ؟ فرد عليها قائلا: هذه إرادة الله ليكون دليلا أمام الإنسان .

إن القرآن يشير صراحة إلى أن جبريل الذى أرسله الله لمريم لينبىء بمجىء المسيح ، وأنها ولدته دونما علاقة بأى رجل ، وفى سورة الأنبياء كذلك إشارة إلى مريم ومعجزة ولادة المسيح .

فيا أيها المسلمون : إنكم تدعون أن القرآن كلام الله ؟ لذلك فعليكم : أن تعترفوا بأن ولادة المسيح كانت تمثل حادثاً عظيماً . . إن المسيحيين لا يقبلون القرآن ، ولكنهم يتقبلون الإنجيل الذى تنبأ بهذا الحدث ، وقد قال أحد أبناء النبى يعقوب قبل ولادة المسيح بـ ٧٠٠ سنة « سوف تنجب العذراء ابنا ستسميه عمانويل » وقصة هذه المعجزة مذكورة أيضاً فى إنجيل لوقا (٢٨٠١ — ٣٦) « لقد دخل الملاك فى المكان الذى تتواجد فيه مريم وقال لها : السلام عليك أنت يامن اختارك الله ، واضطربت مريم لهذا الكلام ، وتساءلت عما يعنيه ، فقال لها الملاك : لا تخافى يا مريم ، لأن الله اختارك فسوف تصبحين حاملا وتلدين طفلا وتسمينه عيسى ، وسوف يعرف بابن الأعلى ، والسيد الإله سوف يعطيه عرش والده داود ، سوف يحكم بيت يعقوب أبديا ، ولن يصل حكمه إلى نهايته أبدا ، فقالت مريم : كيف ذلك وأنا لم يقربنى رجل أبدا ، فرد الملاك قائلا : إن الروح القدس سوف تأتيك ، وسوف يحميك الإله الأعلى برداء ظله ! ولذلك سيطلق على من تلدينه إنه ابن الإله » .

ويتفق كل من القرآن والإنجيل على معجزة ولادة عيسى ، فالفرق بين محمد وعيسى إذن : هو أن الأول ولد كسائر البشر فى حين أن الثانى كانت ولادته معجزة إلهية .

٢ — وبالنظر إلى الناحية الفكرية التى ستظهر لنا الفرق بين الرسولين

نجد أنه بفعل ولادته كسائر البشر ورث محمد من البشر طبيعتهم الآثمة ، ويوضح لنا القرآن بما لا يدعو إلى الشك ما نقوله . خاصة فى سورة الضحى الآية السابعة « ووجدك ضالا فهدى » ، وفى سورة غافر يقول القرآن فى الآية ٥٤ « واستغفر لذنبك » . وفى سورة النصر يقول القرآن فى الآية ٣ « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابـًا » وفى سورة الفتح الآية ٢ يقول القرآن « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

وتشير هذه الاستشهادات بنصوص القرآن إلى أن محمداً كان آثما ، مثله فى ذلك مثل بقية البشر .

أما عيسى فكون ولادته معجزة فلا بد أنه ورث طبيعة طاهرة لا غبار عليها ، ومن القرآن ذاته نستطيع أن نجد الدلائل على ذلك ، ففى القرآن يطلب الأنبياء جميعهم من الله الغفران ، أى أنهم يعترفون بإله واحد ، وبأنهم أخطئوا ، وبأنهم يطلبون المغفرة من الإله الواحد .

أما عن عيسى فجدير بالذكر أن القرآن لم يذكر أبداً أن عيسى قد أخطأ ، بل على العكس كما جاء فى سورة النساء ، آية ١٧١ يقول « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » وفى سورة آل عمران الآية ٤٥ يقول « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن عيسى كلمة الرب وروحه ويجب أن يكون كاملا وهو طاهر ، ويؤكد الإنجيل هذا الكلام ، فقد نزل جبريل على مريم قبل ولادته يبشر بالروح المقدسة (لوقا ١ : ٣٥) وقد قال عيسى بنفسه : « أنا مطيع لمن أرسلنى » (يوحنا ٨ : ٢٩) وعن أعدائه كان يقول : من منكم يقنعنى بالذنب (يوحنا ٨ : ٤٦) كما قال أيضـًا « إن الشيطان آت وهو أمير هذا العالم ولكنه لن يجد فى وسيلة » (يوحنا ١٤ : ٣) وفى رسالة القديس بطرس الأولى قيل إنه كان لايذنب ولا يخطئ وهكذا يتأكد لنا الفرق بين محمد وعيسى فى هذه النقطة الثانية ، وهى أن محمداً كان كسائر البشر مذنبـًا فى حين أن عيسى كان طاهراً .

٣ — أما النقطة الثالثة : التى توضح الفرق بين الرسولين فهى أن عيسى قام بعدة معجزات ، فى حين أن محمداً عجز عن ذلك ، وصحيح أن المسلمين يقولون

إنه قسم القمر نصفين وعدة معجزات أخرى ، ولكننا بالتعمق والدراسة نكتشف أن قصص هذه المعجزات كتبت بعد مضى قرون من وفاة الرسول محمد ، ولذلك لا نستطيع تصديق هذه القصص ، فمثلا إذا قيل لنا : إن فلانا أعاد البصر لأعمى منذ ٢٥ عاماً ، فمن الممكن التحرى لدى أشخاص عاصروا الواقعة ، أما إذا كان الحدث يرجع إلى أكثر من ١٥٠ عاماً ، فكيف يكون من الممكن التحرى عن صحة الرواية وبدون الرجوع لأشخاص قد عاصروا الحدث أو وجود أدلة تثبته يصعب على المرء أن يتقبله ، وبذلك ليس هناك ما يثبت صحة قيام محمد بمعجزات ، وبما أن محمداً قال بنفسه إنه لم يقم بمعجزات ، فعلينا أن ننظر إلى هذه القصص كروايات لها طابع أسطورى ، وذكر فى القرآن أن الكفار طلبوا من محمد دليلا فرد عليهم بأن الله لا يحتاج إلى دليل ، ولن نذكر فى هذا الصدد سوى آيتين ففى سورة العنكبوت الآية ٥٠ « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » وكذلك فى سورة الإسراء الآية ٥٩ قوله « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » هنا أيضاً يؤكد القرآن أن محمداً لم يقم بمعجزة بين من عاصروه ، بل على العكس كانت حياة عيسى مليئة بالمعجزات ، فقد كان يعيد البصر إلى الأعمى والسمع للأصم ، ويعيد الأعرج إلى طبيعته ، ويطهر من أصابه الجذام ، وشفى كثيراً من المرضى ، كما أحيا الأموات ، ومن بينهم من ظل فى تابوته أربعة أيام كان المسيح عيسى يقوم بجميع هذه المعجزات باسمه وبقدرته وفقاً للرب . فمن أثبت قدرته ورحمته التى لا نهاية لها بتلك الأعمال فهو ولا شك المنقذ الوحيد.

٤ ــ أما عن النقطة الرابعة : فهى عن الموت ، فقد مات محمد كمثل بقية البشر ، فلقد ولد مثل البشر ومات مثل البشر ، ولد فى مكة ومات فى المدينة ، وبعد موته دفن وفنى جسده ، مثل أجساد بقية البشر ، أما المسيح عيسى فكانت نهايته غير ذلك ، فيذكر القرآن فى سورة آل عمران آية ٥٥ « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى » وفى سورة مريم الآية ٣٣ « والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » وفى سورة المائدة آية ١١٧ « وكنت عليهم رقيباً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم »

وفى سورة النساء الآية ١٥٧ « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » « بل رفعه الله إليه » وإذا كانت هذه الرواية صحيحة فعلى المسلمين الاعتراف بأن عيسى رفع إلى الله حياً، فى حين أن محمداً قد مات، وعاد جسده إلى التراب، فمن من الرسولين يكون هو المنقذ الذى مات ، أم الذى ما زال حياً ؟ ؟

ولكن فى الإنجيل مكتوب أن عيسى مات ، وأن الرومان قد صلبوه ، ومات بعد ست ساعات ، ووضع جسده فى المقبرة . ويقول البعض : ربما ، وما دام الاثنان قد ماتا فما الفرق بينهما ؟ إن الفرق هو أن محمداً قد مات ودفن فى حين أن عيسى قد رفع إلى ربه ، فقد خرج من قبره فى اليوم الثالث حياً ، وقد كتب الإنجيليون الأربعة متى ولوقا ومرقص ويوحنا قصة المسيح واتفق الأربعة على أنه خرج من قبره ، وظهر لعدة أشخاص ، وفى فجر يوم الأحد عندما ذهب النساء لتكفين الجسد وجدن القبر فارغاً ومفتوحاً ، فظهر لهن ملاكان يقولان لهن : « لا تخفن فأنا أعلم أنكن تبحثن عن المسيح الذى صلب ، إنه ليس هنا ، فإنه أعيد إلى الحياة كما كان قد قال، تعالوا وانظروا إلى المكان الذى رقد فيه ، واذهبوا لتبشروا أنصاره بعودته إلى الحياة » (متى ٢٧ و ٦ و ٧) ثم ظهر عيسى بعد ذلك أمام النساء ، ثم بطرس ، ثم إلى بقية القديسين ، وظهر أيضاً لعدد كبير من أتباعه ، كما ظهر أمام ٥٠٠ شخص مجتمعين فى مكان واحد ، وبعد بعثه ظل أربعين يوماً على الأرض كان جسده غير عادى ، فكان يستطيع الذهاب إلى أى مكان دخولا وخروجاً دون أن يراه أحد . وأخيراً قاد أتباعه إلى جبل بالقرب من القدس ، حيث باركهم ، وبعد ذلك صعد إلى السماء أمامهم ، وقد يتساءل بعضكم لماذا مات عيسى فى حين أن ولادته كانت معجزة وأنه كان طاهراً ويقوم بالمعجزات ؟ وإذا كان فعلا أعظم الرسل فلماذا لم ينقذه الرب من أيدى اليهود ؟ إن عيسى كان طاهراً ولكن بما أن الموت هو جزاء كل خطيئة ، فقد أخذ عيسى المسيح خطايا البشرية كلها ، ودفع جزاء هذه الخطايا ولهذا مات عيسى ، وقد قال عنه أحد أبناء إسحق « أنه كان جريحاً بخطايانا ومحطم بآثامنا » كما قال عيسى بنفسه « لقد جئت لأضحى بحياتى لعديد

منكم » فى الإنجيل مكتوب « أنه حمل خطايانا فى جسده على ألواح الصليب » لقد تحمل المسيح الخطايا وهو الطاهر .

لعلكم أيها المسلمون تستطيعون أن تحكموا الآن مَنْ مِنَ الاثنين يستطيع أن ينقذنا ؟ محمد أم عيسى ؟ محمد ولد مثل بقية البشر من أب اسمه: عبد الله ، وأم اسمها : آمنة ، ولم يبشر أى ملاك بمجيئه لأبيه أو لأمه ، ولكن جبريل تحدث عن المسيح عيسى حتى قبل أن يولد ، لقد خلق من الروح القدس ، فى جسد مريم ، وسمى « بروح الله » و « كلمة الله » لقد اعترف محمد بأنه كان آثما ، وكان كبقية الخلق فى ولادته ، وتزوج عدة مرات وكان له زوجات عدة فى وقت واحد ، ومن بينهن السيدة زينب التى طلقها زيد ابنه بالتبنى ، كما تسبب محمد فى قتل عدة أشخاص ، أما عيسى فقد جاء على الأرض لينقذ البشرية ، فلم يتزوج أبدا ، ولم يقتل أحداً ، فهو لم يأت ليقتل ، بل لينقذ ، ولم يأت آثاما لا بالقتل ولا بالفكر .

ياأيها الإخوة المسلمون . . فيمن تريدون أن تضعوا أقداركم ، فى محمد المذنب؟ أم عيسى الطاهر ؟ مَنْ مِنَ الاثنين سينقذكم ؟ كيف يستطيع المذنب أن ينقذكم من ذنوبكم ؟ هل من الممكن للأعمى أن يقود الأعمى ؟ إن الذى لم يخطىء هو الذى يستطيع أن أن ينقذكم من جراء ذنوبكم .

إن محمداً لم يأت أبدا بمعجزات ، ولكن عيسى قام بالأعمال العظيمة ، إن الذى أبصر الأعمى وأحيا الموتى يستطيع أن يخلصكم من ذنوبكم . وأخيراً مات محمد وعاد جسده إلى التراب ، أما عيسى برغم موته جزاء لخطايانا فهو ما زال حيًّا ، حتى هذه اللحظة ، فقد بعث من قبره حياً لينقذ شعبه ، ويتوسط للمذنب ، فهل محمد يستطيع أن يتوسط لكم ؟ وكيف يقبل القاضى وساطة متهم لمتهم آخر ؟ من الضرورى أن يكون الوسيط مقدساً وعادلا ، وهذا الوسيط هو المسيح عيسى فلقد قال يوحنا فى إنجيله : « إن أذنب شخص فله محام أمام الله هو عيسى المسيح العادل ، فهو بنفسه ضحية ذنوبنا ، وليس ذنوبنا فقط بل ذنوب البشرية جمعاء » (يوحنا ٢ — ١٢) وقال قديس آخر « إن عيسى يستطيع أن ينقذ كل من يتقرب إلى الله من خلاله « ياأيها الإخوة احتموا بالمسيح عيسى وضعوا فيه ثقتكم واقبلوه كمنقذكم

الأوحد ، وسوف تحصلون على الغفران ، وتنقذون إلى الأبد » .

اسمعوا المسيح نفسه وهو يقول لكم « تعالوا إلى أنتم يا من اعتلاكم المرض ووطأة الزمن ، وسوف أمنحكم الراحة ، تحملونى واتبعوا بيناتى لأننى ذو قلب رحيم تجدون راحة أرواحكم » (متى ١١ و٢٨ و٣٠) فموته يمنحنا الغفران لذنوبنا وبمعونته يمنحنا القوة لمحاربة الشيطان أنه سيبعد عنكم الأذى ، ويوسط لكم أمام الرب ، وفى يوم الحساب سيستقبلكم كشعبه ، ويدخلكم السماء فى السعادة الأبدية حيث قال : « أنا الصراط والحقيقة والحياة ولن يصل أحد إلى الأب (الله) إلا عن طريقى » (يوحنا ٦ و١٤) إنه هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى السماء ، وإذا تقبلتموه كمنقذكم وسيدكم فسوف تنقذون من الهلاك ، وسيصحبكم إلى الأبد فى الجنة » . انتهت النشرة .

* * *

ولقد بدأت النشرة بذكر نقاط تدعى أن كلا من المسلم والمسيحى يتفق عليها فتقول : إن كلا منهما « يعترف أن هناك إلهاً واحداً خالقاً للبشرية ، خلق آدم ، ومن بعده حواء ، الذين أخطآ بفعل الشيطان ، وأن الله أرسل عدة أنبياء ورسل إلى البشرية لتعليم الإنسان الفرق بين الخير والشر ، ومن بين المرسلين : نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وداود . . إلخ . وأن الله منح البشرية من خلالهم التوراة والأسفار ، ثم أرسل عيسى الذى حمل للبشرية الإنجيل ، ويتفق المسلم والمسيحى فى كل ذلك » .

وبعد أن تُوهم النشرةُ المسلمين باتفاق المسيحيين معهم فى هذه النقاط يكون من المنطقى أن تنتقل إلى نقاط الخلاف لمناقشتها وتصفيتها .

فياترى : ما هى نقاط الخلاف التى تراها النشرة . . إنها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟؟

ونحن نقول لهم بادئ ذى بدء : إننا لا نخسر بهذا الخلاف شيئاً ، لأننا نؤمن بعيسى ، وهم يعترفون لنا بذلك ، أما هم فلا يؤمنون بمحمد ، فخلافنا هنا لا يضرنا نحن ، بل يضرهم هم .

ثم نقول لهم : هل ناقشت النشرة هذه النقطة وبحثت إذا كان محمد نبياً حقاً ! ؟ أم دخلت فى أساليب أخرى بعيدة عن لب الموضوع وجوهره ! ؟

لقد لجأت النشرة إلى الطريقة الثانية ، ودخلت فى أساليب تشبه أساليب الأطفال عندما يتحدى بعضهم بعضاً ،

فوضعت كلا من عيسى ومحمد عليهما السلام موضع الخصمين المتنافسين ، وطلبت من المسلمين أن يقفوا موقف الحكم الذى يقارن بينهما ليحكم أيهما أولى بالنبوة والاتباع ؟

فهل — ياترى — يعتقد هؤلاء المبشرون أن المسلمين ينكرون نبوة عيسى عليه السلام فى سبيل إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ! ؟

وهل — يا ترى — هبط مقام الأنبياء والمرسلين عندهم إلى هذا الحد لكى يضعوهما موضع المقارنة والتفضيل ! ؟

وهل — ياترى — أمرهم دينهم أن يتطاولوا على مقام الأنبياء مثل هذا التطاول ! ؟ اللهم : إننا نبرأ إليك من ذلك ! !

وهل — ياترى — يكون أسلوب المقارنة هو الذى يحكم على نبوة محمد بالصدق ! ؟ أم أن هذا أسلوب فى التأثير النفسى بعيداً عن الحق والمنطق الصحيح ! ؟

ومع ذلك ، فتعالوا — معشر المبشرين — نجاريكم فى الحديث ، ونناقش كل ما قدمتموه ، ونضعه على محك العقل الصحيح ؟

فعن ما ادعيتموه من نقاط الاتفاق بينكم وبين المسلمين :

هل صحيح أنكم تتفقون مع المسلمين فى الإله الواحد الذى خلق البشرية ! ؟

إن الإله عند المسلمين واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فليس أبا لأحد ، وليس ابناً لأحد ، ولا يشاركه فى ألوهيته أحد لا من المادة ولا من الروح ولا من غيرهما .

فهل إلهكم الذى تدينون له بالألوهية كذلك ؟ !

مدى علمنا : أنه ليس كذلك ، وأنه عندكم يمكن أن يكون أباً ، ويمكن أن يكون ابنا ، ويمكن أن يتجسد فى جسم ، ويمكن أن يكون روحاً قدساً ؟ ويمكن أن يكون واحداً ؟ ويمكن أن يكون له ثان وثالث ، وكل ذلك عندكم شىء واحد ! ؟

فكيف تدعون : أن المسلم والمسيحى يتفقان على ذلك ! ؟ وهل هذه الدعوى من الصدق الذى يجب عليكم التزامه ! ؟

ثم : هل صحيح أنكم تتفقون مع المسلمين فى أن الله أرسل إلى البشرية رسلا منهم : نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وداود — عليهم السلام — وأن الله أرسل عيسى للبشرية بالإنجيل ! ؟

— إن عيسى عليه السلام — عند المسلمين — رسول من رسل الله ، مثله كمثلهم فى

البشرية ، ومثله كمثلهم فى أنه عبد مخلوق لله ، شرفه الله — كما شرفهم — بالرسالة ، وآتاه من المعجزات كما آتاهم ، وأوحى إليه كما أوحى إليهم فليس إلهًا ، ولا ابن إله ، ولا جسما حل فيه إله ، ولا تجسم من إله .

فهل عيسى — عليه السلام — كذلك عندكم ! ؟

— مدى علمنا : أنه ليس كذلك ، وأنه عندكم يمكن أن يكون إلهًا ، ويمكن أن يكون ابن إله ، ويمكن أن يكون محلا أو تجسما لإله ، وكل ذلك فى ذات عيسى الذى ليس شيئًا سوى الإله نفسه — كما تدعون .

فكيف — بعد ذلك — تدعون أنكم تتفقون مع المسلمين فى عقيدتهم فى المسيح عليه السلام ؟ وهل ذلك من الصدق الذى يجب عليكم التمسك به ! ؟

ماذا بقى مما ذكرتموه من نقاط الاتفاق ! ؟

— أن الله خلق آدم وحواء ، وأنهما عصيا الله فأخرجهما من الجنة .

نعم ! لكنكم تزيدون على ذلك أسطورة توريث الخطيئة ، وأن بنى آدم قد ورثوا جميعًا خطيئة آدم ، وأنهم مسئولون عنها أمام الله ، وأنهم جميعًا يستحقون عليها العقاب .

فمن أين أتيتم بهذه الأسطورة ! ؟ ولم يرد لها ذكر عند الرسل الذين ذكرتموهم؟ نوح وإبراهيم وموسى ويوسف وداود ؟ بل وعيسى نفسه عليه السلام ؟

وماذا كانت رسالة هؤلاء الرسل العظام إذا لم تكن إنقاذ البشرية من الضلال ، ومن الهلاك فى العذاب ! ! وما فائدة إرسالهم إذا لم يكن فى قدرتهم أن يفعلوا ذلك ! ! وما قيمة جهادهم إذا لم يكن من يتبعهم واثقًا من البراءة والنجاة ! ! ألم تقولوا معشر المبشرين : إن الله أرسلهم لتعليم الإنسان الفرق بين الخير والشر ؟ وما فائدة ذلك إذا كان الإثم ملازمًا له لا ينجيه منه ، ولا يطهره منه معرفته للفرق بين الخير والشر وسعيه للخير واجتنابه للشر ؟ ؟

— أظن أنه لم يعد هناك وجه واحد مما ذكرتموه — وادعيتم أننا نتفق عليه — يمكن أن يكون محلا للاتفاق ! ؟

وهذا — منذ البداية — يبين أسلوب التلبيس الذى تستعملونه فى إيهام المسلمين بأشياء تخالف الحقيقة ! ؟

وينبغى إذا أردتم الوصول إلى الحق أن تواجهوه مباشرة ، لا أن تدوروا حوله بأساليب التلبيس والمغالطة والإبهام ! ؟

ومن ذلك ما نريد أن ننتقل إليه من مقارنتكم بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - وهى مقصدكم ومطلبكم من هذه النشرة ؟

- إننا لا نوافقكم على طريقة المقارنة بين الأنبياء بهذا الأسلوب الرخيص من المزايدة ، لأن ديننا ينهانا عن ذلك ، ولأن ديننا يأمرنا بالتأدب مع الأنبياء جميعاً ، ولا يصح إسلام المسلم حتى يؤمن بالأنبياء جميعاً دون تفريق بينهم « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » البقرة ٢٨٥ ، « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » البقرة : ١٣٦ وقد علمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ذلك فقال « لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض » رواه أحمد فى مسنده - وذلك لا يمنع أن الله هو الذى فضل بعض الأنبياء ببعض أفضاله ، واختص بعضهم ببعض خصوصياته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فنحن هنا لا نجاريكم فى المقارنة ، ولكننا نتتبع كلامكم لنعقب عليه بالرد والإيضاح ، وتقويم المعوج ، وتجريد الحق من الباطل !؟

إنكم تعلمون يقيناً أن كتابنا الكريم يصف محمداً عليه الصلاة والسلام بأنه رسول الله وخاتم النبيين ، وأن الله أرسل رسله جميعاً بدينه الحق وأن الرسالة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم هى خاتمة الرسالات ، وأنها مصدقة لكافة الرسالات السابقة التى حملها رسل الله ، وأن من آمن به واتبعه فلا بد أن يؤمن بكل الأنبياء السابقين لأنهم جميعاً يصدق بعضهم بعضا ، فماذا تنكرون من ذلك ! ؟ هل تنكرون أنه خاتم الأنبياء ؟ أم تنكرون نبوته أصلا ! ؟ إن كنتم تنكرون أنه خاتم الأنبياء ، فهل تعترفون بنبى أتى بعده ! ؟ كلا ! إذن : فأنتم تنكرون نبوته أصلا ! فلماذا لجأتم إلى المناقشة فى كونه خاتم الأنبياء ! ؟

وإذا كنتم تستدلون على دعواكم فى إنكار نبوته بأن عيسى هو خاتم الأنبياء ، فنحن لا نوافقكم ، ولا دليل لكم عليه ، فمن أين جئتم به ؟ هل قاله الله لكم ! ؟ أم ذكره عيسى عليه السلام ؟ أم هل

ذكرته أناجيلكم الأربعة ؟ لا دليل عندكم على أن عيسى عليه السلام هو خاتم الأنبياء ، لا من كلام الله ، ولا من كلام عيسى ، ولا من كتابكم المقدس الذى تؤمنون به ! ؟

أما دليلنا : فكلام الله فى القرآن الذى نؤمن به حيث يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب : ٤٠ .

ولعل شعوركم بأنه لا دليل لكم هو الذى ألجأكم إلى هذا الأسلوب من المقارنة لعلكم تجدون فيها ملجأ يقوى وجهة نظركم ! فماذا وجدتم ! ؟

١ — وجدتم أن ولادة عيسى عليه السلام كانت معجزة ، وأنه لهذا نبى أما محمد عليه الصلاة والسلام فلم تكن فى ولادته معجزات ، ولذلك لا يصح التصديق بكونه نبيًا .

— آمنا وصدقنا بأن عيسى عليه السلام نبى، وأن ولادته كانت شيئًا اختصه الله به ، وأن ولادة محمد عليه الصلاة والسلام لم تكن كولادة عيسى عليه السلام ، فهل يعنى ذلك أن يكون عيسى نبيًا ، وأن يكون محمد غير نبى ! ؟ وأن كل من لم يولد مثل ولادة عيسى عليه السلام لا يعترف له بالنبوة ؟ فعيسى إذن نبى ورسول ، أما إبراهيم وموسى ويوسف وداود وبقية الأنبياء المذكورين فى كتابكم المقدس لا يصح أن تعترفوا لهم بنبوة ولا برسالة ، مثل محمد سواء بسواء ! ! فهل ترون كتابكم المقدس كذب عليهم ؟ أم أن مقياسكم لا يستقيم مع الحق ! ؟ ولا مع المنطق ! ؟

على أنكم تنكرون وقوع المعجزات التى يحكيها المسلمون عن ميلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وتسمونها خرافات ، وتحاولون إيهام المسلمين بأنكم سوف تكافئون من يجاريكم ويصدقكم فى اعتبارها خرافات ، فتصفونه عندئذ بأنه من أذكياء المسلمين .

فلو أننا تجردنا من شعورنا الدينى ، أنكرنا كتابكم كما تنكرون كتابنا ، وقلنا لكم : إن القصة التى تحكونها عن ميلاد المسيح عليه السلام خرافة ، لا يقبلها العقل ، ولا يقبلها العلم ، وأن المسيحى الذكى لا يجهل أن هذه القصة تنافى كل القواعد والقوانين الطبيعية ، فماذا تقولون ! ؟

ألم يقل اليهود مثل ذلك من قبل ؟ وقد كانوا — بناء على كتابكم — يعيشون معهم ويعلمون أحوالهم ، وهم أدرى بهم »

بل ماذا تقولون لو أننا تجردنا من

شعورنا الدينى ، وقلنا لكم : إن كتابكم الذى بأيديكم نفسه خرافة لا أصل له ، وكل ما ورد فيه فهوخيالات ، وأقاصيص لا سند لها ولا دليل ! ؟

بل ماذا تقولون لو قلنا لكم — بناء على ذلك : إن شخصية المسيح نفسها أسطورةُ تحتمل كثيراً من الشك ؟

وكل ما يمكنكم ذكره وإيراده لإثبات ذلك لا يثبت تحت النقد العلمى والتاريخى ، بل يعتريه الغموض والإبهام ، وقد كتب فى ذلك كثير من العلماء والمحققين المسيحيين .

فهل لديكم ما تعتمدون عليه فى الإجابة إلا من القرآن الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من عند الله ! ؟

لذلك لجأتم فى إثبات هذه المعجزة إلى القرآن الكريم استغلالا لعاطفة المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن ، ولولا القرآن ما أمكنكم أن تصلوا إلى ما تريدون !!

لكنكم — كما تقولون — لا تقبلون القرآن ، ومقتضى ذلك أنكم لا ترون فيه حجة لكم فلماذا تحتجون به علينا ؟ ؟

لا بد من أساس صحيح لمثل هذا النقاش .

فإما أن تؤمنوا معنا بالقرآن كما نؤمن بكتابكم ، وعندئذ يشرح القرآن لكم ما غمض عليكم من كتابكم ، ولا مناص لكم حينئذ من الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خاتم الأنبياء .

وإما أن نرفض كتابكم كما ترفضون القرآن ، خاصة وأنكم تعلمون أن القرآن يطلب منا أن لا ننخدع بكتابكم لأنه محرف لا يوثق به ولا بأخباره وعندئذ لا تكون لكم حجة فى إثبات ما تريدون إثباته من معجزة ميلاد عيسى عليه السلام ، ولا فى إثبات أصل لكتابكم ، بل ولا فى إثبات وجود شخصية المسيح عليه السلام .

ومع ذلك فلو جاريناكم فى أن القرآن الكريم غير مقبول ، ولا مصدق ، وأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، لا من عند الله ، فما الذى أعجز محمداً صلى الله عليه وسلم دون أن ينسب لنفسه من المعجزات أكثر وأعظم مما نسب إلى عيسى وإلى غيره من الأنبياء عليهم السلام ، خاصة وأن جهلة المسلمين — فيما تزعمون — يروون حوله ما تسمونه القصص الخرافية ويحبونها ، اللهم إنه لم يكن يمنعه من ذلك مانع إلا أن يكون هذا الكتاب ملتزماً بالصدق الذى جاء به من عند الله ، وأنه

لا يستطيع أن يفترى على الله الكذب .

ولو جاريناكم مرة أخرى فى أن القرآن الكريم غير مقبول ولا مصدق ، وأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، فأين إنجيلكم الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام ؟ ؟ إن أحضرتموه فنحن أول من يؤمن به ، ونحن مؤمنون به وإن لم نره ، فما بالكم لو رأيناه ! ؟ أما ما تسمونه بالإنجيل ، فليس إنجيل عيسى عليه السلام ، ولكنه — كما تقولون — إنجيل متى ويوحنا وغيرهم ممن تدعون أنهم من الحواريين . وقد تم نقل هذه الأناجيل بطرق غير معروفة ، وما عرف منها فهو غير موثوق به ، وما تثقون به منها فقد تعرض خلالها للتحريف وسوء النقل ، ثم تعرض بعد ذلك لسوء الفهم خلال الترجمات المختلفة إلى اللغات المختلفة ، ومقارنة يسيرة بين طبعات كتابكم المقدس المعاصرة تظهر هذا الاختلاف ، فما بالكم لوقارنا هذه الطبعات والترجمات الحديثة ، بالترجمات السابقة عليها منذ عهد قريب ، ومنذ عهد بعيد !!

ولو جاريناكم مرة ثالثة فى أن كلا من القرآن والإنجيل قد اتفقا على معجزة ولادة عيسى عليه السلام ، فما الفرق الذى تدعونه بين عيسى ومحمد عليهما السلام! ؟

نعم ولد محمد صلى الله عليه وسلم كسائر البشر من أب وأم ، واختص عيسى عليه السلام بمعجزة ولادته من غير أب لكنه ولد — كذلك — كسائر البشر . نعم كسائر البشر يا معشر المبشرين .

ألم يكن جنينا فى رحم أنثى من بنات حواء ؟ والرحم هو الوعاء العادى الذى يحمل فيه الجنين عادة ! ؟ ألم ينزل عند ولادته من الطريق الطبيعى الذى ينزل منه سائر الأطفال ؟ ؟ ألم يكن حينئذ لحماً ودماً وعظماً كسائر البشر ؟ ؟ ألم يكن محتاجاً إلى عناية أمه وعطفها وحنانها ؟ بل وإلى التقام ثديها فى فمه عليه السلام ؟ ؟ ألم يدرج فى المهد بين سواعد الحاضنات حتى استطاع أن يحبو ، ثم حتى استقام عوده فنهض ، ثم حتى اشتد عوده فمشى على الأرض كما يمشى سائر الناس ؟ ؟

أما كونه ولد بدون أب فليس إلا معجزة من المعجزات التى يحدث مثلها لسائر الأنبياء ، وليس من اللازم أن تكون معجزة نبى بعينها معجزة لغيره من الأنبياء ، وإلا فهل كانت له عصا موسى ! ؟ وأين هو من سليمان وقد سخرت له

الريح تجرى بأمره ، وحشر له جنوده من الجن والإنس والطير ؟ وعلمه الله منطق الطير وآتاه من كل شيء -؟

فهل يصح لذلك أن ننكر نبوة عيسى لأنه لم تحصل له هذه المعجزات ؟ أو هل يصح أن ننكر نبوة موسى أو سليمان عليهما السلام لأنه لم يولد واحد منهما كما ولد عيسى بدون أب ؟ ؟

اللهم إن هذا كلام لا يقبله أذكياء المسيحيين ، بل ولا جهلتهم ! !

وإذا كانت ولادته وخلقه بدون أب مدعاة عندكم — لأفضليته — فآدم أولى منه بذلك ، لأنه لم يولد من بشر أصلا ، بل خلق خلقاً مباشراً بدون أب ولا أم . بل إن حواء أولى منه بذلك لأنها لم تخلق فى رحم أنثى ، بل خلقت من ضلع أدم كما تعلمون .

على أن المفاضلة بين المعجزات لا تستتبع المفاضلة بين الأنبياء ، لأن معجزة كل نبى إنما تأتى غالباً بحسب ما يحذقه قومه من العلم ومن شئون الحياة ، ولا تأتى بحسب قدر الأنبياء ومكانتهم عند الله إلا فى شيء يسير منها كتكليم الله لموسى عليه السلام ، وكالإسراء والمعراج لرسولنا محمد عليه الصلاة والسلام .

على أن المفاضلة بين المعجزات — مرة أخرى — لا تصح ، لأن معنى المعجزة أنها أمر يعجز عنه البشر ولا يفعله إلا الله تعالى وحده ، وتستوى فى هذا كل المعجزات — ما ظهر منها — فى أعينكم — كبيراً ، وما ظهر منها — فى أعينكم — صغيراً .

أما ما يحيط بها من أسباب التكريم والتعظيم فهو معنى آخر يضاف إلى معنى المعجزات .

وعلى ذلك فالمعجزات التى ذكرت لمولد محمد صلى الله عليه وسلم كهزيمة جيش أبرهة وإبادته أمام مكة بسبب غير معروف ، وكسقوط إيوان (طاق) كسرى دون سبب ظاهر ، إن اعتبرتموها خرافة لا يصدقها إلا جهلة المسلمين ، فإن علماء اليهود وأحبارهم وأذكياءهم ، وهم أعرف بعيسى وقومهم منكم ، ينكرون المعجزة التى تذكرونها عن ميلاد عيسى عليه السلام ، ويقولون فيه وفى أمه عليهما السلام ما لا نستحل ذكره ، ولا يثبت لنا هذه المعجزة إلا القرآن الذى نؤمن به وحده والذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ولولا القرآن ما صدقناكم فى شيء مما تقولون ، فإذا أنكرناه — كما تريدون — أنكرنا قصة عيسى من أصلها ، أو

— على أقل تقدير — فعلنا معها ما فعلت اليهود ، فهل ذلك هو ما تريدون ؟ وماذا يبقى لكم بعد ذلك أيها المبشرون .

٢ — فإذا تركنا هذا الحديث ، وانتقلنا معكم إلى الناحية الفكرية — كما تقولون — وجدناكم تبنونها على خرافة لا أصل لها فى عقل ولا دين ، حيث تبنونها على تلك الأسـطورة التى سيطرت عليكم ، فأفسدت كل ما بنيتموه عليها من مذاهب فى دينكم ، وجعلتكم بالتالى لا توقرون نبيـًا ، ولا تحترمون رسولا ، ولو كان ذلك النبى هو خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام .

لذلك تقولون إن محمداً قد ورث من البشر طبيعتهم الآثمة بسبب ولادته كسائر البشر ، أما عيسى فقد ورث طبيعة طاهرة لا غبار عليها ، لأنه ولد بطريقة تخالف سائر البشر .

وبادئ ذى بدء نقرر — مرة أخرى — أن ولادة عيسى من غير أب لا تنفى أنه ولد كسائر البشر من بطن أنثى ، وجرت عليه القوانين الطبيعية التى تجرى على سائر البشر .

وإذا كانت طبيعة البشر آثمة ، وكان هذا الإثم متوارثـًا بين البشر ، لا يفلت منه إنسان — كما تقولون — فمن أين ورث عيسى عليه السلام طبيعته الطاهرة التى لا غبار عليها ؟ ؟ .

هل ورثها من أمه مريم ! ؟

لقد كانت بنتـًا من بنات حواء وآدم ، وأيـًا كان مذهبكم فى شأنها ، فمن الثابت أنها ولدت ولادة طبيعية من أم وأب كسائر البشر ، وأنها لذلك لا بد أن تشملها نظريتكم فى وراثة الخطيئة ، وأنها لا بد أن تشملها هذه النظرية كذلك فى توريث الخطيئة لولدها وابن بطنها عيسى .

فكيف استثنيتم عيسى عليه السلام من ذلك ! ؟

إن قلتم إنه ورث الطهارة من الخالق ، فكيف ورث آدم الإثم ! ؟ ولم يكن قبله بشر يورثه الخطيئة ! ؟ بل كان صنعة الخالق وحده مباشرة .

هل ورث آدم الإثم من خالقه ! ؟ تعالى الله .

أم ورث منه الطهارة ! ؟

فكيف أورث الخطيئة لأبنائه ! ؟

إن فكرة الخطيئة المتوارثة لا أصل لها ، وكل ما بنيتم عليها من أفكار لا أساس له .

وعلى ذلك فعيسى ومحمد كلاهما

نبيان رسولان مكرمان من الله أعظم تكريم ، كسائر أنبياء الله السابقين .

ولا يصح بحال أن ننسب إلى واحد منهما إثمًا ، ولا إلى نبي قبلهما ، وقد قال لكم عيسى عليه السلام فى شأن الزانية : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر يو ٨ : ٧ ، فكيف بكم ترمون الحجارة على الأنبياء البررة ، وتنسبون إليهم الإثم والخطيئة ! ؟؟

أما دعواكم أن القرآن يثبت طهارة عيسى دون غيره من الأنبياء عليهم السلام ، فأنتم تعلمون ماذا تفترى اليهود على عيسى وأمه عليهما السلام ، وأن مواجهة اليهود وما يفترونه عليهما لا تكون إلا بنفى افتراءاتهم ، وتبرئة عيسى وأمه من اتهاماتهم ، وإثبات طهارته ، وتأكيد هذه الطهارة ، لذلك أثبت الله له ولأمه الطهارة والنقاء والعفة ، واختصه أكثر من سائر الأنبياء هو وأمه بالنص على طهارته ، نفياً للتهمة عنه .

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » آل عمران : ٤٥ .

ونحن نعلم أن ما يثبت لنبى من خصائص النبوة وصفاتها يثبت مثله لإخوته من الأنبياء ، فلم يكن عيسى وحده وجيها عند الله ، ولا وحده مقرباً من الله ، بل واحداً من المقربين بنص الآية التى تحتجون بها .

وليس من اللازم أن يذكر كل نبى بهذه الصفة ، بل يكفى أن يوصف بها نبى لنعرف أنها صفة الأنبياء جميعًا . لأنها من لوازم النبوة ، وكيف يكون نبيًّا إذا لم يكن وجيها عند الله ومن المقربين ؟ وهذا موسى عليه السلام يصفه الله بمثل ذلك من البراءة والطهر والوجاهة فيقول « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » الأحزاب : ٦٩ .

ونحن نستشهد لكم بالقرآن لأنكم تجادلوننا به ، كأننا ننكر براءة عيسى وطهارته ، ونحن أغير عليه وعلى مقامه الرفيع بحكم ما يأمرنا به القرآن ، لكننا كذلك نغار على بقية الأنبياء ، ولا ننسب إليهم ما ينسبه كلامكم من الإثم والخطيئة ، وذلك بحكم ما يأمرنا به كتابنا .

فإن كان كتابكم الذى تجدونه بين أيديكم لا يأمركم بذلك ، فعسى أن يكون هذا الأمر قد حرف بين

ما حرف ، أوضاع بين ما ضاع من وصايا النبي عيسى عليه السلام .

أما ما تستشهدون به بعد ذلك على كون محمد صلى الله عليه وسلم كان آثما ، مثله فى ذلك مثل بقية البشر — بناء على نظريتكم الأسطورية — من قوله تعالى فى سورة الضحى الآية السابعة « ووجدك ضالا فهدى » وفى سورة غافر الآية ٥٥ « واستغفر لذنبك » وفى سورة النصر الآية الثالثة « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابـًا » وفى سورة الفتح الآية الثانية « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . . فأنتم فى هذا الاستشهاد بين أمرين ، إما أنكم لا تتقنون فهم اللغة العربية ، ففهمتم منها ما فهمتم من المعانى الفاسدة بحسن نية ، أو قرأتم عنها فى ترجمة رديئة غير صحيحة ، فلم تدركوا الحقيقة .

وإما أنكم تتقنون اللغة العربية ، وتعرفون حقيقة المعنى المراد ، ولكنكم تتلاعبون بالألفاظ ، وتستغلون عدم معرفة بعض المسلمين باللغة العربية لتضليلهم وخداعهم ، وإيهامهم أن هذه معانى قرآنهم .

ونحن نحب أن نحسن الظن بكم ، فنشرح لكم ما يبدو أنكم لم تفهموه من هذه الآيات البينات ، أو نصحح لكم ما ترجم منها ترجمة رديئة فاسدة .

أما ضالا فى قوله تعالى « ووجدك ضالا فهدى » فأصل الضلال فى استعمال اللغة العربية من فقدان الطريق والحيرة فى معرفته ، وهذا المعنى هو المناسب تمامـًا للكلمة المقابلة فى الآية نفسها ، وهى قوله تعالى « فهدى » ، فأى إثم يمكن أن ينسب لإنسان لم يكن يعرف طريق الحق ، أو كان فى حيرة من أمره فهداه الله ! ؟

أما أنه لم يكن يعرف طريق الله ، أو أنه كان فى حيرة من أمره فلأنه ولد بين قوم مشركين ، يعبدون الأصنام ، وكان العالم كله يدين بأديان مختلفة ، ابعضها أصل صحيح ، لكنه خلط بغيره من الباطل كاليهودية والنصرانية ، وليس لبعضها أصل كالوثنية والمجوسية وغيرها ، فطريق الحق لم يكن واضحاً إذن ، وكان الناس جميعاً يعيشون فى هذا الضلال ، لكنهم لا يشعرون . أما هو صلى الله عليه وسلم فكان يتوق إلى معرفة الله ، ولهذا كان يتحنث فى غار حراء حتى فجأه الوحى وهداه الله .

فليس فى هذه الآية ما يدل من قريب أو بعيد على ارتكاب خطيئة أو الوقوع فى إثم .

بقى الاستغفار فى بقية الآيات ، وهو الذى تظنون أنه لا يكون إلا من إثم ، وليس كذلك .

فالاستغفار فى الإسلام قد يكون من إثم ، وقد يكون محض تعبد لله ، كما نطلب من الله أن يهدينا الصراط المستقيم — فى سورة الفاتحة — ونحن نعتقد أننا على الصراط المستقيم ، وهو صراط الإسلام ، فذلك من باب التعبد وطلب دوام الهداية .

والاستغفار — على ذلك — من باب التعبد واستدامة الطهارة .

على أن قوله تعالى « واستغفر لذنبك » لا يستلزم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مذنباً ، لأن المصدر فى اللغة العربية يضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل ، فتقول : عجبت من ضربك زيدا ، فالضرب مصدر مضاف إلى الكاف ، وهى ضمير الفاعل ، فتكون أنت الضارب ، وزيد المضروب وتقول : عجبت من ضربك من زيد ، فالضرب مصدر مضاف إلى الكاف ، وهى ضمير المفعول ، فتكون أنت المضروب وزيد الضارب ، فذنبك هنا فى هذه الآية من إضافة المصدر إلى مفعوله ، لا إلى فاعله .

ولهذا شاهد فى حديثنا العادى حيث تقول لمن ظلمك فانتقم الله منه : هذا ذنبى ، أى هذا الذى أصابك قد أصابك بسبب الذنب الذى ارتكبته فى حقى .

فيكون قوم النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد ارتكبوا ذنباً فى حقه ، فأمره الله بالصفح عنهم ، والاستغفار لهم ، وسياق الآية يساعد على ذلك حيث تقول « فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك » فقد أمره الله بالصبر على أذاهم ، ثم أمره بالاستغفار لهم ، وذلك بطلب هدايتهم ، وطلب المغفرة لمن أسلم منهم ، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى فى آية أخرى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » التوبة : ١٠٣ والصلاة عليهم معناها : الدعاء لهم ، وقوله « فاعف عنهم واستغفر لهم » آل عمران : ١٥٩ والأمر كذلك فى قوله تعالى فى سورة النصر « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » وذلك عند فتح مكة التى آذاه أهلها وأخرجوه من بلده ، وفى قوله فى سورة الفتح « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، حيث وردت فى مناسبة الفتح كذلك .

فالمراد فى هذه الآيات أمته صلى الله عليه وسلم ، وهى مخاطبة فى شخصه ،

كما جرت العادة فى كثير من ألوان الخطاب أن يوجه إلى رئيس القوم أو الأمة أو الدولة ، أو غير ذلك .

بالإضافة إلى معان دقيقة أخرى نشير إلى بعضها ، ولا يضيرنا إذا لم تستطيعوا إدراكها، لأن ما سبق إيضاحه يكفيكم.

منها : أن الإنسان مهما بلغ الغاية من العمل والتقرب إلى الله فإنه لا يستطيع أن يقطع الفرق الهائل بين الجهد البشرى المحدود وجلال الله تعالى وعظمته، فرسول الله — ونحن معه — نستغفر الله لذلك .

ومنها : أن الرسول وهو المثل والقدوة والأسوة إذا كان مأموراً بالاستغفار مع عصمته ونزاهته ، وطهارته وبراءته ، فأمته أولى بأن تسارع إلى الاستغفار ، لعلمنا بمدى تقصيرنا وضعفنا وقلة اجتهادنا بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها : ما تشعره هذه الآيات من تكريم الله للرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ ليس معناه أنه قد ارتكب الذنب فعلا ، وإنما معناه أنه حتى لو ارتكب الذنب — وهو فرض غير واقعى — فإن الله يغفره له ، لما له عند الله من المنزلة والمكانة . وذلك على غرار قوله صلى الله عليه وسلم : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم ، فليس معناه أن الله أباح لهم ارتكاب الذنوب وانتهاك المحرمات ، حاشا وكلا ، ولكنه تكريم لهم أى تكريم ، يدل على أن منزلتهم عند الله لا يهدمها أمر مهما يكن ، حتى لو كان يتطلب المغفرة ، فإن الله يغفره لهم بسابق محبته وفضله .

إلى غير ذلك من المعانى الدقيقة التى لا تتم إلا بمثل هذه الأساليب ، والتى لا نريد أن نطيل عليكم بها .

٣ — أما النقطة الثالثة وهى موضوع المعجزات :

فأنتم تدعون أنكم بالتعمق والدراسة تكتشفون أن شق القمر وعدة معجزات أخرى (؟) — لم تذكروها — كتبت بعد قرون (؟) من وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك لا تستطيعون تصديقها ، لأن القصة تصدق إذا كانت قريبة العهد ، وكان رواتها أشخاصاً معاصرين لها .

ونحن نوافقكم على هذا الشرط ، فهو يفيدنا، ولا نريد أن نقول: إنه فى غير صالحكم لأن لذلك قصة أخرى ، نعم، نوافقكم على هذا الشرط، ودعواكم أن معجزة شق القمر قد كتبت قصتها

بعد قرون دعوى غير صحيحة ، لأن شق القمر مذكور فى القرآن فى سورة تسمى باسمه ، وهى سورة القمر ، وفى أول آية منها ، حيث تقول « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

فهل دلتكم دراستكم المتعمقة أن القرآن قد ابتدعت روايته بعد ١٥٠ سنة؟ أو بعد ٢٥ سنة ؟

إذن: فماذا كان محمد يتلو على الناس وماذا كانت رسالته غير القرآن ؟

لقد كانت هذه السورة تتلى بين الناس منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا تزال ، ولم يستطع أحد لا من المسلمين ولا من غيرهم أن ينكروا صدقها ، فماذا تريدون إثباتاً ومعاصرة أكثر من ذلك ! ؟

أما المعجزات الأخرى التى تشيرون إليها ، فإنكم لم تذكروها لنتبين إن كانت قد رويت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى لسان من عاصرها أو ابتدعت من بعده ! لهذا لا نستطيع الكلام عن أمر تخفونه ولا تريدون الحديث فيه صراحة .

ترى هل تفعلون ذلك قصداً وتلبيساً على المسلمين ، كأنكم تعلمون من دينهم أكثر مما يعلمون ! ؟

أما دعواكم أن محمداً قال بنفسه إنه لم يقم بمعجزات ، وأن القرآن قد أجاب الكفار حين طلبوا الدليل بأن الله لا يحتاج إلى دليل ، وذكرتم فى ذلك آيتين هما قوله تعالى « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » العنكبوت ٥٠ ، وقوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » الإسراء : ٥٩ .

فمن أين أتيتم بأن محمداً قال بنفسه إنه لم يقم بمعجزات !!؟ وهذا لم يرد عنه قط ؟ إن كنتم فهمتم هذا المعنى من هاتين الآيتين فقد بينتم مرة أخرى أنكم لا تفهمون اللغة العربية ، أو أن الآيتين ترجمتا لكم ترجمة رديئة فاسدة ، وذلك مع إحسان الظن بكم مرة أخرى .

ذلك لأن هاتين الآيتين تدلان على عدم الاستجابة لطلب الكفار — فى مناسبتهما — ولا تدلان على عدم وقوع المعجزات مطلقاً .

أما عدم الاستجابة لطلباتهم ، فذلك لتعنتهم ، وعدم رغبتهم فى الوصول إلى الحق ، بل وقع الطلب منهم موقع اللجاجة والعناد ، ويمكن أن نسرد عليكم مصداق ذلك من سورة

الإسراء التى استشهد بها لتتبينوا أن المعجزة كانت قائمة ماثلة أمامهم فعلا، ولكنهم كانوا يتعنتون ويجادلون بالباطل يقول الله تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » الإسراء : ٨٨ — ٩٣ .

فهل يطلبون بنزول السماء عليهم كسفا معجزة ؟ أم يطلبون الهلاك ! ؟ وهل يطلبون بقولهم « أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » معجزة ؟ ؟ أم يطلبون مجالا للمناقشة والجدل العقيم دون إيمان ولا تصديق ! ؟

ولقد وصل بهم العتو والطغيان واللجاجة إلى هذا الحد الذى يرويه القرآن عنهم فيقول « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » الأنفال : ٣٢ ، فهل تحبون — أيها المبشرون — أن يحقق الله لهم هذه المعجزات ؟ ؟ أم أن ما فعله الله من ردهم وعدم الاستجابة لهم كان رحمة منه وحلماً .

بقى أن نقول لكم إن المعجزات التى ذكرتموها للمسيح عليه السلام معجزات مادية فحسب ، وليست بأعجب من أمثالها من معجزات الأنبياء السابقين ، التى انتهت بانتهائهم ، وأنتم تعرفون منها ما تعرفون ، ولا بأعجب من أمثالها من معجزات رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كحنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء ، وتكثير الطعام ، وإبراء المرضى ، والإنباء بالغيب ، كل ذلك فى أحوال كثيرة ليس هنا مجال سردها ، وكلها ثابتة بالسنة وبالطرق الصحيحة ، وبالشرط الذى اشترطتموه لتصديق المعجزة من كون رواتها من المعاصرين لها .

أما المعجزة التى لا تدانيها معجزة ، والتى تتقاصر دونها سائر المعجزات السابقة فإنها معجزة القرآن ، لأنه معجزة

ماثلة تشهد لصاحبها أبد الدهر ، ولقد انتهت كل المعجزات المادية بانتهاء أصحابها ، أما معجزة القرآن فباقية دائمة لم تنقطع ، وستظل محفوظة بحفظ الله إلى أن يشاء الله ، مصداقـًا لقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر: ٩ . وإذا كان عيسى قد رفع إلى الله فقد رفع كتابه أيضاً ، أما كتاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم يمت من بعده .

ولا توجد معجزة لنبى من الأنبياء — بما فيهم عيسى عليه السلام — هى فى الوقت عينه رسالته التى أمر بتبليغها سوى القرآن ، المعجزة الكبرى لنبينا عليه الصلاة والسلام ، فرسالته صلى الله عليه وسلم تحمل فى ذاتها معجزتها وبرهانها .

كما بقى أن نقول لكم إنكم تدعون أن المعجزات التى قام بها عيسى عليه السلام ، قد قام بها باسمه وبقدرته وفقـًا للرب ، وذلك بناء على ما تدعونه من كونه شريكـًا لأبيه فى الألوهية ، أما نحن المسلمين فنقول ، ونؤمن بهذا الذى نقول إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عيسى ومحمداً من عباده المكرمين ، ورسله المقربين ، وأن كلا منهما قام بما قام به من معجزات باسم الله تعالى وبقدرته وحده ، وهذا معنى قوله (قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين) العنكبوت : ٥٠ وقوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) الإسراء : ٩٣ .

٤ — أما عن النقطة الرابعة فهى عن الموت ، فقد مات محمد كسائر البشر ، ولد كسائر البشر ، ومات كسائر البشر ، ولد بمكة ، ومات بالمدينة ، ودفن بعد موته ، ونحن نؤمن بذلك .

فماذا تعتقدون أنتم بالنسبة لعيسى ؟

تعتقدون أنه مات ، وأن الرومان صلبوه حيـًّا حتى مات بعد ست ساعات ، ثم وضع جسده فى المقبرة .

نعم مات محمد صلى الله عليه وسلم كسائر البشر .

فهل مات عيسى فى اعتقادكم مثل سائر البشر ، أو أن ميتته التى تعتقدونها كانت من أبشع ميتات البشر ؟

وهل تتناسب هذه الميتة البشعة القاسية الوحشية — التى تعتقدون أنه قاساها — مع ميلاده وما كان فيه من تكريم ! ؟

وكيف تتصورون أن يكرمه الله بالمعجزات البينات الخالدات عند ميلاده ثم يسلمه للموت على هذه الصورة المزرية المهينة الحقيرة .

ألا نعم ما تروون عن ميلاده ، وبئس ما تنسبونه إليه عند وفاته .

وما أكرم ما وصف الله به ساعات وجوده الأخيرة على الأرض وذلك فى القرآن الكريم الذى لا تقبلونه مع تكريمه للمسيح عيسى عليه السلام ، يقول الله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء : ١٥٧ — ١٥٨ ، ويقول (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) آل عمران : ٥٥ فهذه المنزلة الكريمة التى نالها من الله فى أخريات أيامه على هذه الأرض هى التى تتناسب مع المنزلة الكريمة التى أعدها الله له فى معجزة ميلاده .

أما دعواكم بقتله مصلوباً مهجوراً لا عون له ولا سند ولا مدافع ، وقد تنكر له حتى حواريوه وتلاميذه فأمر لا يثبت على النقد ، وليس عليه أى دليل ، فما بالكم بدعاواكم الأخرى ذات الطابع الأسطورى الغريب عن خروج المسيح من قبره ، وظهوره لعدة أشخاص ! !

ويكفى أن تقرءوا القصة عند كل من الإنجيليين الأربعة لتروا مدى التضارب والتعارض فى رواية هذه القصة الأسطورية ، وكيف أنكره حواريوه الذين كانوا يعرفونه معرفة تامة ، فلم يعرفوه حينئذ ، علماً بأنه لم يره أحد يخرج من قبره ، ولم يره أحد يرفع إلى السماء ، ولم يره أحد يجلس عن يمين الله ، كما تروى هذه الأناجيل ، فكيف يمكن لعقل أن يصدق هذه الأقاصيص ! ؟

اللهم إن لدينا خبراً صادقاً — لأنه من عند الله — هو الذى أخبرنا بالحق ، وأن ما قالوه عن قتله وصلبه لا أصل له ، وإنما هى ظنون وشبه وأوهام ، (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء ١٥٧ — ١٥٨ .

فكل مالديكم من هذه الروايات المتعارضة ليست إلا اتباعاً للظن ،

أما القول الحق ، الذى يقبله العقل ولا يختلف فيه ، فهو ما جاء به القرآن الكريم فى هذه الآية الفاصلة .

ولقد كانت هذه القصة الأسطورية الخيالية أساساً لكم بنيتم عليها عقيدة الفداء ، وهى عقيدة لا أصل لها عند الأنبياء السابقين ، ولا تستقيم مع نفسها فى التفكير المنطقى السليم .

ولقد شعرتم أنتم بضعف هذه القصة ، فأردتم أن تقطعوا الطريق على من يشك فيها قائلين : وقد يتساءل البعض لماذا مات عيسى فى حين أن ولادته كانت معجزة ، وأنه كان طاهراً ، وأنه كان يقوم بالمعجزات ؟؟

ونحن نتمم لكم السؤال فنقول :

لماذا مات عيسى هذه الميتة — فى زعمكم — وهى بشعة مهينة ؟ فى حين كانت ولادته محفوفة بمظاهر العناية والتكريم ؟

ولماذا مات عيسى هذه الميتة القاسية ، مع قدرته — فى زعمكم — على القيام بنفسه بالمعجزات ؟؟

ولماذا لم يغادر الصليب علانية أمام الجمهور — ولو بعد صلبه المحتوم فى زعمكم — لتكون معجزة بارزة ظاهرة للناس ! ؟

ولماذا لم يغادر قبره علانية أمام الناس ، وترك ملكين — فى زعمكم — أمام القبر ليخبرا المرأتين بخروجه دون أن يرياه ؟ !

وكيف ظهر حينئذ للمرأتين فلم تعرفاه ، مع أنه كان صاحب فضل عليهما وأنه أجرى عليهما معجزاته ؟ ؟ !

وكيف ظهر — فى زعمكم — أمام ٥٠٠ شخص مجتمعين ، مع أن حوارييه الأحد عشر أنكروه وشكوا فيه ، ولم يعرفوه بشخصه حتى أراهم يديه وجنبه يو ٢٠ : ٢٠ متى ٢٨ : ١٧ ، بل خافوا منه وفزعوا لو ٢٤ : ٢٧ ، ولم يستجيبوا له حتى وبخهم ، وفى كل مرة من المرات الثلاث التى ظهر فيها — فى زعمكم — لم يكن أحد من أتباعه وتلاميذه وحوارييه يعرفه إلا بعد أن يعرف لهم نفسه ، أو يخيل لهم فى أنفسهم أنه هو الرب كما تقولون ؟ ؟ !

ثم إنكم أجبتم عن سؤالكم — الذى أردتم به صرف الأنظار عن حقيقة القصة الأسطورية — بأن عيسى كان طاهراً — ونحن نؤمن بذلك — ولكنكم تقولون : بما أن الموت هو جزاء كل خطيئة ، فقد أخذ عيسى المسيح خطايا البشرية كلها ، ودفع جزاء هذه الخطايا ، ولهذا مات عيسى .

فها أنتم تقولون : إن عيسى عليه السلام قد مات ، فلماذا تنكرون على محمد صلى الله عليه وسلم أن يموت ! ؟

ومن قال لكم إن الموت هو جزاء كل خطيئة ؟ وإذا كان عيسى قد مات ليحمل خطايا البشرية وينقذ المؤمنين به ، فلماذا يموتون هم أيضاً ؟ ؟ وقد مات عيسى من أجلهم ومن أجل إنقاذهم ؟ ؟

ومن قال لكم إن الله لا يغفر الخطايا ؟ ولو كان جزاؤها الموت ! ؟

وكيف أخذ عيسى خطايا البشرية كلها ؟ بل كيف أخذ عيسى خطيئة واحدة من فرد واحد من أفراد البشر ! ؟

هل أخذها فأصبحت خطيئته هو حتى تدنس بها واستحق عليها العقوبة ! ؟

وهل أصبح مرتكبها الأصلى طاهراً بريئاً منها ؟ ؟

وكيف يصح فى منطقكم أن يكون مرتكب الخطيئة الأصلى طاهراً ، وأن يتلوث بهذه الخطيئة من لم يرتكبها ؟

أم يظل عيسى عليه السلام مع تحمله لهذه الخطيئة بريئاً ! ؟ فأين يقع إثم هذه الخطيئة على عيسى وهو طاهر برىء ، أم على مرتكبها وقد خلصتموه منها ! ؟ أم أنها لا تقع على واحد منهما مع أنها وقعت فعلا ؟ ؟

إن المشكلات من وراء هذه الأسطورة كثيرة ولا حل لها .

والوضع المنطقى الصحيح هو ما يذكره القرآن وأنه لا يحمل الخطيئة إلا صاحبها ولا يغفرها إلا الله وحده إن شاء ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الأنعام : ١٦٤ ، الإسراء : ١٥ ، فاطر : ١٨ ، الزمر : ٧ ، (ومن يغفر الذنوب إلا الله) آل عمران : ١٣٥ ، (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء : ٤٨ ، ١١٦ .

وإذا كانت المسألة تدور عندكم بين العدل فى أخذ الخاطئ بخطيئته ، والرحمة فى التخفيف عن الخاطئ ، فهل تنحل المشكلة بأن يتحمل عيسى خطايا البشرية ، أم تزداد تعقيداً ؟ ؟ هل يتحقق العدل وتتحقق الرحمة بذلك ؟ ؟

هل يتحقق العدل بترك المذنبين دون عقاب ؟ وهل يتحقق العدل بأن يتحمل الطاهر البرىء ما يستحقه المذنبون من عقاب ؟

وهل تتحقق الرحمة مع ذلك ؟ هل تتحقق الرحمة بترك الطاهر البرىء يقاسى الذل والهوان ، والعذاب والآلام على الصليب ! ؟ بينما يتمتع المذنبون الحقيقيون ويتنعمون ! ؟

بعد ذلك تصبح تعقيباتكم غير ذات موضوع فقد اتضح لكم بطلان كل ماقدمتم من أسباب للخلاف والتفضيل .

فتعقيبكم بأن محمداً قد اعترف بأنه آثم قد ظهر لكم أنه لم يكن كذلك، وأنه كان طاهراً مطهراً كأخيه عيسى ، وأنه كان مع ذلك متواضعًا لعظمة الله حين كان يستغفره تعبداً ورحمة بأمته ، وإلا فأين هو اعترافه الذى تزعمون ، وأى إثم ارتكبه فيما تظنون ! ؟

وتعقيبكم بأنه تزوج عدة مرات ، وكانت له عدة زوجات فى وقت واحد ، فما هو الإثم فى ذلك ؟

هل خالف فى ذلك ربه ؟ أم خالف كنيستكم ؟

أما مخالفة كنيستكم ، فإننا لسنا تابعين لها كما تعلمون ، وأما مخالفة الله سبحانه وتعالى فلم تقع منه مرة واحدة ، بل كان زواجه ممن تزوج بهن بأمر الله وإذنه ، حتى صدر إليه الأمر الإلهى بقوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد) الأحزاب : ٥٢ .

والإثم عندنا هو مخالفة الله وحده ، ولم تقع منه صلى الله عليه وسلم هذه المخالفة قط ، أما مخالفة البشر ، أما مخالفة الكنيسة وكهنتها فيما لم يأذن به الله فليس إثما عندنا يا معشر المبشرين .

وتعقيبكم بأنه تزوج السيدة زينب التى طلقها زيد وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتبناه ، فقد كان ذلك بأمر الله ، إبطالا لعادة التبنى التى كانت شائعة فى الجاهلية ، وذلك على عادة الإسلام فى إحقاق الحق ، ووضع كل شىء موضعه الصحيح ، إذ كيف يقوم التبنى — وهو ادعاء — مقام البنوة الصحيحة ! ؟ وقصة ذلك مكررة ومعادة ، كثيراً ما تحدث عنها إخوانكم من المبشرين من باب التشويش والغمز واللمز ، وها أنتم تعيدون القصة مع وضوح الحق فيها ، ومعرفتكم به .

وتعقيبكم بأن محمداً قد تسبب فى قتل عدة أشخاص !!

وسبحان الله !! إن قلب الحقائق أمر لا يليق ، ذلك لأن الذين قتلوا بسبب الدعوة الإسلامية أحد صنفين : صنف حاربها وحارب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأصبح لزامًا على المسلمين أن يحاربوه دفاعاً عن الرسول وعن دعوته، فإذا دخل أحدهم المعركة محاربًا لله ورسوله فقتل هل يكون محمد هو السبب فى ذلك ، أو يكون هو الذى تسبب فى ذلك بعناده وعدوانه ! ؟

أم كنتم — معشر المبشرين — تريدون أن يوقف محمد دعوته ويعصى ربه حتى لا يقتل مثل هذا الكافر الأثيم ؟؟ والصنف الثانى هم شهداء المسلمين الذين قتلوا فى المعركة مع أعداء الله ورسوله ، وكان قتلهم شرفًا وكرامة لهم ، لأنهم ثبتوا بالصدق ، ودافعوا عن الحق ، ولم يهجروا رسولهم عند الشدائد ، ولم يسلموه لأعدائه كما فعل غيرهم من بعض أتباع الأنبياء كما تقولون .

وإذا كان محمد قد تسبب — فى زعمكم — فى قتل عدة أشخاص بسبب عدوانهم ، فماذا تقولون فى عيسى ، وقد ترك قومه — فى زعمكم — بين صنفين : صنف يقتلونه ويصلبونه ، وصنف يهملونه ويهجرونه ويسلمونه ؟؟ ولا شرف لواحد من الصنفين فيما فعلوه ، ألم يكن قادراً على إنقاذ نفسه من أيديهم ، حتى لا يقعوا جميعًا فى هذه الجرائم النكراء ؟ ألم يكن سببًا — بتركه لهم يفعلون ما فعلوا — فى استحقاقهم العذاب الأبدى ! ؟ أم أنكم ترون فى فعلتهم هذه شرفًا ومجداً وفخاراً ؟؟ ومن الذى سيقدم نفسه فداء لهم ولذريتهم من بعدهم ؟ وقد قتلوا ربهم وصلبوه ؟؟ وهجره الباقون وأسلموه ؟؟ كما تزعمون ، وهى جرائم وخطايا لا تقارن بها خطيئة آدم فى جنة عدن !!!

فهل جاءكم عيسى لينقذكم كما تقولون وكما نقول ! أم جاءكم عيسى لتقتلوه وتصلبوه وتسلموه كما تقولون .

وتعقيبكم بقولكم : كيف يستطيع المذنب أن ينقذكم من ذنوبكم ؟ هل من الممكن للأعمى أن يقود الأعمى ؟ إن الذى لم يخطئ هو الذى يستطيع أن ينقذكم من جزاء ذنوبكم .

وهذا مبنى على فهم خاطئ لمعنى الإنقاذ من الذنوب ، وقعتم فيه بسبب عقيدتكم فى أسطورة الفداء .

وقد صور لكم هذا الفهم أن الإنسان مذنب ولو لم يرتكب الذنب بنفسه ، لأنه ورثه من آبائه وأجداده ، وهو لهذا يحتاج إلى من يخلصه من هذه الخطيئة التى لم يرتكبها ، ويمنع عنه عقابها ، وهذا المخلص لا بد أن يكون طاهراً فى نفسه وإلا لاحتاج هو نفسه إلى مخلص ، ولا يمكن أن يكون ذلك من بنى البشر ، لأنهم ورثوا الخطيئة ، لابد إذن أن يكون ابن إله ! ! !

ومعنى ذلك الاعتراف ببقاء الذنب أبداً ، وأن الإنسان لا يطهر بنفسه وسعيه أبداً ، فأى حق وأى منطق فى

هذا ؟ وهل إذا خلصه المخلص لا يتلطخ بذنب يرتكبه أبدا ؟

إن الإنقاذ من الذنوب كما نفهمه نحن المسلمين يكون بأحد أمرين : ببيانه حتى لا نرتكبه ولا نقع فيه ، وهذا ببساطة — هو ما يفعله كل الرسل الكرام من آدم إلى محمد عليهم السلام ، وكذلك ما يفعله صالحو المسلمين — ولو كانوا قد أذنبوا — بالإرشاد والنصيحة ، لأن فعلهم الذنب لا يمنعهم من الاعتراف بأنه ذنب وبأنه ينبغى لنا أن نبتعد عنه ، فالمذنب عندكم لا ينقذ مذنباً لأن الإنقاذ عندكم يكون بحمل الخطايا ، لا ببيانها ، لكن المذنب عندنا يمكن أن ينقذ الآخرين بإرشادهم ونصحهم ، فما بالكم بالطاهر المطهر النقى التقى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام !!

الأمر الثانى فى الإنقاذ من الذنوب يكون بالتوبة المقبولة ، والاستغفار المستجاب ، فإذا تاب المذنب واستغفر من ذنبه فقد يقبله الله ويغفر له إن شاء .

وعلى ذلك فقصتكم عن وساطة عيسى للمذنب ، وسؤالكم هل يستطيع محمد أن يتوسط لكم ؟ وكيف يقبل القاضى وساطة متهم لمتهم آخر ؟؟ هذه القصة ، وهذا السؤال مبنى على نفس الأسطورة من تحمل الخطيئة عن المذنبين ، وقد بينا فسادها عقلا ومنطقاً .

إن الله عندنا لا يحتاج بينه وبين خلقه إلى وسيط ، فكل إنسان يستطيع بالإسلام أن يتجه مباشرة إلى الله ، ويسأله أن يغفر له ذنبه ، ولا يفيده وسيط كائناً من كان ، ولو كان من رسل الله الأكرمين ، ولو كان عيسى عليه السلام .

هذا إذا كانت الوساطة بالمعنى الذى تقصدونه وهو تحمل الخطايا عن الآخرين فإن كنتم تقصدون بالوساطة الدعاء إلى الله واستغفاره للمذنبين فهذا يفعله جميع الأنبياء بما فيهم عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، بل يفعله سائر المسلمين بعضهم مع بعض ، ولكن دعاء الأنبياء أقرب إلى القبول من الله تعالى .

بقى تعبيركم الذى لم نكن نتوقعه فى حق محمد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام بوصفه بالمذنب والأعمى والمتهم ، وهو أمر قد تجدونه متفقاً مع أدبكم الجم ، وتعاليمكم الرفيعة ، لكننا نرفضه ، ولا نقبله فى حق عيسى عليه السلام ، ونقول عنه إنه طاهر مبرأ وإنه على بصر من أمره كأخيه محمد عليه الصلاة والسلام .

فهل عساكم معشر المبشرين إن كان كلامكم هذا ناشئًا عن جهل وعدم معرفة أن تعلموا الحق ، وأن تتبعوه ، حتى تفوزوا وتسعدوا ، وتحققوا مشيئة الرسول عيسى ابن مريم عليه السلام !!

وإن كان كلامكم هذا ناشئًا عن أغراض أخرى ، وأهداف غير نزيهة تجعلكم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ، أن تخشوا الله ربكم ، وأن تتوبوا إليه من خطاياكم وذنوبكم ، قبل أن يأتى يوم يظهر لكم فيه عبث أفعالكم ، ولا تجدون فيه من دون الله مخلصًا ولا فاديًا ، ولا وسيطًا ولا شفيعًا بل تجدون عيسى عليه السلام قد أعرض عنكم ، وتبرأ إلى الله تعالى منكم قائلا له : (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) المائدة : ١١٧ .

وأما رفاقنا فى الوطن من المسيحيين ، فإننا نرجو مخلصين أن لا يقعوا فى أحابيل هؤلاء الدساسين والمخاتلين ، الذين يريدون أن يوقعوا بيننا الكراهية والبغضاء ، وأن يفتتوا هذه الوحدة الوطنية الشامخة التى تحدت الزمن ، وجابهت المحن ، وتغلبت على كل المؤامرات ، ونحن واثقون أنها — بالحرص والوعى والإدراك السليم — قادرة على أن تتحدى أمثالها فى كل الأوقات ، وفى سائر الظروف .

والله أعلم .

د. عبد الفتاح عبد الله بركة

آداب العالم

« لزوم العلم ، والعمل به . ودوام الوقار

ومنع التكبر ، وترك الدعاء به . والرفق بالمتعلم » .



هدية ملكة الروم إلى زوجة عمر

لما ترك ملك الروم الغزو ، وكاتب أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وقاربه وسير إليه عمر الرسل مع البريد ، بعثت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها .

وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت :

هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم .

وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر . فلما انتهى به البريد إلى عمر أمر بإمساكه ودعا :

الصلاة جامعة .

فاجتمعوا ، فصلى بهم ركعتين وقال :

— إنه لا خير فى أمر أبرم عن غير شورى من أمورى. قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم .

فقال قائلون : هو لها بالذى لها وليست امرأة الملك بذمه فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك .

وقال آخرون : قد كنا نهدى الثياب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً .

فقال : ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم .

ثم أمر بردها إلى بيت المال ، ورد عليها بقدر نفقتها

وقال الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار :

ولو أن عمر أرخى العنان لنفسه ولأهل بيته لرتعوا ولرتع من بعدهم وكان مال الله تعالى حبساً على أولياء الأمور. ومن القواعد الطبيعية المؤيدة بالمشاهدة أن الحاكم إذا امتدت يده إلى مال الدولة اتسع الفتق على الراتق واختل بيت المال أو مالية الحكومة ، وسرى ، الخلل فى جميع فروع المصالح وجهر المستسر بالخيانة وانحل النظام .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهد فى حقوقهم دعاهم ذلك إلى محبته والرغبة فيه . وإذا كان حاكما حدبوا عليه وأخلصوا فى طاعته نياتهم وكان أكرم عليهم من أنفسهم .

وقد كان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال :

— إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة .



فهرس العدد

إلى السادة القراء

بصدور هذا العدد تختتم المجلة عامها الهجرى
سنة ١٣٩٨ هـ الموافق لسنة ١٩٧٨ م

وبمناسبة انعقاد المؤتمر التاسع لعلماء المسلمين الذى
سينعقد فى مدينة القاهرة ابتداء من أول محرم سنة ١٣٩٩ هـ

تصدر المجلة عددًا تذكاريًا خاصًا بهذه المناسبة يشترك
فيه كبار العلماء والمفكرين فى مصر والعالم الإسلامى .

وكل عام وأنتم بخير ،

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

إلى السادة الراغبين فى الاشتراك

بالمجلة الاتصال بتوزيع

الأخبار فى بلادهم

إدارة المجلة

that glorious Religion, and should it lead to the guidance of only a few, trouble have taken in vain and our efforts would be more than amply repaif.

May the Almighty Allah shower his mercies upon mankind and guide them to that wherein lies their salvation in this world and in the Hereafter. Amen.

The End

ALLAH was when was nothing.

from that nothing

ALLAH created every thing.

"No animal is there on earth but Allah provideth it with nourishment and life out of mercy and kindness; and He knoweth its haunts in life, and its resting-place after death; for every animal and the condition thereof is given in the Book of Divine Decrees."

(*Baidawy's Commentary.*)

«وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» .

"In the hands of Allah are all the means of livelihood and the destinies of men, but the hypocrites do not understand for they know not Allah."

(*Baidawy's Commentary.*)

Counsels and Exhortations

The Holy Qoran teems with goodly counsels and exhortations; and the following are a few quotations :

«خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» .

"Use indulgence with sinners and forgive their agression, and enjoin good deeds, and return not the evil of the ignorant with a like evil."

(*Alucy's Commentary.*)

«وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ» .

"The recompense of evil is a like evil, but he who forgiveth the offender and reconcileth himself to his enemy and overlooketh the harm done him, will The Lord afford ample recompense."

(*Alucy's Commentary.*)

«أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» .

"Call unto Islam with wise discourse and good counsel and argue with the disputants in the kindliest way."

(*Baidawy's Commentary.*)

«وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

"And let there be from among you, a people who call unto righteousness, enjoin the good and forbid the evil for those will be afforded complete success."

(*Baidawy's Commentary.*)

It would be impossible to quote here all the great sayings of the Qoran, but we trust that that we have quoted of its salient features will suffice to give an insight into

Thine hands lieth all good and verily Thou hast power over all things. Thou causest the night to pass into the day, and Thou causest the day to pass into the night through the succession thereof; and Thou bringest forth the living from the dead and the dead from the living by the generation of animals from matter and matter from animals; and Thou givest sustenance to whomsoever Thou pleasest beyond all measure."

(*Baidawy's Commentary.*)

We should like to point out here that present-day physicists know more of the theory of the generation of life from matter than the commentators of the Qoran knew.

Warning against God's Wrath

To the ungrateful people who invoke the Lord in distress and forget Him in prosperity, the Qoran saith :

«وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ
ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ
جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا
بِهِ تَبِيعًا » .

"And when distress afflicteth you out at sea and ye fear drowning, ye remember none of those whom you invoke except Allah to whom ye turn for deliverance; yet when He saveth you from drowning and bringeth you safely to the land, ye turn aside in thanklessness, for man is ever ungrateful.

What ! do you then feel secure that Allah will not turn the land upside down with you on it or that He will not send upon you a whirlwind that smiteth you with gravel ? Then shall ye find no protector to protect you therefrom.

Or do you feel secure that Allah will not cause you to put back to sea another time for some pressing need, and then send upon you a fierce gale and thus drown you on account of your thanklessness ? Then shall ye find no helper against Us."

(*Baidawy's Commentary.*)

Sustenance of all Creation and Cognisance of its Conditions

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى
اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا
كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

"And if Allah should afflict you with misfortune as sickness or poverty, then there is none to lift it but He; and if He willeth you any good as health or prosperity, there is none to stop His favour; He will bestow His grace on whomsoever He pleaseth among His servants, and He is the Forgiving, the Merciful, whose mercy is extended to those who obey His commands, and His forgiveness to those who never despair of His pardon."

(*Baidawy's Commentary.*)

«مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

"Whatsoever mercy Allah sendeth unto men as prosperity, peace, haelth and knowledge, there is none to withhold it; and whatsoever He withholdeth, there is none to send forth after His keeping it back, He is the Mighty, The Wise who doth nothing except with perfect knowledge.

(*Baidawy's Commentary.*)

«نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » .

"It is We who distribute among men their livelihood in this world's life wherefore they are unable to secure it for themselves though it is their personal concern; and We have exalted some of them by grades above others, and distinguished between them in livelihood."

(*Baidawy's Commentary.*)

Control of Creation

«قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

"Say : O Allah, Possessor of all power, Thou givest of this power what Thou wilt to whomsoever Thou pleasest and takest away power from whomsoever Thou pleasest; and Thou exaltest in this world and the next, whomsoever Thou pleasest extending thereunto Thy favour and support; and Thou abasest in this life and the hereafter, whomsoever Thou pleasest imposing thereon failure and ignominy; in

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » .

"And Allah is Almighty and Supreme over His servants; and He is wise in His ways and ministrations, and is cognisant of the secret state of his servants."

(*Baidawy's Commentary.*)

His Omniscience

« وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ
مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ
وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ
ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا
أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلا فِى
كِتَابٍ مُبِينٍ » .

"And you shall not be engaged in any affair, nor do you recite concerning it any text of the Qoran, nor do you pursue any work, great or small, but We are witnesses over you and cognisant thereof when you are engrossed in it; and not the weight of an atom in the whole existence lieth concealed from thy Lord, nor is there aught smaller or greater than that, but it is recorded in the Preserved Tablet (Book of Decrees)."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا
إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا
تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا
حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ
وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

"And with Him are the repositories of unknown things, none knoweth them but He, He knoweth their set times and the wisdom of expediting or delaying their occurrence : He knoweth whatsoever is in the land or sea; and so great and comprehensive is His knowledge, that there falleth not a leaf but He knows it, neither a grain in the darknesses of earth, nor a green nor a sere thing but it is all in the Book of Divine Decrees."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ
مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » .

"And certainly We have created man, and We know what passeth in his mind, and are more informed of his state than any one for we are closer to him than his life-vein."

(*Baidawy's Commentary.*)

Finality of His Will.

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ

there findeth Allah to reckon with and is fully paid by Him in recompense of his deeds, for swift is the reckoning of Allah.

Or (their deeds) like utter darkness in a deep sea covered by billows riding upon billows, above which are clouds that hide the stars and their light : layers of utter darkness one upon another, that when he reacheth forth his hand he could scarce see it ! And whomsoever Allah depriveth of guidance, will he have no light to guide him."

(*Baidawy's Commentary.*)

Vicissitudes of Time

Yet another striking parable showing the way of the world and the changes to which men are subject, is the following verse :

«إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» .

"Verily the strange way of th world's life, in its rapid flight, its short-lived prosperity and its deluding of men, is like unto the water which We send down from heaven, and which causeth the herbage of earth, such as vegetables and grass, of which men and cattle eat, to grow luxuriantly and entwine together, till the earth puteth forth its beauteous raiment and is decked out in all the glory of plants and flowers of different hues, and its people think they are able to reap its harvest, Our behest to destroy it, cometh to it by night or by day and We render it mown down as though it had never teemed with fertility but yesterday. Thus do We make clear Our signs to a people who reflect for they benefit thereby."

(*Baidawy's Commentary.*)

God's Omnipotence

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» .

"Verily the way of Allah when He willeth aught, is but to say to it, Be, and It Is. So glory be to Him, He holdeth away over all things and to Him shall all men, believers and unbelievers, be brought back."

(*Baidawy's Commentary.*)

His whatsoever is in heavens and whatsoever is on earth. Who is, there in the heavens or on the earth, that can intercede with Him without His permission, for none is equal or like unto Him. He knoweth men's future and past, yet nought of His knowledge can they grasp save what He willeth them to know. His knowledge extendeth over the heavens and the earth, and the preservation and contro of both burdeneth Him not, He is the Most High, the Great, none to compare with Him."

(Baidawy's Commentary.)

Worship of Gods other than Allah

To those who worship gods other than Allah the Qoran saith :

«يٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا
لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ
لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» .

"O men ! a parable revealing a strange case is set forth unto you, wherefore hearken attentively unto it. Surely the gods whom you invoke to the exclusion of Allah, cannot create a fly, small as it is, even though they should all assemble for its creation ! And should a fly carry off aught from them, they cannot resist and are unable to recover what is taken from it. Weak indeed are they (worshipper and worshipped or idol and fly).

(Baidawy's Commentary.)

State of Unbelievers

Of those who disbelieved, the Qoran saith :

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ
عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ.
أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ
مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ
لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» .

"And as for those who disbelieved, they find that their deeds which they have deemed acceptable unto Allah, are void and disappointing in their results, like the mirage in a barren plain (desert) which the thirsty, in his great need, deems to be water; when he cometh to what he thought to be the place thereof, he findeth naught of what he imagined, and

above what they say. Nay the angels are but his honoured servants created by Him and are not His issue. They speak not except what He ordaineth and never do they act against His bidding. Nothing there is that He knoweth not of their future and past, and they intercede (plead) not save for whom He pleaseth and for fear of Him they tremble.

And whoever among the angels or creatures, should say; "Surely I am a god besides Allah," such will We recompense with hell for thus do We recompense him who attributeth partners to Allah and claimeth godship for himself."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ »

"The God who meriteth worship is only one having no partner to be worshipped with Him; there is no Deity worthy of worship but He, He is the Most Merciful, the Beneficient."

(*Baidawy's Commentary.*)

In these verses, the Qoran has established once, for all, that there is no Deity but Allah and that prophets are definitely excluded from godship. Nay they have no right to intercede or plead for anyone unless it pleases the Lord that they should do so' Could there be then a more conclusive evidence of their exclusion from godship than the very words of the Qoran ?

Yet, it pleases the missionaries of Europe and America to convey to simpleminded people there that Muhammad called men to worship him and that the Moslems worship Muhammad to the exclusion of God. This is a lie ! The reason for this unfounded libel is not hard to find. They wish to portray Islam, before thei eyes of the world, as a pagan religion and a savage creed; but truth shall prevail some day and the world shall know of True Islam no matter how dark missionaries choose to paint it.

All-Pervading Providence

« اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » .

"Allah, besides Whom there is no God worthy of worship the Eternal, the Self-subsistent by whom all creation subsisteth; slumber overtaketh Him not nor doth sleep:

which yields to no abrogation or distortion, and unto which no falsehood could find a way from whateever side. It is a missive from The Wise Lord to whom praise is due for the bounties He bestowed upon mankind."

(*Baidawy's Commentary.*)

CHAPTER : 2

In the preceding chapter, we have discussed the miraculous nature of the Qoran and advanced many proofs in testimony of its Divine origin. The discussion would not however be complete without a short survey of the subject matter of the Book itself; we, therefore, give in the following pages a few quotations from this Holy Book treating of diverse subjects and leave it to the reader to judge for himself the truth underlying them.

Unity of God

To begin with we quote what the Qoran says concerning the unity of God :

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » .

"Had there been in heavens and earth other gods besides Allah, they would both have surely fallen into disorder on account of the difference and contrariety between them; so glory be to Allah the Lord of Might and Power, who holdeth away over all things and is above what the unbelievers attribute unto Him.

"He shall not be questioned concerning what He doth but they shall be called to account for what they do."

(*Baidawy's Commentary.*)

«وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » .

"The unbelievers say that the Beneficient Allah hath begotten issue(1); glory be to Him for He is

---

(1) Khuzaha, an unbelieving tribe, alleged that angels are the daughters of God.

had been brought up under the least favourable circumstances in a backward state of civilisation and among a people who were steeped in a Stygian darkness of ignorance and superstitions. The effect of environmentc could not be overestimated. In the ordinary way, no mortal could have escaped the dire influence of such environment; but Muhammad's soul remained uncontaminated.

To the sound reason, this could only have been due to a benign influence from on high; and the Qoran which Muhammad brought to the world could be no other than the word of Allah revealed to him for the salvation of mankind.

This fact has been admitted by many European writers some of whom we quote below in recognition of their sense of fairness and equity.

Doctor Maurice, the French Oriantalist, writes in a laudatory article on the Qoran published in "La Presse Française Romane":

"We venture to say that the Qoran is the greatest book which eternal Providence has revealed to a prophet of mankind. It contained songs for their happiness far sweeter than those of the philosophers of Greece, and included praise to the Creator of the heavens and earth, and glorification of a beneficient God."

"The Qoran may well be regarded as an academy of science for scientists, a lexicon for etymologists, a grammar book for grammarians, a book of prosody for poets and an encyclopaedia of laws and legislation. Indeed no other book anterior to the Qoran could be held equal to a single chapter thereof."

In his book "Islam and Muhammad," De la Vinisette writes: "The Qoran is the basis on which devolve the affairs of this world and the hereafter. Jurisprudence, unity of God, principles of rights and retribution, social systems and codes of justice are all detailed in the Qoran. In other words, the Holy Qoran is the charter and constitution of the Moslem Faith which affords the most adequate means for securing the welfare of men in this world and ensuring their salvation in the next."

Many are the testimonies volunteered by European writers in favour of the Qoran and it would indeed be a lengthy process should we wish to quote such testimonies in detail.

In fine, there could be no more fitting description of this Holy Book than the Lord's saying concerning it:

«وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

"It is an incomparable Book

It is natural that every one can discuss a given subject only to the extent to which his knowledge permits, or to which contemporary sciences has reached.

This may perhaps be the significance of the Prophet's saying (Peace be on him) that "the Qoran has an exoteric as well as an esoteric meaning." It should be remembered, however, that both exoteric and esoteric interpretations point to the Lord's greatness, His oneness and the marvels of His creation, whatever the interpretation may be.

It is for this reason that people of all times have benefited in varying degrees by the Qoran. Indeed it is impossible for any one, no matter how learned or skilled he may be, to interpret completely the whole text of the Qoran. At most he could give the right interpretation in so far as the subject in which he excels, is concerned, but he would fail to do so as regards other subjects in which he dose not reach the same standard of excellence. The spiritualist will deal fully with it from the spiritualisticst and-point while the writer will appreciate and explain its fine points of style and eloquence and the physician will deal with its medical verses and disclose the secret of what was made lawful and unlawful in foods and drinks.

The jurist will interpret the laws and principles given therein while the moralist will deal successfully with the verses of conduct and soon. To every scientist or man of learning his allotted sphere.

The just critic will therefore reject the idea that this incomparable book is the effort of a genius or the work of a talented writer, for man can only excel in but one single art or subject particularly if the subject happens to be one of those which the Qoran has treated at length and with which the backward Arab people were unacquainted.

It is not conceivable that the Arabs should have inquired, at the time, into such subjects, much less that they should have excelled in them.

The uncivilised and backward state of the Arabs at that time is too well-known to dwell upon. The sphere of description in the Arab environment was necessarily a very limited one. Indeed the wild imagination of the Arab could only find expression in such themes as a large beautiful eye, a fierce raid, a deep thrust or a piled-up trencher, etc.

These themes are very far removed from the subjects discussed in the Qoran which include such themes as the oneness of the Creator, investing Him with attributes of greatness and perfection, preaching indifference to the world and urging to kind treatment and the purging of souls of the taints of wickedness, etc., etc.

The communicator of this Book

"Were men and djinn assemble to produce anything equal to the Qoran in eloquence, rhyme and superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anything like it. Nay, they could not do it even though they co-operate together for the purpose and support one another all they can".

(*Alucy's Commentary.*)

The Qoran has inculcated all manners of social behaviour and encompassed every human concern. It has set before us the last word conforming with sound reason, in matters of beliefs, in dealing with men, in conduct and in matters of private and public life. Indeed it left no single concern of man without dealing with it in full detail and prescribing the right means for the conduct thereof.

The culture of the Qoran is by far the best culture the world has ever known since the beginning of creation. Every good feature of the present-day civilisation had long been inculcated by Islam. Those features of the present day civilisation which were not taken from Islam are of indifferent value and Islam could offer higher and better codes in comparision thereto.

One may easily put this theory to the test and he is sure to find that it holds good in every instance he may choose to take.

It will be sufficient for the critic to read the history of Islam in its earlier days to be convinced of the truth of this assertion. The behaviour of the Moslems and their fair dealing at the time, leave no room for improvement; so much so that they were thus addressed in the Qoran :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس»

Ye are the greatest people that were ever raised for the benefit of mankind."

(*Alucy's Commentary.*)

I would like to say here that the translations of the Qoran into foreign languages should not be considered dependable nor be regarded in any way as a true representation of the Qoran. They fall ignominously short of the original, and at best, they are no more than a mere approximation thereto. The eloquence and style of the Qoran are inimitable and no translation could ever make the same impression on the reader's mind as the Qoran does. Even Arabic commentators on the Qoran have failed, in many instances, to give all probable meanings of verses. This may be due to the fact that the verses dealing for instance with medicine, astronomy and other subjects could only be rightly interpreted by those who are well-versed in these matters provided they are not swayed by commentators' opinions or by what they have heard from the learned people regarding the verses in question.

would be strongly impelled by both reason and conscience, not to regard the foretelling by the Prophet of future events as the only miracle testifying to the truth of his prophethood. One would be compelled to admit that the principles of civilisation expounded by him are no less than a social miracle, that the noble conduct which he preached is equally an ethical miracle and that the establishment of scientific facts, such as the fertilisation of plants by wind, or the classification of plants into male and female species, when these facts were only lately discovered, is no less than a scientific miracle.

The astronomic facts which were established by the Qoran and were taken by some to point to the rotation of the earth and other planets, are no less than an astronomic miracle.

The true history which he revealed, despite the fact that he was illiterate and never read a book or had a tutor is no less than a historical miracle.

Still more astounding is the following quotation from the Qoran about Zulqarnain(1) and the description of the regions which he invaded, a description which tallies with the geographical features of those regions :

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ»

"Until when Zulqarnain reached a westward point of the earth he found the sun goes down into black muddy waters."

(*Alucy's Commentary.*)

Geography gives the meaning of "Tundra" as muddy tracts of water which, in summer, covers the lower parts of the basins of the rivesr Ob, Yenisei and Lena in Siberia and are transformed in winter into a great ice plain. No other region in the world is known to answer this description except that one, norto be this magnitude which reaches such an extent that the sun appears to the onlooker to sink there, save that part of the world.

The eloquence and flawless style in which the Qoran was couched captivated the senses of the Arabs who were the acclaimed masters of eloquence and resulted in the conversion of many of them — a fact which is no less than a miracle itself.

The Qoran says in this connection :

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» .

(1) Zulqarnain a great prince of the pre-Christian era whose conquests extended far east and west. Commentators differ widely as to his proper identity but they all agree that he was a true believer.

We were not aware of the magnitude of the Sirius to which the Qoran refers in this verse until the natural sciences disclosed that the sun is a million and three hundred thousand times greater than the earth and that the Sirius is many times greater than the sun and that the light of the sun is but one fiftieth of the light of the Sirius. Owing, however, to the great distance which separates it from the earth, we cannot see it except with powerful telescopes.

Thus is it that the progress of science has provided an interpretation of the Qoran and incidentally a fresh proof of its Divine origin.

The miracles of medicine of the Qoran concerning the lawful and the forbidden, and the teachings concerning certain devotional rites followed by our forefathers, have been provided, thanks to the progress of medicine, with a clear and reasonable explanation.

No less amazing are the astronomic facts contained in the Qoran, facts which only expert astronomers could hope to know, but were necessarily beyond the ken of commentators.

Again, the establishment by the Qoran of a spirit world which was once regarded by the enemies of Islam as mythical and absurd, has now become, through the development of science, an established fact.

Nor do ethical, social, philosophic questions lack corroboration. Recent researches have fully borne out the concepts o' the Qoran.

From the ethical point of view the Qoran inculacates the noblest traits of conduct which are held to be the acme o human perfection.

As far as the : ocial side is concerned, the Qoran offers its followers the most efficient of social systems. These systems are only now being expounded by the philosophers of Europe, who strongly urge their people to adopt them — thus unconsciously coming nearer and nearer the True Faith.

It is a wonderful feature of Islam that there is not a single controversial question arising between sociologists as for instance the question of marriage and divorce, or between moralists as the question of independence and freedom of woman, or between economists as the question of usury, or between jurists or historians, but Islam has given the last word on the subject and the learned people, after long controversy and research, have in the end to revert to the ruling of Islam.

Should one take into consideration the era of the Prophet, the condition of his country and the people among whom he was sent, and compare this with the great mass of knowledge and information contained in the Qoran, one

«حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» .

"Until when the hosts of Solomon came to the Valley of Naml(1) , an ant felt them coming and hissed something which Solomon understood to be a warning to other ants to enter their dwellings lest he and his hosts unknowingly crush them."

(*Alucy's Commentary.*)

We are told, by entomologists, of the ingeneous and ordered ways of ants and of astounding feats which they perform, facts which interest every Moslem to thus find them established in his Holy Book long before science had revealed them to the world.

Another verse is :

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ»

"No kind of beast is there living on the surface of the earth in any region thereof, nor bird that flieth with its wings in any clime, but are communities like unto you."

(*Alucy's Commentary.*)

(1) The Valley of Naml is a valley abounding in ants and is situated between Jibrin and Asqalan in Syria.

Every community has necessarily a language which is used as a medium through which thoughts could be expressed; and so too have birds as Solomon says in the following verse :

«يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ»

"O men ! we have been given the knowledge of the significance of birds' voices as a miracle to urge you to believe."

(*Baidawy's Commentary.*)

Commentators despite their great precision and meritorious. efforts, could only establish such natural phenomena referred to in the Qoran as were commensurate with the knowledge and scientific standards of their times. They could only reveal very little of the mysteries contained in the Qoran. Their efforts were mainly directed to showing the flawless style and eloquence of the Book thinking that this constitutes its inimitability and provides the proof of its authenticity; yet the concelled secrets of the Qoran are even far greater and more stupendous than its beauty of diction. The following verse is an example :

«وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى»

"And that He (Allah) is the absolute Lord of the Sirius(1) worshipped in the days of yore to the exclusion of Allah."

(*Alucy's Commentary.*)

(1) *Vide* footnote No. 3 page 11.

MESSAGE OF PEACE
A TREATISE ON ISLAM

By

The late Prof. **Sheikh Youssof El - Degwy**

of Al-Azhar University and member ofthe Body of Grand Ulama

(**Translated From the Arabic**)

By

Aly Z. Husny M.A.

PART THREE

The Holy Qoran

« Continued »

CHAPTER 1

The Holy Qoran is the Word of Allah revealed to His Prophet Muhammad to proclaim unto the world to lead mankind to salvation. It is a standing miracle which will never cease to provide wonders to amaze the keenest intellects nor shall its wonders fade away as time goes by. Some books may become obsolete and cease to fit in with the modern ideals of civilisation or to touch, even incidentally, on new developments and discoveries — avoiding the treatment of social sciences and throwing no light upon modern philosophy.

Not so the Qoran ! Clearer and clearer it becomes with the development and progress of science, while new discoveries pile proof on proof in testimony of its Divine origin and truth, for thus saith The Lord :

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»

"We will shew the unbelievers Our signs in distant climes through the signal victories achieved by Islam and through the wonders wrought in the creation of man till it becomes manifest unto them that the Qoran is the truth."

(*Baidawy's Commentary.*)

Some commentators interpret certain verses of the Qoran as merely metaphorical. The following verse was so treated :

5. These depend on guidance from their Lord. These are the successful.

6. As for the disbelievers, whether thou warn them or thou warn them not it is all one for them; they believe not.

7. ALLAH hath sealed their hearing and their hearts, and on their eyes there is a covering. Theirs will be an awful doom.

8. And of mankind are some who say : We believe in Allah and the last Day, when they believe not.

9. They think to beguile ALLAH and those who believe and they beguile none save themselves, but they perceive not.

10. In their hearts is a disease, and Allah increaseth their disease. A painful doom is theirs becouse they lie.

11. And when it is said unto them: Make not mischief in the earth, they say we are peacemakers only.

12. Are not they indeed the mischief makers? But they perceive not.

13. And when it is said unto them: Believe as the people believe, they say : Shall we believe as the foolish believe ? Are not they indeed the foolish ? But they not.

14. And when they fall in with those who believe, they say : We believe; but when they go apart to their devils they declare : Lo ! We are with you; verily we did but mork.

The beginning of The Cow: "The second Surah uf The Glorious Qura'an"

إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم
أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٦) ختم الله
على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشوة ولهم عذاب عظيم (٧) ومن الناس
من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر
وما هم بمؤمنين (٨) يخدعون الله
والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم
وما يشعرون (٩) في قلوبهم مرض
فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم
بما كانوا يكذبون (١٠) وإذا قيل لهم
لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما
نحن مصلحون (١١) ألا إنهم هم
المفسدون ولكن لا يشعرون (١٢) وإذا
قيل لهم ءامنوا كما آمن الناس
قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا
إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٣)
وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا
خلوا إلى شيطينهم قالوا إنا معكم
إنما نحن مستهزءون (١٤)

صدق الله العظيم

أول سورة البقرة « مدنية »

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

The fiftieth Volume No. 7 Thul-Quidah / Thul-Hijjah 1398 A.H. — October / November 1978 A.D

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

The Meaning of The Glorious Qura'an

In the name of allah, the Bene-ficent, the merciful.

1. Alif. Lâm. Mîm.

2. This is the scripture where of there is no doubt, a guidance unto those who ward off (evil).

3. Who believe in the unseen, and establish worship, and spend of that we have bestowed upon them;

4. And who believe in that which is revealed unto thee (Muhammad) and that which was revealed before thee, and are certain of the Hereafter.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ
هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)